عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت
492

إدْوَرْد سعيد

أماكن الفكر

تأليف: تِمُثي بْرِنَن
ترجمة: محمد عصفور




المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب


Withe

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

إدْوَرْد سعيد

أماكن الفكر

تأليف: تِمُثي بْرِنَن
ترجمة: محمد عصفور



مارس 2022
492



ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ والتصحيح اللغوي

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 701 - 7

العنوان الأصلي للكتاب

Places of Mind

A Life of Edward Said

By

Timothy Brennan

طُبع من هذا الكتاب اثنان وثلاثون ألفا ومائتان وخمسون نسخة

رجب 1443 هـ ـ مارس 2022

المحتويات

تقديم

بقلم: محمد شاهين

كنتُ جالسا في المقعد الذي كان يجلس فيه الطيب صالح عندما كانت الحافلة تقلّنا من الفندق إلى المجلس الأعلى للثقافة لحضور جلسات مؤتمر الرواية في القاهرة. كان ذلك بُعيد رحيل إدورد سعيد. قلت للطيب: «كان صديقنا إدورد، يا طيب، أسطورة جميلة». أجاب الطيب: «وستزداد الأسطورة جمالا مع الأيام». قبل ذلك ذكر لي صديقي باتريك بارندر، الناقد البريطاني المعروف، أن «خارج المكان»، السيرة الذاتية التي كتبها إدورد سعيد هي خير سيرة ذاتية قرأها في حياته، وأنه يأمل في يوم من الأيام، أن يجد إدورد سعيد من يكتب سيرة له تثري السيرة الذاتية التي قدمها لنا صاحبها وتزيدها جمالا.

ويبدو أن أمر هذه السيرة الذي راود صديقي كان هاجسا لعقود مضت لدى تِمُثي

إن هوية سعيد تتحدى مكان الولادة والإقامة، هي هوية مرتحلة مكانا وزمانا

برنن، الذي طلع علينا هذه الأيام بهذه السيرة: أماكن الفكر: سيرة حياة ثقافية لإدورد سعيد. وهي باللغة التي كتبت بها: Places of Mind: An Intellectual Life of Edward Said. وبهذا تكون الأسطورة قد اكتست حلتها البهية، وتحققت الآمال المنشودة.

بداية من هو تِمُثي برنن؟ طالب مقرّب إلى أستاذه إدورد سعيد. بدأ مسيرته مع شيخه منذ العام 1980، حفظ السيرة بتفاصيلها، وحفظ الجميل بكل إخلاص، وحفظ درسه من شيخه وعن شيخه. كتب كثيرا عن أستاذه قبل السيرة الحالية. ومن يقرأ هذه السيرة يدرك أن كاتبها يستحق من الثناء أجزله؛ إذ إنه فعلا أوفى بالوعد والعهد الذي يبدو أنه قطعه على نفسه منذ أن وطئت قدماه جامعة كولمبيا وقابل أستاذه. وقد حظيت بالتعرف على تِمُثي عندما اتفقنا على أن نلتقي في بيروت قبل عدة سنوات. لجمع المادة حول السيرة الذاتية؛ كان لا بد من زيارة ميدانية لبيروت التي تشكل ركنا مهما في حياة إدورد سعيد، كما هو معروف، مثلما أن القاهرة تمثّل تجربة ثرية وفق ما تشير إليه تجلياتها في «خارج المكان». زار تِمُثي الأماكن التي كان إدورد يتردد عليها ويقيم فيها، خصوصا تلك التي كان يقيم فيها مع أسرة آل سعيد. كذلك لم يدخر جهدا بالاتصال بمن كانت لهم معرفة بالراحل. قدمته لصديق لي عرف إدورد عن قُرب هو أسعد خيرالله، أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية ورئيس تحرير مجلة «أبحاث» التي تصدرها الجامعة الأمريكية.

جلسنا ثلاثتنا في بهو الفندق. أسعد يروي وتِمُثي يسجل مباشرة ما يسمع على آلة الكمبيوتر وبسرعة مذهلة. عاد تِمُثي إلى أمريكا حيث يعمل أستاذا لدراسات ما بعد الاستعمار في جامعة مينيسوتا. استمر التواصل بيننا وكنت بين الحين والآخر أزوده بما تيسر لي من مادة يمكن أن تكون لها علاقة بالسيرة.

وقد أدهشني ما بذله تِمُثي من جهد خارق في إنجاز المهمة. أيقنت أنه لا بد من مشروع لاحق ينقل السيرة إلى العربية لتكون سهلة المنال بالنسبة إلى القارئ العربي خصوصا إن لم تتوافر لديه مهارة قراءة النص الإنجليزي الذي كتبت به أصلا. تواصلت مع سلسلة «عالم المعرفة»، ووجدت ترحيبا من القائمين عليها بالمشروع.

لن يتسع المجال هنا لعرض السيرة بالتفصيل. لكني سأوجز القول بشيء من الملاحظات العامة، علّها تقدم السيرة بشيء من الإيجاز يمكن أن يحث القارئ على الاطلاع على العمل كاملا.

لا تكاد تفرغ من قراءة السيرة، حتى تشعر بأنها رواية توثيقية أو فيلم وثائقي حصل فيه المخرج سلفا على أسرار شخصية الفيلم، وبلغة كونراد؛ الروائي الذي عاش إدورد سعيد معجبا به طوال حياته، تجعلنا هذه السيرة نتصور تِمُثي كأنه شريك سري secret sharer؛ عنوان أشهر القصص القصيرة التي كتبها كونراد والتي ظلت بنيتها تسري في عديد من كتاباته أو شخصيات رواياته. هل قرأ تِمُثي قصيدة إليُت بروفروك ليلتقط منها ثيمة التردد بين الخوف والتحدي، ليجعل مسيرة إدورد سعيد تسير في اتجاه مغاير تماما لاتّجاه بروفورك؟ إذ إن التحدي عند إدورد سعيد يغلب الخوف، وذلك عكس حالة بروفروك الذي يعيش في حالة ذعر من العالم المحيط به، على الرغم من وجود رغبة جامحة لديه في التعبير عن مشاعر لا تتحقق بل تظل تجربة تجريدية. وتؤكد السيرة في كل نواحيها وشواهدها شجاعة إدورد سعيد قولا وفعلا.

يخلص باتريك بارندر في سياق نقده لرواية العصر الفكتوري إلى أن الراوي أو الروائي أو الاثنين معا يحرصان على مد جسر التعاطف مع شخصية الرواية. هذه، على سبيل المثال لا الحصر، جورج إليُت(*) في روايتها المشهورة «مدلمارش» Middlemarch(**) لا تترك شخصية الرواية وشأنها بعد فشلها في الحياة، بل تسعى إلى تيسير وظيفة عمل خيري يدلّ على نجاحها لاحقا. أما تِمُثي فيذهب عكس ذلك تماما؛ إذ إنه يجعل إدورد سعيد هو القادر على مد يد العون والعطف إلى الغير، إلى الواقع؛ أي أن إدورد سعيد لم يواجه الواقع المعطوب بالانسحاب منه أو الانكماش، كما توضح الرواية التجريبية على يد فيرجينيا وولف، وجيمز جويس صاحب تيار الشعور بوصفه تقنية رئيسة في الرواية، بل بالتحدي الذي يؤكده تِمُثي بوصفه منهجا في حياته وفكره. من هنا يتضح لنا تقدير إدورد سعيد للناقد الهنغاري الشهير لوكاش، وقد قام تِمُثي بالتركيز على أهمية لوكاش في تجربة إدورد

(*) وهو اسمها المستعار، واسمها الحقيقي ماري آن إيفانز.[المحرر].

(**) وهو اسم قرية مُتخيلة دارت فيها أحداث الرواية.[المحرر].

سعيد، ومدى التأثير الخاص الذي تركه في إنجازه جملة وتفصيلا. أود أن أذكّر هنا، من قبيل التوضيح، بتصنيف لوكاش للواقعية في الرواية قديمها وحديثها؛ إذ إنه رأى أنها تقع في ثلاثة أبواب: الأول هو أن يتعامل الروائي مع الواقع الذي يعيشه مجتمعه كما هو، مشيرا إلى المثل الشائع: «عندما تكون في روما افعل ما يفعله أصحابها». وهذا، كما يشير لوكاش، ديدن الرواية التقليدية. أما الباب الثاني فهو أن ينسحب الروائي من الواقع وينكمش على نفسه خوفا من مواجهة الواقع المعطوب أو الرعب. ويمثل لذلك بالرواية التجريبية التي تبناها المحدثون من الروائيين أمثال كافكا ووولف وجويس. أما النظرة الثالثة للواقع وهي التي يتبناها لوكاش فهي أن يسمو الروائي فوق الإذعان إلى الواقع كما هو، وفوق هاجس تيار الشعور أيضا، متحديا هذين الشكلين من الواقع بمنظور يضع واقعهما في مستقبل إيجابي يحمل بذور التغيير والتقدم، أي أن لوكاش حثّ الروائي على أن يحمل معه الواقع المعطوب ويتدبر أمره بطريقة مغايرة لتلك الطريقة التي تعامل بها الروائيون التقليديون والمحدثون التجريبيون. وهذا الصنف الأخير هو الذي ينتمي إليه إدورد سعيد في طريقة تعامله مع الواقع من خلال منهج نقدي يتحدى عطب الواقع بجرأته المعهودة. وفي هذا السياق أود أن أضيف ملاحظة إلى ما جاء في عرض قامت به صحيفة «الغارديان» أخيرا للسيرة، مشيرة بشكل خاص إلى السبب الذي دعا إدورد سعيد إلى أن يُقصي من أجندته كتابةَ الرواية، وهو: خشية إدورد سعيد من أن تعجز الرواية عن الاضطلاع بالدور الإيجابي مقارنة بالفكر النقدي في مواجهة الواقع. الملاحظة هي أن إدورد سعيد ذكر لي في أغسطس 1983، أنه ينوي الانسحاب من هذا العالم ليكتب رواية. تصريحه هذا جاء مباشرة بعد غزو إسرائيل للبنان، ذلك الحدث الذي لا بد أنه ترك في نفسه أثرا سيئا لأسباب معروفة، في مقدمتها حالة الحصار التي كانت والدته تعيشها في أثناء الحرب، وصعوبة الحصول على فيزا تؤهلها للانضمام إلى ابنها وأسرتها في نيويورك. ذكر لي في السياق نفسه، ونحن نتناول طعام الغداء في مطعم يوناني مجاور لحرم جامعة كولمبيا، كيف أنه قضى أسبوعا في مؤتمر والحرب مشتعلة في لبنان؛ يرى هارولد بلوم صباح مساء، وكثيرا ما جلس معه على طاولة الطعام من دون أن يسأله لا عن أهله ولا عن والدته في لبنان. أردف قائلا: «هل يمكن أن أنسى مثل هذه التجربة اللاإنسانية؟!». ما أود

إضافته هنا إلى ما ورد من عرض اشتقّته صحيفة الغارديان من رواية تِمُثي برنن هو أن إدورد سعيد أحجم عن كتابة الرواية لاحقا؛ لأنه كان يخشى أن ينزلق إلى شكليْ الواقعية اللذين أقصاهما لوكاش؛ بمعنى أنه كان لا يريد لنفسه أن يعيش مخاوف المجتمع مثل كافكا، ولا يريد أن ينحصر إنجازه في أسلوب تيار الشعور الذي ينتج عن تقوقع الفرد بعيدا عن هموم واقع المجتمع الذي يعيش فيه؛ أي أنه اختار الشكل الثالث الأخير من تصور لوكاش للواقع والواقعية الذي يقضي بخلق منظور اجتماعي لواقع مستقبلي متخيل، وقد ظل هذا الاختيار نبراسا لإدورد سعيد في كتاباته بأشكالها المختلفة.

يقدم لنا تِمُثي معلمه في هذه السيرة باعتباره شخصية تحمل الواقع معها على رافعة واقع جديد، لتُحدِثَ فيه ما يُتَطَلَّبُ من تغييرٍ من دون أن تدع الواقعَ المعيش المصاب بالجمود يحمل الواقعَ الجديد فيُصاب الجديدُ بعدوى الجمود. بإيجاز، يقدم تِمُثي إدورد سعيد لنا باعتباره أكبر من الواقع بكثير. فهو على سبيل المثال لم يحضر إلى أمريكا بل أمريكا هي التي حضرت إليه. ويعني ذلك أنه استطاع بوجوده في أمريكا أن يحرك المياه الراكدة في المجتمع الأمريكي بدلا من أن يذوب فيما يُعرف بـ «وعاء الذوبان» melting pot، كناية عن أمريكا؛ المكان الذي يجمع الوافدين إليه ويصهرهم في بوتقته ليعيشوا متجانسين، بعد أن كانوا غير ذلك سابقا. ويشير تِمُثي في السيرة إلى اهتمام إدورد سعيد بصيغة الطباق contrapuntal؛ والتي تعني تلاقي الأصوات المختلفة وتقاطعها لتنتج في النهاية صوتا مشتركا من دون أن تلغي فردية تلك الأصوات، كما هي الحالة في الأوركسترا، أي أن الطباق عند إدورد سعيد، كما يبيّن تِمُثي، يحل محل التهجين hybridity الذي شاع في دراسات ما بعد الكولونيالية، القريب من مبدأ وعاء الذوبان؛ بمعنى أن بنية المجتمع عند إدورد سعيد طباقية أكثر منها تهجينية. ولمزيد من التوضيح، نستذكر كلماته التي نطق بها أمام إدارة الطيران عندما ألمت به الوعكة الصحية القاضية وهو في طريق عودته إلى نيويورك. كان غاضبا طبعا عندما طلبت منه تلك الإدارة أن يحضر إلى المطار قبل موعد إقلاع طائرته لاستجوابه حول ما بدا لهم في سجله من أمور غير مرغوب فيها بوصفه مواطنا أمريكيا. الكلمات هي - كما رصدها تمثي برنن: وُلدت في أمريكا وعشت فيها زهاء أربعة عقود. هذه كلمات لا تعني شيئا غيرَ أنها معلوماتية

بالنسبة إلى أي محقق، لكنها تعني الكثير لمن يعرف إدورد سعيد وتصوره للهوية التي يرى أن على المثقف أن يدعو إليها. لو قال في تحقيقه إنه أمريكي لكان قوله في مستوى التحقيق، والمحقق الذي لا يعبأ طبعا بصورة الهوية كما يراها المثقف، والتي يتخيلها إدورد سعيد تسمو فوق المكان والعرق والجنس والدين، وما إلى ذلك من صفات ضيِّقة تختزل حريتنا وديموقراطيتنا، بل وإنسانيتنا التي عاش إدورد سعيد ينادي بها. صورة المثقف هذه تجعلنا نستذكر تلك الصورة المقاربة لشخصية ستيفن في صورة الفنان في شبابه التي يقول فيها جويس على لسان شخصيته إنه من دبلن التي ولد فيها، وإن دبلن جزء من أيرلندا، وإن أيرلندا جزء من بريطانيا، وإن بريطانيا جزء من أوروبا، وإن أوروبا جزء من العالم، ونحن نعلم أن مصطلح العالم والعالمية worldlines مصطلح مهم في أدبيات إدورد سعيد.

إن كلمات إدورد سعيد سالفة الذكر خير توضيح لعنوان سيرته الذاتية التي كتبها: «خارج المكان»، وهي أيضا تنير لنا اختيار تِمُثي برنن لعبارة: «أماكن الفكر» ضمن عنوان الكتاب؛ أي أن هوية إدورد سعيد تتحدى مكان الولادة والإقامة، هي، كما يؤكد إدورد سعيد نفسه، هوية مرتحلة مكانا وزمانا مثل النظرية.

وعودة إلى ملاحظات تِمُثي برنن: أمريكا حضرت إلى إدورد سعيد، وليس هو الذي حضر إليها. تأتي تجليات هذه الملاحظة من خلال حضور المؤسسات الأمريكية على اختلافها إلى منصة إدورد سعيد الأكاديمية والثقافية والسياسية والاجتماعية لتكتسب أبعادا تتحدى محليتها. ففي الناحية الأكاديمية يعلق تِمُثي برنن على وجود إدورد سعيد في جامعة كولمبيا قائلا إن وجوده هو الذي جعل من جامعة كولمبيا جامعة مميزة من بين الجامعات الأمريكية، وجعلها تنتسب إلى عُصبة النخبة (Ivy-League) وليس العكس. ويستشهد تِمُثي برنن بقصة احتجاج بعض طلبة الجامعة على وجود إدورد سعيد في جامعتهم إثر حادثة بوابة فاطمة وإلقاء حجر من خلف السور الفاصل بين إسرائيل وحدود جنوب لبنان بمناسبة الاحتفال بالنصر (والقصة أخذت أبعادها في الصحافة العالمية). اجتمع رئيس الجامعة بالطلبة المحتجين وأخبرهم بداية بأنه لم يكن في برنامجه الاجتماع بهم لأمر سخيف كالذي حاولوا التعبير عنه، لكنه أراد أن يذكرهم أن الامتيازات التي يتمتعون بها بعد تخرجهم في جامعة كولمبيا تعود في أصلها إلى وجود ما ادعوا تسميته زورا وبهتانا

بـ «أستاذ الإرهاب»؛ إلى إدورد سعيد، أستاذ جامعة كولمبيا وأمثاله. أي أن سمعة الجامعة وشهرتها لا تأتيان من فراغ، بل من العاملين فيها الذين يعطونها من تميزهم ما يجعلها تكتسب هذه السمعة وتلك الشهرة. وهذا ما يعنيه تِمُثي برنن بلغته المجازية أن أمريكا حضرت إلى إدورد سعيد وليس العكس.

مثل هذا الموقف من إدورد سعيد يردده عديد من رجالات الفكر البارزين في الغرب بشكل خاص. هذا هو توني جودت يخص إدورد سعيد في كتابه: «إضاءات: تأملات حول ما فات استذكاره في القرن العشرين» (2008)، بمقالة تحت عنوان «إدورد سعيد: الشخصية العالمية التي اقتلعت من جذورها» Edward Said: The Rootless Cosmopolitan، هكذا تبدأ المقالة في فقرتها الأولى:

> «عندما توفّي إدورد سعيد في سبتمبر 2003، بعد صراع مع اللوكيميا دام عقدا من الزمن، كان، ربما، أشهر مفكّر عرفه العالم؛ فـ «الاستشراق»، وهو أكثر أعماله جدلا، حوّل استحواذ فكر الغرب وأدبه على الشرق، الذي شيّد في حد ذاته فرعا من فروع المعرفة الأكاديمية. وعلى الرغم من مرور ما يقرب من ربع قرن على ظهوره [الاستشراق] فإنه مازال يثير الحنق والاحترام والمحاكاة... ولو لم يقم مؤلف «الاستشراق» بأي شيء آخر، فإن عمله التدريسي، حصرا، بجامعة كولمبيا في نيويورك منذ أن تعيَّن فيها في العام 1963 إلى حين مماته، سيجعل منه أكثر شخصيات الفكر تأثيرا في أواخر القرن العشرين».

ويستطرد جودت بعد ذلك قائلا: «إن إنجازات إدورد سعيد تعدت «الاستشراق» ومهنة التعليم في جامعة كولمبيا».

وما يوجزه جودت هنا يفصله تِمُثي برنن في السيرة؛ إذ إنه يتناول كل عمل من أعمال إدورد سعيد بالتحليل والتدقيق والتمحيص ليخلص في النهاية إلى إخراج المشهد الثقافي في أمريكا من مخيلته إلى سياق الثقافة العالمية worldliness، وذلك من خلال ركيزة الأدب المقارن في جامعة كولمبيا التي شكلت متكأ رئيسا لبنية الطباق التي سار على نهجها؛ فالأدب المقارن يؤول في النهاية، كما يلاحظ إدورد سعيد نفسه، إلى الديموقراطية بسبب مكوناته التعددية التي تتفوق على أدبيات الأدب المحلي الأحادية، ولما فيها من سياقات متعددة؛ إذ يعتقد إدورد سعيد

أن المعنى في الأدب والموسيقى مثلا، لا يتكون من مجرد ما تقدمه اللغة مباشرة من تعبير ينحصر في قواعد اللغة ومخرجاتها من تدريبات لغوية ترتبط بالأعراق التراثية cannon بل بالسياقات المختلفة التي تظل مختفية حول المعنى الظاهري. ولتوضيح أهمية السياق في المعنى الكلي للعمل الأدبي؛ يقدم إدورد سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية» قراءة غير مسبوقة لرواية «مانسفيد بارك» Mansfield Park للروائية جين أوستن؛ إذ يشير إلى أن الإصلاحات التي قدمتها شخصية الرواية للنهوض بمتنزه مانسفيلد بارك تعود إلى ما جمعته الشخصية من مال من مستعمرة بريطانية؛ بمعنى أن الرواية لا بد أن تأخذ في الحسبان السياق الاستعماري لمشروع التمويل، حتى لو كان البُعد الاستعماري بعيدا عن مقصد الرواية والروائية في الأصل. والتوضيح الآخر من عالم الموسيقى، إذ يقدم إدورد سعيد قراءة غير مسبوقة لأوبرا عايدة ملاحظا أن قراءة الأوبرا المذكورة لا بد أن تشمل سياقها الاستعماري من دون المساس بقيمتها الجمالية الموسيقية، فلا خلاف على فيردي ولا على موسيقى الأوبرا في حد ذاتها، ولا على إخراجها، بل على إهداء عرضها إلى مكان يقع تحت الاستعمار مما يجعلها احتفالا استعماريا بامتياز. وقد أشار تِمُثي إلى عبارة مفصلية في التعامل مع إنجازات إدورد سعيد تعد بوصلة في قراءة أبعاده الفكرية وهي الجغرافيا المتخيلة imaginative geography.

وعندما نتأمل كتاب «الثقافة والإمبريالية»، نتبين أن إدورد سعيد وضع منذ البداية «الجغرافيا المتخيلة» مظلة للخطاب الاستعماري. إن الاقتباس الذي يقتطفه إدورد سعيد من «قلب الظلام»، ويضعه في صفحة مستقلة في بداية كتابه بوصفه إضاءة لاستراتيجية معقدة، يكشف لنا عن أهمية الجغرافيا بوصفها فضاء يَلِجُ منه الاستعمار. فالاقتباس الذي يبدأ بـ «إن الاستيلاء على الأرض» the conquest of the earth، يعني أن الفتوحات الاستعمارية لا تبدو أمرا سارّا عند تأملها. لكن ما يشفع لها، كما يمضي كونراد في القول، هو الفكرة التي تكمن وراءها والتي هي أشبه بتمثال نقيمه [نحن المستعمرون] ثم ننحني له [بإجلال]. في ضوء هذا الاقتباس يمكننا أن نشتق وصفا للاستعمار ومراحله كما يرد في تِمُثيل إدورد سعيد وتطبيقاته ضمن كتابه «الثقافة والإمبريالية»؛ وهو أن الاستعمار يبدأ بتخيل جغرافيا استيطانية خارجة عن حدود الزمان

والمكان، وعندما تصبح هذه الجغرافيا المتخيلة لسبب أو لآخر واقعا محسوسا، يدرك صاحبها المستعمِر أن واقع تلك الجغرافيا المتخيلة غير منطقي وغير مقنع، بل وغير سار، على الرغم من تشبثه بما يرد في المقتبس المذكور. يبادر حينئذٍ بفكرة متخيلة تدعمه ليحافظ على استمرار هيمنته التي طالما رغب في تحقيقها على أرض المحسوس، أرض الغير. والفكرة، كما هو معروف، هي تفوّق الرجل الأبيض الذي اعتقد أن الله منحه حق الوصاية على أرض غيره، أي أن هذه الوصاية أضحت عبئا لا بد من تحمله؛ بمعنى أن الاستعمار أضحى فكرة متجددة خارج المكان والزمان. هذا ما جعل إدورد سعيد يحث على إقصاء السابقة «ما بعد» (–post) التي تشكل جزءا من دراسات ما بعد الاستعمار، الحقل الذي حمل إدورد سعيد نفسُه الريادةَ في تقديمه والتعريف به، وذلك كي لا نظن أن الاستعمار قد وضع أوزاره وانتهى، وأننا في دراساتنا للموضوع نعود إلى الماضي كما يمكن أن تحدد لنا السابقة «ما بعد» (-post)، بمعنى أن الاستعمار في أصله استيطاني، أو لنقل استيطاني إمبريالي في كل زمان ومكان، هو فعل حوَّل صاحبه فكرة وهمية متخيلة إلى واقع محسوس من خلال الاستيلاء على جغرافية الغير لاحقا، التي كانت جغرافية وهمية سابقا.

***

ألقى إدورد سعيد محاضرة بجامعة أكسفورد في العام 1983 بعنوان «إسرائيل تجتاح لبنان» بيّن فيها ما خفي على العالم من وراء غزوها لبنان وهو تصدير أزمتها الداخلية المزمنة بوصفها نموذجا يتكرر بين الحين والآخر، ومن ثمة يُشتَّت انتباه البشرية ويُبْعَدُ عن الاعتقاد بأن إسرائيل تقوم على أرض ليست أرضها. مثل هذا النموذج هو الذي جعل العديد من أفراد الصفوة اليهودية يغادرون إسرائيل بعد هجرتهم إليها عندما اكتشفوا أن إسرائيل تتعدى في أجندتها «الجغرافيا الوهمية» إلى غزو جيرانها، ومن الأمثلة على ذلك ناعوم تشومسكي الذي قال لي شخصيا في مقابلة أجريتها معه ونُشرت في المجلة الثقافية إنه هجر الإقامة في الكيبوتس في إسرائيل عندما أدرك عن قربٍ انزلاقَ إسرائيل، على حد قوله، إلى السياسة العدوانية. وهذا ما فعله دانيال بارنباوم، عازف بيانو شهير وصديق إدورد سعيد، فهو لم يكتفِ بالهجرة من إسرائيل، بل خاطب أعضاء الكنيست منتقدا سياسة إسرائيل العدوانية

والتفرقة العنصرية التي تنتهجها، وذلك كما يظهر في فيديو بمناسبة الذكرى الأولى لرحيل إدورد سعيد. كذلك فعل توني جودت وآفي شلايم وغيرهما.

وفي هذا السياق، نستذكر ما قاله جودت في مقالة ظهرت في المؤلَّف نفسه المذكور أعلاه، وهو أن اليهود الذين هاجروا من أوروبا إلى فلسطين لم يهجروا أوروبا، بل جعلوها تهاجر معهم؛ بمعنى أن وجودهم في إسرائيل هو نوع من الهجرة الأوروبية إلى أرض الغير. أما آفي شلايم؛ أحد المؤرخين الإسرائيليين الجدد الذي هجر إسرائيل إلى بريطانيا والذي يقيم حاليا في أكسفورد بوصفه أستاذا في العلاقات الدولية، فقد علّق في إحدى المناسبات على إقدام إسرائيل على هدم بيوت الفلسطينيين بحجة أن أصحابها لم يحصلوا على رخصة بناء مسبقا. يقول شلايم في هذا العدد إن إسرائيل نسيت أو تناست أن بيوتها غير مرخصة أصلا. وعلّق على تصريح نتنياهو على التلفاز: «هذه أرضنا» بالقول: عليك أن تبز «الطابو».

يروى أن لجنة نوبل للسلام استبعدت ترشيح شاعر إسرائيل الكبير أميكاي للحصول على جائزتها لأنه قال شعره على أرض الغير، وينسجم هذا الموقف مع رؤية إدورد سعيد لأوبرا عايدة. كذلك يمكن أن ينسحب هذا على الأدب العبري. فروايات عاموس أوز، على سبيل المثال، والتي تمجد جهود أبطالها في تحويل الأرض الجدباء إلى أرض خضراء مقاربة بأرض الغير المجاورة، يجب ألّا تتوقف قراءتها عند ما فيها من جماليات، إن وجدت أصلا، بل لا بد أن تشمل عنصر إقامتها على أرض ليست أرضها، كما هي الحال في قراءة رواية جين أوستن وأوبرا عايدة.

***

وعودة إلى السيرة الثقافية لإدورد سعيد، أود أن أكرر ما ذكرته سابقا، وهو أن هذه الأسطر لن تفي المؤلف تِمُثي حقه، لكني أود أن أضيف أيضا ملاحظات عامة أخرى؛ فهذه الأسطر أولا، وقبل كل شيء، ألقت الضوء على سيرة إدورد سعيد «خارج المكان» وأضاءت كثيرا من الأماكن التي كانت بحاجة إلى مزيد من التأويل. وفي الوقت نفسه، فإنها ملأت الفراغ الذي كان إدورد سعيد ينوي ملءه بكتابة جزء ثانٍ من السيرة، وكأن تِمُثي برنن أخذ على عاتقه أن يشارك صاحب السيرة في كتابة ما حالت الظروف دون إنجازه عندما كان على قيد الحياة.

ولا يفوتني عند الحديث عن إنجاز هذا العمل المميز الذي اضطلع به تِمُثي برنن، والذي سيحظى بعروض في وسائل الإعلام الغربية على الأقل توفيه حقه، أن أنبه إلى الخاتمة التي كتبها تِمُثي بلغة قصيدة النثر!

اختار سعيد ألا يُدفن في فلسطين؛ فالعواطف هناك تستمر في تهديد وجوده داخل قبره؛ إذ اقترح أقرباء مريم أن يدفن في مقبرة صغيرة لجماعة الكويكر مغطاة بالأعشاب وسرب من الأشجار تقوم على تلة منحدرة في برمانا بلبنان. هناك يرقد شاهد بسيط من الرخام الأسود كتب عليه اسمه بالعربية والإنجليزية. ومع أن قبره يطل على فلسطين من ناحية الجنوب من خلال سلسلة جبال ترسو فوق بيروت حيث دور الشوير التي كان يطل على فلسطين من خلالها أيام شبابه. حتى هذا المكان الذي يرقد فيه مرتاحا ليس هو مكانه تماما.

أين مكانه إذن؟ هذا ما يفسر لنا معنى كلمات العنوان الذي وضعه تِمُثي بالإنجليزية وأبدع في ذلك الوصف: أماكن الفكر: حياة لإدورد سعيد .Places of Mind: A Life of Edward Said

كلمة المترجم

هذا الكتاب يدين بالكثير للصديق العزيز أ. د. محمد شاهين، سواء بما قدَّمه للمؤلِّف في أثناء كتابته أو ما قدَّمه للمترجم في أثناء ترجمته؛ ولذلك فإنني أضيف إلى تنويه المؤلِّف بفضله تنويه المترجم بهذا الفضل.

في الترجمة نفسها سيلاحظ القارئ حرص المترجم على الدقَّة في لفظ الأسماء والمصطلحات، وذلك باستعمال الأحرف الجديدة التي أضافتها المطابع العربية العصرية، وهي الأحرف «پ»، «چ»، «غ»، «ڤ» التي تقابل P، CH، G، V على التوالي، وقد كان بودّي استخدام الغين المثلَّثة، ولكن حاسوبي لم يساعدني فاضطررت إلى استخدام الغين العادية مقابل الـ G كما تلفظ في كلمة مثل go أو big، ولجأت في حالات قليلة إلى استخدام الحرف الفارسي «گ» لتمثيل هذا الصوت.

والشيء الثاني الذي أريد الإشارة إليه هو استخدام الحركات العربية (الفتحة والكسرة والضمة) لتمثيل أحرف العلَّة القصيرة في الأسماء والكلمات الأجنبية، فكتبت إدْوَرْد وليس إدوارد، وريغَن وليس ريغان، وتِمُثي بْرِنَن وليس تيموثي بريتان؛ وذلك لأن الحركات تمثِّل اللفظ الأصحّ، ولأنها جزء لا يتجزَّأ من نظام الكتابة العربية. ولا بدَّ لي في هذا الصدد من أن أشكر المؤلِّف نفسَه على تكرُّمه بتوضيح كيفية لفظ بعض الأسماء غير المألوفة لي باستعمال الرموز الصوتية أحيانا والمقاطع المتناظرة من كلمات مختلفة للإيضاح، لأن تهجئة الأسماء باللغة الإنكليزية لا تخضع لقواعد منطقية في كثير من الأحيان.

أما الإخراج النهائي لمخطوطة الكتاب باللغة العربية فيدين بالفضل الأكبر لحفيدتي المبدعة هديل حِمّو التي بذلت جهدا كبيرا لتقديم المخطوطة بأفضل صورة ممكنة.

محمد عصفور

تمهيد

يبقى إدْوَرْد و. سعيد بعد وفاته في العام 2003 بوقت طويل شريكا في أحاديث خيالية. ويكاد الذين عرفوه يفتقدون تلك الأحاديث بقدر ما يفتقدونه هو؛ بعينيه اللتين تفيضان عاطفة ولهيبا، عيني رجل واسع الأفق، حاضر البديهة، يثير الشعور بقدر من الرهبة، ولكنه كثيرا ما يكون مسلِّيا.

كنت قد وجدت نفسي في جامعة مدراس في جنوب الهند في ديسمبر من السنة التي توفِّي فيها، وكان سرطان الدم قد تمكَّن منه منذ أشهر قبل ذلك فقط. أما وقد غاب عنا فقد أخذت كلمات التأبين تترى. وعندما دُعيتُ إلى الحديث عن أعماله في بلد بعيد عن مسكنه في نيويورك توقَّعت أن أجد نفسي في قاعة صغيرة للندوات الدراسية، ولكنني أُخِذتُ إلى مكتب رئيس الجامعة لشرب الشاي، ووجدتُ أحد

جعل سعيد العلومَ الإنسانية علومًا لا يمكن تجاهلها، وعلومًا مقلقة أكثر لقادة الرأي في كلٍّ من أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط

مسؤولي القنصلية الأمريكية معه، وكان كلاهما على معرفة مدهشة بكتاباته، ومن ثمَّ إلى قاعة محاضرات تبلغ مساحتها مساحة قاعة رياضية في مدرسة ثانوية. كانت المقاعد زاهية بألوان المدرسة، والقاعة غاصَّة بالحركة الدائبة.

كانت المقاعد كلُّها مشغولة، وكان كثيرون واقفين على امتداد الجدران والنوافذ: من الطلبة، ومن أفراد المجتمع، ومن الزوّار من بلاد أخرى. وبدا أنهم جميعا راغبون في الحصول على شيء له صلة بالرجل. وقد ذكرت الروائية المصرية أهداف سويف أن الشباب كانوا يقتربون من سعيد لا لشيء إلا لكي يلمسوه[1]. وقبل أن أصل إلى المنصَّة، وقف صفّان من الطلبة الجالسين على المقاعد الخلفية فجأة (وكانت حركتهم هذه مخطَّطا لها فيما يبدو)، وأخذوا ينشدون مقطعا من كتاب «المعذَّبون في الأرض» Wretched of the Earth لفْرانتْس فانُن Frantz Fanon، كأنهم كانوا في اجتماع سياسي حاشد.

كان ضجيج المناسبة لا يتماشى مع الاستقبال المتباين الذي لقيه سعيد على مرّ السنين، والتمرُّد في تلك المناسبة، الذي بدا أنه يعبِّر عن شعور العالم الثالث، كان بعيدا إلى حدٍّ ما عن مواقف سعيد المتقلِّبة وعواطفه الموزَّعة. ففي العقد السابق، في الواقع، كان سعيد قد هدَّد بالاختفاء «في الصفحات الأولى» (كما قال الكاتب الأيرلندي فرِد هاليدي Fred Halliday عن الروائي سلمان رشدي Salman Rushdie) بعد أن أصبح أيقونة، على رغم أن هذا التهديد يتنافى مع تواضعه الذي عُرف به، ومع طبيعته الساعية إلى اللاأمان كما عَهِدَ نفسَه على الدوام.

لكن بدا أن حرارة المناسبة من الناحية الثانية تليق بالرجل الذي تمكَّن من تحويل عراك الشوارع إلى مناقشات راقية في قاعات المحاضرات الأجنبية. وبوجود سعيد حصل الفلسطينيون على ناطق متحضّر يتعمَّق في الأفكار التي تتلبَّس المركز(*)؛ ووجد من يدعمون إسرائيل نصّابهم الخبيث وإرهابيَّهم؛ ووجد دارسو الشرق عدوَّهم المسلَّح تسليحا جيدا بالمرآة التي تُريهم المنظر الخلفي؛ وشَكَرَه شتاتٌ من غير البيض لحمْلِ الشعلة التي تقود بزوغ ثقافتهم ذات الأصول المتعدِّدة. وحكَّ اليساريون العاملون في الجامعات رؤوسهم متسائلين عن الكيفية التي تمكَّن بها شخص له آراء كآرائه من

(*) يقسم الأوروبيون والأمريكيون العالم إلى مركز وأطراف، وهم يضعون أنفسهم في المركز بطبيعة الحال. [المترجم].

الحصول على المكافآت من أصحاب السلطة. لقد أصبح من الممكن – باختصار – تحويل سعيد إلى سلسلة من الشعارات التي تخلو من العمق وظلال المعاني.

غير أنه كان من الصعب ألا ينتبه الناس إلى تأثيره الكلّي، فإدْوَرْد سعيد، ذلك الناقد الفلسطيني الأمريكي، المفكِّر، الناشط، يعدُّ الآن واحدا من أهمِّ المفكِّرين الذين غيَّروا نمط التفكير في نصف القرن الأخير. هذا الشاعر والمنظِّر، الماهر في الإقناع والتخطيط الإستراتيجي، كان يألَف الكتابة للدوريات العلمية والمجلات الشعبية والصحف ذات التوزيع الواسع. ولاتزال كتبه ومقالاته تُقرأ بما يربو على ثلاثين لغة، ويحظى بالإعجاب في جميع أنحاء العالم. وقد اعتلى سعيد عددا كبيرا من حقول التأثير. فقد عمل مديرا لأوركسترا قائمار، وساردا لحكايات على التلفزيون القومي، وكاتبا محليا في صحف القاهرة، ومفاوضا من أجل الحقوق الفلسطينية في وزارة الخارجية الأمريكية، بل كان في بعض الأحيان ممثِّلا في أفلامٍ يؤدّي دوره هو في القصَّة. كانت سيرته العلمية أشبه بالرواية إلى أن وقع ضحية للمرض الذي أصاب دمه طوال العقد الأخير من عمره، يضيء حياته من الخلف ما يكتبه عن اقتراب نهايته هو ونهاية الحضارة الإنسانية.

ولد سعيد في العام 1935 في القدس لأبٍ يعمل في التجارة، وحُرم هو وعائلته من البيت والوطن بواسطة الانتداب البريطاني في العام 1948(*) والعمليات العسكرية التي تبعته. كان تلميذا لامعا وإن كان يفتقر إلى الانتظام، وكان مولعا بآلة البيانو منذ الصغر، وترعرع في صباه في القاهرة، ووصل إلى الولايات المتَّحدة في العام 1951، وهناك التحق فيما بعد بجامعة پرنْستن Princeton في المرحلة الجامعية الأولى ثم بجامعة هارڤرد في مرحلة الدكتوراه، قبل الالتحاق بهيئة التدريس في جامعة كولمبيا في العام 1963، حيث بقي معظم بقية حياته. وبحلول العام 1975 كانت سيرته المهنية في طريقها إلى الأسطورية، إذ أخذت تنهال عليه الجوائز من العالم الأكاديمي على شكل محاضرات مدعومة، وشهادات فخرية، بعد أن افتتح حقولا للبحث غيَّرت ملامح الحياة الجامعية.

لم يقتصر نشاطه السياسي على تأليف الكتب. لربما كانت الكتابة هي الجانب الأبرز من هذا النشاط، غير أن سعيد كان أيضا ذا مهارات عالية في التخطيط

(*) هكذا يقول المؤلِّف، وهو خطأ تاريخي واضح. [المترجم].

السياسي، وأخذ يدعو إلى اتخاذ مواقف سياسية لم تكن تحظى بالشعبية في البداية، ولكنها صارت تُتَّبع فيما بعد من جانب حركاتٍ تمارس عملها على الأرض. وأقام تحالفات غير متوقَّعة، وحجز أمكنة مؤسساتية جديدة، وأقلق الدبلوماسيين، وقدَّم المشورة لأعضاء الكونغرس، وصار ناقدا قاسيا لمؤسسات الأخبار الأمريكية، وشخصية بارزة في مجال وسائل الإعلام. وما أكثر ما أربك أعضاء الفرق الاستشارية المرَّة تلو الأخرى في برامج الأخبار المسائية في أثناء حُكم ريغَن وبُش، وهو حُكم لم يكن يرحِّب به، وجعل الجامعة مكانا أكثر إثارة، وصار أساتذة الجامعات جزءا من الحوار الحيوي الدائر، وعمل أكثر من أيّ شخص آخر على نقل العلوم الإنسانية من الجامعة إلى مركز الخريطة السياسية.

لم يقتصر الأمر على أنه تمكَّن، إلى جانب نُوَم چومْسكي Noam Chomsky وعدد قليل آخر، من تمزيق الختم «سرِّيّ» من القصة الرئيسة التي مكانها صفحة الغلاف، بل فعل ذلك بشخصيَّة اتَّسمت بنفاد الصبر وبأنها تعاني وجودَها في موقف الضعف، بإظهار الغضب مرَّة والرومانسية مرَّة أخرى، وجعل القضايا المكثَّفة الصعبة أحيانا مصدرا للفكاهة. وقد فتح الأبواب للآخرين باحتلاله مكانا بارزا على مسرح الأحداث بمواقف كانت قبل سنوات قليلة مضت بعيدة المنال. وقد عبَّر الباحث الإيراني حامد دباشي Hamid Dabashi عن ذلك بقوله: «المحارب الجبّار، صلاحُ دينِ حُجَجِنا ضدَّ خصومنا المجانين، مصدرُ حكمتِنا في خضمِّ اليأس»[2]. وعندما عُيِّن في أوَّل وظيفة جامعية شغلها كان بوسع المدافعين عن إسرائيل أن يتجاهلوا القضية الفلسطينية تجاهلا تاما، ولكنه بعد عقد من الزمان كان قد ابتكر مفردات جديدة، وقائمة جديدة بأسماء الأبطال. وجعل بمفرده تقريبا الموقف الصهيوني موقفا يخلو من القداسة، وصار انتقاده محترما، بل صار موقفا ذا شعبية لدى بعض الدوائر.

غير أن الأنشطة الروتينية في الحياة الجامعية لم تَرُق لسعيد في كلِّ الحالات على رغم أنه طبعها بطابعه. فبصفته تذكيرا بنمط سابق من شخصية المفكِّر – الواسع الاطِّلاع، والراغب في معرفة ما لا يَعرف – لم يشعر بالانجذاب إلى «الموضات» الأكاديمية مثل الخيال العلمي الذي يصوِّر المجتمعات التي تسيطر عليها الحواسيب Cyperpunk أو نظرية الأثر Affect Theory، أو ما بعد الإنسانية

Posthumanism، بل كان أقرب إلى أن يكون المترجم المعنيَّ بالقديم، والعام، والحسن، وهو ما عبَّر عنه بهذه الكلمات بالذات.

وعلى الرغم من كلِّ ما كتبه عن النفي والمنفى فإنه كان رجلا عميق الجذور – هو في فلسطين في خياله، وفي نيويورك فعليّا، متيَّما دائما «بإيقاعاتها المضطربة ذات الحيوية الدافقة التي لا تستقرّ، بل تقاوم، وتلتهم الآخرين». وقد عاش فيها أطول فترات حياته، ولم يتركها على رغم الفرص الكثيرة التي أتيحت له لتركها[3]. المكان ومكان الفكر كانا لذلك على طرفي نقيض عنده. ولئن كان هو وچومسكي وحنَّة أَرِنْت Hannah Arendt وسوزان سونتاغ Susan Sontag أشهر المفكِّرين المعروفين لدى الجمهور الأمريكي في فترة ما بعد الحرب، فقد كان الوحيد من بينهم الذي كسب قوت يومه من تدريس الأدب.

كانت تلك الحقيقة تسعده، فالأدب في فكره ليس مجرَّد مهنة يحبُّها، بل هو الأساس الذي تقوم عليه أفكاره السياسية، والسرُّ الكامن وراء حبِّ الناس له. وقد استلهم مصادر غير معتادة تشمل النصوص الموسيقية والمخطوطات العربية القروسطية، مثلما استلهم كتابات المحللين الصحافيين البريطانيين والشعراء الباكستانيين الاشتراكيين، فتمكَّن من وضع الإنسانيّات في مركز الحياة العامَّة، وعمل على إحياء الاهتمام بـ «الكتب العظيمة» بالحماس الذي يأتي مع الحرب والثورة المضادَّة للاستعمار. وكان ذلك في رأيه هو إسهامه الأكبر، أكثر مما تمكَّن من تحقيقه للقضية الفلسطينية، وليس هنالك في القرن العشرين مَن تقدَّم بحجَّة أقوى مما قدَّمه هو عن أن الخلافات على معنى النصوص الدنيوية، وليس الدينية فقط، تؤثِّر في مصائر الحقوق والأوطان.

***

إن الذين عرفوا إدْوَرْد سعيد من قراءة كتبه فقط لم يروا كلَّ ما فيه: لم يروا صِبْيانيَّته بلا شكّ، مثلما لم يروا ولاءه العميق لأصدقائه، وتسامح هؤلاء مع قدر من السلوك السيئ: الاعتداد بالنفس، والنزق الذي يظهر أحيانا، والحاجة المستمرة إلى الحبِّ والدعم المعنوي. وقد رأى فيه حتى بعض المعجبين به، كالمؤرِّخ توني جودْتْ Judt مثلا، شخصا هو بالدرجة الأولى غاضب، على رغم أن تلك النظرة تجاهلت اللطف الذي رآه فيه كثيرون منّا عندما كان يتبادل الحديث مع سائق

التاكسي، أو عندما كان يجلس مستغرقا في مشاهدة رجال الشرطة الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة في برنامج «القانون والنظام» Law & Order، ويتميَّزون بالصلابة والواقعية. وقد قال صديق له منذ عهد الطفولة زاره في شقَّته في وقتٍ متأخِّر من حياته إن أعداءه لو كان بإمكانهم أن يروه باللطف الذي أبداه نحو زوجته وهو يقدِّم لها الشاي لما نبذوه بوصفه رجلا عنيدا يحبُّ الجدال[4].

التحقتُ بكلِّيَّة الدراسات العليا في جامعة كولمبيا في العام 1980، ولم أكن أعرف الكثير عن سعيد وسمعته المتنامية. وعندما ذهبت لمقابلته في مكتبه على أمل القبول في الندوة الدراسية التي تتعلَّق بالماركسية البريطانية في فترة ما بعد الحرب لم يوبِّخني على جرأتي، بل بدا أنه يستمتع بالتعامل مع شخص لم يتعلَّم بعد كيف يبدي الاحترام المعهود، وقال لي فيما بعد، أي بعد أن تقدَّمت بمشروع بحثي عن الثورة الثقافية للحصول على زمالة داخلية: «يا عزيزي، هذا عصر ريغن. لا يمكنك أن تضع الأمور على هذا النحو». ولما كنت قد جئت إلى كلية الدراسات العليا بعد أن قضيت ثلاث سنوات من التنظيم السياسي في المجتمعات السوداء واللاتينية فقد سررتُ وفوجئتُ قليلا لأنه كان يشجِّعني على رواية القصص عن حياة «الشارع». ومن المفارقات أن هذا الرجل القادم من عالم المدارس التحضيرية، والمنسجم تمام الانسجام مع ذلك العالم على نحوٍ لم يَرُق لي، قد أصبح ملجئي العقلي من الاستعلاء المرتبط بالساحل الشرقي في كولمبيا. وبعد سنوات قليلة، وكنت قد اندمجت في البرنامج، رأيته يسير في طريق الكلية بعد أن نشرتُ مقالة افتتاحية في جريدة الكلية عن رونَلْد ريغان بعنوان «تكوين المجرم» The Making of a Criminal. وعندما التقت عينُه بعيني ابتسم ابتسامة تآمرية ومرَّ بي من دون أن ينطق كلمة رافعا قبضة يده إلى الأعلى.

وقد وجدنا نفسينا في يوم من الأيام بُعيد صدور كتابه «العالَم، والنص، والناقد» The World, the Text, and the Critic في العام 1983 نسير باتِّجاه مكتبة بتلر Butler Library عبر الحرم الجامعي. وأبديت إعجابي بالإنجاز البلاغي الذي حقَّقه في ذلك الكتاب السليط. كان جوابه التقليل من قيمة ما أنجزه. وقال إن واجبنا هو قبل كلِّ شيء أن يكون لدينا شيء نقوله بطبيعة الحال، ولكن من المهم ألا نقع فريسة الرغبة الإستطيقية التي تضع الناقد في دور الفنان. كانت تلك الرغبة في تلك

الفترة تؤكِّد حضورها في الدوائر النظرية. قال بلهجة تأكيدية: «أنا لست فنانا». وكان كلامه يتضمَّن القول إن قصارى ما يطمح له الناقد هو أن يكتب ليُفهم، وهذا فيه من الفن ما يكفي.

كان سعيد يعاني بعض نقاط الضعف على نحو يثير الاستغراب أحيانا. ففي مناسبة غداء جمعتني وإيّاه والروائي إلياس خوري (كان هذان المسيحيّان العربيّان يحبّان أن يمزحا بالقول إنهما «مُسلِمان شَرَفيّان») عبَّر عن شعورٍ بالألم وهو يروي كيف أن سوزان سونتاغ قد حنثت بوعدها أن تشاركه في مشروع يعملان عليه في فرنسا بعد أن حصلت على جائزة كبيرة من إسرائيل (كان هو ونادين غوردِمر Nadine Gordimer قد رجواها كلٌّ على حدة أن تعتذر عن عدم قبول الجائزة، ولكنهما فشلا في مسعاهما)[5]. وبما أنه كان يتساءل عما كان عليه أن يفعل فإنني تسرَّعت واقترحت أن يغسل يديه منها علنا. فابتسم ابتسامة خفية وحدَّق في عيني وقال: «ألم تدرك أنها تعبّر عن استهانتها بي؟».

كان سعيد خليطا يصعب التنبُّؤ بأفعاله، وكان أصدقاؤه يمازحونه أحيانا بوصفهم إيّاه بأنه مزيج من «إدواردو» (وهو مفكِّر إيطالي من عصر النهضة) و«أبو وديع» وهو اسم يتبع عادة الثوّار الفلسطينيين في اتِّخاذ أسماء مستعارة بدلا من الأسماء الحقيقية[6]. ومما لا يكاد يصدَّق أن سجلَّه لدى مكتب التحقيقات الفدرالي [FBI] يشير إليه بـ «إدوردو سعيد، ويعرف أيضا باسم إد سعيد» – كأن ذلك المكتب كان تحت الانطباع السائد في العام 1979، قبيل حرب الكونترا، بأن الإرهابي يحتمل أن يتَّخذ اسما لاتينيّا[7]. غير أن التهمة تبدَّدت تحت المراقبة المستمرَّة. والحقيقة أن سجلّات مكتب التحقيقات تكشف أن المكتب بحث مطوَّلا في كتبه ومقالاته في صحيفة «نيويورك تايمز»، وأن مخبري المكتب قد زوَّدوا رؤساءهم في واشنطن بملخَّصات صحيحة. وفي النهاية تركت تقاريرهم انطباعا مؤدّاه أن أعماله تثير الاهتمام («كاتب متمرِّس»، ذو «ابتسامة جذّابة وصوت ناعم»، «ترجمت أعماله إلى ثماني لغات»)، وانتهى الأمر بأن أنتجوا عملا أشبه بعمل التلاميذ المتردّدين[8].

وعلى الرغم من أن مزاجه يسوء عندما يُنتَقَد ويسارع إلى الردّ، فإنه يتحمَّل المزاح أحيانا. فقد كتب له صديقه العزيز الناشط والباحث الباكستاني إقبال أحمد قبل أشهر من وفاته رسالة تعود إلى أبريل من العام 1999 للسخرية من الصورة

الرومانسية التي تحيط به. وفيما كان يشكر سعيد على مقالة كان قد كتبها عن الحرب التي دارت في كوسوڤو للصحيفة الباكستانية Dawn (الفجر)، داعبه فيها مداعبة لا يجرؤ عليها إلا صديق، وأنهى رسالته بلهجة المستعطف: «يا ابن فلسطين، يا قمرا يطلُّ على القدس، يا نور الساميّين، يا ملجأ العالم، يا ظلَّ الله على الأرض... حفنة متواضعة من التراب تقدِّم لك التحيات من تحت قدميك المجيدتين اللابستين ما هو غالي الثمن، ويرحِّب بعودتك إلى أرض القنابل والقذائف والحليب البارد والعسل المعلَّب»[9]. سرَّته تلك المزحة وجعلته، بتعبير صديق آخر من أصدقائه هو الصحافي والمعلِّق السياسي ألكسندر كوكبرن Alexander Cockburn، «ينزل من قاعدة تمثال الشهيد ليضحك على نفسه»[10].

تذكِّرنا مبالغات أحمد بأساليب التقدير التي قوبل بها سعيد على مرّ السنين، والاستقبال الفائق الذي اعتاد عليه في حياته. فقد كان محمد حسنين هيكل، الصحافي البارز، واليد اليمنى للرئيس المصري جمال عبدالناصر، قد نظر إلى صورة مشهورة من صور سعيد وقال: «يبدو وجهه الذي يملأه الألم النبيل شبيها بالصور العظيمة التي تصوِّر آلام المسيح»[11]. ويشبه هذا النوعَ من المبالغات ما قاله الروائي السوداني الكبير الطيِّب صالح ردّا على قول صديق من أصدقائه: «إدْوَرْد رواية عظيمة وجميلة»، إذ قال صالح: «ستنمو مع الأيّام، وستكون أجمل»[12].

ولكن إلى متى تبقى الهالة على حالها؟ لقد عامل العصرُ الرقمي هذا الكاتب الذي يكتب بقلم الحبر معاملة مدهشة في لطفها. والشابكة (الإنترنت) مملوءة بالمواقع والمدونات blogs وأفلام الڤيديو التي تروي حياة هذا المبعوث الحديث من عالم الأدب في نيويورك الذي لايزال يتحدَّث للشباب بعد وفاته على رغم أن مؤهلاته لا تَعِدُ بذلك. فالقديم خدم الجديد برغم مبالغات القديم في الهندام، وبذلاته من طراز بيربيري وساعاته الرولكس، وهو لم يكن قط آخر من يستعمل ما أنتجته ميلان، ولا استعمل المنتجات الرديئة التي عرف باستعمالها الجنتلمان الإنگليزي، وكان يميل إلى بذلات شركة ساڤيل رو Saville Row أكثر من بذلات شركة بارنيز Barneys في كل حال. كلُّ صديق من أصدقائه لديه قصة واحدة على الأقل عن هوس سعيد بالملابس («هل يمكنك أن تتخيَّل رجلا يمنعه انشغاله عن مراجعة خيّاطه؟») أو عن إلحاحه على أصدقائه في لندن لاصطحابه إلى شارع جيرمن لشراء

الأحذية وإلا «فلن يمكنني أن أُرى بصحبتك»[13]، وقد كان من رأي بعضهم أن انتماءه لليسار يتناقض مع ملابسه الثمينة، ولكن الحقيقة غابت عنهم، فصورتُه، بما فيها من جاكيتات التويد وكل أمور الهندام الأخرى، لم تمنع الناس من «تنزيل» صورته باستمرار من الشابكة وتعديلها بالفوتوشوب، بحيث يبدو مرتديا تي شيرت الانتفاضة وأنه يشارك في مظاهرات تجري من لندن إلى لاغوس.

وقد اعترف أعداؤه أنفسهم، من أمثال جوشوا موراڤِچك Joshua Muravchik، بقدرة سعيد على البقاء في عالم الأفكار، وعلى استمراريته بعد التغيُّرات التي تحدث مع تعاقب الأجيال. ففي كتاب «تحويل داود إلى جالوت: كيف تحوَّل العالم ضدَّ إسرائيل» Making David into Goliath: How the World Turned Against Israel (2014) ذكر المؤلِّف أن أكثر من أربعين كتابا كتبت عنه، وأن الجامعات في جميع أنحاء العالم تدرِّس موادَّ مخصَّصة لكتاباته، لكن ليس من بينها كتاب يرسم صورة كاملة لشخصيَّتيه العربية والأمريكية وهما تتَّحدان، أو يفسِّر تداخل كتابات سعيد عن فلسطين، والموسيقى، ومفكِّري المجتمع، والأدب، ووسائل الإعلام. كلُّ مجالاته الفكرية مهمة، لاسيَّما عندما تُربَط معا، وذلك على رغم الحقيقة القائلة إن كثيرا من قرّائه يعرفون بعضها ويجهلون البقية.

وعلى مستوى آخر، جعل سعيد العلوم الإنسانية علوما لا يمكن تجاهلها، وعلوما مقلقة أكثر لقادة الرأي في كلٍّ من أمريكا وأوروبا والشرق الأوسط. فهو لم يقف عند حدٍّ فضح الفظائع التي ارتكبتها الإمبراطوريات الأوروبية والأمريكية، وهو ما يرى بعضهم أنه هدفه الوحيد، بل أحيا معيارا أخلاقيّا قديما يستند إلى الالتزام بما تقوله الكتب في مكانها وزمانها، وهذا هو ما كان يدعو إليه طوال حياته، وهو أن ما حدث في الماضي لم يعد فهمه خارج إمكانياتنا، بل يمكن استعادته من خلال عملية التفسير. وقد أوجد على هذا المسار بديلا جذّابا لما يقوله القائمون على وسائل الإعلام ومفكِّرو وزارة الخارجية الذين كانوا (على عكسه) «يمجِّدون الأقوياء» كما كان يحبُّ أن يقول.

وعلى رغم أنه مؤلِّفٌ له شعبيته (قال مرَّة إنه يكسب من كتبه ومحاضراته أكثر من راتبه)، فقد كتب سعيد عن مسائل فنية في اللسانيّات، والفلسفة، والنظرية

الاجتماعية بثلاث لغات. ونحن كلُّنا على علم بالنظرة الساخرة التي تبدو ملامحها على الأوجه عندما تذكر كلمة «أكاديمي»، أما سعيد، بصفته شخصية تلفزيونية ومؤلِّفا لكتبٍ تحقِّق مبيعات استثنائية، فقد كان فخورا بكونه أكاديميّا، ودافع عن الجامعة بصفتها ملجأ من السياسات الفجَّة، ومكانا للتدريب على الفكر الحرّ الذي تنهض عليه. ولئن كانت كلمة scholarly(*) تعني على النحو نفسه شيئا خارج الموضوع أو شيئا غير مفهوم للصحافيين الذين يكتبون عن أولئك الذين لم ينجحوا في الجامعات وصاروا يكتبون عن فاشلي وادي السليكون، ويعدّونهم عباقرة، ويفترضون أن شعراء ڤرمونت حكماء، فإن هذه المشاعر بعيدة كلَّ البعد عن العالم الذي حاول سعيد أن يوجِده: فالنظريات المتعلِّقة باللغة والثقافة والصورة لم تكن مشحونة بالمعنى عنده فقط، بل كانت جميلة بحدِّ ذاتها، وأثبت باستمرار أنها ذات آثار مادِّيَّة عميقة.

لقد تمكَّن سعيد بقوّة شخصيته وكل شيء آخر لديه من جعل النقد الأدبي والاجتماعي شيئا يريد كلُّ طالبٍ مثابر من الجيل القادم أن يفعله وأن يمتلكه. ولقد نلاحظ حتى ما هو شائع في هذه الأيام عن العصر التالي للجيل الناقد (بمن فيهم من ينتمون إلى المؤسسة الأكاديمية) وكأنه انتقام النظام القائم منه ومن العالم الذي أوجده بتلك الدرجة من الفعالية. ولكنني أشكُّ في أن هذا الانتقام سينجح تماما. والسبب هو أن سعيد أبقى الروح النقدية حيَّة ضدَّ قوى متعدِّدة على مدى ثلاثة عقود بدا أنها لا تعد بالكثير، وأعطاها شكلها الأدفأ والألطف فضلا عن شكلها الأشدّ غضبا وصدقا.

(*) التي تدلّ على الدقَّة والإحاطة. [المترجم].

الشرنقة

أبتاه العزيز، أمّاه العزيزة،

إخوتي وأخواتي في المسيح ليسوا قربي

وهو، سلامي ووداعي، سيف وكفاح.

من قصيدة «أن أبدو الغريب»
للشاعر جِرَرْد مانْلي هوپْكِنْز(*)

ولد إدْوَرْد وِلْيَم سعيد(**) عصر الأول من شهر نوفمبر، من العام 1935، وكانت الشمس مشرقة والجوُّ لطيفا في القدس، واستقبلته

(*) Gerard Manley Hopkins, “To seem stranger…”.

(**) قد لا يعرف بعض القرّاء أن نظام التسمية لدى الأقوام الأخرى مختلف عما هو متَّبع لدينا؛ فالوليد قد يُعطى عددا من الأسماء تكون لها دلالة لدى أهل الوليد، وليس اسما واحدا كما نفعل نحن في العادة. «إدْورْد» هنا أعطيَ اسمين هما «إدْورْد وليم» قبل الوصول إلى اسم أبيه «وديع» واسم العائلة «سعيد». ومن الواضح أن هذا تقليد لنظام التسمية في الإنكليزية. [المترجم].

بدا له أن تفادي الإساءة بلباقة شيء مناسب بالنظر إلى أن كثيرا من مواقفه ذات طابع خلافي

أغاني المدام بير، القابلة اليهودية. وكانت هذه القابلة قد استُدعيت لتوليد الابن البكر للعائلة بناء على اقتراح نبيهة، أخت وديع، وذلك في بيت العائلة الذي كانوا يسكنونه في تلك المدينة. وقد فتح سعيد عينيه للمرّة الأولى في هذا العالم الباذخ؛ في بيت مدهش ببهائه ومحيطه، في حيٍّ لايزال غير مكتظّ في القدس الغربية يعرف باسم الطالبية، تحيطه الأراضي المنبسطة والحدائق. وقد ردَّدت القابلة في أثناء توليده بالعبرانية أحيانا وبالعربية في أحيان أخرى عبارة «يا سيِّدنا نوح/ خلِّص روح من روح» – ربما لأن الطفل الوليد كان أنحف من المعتاد، وكان من الضروري أن يفحصه طبيب أطفال، وهو الدكتور غرونفلدر، وهو طبيب يهودي ألماني[1].

لماذا اختِير اسم «إدْوَرْد»؟ ستكتب والدته هلدا موسى سعيد Hilda Musa Said(*) في دفتر مذكراتها: «لا تسألني عن السبب. كلانا أحبَّ الاسم. كان هناك كلام كثير عن إدْوَرْد، أمير ويلز، فاخترنا اسمه، لكن إدْوَرْد كرهه عندما كبر، وكان يفضِّل اسما عربيّا»[2].

تجمَّع أفراد العائلة الممتدَّة حول غرفة التوليد، حيث اتُّخذت كل الاحتياطات الممكنة لجعل هلدا تنسى تجربتها المريرة وهي في التاسعة عشرة في جناحٍ لقسم التوليد قبل سنة ونصف السنة في مستشفى يوناني مجهَّز بأحدث الأجهزة في القاهرة. ففي تلك المناسبة أمر طبيب نمساوي مشهور - قيل إنه كان سكرانَ آنذاك - بإعطاء الحامل من المسكِّنات أكثر من اللازم في أثناء الطلق، فأدّى ذلك إلى أن يولد الطفل ميِّتا. وقد سببت تلك الحادثة حزنا شديدا لكلا الأبوين في السنوات اللاحقة، ولعلها تفسِّر شدَّة تعلُّق أمّ إدْوَرْد بابنها الصغير. كذلك سبَّبت تلك الحادثة شعورا بالأسى ظل يرافق وديع أيضا. وكتبت هلدا تقول إن زوجها كان يوجعه ألا يكون قد خلَّف سوى ابن واحد. «فقد ظلَّ يحدوه الأمل أن يُرزق بابنٍ ثانٍ»[3]. وقد ذكر سعيد فيما بعد أن سعادة أمه بوجوده كانت تتصل بحقيقة كونها خلَّفت طفلا قبله لم تُكتب له الحياة. وقد ظلّ شعور الأبوين بالذنب يلازمهما. فقد كان وديع من الحرص على أن يولد بكره ولادة سليمة أنه أصرَّ على استخدام آخر ما وصلته التكنولوجيا الطبية، وأحدث مستشفى، والطبيب الحاصل على أفضل تعليم غربي. وعندما انتهى

(*) جاء الاسم «سعيد» بحكم زواجها من والد إدْورْد سعيد، وهذا تقليد آخر لنظام التسمية في الإنگليزية. [المترجم].

كل ذلك نهاية كارثية صمم الوالدان على أن يعتمدا على الطرق التقليدية، وعلى الطمأنينة التي تتيحها أرض الوطن، وعلى اختيار القدس الريفية على القاهرة ذات الصفة العالمية؛ وهذا النمط هو الذي اتَّبعه الوالدان في حالة الأخت جين Jean، وأدوا الحج للقدس ليضمنوا أن الولادة ستكون في عاصمة فلسطين.

يبدو سعيد في القدس في الأفلام التي صورتها العائلة، والعائدة إلى عقد الأربعينيات – عندما كان في نحو العاشرة من العمر – كثير الحركة، ميالا إلى السِمنة، منحني الكتفين كما أصبح في حياته فيما بعد، شديد الوعي بالكاميرا. كان في الواقع يحتل مركزا ما تركِّز عليه العدسة في تلك الأفلام البيتية، يركض، يتسلَّق، كأنه سعيد الذي نعرفه إن أسقطنا ما صار يتَّصف به من تحفُّظ. وظلَّ طوال عهد الطفولة صورة مصغَّرة عن الرجل الناضج، أكبر من سنِّه، ولكنه غير ناضج في الوقت نفسه. وإذا ما شئنا استعمال مصطلح هذه الأيام قلنا إنه كان «مفرط النشاط». وبعد عدة سنوات بدا في الصور التي التقطت له في الكلية(*) أنه كان قويّا صلب البنية أكثر من زملائه في الصف – رجلا بين صبية (وهي صورة ستتعدَّل في المرحلة الثانوية). لقد كان، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كل الأشياء الأخرى، كبيرا. كان حضوره، إذا أضفنا العمق المخيف لشخصيته ولسانه السليط، حضورا طاغيا. وهو يدَّعي فيما يُروى من حكايات عن العائلة أنه كان «شقيّا» و«كذّابا». ولكن يبدو أنه لا يوافقه على ذلك أيٌّ من أفراد العائلة. ففي رواياتهم عنه لم يكن ثمة فيه ما يشهد على شخصية «الشاب الجادّ المكبوت» التي وصفها في لقاء معه عنوانه «الذوات والآخرون» Selves and Others في أثناء النظر إلى صورة له وهو في سنّ الثالثة عشرة. لربما كان يمرُّ بنوبات من الاستغراق في التفكير، ولكنه كان في نظر المحيطين به، بصفته رجلا وصبيّا، «عاصفا، قويّا، صريحا إلى حدّ الوقاحة، دائم الحركة، كأنه ممثِّل في مشهد مسرحي، ومسلِّيا باستمرار»[4].

كان الذكور في جيله، إن لم نقل في طبقته الاجتماعية، يحصلون على كلِّ شيء، ويُغفَر لهم كلُّ شيء. ولم تحصل قصص «شقاوة» سعيد الصبي على التقريع الذي تستحقُّه. كان يحبُّ اللعب أمام خزانة والديه في غرفة نومهما في أثناء النهار، وكان

(*) أي كلية ڤكتوريا في الإسكندرية، وهي مدرسة للبنين وليست ضمن كليات المرحلة الجامعية. [المترجم].

يرمي من جوارها حبّات الجوز على أخواته وصديقاتهن، فتصرخ هؤلاء مستمتعات في حين يتفادين قذائفه[5]. وكان لا بدّ مع كلّ هذه الحركة من أن تنقلب الخزانة؛ فانكسرت المرآة الأمامية وتسبب زجاجها بجرح أخته غريس Grace فوق العين بقليل. وكانت النتيجة أنه عوقب بالضرب بسبب سوء التصرُّف هذا، لكنه صار في الوقت نفسه، موضوعا لقصص تُروى للزوّار عنه تعبيرا عن حبِّ أهله له.

كانت أسرة آل سعيد تسكن في البناية الرقم 1 في شارع العزيز عثمان في الزمالك، في بناية فيها مصعد صُمِّم بأسلوب الفن المعروف باسم art deco الذي شاع في فرنسا في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وهو أسلوب ميَّز عمارات تلك الضاحية. وخلافا للمناطق الراقية الأخرى – كالواحة الحضرية المعروفة بالغاردن ستي المجاورة للسفارة البريطانية، أو ضاحية المعادي إلى الجنوب – كانت ضاحية الزمالك تتميَّز بأنها ذات موقع مركزي ومنعزل، وهو عبارة عن جزيرة جميلة وسط نهر النيل، وكانت تؤدّي بواسطة الجسور إلى الجيزة في وسط القاهرة والأهرامات إلى الغرب. وخلافا لما هي عليه في هذه الأيّام كانت الجزيرة في الأربعينيات ممتلئة بمساحات كبيرة من الحدائق غير المكتملة والغابات والطرق المخصَّصة لركوب الخيل، وملاعب الغولف، وبرك السمك. أما نادي الجزيرة الشهير، وهو أشدها بذخا واحتفاء بالمظاهر، فكان على مبعدة حارات قليلة.

هذا الحلم الذي جاء به الاستعمار يشتمل على ميادين للپولو، وملاعب البولنغ، وملاعب التنس ذات الأرضية الحمراء، «والمعزولة عن الفلاحين» كما وصفها سعيد فيما بعد، كان أيضا ميدانا طبيعيّا مارس إدْوَرْد فيه ركوب الخيل والدرّاجات في الملعب الخاصّ بهم، بعيدا عن زحمة البشر، وكان محاطا بالأوروبيين الذين كانت علاقتهم بهم محدودة جدا[6]. وإذا ما ملّوا من نادي الجزيرة كان في إمكانهم الذهاب إلى نادي التوفيقية للعب التنس، وإلى نادي المعادي لمشاهدة أفلام الأطفال مثل Tom Mix و The Lone RangerوRoy Rogers، ولاسيّما أفلام طرزان التي ظلَّ سعيد يحبُّها طول حياته. ففي سنوات العقد السابع من القرن التاسع عشر أعاد الخديو إسماعيل تصميم مدينة القاهرة على غرار ما فعله جورج يوجين هاوسمان Georges-Eugene Haussmann في باريس. كان هناك حزام أخضر يفصل المدينة القروسطية ذات الأبنية الرثَّة بأزقَّتها الملتوية وأحيائها الفقيرة المكتظَّة التي تشكِّل

واجهة تفصلها عن القاهرة البرجوازية[7]. كان إسماعيل قد سمّى الزمالك (وهي كلمة تركية تعني كرْم العنب) Jardin des Plantes (حديقة النباتات)، وبالفعل كانت الحديقة - التي تقع عبر الشارع حيث كان آل سعيد يسكنون - تضمُّ مجموعة نادرة من الأسماك الأفريقية، وكانت حدائقها من بنات أفكار ضابط إنكليزي.

تذكر هدى وناديا، ابنتا آل الجندي الذين كانوا يسكنون العمارة التي يسكن فيها آل سعيد في حيّ الزمالك الراقي في القاهرة، تلك الحديقة بكلّ المحبَّة. وكان إدْوَرْد(*) يتنافس معهما لمعرفة من يتمكن من الوصول إلى القمَّة أوَّلا. كان إدْوَرْد هو الفائز باستمرار، وكان بمجرد أن يصل إلى القمَّة حتى يأخذ بالرقص وبإنشاد أشد الأغاني التي تعلَّموها في المدرسة تعبيرا عن العقلية الاستعمارية: «أنا ملك القلعة، وأنتم حثالة البشر(**)»[8]. وبما أنه كان الذكر فإنه لعب دور القائد الذي يقود الصغار صعودا ونزولا على درج العمارة محدثا ضجيجا مزعجا ومثيرا غضب الأبوين. لكن أمه كانت تروي القصص عن سوء تصرفاته مع لمعة الحب في عينيها. وكان ذلك ينسجم تمام الانسجام مع اللازمة التي تقول: «أخوكنَّ»، وهي دعوة لهنَّ ليحقِّقن ما حقَّق، وليكنَّ مثله من حيث الأناقة والجمال. ولم يقتصر ذلك على الأمّ، إذ حتى معلمو المدرسة كرروا عليهن اللازمة التي تقول إن إدْوَرْد كان مثالا للتميُّز. كان أحيانا يظهر فجأة من خلف الباب ليطلق الصرخة الطرزانية التي تخرق الأذن تقليدا للممثِّل جوني ڤايْسْمُلَر Johnny Weissmuller؛ لقد كان الأخ الذي يعذِّب أخواته، وتعلَّم أن يتجشَّأ عند الحاجة ليزعج الجميع[9]. لقد كان المحرِّض على الألاعيب الصبيانية، لكنه كان هو أيضا من يضطلع بالأفعال في حين يتفرَّج الآخرون، وتقتصر مهمتهم على تقديم المعونة، والمديح، والتهدئة، وعلى حضور مباريات التنس، وتقليب صفحات سوناتا بيتهوڤن، ونقل الطير البري الذي اصطاده في أثناء رحلات الصيد النادرة في الجبال المحيطة بضهور الشوير. وقد أُجبر في يوم من الأيّام على

(*) يستعمل المؤلِّف كلمة «سعيد» باستمرار عند الإشارة إلى إدْورْد. وقد يكون ذلك طبيعيّا في الكتاب، أما في العربية فإن دعوته باسمه الأوَّل هي الطبيعية، ولذلك فإن من الضروري في هذه المرحلة من السيرة أن أحافظ على الاتّساق فأدعوه «إدْورْد» حتى عندما يكون الاسم في الأصل هو «سعيد». [المترجم].

(**) I'm the king of the castle, and you are the dirty rascals.

الوقوف بجانب أخواته لأخذ صور للعائلة في القاهرة، فرفض أن يضع ذراعه اليسرى على كتف الأخت التي تقف بجانبه كما فعل الباقون[10].

لكن هذا لا يعني أن الأخوات لم يحاولن إثبات وجودهنّ. فقد تنافسن معه آنذاك وفيما بعد، ولاسيَّما روزي Rosy، وجين التي لم تكن قريبة من إدْوَرْد مثلما كانت روزي، ولكنها أصبحت مثله ميّالة إلى الفكر ومؤلِّفة لكتاب مذكِّرات عن إحدى حروب الشرق الأوسط («شتات بيروت» Beirut Fragments، 1990) نُشرت قبل مذكِّراته هو. أما عشقهما للموسيقى فقد كان لا يقلُّ قوَّة، وتحدَّثا عنها كثيرا طول حياتهما. كانت جين هي الابنة الوسطى فافتقدت العلاقة الخاصَّة التي شكّلتها كلٌّ من أخواتها الأخريات، واتَّجهت باتِّجاه أخيها إدْوَرْد الذي أحبَّته كثيرا، وهو من جانبه كان يتحبَّب لها بمخاطبتها بكلمة shrimp (روبيان)[11]. أما غريس فقد اشتكت بقولها: «ننتمي إلى ثقافة ذكورية». ولما كانت هي الأخت الصغرى فإنها أخذت تشير إليه بعبارة «العم إدْوَرْد» كلما عاد من دراسته في العطل الصيفية في الخارج. وعلى رغم أن غريس شاركت أختها جويس Joyce في غرفة واحدة، واشتركت جين وروزي في غرفة أخرى، فإن إدْوَرْد استقلَّ بغرفة له وحده، وتعزَّز ذلك الظلم كلما قالت الأمّ صراحة إن إدْوَرْد هو ابنها المفضَّل.

كان ثمة تيّاران في حياته فيما يبدو، التيّار الأوَّل: الانضباط، ونظام العائلة، والدراسة، وهذه كان يفعل المطلوب منه فيها ولكنه لا يؤمن بها. والتيّار الثاني تيّارٌ خفيٌّ يجري تحت السطح يمثّل الفتى المتشوق لا لقراءة الكتب فقط، بل لأن يكون كتابا هو نفسه[12]. وكان كلّ ما هو فنّي ينتمي إلى سعيد الثاني: ذوقه في القراءة، عشقه للموسيقى، الإبداع الذي يعبِّر عنه في مذكِّراته بكلمة «الكذب» fibbing[*]. وقد وافق أصدقاؤه من عهد الطفولة على هذا الوصف: «لم يكن سعيد جزءا منا في يوم من الأيّام... كان يعيش حياة منفصلة عنّا، يلقى الدلال من أبويه وأقاربه على طريقة الناس في الشرق الأوسط»[13].

(*) لا يمكن الدفاع عن الكذب بطبيعة الحال، ولكن الفرق بين fibbing وlying هو أن الأولى توحي باللعب وعدم الجدّية، في حين أن الثانية توحي بأهمية موضوع الكلام. وتتصل الأولى بكذب الأطفال والثانية بكذب الرجال في الأمور المهمة. كذلك فإن ربط الإبداع بالكذب شبيه بما يفعله الشعراء والروائيون في خلقهم لعالم متناسق يشبه عالمنا الذي نعيش فيه ولكننا لا نصدِّق أن له وجودا حقيقيا. نحن نقبل العالم الذي يخلقه الشاعر أو الروائي مع علمنا بأنه مختلق، ولا نرمي الكتاب جانبا بحجة أنه «كذب». [المترجم].

وعلى رغم أن سعيد مرَّ بحالة تمرُّد ضدَّ والديه فإنه تابع ما لديهما من صفات. كانت هلدا، والدتُه، امرأة اجتماعية منفتحة على الآخرين، بينما كان والده «بطبعه منغلقا على نفسه ولا يفصح عما يدور في خلده». هذا الأب الذي يخيِّم ظلُّه على كلّ جملة من جمل «خارج المكان» كان لديه «ميل صبياني إلى المرح» أخفى به «ميله إلى القلق المَرَضي»[14]. وقد تشابهت شخصية سعيد مع شخصية أبيه الذي اعتمد على نفسه بصفته مهاجرا إلى أمريكا ومؤسسا لتجارة عائلية ناجحة مرَّتين. وهنالك تلميحات لنقد يوجَّه نحو الذات عندما يصوِّر سعيد قرينه الأبوي الطاغي «بأنه ملك مطلق، أشبه بالشخصية الدكنزية التي تلجأ إلى الطغيان عند الغضب وإلى الرقة في غير تلك الحالة»[15]. الصدر العريض، الكتفان المحنيّتان، المهارة الرياضية، الروح القتالية؛ كل هذه الصفات تكرر نفسها لدى الانتقال من الأب إلى الابن، وقد خفَّت حدّتها تحت تأثير الروح المرحة عند هلدا.

أما أخوات سعيد فقد أزعجتهن الصورة التي وجدنها عن أبويهن في «خارج المكان»[16]. فبدلا من الطاغية المتصلِّب والجاهل في الأمور العاطفية الذي عانى الانهيار العصبي ولجأ إلى «الجَلْد القاسي»، بدا أبوهن لهن أبا رقيقا هادئا عاملهن بالحب والعطف، وأنه حمل جين في حضنه طوال الليل عندما أُصيبت بالمرض، وغنى لها، ولاعبها بالحيل السحرية. وتذكر ناديا الجندي حبّ وديع الخالص، وميله إلى تمثيل دور سانتا كلوز وارتداء زيِّه في عيد الميلاد لزيارة الأطفال في العمارة[17].

وعلى رغم أن سعيد - «أعجوبة القاهرة» كما يناديه زملاء المخيم في مين Maine - يصور حياته الخاصة، التي يفعّل سعيد خياله الواسع خلالها، تصويرا يجعلها هروبا من متطلَّبات عائلة تتحرَّك نحو الأعلى وتتكوَّن من أفراد يتفوقون على الآخرين في معدّلات الإنجاز؛ فإن أعباء طفولةٍ خلت من الراحة أو أوقات الفراغ يبدو أنها جاءت نتيجة لدوافع داخلية أكثر مما جاءت نتيجة لتدخُّل عائلة كان كلُّ إنجاز فيها نوعا من الفشل[18]. أما نوبات القلق الليلي المتكررة، والميل إلى العزلة فكانت وسيلة للحصول على فسحة لعمل ما ينبغي عمله.

ألمح أندريه شارون Andre Sharon، وهو واحد من أصدقاء العمر وزميلٌ من زملاء كلية ڤكتوريا في القاهرة، إلى وجود مصادر أخرى للقلق. كان للحاجة الدائمة إلى التأييد الخارجي جانبها الدالُّ على قدْر من الفراغ الداخلي. كان

إدْوَرْد - وفق شارون - طالبا لامعا ذا إحساس رهيف بالنكتة، كان محطَّ النظر على الدوام، وكان عاقدا للعزم طوال الفترة التي يبدي فيها عدم الاكتراث[19]. أما نبيل (بِل) مالك Nabil (Bill) Malik الذي كان يعرفه منذ بدايات شبابه فيذكر أنه كلما اقترب من سعيد لِلَّعِب كان يعتذر ويتحجَّج إما بالبيانو، وإما بالتنس، وإما باللغة الفرنسية. وعندما كان الأصدقاء يتجمَّعون حول جورج كردوش George Kardouche المحبوب، وهو من زملاء سعيد في ڤكتوريا، كان سعيد يقف على مبعدة[20]. كان بإمكان جورج ومجموعة معجبيه أن يسمعوا الهمهمات السوداء خلف تصرُّفات سعيد، لكنه بذل جهده لأن يشارك في المرح كأن ذلك كان واجبا آخر، ونجح في الأغلب؛ فعلى الرغم من أنه قارئ أفضل منهم؛ لم يظنّ أحدٌ أنه دودة كتب.

كان الأجانب من أصحاب الحسابات البنكية الكبيرة والمهارات المهنية مثل آل سعيد يعيشون حياة مريحة في القاهرة نحو منتصف القرن على الرغم أن من مكانتهم الاجتماعية تعدّ أدنى من بعض النواحي. ففي مدينة عُرف عنها أنها منفتحة على ثقافات العالم كان آل سعيد أقلِّيَّة أنغليكانية صغيرة ضمن أقلِّيَّة مسيحية تبلغ نسبتها 10 في المائة من مجموع السكّان، تسيطر عليها الكنيسة اليونانية. وعلى الرغم من صغر حجم فئتهم فإنهم كانوا يتوقَّعون، ضمن الطائفة المسيحية التي يحابيها البريطانيون، أن يتلقوا معاملة تفضيلية. لكن ذلك لم يحصل. ففي فلسطين نفسها في تلك السنوات «أخذ الأسقفيون العرب في فترة الانتداب يواجهون اتِّهامات بالتعاون مع المحتلّين البريطانيين، ومن ثمَّ مع الحركة الصهيونية»[21]. وبما أن تجارة الأب كانت هي المزوِّد الرئيس لمعدات المكاتب للجيش البريطاني المحتلّ ولحكومة الانتداب المصرية، فقد كان على أفراد العائلة أن يعملوا وقتا إضافيّا لإثبات انتمائهم وكونهم عربا فلسطينيين أصليين. كانوا بالنسبة إلى البريطانيين في القاهرة يُعرَفون باسم «الشوام»، أي القادمين من بلاد الشام، وهي منطقة تشمل سورية والأردن ولبنان وفلسطين تقاسمها الفرنسيون والبريطانيّون بصفة محميّات بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية[22]. وأن يكون المرء مسيحيّا أو يهوديّا كان معناه الانتماء إلى قبيلة أخرى. وكما قال شارون [صديق سعيد]: «كنا نقول عن أنفسنا: «أنا سوري مسيحي، أنا سوري يهودي»[23].

غير أن اندماج سعيد كان أصعب لأنه – مثل أخواته – كان قد حصل على جواز سفر أمريكي منذ الولادة لأن والده كان مواطنا أمريكيا. ثم إن جنسيَّته الأمريكية كانت تعطيه وضعا ثقافيّا وليس مجرَّد وضعٍ قانوني، وذلك بسبب عادات أبيه الشاذّة مثل تناول عشاء من لحم الديك الرومي في عيد الشكران، وترديد الأغاني الأمريكية. وعندما كان في سن الرابعة عشرة أثارت جنسيته الأمريكية اهتمام زملائه القاهريين، وأشعرتهم «أغراضه الأمريكية» بشيء من الرهبة(24). هذه الهالة كانت لاتزال بادية للعيان في عودته من الخارج لزيارة لبيت في كل صيف في أثناء دراسته في المرحلة الجامعية الأولى في جامعة برنستن. وتذكر هدى الجندي أنه في تلك الفترة «كان قد أصبح في نظر البقية منا التي بقيت في البلاد ونحن نتابع دراستنا المملَّة موضوعا للرومانسية والحسد لأنه كان «يدرُس في الخارج»، وهي عبارة تكرَّرت بصوت مكبوت من الرهبة»(25).

شكَّل «الشوام»، وهم مجموعة من الكتّاب، والمثقَّفين، ورجال الأعمال، والصناعيين، شريحة اجتماعية ذات علاقات داخلية وثيقة كان لها أثرها في تشكيل حياة آل سعيد مع أن قيمهم البروتستنتية وتجاربهم الفلسطينية الخاصة بهم جعلتهم أقلِّيَّة ضمن أقلِّيَّة. ولئن كانت لهم صلات أخرى بمصريين خارج الدائرة السورية أو ببعض الأوروبيين على نطاق أضيق، فإن هاتين المجموعتين ظلَّتا هامشيتين في حياتهما الاجتماعية(26). وعلى الرغم من كلِّ الكلام الذي دار حول انتماء آل سعيد إلى مجتمع النخبة فإنهم لم يصلوا أعلى الطبقات في مجتمع القاهرة.

بيد أن القاهرة كانت هي المدينة التي رسا مركب طفولته فيها. ربما كانت القدس مركز فلسطين التاريخي، والمكان الذي وُلد وعُمِّد فيه، والذي حجَّت إليه العائلة باستمرار، والذي حصل فيه على تعليمه المدرسي المبكِّر، ولكنه يذكرها كأنها مدينة نائمة لا ترحِّب به بالمقارنة مع الحياة المدنية المثيرة في القاهرة، وفي الخلفية منها قلاع القوَّة، وعالم من القوّادين، والنصّابين، والشخصيات المشبوهة من الذين هربوا من أوروبا وغيرها. وفي العشرينيات من القرن العشرين كان خُمس سكّان القاهرة من الأجانب، واختلط الأقباط المصريّون باليهود السفرديم، وباليونانيين، والإيطاليين، والفرنسيين، وأعداد لا تعرف من الروس البيض، والفرس، والمونتينغريين، وغيرهم من الغرباء الذين وصفهم سعيد بأنهم

خليط مكتظّ من المتاهة الثقافية[27]. وما بين العام 1930 - أي قبل مولد سعيد ببضع سنين - والعام 1950، وهو العام الذي غادرها فيه متَّجها إلى الولايات المتَّحدة، كان سكان القاهرة قد تضاعفوا. ومع مرور الوقت تحوَّلت الزمالك التي عاش فيها في طفولته إلى شيء لا يزيد كثيرا على كونه سوقا[28]. أما طالبية القدس بالمقارنة فلم يكن فيها سوى بيوت أنيقة، ذات موتيفات عمرانية من الأساليب المغربية والعربية التي تحيط بها الأشجار والحدائق على نحو يدلّ على الذوق الرفيع.

ظلَّت الأديان المختلفة المتجاورة في القدس منغلقة على نفسها على رغم اختلاط أتباعها اليومي. وكان الجوّ المذهبي في المدينة، وهو جوٌّ يخلو من روح الدعابة، توازيه حركة سياحة دينية روادها أناس يفتقرون إلى الأناقة من الجنسين ويبلغون منتصف العمر، ويتجوَّلون متذمرين على محيط كنيسة القيامة «المتهدِّم، سيِّئ الإضاءة»[29]. أما المدينتان اللتان لا تتشبّثان بالانتماء إلى الطبقة الوسطى، صفد والناصرة، حيث وجدت والدته أصولها، فقد فضَّلهما على القدس، مدينة أبيه التي تذكِّره بالموتى. ونحن نحسُّ بأن أشدَّ ذكريات سعيد عن القدس تعبيرا عن حبِّه لها تأتي تلبية للواجب مع كلِّ ما فيها من احترام: صورة أبيه مع فريق لعبة الكْرِكِت cricket، المعلَّقة على جدار مدرسة القدّيس جورج، التي أراه أبوه إياها فخورا بها، والذكريات المرحة عن زملائه اليهود في المدرسة عندما التحق بالمدرسة في العام 1947 وهو في سنّ الثالثة عشرة، وصورة العائلة وهي تواجه فندق الملك داود، بما فيه من بهو آشوري، وقاعة استراحة حِثّية، وقاعة طعام فينيقية. كانت القدس أرض الوطن، ولكنها لم تكن أرض العائلة.

علينا أن نتذكَّر أن مصر كانت في طليعة العالم العربي، وكانت لها ثقافة أدبية محترمة وصحفٌ راسخة الأقدام تُقرأ في جميع أقطار الشرق الأوسط. وقد لاحظ أحد المفكّرين الذين أثّروا في سعيد فيما بعد أن مصر كانت «من بين أقطار الشرق الأدنى جميعها، عربية وغير عربية، هي الدولة الأولى التي تحقَّقت فيها بنية الدولة الحديثة وشكلها. فقد سَبقت الإصلاحاتُ ذات التوجُّه الغربي، والتي جاء بها القائد والعسكري العظيم محمد علي، إصلاحاتِ أتاتورك ورضا شاه بأكثر من قرن من الزمان»[30]. وكانت القاهرة أكثر من أي عاصمة عربية أخرى هي العاصمة التي أرسلت عائلاتُها أبناءها للدراسة الجامعية. ولكن ليس المهم ما كانت القاهرة عليه

– أكثر العواصم العربية استعدادا لاستقبال الناس بعد بيروت – ولكن ما يهمنا هو الوقت الذي قضاه سعيد فيها. فقد كانت لاتزال عاصمة ساحرة، غير مزدحمة نسبيّا، ذات طبيعة علمانية عالمية، تنتظرها تغيُّرات سياسية جذرية وشيكة. كان سعيد محظوظا من حيث التوقيت، ولم يكن ذلك للمرَّة الأخيرة.

كان الخليط المربك من الأقلِّيّات الدينية يعكس صورة التقسيم الجذري للفضاء القاهري. حيث نجد السكان المسلمين الفقراء نسبيّا ممن وصفهم نجيب محفوظ في روايتيه «بين القصرين» و«زقاق المدق» من ناحية، والضواحي ذات التصميم الهندسي الراقي التي يسكنها المهاجرون الذين يتحركون نحو الأعلى من الناحية الأخرى. ومهما تكن نقاط الضعف عند الروائي المصري الكبير، فإنه صوَّر بصدق مسارا جسّده هو نفسه؛ فتنقّل في رواياته (وفي حياته) بين القسم المزدحم المأهول بالطبقة العاملة المسلمة من مدينة «الجَمالية» القديمة، إلى ضاحية العباسية الداخلية ذات الطراز الأوروبي.

كانت التحوُّلات التي مرّت بها قاهرة سعيد ذات طبيعةٍ عاصفةٍ هوجاء. فقد مرَّ القُطر، ما بين هروب أبيه وديع إلى الولايات المتَّحدة في أثناء الحرب العالمية الأولى لكي يتفادى التجنيد في الجيش العثماني إلى حين تخرُّج سعيد في الكلية في العام 1957، بحكم عثماني أعقبته سلطنة يدعمها الاحتلال البريطاني، ثم ثورة الضباط الأحرار بقيادة عبد الناصر. وكانت بريطانيا قد احتلَّت مصر بسبب الأهمية الاستراتيجية لقناة السويس بدرجات مختلفة من العام 1882 حتى العام 1954، وأثَّر وجودها على الثقافة من كل الوجوه الممكنة؛ من تأسيس النوادي إلى المؤسسات التعليمية. وكان مضمار الجزيرة لسباق الخيل نشطا. وفي الخلفية من الصورة التي يحتلُّها الملك فاروق انتعشت نخبة رجال الأعمال الأجانب[31]. وكان «الخواجات» يملكون نسبة مدهشة من رأس المال بلغت 96 في المائة مع بداية القرن العشرين.

كان الشعور بالحضور الأمريكي من خلال المدارس التبشيرية قويّا في المجتمع القاهري على رغم أنه ظلّ هامشيّا في آخر المطاف شأنه شأن الأنغليكان الشاميين، إذ لم تأتِ أيٌّ من الطائفتين بما يمكن أن يسمح بالدخول في الشبكات المؤثِّرة. ومع ذلك كان ثمة تميُّز لمن هو من أمريكا في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، قبل أن تبدأ الإمبراطورية الأمريكية الآخذة في التوسّع بمنافسة الإمبراطورية

البريطانية في الاحتلال الأجنبي الذي لا يشبع. وكان وديع قد هاجر إلى الولايات المتَّحدة بوصف ذلك جزءا من الحركة العربية باتجاه الغرب في عهد النهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وصار جزءٌ من مانهاتن يعرف بسورية الصغيرة في أوائل القرن العشرين، وكسب سكانها حكما قضائيا أعطاهم الحق في أن يعدّوا قوقاسيين [أي من الجنس الأبيض] وفق القانون الأمريكي(32). وقادهم نصرهم القضائي ذاك إلى التماهي مع كلّ ما يعدُّ ممثِّلا للرأي العام السائد، بما في ذلك المشاعر العنصرية الأمريكية، وبدت مشاعرهم الوطنية مشاعر طبيعية لانتمائهم إلى بلد تخلّص من الحكم البريطاني.

***

في الزمالك، شكا سعيد من أن والديه أبعداه عن السياسة، ولكن عالمه المثالي داخل العائلة مهَّد في الواقع لأوَّل يقظة سياسية مرَّ بها. فهذه العلاقة العائلية الوثيقة مكنته من مراقبة العمل التطوعي الذي قامت به عمته نبيهة لمصلحة الفلسطينيين الذين لجأوا إلى مصر بعد العام 1948 وكان من بينهم أعضاء من عائلته الممتدَّة. ولم تكن معرفته بالتاريخ كبيرة، ولكن كان في وسعه أن يرى الكارثة الفلسطينية في الوجوه المرهقة لزوّار العائلة(33). ووجد فيما بعد شيئا رمزيّا في توافق عيد ميلاده مع تاريخ إعلان وعد بلفور، وهو الإعلان الذي أصدرته الحكومة البريطانية ودعمت فيه إقامة وطن قومي لليهود في المنطقة. ولكن مستقبله لم يتأثَّر بحرص أهله عليه بقدر ما أثَّرت فيه الثرثرة العائلية وسخافات الكتب الهزلية(34).

تخلَّص أوَّل ما تخلَّص من هذه الرتابة في فترات مكوثه الصيفية الطويلة في ضهور الشوير. وفي منتصف العقد الثاني من حياته صادف الأفكار الجادَّة للمرَّة الأولى على يدي منير نصّار، وهو جارٌ يكبره قليلا، وهو ابن أحد كبار المسؤولين في شركة تأمين مقرّها في لندن. فقد أعاره منير وإخوته الذين يكبرونه سنّا، وكانوا جزءا من الحياة الفكرية في الجامعة الأمريكية في بيروت الواقعة أسفل الجبال نزولا من مسكنهم – أعاروه بعض كتبهم وناقشوا كانْت وهيغل وأفلاطون، الذين كان يسمع أسماءهم للمرَّة الأولى(35). كان صبيّا على أعتاب شبابٍ يتحدَّثون بحماس عن أفكار لم يسمع بها من قبل: «محمد علي، بونابارت، إسماعيل باشا، ثورة عُرابي، حادثة دنشواي».

ولكن إلى جانب هذه اللقاءات كان التحرر من الحماية الشديدة التي تمارسها الأم يأتي عن طريق الاستمتاع بالبيانو في خلوته. وهناك كان يسمح للبنات أحيانا «بكرم يليق باللوردات» باستراق النظر إلى الغرفة، وفي مرّات نادرة يعطيهن الحق في تخطي عتبة المكان المقدَّس ليحبسن أنفاسهن على كتبه، ولاسيما على البيانو، أهم ممتلكاته، الذي كان يلجأ إليه ليعزف على مدى ساعات[36]. وقد يكون من المغري أن نحسب أن البيانو كان وسيلة للانعزال عن بقية أفراد العائلة، ولكنه كان في الواقع وسيلة للانتماء. فالأطفال الخمسة ظلّوا جميعهم يعزفون مدةً طويلةً بعد انتهاء الدروس المطلوبة في مرحلة الطفولة. أصبحت الموسيقى إلى جانب القراءة هي المصدر الرئيس لانضباطه الفكري والخيالي، وأول «نظرية» يستقصيها قبل أن تدخل الفلسفة في مرمى نظره.

كانت الكتب الأولى التي درسها بحقّ، إلى جانب تدريباته المستمرَّة على البيانو، تتعلَّق بتاريخ عرض الأوپرات وسير حياة مؤلِّفيها الموجودة في كتاب Kobbé's Complete Opera Book، بما فيه من ملخَّصات للأوپرات من مونتيڤيردي Monteverdi إلى ياناچك Janacek، وفيه مختارات لمقاطع توضيحية من النصّ الموسيقي. كان قد بدأ تعلم العزف على البيانو في سن السادسة، ثم صار يأخذ الموضوع بجدِّية في سن العاشرة والنصف. وعندما بلغ الخامسة عشرة كان بإمكانه شراء أسطواناته الخاصة به وفق ذوقه. وفي سن الحادية عشرة أخذ يحضر العروض التي تقدِّمها دار الأوپرا الخديوية التي كانت صورة مصغَّرة من دار الأوپرا التي صممها غارنييه Garnier في باريس. كانت تلك الدار قد خلَّدت أوپرا عايدة في عرضها الأوَّل، وهي الأوپرا التي كتب عنها فيما بعد بحثه المثير للجدل. وقد ذكر بوضوح تام موسم الأغاني الإيطالية الذي حضره في أواخر الأربعينيات؛ وهذا أمر يثير الاهتمام لأنه أخذ يحتقر الأوپرا الإيطالية في مرحلة لاحقة من حياته. وكان قد وجد في الأوپرا، بصفته مشاهدا من داخل الحياة القاهرية ومن فوقها، «لمحة من العالم الجنسي الذي كانت لغاته المفهومة وحبكاته العنيفة، وعواطفه الطليقة» شديدة الإثارة[37].

صحيح أن سعيد وصل بهذه الملهمات الموسيقية إلى درجة أعلى من أخواته، لكن أفراد العائلة كلهم استمتعوا بها. وقد اتَّبع الوالدان سياسة اصطحاب الأطفال إلى أوپرا القاهرة بمجرد وصولهم إلى السن التي تمكِّنهم من الاستمتاع بها[38]. ثم إن

استغراق سعيد في عالم الموسيقى وحبَّه للكتب (مثلما يتبيَّن من حبِّه لأقلام الحبر الثمينة والورق الفاخر في المرحلة اللاحقة من حياته) كانا إرثا مباشرا من تجارة أبيه التي أسهمت في تشكيل الجو الجمالي للبيت. كان ثمة فوق لوحة مفاتيح البيانو العائلي - وهو بيانو كبير من صُنع شركة بلوتنر Bluthner من لايبزغ يعزف عليه الأطفال – غطاءٌ مخملي ذو لون بنّي مائل إلى الاحمرار طُرزت عليه الزهور على جانبي الاسم «ألفريدو بيرتيرو، القاهرة» Alfredo Bertero, Le Caire. لم يكن البيانو وملحقاته جزءا من تجارة وديع، ولكنه ناسب رخاء الجوّ العائلي العريق تماما.

كانت الرسالة التعليمية للعائلتين الممتدّتين، آل سعيد وآل موسى، بمن فيهما من معلِّمين وعاملين متطوِّعين في الخدمة الاجتماعية، تتصل بتجارة العائلة. كانت شركة أبيه المتخصصة بالقرطاسية تزوِّد العديد من مدارس القاهرة بما تحتاج إليه، وكانت واحدة منها تخص مدرسة الآنسة بدر (الخالة ميليا) للبنات. كذلك غصَّت «المكتبة الكبيرة» التي تخص عائلة سعيد ليس بالكتب فقط بل بالأسطوانات الكلاسيكية أيضا[39]. وقد تضمَّنت المقتنيات الأدبية والموسيقية لشركة فلسطين التربوية في القدس كتابا بعنوان «كتاب الأغاني العائلية» A Family Songbook الذي كان سعيد يستعمله في ليالي الضهور الطويلة ليسلّي نفسه بالترنم بالأغاني المعروفة مثل The Minstrel Boy أو John Peel.

كانت هلدا تشارك أخاها الخال إميل بأن تعزف على الدربكة (آلة إيقاعية) لمصاحبة عزفه على العود، وهذه آلة كان أبو هلدا يجيد العزف عليها أيضا[40]. وما يدعو إلى الاستغراب أن كل ذلك لم يخلِّف أثرا في سعيد. لكنه وجد نفسه مدفوعا في فترة لاحقة من حياته للكتابة تعبيرا عن تقديره للمطربة والممثلة المصرية أم كلثوم، ولكنه لم يكن لديه الكثير مما يقوله من الناحية الفنية عن الموسيقى التي ترافقها والتي شبَّهها بالنواح. وقد سأل في يوم من الأيام صديقا له هو فواز طرابلسي عما يحبه في الموسيقى العربية لأنه هو نفسه لم يجد شيئا يحبُّه فيها، معترفا بعدم فهمه إياها وليس كرهه لها.

تفوَّق سعيد على بقية أفراد العائلة الموهوبين في الموسيقى كما تفوَّق في كلِّ شيء آخر، وكان يتدرَّب من دون انقطاع بإشراف سلسلة من المعلِّمين. كان أشهر هؤلاء إغناس تيغرمان Ignace Tiegerman، وهو يهودي بولندي يحتلُّ مكانة مهمة، إلى جانب صلته بسعيد، بوصفه عازفا أسطوريا للموسيقى الرومانسية، وبخاصة موسيقى شوبان Chopin وبرامز Brahms. ولم يكن يُسمَح إلا للمتفوقين بالدراسة تحت إشراف

تيغرمان في المعهد الموسيقي التابع له في رقم 5 في شارع شامپوليون خلف المتحف المصري. وكانت نيڤين ملر Nevine Miller، ابنة رئيس وزراء الملك فاروق(*)، واحدة من تلاميذه، وكانت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب. وكان تيغرمان يتقاضى جنيها عن كلِّ درس (وهو مبلغ كبير آنذاك)، وكانت الدروس شديدة الانضباط. «لم يكن يسمح بالمناقشة». «كان محقّا دائما.. وكان يريك كيف يجب أن تعزف القطعة التي تستعد لعزفها، وإن تجرَّأت على المناقشة، فكل ما كان عليه فعله هو أن يريك النوتة الموسيقية التي وضعها المؤلِّف، وكان ذلك كلَّ ما هنالك»[41].

ذكر هنري باردا، أحد تلاميذ تيغرمان، «ثورات غضب الأستاذ عندما لم يكن التلميذ على الدرجة المطلوبة من الاستعداد: كثيرا ما كان باب الاستوديو ينفتح بعنف، وتطير أوراق القطعة الموسيقية متبوعة بالتلميذ نفسه.. كانت عيناه تخترقان التلميذ كالسكاكين»[42]. ومع ذلك فقد أعجب به سعيد أيما إعجاب، وكثيرا ما تحدَّث عنه – لم يكن يذكر قسوته بل دقة عزفه، ورشاقته وابتعاده عن المبالغة، لاسيّما عندما كان يشرح كيف ينبغي أن تعزف القطع في قاعة التدريب، حيث كان يركِّز كثيرا على الدوّاسة Pedal ، ناصحا تلاميذه «بتنظيف» الصوت في بداية توليفة نغمية chord جديدة[43]. كان سعيد يدعو تيغرمان في بعض المناسبات إلى تناول العشاء مع العائلة، وكان يتجول وإياه بالسيّارة في أنحاء المدينة.

وقد ذكر تلميذ سابق اسمه موريس إسكنازي أن قاعة التدريس كانت مرتَّبة على نحو فخم، وفيها آلتا بيانو متقابلتان من صنع سْتايْنْوَي Steinway يجلس هو للعزف على إحداهما ويقابله التلميذ للعزف على الآلة الأخرى، ليعزفا في الوقت نفسه. وكان يحب السخرية: «ليس مطلوبا منك أن تؤلِّف في أثناء عزف تلك القطعة» عندما يعزف التلميذ نغمات ليست موجودة في النصّ المكتوب[44]. وعندما ذهب سعيد إلى الولايات المتَّحدة فإنه تابع دراسته مع ستة من كبار المعلِّمين في مدرسة جوليارد Juilliard School بنيويورك، وفي بوسطن، ولكنهم «لو جمعوا كلهم معا لما ساووا خنصر تيغرمان»[45].

فمن الناحية الفكرية كان تيغرمان أول من أثَّروا في سعيد تأثيرا دائما. كانت علاقة الأستاذ بتلميذه علاقة حميمة أصبحت فيما بعد صداقة، وأخذا يلتقيان في

(*) لا يُعرف رئيس وزراء لمصر باسم «ملر»؛ ولعله مستشار للملك. [المترجم].

الخمسينيات «لعزف الموسيقى، وتبادل الذكريات، ونعيد نفسينا إلى الوقت الذي كانت فيه القاهرة أشبه بالقاهرة التي ألفناها: مدينة عالمية الطابع، حرّة، مملوءة بالميزات الرائعة»، حتى إنه زار أستاذه السابق في كتسبوهل Kitzbuhel في النمسا في أولَيات الستينيات حيث كان قد بنى بيتا خاصّا به[46]. كان تيغرمان قد مكَّنه من الحصول على نظرة خاطفة من القاهرة الفرنسية التحت-أرضية غير الشرعية ذات الصالونات والمسارح والاستوديوهات؛ القاهرة المرحة إن شئت. كان تيغرمان قد جاء إلى القاهرة في العام 1933 لأن «ممكناتها» جذبته، وفق تعبير سعيد الغامض، وأطلع سعيدا على عالم من «المتع غير المعروفة» وأنواع مختلفة من العلاقات الإنسانية[47].

لقد أدّى سعيد دورا مهمّا في الإرث الذي خلَّفه تيغرمان[48]. فهو الذي اكتشف تسجيلا ضائعا كان في ذلك الوقت قد حاز إعجاب المتخصصين، وصار المصدر الرئيس لمؤرِّخي الموسيقى الذين كانوا يسعون إلى ملء الفراغات في حياة عازف البيانو. ومن المفارقات المذهلة أن تسجيلات تيغرمان كانت أندر من المعتاد؛ وذلك لأن الإذاعة المصرية حذفت أشرطة تيغرمان التي أُذيعت لاستعمالها لتسجيل أسطوانات دانيل بارنبويم Daniel Barenboim، صديق سعيد وكاتم أسراره فيما بعد[49].

***

كانت الحياة اليومية في الشرق الأوسط في سنوات طفولة سعيد حياة مملوءة بالتنقُّل لأكثر السكّان. فعلى مدى سنوات قليلة انتقل سعيد من كلية القديس جورج في القدس إلى مدرسة الجزيرة العامة، ومنها إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين (1948-1949)، وانتهاء بكلية ڤكتوريا التي التحق بها ما بين العامين 1949 و1951. وانتهى التحاقه بتلك الكلية على نحو فجائي عندما اضطر إلى تركها بعد أن نشب خلاف بين معلِّم أغضبه رفض تلاميذه قراءة شيكسپير، واتهم سعيد بأنه المتمرِّد الأكبر، وطرحه أرضا في نوبة الغضب، بينما أخذ بقية التلاميذ يصرخون غاضبين وقد هالهم ما رأوا.

كانت كلية ڤكتوريا قد وصفت نفسها بأنها تدرِّب طلبتها ليكونوا إيتُنيّي(*) الشرق الأوسط على رغم أن إنكليزية سعيد لم تكن بريطانية الجرس تماما. لكن هذا الأمر تغيَّر مع مرور الزمن بطبيعة الحال بعد أن ترك بقاؤه الطويل في أمريكا أثره

(*) أي بمستوى خريجي كلية إيتُن Eton Colledge، وهي من أعرق مدارس بريطانيا وأرقاها. [المترجم].

في لغته التي حافظت على وقعها الأجنبي إلى النهاية. وكان يتكلَّم الفرنسية منذ أيام دراسته في مدرسة الجزيرة الإعدادية (أما أمه فكانت تستعملها في المناسبات الاجتماعية بطلاقة)، وتعلَّم مزيدا منها في كلية ڤكتوريا وفي «النادي»، حيث كانت تُشَحِّم الأحاديثَ الرسمية[50]. أما الدروس العربية التي أجبر الوالدان أطفالهما على دراستها فقد شعروا بأنها كالعقاب، ولو أنها لم يكن يقصد منها أن تكون كذلك. وديع لم يكن يتكلم العربية بطلاقة، ومع أن هلدا كانت تتقنها وكانت تستعملها في البيت فإن الأطفال كانوا يجيبونها باللغة الإنجليزية[51]. ولكن بعد مضيّ وقت طويل تعلَّم الأطفال اللغة العربية رسميّا تضامنا مع ثقافتهم التي تتعرَّض للتهديد، وقد عاد أغلبهم إلى العيش في الشرق الأوسط بعد أن قضوا ردحا من الزمن في الخارج.

عاد وديع إلى القدس بعد مكوثه في الولايات المتَّحدة في فترة الحرب العالمية الأولى في أوليات العشرينيات تلبية لرغبة والدته التي عبَّرت عنها وهي على فراش الموت. ولكي يمنح ابنه الحرية التي حُرِمَها هو؛ رفض إجبار إدْورْد على البقاء في مصر للإشراف على تجارة العائلة[52]. وقد جلب وديع معه ميلا إلى الأشياء التي يتميَّز بها الأمريكان، وهذه صفة ادَّعى سعيد ادعاء غير مقنع أنه لم يشارك بها أباه. فعلى رغم أن وديع كثيرا ما تناول اللبْنَة التقليدية أو الزيت والزعتر لوجبة الإفطار، كان يستمتع بتناول البيض المخفوق مع الكاتْشب والفطائر المحلّاة بشراب القيقب[53]. أما وجبة عيد الشكر فكانت تشمل صلصة الـتوت البرّي والبطاطا الحلوة المغطّاة بطبقة من السكَّر. وكان يفخر ببياض جلده، ويقول لمن يسأله إنه من كليڤلَنْد Cleveland، وكثيرا ما كان يكتب اسمه «وِلْيَم». وما يشكِّل عكسا لحالة أبيه هو أن اسم إدْورْد الأوسط هو في الواقع وليم على رغم أن بعض المصادر تحاول تعريب الاسم بأن تجعله «وديع»(*).

وعندما اختلف وديع مع شركائه في التجارة سافر مع عائلته إلى الولايات المتَّحدة في صيف العام 1948 وفكَّر في البقاء هناك من دون رجعة. وكان السبب الرئيس

(*) هذه مسألة ثانوية بطبيعة الحال. لكن علينا أن نلاحظ أن المؤلف يشير إلى الأب باستمرار باسم وديع، وأن إدْورْد سمّى ابنه وديع. أما أن إدْورْد يحصل على اسم ثان هو وليم فتفسيره أن الأبناء كثيرا ما كانوا يسمّون باللغة الإنگليزية باسم ثان أو ثالث يدعى «الاسم الأوسط» بعد الاسِم الأول تكريما لبعض الأقارب. وأما أنه هو الاسم المزعوم للأب فيبقى مسألة داخلية لا قيمة قانونية لها تُشْبِهُ تَأَمْرُكَ الأبِ في كثير من العادات التي يرد ذكرها في الكتاب. [المترجم].

وراء تلك الرحلة عملية خطرة للكلى احتاجت إلى اختصاصيين أمريكان. وبالنظر إلى التعاسة التي سببتها تلك الرحلة لإدْورْد، إذ كان أُرْسِل لمعسكر ماراناكوك Maranacook في ولاية مَين Maine لتعويده على البيئة الأمريكية التي سيعيشون فيها. ولتعاسة إدْورْد في ذلك المخيم؛ شعر بالارتياح بعد أن تحسَّنت حالة والده بما يكفي للعودة بالعائلة إلى القاهرة.

كان سفر آل سعيد المستمر في أنحاء المشرق، إلى جانب زيارة الأقارب في المناسبات العائلية أو بحثا عن الجو الألطف في فصل الصيف، جزءا من السعي إلى كسب الرزق بالنسبة إلى وديع. وكان اهتمامه بالقاهرة نابعا من رغبته في توسيع شركة فلسطين التربوية Palestine Education Company لتكون شركة القرطاسية الأساسية Standard Stationary Company(*) بفروعٍ تفتح في الإسكندرية، والقاهرة، مع فروع في منطقة قناة السويس. وكان هذا الترتيب يحتاج إلى الكثير من التنقل جيئة وذهابا، مع كل أفراد العائلة في كثير من الأحيان. وكثيرا ما كمن اختلاف المفاهيم الخاصة بالمكان، وهو غير المستقرّ في هذه الحالة، خلف التهمة الزائفة القائلة إن الفلسطينيين قوم رحَّل لا حقَّ لهم في الأرض لأنهم لا يبنون جدرانا ولا ينشئون نظما تنظم حقوقهم القانونية. وأسهم عدم الاعتراف بالحدود الرسمية التي أقامتها الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية في هذا الاضطراب.

بعد ذلك بوقت طويل، وقبل وفاة سعيد بسنوات قليلة، أخذت مقالات لئيمة تلعب على هذا الاختلاف الثقافي، وتدَّعي أن سعيد لم يعش في مدينة القدس قط، وأنه لم تكن له أصول عائلية فيها، وأنه كان يقيم بأمان في القاهرة البرجوازية[54]، وبما أن المتكلِّم الرئيس باسم الفلسطينيين كان يكذب فيما يتعلَّق بأصله فإن جميع ادِّعاءات الفلسطينيين كانت كاذبة[55]. لكن كان الردُّ على هذا الهجوم سهلا بإثبات التحاق سعيد فعلا بمدرسة القدّيس جورج (مدرسة المطران كما كان الأهالي يسمّونها)، وأن البيت المقدسي الذي ولد فيه كان مملوكا للعائلة، ولذلك فإن وديع كان يملك نصيبا من العقار المسجَّل باسم أخته، وذلك وفقا للعادة المتّبعة في العائلات الممتدَّة. ويبدو

(*) هذه هي الترجمة الحرفية لاسم الشركة الإنكليزي، ولا يُعرف لها اسم عربي معتمَد. [المترجم].

أن أصحاب هذا الاتّهام لم يكلّفوا أنفسهم عناء مقابلة سعيد نفسه، ولم يسعوا إلى مقابلة أيٍّ من زملائه في مدرسة القدّيس جورج الموجودين في نيويورك.

كانت إسرائيل في نهاية المطاف هي التي حوَّلت تنقُّل الفلسطينيين بين بلاد الإقليم إلى شتات منتشر في جميع أنحاء العالم. ومن الواضح أن آل سعيد وآل موسى بُعثروا مثلما بُعثرت عائلات كثيرة نتيجة لذلك، وسكنوا في بيروت وعمّان والمناطق المحتلَّة أو خارج هذه البلاد. وتطلَّب بقاؤهم على صلة أن يتحرَّكوا من مكان إلى آخر. بقي إخوة هلدا - منير، وعاطف، ورايق، وإميل - في فلسطين، وكما يذكر سعيد: «كنا نزورهم هناك بين الحين والآخر؛ وبعد العام 1948 كانوا يأتون إلى القاهرة ويغادرونها.. وكنا نذهب إلى تبغة من صفد، حيث كان خالي منير يعيش، وحيث كنا نقضي بعض الوقت عنده في الصيف ونلقى عنده تكريما خاصّا»[56]. ولئن كنا، كما تذكر جين، «قد مكثنا في القاهرة من العام 1948 حتى أوليات الستّينيات فإن ذلك لا يعني أننا لم نقم برحلات إلى الصحراء المصرية أو الجبال اللبنانية، عندما كنا نؤخذ في سن الطفولة في رحلات عائلية ممتعة» لإشعال النيران احتفالا بعيد الصليب. ولما كان أندريه شارون، صديق سعيد، قد انزعج من الإيحاء بأن سعيد لم يكن فلسطينيا حقّا فإنه أخذ على عاتقه أن يوضح معنى كلمة home (وطن) لجيله في رسالة غير منشورة أرسلها لصحيفة «نيويورك تايمز»:

> «لم يكن ثمَّة حدود ذات معنى في أثناء سنيِّ نموِّنا، لاسيما الحدود الذهنية.. كان ذلك إرثا إيجابيّا ورثناه من الإمبراطورية العثمانية. فأجدادي، أنا اليهوديّ المصريّ، جاءوا من سورية. وجاء جدّي إلى مصر من العراق مع إحدى القوافل.. ولم يكن السكّان يهتمّون بأن أصولهم تعود إلى العراق أو.. أو [المملكة] العربية السعودية أو عُمان، وكذا الأمر مع وزارة الخارجية في الكي دورسي Quai D'Orsay في باريس. باختصار، فإن تنقُّل سعيد بسهولة من فلسطين إلى مصر ولبنان ليس فيه ما يدهش سوى أنه ليس فيه ما يدهش له ولمن كبر في السنِّ معه. كان فلسطينيا عربيّا مثلما كنت أنا يهوديّا مصريّا. يا للجَلَبَة المثارة!»[57].

غير أن الطقوس الدينية تركت آثارا عميقة في نفسه[58]. فقد صرّح قائلا «لاأزال أحتفظ بكتاب الصلوات Book of Common Prayer من أيّام القاهرة»، وأنه

كان مايزال يقرأه (في العام 1998) «للتأسُّف على الصيغة السوقية المسمّاة الطبعة الجديدة المنقّحة المعتمدة New Standard Revised Edition»[59]. وبدلا من السخرية من نصوص المذهب الأنغليكاني فإنه سخر من التنقيحات التي أجريت على النصّ الأنيق الذي وضع في القرن السابع عشر المملوء بصلوات الصباح والمساء، والمواعيد، والابتهالات، وصلوات عيد العنصرة Whitsunday، والعقوبات التي تتهدّد المذنبين، والمزامير، والأسئلة التي تختبر المؤمن، ربما من دون الالتفات إلى النصوص غير المعتمدة، بما في ذلك دعوات الشكر الغريبة لنجاة الملك جيمس الأوَّل من المؤامرة التي كان القصد منها تفجير البرلمان. وقد ظلّ سعيد حتى أخريات حياته عضوا في اللجنة الاستشارية للرقيب الأنغليكاني التابع للأمم المتّحدة، وأخبر كلَّ من سأله عن ذلك بشيء من الاعتزاز[60].

كانت مظاهر التقوى هذه نتيجة طبيعية لموقعه الاجتماعي والجغرافي. وبكلمات شخص كان له حضور مهمّ في حياته هو تشارلز مالك Charles Malik (زوج إيڤا Eva، ابنة عمّ أمّه)، نتجت الحضارةُ الغربية ممّا كان قد أُوحي به، وفُهِم، وعُشِقَ، وعُوني، ونُفِّذَ في.. عشر مدن والمناطق المحيطة بها.. وهي أثينا، وإسطنبول، وأنطاكية، وبيروت، ودمشق، وبغداد، والقدس، والإسكندرية، والقاهرة، ومكّة»[61]. ولذلك فإن الطقوس الدينية - إن لم نقل الدين نفسه - كانت ذات أهمية مركزية في حياته، وجاءت من منطقة لا يلتقي فيها الشرق بالغرب فقط بالمعنى الجغرافي، بل (وفق ما قاله سعيد في العام 1969) من منطقة «يحمل فيها المرء أثقل حمل من الأفكار المطلقة التوحيدية المتنافسة.. على أي بقعة من بقاع الأرض»[62].

المزيد من الشهادات تظهر في ما ينقل عن أصدقاء طفولته. أحد هؤلاء؛ نزيه حبشي - وكان طالب قانون في جامعة هارڤرد حينما كان سعيد يعمل على نيل شهادة الدكتوراه - كان يلتقي به لتناول الغداء برفقة عضو ثالث هو جورج أبي صعب؛ مفكر لبناني عاش في مصر وأصبح فيما بعد نجما في دوائر القانون الدولي ذا خبرة عملية في جنيف. كان هؤلاء خصوما وأعداء بعضهم لبعضٍ بِوُدٍّ، دائما يناظر أحدهم الآخر ليظهر التمكن من مجال الآخر. وقد تذكَّر نزيه حبشي قائلا: «كنّا نحن الثلاثة نذهب معا لتناول وجبات الطعام بانتظام.. وكان ذلك شيئا يثير الاهتمام لأن الدين كثيرا ما كان هو موضوع النقاش»[63]. كان جورج صريحا حول إلحاده، في حين

اعترف نزيه بأنه مواظب على الذهاب إلى الكنيسة، أما سعيد فقد كان يصرُّ على أنه يقع «في منطقة وسطى بينهما». وبالفعل، أجاب عن سؤال في استبانة يقول: «هل أنت غير مؤمن؟» بقوله: «لا». ثم ترك خانة الجواب المتعلقة بالسؤال اللاحق: «إذن لا بد أنك مؤمن؟» فارغة[64]. وبعد ذلك بسنوات ذكر محمد شاهين، وهو ناقد ضليع في مجال الأدب الإنكليزي الڤكتوري وكثير الـكتابة فيه، أن سعيد أجاب عن سؤال من أحد الحضور المتديِّنين حاول فيه أن يحرجه بإظهار إلحاده بمناسبة كلمة ألقاها سعيد في الجامعة الأمريكيّة في القاهرة. كان السؤال: «ما هي علاقتك بالله؟» فأجاب سعيد: «أنت تسألني عن شيء خارج اختصاصي. أنا متخصِّص في مجال الأدب المقارن والأدب الإنكليزي. لكنني أقول لك إن الله يتحكَّم بهذا العالم الذي نعيش فيه، وهو يتحكَّم بنا جميعا»[65].

وقد تمكَّن شاهين من إظهار بعض نواحي الغموض عندما روى كيف أنه وسعيد كانا قد دُعيا إلى تناول الغداء في عمّان في النادي الأورثودوكسي. لماذا دعاه هذا النادي من بين كلِّ النوادي الأخرى؟ أجاب ضاحكا: «ربَّما حسبوا أنني مسيحي»[66]. وفي فترة لاحقة من حياته بعد أن تمكّن منه المرض، وبمناسبة تناول الغداء في مطعم لبناني مع تلميذ سابق من تلاميذه، تعرَّف عليه قسٌّ لبناني كان يجلس بقربهما ـ فجاء إلى منضدتهما وبارك إدْورْد وحرك صليبا كبيرا بيده تحريكا متكررا. وبعد أن عاد القسّ إلى منضدته نظر إدْورْد إلى الطالب وحرك كتفيه وقال: «لا ضرر من ذلك»[67]. ويبدو أنه وضع الموضوع جانبا في كلمة التخرُّج في مدرسة ماونت هيرمن في نورثفيلد Northfield Mount Hermon في العام 2002، وهي كلمة حاول فيها التوفيق بين ما يبدو من تناقض: «أنا ملتزم بالعلمانية، ولكن هذا لا يعني أنني ضد الدين، فالدين في رأيي مسألة اختيار وإيمان». ولكن سعيد لم يكن هنا، كما في حالات أخرى، متَّسقا مع نفسه. ففي ملاحظة مضافة بخط اليد أرسلها إلى تامار جاكوبي Tamar Jacoby من كُتّاب افتتاحيّات النيويورك تايمز قال بلا تفكير بعد أن سألَتْهُ عن دوره في المجلس الوطني الفلسطيني كأنه يسعى إلى تهدئتها: «أنا عُمِّدتُ وثُبِّتْتُ في الكنيسة الإنكليزية؛ وهذه حقيقة ليست غيرَ ذات أهمية!» كأن انتماءه إلى ديانة راسخة جعل دفاعه عن القضية الفلسطينية لا يكفي لأن يكون لا أمل فيه[68]. ومن المفارقات، كما بيَّن شاهين، أنه بسبب مساواة العرب والإسلام من

وجهة نظر الغرب «عمل [أي إدْورْد] لدعم الإسلام أكثر من كل شيوخ العالم»، ولو كان مسلما بالفعل «لكان مثلي ومثلك عاجزا عن الدفاع عن الإسلام»[69].

من الممكن أن يُعزى عدم الوضوح فيما يتَّصل بمعتقداته إلى حرصه على عدم الإساءة في أمور الدين. فقد بدا له أن تفادي الإساءة بلباقة شيء مناسب بالنظر إلى أن كثيرا من مواقفه ذات طابع خلافي، ولأن الناس يتوقَّفون عن الإصغاء عندما يشعرون بأن المتكلِّم يستهين بالذات الإلهية. فقد دار حديث بينه وبين سائق سيارة أجرة يوما من الأيام، وكان السائق عربيّا، وسأله سؤالا مباشرا عما إذا كان مسلما، فما كان منه إلا أن ردَّ بعبارة «الحمد لله»؛ وهذه عبارة يمكن أن يفسِّرها الآخر وفق ما يروق له. وقد كان هذا الحرص شيئا اعتاد عليه. أما بصفته رجلا ناضجا بين أفراد عائلته فقد أشار إلى نفسه بقوله إنه يلحد يوما ويؤمن في اليوم التالي، وقال لأبنائه إن الكتاب المقدَّس ليس سوى «قطعة تثير الاهتمام من الأدب». وهو لم يذهب إلى الكنيسة في أيِّ يوم من الأيّام التي عاشها في نيويورك، وفي أثناء سيره في شوارع المدينة كان بإمكانه أن يستمع إلى الطقوس الدينية التي تنشد فيها التراتيل البروتستنتية، ولكنه لم يبدِ أيَّ اهتمام بالوقوف ليستمع[70].

ولكن المظاهر المادِّية للدين، وهي أمور تركت أثرا أعمق في أخواته من الأثر الذي تركته فيه، كانت تُرى في كلِّ مكان من عالمه. كان أبو هلدا رجلا من رجال الدين البروتستنت، وكانت أمها لا تفارق الكتاب المقدَّس ذا الغلاف الجلدي باللغة العربية، وهي عادة اكتسبتها بصفتها ابنة أوَّل قسٍّ عربي من الطائفة البروتستنتية الوليدة في سورية التاريخية. وليس من المستغرب والحالة هذه أن تصدر عن هلدا، ضمن النطاق العائلي الذي لا يحتاج إلى الحذر، عبارات مسيحية بين الحين والآخر Khreisti sineisti: (بُعِث المسيح)، أو «يا ساتر، يا ربّ»، في معرض التقريع أو التعبير عن عاطفة عابرة. أما وديع، الذي لم يكن شديد المشاعر الدينية في العادة، فلربما صدرت منه عبارات من موعظة الجبل: «كثيرون أوّلون يكونون آخرين وآخِرون أوَّلين». كان الأطفال جميعهم يتلون «الصلاة الربّانية» مع أمِّهم كلَّ ليلة قبل الخلود إلى النوم.

وعندما تدخل المسيحية فيما يرويه سعيد عن حياته فإنه يخفِّف من وقعها عادة. ومع ذلك كانت الكاتدرائية الوطنية في القاهرة (كاتدرائية كلِّ القدّيسين)

مركزَ البريطانيين في القاهرة، والمكانَ الذي قصدته العائلة وأصدقاؤها لحضور القدّاس كلّ يوم أحد، ولحضور مدرسة الأحد، وفيها جرى تثبيتهم. كان كلّ يوم من أيّام الدراسة يبدأ بترنيمة بروتستنتية، وهي عادة لم تتوقَّف بعد مغادرة مصر في سن الخامسة عشرة. ففي القسم الداخلي من مدرسة ماونت هيرمن Mount Hermon «كان يُطلَب منّا أن نحضر الطقوس الكنسية أربع مرّات في الأسبوع (بما في ذلك أيام الأحد)»[71]. وفي وقت الغداء كان يطلب من الطلبة كلَّ يوم أن يقفوا خلف كراسيهم قبل الجلوس لينشدوا معا صلاة المائدة بصوت واحد للتعبير عن الشكر لما هم على وشك تناوله. وباختصار، حضر سعيد عددا لا يحصى من الطقوس والترانيم والصلوات، وهي تؤسس إيقاعات أذنيه وتدرِّبه على اختيار الكلمات الإنكليزية ذات اللون الخاص[72]. لم تكن المؤثِّرات كلُّها ذات طبيعة رسمية خالصة. فالأوامر التي تطلب معاملة الفقراء بالعدل والإحسان تداخلت مع اللياقة الليبرالية السياسية التي اتَّصفت بها عائلة وجدت نفسها على رغم ثرائها مضطرَّة إلى التركيز على مصير من حُرموا من حقوقهم.

***

ربما كان سعيد الأوَّل بين مكافِئات(*) في العائلة العربية التي تتمركز حول الذكور في أيام شبابه، ولكنه أقام فكره على فطرة المساواة المسيحية التي تعلَّمها من النساء في حياته بدءا بأمِّه. وقد عبَّر بصراحة بالغة فيما يخصُّ ذلك الفرد من العائلة الذي كان مستعدا للبوح له بأسراره: «كانت والدتي من غير شكٍّ أقرب رفيق لي في السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياتي... بينما كانت صلتي بأخواتي الأصغر سنّا مني... فاترة وغير مُرضية بالنسبة إليّ على الأقلّ»[73]. وقد بقي هذا القرب من الأم على حاله إلى النهاية، من دون أن ينطبق هذا على العلاقة مع الأخوات. وقد عبَّر عن شعور بالمرارة عندما ادَّعى أن أباه لم يكتب له «رسالة شخصية حقّا» – بل كان يملي الرسائل على سكرتيرته ويوقعها بعبارة «المخلص و. أ. سعيد»؛ لكن أوراق سعيد تحتوي في الواقع على رسائل من الأب يملأها الشعور بالألم وعدم الشعور بالأمان. ففي العام 1965 مثلا توسّل وديع إلى ابنه أن يكون أكثر ترحيبا بالأقارب

(*) المكافِئات هن أخواته؛ وسعيد هو الأكبر سنّا بينهنّ. [المحرر].

عندما يزورونه، وأن يتَّصل بشريك له في العمل نيابة عنه. لكن سعيد أجاب بقوله إنه «ملَّ من تذكيره بأنه شخص سيِّئ وأنه لا يرتقي إلى الدرجة المطلوبة من الأخ الطيب والابن البارّ... إلخ»[74]. ثم أضاف: «أظن أن الوقت قد حان لأن يقال لأخواتي إن عليهنَّ أن يعاملنني بطريقة تليق بالأخ الأكبر».

تمكَّنت أخته غريس، التي تكفَّلت بالعناية بهلدا في أثناء العلاج من السرطان في واشنطن في أواخر عمرها، من رؤية تصرُّفات سعيد نحو أمِّه عن كثب، وتعجّبت كيف أن الاثنين كانا يقضيان الساعات وهما يثرثران على التلفون كلَّ يوم. لا ذِكْر من هذا القبيل في كتاب «خارج المكان»: تأثير الاحتضان العاطفي للأمّ بما في ذلك من حلاوةٍ ومرارةٍ، دورها الرقابي والإداري تجاه أبنائها، و(فيما يقول سعيد) «لاستخدامها سلاح التلاعب بنا، وجعلنا نفقد توازننا، ووضعي موضع خلاف مع أخواتي والعالم»[75]، ولا نجد شيئا في الكتاب عن حكمها القاسي بأن أطفالها جميعا قد «خيَّبوا أملها». تتذكَّرها جارتها ناديا الجندي، التي وجدتها «جميلة بحقّ... بوجنتين عاليتين، وبشرة رقيقة»، وتتزيَّن دائما «بقطع مدهشة من الحلي»، على عكس ما كان سعيد يصفها به: فتتذكَّرها وهي «تعدِّد مواهب أطفالها»[76]... أما غريس فتقول بوضوح: «أعتقد أننا كلنا حصلنا على ثقافتنا السياسية من أمّي. كانت تؤمن بالقومية العربية... وكانت دائما ما تشارك في القضايا الاجتماعية»[77]. كان عبدالناصر قد ألغى المحاكم الدينية التي تتحكّم في القوانين المتعلِّقة بالأسرة، وأرسل المهندسين والأطبّاء إلى الأرياف، وخصَّص معونات حكومية للفنّانين، وشجَّع الإصلاح الزراعي، وأعطى النساء حقَّ الانتخاب. لم تكن هلدا ذات نشاط سياسي، ولم تنتمِ إلى حزب، ولكنها كانت «متحمِّسة» لعبدالناصر، وتشعر شعورا عميقا بالظلم الاجتماعي في مصر[78].

أثَّر الأسلوب الفكري لدى الأم في ابنها الوحيد. وكما قالت جين: «كانت ماما تميل دائما إلى خلق القصص وروايتها. حتى لو كانت الحادثة بسيطة، كانت ماما تزيِّنها بالتفاصيل والألوان، وتسبغ عليها هالة من الأهمية الاجتماعية والتاريخية»[79]. وعلى غرار أصحاب الواقعية السحرية magical realists في روايات أمريكا اللاتينية، وَجَدَتْ الواقع من الغرابة بحيث يحتاج إلى ابتكار القصص لاكتشاف معناه. كذلك شكَّلت والدة هلدا، تيتا منيرة - المرأة الأخرى التي تقود حياة آل سعيد - مثلا

آخر يصعب تجاهله. فقد احتفظت «بقاعدة بيانات ضخمة عمَّن غادر فلسطين ومتى في حرب العام 1948 التي أبعدتها هي وبنيها عن وطنها. كانت تعرف أين حطّت الرحال بكل فرد من دائرة معارفها الواسعة، وأين انتهى بهم الأمر بصفتهم لاجئين»[80]. كانت عائلتهم عائلة «من رواة القصص وحفظة السجلات».

حصلت حالات متماثلة غريبة جعلت العائلة الممتدَّة تتماسك أكثر من قبل. فنحن نعرف أن هلدا فقدت بكرها الذكَر، أما أمها فقد فقدت ابنتها البكر. وكان من نتيجة ذلك أن سعيد لم يحصل على إخوة مثلما أن هلدا لم تحصل على أخوات. وبما أن سعيد كان محاطا بالبنات والنساء فإن الفرصة أتيحت لتقوية العلاقة مع ابني عمَّته نبيهة اللذين يكبرانه بنحو سبع سنوات. ولكن الغريب أيضا أن أقدم أصدقائه وأعزهم على قلبه، وهو إبراهيم أبو لغد، كان – كما لاحظ سعيد في نعيه الذي نشره في العام 2001 - محاطا بالنساء هو الآخر؛ «أبا لثلاث بنات موهوبات وزوجا لباحثة متميِّزة»، ولذلك فإنه كان «أكثر تسامحا مع النساء مما هو معتاد لدى عربي»[81].

حافظ أنسباؤه على هذا النمط. فقد كانت مريم قرطاس (التي تزوَّجها في العام 1970) البنت الوحيدة لعائلة ثرية تعرف في أنحاء لبنان كلها بصناعة الأطعمة المعلَّبة وأنواع المربّى. وهكذا ارتبط سعيد بهذا الزواج بأنسباء يشبهون عائلته من حيث الثراء المتحقِّق من تجارة حديثة العهد، ومن حيث الانتماء إلى أقلية دينية مسيحية (هي الكويكرز Quakers في حالة آل قرطاس)، ولكنها أقلِّية مملوءة بالنساء المربِّيات الملتزمات اجتماعيّا. كانت تجارة عائلة قرطاس المتخصِّصة في حفظ الأطعمة قد نمت مباشرة من عملها الخيري في حقبة المجاعة التي اصطنعها الأتراك إبّان الحرب العالمية الأولى بتحويل المؤن إلى العسكر. وكانت أزمة الطعام شديدة الوطأة على منطقة جبل لبنان، حيث أقام آل قرطاس خدمات جمع الأطعمة وتوزيعها. وعندما لاحظ الزوّار الكويكرز البريطانيّون ذلك دعوا عددا من أفراد العائلة إلى إنكلترا ليعلِّموهم فنّ التعليب. فأسَّس أبو مريم تجارته من الصفر، كما فعل وديع، وكان مثله أنيق المظهر، رياضي البنية، وفاز فيما بعد ببطولة التنس في لبنان.

أسَّست جماعة الكويكرز الصغيرة المكوَّنة من خمس عوائل مجتمعها الصغير في برمّانة حيث يقع منزل عائلة آل قرطاس، على مبعدة اثني عشر كيلومترا من

المنتجع الصيفي لآل سعيد في ضهور الشوير، وهو المكان الذي دفن فيه سعيد فيما بعد. كان الكويكرز الذين انتقدوا الأنغليكانيين ودعوهم «طائفة الشلن» congregation of the shilling علمانيين إلى الحدّ الذي يمكن لطائفة مسيحية أن تبلغه: يهتمون بأمور الجماعة، ولا يكترثون بالوعّاظ، ويهتمّون بعمل الخير[82]. وعلى عكس والد هلدا المعمداني الذي يؤمن بأنه ولد من جديد في الناصرة، كانت أمّ مريم، وداد مقدسي قرطاس، التي أبدت ميلا ملحوظا في طفولتها إلى قراءة الكتاب المقدَّس، قد منعت منعا صريحا بأمر من أبيها من حضور المدرسة الإنجيلية الأمريكية خشية المبالغة في التديُّن[83]. بيد أنها في النهاية أصبحت مبشِّرة إلى حدٍّ ما، وعملت بإخلاص في تدريس الإنسانيّات في كلية بيروت للنساء. أما النساء اللواتي لم يلتحقن بسلك التعليم في مجتمع شكَّل تعليم النساء فيه خطوة مهمَّة للإصلاح الاجتماعي، فقد أصبحن كاتبات أو مكافحات لحصول المرأة على المساواة.

وعلى رغم أن وداد، مثلها مثل والدَيْ سعيد، كانت تحبُّ أن تصدر مواعظ عن ضرورة عدم إضاعة الوقت، وعدم ترك الفضلات على الأرض، وعن ضرورة احترام الجيران وما إلى ذلك، فقد كانت من نواحٍ عديدة - فيما تقدِّر مريم - «اشتراكية من اشتراكيّي القرن التاسع عشر»[84]. وقد أدخلت وداد هي ومريم فكرة العداء للإكليروس في حياته. وتذكر مريم أن وداد قرَّرت في صيف إحدى السنين «أن تغيِّر كلَّ الترانيم التي تُنْشَد في المدرسة لأنها كانت باللغة الإنكليزية وكانت ذات محتوى ديني. وكانت على مرِّ السنين قد فقدت تعلُّقها بالكتاب المقدَّس واشتكت من الدور الذي كان الدين يؤدّيه في الشرق الأوسط. وأمضت أيامها في قراءة الشعر العربي واختارت قصائد لكي تُلحَّن». وإلى جانب إدارة منزل العائلة وإعفاء سعيد من أيٍّ من الواجبات المالية والتنظيمية المترتبة على تربية طفلين عرَّفته مريم وعائلتها على المجتمع البيروتي والحياة الفكرية المحيطة بالجامعة الأمريكية في بيروت.

غير أن قطبي نشاطه في مجالَي العمل الفلسطيني والتعليم الجامعي رمزت لهما شخصيَّتان مهيمنتان أخريان هما آنتي ميليا (التي كانت في الواقع أخت جدّته لأمِّه) وآنتي نبيهة (أخت أبيه). الأولى – وهي التي يعرفها تلاميذها باسم «مِسْ بدر»، غير المتزوّجة، الحازمة، صغيرة الحجم، بعينين زرقاوين نفّاذتين – كانت (كما يذكر حَبَشي) «واسعة الشهرة» في القاهرة، ويقرُّ الجميع بأنها كانت معلِّمة لامعة ومربِّية

قاسية للشابّات اللواتي صقلتهن صقلا يتوافق مع ما أرادته لهن من استقلال واحتشام: «كانت سيِّدة تنحو للشدَّة»[85]. أمام هذه السيدة الفولاذية التابعة للكلية الأمريكية للبنات في القاهرة «كان يقف جيل من الطالبات المرعوبات»[86]. أما أخوات سعيد فلم يحببنها؛ كانت في نظرهنّ شديدة البرود والمزاجية، وعلى النقيض من جدّها، الواعظ المعمداني. لكن ليس من الواضح كيف تمكَّن سعيد من كسر نطاق أسلوبها المنفِّر ومن أن يصبح «الأثير لديها»، وكيف أصبحا صديقين «الروح بالروح» كما يقال. فحفلات الشاي شبه الرسمية التي ترأّستها مع أخواته لم تشمله، ولكنهن دهشن فيما بعد عندما اكتشفن عاطفته نحوها[87]. لم يكن أيٌّ من ذلك باديا للعيان عبر سنوات النموّ. لقد كنَّ في وضع يمكِّنهن من تقدير النوايا الطيِّبة خلف قسوتها. ومع ذلك فإنه وثق بها وأودعها أسراره. ومن المغري أن نحسب أن شيئا منها قد وجد طريقه إلى قصيدة سعيد بعنوان «احتفالٌ في ثلاث حركات» A Celebration in Three Movements:

كلٌّ من عرفها أحبَّها: تلاميذها
مضوا قُدُما على موجات ما حقَّقته...
صرختُ: كانت شوكة جميلة ...
أُخْبِرْنا عن التصبُّب عرقا، والغرف المنعزلة العليا، والتصميم
اجلس وابتكر، هذا كلّ ما هنالك
اشترِ كلَّ ما تحتاجه من المخزن المجاور - الضوء، والغراء، والمسطرة[88].

كان التعليم الذي تمارسه ميليا أكثر من هداية جيل الشباب؛ كان دعوة إلى الانضباط الذي يعتمد عليه التطور القومي. وبهذا المعنى كان حبه لها لا ينفصل عن التشدُّد الذي خشيه الآخرون عندها.

أما نبيهة، عرّابة إدْورْد (أي أمّه في العماد)، وهي امرأة قصيرة القامة ممتلئة الجسم، فقد تركت فيه أثرا كبيرا بما روته من قصص محزنة عن المصاعب التي واجهها الفلسطينيون بعد العام 1948 خلال تناول وجبات الغداء المعتادة في يوم الجمعة في بيت سعيد[89]. ويروي سعيد بالتفصيل كيف أنها ألهمت إحساسه بانتمائه الفلسطيني عند زيارة المستشفيات ومخيَّمات اللاجئين بمرافقتها، ليراقب عن كثب المأساة الإنسانية التي يعانيها من فقدوا أملاكهم ووطنهم وهم يتدفَّقون

إلى القاهرة بعد العام 1948. وكانت قصصها عن سوء التغذية، والدوسنتاريا، وفقدان الوطن، ومطالباتها الدائمة من السلطات الحكومية والمؤسسات الخيرية لتقديم المعونة للاجئين الفلسطينيين الذين يتدفَّقون على القاهرة قد أثَّرت في سعيد بأن جعلته يدرك هويته للمرَّة الأولى. كانت نبيهة وميليا شخصيّتين مختلفتين تماما: إحداهما باردة العاطفة، والثانية صبورة متعاطفة. كانتا تنتميان إلى جيلين مختلفين ومن فرعين مختلفين من العائلة. ولكنهما مثَّلتا القطبين اللذين تأرجح بينهما المدى العاطفي الواسع لسعيد.

لكن إلى جانب النساء اللواتي مثَّلن الجانب المتصلِّب من التربية السياسية التي تلقّاها سعيد، كان ثمة عدد من الرجال الراديكاليين في حياته. فحتى قبل وصوله إلى منتصف العقد الثاني من حياته كان يكنُّ احتراما أخلاقيا لليسار، لليساريين المتطرِّفين أحيانا من غير أن يصبح واحدا منهم. وعندما قال في كتاب «خارج المكان» إن حياة فريد حدَّاد وموته، «وهو ناشط ملتزم من أعضاء الحزب الشيوعي... ومناضل من أجل قضية اجتماعية ووطنية» كانا «موضوعا ضمنيّا في حياتي على مدى أربعة عقود»، فإنه لم يكن يعترف فقط باتجاهٍ من اتجاهات الشباب، بل كان يعلن أن مثال فريد كان يكمن

تحت كلّ ما عُرف به بعد ذلك، ويعلن كذلك أن أولئك الذين عرفوا جوانب أخرى من حياته تجاهلوا تلك الحقيقة[90].

كان سعيد يعرف فريد وهو صبيّ في القاهرة، ولكنه أمضى معه فيما بعد وقتا في منتصف الخمسينيات في القاهرة بينما كان طالبا في المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية في پرنستن في رحلاته الصيفية حيث تعيش العائلة، فوجد أنه يقتصد في الكلام عن أفكاره السياسية وأنشطته التي تقع خارج مهنة الطب حتى إن ألحّ سعيد عليه طلبا للمعلومات عن كلا الجانبين[91]. وقد أحسَّ سعيد بالصدمة عندما علم في شهر ديسمبر 1959 أن فريد قد تعرَّض للضرب حتى الموت في السجن، وأن ذلك كان جزءا من «حملة الكبت الوحشية التي شُنَّت على المعارضة في مصر؛ بوفديّيها، وشيوعيّيها، والإخوان المسلمين فيها[92]». كان سعيد يتَّفق مع فريد في الرؤية السياسية، ولكن أشد ما جذبه إليه هو ما فرَّق بينهما: عملُ فريد بصمت وبلا مردود مادّي، تواضعُه وعدم اكتراثه بالترقي الوظيفي، التضحية بالنفس، والخضوع

للانضباط الحزبي فيما هو يقف حياته لمساعدة الفقراء. ما فعله – بكلمات سعيد – «فعله بصفته إنسانا له نشاط سياسي، وليس بصفته فلسطينيا بالضرورة»[93].

لقد وصف سعيد عمل فريد بكلمات ذات أصداء مسيحية واضحة بأنه كان يشبه عمل أبيه [أي أبي فريد] (وهو طبيب عائلة سعيد، وهو أيضا ذو نشاط سياسي) في أنه «إرسالية خيرية» مثلما وصف عمل نبيهة بأنه «يليق بالقدّيسين»[94]. ومن الممكن أن نقول الشيء نفسه عن المثال الآخر لسعيد، كمال ناصر، وهو مسيحي فلسطيني ومناضل بعثي (اشتراكي عربي)، كان يعمل صحافيّا ومحاميا ومتخصصا بعلم السياسة، ويعمل لمصلحة منظمة التحرير الفلسطينية. كان سعيد قد تناول معه طعام العشاء في الليلة السابقة لاغتياله في أبريل 1973 على يد فريق اغتيال أرسله الجيش الإسرائيلي إلى لبنان[95]. لم يجد سعيد كلمة تفوق في اقتصادها المحسوب أفضل من كلمة «فاضِلَيْن» وصفا للرجلين.

لم يكن سعيد في الواقع – كما حسبه كثيرون - مترفِّعا عن السياسة ثم أجبرته حرب العام 1967 على الانخراط فيها[96]. ففي قصاصة مطبوعة على ورقة ممزقة، وهي واحدة من كثير من أوراق تشبهها مدفونة في أوراقه التي تنتمي إلى المرحلة الجامعية الأولى، نجد محاولة لتعريف الذات: «أن يكون المرء مشرقيّا معناه أن يعيش في عالمين أو أكثر من دون الانتماء إلى أيٍّ منهما... معناه العجز عن الإبداع والاكتفاء بالمحاكاة... يكشف عن ذاته بالضياع، والتظاهر، وعدم الإيمان بشيء، واليأس»[97]. ومهما يكن ثمة من تقريع للذات عندما وصف طفولته بأنها «شرنقة» من الحظوة والدلال، فإن الشرانق تنمو وتحتضن، وتحضِّر الضعيف للاستقلال. ومهما يكن من أمر فإن عهد شرنقته كان عهدَ نُضجٍ قبل الأوان.

كان في عهد الشباب كثيرا ما أصغى لابنَي عمِّه يوسف وجورج وهما يلومان وعد بلفور من دون أن يفهم عمَّا يتحدّثان. ولكنه كان يحسُّ بغضبهما بما فيه الكفاية. وتذكَّر نقاط التفتيش في القدس الواقعة تحت الانتداب، والاحتكاكات الغامضة بين المستوطنين القدماء والجدد في الطالبية، وكان مايزال يصغي إلى إذاعة القاهرة وهي تصبُّ جامَّ غضبها على العدوّ الصهيوني[98]. أما ناديا فتتذكَّر أن إدْورْد كان أكثر وعيا وأشدَّ انتماء: «كان سعيد منذ صباه شديد الانتقاد لمظاهر الاستعمار البريطاني، ويتمرَّد على مراكز الإمبراطورية الجغرافية؛ ولكن صوته في تلك الأيام

كان صوتا في البرِّيَّة، صوتا غريبا»[99]. وعلى نحو لا يقلّ لفتا للنظر، وصف سعيد نفسه وهو يزور تيغرمان في القاهرة في الخمسينيات والستّينيات بأنه «ناصريٌّ ومناهض عنيف للإمبريالية»[100]. ولم يكن بوسع أحد سوى صبيٍّ لا يتأثر بحماس أمِّه في الأمور السياسية، أو متمرِّد ضدّ عمته الحبيبة التي أدارت مركزا لمعونة بني وطنها، أن يكون مغايرا لما كانه سعيد[101]. وبينما كان سعيد ينظِّم معتقداته ضمن برنامجٍ للعمل فإنه كان يتصارع مع عبثية الثوريين في الشرق الأوسط وتشرذمهم الذي يبعث على اليأس. وعلى رغم أنه وجد في مواقفهم ما يدعو إلى الابتعاد عن المنظمات فإن شخصيته السياسية كانت قد تبلورت في سنوات مراهقته.

2

عدم الاستقرار

جرح دنيوي مُزعزِع، مُقلِق، يسبِّب العجز وفقدان التوازن[1].

كان سعيد في الخامسة عشرة عندما وصل برفقة والديه إلى الولايات المتَّحدة في العام 1951 للالتحاق بالقسم الداخلي في مدرسة ماونت هيرمن، وهي مدرسة أسَّسها الواعظ الإنجيلي دْوايْت ل. مودي Dwight L. Moody في ريف ماساتشوستس في العام 1881 بـ « نْيو إنغْلَنْد». ومع أن الوالدين تحدَّثا حديثا عابرا عن انتقال العائلة إلى الولايات المتَّحدة (وتفحَّصا جدّيا بعض البيوت في مادِسُن بولاية ويسكونسن)، فإنهما تخلَّيا عن الفكرة، وسرعان ما عادا إلى

طُرِحَ عليه هذا السؤال: «أستاذ سعيد، ألا تشعر بشيء من الغربة في أمريكا؟»، فقال: «أشعر بها، ولكنني أتجاوزها»

القاهرة. وكان أبواه يأملان من المدرسة أن تزوِّد ابنهما صعب القياد بالانضباط الديني الذي يحتاج إليه حاجة ماسَّة بعد الصدامات التي واجهها مع مسؤولي كلية ڤكتوريا، إلى جانب تزويده ببداية جديدة. لكن سعيد كره تلك المدرسة كرها بالغا، فقد وصفها بأنها «تكتم الأنفاس» على رغم أن الأدلَّة المتوافرة لا تؤيِّد ذلك الوصف.

لكن لا شكَّ في أن ضيق أفق البيئة الجديدة بدا خانقا عند مقارنته بانفتاح البيئة الحضرية لمدينة القاهرة. على أنه لم يتعرَّض لمظاهر التسلُّط والمضايقة، بل استاء من نمط التعليم الأخلاقي الذي تمارسه المدرسة ويطلب فيه من التلاميذ أن يظهروا التواضع بأداء وظائف يدوية مثل تقشير البطاطا، ولكن ذلك كان بعيدا كلَّ البعد عن أن يكون العمل اليدوي الوحيد الذي أدّاه سعيد، فقد تضمَّنت واجباته العمل «منقذا» في السباحة، ومشرفا على الأنشطة الترفيهية لدى الرابطة المسيحية في هضبة پوكونو، وعاملا في كافتيريا الكلية بأجرٍ قدره دولار واحد في الساعة، وأمينا للصندوق لدى وكالةٍ لكرة القدم، وجليسا للأطفال[2].

وعلى رغم أن التعليم الديني كان جزءا أساسيّا من المنهاج الإجباري فإنه لم يكن يتَّصف بالتشدُّد أو بتلك النوعية من التديُّن التي تعرف باسم «ولدتُ من جديد»، والتي ترتبط في الأذهان بالمعمدانيين؛ ولذلك فإن من المحتمل من الناحية النفسية أن قسوة فصول الشتاء في نْيو إنغْلَنْد، والأفق الفكري الضيِّق للحقبة المكارثية في أمريكا أسهما في تشكيل حكمه القاسي أكثر مما أسهم به أيُّ تلقين مذهبي أو عقاب جسدي. والحقيقة هي أن هذه الفترة من حياته شهدت ازدهارا إبداعيّا، واكتشافا لمعلِّمٍ يوثق به، وأول اعترافٍ واسع النطاق بقدراته.

كان قد حصل على الجنسية الأمريكية، لكنه لم يكن قد تأمرك ثقافيّا. وكانت حركية الثقافة المشرقية قد أسهمت بتسهيل التأقلم مع متطلّبات العيش في بلده الجديد، لاسيما - كما سنرى - تعلُّقه بالأفلام السينمائية الأمريكيّة الشعبية. لقد وجد سعيد منذ البداية أن الحياة في الولايات المتَّحدة تشجِّع على الغلُوّ، بالمعنى السلبي له[3]. فقد بدا له أن مثقفي البلاد ضيِّقو الأفق إلى درجة منفِّرة، واستاء على وجه الخصوص من كثرة أولئك الذين ينتمون إلى اليسار والذين تقبَّلوا طموحات حكومتهم الإمبريالية. أما المشروع الصهيوني، ذلك المشروع الذي قبله مشكِّلو الآراء السياسية في البلاد من دون الخوض في أسسه، فقد بدا له أشبه بإعادة تدوير للوحة

ذاتية تُصَوِّر – بفخر – صاحبتَها بوصفها دولة استعمار استيطاني أحلَّت شعبها محلّ السكان الأصليين بإرادة ربّانية لتحقيق رسالة في البرِّية، إن شئنا استخدام عبارة من موعظة ألقيت في ماساتشوستس في العام 1670[4].

باستحضار صورة اليبوريتانيين وهم يهربون من الاضطهاد الديني في إنجلترا، كان المنفى دائما جزءا من الذخيرة اللغوية للبلاغة الأمريكية، وهذا هو ما جعل سعيد يسعى إلى التنصل من العبارة: «ثمة قدر من المبالغة في وصفي باللاجئ»[5]. ولكنه لم يقصد أن فقدانه موطنه الأصلي، بغض النظر عن السـبب، أشعره بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم الجديد. فقد كانت صورة البلد المكوَّن من منفيين يبنون العالم من جديد على رغم صلتهم القوية بالعالم القديم أقرب إلى الصورة المتكررة في الرواية الأمريكيّة على الأقلّ. وبعد مضيّ سنوات قال هاري لَفِنْ Harry Levin إن الموضوعين الكلاسيكيين في فنّ الرواية الأمريكية هما «اليهودي المتجوِّل» و«الهولندي الطائر»؛ وهما شخصان متنقِّلان لا ينفكّان ينظران باتجاه الوطن، ويعيشان في حالة وسط بين «عشق السفر والحنين إلى الوطن»[6].

سيعترف سعيد مع مرور الوقت بأمريكيته بما قد يبدو لكثير من القرّاء بأنه شعور غريب بالوطنية؛ وذلك بسبب انتقاداته السياسية: «يجب ألا ننسى أن بلدنا جمهورية من المهاجرين: هذا ما يجعله فريدا، وعلى درجة غير عادية من الانفتاح، وعدم الثبات، ومن الجاذبية المثيرة... [إن أمريكا] تمرُّ دائما بعملية الكشف عن نفسها والتحوّل من حال إلى حال»[7]. ولكنه لم يكن متَّسقا مع نفسه حول هذه النقطة. ولئن كيَّف نفسه للتأقلم مع نيو إنْغْلَنْد أوّلا ومن ثم مضى لاحتقار ما وجد أنه ثقافة شعبية بلهاء («كانت حياتي خالية من آلات سكب المشروبات الغازية، ومُعدّيها» بتعبيره الساخر) فإنه اكتشف في الأفلام الأمريكية لمحة غير مباشرة من الحياة الجنسية التي تعرَّف عليها ثم حُرم منها في الحياة الليلية في القاهرة[8].

كان انتـماء المرء إلى أمريكا وإلى العـالم القـديم في الوقت نفـسه غير ممكن إلا في نيويورك، مدينته «المتلوِّنة» وفقا لتعبيره، مدينة التحوُّلات الجذرية في السياسة والفنون، «مدينة الاقتصاد الرأسمالي المعولم»، مرجل «الوافدين المنشقّين المبدعين من المدن الأخرى»[9]. ومن الممكن أن نقول إن سعيد كان نيويوركيّا قبل انتقاله إلى أمريكا. وفي السنوات 1948 و1950 و1951 قضى سعيد كثيرا من وقته وهو يتسكَّع

في دور السينما فيها أو في متاجرها ومطاعمها. وكانت طريقه إلى البلاد ومغادرته إياها تأخذه عبر شوارع هذه المدينة الكبيرة ذات البنايات الشاهقة[10].

ومع حلول الزيارة الثالثة وقبل أن يودعه أبواه في ماونت هيرمن من دون حفاوة كبيرة، كان إدمانه على دور السينما في الشارع 42 قد ترسخ؛ وهو موقع عرض الأفلام السينمائية المعتادة قبل أن تصبح المنطقة منطقة سيئة السمعة بوقت طويل. فقد كان قبل ثلاث سنوات وهو في طريقه إلى مخيَّم ماراناكُك الذي كرهه قد اكتشف في مانهاتن «عالم الأفلام الملونة الباذخ... الذي كان يتوقَّع أن يجده في أمريكا»[11]. وبعد التخرُّج في ماونت هيرمن طاف في أنحاء نيو إنغلند، برفقة ابن عمه وعائلته التي أشعرته بالملل، وهي رحلة لم يشفع لها سوى الأسبوعين الأخيرين اللذين قضاهما في فندق ستانهوپ المعروف في الجهة المقابلة لمعرض المتروپولِتَن للفنون في مدينة نيويورك التي لم تعد أرضا غريبة.

على أن إدْوَرْد لم يكن وحيدا في العالم الجديد مهما بلغ من إحساسه بالوحدة. فقد كان هنالك من بين أقربائه من العرب الذين يعيشون في الولايات المتَّحدة شارل مالك(*)، سفيرُ لبنان في واشنطن فيما بعد، وصاحب الشخصية الجذابة التي لا تملك إلا أن يكون لك منها موقف، إذ كان يعيش في واشنطن مع زوجته إيڤا، ابنة عمّ هيلدا. كان هنالك أيضا آبي Abie، الذي كان يعيش في وودسايد، في كوينز(**). وقد تصرَّف كلاهما تصرُّف وليّ أمر سعيد عند حاجة سعيد إلى شيء من المال أو غير ذلك من الحاجات الضرورية، على رغم أن العلاقات مع الطرفين زادت صعوبة مع مرور الوقت[12]. وفي حالة آبي، وهو ابن عمِّه الراحلِ أسعد، الأخ الأكبر لأبيه، كان المهرب الوحيد لسعيد من روتين ماونت هيرمن هو زيارة العائلة آبي في العطلتين المدرسيتين. كان سعيد يكره هذه العائلة، ويهرب كلما سنحت الفرصة ليشاهد فيلما سينمائيا بعد آخر[13].

إن الصبي الصغير في كتاب «خارج المكان»، وهو صبي يثير الرثاء من بعض النواحي، ويتَّصف بالبطولة من بعضها الآخر، ويوصف دائما وصفا فيه قدر

(*) شارل مالك ليس قريبا، بل هو نسيب، لكن علاقة القرابة باللغة الإنگليزية تشمل القرابة بالدم والقرابة بالنسب. [المترجم].

(**) قصبة من قصبات نيويورك. [المترجم].

كبير من المفارقة، لا يتحدَّث أبدا. ولذلك فإن مشاعره وأفكاره تبقى حبيسة في حساسية هي له في جانب منها، ولكنها أكثر من ذلك؛ لأن الذات الأكبر سنّا تعرف الذات الأصغر سنّا، بينما العكس ليس صحيحا. وعلى سبيل المقارنة، نجد أنه في شعره ورسائله المرسلة من المدرسة في بداية منفاه الثاني (بعد مغادرة القدس) يصوِّر شخصية لا نراها في بطل المذكِّرات المنهك الذي لا هدف له، وقد أخذت معالمها تتضح للمرَّة الأولى.

لقد أدّى الانتقال إلى أمريكا إلى وضع حدٍّ للتنقُّل إلى خمس مدارس منفصلة على مدى ستِّ سنوات. وكان قد ترك كليَّة ڤكتوريا في جوٍّ من الشكّ: هذا أمر مؤكَّد. وليس بإمكاننا البتّ فيما إذا جاء فصله منها بسبب وقاحته أو شجاعته في الوقوف في الصف ضد الطغيان، ولكنه كان في كل الأحوال طفلا صعب المراس؛ «ليس مستقرّا تماما» كما وصفه مدرّب التنس في مدرسة ماونت هيرمن. ما لم يُقَل هو أن سعيد كان فظّا في مواجهة السلطة؛ إن لم يكن يتحدّاها علانية. لم يطل الوقت حتى تبعت الحادثةَ معركةٌ باللكمات مع طالبٍ متنمِّر. فقد لَكَمه سعيد لكمة على أنفه أرسلته إلى المستوصف.

يشير سعيد إلى أنه «طُرِد» من كلية ڤكتوريا، ولكن ذلك ليس صحيحا من الناحية الإجرائية، إذ كان الأمر أقرب إلى فصلٍ مؤقَّت لمدَّة أسبوعين بعد مجادلة مع معلِّم أزعجه عدم امتثال طلبته له، ففقد أعصابه واتَّهم سعيد بأنه المحرِّض. وهنا رأى أبوه أن من الأفضل إبعاد ابنه عن المدرسة، وأدرك أن نظام التعليم البريطاني قد أصبح عبئا جسديّا ومعنويّا على إدْوَرْد، وأخذ يؤثِّر في دراسته. ثم جاءت دوافع أخرى، فقد أوضح مدير الكلِّيَّة بالإنابة س. هاول-غرِفث أن سعيد ليس له مستقبل في النظام البريطاني، وأنه لا يثق بقدرات سعيد على المدى البعيد، وحذّره من أن رسالة التوصية التي سيكتبها ستكون فاترة اللهجة، وهي توصية لم تستغرق سوى سطرين ونصف السطر تبعها تقرير يقول فيه إنه لم يجد شيئا تميَّز به سعيد في حياته المدرسية أو الدينية[14]. وقدَّر على تقرير جاهز اهتماماته الفكرية وحسن تعامله مع الآخرين بقوله إنها من الدرجة الثانية، ولم يجد فيه سوى «وعد عاديّ» إذا ما التحق بالدراسة الجامعية.

أما المدير الذي عاد للعمل، ج. ر. غ. برايس فلم يكن تقريره بهذه الشدَّة، فقد طمأن مدرسة ماونت هيرمن بأن إدْوَرْد لو بقي سنة أخرى في كلية ڤكتوريا

لكان من المتوقَّع أن يحصل على قبول من أوكسفُرد أو كيمبرج[15]. لكن لم يكن من المستغرب أن يسعى وديع بالنظر إلى هذه التقديرات المتباينة إلى تحسين فرصه بطلب رسالة من صديق للعائلة تخرّج في مدرسة ماونت هيرمن هو جون س. بادو، رئيس الجامعة الأمريكية في القاهرة. وكان بادو هو الذي عرّف عائلة سعيد بتلك المدرسة، وشكَّلت توصيته دعما ضروريّا للطلب المهزوز للالتحاق بالمدرسة. فقد طمأن المدرسة (وليس ثمة ما يدعو إلى التشكيك في صدق ما يقول) بقوله إن الأب «حريص على أن يضع ابنه في مدرسة ذات أثر مسيحي طيِّب»[16]. وفي محاولة منه لإبرام الصفقة كذب سعيد، استجابة لنصح والديه من غير شك، وقال: «يمكنني أن أؤكِّد بثقة أنني لم أصادف مصاعب سلوكية في كلية ڤكتوريا أو أيِّ مدرسة أخرى»[17].

كانت هنالك أسباب أخرى وراء «شحن» إدْوَرْد إلى أمريكا. كان وديع يحسُّ بأن علاقة إدْوَرْد الحميمة بوالدته لم تعد علاقة صحية، وأنها أخذت تشلُّ نموَّه العاطفي. ولكن الدافع الرئيس كان الاحتفاظ بالجنسية الأمريكية كما أوضح إدْوَرْد في رسالة الطلب المكتوبة بخطّ اليد: «بما أنني عشت في مصر طوال حياتي فإن عليّ وفقا للقانون أن أقضي خمس سنوات في الولايات المتَّحدة إلى أن أبلغ الحادية والعشرين من العمر. أبلغ الآن الخامسة عشرة والنصف، ولذلك فإنني سأكون مضطرّا مع نهاية هذه السنة إلى الذهاب إلى أمريكا للمحافظة على جنسيَّتي»[18]. ولئن اضطرَّ وديع إلى العودة إلى وطنه من الولايات المتَّحدة بسبب وعد قطعه لأمه، فإنه صمَّم على أن يحصل إدْوَرْد على فرصة للبقاء. كان ما حصل في كلية ڤكتوريا شيئا عجّل باتِّخاذ القرار.

لم تكن الدلائل في البداية تبشِّر بخير. كان الطلب الذي كتبه للالتحاق بماونت هيرمن بدائيّا، بل كان مملوءا بالأخطاء النحوية، تلوح منه لهجة أرستقراطية صارخة المعالم. فقد بيَّن أن اهتماماته اللامنهجية تشمل التنس، وكرة القدم، والسباحة، وركوب الخيل؛ وكان عضوا في جمعية المناظرة والجمعية العلمية. لم يكن قد وصل إلى قرار نهائي بشأن هدفه في الحياة بعد، ولكنه «يميل إلى أن يدرس الطبّ». وقد مضت دراساته وفق النمط المعهود للطلبة الذين ينوون الالتحاق بكلية الطب ولكنهم يكتشفون أنهم ينتمون إلى الفنون والإنسانيات بعد الرسوب في مادة

التفاضل والتكامل. وكانت علاماته في السنة الأخيرة في كلية ڤكتوريا غير متميِّزة: A- في اللغة الإنكليزية؛ C في علم الأحياء؛ C+ في الكيمياء؛ C- في اللغة الفرنسية، وهذه علامة تثير الاستغراب.

وبغضِّ النظر عن نواحي ضعفه في البداية، فإنه خلَّف انطباعا لا يُنسى. فقد كان طالبا منتقلا وصل المرحلة السابقة لمرحلة التخرُّج، وكان قد قضى سنتين في كلية ڤكتوريا، ولم يكن قد بلغ السادسة عشرة بعد. وكان يبدو في الصورة المرفقة بالطلب كأنه في الحادية والعشرين، وهذا ما يفسِّر كثرة الأعباء التي ألقيت على عاتقه في المدَّة التي قضاها هناك. وقد أسهم حجمه الجسماني، وميوله الرياضية، وطريقته الناضجة في التصرُّف في ترسيخ عادة ظلَّت ترافقه طول حياته، وهي البحث عن رفقة أصدقاء أكبر منه سنّا. كان ذلك هو الحال كما رأينا في حالة جيرانه في الضهور، منير نصّار وإخوته، واستمرَّ ذلك في علاقته الرومانسية الأولى بإيڤا عماد (التي كانت تكبره بسبع سنوات)، وبابْنَي عمِّه روبرت وألبرت، وبصديقاته في المرحلة الجامعية الأولى في پرنستن، ومن ثم في علاقاته مع مجموعة الزملاء التي كوّنها عندما أصبح عضوا في هيئة التدريس في جامعة كولومبيا؛ وكانوا كلهم يكبرونه بسبع سنوات تقريبا.

كان الضعف الواضح في تفكيره الذي كشف عنه تقرير نفسي أعدَّته المدرسة نتيجة لاختبار معتمد يقوم على اختيار الإجابة الصحيحة من عدد من الإجابات دليلا آخر على المرحلة الانتقالية. فقد أربكته أسئلة بسيطة في الرياضيات، وكذلك فعلت أسئلة عن التعرُّف على بعض العلاقات البصرية والمكانية. لم تكن العلامة التي حصل عليها بالغة السوء، لكن الأخطاء كشفت عن بعض نواحي الضعف العاطفي، ففي الجزء الأخير أعطي سلسلة من الأسئلة التي تعتمد على صيغة «ما هو عكس الأمل؟»، حيث كان الجواب الصحيح هو «اليأس» طبعا. كذلك أعطى الجواب الخطأ عن سؤال يقول: أيُّ الجمل الآتية هي الأصحّ: الآباء أحكم من أبنائهم: 1) دائما؛ 2) عادة؛ 3) بكثير؛ 4) نادرا ما يكونون؛ 5) لا يكونون أبدا، فأجاب بكلمة «دائما» فكان جوابه خطأ. كذلك أجاب عن سؤال يقول: «الأمُّ ----- من ابنتها»: 1) أحكم؛ 2) أطول؛ 3) أضخم؛ 4) أكبر سنّا 5)؛ ذات تجاعيد أكثر، فأجاب: «أحكم»، وبذا كشف خطؤه عن جانب من نفسه.

غير أنه سرعان ما استقرَّ وضعه بعد هذه البداية المتعثِّرة، وانطلقت إمكانياته الكامنة في داخله، وأصبح بعد سنة واحدة قضاها في ماونت هيرمن «عازفا متميِّزا للبيانو»، واكتسب القدرة على التعبير عن نفسه بثقة وبأسلوب يقرب من الملق. ويظهر من الصورة المنشورة في الكتاب السنوي أنه أنيق المظهر، ولا يبدو أنه ينتمي إلى منطقة جغرافية بعيدة؛ وهو في الكتاب واحد من ثلاثة من الطلبة «غير البيض» إلى جانب اثنين من الأفارقة الأمريكيين من فريق الإنشاد. وقد علَّق سعيد ساخرا فيما بعد أنه بلغ تمسّكُ المكان بصبغته الثقافية الخالصة مبلغ أن الطالب القادم من هونولولو ضُمَّ إلى النادي الدولي. وعلى رغم أن الوقاحة لم تبلغ بأيٍّ من زملائه في الدراسة حدَّ أن يدعوه wog(*) بحضوره فإنهم عاملوه على هذا الأساس وفقا لأصدقائه في تلك الآونة[19]. وقد بلغ من عنصرية البيئة في تلك الفترة أن وليم سپانوس William Spanos، مؤسِّس الصحيفة ذات التوجُّه ما بعد الحداثي المسمّاة boundary 2، الذي كان كثيرا ما يتراسل مع سعيد فيما بعد، صادف أنه كان مدرِّسا شابّا في ماونت هيرمن في ذلك الوقت؛ وكان تلاميذه يطلقون عليه لقب spic(**) من وراء ظهره بسبب أصله اليوناني[20].

ومع ازدياد ثقة سعيد بنفسه، غامر للمرَّة الأولى بدخول عالم الأدب. وفازت قصيدته بعنوان «القلعة» The Castle بجائزة هيو فِنْدْلي Hugh Findlay للشعر في سنته قبل الأخيرة في المدرسة. وفيها مهَّد للموقف بالاستعانة بالمتّكآت المتوقَّعة. «هناك، على قمَّة جبل وعر... يستعرض الصليبيون الشجعان حشود المسلمين»(***). وتعلو باتِّجاه الجدران صرخات عالية «من السراديب القذرة، وتُنتِج سيمفونية من أصوات متنافرة»[21]. وفي محاولة غريبة تمزج فرانز كافكا وألْفْرِد لورْد تَنِسن Alfred Lord Tennyson، يلمِّح سعيد إلى موضوعاته السياسية التي اتَّضحت فيما بعد. الدمار يأتي لأولئك الذين ينظرون إلى العرب «نظرة ملؤها الكبر والاحتقار». ولا ينقشع الجوُّ الرهيب إلا على يد قوَّة أعظم من

(*) كلمة تُستعمل في اللهجة السوقية البريطانية للتعبير عن احتقار الملوّنين، لاسيما القادمين من شمال أفريقيا أو غرب آسيا أو جنوبها. [المترجم].

(**) كلمة تُستعمل في اللهجة السوقية للتعبير عن احتقار شخص من أصول إسبانية. [المترجم].

(***) الكلمة الأصلية هي Saracens، وقد اختلف في أصلها، ولكنها تشير في العادة إلى المسلمين في سياق الحروب الصليبية. [المترجم].

القسوة الإنسانية؛ القوَّة الطاحنة للطبيعة التي تنخر الجدران إلى أن تنهار «كأنها لعبة من الطين تحوّلت إلى غبار».

لربّما كان سعيد في مرحلة النضج سيعامل هذه القصيدة بالقسوة التي عامل بها «الشويعر المتبسم» كيث بَلِنْ Keith Bullen، ذلك المدرِّس المكروه في مدرسة الجزيرة الحكومية الذي استعمل الخيزرانة لمعاقبته على سوء تصرُّفه. ففي كتاب «خارج المكان» سخر سعيد من «الأشعار المنمَّقة المتحذلقة» التي كتبها معذّبُه سابقا، بما «فيها من كلمات غريبة الوقع وأسلوب مفتعل» (مثل عبارة «الخوخ المدمّى» Peach incarnadine)[22]. لكن لو كان سعيد قد فعل ذلك لما كان منصفا؛ فخلافا لعبارة بلن: «العطور العنيفة» Perfumes Violent، تلك العبارة التي ترد في قصيدة كُتبت لتُنشَر في مجلَّة أدبية ليقرأها البريطانيون خارج البلاد، كتب سعيد قصيدته بدافع الغضب ضد نظام لا يقبله العقل. ولا ننسى أنه كان في السادسة عشرة من عمره.

إن المحافظة على كناية القلعة على مدى خمسة وثلاثين سطرا أمرٌ يثير الإعجاب بحدِّ ذاته، بعرضه الواثق لحركتين مختلفتين هما القوَّة والاضمحلال. إذ لم تكن هاتان الفكرتان مجرَّد انطباعين عابرين، بل شكَّلتا سردا متماسكا يقوم على هدف أخلاقي جارح الصراحة. وفضلا على تمتُّعه بإحساس مرهف بالأصوات الأدبية، فإنه لم يكن بوسعه مقاومة إغراء الصيغ الڤكتورية التي لا يمكن ذكر القوّة (power) فيها بمعزل عن الجبروت (might)، وذكر اللبلاب (Ivy) دون تشبيهه بالثعبان (Serpent). وعلى رغم أن القصيدة تعاني التقليدَ على هذا النحو فإنها حاولت تحويل اللغة الشعرية القديمة العالية إلى سلاح لتدمير القلعة، ليس فقط لأنها ظالمة بل لأنها ضدّ الطبيعة. ومن الصعب علينا ألا نرى أن البنيان المتهاوي في الأسطر الختامية يرمز إلى أي شيء سوى الانتقام من كلية ڤكتوريا.

شعر سعيد بالسعادة بسبب ما تخلَّص منه، لكنه كان متردِّدا بشأن ما يعرضه الحاضر. وكان النفي من بيتٍ حَسَن التأثيث في مدينة ذات صبغة عالمية سيئا بما فيه الكفاية، ولكن كان عليه الآن أن يرضى بمدينة نورثفيلد بولاية ماساتشوستس، التي هي عكسها تماما. كانت الخدمة الهاتفية فيها مذبذبة، وفرص استعمالها نادرة. أما الرسائل البريدية فكانت من البطء بحيث تشبه الأعمال الورقية في بنك في كلكتا.

وقد عنت حياته «الرهبانية» – على حد تعبيره – التي عاشها في تلك المدرسة أكثر بكثير من التعليم الديني المنتظم والحمّامات المشتركة ومراحيضها المفتوحة. فعلى غرار الترتيب السائد في منطقة رابطة اللبلاب Ivy League(*)، فَصَلت مدارسها الثانوية الخاصة التابعة لها بين الجنسين وأسكنتهما في موضعين منفصلين. وكانت المدرسة المقابلة لمدرسة ماونت هيرمن هي مدرسة نورثفيلد للبنات. وقد حمى سعيد ذهنه من الاستغراق في الأفكار الملوَّثة بالنشاط الدائب في النادي الدولي (حيث عمل نائبا للرئيس)، والنادي الفرنسي (حيث عمل نائبا للرئيس)، ونادي هواة الطوابع (حيث كان الرئيس)، ونادي المناظرات، وفريق الإنشاد، مع أنه صار بعد ذلك مكانا غير مريح إلى حدٍّ كبير كأن الثلوج تقيِّد حركة الناس فيه، وحيث كان يشعر بالغربة النفسية والفعلية. وقد تحمَّل بسبب هذه الغربة الابتسامات الكاذبة وتعبيرات الاستهانة الخفية، وحُرِمَ من أن يوضع في المكان الشرفي الذي يسعى الطلبة إلى أن يوضعوا فيه (في الكتاب السنوي أو بصفته عضوا في المكتبة)، وهذان مكانان يخصَّصان للطلبة الذين يحصلون على ما حصل عليه من تميُّز أكاديمي. وهو عندما يقول إنه لم يشعر «بأنه كان جزءا من الحياة المدرسية العامَّة» فإننا نحسُّ بأن ذلك أشبه بالاعتراف، مع أن ثمة ما يدعو إلى أن نرى فيه شيئا من التبجُّح أيضا. كان يلعب وفق قواعد المدرسة على رغم احتقاره لها، وينتمي للمكان في الظاهر، ولكنه ليس فيه في الوقت نفسه.

غير أن السجلَّ الفعلي يدلُّ على أنه كان حريصا على المشاركة في الأنشطة العامَّة. ففي الملخَّص الإداري الذي صدر قبيل التخرُّج بقليل وجد المسؤولون أنه «ذو شخصية محبَّبة»، وأنه «متعاون طوال الوقت». وكتب المدير هاوَرْد ل. روبِنْدال أنه كان محبوبا جدّا، وأن مدرِّبيه وجدوا أنه «عضو بارز في المجتمع». أما زملاؤه في الدراسة فقد رأوا أنه متحفِّظ: شابٌّ حادّ الطبع، طموح، وأنه أشدُّ اهتماما بالأمور الدنيوية منهم. وعلى عكس الوضع في كلية ڤكتوريا وقع في بعض المشكلات في ماونت هيرمن بوصفه عالم العلماء

(*) تشير هذه العبارة إلى مجموعة من ثماني جامعات وكليات في الشمال الشرقي من الولايات المتَّحدة، وهي جامعات براوْن، وكولمبيا، وكورنل، ودارتْـمُث، وهارڤارد، وپرنستن، وپنسلڤانيا وييل، وهي تسمى بهذا الاسم لأن جدران بنايات الكليات القديمة كانت مكسوَّة باللبلاب. والأهمّ من ذلك أنها تعدّ من أفضل الجامعات الأمريكية. [المترجم].

الذي لا يرضيه شيء، وهو ما أعطاه فيما بعد تفسيرا مختلفا بقوله إنه لم يكن محبوبا «لأنني لم أكن ذا شخصية قيادية، ولم أكن مواطنا صالحا، ولم أكن متديِّنا»[23]. كذلك جرى تخطّيه من دون تفسير في عدد من مناحي التميُّز، وآلمه جدّا أنه حرم من التكليف بإجراء بحث في المكتبة. فبما أن ذلك التشريف كان يعطى لأفضل طالب في السنة، فإن ذلك هو ما طمح للحصول عليه أكثر من أيِّ شيء آخر.

كذلك كانت هنالك مسألة السياسة الإمبريالية، وهي المسألة الكامنة خلف قوله إنه «بمجرد أن أخذت الأمور السياسية المتعلِّقة بالعالم العربي تؤدّي دورا تزيد أهميته في الحياة الأمريكية» حتى وجد نفسه منبوذا اجتماعيا في بيئته الأكاديمية الجديدة. فحتى في مدرسة ماونت هيرمن عُرف سعيد بين أقرب أصدقائه إليه بأنه شديد الحماس للقضية الفلسطينية. كان هناك شعور بالإحباط سببه جهل الأمريكيين بثقافة كلٍّ من مصر وفلسطين وتاريخهما، ولكن اضطراره إلى مكافحة النظرة الضيقة لم يكن هو المصدر الرئيس لغضبه. لم يكن يحصل على ما يستحقُّه من تقدير، وترك ذلك أثرا بالغا فيه. قد يكون وصفه بالداعية إلى قضيته سابقا لأوانه في هذه المرحلة، ولكنه كثيرا ما تكلَّم عن الوضع الفلسطيني السيِّئ في مراهقته، وكان واضحا لكلٍّ من أصغى إليه أن القضية كانت تؤرِّقه باستمرار. ونتيجة لذلك وجد هو وزميل له في المدرسة اسمه غوتْفْريد بريغر قدْرا من التضامن المتبادل في كونهما غريبين. فقد قدَّم كلٌّ منهما عرضا أمام نادي الروتاري عن بلده. وبعد أن وجد بريغر أنه كان عليه أن يجيب عن أسئلة من نوع «هل توجد أبقار في ألمانيا؟» علَّق ساخرا لسعيد بقوله إنه كان عليه أن يتكلَّم عن فلسطين بينما يتحدَّث سعيد عن ألمانيا؛ لأن المستمعين الجهلة لم يكونوا يعرفون الفرق[24].

وعندما اقتربت سنته الأولى من الانتهاء أخذت مواهبه المتعدِّدة تظهر للعيان، فقد أخذ يتدرَّب بكلِّ ما أوتي من قوَّة على قراءة أفلاطون وأرسطو، وعلى دراسة عصر التنوير وكيركغور في المادة التي كان القس جيمز رَي وايْت يدرّسها عن الكتاب المقدَّس. وتطوَّرت اهتماماته القائمة على الموسيقى الكلاسيكية إلى دراسة منظَّمة لتاريخ الأداء الكلاسيكي، واللبرتو libretti(*) الأوبرالي، وسِيَر المؤلِّفين، والكتب

(*) هو النصّ الذي ينطق به شخوص الأوبرا غناء أو محادثة. [المترجم].

المتخصصة في فنّ الطباق الموسيقي Counterpoint. وفي أثناء دراسته كتاب «تاريخ غروف للموسيقى والموسيقيين» Grove History of Music and Musicians استمع إلى كل الأسطوانات التي كانت مكتبة المدرسة تحتفظ بها، والتحق بفريق الإنشاد وبنادي غلي glee(*)، وعاد إلى التدرُّب المستمر على العزف على البيانو فاستعاد بذلك اهتمامه الذي خفَّ بتلك الآلة في السنين العاصفة التي قضاها في كلية ڤكتوريا. وعند نهاية الفصل الثاني كان قد تقدَّم في تصنيف طلبة الصف وحصل على جائزته الكبيرة الثانية؛ وهي الجائزة المخصصة لقراءة الروايات ونقدها. وإذا ما وضعنا هذه الانتصارات المبكِّرة في مجال الآداب والفنون جانبا، فإننا نجد أنه كان لايزال من وجهة نظره طالبا يتحضَّر لدراسة الطبّ، وتتضمن قائمة المواد الرهيبة التي درسها: الجبر، والأحياء، والرياضيات (المستوى الرابع)، والكيمياء. والحقيقة هي أن جائزة «فلورنس فلاغ» Florence Flagg التي فاز بها في سنة التخرُّج كانت لقاء «التميُّز في العلوم الحياتية»[25].

غير أنه كان يقترب شيئا فشيئا نحو العلوم الإنسانية على رغم أن الانتقال لم يكن سهلا. اعترف مدرِّسوه بإمكانيّاته الفكرية الواعدة، ولكنهم لم يكونوا بالوضوح نفسه فيما يتعلَّق بالمؤهِّلات التي تتطلبها العلوم الإنسانية: الإبداع، والخيال، «والتعبير الشفوي عن أفكاره». واعتمادا على رأي والديه، اعتبرت المدرسة أن نواحي الضعف عنده كانت نتيجة لوضعه العاطفي غير المستقر، وهو وضع اتَّخذ شكل الكسل الشديد حتى بعد الحصول على قسط وافر من النوم. وقد ذهب طبيب المدرسة الدكتور و. ف. دُد إلى حدِّ القول في تقريره الصحي إن استيقاظ سعيد مع الشعور بالتعب «ربما كان شعورا موروثا» لأنه موجود في العائلة[26]. وعدَّ مشكلته مشكلة جسمانية لا نفسية، وطلب فحصا أساسيّا (لفحص مستوى السكَّر في الدم)، ونصح بأن يأخذ مقوِّيا «لتنشيطه»[27].

حدثت تغييرات مؤلمة في منتصف المدَّة التي قضاها في المدرسة عندما تحوَّل التعب المستمرّ إلى ذعر. عاد إلى القاهرة والمنتجع المعهود في ضهور الشوير لقضاء صيف العام 1952، وعندما حان الوقت لكي يعود إلى ماونت هيرمن طلب من

(*) يتكوَّن هذا النادي من فريق من المغنين يغنون معا قطعا قصيرة. [المترجم].

أهله أن يسمحوا له بالبقاء. وكانت الرسائل التي أرسلها والداه منذ بداية مكوثه هناك إلى المسؤولين في مدرسة ماونت هيرمن تعبِّر عن مزيج من الحرص والتحذير وتتجاوز الخط الفاصل في التعبير عن حبِّ الأبوين بلغة غير معهودة في الثقافة الأمريكية، وعن رقابة وضعه وكأنهما محاميان عن مصلحته. فقد كتبت هيلدا من نيويورك رسالة تاريخها 21 سبتمبر 1951 تحثُّ فيها المدرسة على استخدام كل خبرتها لمعالجة الشباب الذين هم في سنِّه، وأن يأخذوا المشكلات التي يعانيها ابنهم في الحسبان[28]. ثم كتبت بعد ستة أشهر لتقول إن إدْوَرْد يعاني نوعا أكبر من النوع المألوف من مرض الشوق للوطن homesickness[29]. ثم سرعان ما جاءت «الأحداث الفظيعة» في القاهرة، وهي أحداث دفعت بالأمور إلى أكثر مما يطاق. فكما ذكرت أخته جين: «كنا في ضهور الشوير كما تعوَّدنا عندما اندلعت الثورة المصرية يوم 23 يوليو 1952»[30]. أخذنا جميعا «نصغي إلى الراديو طول الوقت» لنعرف ما الذي سيحصل. وكان هناك نذير شؤم في شهر يناير 1952؛ أي قبل رسالة هيلدا الثانية الموجّهة إلى روبندال بشهر واحد، وفيها تطلب منه التدخُّل من أجل ابنها الذي يعاني القلق الشديد. ففي اليوم الذي يعرف تقليديا بـ «الأحد الأسود» ردَّ البريطانيون على التمرد الذي حدث في منطقة قناة السويس بشدَّة، فسارت حشود الناس وأخذت تهاجم الفنادق والمدارس والمتاجر والمطاعم وكل ما تُشتمُّ منه رائحة المصالح الأجنبية. وكان من بين المتاجر التي أُحرقت تماما متجر القرطاسية الذي يملكه وديع سعيد المعروف فضلا على مؤسسات تجارية أخرى في شارع الملكة فريدة، الذي سُمِّي باسم زوجة الملك فاروق الأولى.

هنالك وصف معاصر بالغ الوضوح لتلك الأحداث كتبه وسيط تجاري هو إزمُنْد وورنر Esmond Warner إلى شركة و. هـ. سمث W. H. Smith وشركاه المحدودة الواقعة في القاهرة، وإلى أبيه السير پِلَم وورنر Sir Pelham Warner يوم 28 يناير 1952، وهي رسالة تصوِّر الخوف الذي ساد بين أفراد الوسط التجاري الأجنبي:

> «يؤسفني أن أخبركم بأنه في نحو الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم السبت المصادف 26 يناير جرى حرق محلاتنا تماما في العنوان المذكور أعلاه على يد حشد من الرعاع... كان الحشد مكوَّنا من عدّة مئات، وقد تمكنوا من تنفيذ عملهم الـ [...] دون أن تتدخَّل

قوّات الشرطة لمنعهم، ويبدو في الواقع أن رجال الشرطة ساعدوا أفراد الحشد»[31].

وتابع إزمند الوصف في رسالة أخرى تعود إلى تاريخ 31 يناير:

«المدينة يعمُّها الدّمار. لم تعد ثمة ثقة بشيء. قصة الـ Turf Club أشدُّ القصص إثارة للرعب. آخر مرَّة خرجت فيها باتجاه المدينة في السادسة إلا ربعا مساء: وجدتها كأنها جحيم دانتي. كل تلك السيارات جيء بها إلى الشوارع لتحرق هي والبنايات المشتعلة؛ لو كانت هنالك ريح لدُمِّرت القاهرة... الخوف يسود الناس جميعا من نشوب حركة ثورية بحجة وجود الاحتلال البريطاني... هل هو [أي الملك] قادر على سحق «سراج دينهم»(*) وسواه من «الديموقراطيين» الـ [...]؟... النهب نُسي في كلِّ مكان في غمرة الرغبة في التدمير. متجر شپرد، والمحلات الكبيرة في شارع فؤاد، محلات غروپي الأربعة، كل سينمات القاهرة، بنك باركليس، كل مطعم وكل بار ومعظم محلات الساعات، والمعهد البريطاني، ومكتبة القرطاسية (وهي تقدَّر بمائتي ألف باوند فيما فهمت)، وكانت قد زوّدت بأحدث الآلات المكتبية، أحرقت كلها، كل وكلاء السيارات، كل باعة الأسلحة في المدينة نُهبوا».

ثم تابع إزمند ووضَع نظريته الساعية إلى تفسير رمزية الحرائق على النحو الآتي: «المعالم البريطانية التي ترمز للثروة (المحلات الراقية، أصحاب محلات المجوهرات، وكلاء السيّارات، استهدفتهم حركة السلام [الشيوعية] والحزب الاشتراكي التابع لأحمد حسين؛ مواقع المتعة (دور السينما، البارات حيث تقدَّم «الخمور» و«الرذيلة») استهدفها الإخوان المسلمون». ثم لخَّص الوضع بقوله: «المسيحيون من كلِّ الأجناس هنا مرعوبون».

أما رواية سعيد عن تلك الأحداث فقد اختلفت اختلافا جوهريّا مع الحقائق. إذ كتب فيما بعد ما مؤدّاه أن فروع تجارة العائلة «لم تؤمَّم، بل بيعت لحكومة ناصر، ولم يحرقها الثوريون، بل حرقها الإخوان المسلمون»[32]. لكن الموضوع مسَّ

(*) المقصود هو محمد فؤاد سراج الدين؛ وزير الداخلية المصري الذي أمر رجال الشرطة بمقاومة الاحتلال الإنكليزي. [المحرر].

أمورا غير الدين أيضا. فمحلات غروپي مثلا كانت معلما ثقافيّا لكل من له معرفة بالحياة القاهرية اليومية: قاعة تنتمي لعالم البحر الأبيض المتوسط لتناول الشاي، بديعة التصميم، بنوافذ زجاجية عالية وواجهات مقوَّسة، أسسها جاكومو غروپي Giacomo Groppi، وهو مهاجر من لوغانو في سويسرة. كان المكان ملتقى جذابا لا يقتصر روّاده على أبناء الطبقات العليا، واشتهر بأنواع الشوكولاته التي يشتهيها الملوك والباشوات في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

أرسلت هلدا عقب فورة التخريب هذه رسالة إلى مدرسة ماونت هيرمن تعبِّر فيها عن قلقها الشديد لأن إدورد «كان شديد الحساسية»، ولأنه كان في سنٍّ بالغة الأهمية في تشكيل حياة أي شاب. ولم تكن قد مضت ستة أشهر بعد أحداث القاهرة عندما كتب سعيد لأهله رسالة مقلقة يقول فيها إن أبويه يجب «ألا يشعرا بالفخر بابنهما لأن مستواه أدنى من مستوى تلاميذ آخرين في ماونت هيرمن». وقد خمَّنت هلدا أن «عقدة الشعور بالنقص المقلقة هذه» قد يعود سببها إلى عدد من الظروف التي لم تكن في مصلحته، منها «التنقلات الكثيرة في أماكن دراسته»[33]. أما مسؤولو ماونت هيرمن فقد حاروا في الأمر، إذ إنهم لم يروا أيَّ دليل على ما ورد في الرسالة من جانبهم. ولم يكد شهر يناير من العام 1953 يحل حتى وافقتهم هلدا على رأيهم؛ فقد تجاوز سعيد همومه التي عبَّر عنها في رسائله السابقة، وحصل على الوظيفة التي كان يرغب فيها في المكتبة، وكتب رسالة إلى أهله يعبر فيها عن فرحه الشديد، وعاد «حبيبنا إدي ثانية»[34](*).

وعلى رغم ذلك، فإن الفترة التي قضاها في ماونت هيرمن اختتمت بقدر من المرارة. وكان لأسوأ ما حصل صلة بتجاوزه وعدم تكليفه بإلقاء الكلمة الترحيبية في حفل التخرُّج على رغم أن علاماته كانت تؤهله لذلك التكريم. وقد كتب في الحقيقة للمسجل Registrar في يونيو من العام 1953 لتأكيد أنه كان الثاني في صفِّه (ومن اللافت للنظر أن أدنى علامة حصل عليها كانت في اللغة الإنكليزية، بينما كانت أعلاها في الدراسات الكتابية وتذوُّق الموسيقى)[35]. وبعد سنوات، بعد أن نشرت مذكِّراته، كتب له فرِد فِشَر، الطالب الذي أوكلت إليه وظيفة إلقاء الكلمة الترحيبية،

(*) صيغة التحبُّب من اسم إدورد باللغة الإنكليزية. [المترجم].

للاعتراف بأن معدَّل علاماتهما كان متطابقا، وللتعبير عن حيرته بسبب ما تعرّض له من تجاهل[36]. أما سعيد فقد عدَّ التجاهل دليلا نهائيا على أن مواقفه الهجومية ضدّ من هم أعلى منه ستجعله غريبا دائما بغضّ النظر عما قد يفعل.

كانت مشاعر سعيد نحو القاهرة قبل هذه الأحداث تثير الاستغراب بما فيها من فتور على رغم أنه قضى سنوات تشكَّلت فيها شخصيَّته. وهي لا تبدو في كتاباته بصفتها هدفا يسعى إلى الوصول إليه بقدر ما تبدو مكانا يمكث فيه يسمح له بأن يتسكَّع في حوافه. كان قد أرسل إلى مكان بعيد غريب، وأخذ يواجه الآن مهانة الاضطرار إلى مشاهدة العنف الذي تتعرَّض له عائلته ويتعرَّض له وطنه. أنبأ عجزه هذا بما ينتظره بعد عدد قليل من السنوات وهو في جامعة پرنستن عندما غزت إسرائيل مصر وقصف البريطانيون القاهرة ردّا على تأميم قناة السويس، «تلك الحادثة التي مررت بها عن بُعد بقدر كبير من الضغط النفسي لأن أهلي كانوا هناك»[37]. ثم اضطرَّ بعد ذلك بثلاثة عقود، في العام 1982، إلى أن يتابع من نيويورك قصف الإسرائيليين مدينة بيروت حيث كانت تعيش والدته، وأخته، وعائلة زوجته، وأقرب أصدقائه إليه. وبينما كان يبحث في مختلف المصادر عن معلومات عما يحدث في أرض الواقع، على أمل الحصول على أحدث المعلومات، كانت العاصمة تتعرض على مدى أيام للقصف من البحر والجو والأرض قبل أن يتقدَّم الجيش الإسرائيلي بدباباته إلى قلب المدينة في مواجهة مقاومة عظيمة انتهت بالهزيمة العسكرية.

لم تستثر الاضطرابات المصرية فيه مشاعر تشبه الاحتقار الموجَّه إلى الحشود الغاضبة من «الرعاع»، وهو الاحتقار الذي نجده في الرسائل المرعوبة التي كتبها وورنر للشركة، فهو على شاكلة بقية أفراد العائلة رحَّب بالتمرُّد الذي أدى إلى طرد فاروق من السلطة وإلى تأميم منطقة القناة، ووافق جين التي عبَّرت عن الرأي القائل «إن الأحداث قد قللت من البون الشاسع بين الطبقات المصرية العليا ذات الثراء الفاحش والفقر المدقع إلى درجة كبيرة»[38]. وتذكَّر صديقُه حبشي، وهو قبطي (أي ينتمي إلى كبرى الطوائف المسيحية في مصر)، أن آل سعيد تلقوا أحداث الثورة، حتى تلك التي دمّرت مخزنهم، على نحو إيجابي. وعلى رغم أنهم سيعانون اقتصاديا مع مجيء ناصر فإن عوائلهم فهمت أنها

ليس لها مكان في مصر الجديدة. وقد عبَّرت هلدا عن موقفهم الجماعي: «لايزال الشرق الأوسط بكامله في حالة اضطراب، ولكن يبدو أن مصر وجدت الجواب على بعض مشكلاتها على الأقل. أما نحن فقد أصلحنا محلّنا الذي لحق به أذى شديد، وهذه الإصلاحات جعلته يبدو أجمل مما كان»[39].

لم يغادر آل سعيد مصر إلى بيروت إلى غير رجعة إلا في أوائل الستينيات بعد التحوّلات القلقة التي جعلت سلامتهم غير مضمونة. كان سبب الانتقال في جانب منه الجو السياسي غير المريح وإقرار عدد من القوانين الاشتراكية التي قيَّدت تجارتهم. وقد تبيَّن أن شركة وديع لم تؤمَّم قط (بينما أممت شركات أخرى)، ولكن في العام 1962 وجد أن من الأفضل غلق أبوابها قبل أن تخضع للتأميم، وأسَّس فرعا لها في بيروت، وبقي هناك إلى أن وافته المنية في العام 1971.

لم تكن أحداث الدراما السياسية تحدث كلها في الخارج. ولا شكَّ في أن من الطبيعي أن يكون دخول سعيد إلى الولايات المتَّحدة في ذروة الحرب الباردة قد لوَّن مشاعره تجاه هذا البلد في بقية حياته. وعلى رغم أنه كان طموحا، راغبا في ترك انطباع قوي، وليس منتميا إلى فكر سياسي معيَّن، فإنه كان شديد الحذر من عقلية الحرب الباردة السائدة من حوله، ومن الرهاب المعادي للسوفييت، ومِن غضِّ النظر عن حقائق العالم الثالث، وبالطبع، كان شديد الحذر من أن يُطلب من المفكرين ألا يحيدوا عن الخط المعلوم. كذلك فإن التسليم الجذل للعادات الذي وجده في ماونت هيرمن بهذا الجو الفكري قد صدمه؛ فميل الأمريكيين إلى إلقاء النكات السطحية والروح الشلليّة العالية ذات النزعة إلى سرد القصص يخفيان شيئا أكثر خبثا. أيُّ تمرد على روح «الشلّة» ممنوع. ولكنه مثلما وضع قواعد الجدل فيما بعد بشأن النظم الاجتماعية في مصر فإنه فهم الحرب الباردة من وجهة نظر قومية وعرقية، فقد وجد أنه من المستحيل ألا يرى المكارثية على أنها هالة تحيط بالورطة العربية: «منذ بداية وصولي إلى الولايات المتّحدة في منتصف الخمسينيات كان على العربي أن يشعر بأنه متَّهم بجريمة أو بنوع من الجنوح... بأنه خارج المقبول أو المعقول»[40]. اللغة العربية «لا تتكلّم الإنكليزية»[41].

لم تكن استجابته لأمريكا الخمسينيات صعبة الفهم إذن. فقد كان عدد من مُثُلِه العليا في طفولته - كما رأينا - شيوعيين، وعلى رأسهم فريد حدّاد، ابن طبيب

العائلة في القاهرة. أضف إلى ذلك أن الجماعات المسيحية المارونية في لبنان، وهي جماعات تسنَّت له رؤيتها من كثب في زياراته الكثيرة للبنان على مرّ السنين، قادته إلى أن يربط العداء للشيوعية بالانحياز الأعمى للغرب وكره التأثيرات الإسلامية على الثقافة العربية. وعندما وصل إلى پرنستن بعد سنتين فقط من مجيئه إلى البلد فإنه ضاق ذرعا بعدم اكتراث الأمريكيين بالجهل الذي زرعته الحرب الباردة بين ظهرانيهم. واشتكى من أن ماركس «كان لا يكاد يُقرأ أو تُطلب قراءته» في الجامعة، وأنها «عاملت المكارثية كأنها شيء تافه»[42].

كان سعيد قد تصدّى للكلام المألوف عن الرعب الأحمر في أشد اللحظات حساسية حتى قبل أن تجعل حركتا الحقوق المدنية ومناهضة الحرب الكلام عن قضايا كهذه مسموحا به. ففي بداية الطلب الذي تقدَّم به للقبول في كلية الدراسات العليا في جامعة هارڤارد في العام 1958 استعان بحادثة قصد منها لفت نظر لجنة القبول؛ وهي تدور حول لقائه ببائع كتب «نبيه من القاهرة» كان يرعى سلسلة من الترجمات إلى اللغة العربية تشمل كل الكتب المهمة في الفكر الاشتراكي[43]. تحدَّثا لأربع ساعات عن الاشتراكية ضدَّ «ما يسمى بالنظم الديموقراطية». ألمح سعيد إلى أن أحاديثَ صريحة كهذه كانت ممكنة في الخارج؛ في حين أنه في أوروبا والولايات المتحدة كان كُتّابٌ مُمَجَّدون كجورج أورْوِل George Orwell وأندريه جيد André Gide مشغولين بمحاكاة الإجماع عبر إعلانهم عن خيبة أملهم بالاشتراكية. وقد أيّد سعيدٌ بائعَ الكتب في أنه بإمكان هذين الكاتبين «تحمّل» خيبة الأمل؛ إذ إنهما - «خلافا لإخوتهما» في مصر - كانا يكتبان لجمهور لم يعد يهتم بالأفكار. أما المؤرخ ريتشارد هوفْسْتِتَر Richard Hofstadter فقد كان يروق له أكثر من الروائيَّين لأنه فسَّر عدمَ الاكتراث هذا، والتنافسَ بين النظم الاجتماعية، بالقول إن التعليم صار لكثيرين في الولايات المتَّحدة «تحصيليا» وليس «روحيّا». وكان واضحا أن العبارات المتكررة في ماونت هيرمن عن المواطنة الأخلاقية، وهي العبارات التي سخر منها في وقت سابق، كانت هي المقصودة في تركيزه على هذه النقطة. وأكَّد أن العملية التعليمية برمَّتها يجب أن تجد حيويَّتها «بنوع من الحميّة الدعوية التي لا تخبو». وعلى المعلّم أن يكون «لحوحا على نفسه وعلى الآخرين»[44].

لقد كان بعيدا كلَّ البعد عن أن يكون المنبوذ الذي يفتقر إلى الاستقامة الأخلاقية أو «الاتجاه الصحيح» كما يقول في كتاب «خارج المكان»، بل كان يكتب الرسائل إلى المسؤولين بأسلوب مرح بعد التخرُّج. وعندما نظر إلى السنتين اللتين قضاهما في ماونت هيرمن في أثناء زيارته لأهله في مصر كتب لرودندال ليخبره عن الخبر السعيد بأنه حصل على الزمالة المسّماة زمالة وودرو ولسن Woodrow Wilson Fellowship في جامعة برنستن، مضيفا أنه «يؤسفه أنه لم يعد في سنٍّ أصغر تؤهِّله للعودة إلى ماونت هيرمن للاستمتاع ليس فقط بالصالة الرياضية بل بكل التجهيزات الرائعة التي تملكها المدرسة. لا تقلق يا سيِّد رودندال، فإن ماونت هيرمن تملك مكتبا دعائيّا ممتازا في القاهرة»[45].

ومع ذلك، فإنه كان هنا، يبني حياته في أمريكا، وكان على غرار توكڤيل Tocqueville، والڤايكاونت(*) برايْس the Viscount Bryce، وسيمون دي بوڤوار، يشخّص حالة الولايات المتَّحدة متسلّحا بتلك الصلاحية الغريبة التي اعتاد الأمريكيّون أن يمنحوها للغرباء عند رسم شخصيتهم الوطنية. هذا التفوُّق النقدي اعتمد اعتمادا كبيرا على قدرته على الظهور بمظهر الأمريكي؛ ذلك أنه كان من الصعب على كثير من نقّاده أن يفكِّروا أنه فلسطيني أصيل. ولم يفوِّتوا فرصة لتصويره على أنه نيويوركي يلعب لعبة الإثنية. ولذلك فإنه بدا في وطنه كأنه ينتمي إلى الثقافة التي انتسب لها، وظلَّت عروبته خفيَّة على ما لا يقلّ عن نصف جمهوره. وفي أوائل الثمانينيات، وبينما كان يمشي مع داڤيد يِروشَلْمي، الذي كان يعلِّم مريم، زوجة سعيد، اللغة العبرية، طُرِحَ عليه هذا السؤال: «أستاذ سعيد، ألا تشعر بشيء من الغربة في أمريكا؟»، فقال: «أشعر بها، ولكنني أتجاوزها»[46].

غير أن ذلك تطلَّب جهدا إضافيا. وإن كان لنا أن نحكم من مقالاته فإنه ظلّ يحتقر صناعة الترفيه الأمريكية، ويوجِّه انتقاداته الشديدة للقوة التي تتمتع بها الأفلام والصحف وقصص التسلية وما يرافقها من رسوم، وهي قوة تنتج مزيجا متجانسا اسمه الثقافة الأمريكية[47]. وقد أحاط نفسه بقلعة عاطفية تحميه من بؤس الحياة الأمريكية الوسطى، وعبَّر عن رثائه لأولئك «التائهين في بروكْلِن

(*) فايكاونت Viscount: رتبة ينالها الرجل البريطاني النبيل تكون فوق البارون Baron ودون الإيرل Earl . [المحرر].

ولبناتهم المراهقات اللواتي يبالغن في ألبستهن، وفي علك العلكة، ويتحدَّثن بأصوات أشبه بالزعيق»[48]. وتمكَّن من إتقان لغة التعبير غير الرسمية مع مرور الوقت، ولكنه لم يتقن استعمال الـ slang(*) بلا شعور أكيد بالسخرية من ذاته وبلا تخلُّص من آثار غامضة للّكنة البريطانية[49]. وقد أثَّر الـمَيْل الأمريكي نحو إزالة الفروق حتى على اسمه. فقد كان يكره أن يُدعى «إد» [بدلا من إدورد] ويردُّ بلهجة عدوانية على كلِّ من يشير إليه بتلك الصيغة برغم وجود استثناءات[50]، أو تسامح على الأقلّ. چومسكي مثلا لم يدعُه إلا «إد»، ولكن سعيد لم يصحِّحه قط. وبهذا كان يناديه أصدقاء الدراسة في كلٍّ من پرنستن وماونت هيرمن، وكذلك أبوه. وسعيد نفسه كان يوقِّع رسائله بصيغة «إد سعيد» في السنوات الخمس الأولى من حياته في أمريكا.

كان سعيد غير متَّسق مع نفسه كما حدث في الحالات التي حاول فيها فهم مشاعره المختلطة بصفته أمريكيا. وكان قد تشرَّب إلى حدٍّ ما بتوجُّهات أبيه الإيجابية نحو الثقافة الأمريكية بوصفها جنة الأعمال التجارية، واستفاد من درسها الكبير المتعلِّق بالتجريب والمتابعة وتحقيق الذات[51]، لا بل إنه وجد بعض البقع الزاهية في المشهد الكئيب الذي ساد في الفترة المكارثية. ألم يجبر الرئيس آيزنهاور إسرائيل على التخلّي عن شبه جزيرة سيناء لمصلحة مصر؟ ألم تكن دوروثي تومپسن Dorothy Thompson، عميدة الصحافة النسوية، تصف الصهيونية في تلك السنوات بأنها وصفة للحرب الدائمة، بينما كانت تصف العرب وصفا مرهفا في «مجلة البيت للنساء» Ladies Home Journal. فإلى جانب خطابات التخريج التقليدية التي تركِّز على المبادئ العليا، عبَّر سعيد عن مكنون قلبه في الخطاب الذي كتبه بعنوانه في ماونت هيرمن قبل عام واحد من وفاته، حيث تحدَّث عن «جمهوريَّتنا... التي لا مثيل لها، المنفتحة على نحو لا مثيل له، المتغيِّرة باستمرار، التي تلهب المشاعر باستمرار»[52]. ذلك أن أمريكا هي أيضا أمريكا أصحاب الرأي المخالف – وهو ما سجَّله (كما بيّن سعيد) هاوَرْد

(*) تدلُّ هذه الكلمة على مستوى لغوي طبيعي بين فئات خاصة تجمعها المهنة أو الخلفية الاجتماعية، وهي ليست اللغة العامية كما نفهمها باللغة العربية. [المترجم].

زن Howard Zinn في «تاريخ الولايات المتَّحدة من وجهة نظر الشعب» A People's History of the United States، وأمريكا حركة الحقوق المدنية، وحركة المواطنين التي قادها طالب القانون في جامعة هارڤرد رالف نادر Ralph Nader المتحدر من أصل لبناني، والثورة النسوية التي أخرجت النساء من وراء ستار السرِّيَّة... إلى وضح النهار.

ساعد وجوده غير المستقر في بواكير حياته على تفسير ولاءاته الثقافية المتغيِّرة. وقد أعلن أن «الثقافة الشعبية لا تعني لي شيئا على الإطلاق إلا من حيث إنها تحيط بي»، وعلى رغم ذلك فقد سحرته الأفلام الشعبية في صباه، وجذبته للمتعة التي يرافقها الشعور بالذنب في فترة لاحقة من حياته[53]. أما ثقافة الرياضة فقد دعاها تخديرا للحس النقدي، وكان من رأيه أن صلة العالم العقلي المحيط به في طفولته بالأمور الجدِّيَّة أو الأكاديمية كانت شبه معدومة بحيث إن تحوُّله إلى عالم الفكر والثقافة يثير العجب[54]. ومع كلِّ ذلك فإن من الواضح أنه كان يشاهد برامج التلفزيون أكثر مما اعترف به بينما كان يلتهم روايات روبرت لَدْلَم Robert Ludlum التهاما.

كان سعيد في مقابلة غير منشورة أجريت معه في العام 1993 أكثر صراحة من أي وقت مضى حول تأثير الأفلام الأمريكية على تفكيره في القاهرة وأمريكا في العقدين الأوَّلين من حياته، فقبل مغامراته في دور السينما في نيويورك، كانت هناك سينما ديانا الواقعة في شارع عماد الدين الذي لا يعدّ من الشوارع الراقية، وحيث كان يسمح له بحضور الأفلام مرّة واحدة في الأسبوع عصر يوم السبت، «وكان ذلك المهرب الوحيد» من السلسلة التي لا تنتهي من الدروس الخصوصية ودروس الملاكمة[55]. ولما كانت والدته قد منعته من مشاهدة أيِّ فِلم مرَّتين فإن كل مشهد من مشاهد الفِلم كان ذا قيمة عالية في نظره. وعندما استقلَّ بنفسه في نيويورك فإنه اعتاد على مشاهدة الفِلم نفسه مرات متعدِّدة في الشارع رقم 42 حيث كان العرض مستمرّا. لكن كان من شأن المتعة ذاتها أن تصبح نظاما متَّبعا. ففي نيويورك شاهد فِلم «سالومي» Salome، الذي مثَّلته ريتا هيوورث مع ستيوارت غرينْجَر، خمس مرّات متتابعة، «إذ كان ذلك ما تدرَّبت على فعله: كل شيء بأقصى ما يمكن من التركيز»[56].

كانت ميوله الأمريكية في الأفلام السينمائية قد تشكَّلت في القاهرة، حيث كان قد «طوَّر نظاما معقَّدا حول ما يجب أن تتناوله الأفلام [الهوليوودية]». لكن نظامه لم يكن في الواقع على تلك الدرجة من التعقيد، إذ اشتمل ذلك النظام وفقا لتفسيره له على «فتيات بثياب مغرية ويشبهن دبي رنولدز وسِدْ چاريس». وفي العام 1946، عندما كان في الحادية عشرة تمنى أن يشاهد فِلم «كارمن» Carmen الذي تمثِّل فيه ريتا هيوورث دور البطولة، وأساء التصرف مع والدته لإجبارها على الموافقة. لكنها أصرَّت على الرفض، وبقي هو بعد ذلك «تحت المراقبة الشديدة» وفقا لتعبيره[57].

ولما كان عاجزا عن معاندة والدته فإنه وجد طرقا لتجاوز القيود التي فرضتها، فتتبَّع كل ما منعته من مشاهدته في مجلَّة Photoplay حيث عوّض ما حرم من رؤيته على الشاشة بأخبار هوليوود ذات الطابع النميمي Gossip، وأشبع فضول المراهق بتقليب صفحات الصور اللامعة لريتا هيوورث وغيرها. وكان تبادل أخبار السينما تسلية دائمة. وكان يتجادل مع صديق لبناني أكبر منه سنّا حول روبرت تيلر الذي كان يعود دائما إلى باربَرَه سْتانوِك من أجل أن تأتي له بمعطفه وغليونه («كان مهووسا بغليونه»)، ولكن سعيد لم يكن معجبا به، ووصفه بأنه «حقير».

كذلك فإنه استغلّ افتراضات والدته غير المثبتة، وبينما حاولت هي وزوجها أن يوجِّهاه نحو برامج مثل «لاسي» Lassie، و«رِن تِن تِن» Rin Tin Tin، و«صديقتي فليكا» Friend Flicka مال هو نحو جِنِفَر جونْز المغرية في «مبارزة تحت الشمس» Duel in the Sun، وهو فِلم لم تجد الوالدة ما يمنع من مشاهدته لأنه كان فِلما عن الغرب الأمريكي. كذلك بدا أن فِلم «أغنية برناديت» The Song of Bernadette كان آمنا لأنه فِلم عن الراهبات. كانت الأمُّ تغذّي خيالات ابنها من دون أن تدري.

عندما وصل إلى مرحلة الدراسة الثانوية صارت مقاومته أشد عنادا، فقبل مغادرته متوجِّها إلى أمريكا في سن الرابعة عشرة - وهي السنة التي امتلأت شهادة علاماته بعلامات مثل C وC- - غاب عن المدرسة لحضور «الأفلام الممنوعة». كان يفضِّل أي شيء على الروايات الرومانسية التاريخية التي تنتج في الشرق الأوسط،

وكان أبواه يفضّلانها كـ «ألف ليلة وليلة»، و«علي بابا والأربعون حرامي»، وهي اللمحة الوحيدة التي أتيحت له عن العالم العربي الذي كان يعيش فيه بحكم التعليم البريطاني الذي تلقّاه.

لم تكن الصور النمطية محصورة في الشرق. صحيح أن الخيالات العربية استخدمت ممثلين وممثلات ملونين معروفين من أمثال ماريا مونتيز، وسابو، وطرخان بك (وهو نمساوي ذو أصل تركي)، ولكن لوس أنجلس التي صوّرتها الأفلام كانت لا تقلُّ زيفا عن تلك التي تصور الشخصيات الشرقية، بما يملأها من شخصيات تقدمها لنا «الأفلام الموسيقية التي ينتجها ستوديو MGM (مترو-غولْدْوِنْ-مايَر)... سُوّاق التاكسي، صبية التلغراف الذين يرتدون بدلات رسمية وبابيونة bowtie» [58]. وعندما زار كاليفورنيا للمرَّة الأولى في سن الثالثة والثلاثين في العام 1968 فإنه لم يستطع منع نفسه من محاولة اكتشاف هذه الأنماط في الحياة الواقعية وهي تسير في شوارع المدينة.

لم تستطع هوليوود أن تقدِّم له تلك الشريحة القاهرية المنحلّة التي رآها في أيام تيغرمان؛ أستاذه في العزف على البيانو، ولكنها قدَّمت شيئا شبيها من حيث دغدغة الحواس، وقد اندمج المكانان معا في ذهنه إلى حدٍّ ما. تركت فيه الثقافة الشعبية السائدة أثرا قويا لا نتوقَّعه في وقت مبكِّر، أثرا ظلّ يزاحم تأثير الثقافة العالية التي ترتبط بطبقته الاجتماعية وما يتَّصل بها من ميول. وعلى رغم أنه كان من متابعي برنامج Masterpiece Theater الذي يعود إلى عقدي السبعينيات والثمانينيات (ولاسيّما Upstairs Downstair، وBrideshead Revisited، وMystery مع ديانا رِغ) ولم يَرُق له ما كان أطفاله يتفرّجون عليه، فإنه كان يشعر بالملل من الأفلام التي تقدِّم نفسها على أنها للخاصّة. كذلك تفادى الأفلام الوعظية ذات الرسالة السياسية، «لا أريد أن أشاهد أيا من تلك الأفلام الأنثروبولوجية»[59]. وظلّ ما يرغب في مشاهدته في الجانب الأكبر من حياته المهنية هو أفلام «الأكشن» من أمثال Die Hard و Total Recall و Lethal Weapon[60].

بقي سعيد بعد أن حصل على شهادته من ماونت هيرمن في 7 يونيو 1953 على صلة بأستاذه القديم روبندال. فقد أحسّ بأن بإمكانه أن يتعامل مع هذا الإداري

اللطيف الذي كثيرا ما تعامل مع رسائل هلدا المتوتِّرة، وساعده على الاستقرار كأنه أبٌ ثانٍ. والظاهر أن السنوات الأولى المتوترة التي قضاها سعيد في أمريكا كانت كافية لخلق انطباع قوي لدى الرجل حول ما سيكون سعيد عليه في المستقبل. ففي توصيته التي كتبها لكلية الدراسات العليا، أبدى روبندال ملاحظة تقول إن «خلفية السيد سعيد القادم من الشرق الأوسط تؤهله بطريقة غير معتادة لأن يكون فعالا في إثارة الفكر لدى الآخرين»[61]. وبذا يكون إحساسه بنفسه وإحساس الآخرين به قد التقيا معا.

3

التلمذة في مدارس الصفوة

الشعر هو الطفل الأثير للُّغة، للشَّفَتَيْن والكلام المنطوق: لا بدّ من أن يُنطق، ويبقى مفتقرا للأداء ما لم ينطق؛ هو ليس هو ما لم يرافقه الأداء

جِرَرْد مانلي هوپكنز[1].

عندما التحق سعيد بجامعة پرنستن في العام 1953 كان واثقا من أن سمعتها ستمكِّنه من نسيان مظاهر التزمُّت المعهود في نيو إنغلند الذي خَبِرَه في ماونت هيرمن. كان قد اختار الجامعة من دون أن يعطي الموضوع أهمية كبيرة (وكان قد قُبِل في هارڤرد أيضا)، وذلك في جانب منه لأنه كان قد زار الموقع مع والديه في صيف العام 1951. وعلى عكس هارڤرد، كانت

لم يكن هو المثقَّف البارز الوحيد في دائرته، فقد كانت كلها دائرة تثير الإعجاب، ولكن سعيد وحده هو الذي تمثَّلت فيه صورة «رجل هذا العالم»

پرنستن تعدُّ ملجأ آمنا لأبناء النخبة الأجانب، ومع أن آل سعيد كانوا بعيدين عن طبقة الملوك، فإنهم كانوا أثرياء بالتأكيد. غير أنه خاب ظنه في النهاية لأنه وجد أن پرنستن ما هي إلا مدرسة متضخمة لإكمال الدراسة «في مجاهل نيو جيرزي»، تعطيك مزيدا من الألاعيب المعهودة، والأحاديث المملَّة التي تحمَّلها في ماونت هيرمن، على رغم أنه يرافقها الآن إسراف زملاء صفّك في الشرب[2].

جاء شغفه الوحيد بالمكان من القسم التجريبي للموسيقى الذي كان قد استقطب أشدَّ الموسيقيين جرأة في الولايات المتَّحدة بمن فيهم ملتن بابِت Milton Babbitt وروجر سشنْز Roger Sessions، فضلا عن جون إيتن John Eaton عازف موسيقى الجاز على آلة البيانو ومؤلّفها، وعن المتخصصين في علم الموسيقى من أمثال آرثر مندل Arthur Mendel وأولڤر سْترَنْك Oliver Stronk. ومع أن قلَّة من قرّاء سعيد فيما بعد قد تتوقَّع ذلك فإن سعيد لم يكن واثقا تماما من أنه لن يتابع دراسة الموسيقى طوال الوقت. فقد جاء التحاقه بجامعة پرنستن عقب فترة من أشد فترات حياته تركيزا في التدرب على آلة البيانو، وأصبح الآن على صلة بأبرز شخصيات البلاد في تأليف الموسيقى وفي النظرية الموسيقية. وكانت نيويورك لا تبعد كثيرا عن پرنستن، وعندما أجاد العزف إلى درجة أهّلته للفوز بجائزة أصدقاء الموسيقى سُمح له بالدراسة تحت إشراف عازف البيانو المتميِّز فرانك شَرِدَن Frank Sheridan في المدينة ليتابع الدراسة فيما بعد في جوليارد.

غير أن ما جذب سعيد بعيدا عن الموسيقى لم يكن الأدب بحدِّ ذاته، بل طريقة تدريسه في پرنستن. فخلافا لجامعات رابطة اللبلاب (الآيڤي ليغ) الأخرى، كانت أجرأ الأشكال الأدبية في پرنستن تبتعد عن قسم اللغة الإنگليزية، واختارت بدلا منه شهادة بما سُمّي بـ «الإنسانيّات الخاصَّة» Special Humanities، وهي شهادة كانت جامعة پرنستن هي الوحيدة التي تقدِّمها. وكان برنامج الشرف المجدِّد هذا متاحا لألمع الطلبة؛ ويجمع الفلسفة والأدب والموسيقى واللغة الفرنسية. وقد ناسب هذا البرنامج سعيد كأحسن ما تكون المناسبة، فالتحق به بشغف، مشبعا بذلك رغبته في دراسة واسعة المدى، غير متخصِّصة، لم يتخلَّ عنها أبدا. وبالمقارنة على سبيل المثال مع هارڤرد التي كان لديها شاعرها اللامع ومدير مكتبة الكونغرس آرچِبولْد مَكْليش Archibald MacLeish، كانت پرنستن أجرأ، وكانت تفخر بناقدها البارز ذي الأطوار الغريبة ر. پ. بلاكمر R. P. Blackmur.

كان أهم نشاط اضطلع به سعيد جمعُه مجموعة من الأصدقاء الخُلَّص الذين أصبحوا مراسليه في المستقبل، وكان أعزُّهم عليه زميلاه في الصف آرثر غولد Arthur Gold وتوم فَيرر Tom Farer اللذان انتقلا معه من پرنستن إلى هارڤرد بعد التخرُّج في الكلِّيَّة، فشكَّل الثلاثة حلقة استمرَّت تسع سنوات من أخصب سني حياته. وكان نزيه حبشي قريبا منهم على رغم أنه لم يلتحق بالحلقة إلا في كلية الدراسات العليا. وكان هنالك آخرون من زملائه في جامعة پرنستن مهمّون أيضا، ولكن بصورة غير مباشرة – هُدِنْغ كارتر الثالث Hodding Carter III، الذي حصل سعيد من خلاله على دعوة من وزارة الخارجية في عهد الرئيس كارتر، وفي هارڤرد رالف نادر الذي ساعده على مقاومة التجنيد، وكذلك معاصره في كلية الدراسات العليا إرِك سيغال Erich Segal الذي أعجب سعيد بروايته «قصة حبّ» Love Story وما فيها من براعة حصل بسببها ذلك الكلاسيكي الشاب على ميزة أعلى الكتب مبيعا، مع ما رافق ذلك من حملة تسويقية شخصية بارعة جدّا[3].

كان سعيد أسعد حالا في پرنستن فيما يبدو مما كان عليه في ماونت هيرمن. «شاب جذاب.. يحظى بإعجاب زملائه الذين يعدّونه واحدا منهم»؛ هذا ما كتبه مساعد العميد في رسالة توصية[4]. وهذا يعني أنه نجح في أن يُقبل على رغم أنه لم يكن واحدا منهم. ويذكر الدكتور جِرَلْد ساندْلر (في العام 1957) أن زميله في الصف «إد سعيد.. ربما شعر بالعزلة بصفته فلسطينيّا مثلما شعرنا نحن اليهود»[5]. وكان من يحيطون به في السنوات التي قضاها في الكلية كثيرا ما يسمعونه وهو يتكلَّم عن القضية الفلسطينية بكثير من الحماس[6]. وقد يُلمَح الإحساس بأن ذلك قد يثير مخاطر إثنية من بعض الملاحظات الرسمية التي كتبت بقلم الرصاص على أوراق رسمية تعود لمكتب القبول في پرنستن تضمَّنت ملاحظات لا تُنسب إلى أحد، من الواضح أنها قُصد منها أن يقرأها مسؤولون آخرون، تقول إن سعيد «شديد السمرة، كبير، ومن أصلٍ عربي[7]». وكتب أحد الأساتذة ممتدحا جديَّته، ولكنه خصّ مظهره بالقول إنه «يتَّصف بقدرٍ من الخشونة»[8].

لربما لم يخنع أمام هذه العنصرية، ولكنه لم يجابهها؛ على الأقلّ في ذلك الوقت. إذ لجأ بدلا من المجابهة إلى تجاوزها بإظهار عقلية عالمية الطابع وجد كثيرون أنهم عاجزون عن مقاومتها. لم يكن هو المثقَّف البارز الوحيد في دائرته، فقد

كانت كلها دائرة تثير الإعجاب، ولكن سعيد وحده هو الذي تمثَّلت فيه صورة «رجل هذا العالم»[9]. وقد كان المال عاملا مساعدا. كان بإمكانه الاشتراك في كل مغامرة من المغامرات التي اقترحها المتآمرون معه، وكانت علاقاته السياسية التي تضمَّنت زيارات لأقربائه البارزين في واشنطن أو قضاء ليالٍ في مقرّ البعثة اللبنانية في نيويورك تغذّي تلك الهالة. كان أقرب زملائه له في پرنستن في الغالب من اليهود ومن سكّان المدن، وكانوا من أبناء مالكي المحلات التجارية أو من أبناء أصحاب المهن professionals(*)، بينما كان مشاركوه في سكنه من بلدات مغمورة في مناطق غرب الوسط الأمريكي ومن أبناء الطبقة العاملة. وقد ساعد واحدا منهم خلال محنة(**) الالتحاق بإحدى الجمعيّات الطلابية بأن أعانه على الانضمام إلى النوادي الاجتماعية المناسبة. وقد أصيب أحد أصدقاء سعيد، واسمه أَلِكْس مَكلاود، بالدهشة من تصرُّفه الغريب بينما كانا في رحلة إلى نيويورك لحضور حفلة موسيقية: «لو كان هناك يهودي أورثودوكسي يسير باتجاهنا فإنني سأقطع الشارع إلى الجهة الأخرى بدلا من مواجهته». وقد فسَّر مَكلاود ذلك السلوك على أنه احتجاج رمزي وتعبير عن الغضب الذي كان يشعر به نحو الموجودين في فلسطين ويسبِّبون الأذى لشعبه، واتَّفق مع شلَّة سعيد على أنه «يخلو تماما من أي شعور بمعاداة السامية»[10]. لكنه دهش من عنف تلك الحركة.

وقد لاحظ مَكلاود أن «مسيحية سعيد كانت ذات أهمية بالغة له» طوال فترة دراسته في الكلية. فقد صرَّح للجنة القبول أنه ينوي دراسة الطبّ من أجل أن يصبح «مبشِّرا طبِّيّا»، وتطوَّع فيما بعد لأن ينشد رسميا مع جوقة المنشدين في الكنيسة، وكان ذلك يفوق ما تتطلَّبه الكلية من حضور الطقوس الدينية التي تناسبهم[11]. لكن رغم كلّ ما تضمَّنه ذلك من حسابات للمستقبل فإن هذه العودة للطقوس الدينية لم تخدع زملاءه لتصديق أنه استقرَّ في بيئته الجديدة. فالقلق الذي ظل يساوره حول عزف البيانو، والتردُّد حول مساره المهني، وعادته المتمثِّلة في عدم رضاه عن نفسه وعدِّ ذلك شبيها بترفُّع أبيه وطغيانه، كل ذلك قاد إلى الشعور

(*) تشير الكلمة هنا إلى إحدى المهن الثلاث: الطب والقانون والكهنوت. [المترجم].

(**) يتطلَّب الانضمام إلى إحدى الجمعيات الطلابية في الجامعات الأمريكية النجاح في امتحان أو محنة يكلِّفه بها زملاؤه. [المترجم].

بالأزمة. لربما كان في الظاهر منسجما مع بيئته ومستمتعا بها، لكن ثارت التساؤلات عندما أسرَّ لأصدقائه بأنه كان يراجع طبيبا نفسيّا. وقد استمرّ ذلك بقية حياته.

***

كان لسعيد جانب «فيه قدر من الخبث»[12] على رغم أنه كان محبوبا، كما لاحظ مايكل فْريد، زميله في كلية الدراسات العليا. فقد اندمج مع عادات پرنستن اندماجا كاملا، واستمتع بطقوس نوادي الطعام بشكل خاص، ولكن كان بإمكانه أن يسخر منها، وأن يهزأ من مبالغتها في الجوّ الاحتفالي. فقد كانت لكل نادٍ شخصيته الخاصة به، وكان ناديه، وهو «نادي الحرم الجامعي» the Campus Club، مقصورا على المثقّفين. ولكن مشاركته في الأنشطة الاجتماعية المختلفة في پرنستن كان ثمنها الدراسة المحمومة في وقت متأخّر من الليل، ولم يكن قادرا دائما على تحمُّل الضغوط. ففي الليلة السابقة للتقدُّم للامتحانات الشاملة المشابهة للبكالوريا الفرنسية من حيث تحديدها للمستقبل الأكاديمي للطالب؛ وجده أصدقاؤه في منتصف الليل في غرفة الجلوس المشتركة غير المضاءة وهو يضرب الحائط برأسه[13].

وحتى عندما كان منسجما مع محيطه كان شاذا أيضا: معذَّبا، لطيفا، قادرا على الوصول إلى أعماق مدهشة. وقد وجد شريك له في غرفته أنه عندما يتكلَّم في نومه فإنه يستخدم اللغة العربية، أما في أثناء اليقظة فإنه كان يعدِّل اللغة وفق الزائر: العربية عندما تتاح الفرصة، والفرنسية الجميلة مع من يعرفون اللغة، ونوعين من اللغة الإنگليزية، إحداهما أمريكية والثانية أوكسفُردية، منتقلا فجأة بسرعة من الواحدة إلى الأخرى إما لإيضاح نقطة ما أو لمضاهاة لهجة مُحادِثه[14]. وكان سعيد سريع القراءة على نحو خارق للعادة، وكان قد دعم هذه المهارة بالالتحاق بدورة تدريبية في القراءة السريعة، وشجع أخته غريس على الالتحاق بها[15]. وعندما وقعت يده على نسخة من رواية «الدكتور جيڤاغو» Dr. Zhivago قرأ الكتاب ابتداء من الساعة السابعة مساء حتى منتصف الليل، بينما تقلّب يداه الصفحات باستمرار. وعندما فرغ منها قال: «ها هي انتهت»، فيما كان زميله في الغرفة ينظر إليه مندهشا[16].

كان غولد هو الذي جعله يتشكَّك بحلم أن يكون طبيبا، وسرعان ما أخذ الأدب والبيانو يتنافسان على اهتمامه[17]. ولم يخطر ببال أحد في ذلك الوقت أنه سيختار

الأدب. فمن ناحية، لم يكن ثمة الكثير مما يحدث في ذلك الحقل؛ كان أكبر نجم فيه هو الناقد الأدبي الكندي نورثرپ فراي Northrop Frye الذي كان مهتما بالتصنيف والتبويب؛ وكان ذلك متجاهَلا من قبل زملاء سعيد باستثناء غولد. وقد تبيَّن أن ما اختاره سعيد جاء نتيجة لضغط سلبي. فعلى رغم احتواء پرنستن على مجموعة من أساتذة الموسيقى المتميِّزين فإنها كانت ضعيفة في الأداء[18]. كان فيها مكوِّن نظري طاغٍ، وتركيز على الهارموني والطباق والتأليف، وكان قسم الموسيقى قد أعيد تشكيله على يد روي دكِنْسن وِلْچ Roy Dickinson Welch الذي استقطب ثمانية من أشهر العاملين في المهنة[19].

غير أن عوامل الجذب هذه كان من الممكن اكتشافها في جانب الأداء أيضا، ربما بدرجة أقلّ من الوضوح. فعندما وصل إلى سنته الأخيرة في الكلية كان يدرس تحت إشراف إرِك إيتور كانْ Eric Itor Kahn الشهير، وهو يهودي آخر كان قد هاجر من العالم القديم [أي من أوروبا]، وكان يأتي مرَّة واحدة في الأسبوع من نيويورك ليعلِّمه مع بضعة طلاب آخرين. ومع أنه لم يكن راضيا عن مدرِّسه الآخر في مادَّة البيانو في تلك السنوات، فقد كان هناك أيضا اثنان من المدرِّسين الأوسع شهرة في پرنستن هما إدْوَرْد ت. كون Edward T. Cone وإليُت فورْبْس Eliot Forbes اللذان قد لا يرتقيان إلى الدرجة الثانية[20]. وقد انتقل الثاني منهما إلى هارڤرد فيما بعد ليصبح قوة مؤثِّرة خفية فيها، بينما سافر الأول، وهو حفيد رالف والدو إمِرْسن Ralph Waldo Emerson، وأخذ يتحرَّك بين الدوائر المؤثرة في بوسطن التي كانت تملك من النفوذ ما يمكِّنها من تدشين الحياة المهنية لبعض الأشخاص.

وعلى الرغم من الجرعات الثقيلة التي تلقّاها من النظرية الموسيقية، ومن التعرُّض للموسيقى المتسلسلة وغير النغمية التي كان يؤلّفها كلٌّ من بابِت وسَشِنْز (إلى جانب موسيقى الجاز أيضا من خلال إيتن)، فإن ميوله الموسيقية كانت تقليدية. ومع أن سعيد كان العازف الأوّل الذي يرافق أغاني نادي الـغْلي Glee Club فإنه كان يميل بالدرجة الأولى لباخ وشوپان وشومان بصفته عازفا منفردا، واعترف بأنه كلما تعمَّق في دراسة البيانو وجد أن المسافة بين أسلوبه (الذي وصفه أحد الأصدقاء بأنه يخلو من العيوب) وأسلوب العازف في الحفلات الموسيقية لا تكاد تذكر[21]. كان الجميع يعرفون أنه كان يفكِّر في اتخاذ العزف مهنة، ولكنه كان يعاني توتُّر

الأعصاب، وكان في بعض الأحيان يسرع في العزف أكثر مما يجب[22]. غير أن مهاراته كانت مع ذلك تثير الإعجاب. وفي 11 مايو 1957 عزف كونشرتو لآلتي بيانو من تأليف باخ تحت قيادة نِكُلَس هارسانيي، أثبت فيه قدرة رائعة على تعديل طبقات الصوت modulation، والسرعة التي تشبه سرعة البرق في التسجيلات الموجودة[23]. لقد كان يتمتع بالجسم المناسب للبيانو: يَدان قويَّتان، ضخمتان مثل يدي الملاكم إلى حدٍّ ما، وجذعٌ يناسب آلة البيانو، ويعزف في وضع الانحناء فوق المفاتيح كأنه يقلِّد غْلِن غولد Glenn Gould[24].

وبعد أن خفَّ غَزَلُه مع الطبِّ والتجارة، وأصدر حكما بالڤيتو من دون رغبة منه ضدّ اختيار الموسيقى مهنة، أصبح غولد «أخا» له كما قال لماري-إلين، أرملة غولد بعد وفاة صديقه في أواخر العام 1988[25]. كانت علاقتهما الحميمة قد نشأت في جانب منها من الدراما العائلية لكلٍّ منهما، لاسيما (كما لاحظت ماري-إلين) العلاقة المؤلمة مع الأب المتسلِّط[26]. وقد كانت التجارب الصعبة التي مرّا بها قد أدَّت إلى انتعاش خصائص أخرى: «قدرة آرثر العجيبة على تخيُّل وجهة نظر الشخص الآخر، وقدرته على التعاطف الفكري»[27]. لقد كان غولد هو الذي عرَّف سعيد بأعمال جامبَتيسْتا ڤيكو Giambattista Vico، الذي كان يشتغل بالبلاغة في أوائل القرن الثامن عشر، والذي عاش في مدينة ناپولي، وألّف ذلك العمل الفذّ بعنوان «العلم الجديد» The New Science (1744)، وقد بلغ من تأثير ڤيكو في سعيد أنه شكَّل إطارا لقدْر كبير من تفكيره[28]. وعلى رغم أن غولد لم يكن له دور في تشكيل القراءة المبدعة التي اضطلع بها سعيد لأعمال ڤيكو فإنه (أي غولد) تجسَّدت فيه المعرفة التلقائية وغير العملية التي جعلت الحياة الفكرية شيئا لا يقاوم. كان بوسع أستاذه في الفلسفة آرثر سوثماري Arther Szathmary فقط، وهو شخصية أخرى من شخصيات جامعة پرنستن التي أثَّرت في سعيد، أن يكون له أثر مشابه في تعليمه أساسيّات الفكر النقدي[29]. كان هذا المدرِّس جريئا، ميالا إلى الشكّ، وإلى تقبُّل وجهات نظر طلبته، وقد أعطاه أول إحساس بتعقيدات الكتابة والكلام ونواحي الغموض فيهما.

التحق كلٌّ من غولد وسعيد بالبرنامج الخاص بالعلوم الإنسانية في سنتهما الأولى في الجامعة، وظلا لا ينفصلان طوال العقد التالي حتى إن حدثت بينهما توتُّرات.

وغولد على سبيل المثال هو الذي كان الأول في الصف، وألَّف أيضا مسرحية بالغة الجودة من فصل واحد، وكتب رسالة طموحة عن هنري جيمز وفلوبير وصفها أساتذته بالتلميح إلى اسمه (الذي يعني «ذهب») بأنها «ذهب خالص». كذلك شكَّلت السياسة قضية شغلتهما؛ فقد اختلف الشابان حول أزمة السويس التي تعرف في العالم العربي بالعدوان الثلاثي (وهو غزو مصر من جانب بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) ورأى كلٌّ منهما جانبه الذي رأى أنه المعتدى عليه.

كان سعيد، بملابسه الأوروبية وشعره الأجعد الأسود، يثير إعجاب النساء، أما غولد فكان يمثِّل الصورة التقليدية للدمامة. كانت نظّارته السميكة تنسجم هي وبنطلونه الكوردروي الواسع مع ما وصفه سعيد «بضعف بنيته، وتدخينه الذي لا ينقطع، وجبينه المغضَّن، ويديه اللتين لا تكفّان عن الحركة، ونغمة صوته التي لا توحي بالتوصُّل إلى قرار، وكثرة مقاطعته المضحكة لنفسه»[30].

لكن الاختلاف الأوضح بين الشخصيتين يتبين عند النظر إلى قلَّة الإنتاجية عند غولد مع تقدُّمه في حياته المهنية. لربما كانت تعليقاته العابرة ذات ألمعية تفوق ما عبَّر عنه الآخرون في كتبهم، وأفكاره التي تصلح للتطوير في مقالات لا حصر لها، ولكن العمل الأكبر لم يظهر أبدا[31]. وخلافا لمعظم نجوم الآيڤي ليغ، رفض غولد الذهاب إلى أوكسْفُرْد أو كَيمْبْرِج بعد التخرُّج، بل فضَّل قبول زمالة من نادي الروتاري للذهاب إلى الهند لأنها بلاد شاسعة ذات تاريخ عريق، ولأنها يمكن أن تغيِّره. لقد كان ليبراليّا لا يلين في عصر آيزنهاور. وفي طريق عودته من الهند اتفق مع سعيد على اللقاء في مطار القاهرة للتحدُّث عن قلَّة إنتاجيته. ولا بدَّ أن غولد أحسَّ بنسيج هوية سعيد النابعة من الشرق الأدنى (وفق وصف سعيد للمنطقة في تلك الفترة)، وهو وصف عرضه سعيد بوضوح في مقالته السياسية الأولى؛ وهي مقالة عن أزمة السويس كانت قد نشرت في جريدة The Daily Princetonian في العام 1956[32].

في هذه المقالة كانت إيقاعات أسلوب سعيد الناضج بادية للعيان بما فيها من نغمات مطمئنة يرافقها ذلك التحفُّظ الرفيع الذي يدلُّ على المعرفة الواثقة بالعلاقات الدولية. فقد كتب سعيد ما مؤدّاه أن تأميم ناصر للقناة لم يكن فعلا متسرِّعا قام به ثوري، بل كان تعبيرا منطقيّا «عن عدد من المواقف التي لا حلَّ لها

بين العرب والغرب». إذ بينما وافق البنك الدولي على تمويل جزء من سدِّ أسوان، فإنه وضع شروطا قاسية، إذ طلب من مصر أولا أن تقيم سلاما مع إسرائيل، وأن الغرب يجب أن يوافق على كل القروض بمعدلات فائدة غير معقولة. أما العرض المقابل من الاتحاد السوفييتي فكان، كما لاحظ سعيد، أيسر بكثير: «ادفع عندما تستطيع»، وبلا فوائد، وبلا اشتراطات تتعلَّق بإسرائيل. ومع التسليم بأن العرض السوفييتي كان يخفي مآرب أخرى، فإن الحقيقة تبقى، وهي أنه كان العرض الأفضل. أضف إلى ذلك أن التصلُّب الغربي ألحق الأذى بالولايات المتَّحدة في نظر العالم. ما حدث هو أن ثقة ناصر بالغرب اهتزّت، وليس العكس كما ظنّ جون فوستر دَلِس John Foster Dulles، وزير خارجية الولايات المتَّحدة. فقد ظلَّت الولايات المتَّحدة هي الداعم الرئيس لإسرائيل، علما أن جميع المظالم التي يشكو منها الإقليم «مصدرها القضية الفلسطينية». ويبدو أنه ليس من بين القوى الغربية قوَّة أدركت أن الصداقة مع العرب هي من مصلحة الغرب على المدى الطويل.

غير أن دفاعه لم يذكر أي شيء عن مساندة عائلته للسياسة الناصرية، سواء أجاء ذلك الدفاع لأسباب تكتيكية أو لغموض حقيقي في موقفه. كذلك يلفت النظر أن المقالة تجاهلت مؤتمر باندُنغ Bandung الذي عقد في العام 1955؛ ذلك اللقاء الأسطوري الذي جمع تسعا وعشرين من دول العالم الثالث في باندُنغ بإندونيسيا للتعبير عن تأييدها المستقلّ لحقّ تقرير المصير، من دون النظر إلى مواقف القوى العظمى في العالم. وقد كان الحديث عن الخط الفاصل الذي وُضع في باندُنغ هو حديث الساعة في ذلك الوقت، كما أوضحت حماته في المستقبل وداد قرطاس في معرض مدحها للإنجازات النظرية التي حقَّقها مؤتمر باندنغ في فضحه لجرائم الاستعمار، مع التركيز على ناصر، الذي كسب بتحدّيه لشرعية إسرائيل «نصرا رمزيّا لفلسطين»[33]. لم يأت ذكرٌ لأيٍّ من هذا في مقالة سعيد، وهو ما يثير التساؤل لأن الإجراءات الصارمة التي تعرَّض لها المعارضون، والتي ذهبت حياة صديقه فريد حدّاد ثمنا لها في سجن مصري، كانت ماتزال في علم الغيب، ولأن عجْز ناصر عن تحقيق النصر في المعركة التي خاضها ضدّ إسرائيل لم يكن قد ظهر بعد[34]. ومهما يكن السبب فإن الزعيم المصري لا يرد له ذكر في سلسلة كبار القادة العرب الذين يذكرهم سعيد.

وعلى رغم كلّ ما حقَّقه سعيد في پرنستن، فإن تلك الجامعة لم تكن مكانا للترفُّع عن النوازع الجنسية. فقد احتفظ بسيارته من نوع ألفا روميو في مرآبٍ خارج الحرم الجامعي خلافا للأوامر الجامعية التي تمنع امتلاك السيارات (وكانت المخالفة تعاقب بالفصل المؤقت)، وكان يستعملها للهرب إلى الجامعات الأخرى بحثا عن صحبة النساء، بلا جدوى في الأغلب[35]. لكن أخواته ساعدنه في مسعاه بالمصادفة. فقد كانت روزي، كبرى أخواته، تدرس في كلية بْرِن مور عندما كان في سنته الثانية في الكلية، فقابل إحدى صديقاتها، وتدعى نانسي داير، التي غدت علاقته بها علاقة غرامية، وإن لم تكن الأولى. ففي السنة السابقة كان سعيد قد وقع في غرام ابنة صاحب مصنع للصابون ميسور الحال اسمها إيڤا عماد تحب الثقافة الفرنسية، وكان قد التقى بها في العطل الصيفية في ضهور الشوير. وفي هذه اللقاءات الغرامية الأولى اكتشف سعيد متعة العلاقات الحميمة بعيدا عن إشراف والدته الشديد.

كانت فترة التودد مشبوبة في السنة السابقة لسنة التخرُّج، وكانت تجري عن بُعد طوال تسعة أشهر في السنة، ثم تستأنف في لبنان في الصيف. وقد استمرَّت العلاقة سنوات، حتى في فترة الدراسات العليا، ولكن ذلك كان متقطِّعا بسبب الاختلاف في نمط الحياة وبُعد المسافة. وفي النهاية لم تعد إيڤا مناسبة له[36] لأنها لم تكن تطمح إلى أن تكون لها مهنة خاصة بها ولأنها تنتمي إلى طائفة الروم الأورثودوكس. ويفهم من مذكِّراته أن حبهما راح ضحية انتقادات والدته بسبب سن إيڤا، وانتمائها الطائفي، وميولها الفرانكوفونية، ولكن كانت هنالك أسباب أخرى أقوى. كانت إيڤا فتاة طيبة، مستقيمة، ومخلصة، ولكن تعليمها لم يتخطَّ المرحلة الثانوية، وكانت عائلتها من العائلات المحافظة. كل ما كانت تفعله هو أن تصغي بصبر بينما يتكلَّم هو عن أفكاره من دون المشاركة فيها. وقد ظلَّت العلاقة تخطو خطوا وئيدا حتى أواخر الخمسينيات، وكانت قد ضعُفت ولم يعد بالإمكان إصلاحها، لكنها انتهت عندما أعلن سعيد خطبته امرأةً أخرى في العام 1961.

بعد أن أخذت علاقته بإيڤا تضعف، ربما ظنَّ من كانوا حوله أن تلك المرأة هي نانسي داير لأن علاقتهما بلغت من الجدِّيَّة حدّا جعله يدعوها إلى القاهرة للقاء عائلته، ولكن ذلك أيضا وصل إلى حدّه في العام 1959 برسالة تستدعي النظر قطع بها العلاقة وأشار إلى بعض الإسطوانات التي رافقتها:

«أرجو أن تغفري لي هذه النغمة الحزينة التي أكتب بها، ولكنها تعبِّر عن الحزن الحبيس في داخلي وهو يعبِّر عن نفسه هذه المرَّة؛ مع الرجاء أن تكون هذه المرَّة هي الأخيرة. إن جمال هذه الموسيقى نابع من جمال الكثير مما جرى تذكُّره مع مزيج من الأسى والابتهاج. لقد تكشَّفت لك المرارة التي لا غور لها لنفس عربية تبحث عن قرار في شكل من أشكال التناغم الدائم.. ونحن لدينا الكثير مما يستحقُّ العرفان من أجله بسبب تلك اللحظات القصيرة من الوحدة التي حصلنا عليها.. أنا ألوم نفسي. لا تندمي أبدا، أبدا لخطيئة الحماس.. اصغي لهذه الموسيقى وكوني أنت بها، بتلك النغمات النابعة من الجمال الدائم الذي لا يذوي مع الزمن.. ولعله يكون من نصيبنا، نصيبنا نحن فقط»[37].

وبعد سنوات قليلة، أي في العام 1962، وكان سعيد آنذاك طالبا في كلية الدراسات العليا في هارڤرد، تزوَّج من مايرة يانوس بدلا منها، وهي امرأة قابلها في العام 1959، عبر إحدى أخواته هذه المرة أيضا، لكن الأخت هذه المرَّة كانت جين التي كانت تدرس في كلية ڤاسار. كانت مايرة زميلتها في الصف. وكانت أكثر من عاشقة وصديقة. كانت شريكة حقيقية في البحوث التي كان يجريها، امرأة لم يكن ما لديها من فكر ثاقب أو مهارات لغوية أقلَّ من فكره ومهاراته. وفي أثناء اشتغالها للحصول على شهادة الدكتوراه في الأدب، اشتركت هي وسعيد في قراءة الفكر النظري الذي كان سائدا في القارَّة الأوروبية. كانت السنوات الأولى التي قضياها معا تفيض بالسعادة، وكان كلاهما منفيَّين يعرفان عددا من اللغات ويعملان على الالتحاق بمهنة آخذة بالانفتاح لنظرتهما الدنيوية الخاصة ولميولهما الفلسفية.

التقى سعيد بإبراهيم أبو لُغُد قبيل التخرُّج في جامعة پرنستن في العام 1957 بينما كانت حرب الجزائر تمرُّ في بعضٍ من أعنف مراحلها، وكان إبراهيم طالبا فلسطينيّا يافاويَّ الأصل في مرحلة الدراسات العليا في پرنستن. كان سعيد قد تطوَّع للعمل في كشك البطاقات التابع لنادٍ موسيقي عندما اقترب إبراهيم منه للدردشة. كان التعارف في البداية عابرا، لكن ذلك الرجل هو الذي جنَّده فيما بعد للمشاركة في النشاط العربي الأمريكي، وتعاون معه في كتابة المقالات والكتب وعَمَل الأفلام، ووَصَفَه سعيد في الكلمة التي كتبها لتأبينه في العام 2001 بأنه «شيخه». ومن

المصادفات أن أبو لُغُد التقى في طريقه للعمل في فرع اليونسكو في القاهرة بسعيد الذي كان ينوي الذهاب إلى هناك أيضا لأسباب أخرى. وقد أدّى هذا القرب إلى تعميق العلاقة بينهما، فعلَّمه أبو لُغُد، الأكبر سنّا، مداخل التمرُّد السياسي في العالم الثالث ومخارجه، بما في ذلك الأحداث التي كانت تجري في الجزائر وتهمّ الشابَّ الذي ظلّ يُعرف دائما بانحيازه للثقافة الفرنسية[38].

كان اللقاء مصيريّا، فقد جاء بعد موافقة سعيد، التي لم يمض عليها وقت طويل، على طلب أبيه أن يقضي السنة الأكاديمية 1957 - 1958 في القاهرة للتلمذة على إدارة تجارة أبيه قبل الالتحاق بكلية الدراسات العليا في هارڤرد. ولم يكن القصد من الخطة تهدئة أبيه فقط. فعلى رغم الحرية التي شعر بها في حياة الفكر عند التخرُّج في پرنستن، ظلَّ متمسِّكا بخطَّته الأصلية، وظل يعلن أن هدفه هو الاستقرار في «الشرق الأدنى»(*)، وأن خياريه الرئيسين كانا «التعليم والتجارة (في فرع متخصِّص من الحكومة)»[39].

ولذلك فإنه عندما أجَّل «الزمالة الدسمة» التي تتيح له الالتحاق بجامعة هارڤرد لمدَّة سنة، فعل ذلك للابتعاد عن إيڤا إلى جانب محاولة تخفيف الضغط عن أبيه الذي كان يحتاج إلى الراحة لأسباب صحية، ولإعطاء نصيحة عمته ميليا بأن يكرِّس حياته للتجارة فرصة حقيقية[40]. وكان هنالك سبب آخر، وهو أنه أراد إعادة التعرُّف على تيغرمان. «ثم عدتُ إلى الشرق الأوسط لمدة سنة لأستطيع العزف على آلة البيانو»[41]. وهكذا نجد أن عقليته بقيت تقليدية حتى بينما كان يتعلَّم عن ثورية العالم الثالث من أبو لُغُد. وقد حرص - بينما كان في طريقه إلى مصر - على أن تُرْسَل مجلة خرّيجي پرنستن الأسبوعية Princeton Alumni Weekly إلى صندوق بريده في القاهرة، على نحو يذكِّر برسائل التملُّق التي أرسلها إلى روبندال في ماونت هيرمن[42].

ولكن على الرغم من كلِّ متع السنة التي قضاها خارج الولايات المتحدة فإنها لم تخلُ من الأمور السلبية. فقد قرَّر ألّا يتابع العمل في تجارة العائلة، وألا يصبح عازفا محترفا للبيانو أو طبيبا على رغم أنه كان قد تابع دراسة المواد التحضيرية

(*) ربما لاحظ القارئ أن عبارة «الشرق الأدنى» وعبارة «الشرق الأوسط» كثيرا ما تردان في الكتاب بمعنى واحد. [المترجم].

لتخصص الطب في الكيمياء وعلم الأحياء طوال وجوده في پرنستن. وفي رسالة ترافق تجديد طلب الالتحاق بكلية الدراسات العليا بعد التأجيل شرح الوضع بقوله «إن هذه السنة التي قضيتها في مصر للعمل في شركة والدي كانت لها إيجابيّاتها... فأنا الآن أشدُّ ثقة من أي وقت مضى بما أريد فعله: أن أعلِّم... وقد أضافت السياسة المضطربة في الشرق الأدنى بُعدا جديدا إلى أفكاري»[43]. لكن الحقيقة هي أن النفور من حياة التجارة لم يكن سببه الميل إلى حياة الفكر العالي، بل كان من الواضح أنه سببٌ شخصيٌّ أيضا. فالإحساس بأنه يؤدِّي دور التابع – الواضح من اختلاف الخطاب: «سيد سعيد» Mister Said في مقابل «سيدي» Sir(*) التي يُنادى بها وديع بين موظفي شركة القرطاسية الأساسية – كان من العوامل التي لم تشجِّعه على المضي في طريق أبيه.

ثمَّ إن البيئة التي وجد نفسه فيها كانت عادية مبتذلة. كان كأنه موظف في وظيفة مدفوعة الأجر، وبلا مسؤوليات يعتدّ بها. وبما أن الوقت كان متاحا فقد أخذ يدرس كتب كيركغور، ونيتشه، وفرويد دراسة مكثَّفة للمرَّة الأولى، يفكِّر في قضاياها بينما يكتب نقدا موسيقيا وشعرا نشر بعضه في مجلات بيروت[44]. وليس واضحا تماما ما إذا جاء هروبه من حياة عقود البيع وسجلات الاستيراد نتيجة لرسالة أعلى تشغل فكره، أو بسبب بيئة العمل القلقة في مصر تحت حكم عبدالناصر، أو لأنه لم يكن يملك خبرة أبيه مع الأرقام والتفاصيل الصغيرة. ومهما يكن من أمر، فإنه وجد نفسه للمرَّة الأولى في حياته من دون أن يدري.

على أنه منذ بداية هذه السنة في مصر ظلَّ قلقا بشأن مسألة التجنيد في الولايات المتحدة. وقد كتب لجامعة هارڤرد في صيف العام 1957 ليقول إنه سيكون موجودا في كَيمْبرج [في ولاية ماسَچوسِتْس] في شهر سبتمبر «إن أُقِرّ التجنيد»[45]. وكان بحلول العام 1958 قد صُنِّف IA بمعنى أنه قابل للتجنيد الفوري. لكنه تمكَّن من تعطيل قرار مجلس التجنيد بعض الوقت، ثمَّ اضطر في أغسطس 1960 إلى الذهاب إلى مدينة لونغ آيْلَنْد للفحص الطبّي، وهي الخطوة الأخيرة قبل الالتحاق

(*) يُترجَم كلا اللفظين Mister وSir إلى العربية بكلمة «سيد»؛ مما يخفي الاختلاف بين معنييهما في الإنگليزية، وهو أن Mister مجرد لقب للتأدب في مخاطبة أي رجل من دون أن تكون له مكانة تعلو على مكانة المخاطِب، أما Sir فلقب يُخاطَب به الرجل الذي تعلو مكانته على مكانة المخاطِب. [المحرر].

بالجيش. وأوضح أن أباه كان مريضا، وأنه يعتمد عليه ليساعده في تجارة العائلة كلَّ صيف. لكن نصيحة رالف نادر هي التي كان لها أبعد الأثر، وقد تمكَّن سعيد بمعونته من الحصول على التأجيل الذي يمنح للطالب.

***

تشكَّلت حياة سعيد الفكرية على مدى ثماني سنوات أو يزيد قليلا بالحضور الطاغي لأربع من الشخصيّات التي أدَّت دور المثال الذي يحتذى: بلاكمر وسوتماري في پرنستن، وهاري لَفِنْ في هارڤرد ، وشارل مالك، رجل الدولة اللبناني وأستاذ الفلسفة في الجامعة الأمريكية ببيروت، الذي استمر تأثيره طوال تلك السنوات الثماني. كلّ واحد من هؤلاء زوَّده بنموذج لأسلوبه البلاغي وأهدافه البحثية على رغم كرهه الرؤية السياسية عند مالك. فقد كانت كراهيته لمسيحيته اليمينية من الشدة بحيث دعاه فيما بعد بـ«الدرس الفكري السلبي الكبير في حياتي»[46]. وعلى رغم كلِّ ذلك فإن عمل سعيد مزيج من تشخيص بلاكمر للمشهد الثقافي الأمريكي الذي لا أمَلَ فيه، ومن الرسالة التي يدعو إليها مالك نيابة عن إنسانية ذات ملامح عربية متميِّزة.

كان بلاكمر مولعا بالقول إن «قوَّة العقل» الأوروبي وقدرته على العمل على مستويات معقَّدة من الفكر كانت أعلى من تلك التي يملكها الأمريكيون، ولا شكَّ في أن ترويج سعيد الرائد لفلسفات أوروبية مختلفة في الستينيات والسبعينيات انبثق من تلك النظرة. فكثيرا ما اشتكى من ضحالة الحياة الفكرية الأمريكية، ومن «الغياب غير العادي» فيها لذلك النوع من «التأمل الفلسفي... الذي يجده المرء في الكتابة الفرنسية والألمانية والإيطالية»[47]. ومن الناحية الثانية كان لدى الأمريكيين، فيما رأى بلاكمر، زخم أقوى. والمفارقة هنا هي أن هذا الزخم الأمريكي وهذه المشاعر الأوروبية يمكن أن تُرى بوضوح في رجل أساء قُرّاءُ كتابِ «الاستشراق» فيما بعد فهمَه بالقول إنه مناهض لأوروبا.

لم يتولَّ بلاكمر مَهَمَّة الإشراف الرسمي على عمل سعيد على رغم أنه كُلِّف رسميّا بقراءة أطروحته التي قدَّمها في سنة التخرُّج بعنوان «الرؤية الأخلاقية: أندريه جيد وغْرِيَم غرين» The Moral Vision: Andre Gide and Graham Greene. وكان بلاكمر هو الذي كتب التوصية التي أدَّت إلى حصول سعيد على زمالة وودرو

وِلْسن. وفي ملاحظة قصيرة مكتوبة بخط اليد تعود إلى تاريخ 13 ديسمبر 1957 قال بلاكمر إن معرفته الشخصية بسعيد «لا يعتدُّ بها ولا ترقى إلا إلى انطباع عام بالحيوية والجاذبية العامَّة»، ومع ذلك فإنه قرأ الأطروحة «باهتمام حقيقي لما فيها من ذكاء متَّصل، واتّساع في المدى، ونفاذ النظر هنا وهناك في طبيعة الرؤية الأخلاقية»[48].

أما سوتماري فقد بلغ من اهتمامه بالشاب أنه كاد يصل حدَّ المحبَّة، فقد وجد فرنسية سعيد بلا أيِّ عيب، وسعى بين زملائه لكي يعدّوه «طالبا جادّا من دون أن يكون ثقيل الدَّم، متحضِّرا من دون أن يبدو عليه عدم الاكتراث، مثقَّفا من دون أن يبدو عليه الضجر»[49]. كان أستاذاه ينتميان إلى حقلين مختلفين، وكان لكلٍّ منهما أسلوبه، ولكنهما كانا متمرِّدين أصيلين على شاكلة سعيد نفسه، وكانا يختلفان عنه في أنهما لم يولدا ضمن هذه البيئة، بل كانت تدعمهما مؤسَّسة وتحميهما وتكافئهما لقاء ما يبديانه من جرأة مقبولة. وقد كان تأثير سوتماري ذا طبيعة عامة على رغم أنه أساسي: فقد علَّمه «أساسيات الفكر النقدي»[50]. أما عندما كان في المرحلة الجامعية الأولى فقد جاء التأثير الدائم من بلاكمر.

قد يبدو أن ما جعل أستاذيه مختلفين غير مفهومٍ في هذه الأيّام، ولكنه حفَّز سعيد تحفيزا هائلا. فبعد الحرب العالمية الثانيةٍ حصل تنافس في طريقة دراسة الأدب في الجامعة. إذ انخرط العملُ غير النقديِّ الذي يركِّز على التاريخ وعلى التنقيب في الأرشيفات، وهو العمل الذي كان يضطلع به الفيلولوجيون التقليديون، في معركة ضد التحدِّيات الراديكالية التي جاء بها «النقّاد الجدد» New Critics. كان النقّاد الجدد، الذين يُعَدّون الآن محافظين، ثوريين في أيّام عزِّهم لأنهم أصرّوا على أن قراءة الأدب مسألة تذوُّق إستطيقي وشكل أدبي، وليست مجرّد تتبُّع للتغيُّرات في أصول الكلمات أو اشتقاقها. وكان تركيزهم على الأبعاد الكنائية الفريدةٍ للنصّ – بما يشبه «الثورة في اللغة» التي حدثت في النظرية الأدبية في القارَّة الأوروبية في السّتينيات – هو ما تميَّزت به حركتهم في تلك الأيام.

لقد بالغ النقاد الجدد في رد فعلهم على المعرفة المتخصصة التي تميَّزت بها فيلولوجيا المدرسة القديمة بحيث محوا كل التاريخ والسياسة من النقد، وتخيَّلوا قارئا مثاليّا لا يعرف شيئا باستثناء القصيدة أو القصة التي يجدها أمامه. وبهذا غدا

العمل الفني شيئا مغلقا على نفسه، وآلة تنتج المعنى وفق قواعدها المشفَّرة الخاصة بها. لم تعد هنالك حاجة إلى استخراج تفاصيل عن الكاتب أو لاستقصاء المعلومات عن كيفية كتابة النص وأسباب كتابته. لذلك فإن سعيد انجذب منذ البداية إلى مدرّسين يستمتعون بالشكل الإستطيقي ولكنهم يقاومون هذه الاتّجاهات بالتركيز على المؤسسات السياسية والاجتماعية خلافا للاتجاه السائد.

ولما كان بلاكمر واحدا من هؤلاء الذين يقعون خارج النمط السائد فإنه أخذ يمثِّل اتجاهاتٍ عَمِلَ سعيدٌ على دعمها. وعلى رغم أنه ينتمي إلى اليسار السياسي فإنه هو ولَفِنْ، المشرف على عمله في كلية الدراسات العليا، كانا لا يرتاحان لماركس: يحترمانه، ولكنهما يبقيانه خارج دائرتهما على رغم اقتباساتهما الكثيرة منه. وتحدَّثا عن الرأسمالية بلهجةٍ من تعب منها وباحتقار، ورأيا في فنون اللغة انتقاما من مجتمع لا يرى قيمة في أيِّ شيء يخلو من الفائدة المباشرة[51]. وفي ملاحظة مكتوبة بخط اليد وجدت بين أوراق مخصَّصة لرواية في طور الإعداد اقتنص سعيد سطرا غامضا كتبه بلاكمر يقول فيه: «المعرفة نفسها سقوط من جنة الإحساس غير المحدَّد»[52]. كان يرمي إلى القول إن هنالك مأساة في المعرفة، وتخلِّيا عن جمال الدافع الأصلي لمعرفة تنتهي بيقين لا يُرضي عند إشباعها. الحياة التي تستحق أن تعاش مفتوحة للأسرار الإستطيقية.

ربما لم يكن الجميع متّفقين مع رأي سعيد القائل إن بلاكمر كان أعظم ناقد أمريكي في النصف الأول من القرن العشرين، ولكنه كان لمعظم معاصريه نسيجَ وحدِه. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يمكن أن «يُقلَّد، ويعاد إنتاجه، ويُعاد استعماله كأنه درسٌ أُتْقِنَ ثم أُعيد تطبيقه»[53]. فهو كان لطلبته أكثر من مدرِّس، كان أشبه «براهبٍ عالٍ من رهبان الحداثة»، عرف الشعراء وكان قريبا منهم (ومنهم و. هـ. أودن W. H. Auden، ولويز بوغان Louise Bogan، ووالَس سْتيفِنْز Wallace Stevens). وكان مشغولا بتدريس أشعارهم. كان يقرأ الشعر بصوت عالٍ لطلبته على مدى ساعات في قاعة الصف وهو يحمل سيكارة بيده. وفي أثناء حضوره محاضراته كان سعيد يدرس الكيفية التي تؤثِّر فيها مادية الجسد والشخصية بالنقد بحيث يتخلَّل ذلك الجانب من الإقناع الذي يقع فيما وراء الكلمات. ولئن امتدح فيما بعد شخصية من يعلِّم نفسه بنفسه، فإن الشخص الذي كان في ذهنه هو

بلاكمر، وهو أستاذ لم يكن يحمل شهادة الدكتوراه، بل لم يكن يحمل شهادة الثانوية العامة[54]. كانت الجاذبية التي يتمتع بها بلاكمر تعود إلى مزجه نفاذ البصيرة النقدية مع قدر من «الغرابة اللعوب»[55].

وعلى رغم أن بلاكمر لم يكن بعيدا عن السياسة ولم يكن مجرّد شكلاني، فإنه كان في نظر أقسام اللغة الإنكليزية واحدا من النقّاد الجدد. كلُّ ما في الأمر أن العودة إلى العمل الأدبي نفسه، وهي من العلائم الدالة على النقد الجديد، لم تمنعه من كتابة مقالات عن مصير العقل، أو من الاحتجاج ضد الفكرة القائلة إن العقلانية ملك خاص للرياضيات والتكنولوجيا. وقد ميَّز نفسه بريادة الدراسة المتشككة بوسائل الإعلام التي تبثُّ الأخبار والبرامج الترفيهية، وبدراسة الكتابة الإبداعية بعيدا عن مسألتي الموهبة وصوت المؤلِّف «باتجاه القوَّة الفاعلة لجميع المؤسسات الاجتماعية التي يمثلانها طوعا أو غصبا[56]». كما درس اقتصاد الأدب، ودافع الربح، والتهديد الذي يتعرَّض له الفن في ظلّ «رأسمالية التمويل»، وفعل ذلك بطرق أوضح من نواحٍ كثيرة مما فعله سعيد نفسه.

كان سعيد يعدُّ باستمرار ناقدا من نقّاد فن القصة وفن الرواية على وجه التحديد، ولكن ربما كان الشعر هو الذي يكمن في القلب من تكوينه الفكري. وقد كان لبلاكمر يدٌ في ذلك أيضا، وبخاصة عبر حبِّهما المشترك لشعر جِرَرْد مانلي هوپكنز، الذي كان يؤمن بأن الكتابة العظيمة تملك مقوِّمات الخطاب المباشر. والعبارة التي يتكرَّر اقتباس سعيد لها من بلاكمر – «تقريب الأدب إلى الأداء» – كانت شكلا من الأشكال التي لجأ إليها سعيد للاستفادة من المهنة التي تخلّى عنها وهي مهنة عازف البيانو، وذلك بأن يتخيَّل الناقد المثالي موسيقيّا يؤدّي دوره أمام المستمعين، وبأن يتخيَّله أيضا خطيبا يدافع عن قضية في محكمة[57]. وكان بلاكمر قد قال في كتابه «اللغة إيماء» (Language as a Gesture (1935 إن الكلمات تُصنَع من الحركة، أما الكلمات في قلم [الكاتب] فليس لها من الحياة ما للكلمات في فمه»[58].

وليست المسألة أن بلاكمر قد وضع إصبعه، بمحاكاة هوپكنز، على مصدر القدرة الخاصة التي تمكَّن منها هو وسعيد بصفتهما ناقديْن، تلك القدرة على الكتابة بعفوية خلّابة، بذلك الحضور الجسماني لشخصية المتحدِّث، بل هي أن كلا منهما

استمدَّ القوَّة من الرؤية الدينية عند هوپكنز لجعل النقد رسالة دنيويّة. وكان من المهمّ لهما أن هوپكنز كان أنغليكانيّا متحمِّسا تحوّل إلى الكاثوليكية الرومانية، ثم أصبح راهبا يسوعيّا، وأن قصائده تنبض بالقوَّة المتعالية تحت سطح الأشياء الطبيعية. وقد كان إعجاب سعيد بهوپكنز لا تحدُّه حدود لهذه الأسباب مجتمعة، ولكن لأسباب نفسية أيضا[59].

ومن الصعب تقليل أهمية الأثر الذي تركه بلاكمر على نواحٍ أخرى من سعيد أيضا. فمع أن بلاكمر كان حداثيّا، وهذا يعني لأكثر الناس أنه يعشق الرؤى الظلماء السوداوية التي يجري التعبير عنها بنثر تجريبي مملوء بالصور الشعرية، فإنه كان يرى أن الكتابة الإبداعية هي في آخر المطاف كتابة ذات رسالة تدعو إليها – أي إن لها هدفا وفكرة تودّ توصيلها – وأنه أراد إحياء الأدب التعليمي لكلٍّ من هوراس Horace وملتن Milton وسْوِفْت Swift. وهذه آراء ما كان يمكن أن يفوق هرطقتها شيء من وجهة نظر الحداثة. غير أن بلاكمر لم يكن سياسي النزعة بشكلٍ مكشوف. فقد حسب أن من الأفضل أن يبقى «مازحا»، فلا ينخرط في المنظمات أو الأحزاب التي وصفها وصفا لا يُنسى بأنها «صراعٌ في مُرَبّى الحمضيّات»[60]. وقد سخر سعيد من «إنسانية بلاكمر البورجوازية في مقبرة الكنيسة»(*)، ولكن ليبرالية بلاكمر السياسية هي في جوهرها ليبرالية غاضبة وسطية؛ أي إنها مناهضة للشيوعية وللمكارثية في الوقت نفسه. وقد قارن «مخترعات موسكو.. بمخترعات مادِسن أڤنيو»(**).

كان بلاكمر، على غرار سعيد فيما بعد، داخل هذه الحركة الأدبية المهمَّة، حركة الحداثة الأدبية، وخارجها. وقد كانت هذه الحركة تعزِّز مكانتها في التوجّهات المركزية في السياسة والإستطيقا، في العلوم الإنسانية والفنون في الخمسينيات. وعلى رغم أن بلاكمر كان من محطِّمي الصور التقليدية، فلا شكَّ في أنه كان يشاركها في بعض آرائها المركزية. فإلى جانب أن مصطلح الحداثة كان يعني حقبة في تاريخ الفن (من العام 1880 إلى العام 1940 تقريبا) فإنه عنى أيضا مجموعة غير متماسكة من المواقف الإستطيقية والاتِّجاهات الفنية التي تشمل التجريبية الطلائعية، وكره

(*) يلمّح سعيد هنا إلى قصيدة شهيرة للشاعر توماس غْرَي عنوانها «قصيدة رثاء في مقبرة كنيسة ريفية». [المترجم].
(**) مادسن أڤنيو، شارع في مانهاتن بنيويورك يتسوَّق منه أثرياء العالم. [المترجم].

الديموقراطية، والثورة ضد الثقافة الجماهيرية. أما أين يتَّفق بلاكمر وسعيد فهو في مقاومة الحداثة للروح التجارية، والاعتزاز القومي، والتفاؤل الذي يؤدّي إلى الكبت. وقد امتدح كلاهما المواهب الغامضة لدى المؤلّفين غير المحبوبين الذين يتَّصفون بالصعوبة والسوداوية (بكلمات بلاكمر) ويملكون في دواخلهم القدرة على الخلق باستيعاب الاضطراب وتحويله إلى انتظام[61].

لكن بلاكمر لاحظ علامات تنذر بالخطر، ووجد في الحداثة جانبا من العدمية الكامنة في الفيزياء والرياضيات حيث بدا أن الفنون والعلوم تدَّعي أن بني البشر لا يمكنهم أن يعرفوا، وأن «الشخص» فكرة مختلَقَة، ولا يزيد على كونه مجموعة من الدوافع الميكانيكية. وقد اتَّفق سعيد مع بلاكمر بشأن هذه المخاوف، ولكنه وضع خطّا فاصلا عندما وصل إلى رؤية بلاكمر للنقد بوصفه نوعا من المصير البطولي المحتوم الذي يشنُّ حربه في فضاء لا أمل فيه بين الـ Numen (القوى الكامنة فينا التي تدفعنا نحو مثال يهيمن علينا) والـMoha، الكلمة السنسكريتية التي استعارها من صديقه روبرت أوپنهايمر Robert Oppenheimer، والتي تشير إلى القنبلة الذرية («غباء الإنسان الذي يثير الاحتقار» ويستسلم لـ «الفعل الضروري الأعمى»)[62]. لقد كان سعيد ينطلق باتجاه مربّي الحمضيّات، غير مُبالٍ بنصيحة أستاذه.

***

سنُسيء فهمَ موتيفَيْ الدنيوية والأصالة اللذين يملآن كتابات سعيد المنشورة الأولى إن لم نتعرَّف على شارل مالك؛ وهو أكثر من مجرَّد قريب بالنسب. ففي مواجهة آراء مالك الدينية «القاسية غير المقبولة»، وجد سعيد نفسه على رغم كلِ شيء تلميذا من تلامذة مالك فكريّا[63].

تتفق كلُّ الآراء على أن مالك كان من عمالقة السياسة في الشرق الأوسط، وفي العلاقات الدولية، وتاريخ الأمم المتحدة، والحياة العامة في لبنان. ومما لا شك فيه أنه كان من كبار مفكِّري العالم العربي في القرن العشرين. كان مالك من الموقّعين الأصليين على الميثاق الذي أنشئت منظَّمة الأمم المتحدة بموجبه، وكان أيضا أحد الأعضاء الأساسيين إلى جانب إلِنور روزفلت في اللجنة التي أعلنت الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وعمل في الأمم المتحدة على مدى أربعة عشر عاما ليتولى في نهاية

المطاف رئاسة الهيئة العامة. وعلى رغم أنه كان رجلا اتخذ قرارات صعبة بصفته رجل سياسة، فإن ذهنيته كانت ذات صبغة ميتافيزيقية. وكان وزيرا للخارجية إبّان الحرب الأهلية اللبنانية الأولى بين العامين 1956 و1958، ودعا القوّات الأمريكية إلى دخول البلاد بتفويض من الرئيس كميل شمعون، الذي كان ينتمي إلى الطائفة المارونية، شأنه في ذلك شأن جميع رؤساء لبنان بعد الاستقلال. كذلك أصلح مالك وضع قسم الفلسفة في الجامعة الأمريكية ببيروت، وعمل فيه بصفة أستاذ شرف بين العامين 1962 و1976، وحصل على سلسلة من شهادات الدكتوراه الفخرية من بعض الجامعات المرموقة.

لم يكن سعيد قد التقى بأحد له من التميُّز الفكري ما لمالك[64]. فقد كان مالك قد درس تحت إشراف ألفْرِد نورث وايتْهِد Alfred North Whitehead في هارڤرد في العامين 1934 و1937، وتتلمذ في الفلسفة على يدي الفيلسوف مارتن هايدِغَر في جامعة فرايبرغ في العامين 1935 و1936[65]. وفي أثناء زيارات سعيد لمالك في واشنطن عندما كان يدرس في ماونت هيرمن ثم في پرنستن تعمَّقت العلاقة في جوٍّ مريح يشبه الجوّ الذي كان يستمتع به مع والديه في القاهرة[66]. لم يكن مالك من الأقرباء الأقربين، ولكن كان سعيد من المفضّلين لدى إيڤا، زوجة مالك، وكان مالك نفسه يحب أبا سعيد حبا جمّا، ولذلك كان يزوره في البيت في أيام الحرب في القاهرة. كان مالك ذا شخصية مهيبة، وقد يوصف بأنه مختال، وله صوت رنان، وقد جمع بين الجدية والسمنة لدعم أدواره المتعدِّدة بصفته أستاذا ودبلوماسيّا وسياسيّا.

غير أن الدور السياسي لمالك في النقاط الحسّاسة صار إشكاليّا عندما تكشَّفت. فقد تحوَّل من ناطق باسم الفلسطينيين في الأربعينيات إلى المهندس الفكري للتحالف المسيحي اليميني مع إسرائيل بعد العام 1949. وقد حقَّق سعيد انتقاما صغيرا بالسخرية من مالك في مذكّراته، وذلك بأن قدّم صورة عنه بصفته العلامة الفهّامة الذي يدمدم عن كيفية احتساب علماء الفلك القدماء بُعد النجوم باستعمال الزوايا الأرضية. وعلى الرغم من اختلافهما في السنّ والمكانة (كان مالك قد حقَّق الشهرة بينما كان سعيد في سنته الثانية في جامعة پرنستن) والآراء السياسية، فإن العلاقة نمت، في ضهور الشوير خاصة، حيث كان مالك وزوجته يزوران باستمرار.

وكان سعيد قد أخذ يملّ من العطل الصيفية هناك، ولكن الحديث مع مالك أنقذه من بلادة الجوّ العائلي.

ظلت طرقهما تلتقي. فقد استضافت جامعة هارڤرد مالك بصفةِ أستاذٍ ضيفٍ في العام 1960، حيث كان سعيد طالبا في كلية الدراسات العليا، وعندما أصبح سعيد عضوا مثبّتا في هيئة التدريس في جامعة كولومبيا يقضي سنة التفرُّغ العلمي في بيروت كان مالك عضوا في هيئة التدريس هناك، وكانا على اتِّصال دائم. ووفقا لما قاله سعيد فإنه ظلَّ يطلب النصيحة من مالك حتى العام 1967، وقد أذهله تمكُّن مالك من اللغات العربية والإنكليزية والألمانية، ومعرفته في مواضيع تمتدُّ من فختة Fichte إلى أفلوطين Plotinus. وتقول روايات العائلة إن سعيد كان يقرأ كتب مالك بتعمُّق، وإن اهتمامات سعيد تتشابه والموضوعات التي كان مالك يتناولها في الوقت الذي كان سعيد يزور فيه واشنطن وهو مراهق قابل للتأثر بمن حوله[67].

في مقال نشره مالك في العام 1952 في مجلة «الشؤون الخارجية» Foreign Affairs، وهي مجلَّة تستخدمها القوى السياسية في واشنطن لرصد ردود الأفعال – وضع رجل الدولة اللبناني تصوُّره لموضوعات البحث الخاصة بعلاقات الشرق والغرب، وهي مقالة لا بد أنها تركت أثرا عميقا في ذهن سعيد: ففي المقالة المعنونة «الشرق الأدنى: البحث عن الحقيقة» The Near-East: The Search for Truth أبرز مالك موضوعات عمل سعيد فيما بعد على تناولها بالتفصيل، واستعمل أسلوبا أبويّا جذّابا ربما تعلَّمه سعيد منه[68]. فقد قال إن على من يريد التعامل مع تنامي الشعور القومي عند العرب أن يفهم وجهة نظرهم. فلقد أخذت الحركة الوطنية تنظر إلى الغرب لا باعتباره محرِّرا بل باعتباره يخطِّط للتقسيم والهيمنة، وأنه ينوي أن يوطِّن في الأراضي السورية «أعدادا لا حصر لها من اليهود» ضد رغبة سكّانها[69].

ثم يستعرض مالك كل دولة عربية أو إسلامية في المنطقة، ويبيِّن مشكلات تطورها لإظهار أن وحدتها وهمية، وأن ما يوحّدها توحيدا سلبيّا هو خلق إسرائيل على يد القوى الغربية. ويصرُّ على أن السياسة العالمية لها بُعدان ثقافي وروحاني، ولا يمكن اختزالها في صراع على الموارد الطبيعية. وبلغة المجاز، يمكن القول إن الصراع كما تصوَّره فاعلوه الأساسيون وعاشوه لم يقتصر على الأرض فقط، بل شمل أبناء إسحاق وإسماعيل: «هنالك هوَّة عميقة بين إسرائيل وبقية الشرق الأدنى... والتاريخ

لم يشهد مثالا كهذا على شعبٍ يكنُّ عداء أبديّا مع عالَمه المباشر[70]، وعلى الغرب أن يتعلَّم أن الإسلام وحتى المسيحيين في المنطقة، هو قدرهم. والإسلام ليس دينا فقط، بل هو نظرة كلية ظل فهمها نادرا على الرغم من أن تقدُّما أوَّليّا حصل في الأبحاث الرائدة التي اضطلع بها كلٌّ من ألبرت حوراني، ولويس ماسنيون، وفِلِپ حِتّي، وقسطنطين زريق. وهذه هي الأسماء التي كان سعيد يقرأها للمرة الأولى، وهي أسماء رسخت في ذاكرته.

حدَّد مالك في هذه المقالة المتميِّزة حقول المعرفة الأساسية التي ينبغي استقصاؤها إن أريد التوصُّل إلى فهم ثقافي: ظاهرة «المستشرق» التي شاعت في العقود الأخيرة. ما مقدار الخير والأذى اللذين سببهما الاستشراق؟ لماذا لم تظهر ظاهرة توازيها هي ظاهرة «المستغرب»؟ كذلك أشار مالك إلى أمور أخرى لها دلالاتها: هل هناك من بداية مطلقة؟ إن كانت غير موجودة، فأين نبدأ؟ ثم شدَّد، على غرار ما فعله سعيد فيما بعد، على المشكلة الأساسية، ألا وهي مشكلة الجغرافيا، «البُعد الجغرافي» للثقافة العربية. فقد وجَّه رجاءه إلى العرب المنكوبين لأن ينخرطوا في النقد الذاتي، وأن يتوقّفوا عن أن ينحوا باللائمة على الغرب في كلِّ شيء، وأن يثيروا مسألة الأصالة والتقليد في المواجهة مع الاستعمار. ثم قدَّم وصفا لما ينبغي عمله وشدَّد على ضرورة إقامة معاهد للدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأدنى في الولايات المتَّحدة، وكان من رأيه أن أهم ما على العالم العربي فعله هو أن ينشر كل سنة «مائة أو مائتي مجلَّد من الأعمال الكلاسيكية العالمية». ولم يهمل الإنسانيّات، وختم مقالته بقوله إنه في غياب الطبقة الوسطى يرتفع نجم شاعر البلاط: «عليك لكي تحكم أن تستخدم بلاغيّا أو شاعرا، أو أن تكون أنت البلاغي أو الشاعر»[71].

ولما كان على وعي تام بحركات التحرُّر التي تجتاح قارَّتَيْ أفريقيا وآسيا، فإنه أقام نصيحته على أساسٍ هذه المنطقة المتقلِّبة. وقد أتاح هذا الصراع من أجل مستقبل العالم الثالث المجال للمثقّفين العرب لمعرفة التحذير اليائس الذي كان يوجهه إلى المسيحيين في كل مكان، لاسيّما في الغرب. علينا أن نلاحظ أن «كارل ماركس والماركسية اللينينية لا ينتميان إلى الماضي الميِّت... فهما واقع حيّ تماما، واقع يبتلعنا طوال الوقت»[72]. وقال محذِّرا «إن العالم غير الغربي يسيطر على الغرب بالتدريج» بواسطة الماركسية![73].

أما سعيد فكان أشدَّ تحفُّظا فيما يتَّصل بالتأثيرات الهايدغرية على عمل مالك، ورفضها بذات الروح التي رفض بها تحاملات مالك على الإسلام[74]. ولكن بعض تلك التأثيرات لم تختفِ تماما. فكلمة «المصير» Fate مثلا بالشكل الذي ترد فيه عند هايدغر شغلت فكر سعيد لأنها تمثِّل عكس ما تعنيه كلمة «القدر» [المكتوب سلفا] Predestination. فالوضع الإنساني بالنسبة إلى الفيلسوف الألماني كان وضعا من الحرية الأساسية، وهو وضع يستتبع المسؤولية، وهذا رأي يتَّفق تماما مع الأخلاق المسيحية العلمانية التي يؤمن بها سعيد. أما الشكل المخيف الذي اتَّخذته المسيحية في حملة مالك المناهضة للشيوعية فقد خلَّصته من أي انجذاب صريح نحو عقيدته الموروثة وعجَّلت في تحوُّله باتجاه العلمانية. وعلى الرغم من اعتراف مالك بالمركزية الثقافية للإسلام في الهوية العربية فإن عنجهيته الطائفية ومديحه الذي لا تحدُّه حدود لمنجزات أوروبا الروحية قادا سعيد باتجاه ما هو غير أوروبي وأعطياه شعورا رافقه طوال حياته بكراهية العداء للشيوعية بكل أشكاله[75].

***

قبل التحاق سعيد بجامعة هارڤرد ببضعة أشهر، وفي أثناء زيارته الأولى للحفل الموسيقي في مدينة بايرويْت Bayreuth وهو في الثالثة والعشرين «مرّ بحادث اصطدام دموي مرعب» مع راكب درّاجة بخارية في سويسرا، وأُصيب بجروح في الرأس استدعت قضاء بعض الوقت في المستشفى[76]. فعلى مقربة من مدينة فرايبورغ التي كان يقصدها ليزور ابن عمه جورج (الذي كان قد تحوَّل إلى الكاثوليكية، واستقرَّ هناك في كميون ديني) التفَّت سيّارته الألفا روميو حول منعطف على جبل شديد الانحدار واصطدمت براكب الدرّاجة التي كان يقودها شابٌّ في مثل عمره، وقد توفِّي ذلك الشابُّ في وقت لاحق من ذلك اليوم في المستشفى. وبعد غيبوبة دامت أربعا وعشرين ساعة استيقظ سعيد في غرفة العناية المركزة، ووجد أن أمه تنحني فوقه، وبقي في فرايبورغ بقية الصيف لكي يستعيد عافيته. والوصف المجرَّد الذي يورده سعيد للحادثة في مذكِّراته يماثل مقاومته للحديث عنها للعائلة حتى تحت الإلحاح. والظاهر أن الحادثة كانت مؤلمة إلى حدٍّ لم يستطع معه الشفاء منها.

باستثناء زواج سعيد في العام 1962 من مايرة يانوس، صديقة أخته جين في كلية ڤاسار، فإن نموّه الشخصي في جامعة هارڤرد لم يكن على تلك الدرجة من الإثارة

التي كان عليها في جامعة پرنستن. فقد عاش مع زوجته بعُزلة نسبية في وقت شهد «القفزة العظيمة إلى الأمام» التي دعا إليها ماو تْسي تونغ، والإطاحة بحكم باتيستا في كوبا، ومذبحة شارپڤيل، وغزوة خليج الخنازير. وكما قال في مقابلة أجريت معه فيما بعد، ضحّى بانغماره في عالم البيانو وغاص في عالم الكتب: «لم أفعل الكثير باستثناء الدراسة على مدى خمس سنوات»[77]. في تلك الأثناء، وبناء على الصداقة العميقة التي نشأت مع إبراهيم أبو لُغُد في أثناء السنة التي انقطع فيها عن الدراسة في القاهرة، كان سعيد يتقدَّم ببطء باتّجاه وعي سياسي جديد. كان ذلك لايزال يسبق بعدة سنوات سعي أبو لُغُد إلى إدخال صديقه الشاب في عالم السياسة بأن طلب منه أن يكتب المقالة المعنونة «صورة العربي» The Arab Portrayed (1970)، وهي المقالة التي أشاعت اسم سعيد في العالم العربي. ولكن بقيت هنالك لمحات من روح التحدّي في العالم الثالث، التي نقلها أبو لُغُد له مبثوثة في جميع أوراقه المتناثرة من عهد التلمذة.

مضت الحياة في هارڤرد بروتينها اللطيف الذي يتضمَّن الحفلات الموسيقية، والدعوات المتبادلة إلى تناول وجبة الغداء، والمؤامرات الفكرية مع غولد وفَيرر. وبين العامين 1959 و1962 استغل الفرصة التي أتاحتها له مدينته التي اختار السكنى فيها لحضور كل حفلة أقامها غْلِن غولد للعزف على البيانو المنفرد، وكانت أجمل حفلاته تلك التي عزف فيها تحت إشراف الموزِّع الفرنسي پول پاري Paul Paray مع أوركسترا دِتْرويت السمفونية. وتابع الزيارات التي كان يقوم بها لأخواته بانتظام، ويلتقي كما في السابق بنساء جديدات. وكان مايكل روزنثال Michael Rosenthal، الذي أصبح فيما بعد واحدا من أقرب أصدقائه في هيئة التدريس في جامعة كولمبيا، جزءا من المجموعة نفسها التي تتواعد للقاء. وفي يوم من الأيام فاجأه في غرفته في سكن الطلبة، وبما أنه كان قد أخذ امتحاناته الشفهية من فوره فإنه بدأ باختبار روزنثال حول روايات وِنْدَم لويس Wyndham Lewis كأنه لم يُفاجأ بالزيارة[78]. فوجئ روزنثال بذلك، لكنه أعجب بالجرأة، وصار بعد ذلك صديقا من أصدقاء العمر.

أما عندما ظهرت مايرة على المشهد فإنه جنح إلى الاستقرار. وسرعان ما عُرِفَ الزوجان بإقامة الحفلات الراقية في حديقتهما في بيتهما المبني على الطراز

الكولونيالي(*) في شارع فْرانْسِس في كيمبرج، وكان بيتهما بيتا يستحق المشاهدة في تلك الأيام، وأصبح أقرب إلى الأسطورة المحلِّية. وعلى غرار أبيه، أصبح لسعيد ذوقه الخاص في السيغار والغلايين، وعندما لا يكون أيٌّ من هذين متوافرين، كان يلجأ إلى السجائر التي كان لا يخجل من طلبها من أصدقائه. وقد ظلّ مخلصا للتدخين طول حياته، ولكنه مدخِّن مختلف يكتب الرسائل لشركة ألفرد دَنْهِل Alfred Dunhill المحدودة لطلب عُلَبٍ من «خليطٍ من التبغ رقمه 34596»[79].

«بلد اللون الأزرق» – تلك كانت صورة بلاكمر للفنان وهو يختفي في تضاعيف عمله – وهي صورة عبَّرت عن الجوّ العام للسنوات التي قضاها سعيد في هارڤرد[80]. فباستثناء الزواج، لم يحصل الكثير في حياته على رغم أن ذهنه كان يتفجَّر. وجد العزاء في التحليل النفسي، وغطّى مصاعبه العاطفية بالإنتاجية. كان آنذاك في منتصف العشرينيات، فصرف كثيرا من الوقت لاستيعاب الكتب التي سيحفر في مناجمها في بقية حياته – كتاب «العلم الجديد» The New Science، لڤيكو Vico، وكتاب «التاريخ والوعي الطبقي» History and Class Consciousness، لغيورغ لوكاتش Georg Lukacs، وكتاب «الوجود والعدم» Being and Nothingness، لجان پول سارتر، ودراسات موريس ميرلو-پونتي Maurice Merleau-Ponty في الفينومينولوجيا والإدراك. وبالمقارنة مع پرنستن اكتسبت كتاباته فجأة قدْرا أكبر من الأصالة والشخصية. فمقالتاه اللتان كتبهما في المرحلة الجامعية الأولى، أي تلك التي تتناول روايات هنري جيمز، وتلك التي تحمل عنوان «العلاقة بين العَظَمة والكمال في الفن» The Relation between Greatness and Perfection in Art تؤدِّيان وظيفة الشرح، أما مقالات مرحلة الدراسات العليا فتُحَلِّق[81].

ما تكشفه هذه المقالات يجب أن يكون ذا أهمية لكلٍّ من يهتمُّ بالمحتوى الكامن والظاهر في الأفكار التي طبعها سعيد بطابعه. ولربما كان أكثرها لفتا للنظر تعمُّقه في الأعمال الكلاسيكية التي أنتجتها الفلسفة الغربية. ويلفت النظر أيضا تفضيله غير المتوقَّع للشعر على الرواية، وهذا ما تفعله أيضا دراسته المستمرّة لتاريخ العلم. ولا يشكِّل أيٌّ من هذه الحقول موضوعا يجري التركيز

(*) طراز معماري ساد في أمريكا قبيل الثورة التي أدت إلى الاستقلال. [المترجم].

عليه في كتبه المنشورة، ولكنها كانت هي الموضوعات السائدة في بداياته. فهناك على سبيل المثال ملاحظات كثيرة عن كتاب كارل پيرسن Karl Pearson «نحوُ العلم» The Grammar of Science الذي يتناول «الاحتمال» و«العَرَض»، و«الحقيقة»، و«السببية»، إلى جانب قائمة طويلة من المصادر والمراجع عن فلسفة العلم. وقد جعلت مقالته المعنونة «بحث هيوم في مبادئ الأخلاق» Hume's Inquiry Concerning the Principles of Morals أستاذه وولتر جاكسن بَيت Walter Jackson Bate يعلِّق عليها بقوله: إن المقالة، على رغم أنها كُتبتْ بأسلوب رشيق، ليست «ذات جمالية أدبية» بما يكفي، وأنها مغرقة في الفلسفة[82]. وثمة مقالات انتقلت من القصائد الصوفية للشاعر كْراشو Crashaw إلى «علم العروض عند الشاعر كامپْيَن وتنضيد النصّ» Campion's Prosody and Text-Setting، وإلى فلسفة كلٍّ من هوبْز وهيوم. ومع أن جانبا من التأسيس التربوي كان تقليديا في ذلك الوقت فإن جوانب أخرى منه كانت أكثر استعدادا للمغامرة. فتحتَ باب «الفلسفة والفنون» تعمَّق في دراسة فلاسفة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (بنديتو كروچي Benedetto Croce، وهنري بيرغسن Henri Bergson، وجون ديوي) والفنانين (ليوناردو دا ڤنچي، وپيت موندريان Piet Mondrian، وأندريه مالرو Andrea Malraux) وعلماء النفس (كارل ينغ، وسغمُند فرويد، وأوتو رانْك Otto Rank)، وعلماء الاجتماع (غيورغي پليخانوڤ Georgi Plekhanov، وآرنولد هاوزر Arnold Hauser، وزيغفريد كراكاور Siegfried Kracauer).

هنالك، في ملاحظة موجَّهة إليه هو نفسه عن مقالة عنوانها «دراسة لقصة الدبّ» لوليم فوكنر A Study of William Faulkner's The Bear (1960)، عبارة تبرز مكتوبة بخط اليد بحبر أحمر، وتحتها خطّ، على ورق أصفر مسطَّر. تقول العبارة: «الشكل بوصفه تتمّة أخلاقية للموضوع». وفيها نجد تلميحا آخر نحو محاولات بلاكمر للتوفيق بين المتناقضات، وفيها يستعمل مفهوم الشكل الذي يتحدَّث عنه النقد الجديد في خدمة الفعل الصحيح[83]. هذا الجهد المبكِّر الذي ينبئ بممارساته الكتابية في أوج سيرته المهنية، وهو جهد نشهده في هذا المخطوط الذي لم يخضع للمراجعة، كتب فيما يبدو دفقة واحدة، وبفقرات

سلسة واضحة. إن كثيرا من الحوافز التي تفعل فعلها في قراءاته الموسعة في كتاب هوبز «بخصوص المواطن» De Cive، وفي كتابات مِلْتن Milton السياسية، وكتابات إرنست كاسِرر Ernst Cassirer، كانت مؤشرات إلى المبادئ التي لجأ إليها في مناقشاته: استعادة المثل الدينية للعلمانية والفكرة القائلة إن على المرء أن يكون سياسيا إن أراد أن يكون أخلاقيّا.

اتَّخذ سعيد في مقالة عنوانها «الموسيقى الصامتة في الشعر التأمُّلي» The Still Music of Meditative Poetry (1959) الأسلوب الاعترافي وابتدأ بحادثة: «سألني طالب يدرس الطبّ عن السبب الذي يدعوني إلى دراسة الأدب. مصر بلد فقير، وشعبها يعاني المرض وسوء التغذية، وأراضيها الزراعية قليلة وتعاني الظمأ». فأحرج سعيد واضطرَّ إلى الاعتراف بأن الشعر لا يمكنه أن يغذّي رجلا فقيرا. ولكن ألم يكن ثمة قدر من الحكمة لدى القدماء الذين وجدوا أن الشعراء فلاسفة عمليون، ووصفوهم بأنهم «أصحاب رؤى تشريعية» legislative seers، لقد شعر بأنه عوقب، ولكنه لم يقتنع واختار أن يردّ. قد لا تكون سياسة الشعر مباشرة أو آنيَّة، ولكنها تقدِّم قوَّة اجتماعية فريدة: «سياسة القلب»[84].

كان الحوار الداخلي الذي دار في خَلَده في أوائل الستّينيات حول مناسبة الدراسة الأدبية للعمل الاجتماعي حوارا كاشفا:

> [بما أن] كل أنواع الكتابة سياسية الطابع... فليس ثمة ما يدعو إلى الخوف من أن يحسب المرء على معشر السياسيين؛ بما يتضمنه ذلك من قلَّة الذوق وتلطيخ السمعة. السياسة علم من علوم العلاقات... لا أستطيع التسليم بأنه من الممكن - ولو من بعيد - أن يكون أيٌّ من الرجلين [أفلاطون وملتن] قد كتب ما كتب لتزجية الوقت، لأنني واثق بأن كلا منهما شعر بأن من واجبه أن يتكلَّم، ثم أن يؤثِّر ويُصلِح... أنا أنتمي إلى الشرق الأدنى... ولذا فإنني عندما أنظر في تأثير الكتب، والصحف، والمجلات على المشهد المصري... فإن كل فكرة مطبوعة، منفصلة عن سياقها أو مجموعة مع غيرها من أفكار الآخرين، يمكن أن تفسَّر (بل هي تفسَّر) في ضوء معركة سياسية حاسمة: مصر في مقابل بقية العالم.

وقد بدا له أن كلَّ ما يكتب في العالم الثالث سيعدُّ معارضة خشنة تفتقر إلى الذوق. وعند هذه النقطة كان اهتمامه أشدّ بتذوُّق لحظة الاتِّصال بين «الهدف الأصلي من قطعة من الكتابة وما فعله بها الحماس المفرط»[85].

تلك كانت حالة سعيد الذهنية عندما بدأ رحلته طلبا لشهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي، متّجها نحو مشرفَيْن تبيّن فيما بعد أنهما كانا خيارا محتملا. كان مونرو إنغل Monroe Engel، وهو روائيٌّ حصل على جوائز على ما كتبه عن جِرَرْد مانلي هوپكنز، ومحرِّرٌ في مطبعة ڤايكنغ Viking Press، أحدَهما، وكانت مشورته أكثر ودّا من مشورة زميله. أما هاري لَڤِنْ، أستاذه الثاني الذي ولد في منياپولس وقضى وقتا في المنفى في باريس، فكان من المخلصين لثورستين ڤبلن Thorstein Veblen، أيقونة التمرُّد في منطقة الغرب الأوسط، وهو عالم اجتماع واقتصاد كان قد أثار حفيظة العالم الأكاديمي في بداية القرن العشرين بكتابه «نظرية الطبقة المترفة» (1899) Theory of the Leisure Class، الذي يشكِّل إضعافا إثنوغرافيّا لأخلاقيات المحارب الأمريكي.

وعلى رغم أن لَڤِنْ لم يكن في الأصل من صفوة رجال الآيڤي ليغ فإنه تعلَّم عادات المؤسَّسة وأتقنها ربما أكثر من غيره، وأخذ يمثِّل دور الأستاذ الهارڤردي تمثيلا أقرب إلى الكاريكاتير[86]. غير أنه تمكَّن، على غرار بلاكمر، من أن يكون مختلفا وأصيلا. وما عدَّه سعيد الشكل الشاحب للدراسة الأدبية في پرنستن («تاريخ تقليدي وشكلانية شاحبة») وُجِدَ في هارڤرد على هيئة التبجّح المنسوب إلى إرڤنغ بابِتْ Irving Babbitt ذي الحضور الطاغي في العالم الأكاديمي في الساحل الشرقي في فترة ما بين الحربين، وصار مع تلميذه پول إلمر مور Paul Elmer More واحدا من آباء الفلسفة المحافظة الجديدة[87]. كانت هذه الثقافة بالضبط هي التي عرَّفت لَڤِنْ سلبيّا، وعندما مُنِحَ كرسيَّ إرڤنغ بابِتْ في وقت لاحق من سيرته المهنية، استغلَّ الفرصة لينتقد الرجل بقسوة في الكلمة التي ألقاها في تلك المناسبة وجعله نصيرا للسكان الأصليين nativist، ومتعصبا دينيا[88]. أما حملة بابِت في فترة ما بين الحربين، وهي الحملة التي شنَّها للدفاع عن «المذهب الإنساني الجديد» New Humanism الذي فهمه على أنه الفضيلة البيوريتانية التي كانت تُحشى في أذهان الطلبة عبر الأعمال

الكلاسيكية اليونانية فقد شابهت تماما تقريبا الحملات التي قام بها ألَن بلوم Allan Bloom وروجر كِمْبُل Roger Kimball في الحروب الثقافية في عقدي الثمانينيات والتسعينيات.

قلّل سعيد من أهمية العلاقة بين أستاذيه، ولاحظ بشكل عابر أن أطروحته كُتِبَت «تحت الإشراف اللطيف لكلٍّ من مونرو إنغل وهاري لَڤِنْ» كأن العلاقة لم تكن عميقة أو مستمرَّة[89]. لكنها كانت تتَّصف بهاتين الصفتين في الواقع. فقد فتح لَڤِنْ أبواب بعض الدوريّات الأساسية، وأدّى دور الخبير الداخلي، وظلّ سعيد ينشد النصح منه حتى عندما أصبح أستاذا شابّا. قد لا يكون سعيد قد انبهر بأسلوب لَڤِنْ الفكري قدر انبهاره بأسلوب بلاكمر في پرنستن، حيث كان جزءا من مجموعة دعاها مايكل فْريد Micheal Fried «لواصق بلاكمر» Blackmun barnacles(*)، ولكن التأثير الذي خلَّفه لَڤِنْ كان أبعد وأعمق وإن خلا من الحركات المسرحية[90]. وقد كتب سعيد لصديق من بيروت أنه تبيَّن له بينما كان يقرأ كتاب لَڤِنْ «مسوِّغات المقارنة» Grounds for Comparison بعد مرور سنوات أن تأثير المشرف على أطروحته في تفكيره أخذ يتَّضح له بعد كلٍّ تلك المدَّة[91].

كان لَڤِنْ بالإضافة إلى عدد قليل آخر قد برز بصفته واحدا من كبار المشتغلين بالأدب المقارن ضمن بيئة واضحة المعالم من المتخصِّصين. وعلى رغم أنه كان ينتمي من الناحية الرسمية إلى قسم اللغة الإنكليزية، فإن مقالاته كان يمكن أن تكون عن سرڤانتس أو غوته أو بلزاك بقدر ما يمكن أن تكون عن إدغر ألن پو أو جورج إلْيُت. وبينما كان الحقل مشغولا بلغة الطليعيين التي لا يمكن تفسير معانيها كان هو يبني سمعته بصفته منظِّرا للواقعية، وهي حركة عرَّفها بأنها حركة وقفت نفسها على تشخيص «عظمة البرجوازية وأفولها». وقد أثار عمله الأكبر بعنوان «بوّابات الحقيقة» The Gates of Horn (1963) من الإعجاب في سعيد قدرا جعله يعدُّه ندّا للمهاجر الألماني الكبير، الفيلولوجي والمشتغل بالأدب المقارن إرخ أورباخ Erich Auerbach، وللفيلسوف الماركسي والمنظِّر الشهير للواقعية غيورغ لوكاتش Georg

(*) اللواصق هي أحياء بحرية قشرية تلتصق بالصخور أو بالسفن. وقد نخفف العبارة بقولنا «أتباع بلاكمر». [المترجم].

Lukacs [92]. وفي رسالة أرسلها للِڤنْ في العام 1965 أقرّ بقوله «كلما قرأته أحسست بأنه كتاب عظيم وعميق، وأنه لن يُفهَم تماما إلا في جيل قادم»[93].

توقَّع لَڤِنْ، إلى درجة تلفت النظر، كثيرا من المواقف النقدية التي فضَّلها سعيد، كما في حالة دفاعه عن الانتقائية النقدية، والحسّ بالترابط العام للأشياء، والتحذير من طغيان «النظم» الفكرية الكبرى التي تفقد الصلة بالتناقضات والمكتشفات التي تأتي بالمصادفة[94]. وقد عرَّف لَڤِنْ سعيد بأعمال إرنست رينان Ernst Renan، الباحث الكبير في الكتاب المقدَّس وتاريخ الدين، الذي كان قد قارن في كتابه «مستقبل العلم»(1890) L'Avenir de la science الدراسة الأدبية «بعلم النبات botany القديم الذي كان يمارسه الهواة»، وهو موضوع من مواضيع كتاب «الاستشراق» الكبرى[95]. ولما كان سعيد قادرا على قراءة اللغات العربية، والفرنسية، والإيطالية، واللاتينية، والألمانية، والإسبانية فإنه كان يملك المهارات التي تمكِّنه من أن يكون من المشتغلين بالأدب المقارن على غرار لَڤِنْ، وأن يكون مثله شديد الرغبة في توجيه الدراسات الإنكليزية باتِجاه الأدب العالمي[96].

لم يعد موضوع النفي الأدبي عند لَڤِنْ، وعند سعيد فيما بعد، يقتصر اقتصارا آليّا على الأمريكان المغتربين في باريس كما كان الأمر لدى الجيل السابق. فقد أخذ ذلك الموضوع يشمل ضحايا الهروب السياسي وتعارض اللهجات في أوروبا الشرقية والشرق الأدنى. وكان لَڤِنْ قاسيا بشكل خاص على كتّاب الحرب الباردة المأجورين من أمثال آرثر كِسْتْلر Arthur Koestler، واشتكى من أن هذا الكاتب وغيره جعلوا الاقتلاع أقرب إلى المهنة، فزوَّدوا الرأي الأمريكي العام بالدروس الأيديولوجية التي طلبها اعتمادا على المعرفة الخاصة التي يأتون بها بحكم كونهم مُقْتَلَعين من البلاد التي أتوا منها. وقد أفادت الجهود التي بذلها سعيد في دراسته لكونراد من ملاحظة لَڤِنْ القائلة إن كونراد مثَّلَ، بحكم كونه مهاجرا استقرّ في أحد البلاد المركزية، «أكبرَ سوءِ تفاهمٍ متعددِ اللغات في عصرنا هذا»[97]. ولا يقتصر الأمر على أن الأستاذ كتب عن كثير من الموضوعات التي تميَّز بها التلميذ قبله – منها رَيْـمُنْد وِلْيَمْز Raymond Williams، وأورباخ، وليو شْپتزر Leo Spitzer، وسْوِفْت، ولوسيان غولدمَن Lucien Goldmann – ولكنه أَظهر في مقالات مثل «الأدب مؤسَّسة» Literature as an Institution أنه ناقد أمريكي شبيه بوِلْيَمْز من حيث المنهج

ويتتبَّع بالقدر نفسه من الحيوية السوسيولوجية تأثير التكنولوجيات الإعلامية في الدراسات الأدبية[98]. وفي المقالة المعنونة بـ «نحو علم اجتماع الرواية» Toward a Sociology of the Novel (1965) استبق لَقِنْ مديح سعيد لتمكُّن غولدمَن مِن سبك «الموقف الوجودي والأيديولوجيا الماركسية» سبكا يثير الإعجاب[99].

لا شكَّ في أن لَقِنْ رسَّخ في ذهن سعيد أهمية كتابات أورباخ الذي كان آنذاك مهاجرا ألمانيّا درَّس في جامعة يَيل حتى العام 1957. فقد كان الأستاذ الهارڤردي يتبادل الرسائل مع أورباخ ومع الأسلوبي الكبير شپتسر على مدى سنوات بعد لقاء عابر مع أورباخ في مؤتمر عن سرڤانتس في العام 1947[100]. وكانت العلاقة بينهما ودّية، وأدّى اللقاء إلى مراسلات شابهت مراسلاته العديدة مع شپتسر الذي كان يدرِّس آنذاك في جامعة جونز هوپكنز.. فعلى عكس آ. آ. رچردز I. A. Richards الذي كان من أشهر نقّاد تلك الفترة (والذي كان من رأي لَقِنْ أنه غدا مرسالا من الدرجة الثانية من العلوم السلوكية)، حافظ شپتسر على المنهج «الحرباوي» chameleonic الأفضل الذي يتّبعه عالم الفيلولوجيا، بمعنى أن علمه غير المقيَّد سمح له بالتجريب باستخدام الأساليب العلمية الجديدة بدلا من الاختناق بشكلانية رچردز المتصلّبة[101]. وكان لَقِنْ قد لاحظ نمطا انتشر في العقود التالية، يتضمَّن نوعا من «المهاجرين القابلين للتكيُّف... بعد أن كانوا قد تدرّبوا في بلادهم الأصلية وبأسفارهم السابقة بحيث أصبحوا خبراء في ثقافات غير ثقافتهم الأصلية. وقد كان المختص الإيطالي بالدراسات السلافية ريناتو پوجيولي Renato Poggioli، والمختص الچيكوسلوڤاكي بالدراسات الإنگليزية رنيه وِلك Rene Wellek قد وصلا معا تقريبا إلى جامعتي هارڤرد ويَيل»[102]. وبعد ذلك جاء سعيد، وهو فلسطيني من القدس والقاهرة، يكتب عن الحداثيين البريطانيين، وعن أمريكا، ولم يطل به الأمر قبل أن يصل إلى كولومبيا.

4

العميل السرّي(*)

أن أكون، أن أبقى كما أريد

شاعرَ رثاءٍ لَعوب، «تِل»(**) العربي.

سعيد: «أغنية مختصّ شرقي بالإنسانيّات»

Song of an Eastern Humanist[1]

بينما كان سعيد ومايرة يقضيان شهر العسل في اليونان في العام 1962 كانت الأمور كلها تشير إلى أن المستقبل سيكون بهيجا. فقد كان المسار المهني لكلٍّ منهما ينبئ بأنه يتَّجه نحو الأعلى، وبالفعل لم تمضِ سنة كاملة حتى

(*) هذا العنوان مستمدّ من عنوان إحدى روايات جوزف كونراد، وسيتبيَّن في موضع لاحق من هذا الفصل أن العميل السري في حياة سعيد الأدبية هو كونراد نفسه. [المترجم].

(**) «تل» اسمٌ لفلاح لعوب عُرِفَ بمغامراته ومقالبه في التراث الألماني، كتب رچرد شتراوس عنه قَصيدة سمفونية تُعَدُّ من أجمل مؤلَّفاته عنوانها «مقالب تل يولنشبيغل». [المترجم].

وجد سعيد نفسه منجذبًا إلى تمرُّد البنيوية، ولكنه لم يكن على استعداد للتخلّي عن التاريخ والتقدُّم، فحاول التوفيق بين الجانبين

فاز سعيد بجائزة باودن في هارڤرد على رسالته عن كونراد، فالتحق بأمثال إمِرْسن، وهنري آدمز، وجون أبدايك John Updike في ذلك التشريف.

كانت مايرة قد كتبت على صفحة من صفحات مخطوطةِ روايةٍ من تأليف سعيد: «المفعول به الثاني: Est auxilio mihi – هو عون لي»(*). ثم كتبت تحتها مباشرة: «زوجي العزيز، ليس هنالك شيء في الدنيا يشبه القلب الملآن»[2]. كانت غربتهما المشتركة قد ساعدت كلّا منهما على دعم الآخر قبل أن تصبح شيئا معيقا لهما. وجد سعيد في مايرة ندّا له: امرأة عصرية أرادت الحصول على كل الحرية التي طمحت لها مع ما كانت تتمتع به من إرادة حديدية للحصول عليها. أما هو فإن إمكانية الحصول على شريكة في الحياة تختلف عن صديقته إيڤا وتعرف كل دلالات ما كان يقرأه ويفكر فيه أثارته إثارة عميقة. وكانت الجاذبية جسمانية أيضا بطبيعة الحال[3].

أما عائلة سعيد فقد وجدت مايرة جافَّة ومنفِّرة. وقد وصفها أحد المعارف بأنها «غادة حقيقية من ثلج الشمال»، وكانت بكلمات جين «مثقفة متشدّدة، ألمانية جدّا»[4]. لكنها في الحقيقة إستونية الأصل، وتتكلّم الألمانية بطلاقة كالكثير من مثقَّفي أوروبا الشرقية. كانت قد عرفت الحزن في حياتها. فأبوها اختفى في الحرب، ولم يكتشف أحد ماذا حدث له. وعندما وجدا أنهما اكتشفا أشياء مشتركة في الفلسفة الألمانية والفرنسية في كلية الدراسات العليا شعرا بأن مواهبهما بعضُها يكمل بعضَها الآخر. وتعادلت قدرات سعيد على الإقناع وإشاعة جو المرح واستعمال اللغة الإنكليزية الدارجة مع خبرة مايرة في ثقافة القرن الثامن عشر (وهي خبرة أفاد منها سعيد في تطوير مشروعه عن سْوِفْت). ولكنهما أخذا يتنافسان عندما وصلت مشاريعهما المختلفة إلى مرحلة التبلور، وظهرت اختلافاتهما في الأسلوب. ومع أن كليهما كانا ينتقدان إسرائيل، فإن أصدقاءه، وكان العديد منهم من اليهود، أزعجهم رأيها القائل إن اليِدِش ليست لغة حقيقية(**)، وأحسّوا، مصيبين أو مخطئين، ببقايا معاداة السامية التي مرّت بها في فترة طفولتها في أوروبا الشرقية[5].

(*) هذه العبارة تخصّ قواعد اللغة اللاتينية. يمكن التمثيل لها بعبارة مثل «أعطيته الكتاب»، حيث نجد مفعولين: الكتاب الذي وقع فعل الإعطاء عليه، والضمير الذي يشير إلى من تلقّى الكتاب. [المترجم].

(* *) اليدِش لغة يتكلّمها اليهود في بلاد أوروبا الوسطى، وهي خليط من عدد من اللغات منها الألمانية والعبرية والآرامية. [المترجم].

ليس ثمة من دليل مباشر على أن سعيد كان يفكّر بمايرة عندما كتب قصيدة بقلم رصاص باهت على دفتر أزرق من دفاتر الامتحانات في جامعة هارڤرد في العام 1962، ولكن القصيدة عبّرت عن جدّة ارتباطهما الرومانسي.

بعيدا عن القوَّة، وبلغة مخادعة
تكتب هي عن أغنية رقيقة
بأنغام المقام الموسيقي الذي يذكّر بأيام السعادة
وتوصف هكذا: حبّ.

يجرحها الملح،
ملتفَّة بورقة نبات ممزقة،
يوم عطلة حافية القدمين غارقة في الحلم
مجروحة، ولكنها كعهدها – بهية.

خليط حذر من النهوض والدخول
سقط عبر السائل اللزج والقطن،
قابل للاحتمال، لزج، يلتصق،
والآن يدخل: خداع[6].

عدم استقرار الحب، حيث تنقلب السعادة فجأة إلى شكّ، وفجأة يبدو ذلك الذي عرَّيت له روحك عدوّا: هذا هو المعنى الذي عبَّر عنه سعيد في هذه القصيدة التي كتبها في الدفتر الأزرق، القصيدة التي أعطاها عنوان «تحوُّلات صغيرة» Little Transformation في التعديلات التي أُجريت فيما بعد. ففي مدى كلمات قليلة تنتقل القصيدة من الشوق إلى الرفض، من تشوُّق الشاعر للاهتمام إلى الشعور بالنفور من الالتصاق، ولذا فإن أفعال النهوض والدخول تأتي غير خالصة.

كان واضحا منذ الزواج في ضهور الشوير فصاعدا أن مسألة العائلة ستكون منطقة خطرة لهما. ومع أن مايرة كانت قد نجت من عنف الحرب بالهرب

إلى ألمانيا مع أمِّها فإنها عجزت عن فهم التزامات سعيد نحو العائلة، حيث يتصرَّف الأعمام والعمّات [أو الأخوال والخالات] كأنهم آباء أو أمهات، وحيث لا تحجب الأسرار عن أحد منهم(7). كذلك ربما ترك إصرار مايرة على الإلحاد أثره، هي المفتقرة إلى شغف سعيد بالطقوس الدينية(8). وقد كتب سعيد رسالة عبّر فيها عن قلقه لوالده في 2 يونيو 1965 ألمح فيها إلى موقف مايرة وإلى رغبته في الاستقلال عن نصائح العائلة بينما كان يشق طريقه نحو الشهرة ناقدا ومدرِّسا في نيويورك. ورجا بلهجة تكاد تكون صريحة أن يُعفى من شرف استضافة قريب له لا يقدِّر «التضحية» التي يقوم بها هو ومايرة وصعوبة العيش في الولايات المتَّحدة حيث «تضطرني مهنتي إلى العمل سبعة أيّام في الأسبوع بما في ذلك الأماسي»(9). وكانت رسائل أبيه الموجهة إليه مدهشة من حيث تجنُّبها للجرأة في الطلب. أما رسائل هلدا فكانت مملوءة بالشكوى والملامة، وكانت تطلب من ابنها أن يعود إلى الطريق الصحيح لأنها كانت تحسُّ بأنه يبتعد عنها في غمرة التحدّيات التي يحسُّ بها في أثناء صعوده في مهنته.

في البداية أخذ يكتب إلى أهله للتعبير عن ابتهاجه الشديد بلقاء كثير من الناس المهمّين في أيام العطلة الصيفية التي كان يقضيها في لونغ آيلَنْد. ومع مضي الوقت، شعرت هلدا بضرورة السؤال: «لماذا لا تكتب لنا؟ إن كنت مشغولا، ألا تستطيع أن تطلب من مايرة أن ترسل لنا بطاقة بريدية على الأقلّ؟» ظلت الرسائل المؤسفة تُتَبادل طوال تلك الصيفية وحتى فصل الخريف من العام 1965، وفيها اشتكى سعيد من أن والديه غير مهتمين بسيرته المهنية، واشتكى الأب من عدم اهتمام سعيد بـأخواته. وقد أحس سعيد بأن تلك كانت إهانة لأنه كان في أثناء مكوثه في هارڤرد ثم في نيويورك يزور أخته جين، وكانا يقضيان كثيرا من الوقت معا هو في بيتها وهي في بيته. ولم يكن بوسع وديع أن يفهم السبب الذي يجعل ابنه يتجاهل طلبه الـمُلِحّ بأن يكون صلة الوصل مع شريك في العمل في نيويورك. كان ردّ سعيد قاسيا: «مشاعري نحو ماضيَّ كلها تحطَّمت.. المال من أجل المال.. هذا هو الشيء الوحيد الذي له قيمة». أما أمه فقد قالت محقَّة إلى حدٍّ ما: «ماذا كان سيحصل لك لولا شركة أبيك؟»، ومع مجيء التاسع من نوفمبر كانت هلدا قد أصبحت شبه عاجزة عن التعامل مع الجفوة الحاصلة مع ابنها إلى أن أصابت كبد الحقيقة:

> كان من الطبيعي تماما يا إدْوَرْد أن نكون متوجِّسين من زواج فتاة غريبة من ابننا الوحيد. وقد حاولنا مخلصين أن نحبَّها. هل تذكر كلّ ما حصل قبل حفل الزواج: ردّ فعلك؟ نحن لم نكن نعرف مايرة آنذاك، ومازلنا لا نعرفها، بل نعرفها أقلّ من السابق. كلّ ما نعرفه ونحن على ثقة منه هو أنها لا تقيم وزنا لأيٍّ منا نحن الستّة بأي شكل من الأشكال[10].

بعد اللقاء الذي جمعهما في كلية ڤاسار تنقَّل إدْوَرْد ومايرة كثيرا بين كيمبرج وپكپسي(*) في المراحل الأولى من علاقتهما الغرامية، وأخذا يتهاتفان بين الليلة والأخرى. لكن ذلك خلق مشكلة مع مضي الوقت. كان سعيد متقدِّما أكثر من مايرة في دراسته إلى حدٍّ ما. وكانت هي قد انتقلت إلى كيمبرج لتكون قريبة منه، ولتتابع برنامج الدكتوراه (كان لَڤِنْ أحد المكلَّفين بقراءة أطروحتها: «توماس مان: الشكل والسيرة» Thomas Mann: Form and Biography، 1968)، ولكن سرعان ما واجها بُعد المسافة بينهما عندما حصل سعيد على الوظيفة في كولمبيا[11]. ولذا كان من الضروري التنقّل بين كيمبرج ونيويورك، وهو ما ضاعف القلق والإرهاق الفكري اللذين يشعر بهما كل من يكتب أطروحة.

جاءت قاصمة الظهر عندما قبل سعيد زمالة من مركز الدراسات المتقدِّمة Center for Advanced Study في جامعة إِلِنُوي بمدينة شامْپين-إربانا Champaign-Urbana. لم يكن المكان بالغ الجاذبية، وكانت المسافة أبعد، وكانت المشاغل الذهنية أكثر مما يُطاق، فيما كانت مايرة مشغولة بكتابة الأطروحة. ووجد الزوّار في أثناء مكوث الزوجين في شامْپين-إربانا أن جوّ البيت كان مظلما، وأن شعور سعيد القديم بالعزلة زاد في تعقيده[12]. وقد عبَّرت مايرة عن هذا الاضطراب الداخلي بملاحظةٍ كتبتها له اقتبستها من رواية قصيرة لتوماس مان عنوانها «تونيو كروغر» Tonio Kroger، حيث يوصف بطل الرواية في نهايتها بأنه يعيش في عالمين غير مريحين. ولاحظت أن «سعيدوس» (كما دعته مازحة هنا) يعيش في ثلاثة عوالم كلّها غير مريحة. كان «يمكنه أن يكون فيلسوفا، وشاعرا، وناقدا – هو فعلا ثلاثة في واحد، ثالوث يثير الأعصاب».

(*) كيمبرج تقع في ولاية ماسچوستس، أما پكپسي فهي مدينة في نيويورك، حيث تقع كلية ڤاسار. [المترجم].

ولكن «الوصول» إليه ظلَّ صعبا - ظلّ «العبقريَّ ثلاثيَّ الأرجل» الذي لا يمكن فهمُه عبر أيٍّ من جهاته الثلاث لأنه كان «مركّبا معقّدا». وأضافت تقول: «يا لتعاستي! يحوِّل الفلسفة إلى إستطيقا، وينتقد الأدب والإستطيقا»[13]. وكان الموقف المشار إليه من رواية مان بالغ التعبير، ففيه نجد تونيو، المولود لعائلة برجوازية ويُتَوقَّع منه أن يلتزم بقيم طبقته المادِّيَّة، ولكنه ينجذب للشعر. وبدلا من أن يختار أن يتخطّى عالم الأحداث اليومية فإنه يقسم الاختلاف قسمين في محاولة منه لإدخال الهيام الرومانسي إلى الحياة العادية.

جرَّب سعيد بين السنة التي قضاها في القاهرة ونهاية الدراسة في كلية الدراسات العليا أن يكتب رواية. وكانت أشدُّ محاولاته طموحا قد جرت في بيروت في صيف العام 1962، وهي رواية أعطاها العنوان المؤقَّت «مرثاة» Elegy، وهي تتكوَّن من سبعين صفحة من النثر المصقول وثلاث عشرة صفحة من الملاحظات[14]. ومن حسن الحظّ أنه ترك سجلّا بمعاركه اليومية وأفكاره التي تعرَّضت للتعديل:

> 19 مارس: لماذا أعجز عن مقاومة هذا الكسل؟ لقد احتجت إلى عدة أيام للعودة إلى هذا الكتاب. يا له من شيء ينفي ذاته.. 25 مارس: عمل قليل أو لا عمل هذا اليوم .. هل أنا صادق الآن بينما أكتب؟ ها أنا ذا أمضي كالرجل الذي «يكتب أفكاره».. أريد فرصة (لا يمكن أن توجد) أكون فيها نفسي لنفسي. لو كان بوسعي أن أعبّر عن ذلك في قصَّة قصيرة جدّا أو في رواية طويلة لكنتُ سعيدا[15].

لكن مع مضيّ الوقت حصل على ما كان يسعى إليه، فرواه بشيء من السخرية من النفس، وقال في ملاحظة موجَّهة إلى نفسه: «تمكَّنت أخيرا من وضع مخطَّط للرواية: ثلاثية؛ 3 قصص تشكِّل كيانا واحدا.. تجارب من انعدام اللافشل!» ويتَّضح من ملاحظاته أنه تلقّى الإلهام من مؤلِّف لم يكن يحبُّه (كان إلى جانب غرين Greene موضوع أطروحته في المرحلة الجامعية الأولى): أندريه جيد Andre Gide. فقد ركَّز على سطر من رواية «الباب الضيق» La Porte étroite هو: «وضعت كل طاقتي في العيش، وها هي فضيلتي قد نفدت».

كانت قصَّته، كما يحصل مع كثير ممن يكتبون روايتهم الأولى، تصويرا شبه مخفي لعناصر من طفولته، ومحاولة لبعث الحياة في القاهرة في الأربعينيات.

وكانت شخصيّاتها الكثيرة المغزولة من طبقات المدينة وقومياتها وأديانها كلها تغطّي شريحة طموحة من مجتمع القاهرة. ونجد بين الشخصيّات صيغة مشوَّهة من أبيه باسم حليم خوري، وهو مسيحي لبناني ولد في المدينة، ويملك «شركة فاشلة للطباعة، ودكانا قذرا للقرطاسية»، وتورَّط في صفقات تجارية مشبوهة. وهو يسعى إلى الاستثمار في تجارة الأسمدة. وله زوجة مشلولة «مركونة في شقَّة مهلهلة في شُبرا»، ويقضي كل دقيقة من وقته في الانتقام لنفسه بعد أن خسر قدرا كبيرا من أموال الناس في استثمارات سيئة. أما الدكتورة (الآنسة) إدْوِنا توماس، رئيسة الكلية الأمريكية للبنات، التي تدور كثير من أحداث الرواية حولها، فذات جسم «مستدير، يفتقر إلى الأناقة، ولا يبدو عليه أيُّ أثر من آثار الانضباط الغذائي» على رغم أنها عاقبت نفسها بالمحاولة، وذلك بأن تنهض باكرا على غرار أندادها العرب، وتستعمل نظارات تخلو من الحواف كتلك التي تستعملها الآنسة نصر، التي تحافظ بكلّ قواها على الانضباط، وتعمل مديرة للمدرسة، وتُعَدُّ واحدة من مؤسّسيها.

وُلدت الآنسة توماس في أوهايو، وهي «تنتمي إلى السلالة الأنغلوسكسونية من الشخصية الأمريكية التي أعطت البلاد نغمتها الأخلاقية وعلو شأنها.. فكأنها جين أوستن وقد شكَّلتها الثورة الصناعية». ومن الأدوار الثانوية دور أسند لتوتينو ذي الجسم المكوّر، وهو مثليٌّ مسجون يملك جوهرة أعطاه إياها والده، وهو متزوِّج من أنطوانيت رحيم، إحدى طالبات الآنسة نصر. والآنسة حرفوش تعلِّم اللغة العربية والموسيقى لدعم سيرتها المهنية بصفتها عازفة بيانو في الحفلات الموسيقية. أما جَدْسن فهو أمريكيٌّ يبلغ طوله سبع أقدام، «نحيف، أعزب، ويائس».

تركَّز الحبكة في أحد الجزأين المكتملين على الآنسة نصر. ويروي سعيد وفي ذهنه الخالة ميليا (حيث نجد الآنسة نصر بدلا من الآنسة بدر) معاركها مع الآنسة فوربْس التي تسعى إلى استقطاب الطلبة للمشاركة في مسرحية المدرسة. أما الآنسة نصر من ناحيتها فترى أن المسرح لا يليق بالسيدات ويشكِّل عقبة في طريق رسالتها التعليمية، ألا وهي تثبيت فكرة الصلابة من دون أي أثرٍ لما يقال عن عاطفية الإناث.

> لم تعبِّر عن معارضتها تعبيرا صريحا في أي يوم من الأيّام كأنها تريد التظاهر بأن فكرة العرض المسرحي بعيدة كلّ البعد عن المعقول، عما يمكن للعقل المهذب أن يقبله.. وعند موتها بعد عشرين سنة كان

> المطلوب أن تُشيد بها ثلاثةُ أجيال من النساء المصريّات اللواتي أغدقن عليها المديح بصفتها فصلا كاملا من تاريخ الشرق الأدنى.. كانت عاداتها الشخصية التي شكّلت نمط حياتها في الكلية أشبه بشبكة هائلة دقيقة الصنع تكون مع ذلك غريبة الأطوار. ولربما كان ذلك نتاج ساعة مبكِّرة تكون فيها وحيدة في غرفتها المكتظّة، حيث تعلو سريرها ناموسية قديمة الطراز تحميها من البعوض، وتتغطّى بما لا يقل عن خمس بطانيات، بينما هي تحتسي قهوتها التركية.

لمن لديهم الجرأة مثلها، كان العالم يضمُّ أكثرَ من التباهي البغيض بالحياة الطيِّبة التي يفضِّلها المقلِّدون السخفاء الذين تنقلب أذهانهم نحو الغرب وتميل حيثما تميل الريح.

تضمَّنت العبارة تلك تعريضا خفيّا بالذات كأنه وضعها على لسان الخالة ميليا لفضح ضعفه هو. وهو لا يطلق العنان إلا لماما في المقابلات التي أُجريت معه لموهبته في تقمُّص الشخصية، وهي الموهبة التي يستغلُّها في قصصه، حيث تشكِّل ملاحظة التفاصيل الصغيرة والقدرة على التعبير عن نغمات الصوت المختلفة جزءا مهمّا من قدرة المؤلِّف على الإيهام بالواقع. ففيها أطلق سعيد العنان لذلك الذي وصفه أصدقاؤه بموهبته في المحاكاة الساخرة، حيث مارس، عندما واتاه الجوّ، أداء مشاهد كوميدية من Beyond the Fringe وMonty Python حيث قلَّد اللهجة الهندية وعرض «شخصية جورج ستاينر عرضا ناجحا جدّا»[16].

كان نثرُه يتوافق توافقا تامّا مع متطلّبات المشهد. فبَيْتُ ميشيل وإلين الياس ذو الطابع البرجوازي الأدنى يوصف بعبارات تدلّ على النقد اللاذع: الخدم السود، النوافذ العالية، الخيار، العرق، السكوتش، الغلايين. اللوحات السوقية التي رسمها محمود سعيد بك تزيّن الجدران: مناظر وادي النيل التي تثير الشجن «وقد بُولِغَ فيها إلى حدٍّ قُصِدَ منه إخفاء الضعف الفني والبنية المضطربة؛ كل ما فيها هو الشعور نحو الأشياء، فهو الذي يسود، ويغمر، ويمحو. البيت يعجُّ بالإمَّعات، ولاعبي البوكر، والأصدقاء الأثرياء». حتى «الذباب استقرَّ في أماكن راحته كالتلاميذ المؤدَّبين وهم يعودون لمقاعدهم بعد النهوض احتراما للكبار». أما الآنسة كولي، التي كانت تغشُّ المستأجرين، فقد «توفِّيت بعد أربعة عشر

شهرا في غمرة نشوتها وهي تمسك بكتاب «رحلة الحاجّ» Pilgrim's Progress(*) على صدرها بشيء من الغبطة المحمومة».

أمّا الجزء الثاني الذي وصلنا من مخطوطة الرواية فيعطينا الانطباع بأنه لو توافر الوقت ولم يكن لديه شيء آخر يفعله لأكمل المشروع وأوصله إلى مرحلة النشر. فالكتابة سيّالة، واثقة، مكتملة. والشخصيات التي يوجد بعضها في القاهرة وبعضها الآخر في هليوبولس تمضي قدما بترتيب يثير الإعجاب: حامد، جورج، صمويل أبرام الذي بُنيت شخصيته على شخصية ديڤد إزرا من أيّام سعيد في مدرسة القدّيس جورج في القدس، والأستاذ كورتونسكي الذي استُمِدّت شخصيته من شخصية تيغرمان. وهنالك شخصيّتان أخريان هما مفيد وأحمد، وهما صورتان معدّلتان من السيرة الذاتية. يذهب الثاني منهما إلى العمل ويصبُّ جامّ غضبه على الشرطي المسكين، ويدرس كتاب «التحوُّلات» Metamorphosis لأوڤد Ovid من دون تركيز حقيقي، ويلقي بالتعليمات على السائق بواسطة جهاز الاتّصال اللاسلكي. أما مفيد فهو شخصية يسخر سعيد بواسطتها من نفسه فتستمدُّ مادَّتها من السنة التي قضاها في شركة القرطاسية:

> اليوم، كما في كل يوم، وخلال الجزء الأكبر من الوقت في مكتبه المغبّر الحارّ، سيدفع مفيد كرسيَّه إلى الخلف بعيدا عن المنضدة، وسيَميل إلى الأمام ويضع كوعيه على ركبتيه، ويداه تحت ذقنه، بينما تتدلّى السيكارة من شفتيه، وينظر إلى الأسفل باتِّجاه الأرضية المبقَّعة بالحبر. وأما دفترُ الأستاذِ الضخمُ فوق المنضدة فكان رفيقا لم يكن بإمكانه أخذه مأخذ الجدّ لأن ثمة شيئا مضحكا في الأرقام الصغيرة غير المحمية التي وضعها هو، وهي أرقام تسير بثقة عبر صفحات لا تنتهي. كانت الأرقام حقيقية لأنها كانت حسنة الترتيب، وهذا الترتيب كان من صنعه هو: أيًّ ا تكن المبيعات والخسارات التي تعبّر عنها لرؤسائه فإنها كانت أشياء غير مفهومة لمفيد. كان مشغولا بشيء مختلف هو الآخر غير مفهوم لأي شخص آخر.

(*) من تأليف جون بَنْيَن، وهي رواية رمزية نشرت في العامين 1678 و1684. يدل عنوانها الكامل على محتواها من وجهة النظر المسيحية: «رحلة الحاج من هذا العالم إلى العالم القادم». يقال إنها ترجمت إلى نحو 200 لغة. [المترجم].

أي إن سعيد كان، وهو على وشك أن يصبح أستاذا جامعيّا، مايزال يفكّر في أن القصص قد تكون منصَّة يعبِّر بواسطتها عن كل تلك الصراعات الداخلية التي كان عمله البحثي يمرُّ عليها مرور الكرام. ستبقى رواية «مرثاة» غير مكتملة إلى الأبد، ولكنه أكمل قصة قصيرة ممتازة أرسلها إلى «النيويوركر» The New Yorker في 26 فبراير 1965، وهي أحاديث صِيغت بمهارة استُمِدَّت مادّتها من ذكريات سعيد في ليالي الصيف في ضهور الشوير التي لا هدف لها.

قصة «سفينة لمن يصغي» An Ark for the Listener هي قصة آل أندراوس المكوّنة من أمٍّ وابنتيها السمينتين، وكنّ قد جئن إلى البيت الصيفي لصديق بعد أن اضطررن إلى الخروج من فلسطين[17]. يتنقّلن من بيت إلى آخر من بيوت الجيران السابقين والأقارب البعيدين كمن يمشي في نومه. وبينما يحدث هذا في أحد الأمكنة فإن اهتمامات القصّة تتَّصل بمكان آخر. ففي الوطن الفلسطيني على مبعدة أميال كثيرة تتجوّل قوات يهودية شبه عسكرية في المناطق الريفية لمهاجمة البريطانيين. أما هنا في التلال اللبنانية فإن الراوي الذي يتأثّر بما يجري حوله من أحداث يشعر بأنه تعب من التعب ويمضي في أعماله الروتينية ناسيا الأحداث التي أخذت تجبره على التعامل معها.

استعار سعيد عنوان القصة من قصيدة «تحطُّم سفينة دويچلاند» The Wreck of the Deutschland للشاعر هوپكنز؛ حيث يشير العنوان إلى السفينة الإلهية (ark) التي تحمي التعساء في المياه العاصفة لأن الشاعر أراد أن يحيي ذكرى موت خمس راهبات فرانسسيات Franciscan غرقا. وفي اللحظة التي يظهر فيها السطر الذي يشير إلى العنوان يكون هوپكنز قد عقد مقارنة بين أولئك الذين سمعوا النداء الإلهي وأولئك الذين لم يسمعوه. الرحمة تشمل الماء كلَّه وتأتي بسفينة إلهية لمن يصغي، أما المتباطئ (الذي لا يصغي) فينزلق إلى أبعد من الموت والظلام. أي إن رحمة الله الواسعة وفق ما يلمّح هوپكنز ستحوّل التائهين إلى أناس عقدوا العزم وتدعوهم إلى «أن يحترقوا، وقد ولدوا من جديد في هذا العالم». ويمر الراوي بتحوُّل مثل هذا في سياق القصَّة.

تتكشَّف تفاصيل قصة «سفينة لمن يصغي»، وهي أفضل ما أنتجه سعيد من نثر إبداعي، على شكل حديث يجري عصر يوم أحد كسول «في موقعٍ عالٍ على جبلٍ يعرى

ببطء في وسط لبنان». يؤدي الشاب بدلا من أبويه الغائبين واجبَه باستضافة الزوار الذين قدموا من دون ترتيب مسبق. وهو يشعر بالذنب لأنه أضاع أشهر الصيف، وليست لديه رغبة في إضاعة مزيد من الوقت مع زوّار لا يكاد يعرفهم. وتثير البيئة الموسرة المحيطة بالمنتجع الذي اختاره أبواه في الضهور والعادات البرجوازية التي ترافق عائلة أندراوس المتخمة فيه الشعورَ بالاستياء بدلا من التعاطف، ولا يشعر إلا بالاحتقار، ويفكِّر «في أكباش الفداء العرب الذين يؤخذون من صور رسمها حالمون غربيون.. شعور قذر صامتٌ بالاستحواذ ينضح بالكسل الوحشي الذي أرعبني بقوَّة المال التي لا رادع لها». وما يخيفه هو أن ثمة قدْرا من الصحة المدفونة في هذه الصورة الكاريكاتيرية، وأنه هو نفسه دليل على ذلك.

ومن رأيه أن آل أندراوس، بصفتهم من أبناء الطبقة الوسطى الموسرين، «تهمّهم مصلحتهم بالدرجة الأولى أكثر مما يهمُّهم وضع المخيَّمات.. لقد اختاروا طريقهم، وهي طريق بدأت بالتحديق بلا معنى من زجاج نافذة السيّارة القذر وهم ينطلقون بها في بيروت، بينما كانت أعينهم تأخذ في الحسبان نشاط المدينة الكثير والمتنوِّع. وكانت لقاءات كهذه قد انتهت في رأيه في معظم الأحيان إلى الجلوس في فترات ما بعد الظهر وتشكيل منصّات للثرثرة وتجريح الذات»، حيث يعاقب اللاجئون أنفسهم بالغوص في الجراح المفتوحة. وينغمس الراوي في متعة تعذيب الذات والتشكّي من أنه إذا كان الوقت في الغرب يتحوّل إلى مال فإنه عند العرب أشبه بالفول السوداني الذي يُلتَهم بشكل آلي، أو ليُزال سريعا. ومع ذلك فإنه بينما يوزّع الحلوى بصفته مضيفا مضطرّا تهدأ نفسه ببطء لأسباب إستطيقية، إذ على رغم كل ما في ثقافة قومه مما يثير الأعصاب فإنه لا يملك إلا التسليم بجمال الزَّجَل؛ «تلك المهارة التي ترتقي بالثرثرة المهذَّبة إلى مصاف الفن العالي».

عندما يجلس معهم على الشُّرفة ذات الستائر الـمُسدلة، وبينما هو يأمل عودة والديه ليريحاه، ينجذب لقصص المرأة، حيث «عُلِّقت القطع الرثَّة لمأساة لا جمال فيها على عصا نحيلة من النثر النوّاح» ليس فيها شيء درامي؛ كلها تفاصيل عاديّة عن حياة تحطَّمت وتقطَّعت: صور لجارة تتعرَّض للإهانة في بيتها، ليهود وعرب مسيحيين، أغنياء وفقراء، يعيشون جنبا إلى جنب. ما يلفت انتباهه هو الترفُّع في

أثناء السرد، وفن القص العربي: «كانت لغتنا، عندما أُحسِن استعمالها، مأدبة فيها كلّ ما تشتهيه الأنفس.. ألبسة الروح العربية». ولا يبدأ الوعي بالمصير الجمعي المشترك في الاتّضاح إلا عندما يقترب النهار من نهايته. ويحلُّ العزم محلّ الأسى والغضب. ومع أن سعيد أرسل قصائد عمل عليها مرارا وتكرارا إلى المجلات الأدبية منذ أواخر الخمسينيات (نشرت اثنتان منها في مجلَّة «الكلية» في العام 1958)، فإنه انسحب عندما رفضت مجلَّة «النيويوركر» نشر القصَّة، وتوقَّف عن كتابة القصص على مدى خمس وعشرين سنة أخرى[18].

***

التحق سعيد بهيئة التدريس في جامعة كولمبيا برتبة مدرّس في قسم اللغة الإنگليزية فأعاده ذلك إلى المدينة التي لم يتركها تماما، وعندما وصل تقبَّل بكثير من العرفان مشورة زميلٍ أقدم كان من أتباع تْروتْسكي Trotsky ومن منظِّمي الحركة العمّالية يدعى فْرِد دوپي Fred Dupee الذي أدخله إلى عالم الكتابة في نيويورك. وقد كان دوپي أحد المحررين الذين أسَّسوا مجلة «المراجعة الحزبية» The Partisan Review ويسهم كثيرا في مجلة «مراجعة نيويورك للكتب» New York Review of Books، وقد عرّفه على مختلف المحرِّرين، وعلى كيفية التعامل مع تراتبية الأقسام الأكاديمية في كولمبيا.

في العام 1983 وضعت الصحفية المناهضة للحرب ميري مَكارثي Mary McCarthy، التي كانت كثيرة المساهمة في The Partisan Review، في تأبينها المضحك الدليل على أن علاقة سعيد بدوپي كانت بمنزلة زواج العقول[19] من غير أن تقصد(*). كان دوپي قد كتب دراسة قصيرة رائعة عن هنري جيمز (1951)، وكتابا يتلألأ من المقالات الجريئة الخالية من الرطانة عن الكتابة والكتّاب عنوانه «ملك القطط» King of the Cats (1965). كان دوپي على علم بأنه يكتب ضمن جنس أدبي دعاه ببساطة: «ملاحظات» Remarks. وكانت مجموعة أعماله كلها تميل إلى أن تتناول «رسائل الكتّاب، وسِيَرهم، والسِّيَر الذاتية لغير الكتّاب... والأعمال

(*) هنا تلميح إلى إحدى سونيتات شيكسپير التي تبدأ هكذا:

Let me not to the marriage of true minds admit impediment

أي ليس هنالك ما يقف حائلا دون زواج العقول الصادقة. [المترجم].

المتأخِّرة للكتّاب، وتتجنَّب أعمالهم الكبرى» – وهذا هو النمط الذي اتّبعه سعيد في حياته المهنية. كانت النماذج التي احتذى حذوها تنتمي إلى من يرسمون بالكلمات الصورة الأدبية للكاتب – أمثال سانت-بيڤ Saints-Beuve، ومكولي Macaulay، وإدمند ولسن Edmund Wilson، زوج ميري مكارثي السابق. وعندما يفكِّر المرء في عودة سعيد المستمرَّة إلى مجموعة صغيرة من الكتّاب والمفكِّرين الذين يقدِّمهم للقراء كأنهم أصدقاء أو جزء من العائلة، والذين لشخصيّاتهم من الأهمية ما لأفكارهم، فإن هذا النموذج يبدو أنه مستمرّ. وقد أضافت مكارثي: «كان يجري في دم دوپي قدر من الفطنة الأوروبية التي تجعله أشد دماثة من زملائه الآخرين في هيئة تحرير الـ Partisan Review: راڤ، وفِلِپس، ودْوايْت مكدونَلْد». كان فنُّه يقوم على التألُّق من دون بذل الجهد، على أن يكون ممتعا، شديد الملاحظة، عديم الاكتراث، «يعطيك الانطباع بأنه حديث عادي».

أضف إلى ذلك أن دوپي كان متعاطفا مع ما حقَّقته الشيوعية الأمريكية. فقد حرّر جريدة «الجماهير الجديدة» New Masses في الثلاثينيات وكتاب تْروتْسكي «تاريخ الثورة الروسية» History of the Russian Revolution في العام 1959، وقارَنَ ذلك الكتاب بكتاب ثوسِدِديز Thucydides «الحرب البلوپونيزية» The Peloponnesian War وكتاب «الشروح» Commentaries ليوليوس قيصر Caesar. فعلى غرارهم كان المؤرِّخ (مثلما كتب سعيد فيما بعد عن سْوِفْت) مشاركا في الأحداث التي كتب عنها، «رجل أدبٍ ورجل أفعال»[20]. وقد شعر سعيد بالإجلال لدوپي وهو يقف خارج مخازن التموين ليجمع التواقيع ضدَّ حرب ڤييتنام على رغم أنه لم يفعل ذلك هو نفسه.

في السنوات الأخيرة من عقد الستّينيات كان كتاب «البدايات» Beginnings الذي مثَّل نقطة الانطلاق الأولى في حياة سعيد مايزال بانتظار انقضاء نصف عقد من الزمان، وكان هو قد استقرَّ في كولمبيا بصفته عضوا طموحا من أعضاء فئة مثقَّفي نيويورك. وقد بدأت كتاباته بالظهور في المجلات نفسها التي كانت تستعملها تلك الفئة من النقّاد والكتّاب (وأكثرهم يهود)، وكان هو على معرفة شخصية بكثير منهم، وكان يطلب النصح من الفرويدي الساخر لاينل تْرِلِنْغ Lionel Trilling، زميله المقيم في كولمبيا. ولكنه مضى في اتِّباع توجيهات دوپي

الذي قدمه لمكارثي التي كان دوبي قد أتى بها إلى كلية بارْد Bard College قبل أن يأتي به تْرِلِنْغ إلى كولمبيا بعد سنوات قليلة. كانت الدائرة صعبة الاختراق. وفي تلك الأثناء كان سعيد يعمل على تطوير أسلوب يمزج الأدب بالفينومينولوجيا، وهو أسلوب لم يكن له نظير «في مهنة النَّقد الأدبي الراقي» quality lit crit biz(*) بعبارة جيمز وولكُت James Walcott[21].

غير أنه من حسن الحظ أن جامعة كولمبيا كانت تكافئ هذه الأذواق المتعدِّدة، وإلى جانب سعيد كان هنالك عدد من أعضاء هيئة التدريس الذين كثيرا ما قدّمت المجلات والصحف الكبرى في نيويورك أعمالهم فشكَّلوا بذلك شيئا أشبه بالنقابة المهنية. أما سعيد فقد حسب أن من الحكمة أن يوازن بين رهاناته وأن يدرس الساحة الفكرية بطريقة جديدة. ولم يكن ذلك صعبا لأنه بصفته قادما من الشرق الأوسط كان أشبه بالصورة السالبة photo-negative(**) لنظرائه اليهود. فالموضوعان اللذان ظلّ هؤلاء النظراء يتناولونهما – النفي وتجربة الهجرة – كانا موضوعه هو أيضا ولكن من زاوية مختلفة تماما.

ظهرت استقطابات الجماعة بشكل واضح في التناقض بين تْرِلِنْغ ودوبي حيث «يُغرق الأول بالغموض، والدقائق الجدلية، والعبارات البرّاقة ذات المعاني الخفية، كأنه أمير الدماثة والتلميحات غير المباشرة»، أما الثاني «فيعبِّر عن التحدّي، والعناد الصبياني.. يتخذ موقفه كأنه يسير بلا هدف في عصر النقد الأكاديمي، والتخصُّص في حقلٍ من الحقول من ناحية والقراءة المدقِّقة المتعمِّقة من الناحية الثانية»[22]. وقد حظي تْرِلِنْغ في كولمبيا بمكانة خاصَّة بين مثقَّفي نيويورك، وكان الناس ينتظرون صدور كتبه، وهي كتب تحصل على تقريظ عالٍ عند صدورها، كأنها آتية من الأعالي محاطة بتحفُّظ كلاسيكي أثيري. وبينما لاحظ سعيد ما له وما عليه فإنه عدَّه صيغة أمريكية من ماثيو آرنولد Matthew Arnold، شخصا محافظا يتمتَّع بذائقة أثيرية في الفنون، ويشخِّص القيم الاجتماعية والنفسية من موقعه الأدبي البعيد.

(*) بإهمال النصف الثاني من كلٍّ من الكلمات الثلاث الأخيرة: Literature, critics, bussiness، وهو شيء مألوف بين «أهل الصنعة» الواحدة. [المترجم].

(**) مفهوم ينتمي إلى فن التصوير الفوتوغرافي، ويعني الصورةَ ذاتَ الإضاءة العكسية للصورة الأصلية؛ حيث تبدو أشدُّ المناطق إضاءة في الصورة الأصلية أشدَّها ظُلمة في الصورة السالبة والعكس بالعكس. [المحرر].

لقد بدا لسعيد أنه يترفَّع أكثر من اللازم عن المواهب الجديدة مع أن حميمية رسائله التي كتبها لتْرِلنْغ (وردود تْرِلنْغ الودِّيَّة عليها) توحي بقدر أكبر من المودَّة التي لا ينتقص منها شيء سوى العناية المدروسة في التعبير من الجانبين. وفي النهاية شارك سعيد صديقه في الأسلوب التهكُّمي وقال ناظرا إلى الوراء بعد مرور الزمن «إن لاينل عاش الدور الذي مثَّله لاينل»[23]. وقد احتفظ سعيد بأحكامه لنفسه، ولكنه سمح لعواطفه بالخروج من مكمنها في مدخلٍ في دفتر يوميّاته بعد وصوله إلى كولمبيا بوقتٍ قصير:

> تْرِلنْغ أناني يصعب اختراق عالمه. لا تهتزُّ له جارحة. يحاول أن يكون كالآلهة وأن يكون كامل الأناقة من دون أن يدرك أن هاتين الصفتين لا تختلطان. يصبح مضحكا، ولكنه يبلغ من الذكاء حدّا يجعله خبيثا، فعندما يصل الذكاء منتهاه يصبح الذكاء خبثا يتعامل به المرء مع العالم.. وبالمقارنة معه أشعر بأنني أخرق، وألجأ إلى الصمت[24].

وبعد سنوات كتب لمونرو إنغل Monroe Engel ما يفيد بأن آراءه في تْرِلنْغ لم تتغيَّر: أجد ببطء أنه ذو نظرات رجعية.. تلفّها.. خيبة الأمل.. إنه يربط «الذهن» بكلمتي «السادة» و«الجامعات»[25]. وكما قد يستشفّ من ملاحظات كهذه فإن سعيد لم يكن معجبا بجامعة كولمبيا في البداية. وعندما قرّر القسم رفض طلب أحد الزملاء، وهو مَيسن كولي Mason Cooley، للتثبيت بعد الاحتفاظ به عضوا في هيئة التدريس على مدى تسع سنوات قال سعيد لزميل له غاضبا إنه «اكتشف الآن.. عجرفة [القسم] وتعاليه»[26].

أما دوپي، من الناحية الأخرى، فكان شخصا أقرب إلى النفس بكثير، شخصا يستهين بالتقاليد، ولذا فإنه مناسب تماما لرغبة سعيد في أن ينسجم تمام الانسجام مع جامعة من جامعات الآيڤي ليغ. كان دوپي يملك بيتا مرتفع الثمن في شمال الولاية، وكان يتَّصف بالدماثة واللطف، ويستمتع بصداقاته مع المتمرِّدين من أمثال غور ڤيدال Gore Vidal المنتمي إلى الطبقة الراقية. وبما أن دوپي ضمَّ سعيد تحت جناحه فإنه حسبه كاتبا لامعا ولكنه ليس أفضل الكتاب دائما[27]. والكلمة الشائعة بين أعضاء هيئة التدريس في كولمبيا هي أن مقالات سعيد كانت تفتقر إلى جمال النثر الفرويدي الذي ينحته تْرِلنْغ وإلى المعرفة الواسعة البهيجة التي يتَّصف

بها دوپي. ومع ذلك فإن دوپي لاحظ في مدائح سعيد للنظرية الفرنسية بدايات أسلوب جماهيري، ولذلك أعلن بصوت عال، ليُخرِس النقاد، أنه «عضو في نادي إدْوَرْد سعيد للنثر»[28].

لربَّما كان سعيد مثل دوپي من حيث تجاهل الأصول الأكاديمية التي يقتضيها إرضاء الجيل القديم. فبما أنه قادمٌ جديدٌ غير مثبَّت فإنه لم يحشر أنفه في ما لا يعنيه، ولكنه لم يكن على تلك الدرجة من الحرص في كل الأوقات كما قد يُظَنّ، أو أنه عمل كلَّ ما بوسعه لتهدئة القائمين على أمور القسم[29]. غير أنه كان من وجهة نظره أشدّ حذرا من اللازم. ففي نوبة من تقريع الذات كتب في مدخل إحدى يومياته في شهر يناير من العام 1966: «من الضروري لي – ربما لنا جميعا – ألا نتكلَّم إلا إذا كنا نستند إلى دعم قوي. كسب الدعم والموافقة هو السبب الذي يدعوني إلى الكلام معظم الوقت - ربما كل الوقت - كيف أنظر إلى دلالات الحساب: أراقب كيف تتحوَّل من اتّفاق، إلى تقدير، أو فوضى. كلمات؛ فم؛ إيماءة»[30].

كان دوپي أكثر من مجرّد سند دائم مكِّن سعيد من نشر كتاباته؛ كان صديقا عزيزا. كان واحدا من عدد قليل من الزملاء الذين زاروه في إربانا مع مايرة، وبعد سنوات قليلة في بيروت حيث عاش سعيد مع زوجته الجديدة مريم لمدَّة سنة. وبعد أن قام دوپي وزوجته بزيارتهما التي استمرّت عشرة أيّام كتب سعيد لأستاذه القديم إنغل يقول: «يصعب على كلٍّ منا [أي سعيد ومريم] أن نفهم سبب حبنا العميق ومتعتنا الشديدة بوجودهما معنا»[31]. وعلى غرار دوپي، كان سعيد التلميذ يوحي بأن حياته مملوءة وممتعة، والصورة التي تعبِّر عن ذلك هي الصورة التي لا تُنسى والتي تجمعه مع مايكل روزنثال، زميله من أيام الدراسة في كلية الدراسات العليا، وهما يسيران في شارع بْرودْوَي، ويدخّنان السيغار ويرتدي كل منهما معطفه الشتوي الطويل[32].

أدرك سعيد بفطنته أن احتمال نجاحه في مهنته يكون أكبر إذا كتب دراسة تقليدية عن أحد المؤلِّفين الإنكليز المعتمدين، لكنه كان لايزال موزَّعا بين مكتشفاته في فلسفات اللغة عند الفرنسيين والألمان. ومع مرور الوقت تمكنت هذه الفلسفات من إبعاده عن المشروع الذي كان قد اختاره، وهو دراسة كونراد بصفته شخصية

ظاهرية persona ابتُكرت لتؤدّي وظيفة المؤلِّف، وانتهى بأن أدخل أفكارا مستمدَّة من تلك الفلسفات بين أسطر أطروحته التي كانت في حالتها الأصلية «آمنة»، تسرّ الجيل السابق الذي لم ينتبه إلى الإحالات الخفية، بينما هي تلمّح إلى من له عينان يرى بهما ما خفي على غيره. ذلك أن المنظِّرين اليساريين الهايدغريين، والوجوديين، والماركسيين في فرنسا وألمانيا بدوا له أغنى وأشدّ استعصاء على التوقُّعات من قضاء بقية حياته تحت مسمّى «باحث في أعمال كونراد».

كانت النتيجة أنه بدأ بشرح النظرة الفرنسية لقرّاء «النيويورك تايمز» وبإدخالها إلى عالم أكاديمي يهيمن عليه النقّاد الجدد. ولتحقيق هذه الـمَهَمَّة استعان بالأسلوب المبسَّط الذي كان يستعمله [إدمند] وِلْسن، وهو أسلوب قدَّره حقَّ قدره لما فيه من تحدٍّ للتقاليد السائدة بين الباحثين، ولاسيما لاستغنائه عن الحواشي والإحالات[33]. وبينما كان سعيد منهمكا في دراسات الأنطولوجيا Ontology وعلم الدلالة، فإنه أغدق المديح أيضا على ولسن، من بين كل الناس، «بسبب سعة علمه الذي يخلو من التنفُّج والتمحُّل، ولأنه كان مهتما بالجانب الإنساني من الكتب والتاريخ»، وكان لذلك السبب أشدّ النقاد جاذبية باللغة الإنگليزية «في أي مكان وأي زمان»[34]. ولربما فسَّرت هذه الأذواق الروابط الوثيقة التي كانت تربطه بالناقد الأدبي رِچَرْد پْواريير Richard Poitier الذي يعمل في جامعة رَتْغَرْز Rutgers، وهو أحد مؤسِّسي مكتبة أمريكا، وصديق عمر لسعيد، وكان هو أيضا يسعى إلى الكتابة عن الأمور النظرية بطريقة غير نظرية، وأبرز بصفته محرِّرَ مجلّةِ «راريتان» Raritan(*)مقالات جادَّة سهلة القراءة واعتمد على سعيد بصفته أحد كبار المساهمين فيها[35]. وقد عدّ سعيد پْواريير واحدا من أعظم النقاد الأمريكيين في فترة ما بعد الحرب.

أصرَّ سعيد، فيما هو يكتب بصفته صحافيّا حسن الاطلاع، على أن النظريات الأوروبية الخاصة باللغة والوجود كانت تتخذ، بغضِّ النظر عن صعوبتها، مواقف ثورية حول سياسة الثقافة، وهي مواقف حيوية للحياة والفن في هذا العصر. وقد شكَّلت الأنماط البنيوية للسلوك الإنساني، وهي الأنماط التي كشف عنها

(*) Raritan اسم نهر في ولاية نيوجيرزي. [المترجم].

الأنثروبولوجيون اللغويون ومنظِّرو النظم المعرفية من أمثال كلود ليڤي-شتراوس ونُوَم چومسكي، تحدّيا بنّاء لتفرُّد الإنجاز الغربي بينما شكَّكت في منافع الحضارة الصناعية. وكان من رأيه أن من واجب الجميع أن يدركوا ما هو على المحكّ.

كان سعيد حريصا باستمرار على مراسلة ذوي السمعة الراسخة من الأساتذة الذين كان معجبا بهم أو يرغب في التعرُّف عليهم، ولذلك فإنه أخذ يلفت نظر كبار المنظِّرين بعد مدَّة لا تزيد على سنة أو سنتين من تخرُّجه في كلية الدراسات العليا. وقد حرصت شخصيات من أمثال رِچَرْد ماكسي Richard Macksey، ويوجينيو دوناتو Eugenia Donato، وجون هِلِس مِلَر J. Hillis Miller على أن يُدعى رسميّا إلى حضور المؤتمر الذي عُقِد في العام 1966 وجعل البنيوية الفرنسية شيئا مألوفا في الجامعات الأمريكية والبريطانية، وكان موضوعه «لُغات النقد وعلوم الإنسان» The Languages of Criticism and the Sciences of Man، وعُقِد في جامعة جونز هوپكنز في أكتوبر من تلك السنة.

لم يكن ثمة ما يضير في أنه كان في الأشهر التي سبقت المؤتمر قد نشر مراجعة تفيض بالإطراء لكتاب مِلَر بعنوان «شعراء الواقع» Poets of Reality (1965) في مجلَّة The Nation، وأتبعها بمعالجة تشيد كثيرا بكتاب لوسيان غولْدْمان «الإله الخفي» The Hidden God (1956) في The Partisan Review. أما دراسته المخصصة لكونراد فقد نشرت بعد سنتين من المراجعة والتعديل في مطبعة جامعة هارڤرد بمساعدة من لَڤِنْ. ولذا يمكننا أن ندرك أن الأسماء الكبيرة في البنيوية الفرنسية، ومنها أسماء رولان بارت، وغولْدْمان، وجاك دريدا، وجورج پوليه Georges Poulent لم تكن مجرَّد أسماء يعرفها من أغلفة الكتب. كلهم حضروا المؤتمر، وراقبهم في أثناء العمل، وتابع أفكارهم باللغة الفرنسية.

لا يدهشنا إذن أنه أُصيب بحمّى النظرية ووجد نفسه يتبادل الرسائل مع ميشيل فوكو، وبارت، وإيلين سِكسو Helene Cixous، وغيرهم. وبعد مرور سنة على ذلك المؤتمر قال في رسالة إلى جان ستاروبنسكي Jean Starobinski، الفينومينولوجي السويسري الذي كان يدرِّس آنذاك في هوپكنز، إن بارت «موجود هنا في زيارة قصيرة، وإن سعيد وجده ساحرا ولكنه مغلق»[36]. أما بارت نفسه فقد أرسل إلى سعيد بطاقة يشكره فيها على إرسال مقالٍ من مقالاته: «يا لقوتها، ورهافة

فكرها وعنايتها. متعة خالصة لي. أشكرك من صميم قلبي. هل يمكننا أن نلتقي يوما ما؟ هل تنوي القدوم إلى باريس؟ لا تنسَ أن تخبرني»[37].

صارت اهتماماته الجديدة جزءا من شخصيَّته، وأخذت تكشف عن نفسها حتى في أوقات فراغه. ففي العام 1966 انطلق في رحلة إلى إسبانيا مع مايرة وزميله وصديقه العزيز ألِن بيرغسن، وهناك أقاموا في الفنادق الريفية التي تملكها الدولة («لأنها الأفضل»)، وهناك اشترى سيّارة شحنها إلى فرنسا عن طريق السكة الحديد لقضاء الجزء الأخير من الرحلة، على أمل تسلُّم السيّارة بعد سفرهم في قطار الركّاب المزوّد بوسائل النوم[38]. في هذه الرحلة وقع سعيد في غرام شيء بعيد الاحتمال: مصارعة الثيران. وبعد سنوات قليلة من تلك الرحلة روى سعيد بعض القصص عن تلك التجربة لزوجته الثانية مريم في مرحلة الخطبة وأهداها نسخة من كتاب «موت بعد الظهر» Death in the Afternoon لهمنغوَي لتأكيد غرامه ذاك[39]. وقد قال في وقت لاحق إنه «حضر عددا من مصارعات الثيران في الستّينيات، منها واحدة شارك فيها أنطونيو أوردونييز Antonio Ordonez العظيم الذي رآه في أحد الأيام في مدينة باذاخوث Badajoz(*)، وهي مدينة مغبرَّة شديدة الحرارة في إشترِمَدورا Estremadura»[40]. ولو أزحنا كل هذه المغامرات الساحرة جانبا فإن ما يبقى هو أنه لم يكن في إمكانه منعُ نفسه من التكلُّم في أثناء الرحلة عن غرف الاستقبال المختلفة في الأماكن التي نزلا بها وكيف أن النقد له مصداقية لا تقل عن مصداقية الأدب، وأن كلا منهما له أولويته الخاصة به.

غير أنه لم يعطِ الانطباع دائما بأنه صاحب نظريّات في تنقُّله جيئة وذهابا بين اللغة العادية ولغة المصطلحات الفنية. وقد قال صديقه المؤرِّخ الفلسطيني طريف الخالدي إنه كان في حقيقته «فيلسوفا هاجر إلى عالم الأدب»، ولكنه - بعد أن وقع في شرك المجادلات الغاليَّة Gallic(**) - عدَّ قضيته أوسع من أن ينخرط - إلى جانب اللسانيات التي أخذت تؤكِّد حضورها بعد الحرب العالمية الثانية - في عراكها مع ما هو معقول[41]. وعلى الرغم من الأسلوب الجذاب الذي

(*) «بَطَلْيوس» بالعربية. [المترجم].

(**) نسبة إلى بلاد الغال. [المترجم].

كُتبت به مقالاته ومراجعاته المبكِّرة التي نشرت في أماكن مخصّصة لعامة القرّاء (مثل The Kenyon Review وThe Centennial Review وThe New York Review of Books) فإن النظرية الأدبية غيَّرت سعيد إلى الأبد. ومع ازدياد وقوعه تحت تأثيرها فإنه أخذ يعود بشكل من الأشكال إلى ميوله التي تشكّلت لديه طوال سني دراسته نحو الكتب الكلاسيكية في الفلسفة.

حاول لَڤِنْ أن يثنيه. كان سعيد يسعى إلى الحصول على دعم أستاذه عندما أرسل إليه مراجعته لكتاب مِلَر في The Nation، وهي مراجعة مفهومة تماما، ولكنها ركّزت على مواضيع صعبة مثل مبدأ الحلول، وعلى كتابات پوليه عن وعي المؤلِّف[42]. ولكن لَڤِنْ ردَّ بجفاء:

> عزيزي إد،... يسعدني أن أرى أنك مازلت مهتمّا بآرائي على رغم أنك عبّرت عن حماسك لكتابٍ يتعارض بوضوح مع المبادئ التحليلية والتجريبية التي أحاول تقديمها. وبما أن الهوَّة التي تفصلنا وصلت إلى هذا الحدّ فإنني لا أرى أملا في ردمها برسالة قصيرة... وبكلمة مختصرة أقول إن هذا المنهج لا يسعى إلى فهم الأدب بل إلى استخلاص نماذج ميتافيزيقية من المؤلِّفين بفرض تجريدات تدعمها اقتباسات مأخوذة خارج سياقها[43].

لكن سعيد على غير عادته لم يدافع عن نفسه، وعندما حلَّ الوقت الذي استدعى كتابة كلمة الوداع للنظرية في كتابه «العالم والنص والناقد» The World, the Text and the Critic (1983) فإنه كتب لليڤن ليقول إن أستاذه كان محقّا طوال الوقت. لكن كتابيه التاليين اللذين نُشرا قبل حلول ذلك الوقت أهملا نصيحة لَڤِنْ، لأنه كان سعيدا بتلك «النماذج الميتافيزيقية» التي كان يحاول بطريقته أن يستغلَّها لخدمة القضايا اليومية بإعطائها موقعا تاريخيّا.

***

في 24 نوفمبر 1965 أرسل سعيد إلى ليڤن مقالا عن رواية «نوسترومو» Nostromo لكونراد، وعلَّق بقوله إنه يحسب أنه «سيكون آخر بحث له عن كونراد»[44]. لكن تبيَّن فيما بعد أن ذلك القول بلغ من خطئه أنه احتاج إلى تفسير نفسي لأنه في أخريات حياته سيلاحظ، باستعمال صورة موسيقية اعتدنا

على أمثالها منه، أن كونراد «ظلَّ النغم الأساسي الذي لا يغيب لكلّ ما مرٍّ بي من تجارب»، وهنالك دائما عدد من الفقرات، بل من الأقسام الرئيسة، في كلِّ كتاب من كتبه اللاحقة، عن كونراد. هذا إذا أغفلنا المقالة المهمَّة بعنوان «كونراد ونيتشه» Conrad and Nietzsche التي نشرت في العام 1976[45].

كان لا بدَّ من إبقاء كونراد شريكا سرّيًا لأسبابٍ وجيهة. فكلاهما كتب بلغة مستعارة، وشهد فظاعات الاستعمار، وكان له فضولٌ مَرَضيّ فيما يتَّصل بالتطرُّف السياسي. وعلى غرار كونراد، كان سعيد ثلاثي اللغات، ويحب اللغة الفرنسية، وظل متيّما بفاغنر طول حياته[46]. ولا شكَّ في أن سعيد كان مسحورا بوعي كونراد بأنه أسيرٌ للكتابة، مربوطٌ إلى المنضدة كالعبد، وأنه مضطر إلى نحت الكلمات ليخلق شيئا شبيها بالتجارب الإنسانية التي لم يكن يُتَوَقَّع من أبناء جلدته أن يفهموها تماما. لقد بدا الأمر على هذا النحو على الأقل في أوائل سيرة سعيد المهنية لأن كتابته أصبحت – على نحو قريب من موتسارت – أقرب إلى نقل الكلام عن مصدر ما لأن الكلمات صارت تأتيه بكل سهولة[47].

هذا التعلُّق بكونراد لا يبدو على هذا القدر من الوضوح إلا إذا تجاهلنا الاختلافات. إذ يرى سعيد أن كونراد كان إمبريالي النزعة، متشائما، كارها للبشر[48]. وفي مقابلة أُجريت مع سعيد في تاريخ لاحق وضَّح سعيد هذه النقطة: «كان كونراد ينتمي إلى الحداثة في ذروة مسارها، وكان عمله ينصب على إستطيقا التجربة أو بالأحرى على تحويل التجربة الإنسانية إلى موضوع إستطيقي... وأنا أرى أنه نقيضي من نواحٍ عديدة»[49]. كان صريحا على نحوٍ مدهش حول هذه القضايا الحسّاسة، بشكلٍ يشبه الحوار الذي جرى بينه وبينَ كونور كروز أوبراين Conor Cruise O'Brien وآخرين في سنة 1986، وهو حوار وصفه فيما بعد بأنه عراك فكري: «قلب الظلام» Heart of Darkness ليس كتابا عن الإمبريالية فقط، بل هو كتاب من الإمبريالية نفسها... صيغَ الكتابُ، بشيء من الفراغ، عن تخلُّف الأهالي والسود[50].

كثيرا ما انجذب سعيد، لكتّابٍ بدا أنهم لا يناسبون ذوقه أو آراءه السياسية، فامتدح سْوِفْت المساند للملكيةً وليس وِلْيَم بْلَيك William Blake المعادي للاستعمار وصاحب الأشعار الرؤيوية visionary (وكان سعيد يعشق أشعاره، وكثيرا

ما أنشدها لأصدقائه[51])، وفضَّل كونراد ذا المواقف السياسية المشكوك في أمرها على ر. كَنِنْغَم غْرِيَم R. Cunningham Graham، وهو كاتب اشتراكي متمكِّن (قارن سعيد نفسه به) بصفته القوّة المضادّة لموقف كونراد السوداوي من الروح الإنسانية[52]. لقد مثَّل الروائي البولندي كل شيء كان سعيد يكرهه: السواد الأخلاقي من دون مسؤولية، الإحساس بأن أوروبا هي منارة العالم الوحيدة، بولندا بصفتها موقعا غربيّا متقدِّما ضدّ وحدة الشعوب السلافية. كل هذه الآراء كانت في نظر سعيد مشابهة لأيديولوجية مالك القائلة إن مسيحيّي لبنان يمثلون خلاص العالم من الجحافل الإسلامية[53].

ولكن حتى كتّاب اليمين السياسي يمكنهم، كما لاحظ سعيد، أن يكونوا «مبدعين في استخدام اللغة، وأن يكونوا شهودا قلقين على التيارات السائدة في زمانهم». وقد ساعد ذلك على انتشار الولاءات المنحرفة[54]. كان قلبه ميالا لسارتر، ولكنه وقف سنواته المبدعة الأولى لميشيل فوكو، المناهض لسارتر. وأحبّ دروس ڤيكو، ولكنه أقرَّ بأن ڤيكو كان مغرورا، سريع الغضب، كريها[55]. وألمح فيما بعد إلى أن استمتاعه بالحداثي البولندي العظيم، على رغم تردُّده، يعود إلى اتّفاقه مع نيتشه في الاهتمام بالمفارقات الشخصية الإنسانية على رغم أن سعيد لا يقدِّم أدلَّة على أنه قرأ أعمال نيتشه كلها أو أنه درس أيّ جزء منها دراسة نصِّيَّة عن كثب (باستثناء ما يحصل عليه طلبة الدراسات العليا من معرفة سطحية)[56].

وسواء جاء الأمر بالغريزة أو بالتخطيط المسبق فإن سعيد أصبح من أتباع الغموض. ويبدو أنه فهم هذه الحركة من جانبه باعتبارها صيغة من فكرة بلاكمر الخاصة «بالأداء» في الأدب، بنقدٍ «غير واثق من استنتاجاته، مستعدٍّ باستمرار لأن يكون وحيدا، منحصرا، لم يأت من مؤثِّرات خارجية، ولا يُنتج أتباعا» على رغم أن تردد بلاكمر كان يثير أعصابه هو وحركاته الخفية. فقد طالب بأن تكون للمرء معتقدات خاصة به[57]. كان يحاول في كل الحالات أن يحقق طعم النظرات العابرة، وليدة الظرف الآني في نقد بلاكمر الناتج من الحديث العابر الذي يسود فيه «مبدأ عدم اليقين، مبدأ العلاقات التكميلية المتنوِّعة».

كانت كلمة «ديالكتيكي» بلغة أقدم مقالات سعيد قد غدت هي الراية التي تعمل تحتها هذه الأفكار النقدية، ونحن نجد هذه الكلمة في جميع كتاباته المبكِّرة.

ففي محاضرة ألقاها عن وليم بتلر ييتس W. B. Yeats في العام 1971 قال إن كلمة dialectic تعني له عدم السير في تسلسل منطقي مستقيم بل في صور متتابعة تستثير صورا جديدة بدورها(58). ولكنها لم تكن مجرَّد دعوة إلى الانفتاح الفكري. فقد كان يبحث عن لغة بإمكانها أن تستوعب فلسفات غير متوافقة من دون أن يبدو أن لها صلة بالفلسفة.

كانت هنالك أسباب أخرى للنظر في هذا الانفتاح. ففي كولمبيا احتفظ بهويته الفلسطينية لنفسه في البداية. ولذا انتشرت شائعة عند وصوله تقول إن قسم اللغة الإنگليزية عيّن يهوديّا إسكندريّا(59). ولذا فإنه وجد في كونراد رجلا نجح من بين ما نجح فيه في إخفاء نفسه. وعندما حوَّل أطروحته إلى كتاب (ظهر تحت عنوان «جوزيف كونراد وروايات السيرة الذاتية» Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography في العام 1966) ألمح إلى أن هوسه بكونراد كان يستند إلى حقيقة أنهما كانا مغتربين في عواصم العالم الإمبريالي في زمانهما، وأن كلّا منهما يخفي تضادّا داخليا: «كان هنالك كونرادان: أحدهما كونراد المنتظِر، الكاتب المهذب الذي يسعى إلى إمتاع القارئ، أما الثاني فهو شيطان غير متعاون»(60). ومع مرور الوقت سيعبِّر سعيد عن المقارنة بشكل أوضح: «عندما بدأت بالتعليم في كولمبيا... عوملتُ كأنني شخصان... مدرس الأدب والشخص الآخر الشبيه بدوريان غْرَي Dorian Gray(*) الذي عمل تلك الأشياء التي لا يجوز ذكرها»(61).

ليس ثمَّة من شيء مفاجئ إذن في أنه يشير إلى نفسه في قصيدة كتبها سنة 1960 بأنه «كاتب شعر رثائي لعوب، صيغة عربية من تِلْ»، حيث يشير إلى تِلْ يولنشبيغل، وهو مخادع ألماني من القرون الوسطى، يخدع زملاءه فيما هو يؤدي دور الأحمق، ويفضح عيوبهم وطمعهم ونفاقهم. ولذلك فإنه شعر بأن من الضروري في كتابه عن كونراد أن يأتي بأسلوب نثري يكون مفهوما على مستوى المفردات والتراكيب النحوية، ولكنه ممتلئ بالمعاني المضمرة والتلميحات. وكما قال عن دوافعه فيما بعد: «حاولت دائما أن أطوِّر أفكاري أكثر بطرق تجعلها عصيّة على الفهم وعلى الصياغة بشكل مختلف»(62).

(*) بطل رواية أوسكار وايلد «صورة دوريان غْرَي» The Picture of Dorian Gray. [المترجم].

لقد بدا أن القضية الأساسية في كتاب سعيد عن كونراد هي عرضه آليّات التأليف، الحضور الفعلي لشخص معيَّن في العالِم يباشِر اختراعَ نفسه. هذه القضية، بالإضافة إلى الاستقصاء المألوف لموضوع النفي والاغتراب (وهذا موضوع حداثي مألوف)، جعلا القرّاء يشعرون بأنهم في عالم التقاليد المألوفة في الأدب. لكن سعيد كان في الواقع يتعامل مع ادّعاء البنيويين الفرنسيين بأن التأليف لا وجود له في الحقيقة لأن كل الإبداع والاختيار الظاهرين يقعان في الواقع تحت رحمة نظام كامل من القواعد النحوية والوظائف الدلالية؛ وهو ما يدعى باللغة الفرنسية «اللغة» langue(*). أما البنيويون في المقابل فقد استعملوا مصطلح «الكلام» parole ليدلَّ على مجموعة من أفعال الكلام، لاسيما تلك التي يقوم بها المتكلِّمون العاديّون، وهي التي لجأ إليها سعيد كما بيَّنّا. وإذا ما قيل إن المؤلِّفين يبتكرون عملهم وبذلك يمكنهم التحكُّم به، فإن البنيويين يقولون إن المؤلِّف مات. ذلك أن المعنى تحدِّده مسبَّقا بنى لغوية متوارثة.

أدرك سعيد أن الإكثار من التجديد قد يزيد على حدِّه، لذلك فإنه أعطى الانطباع بأن أصالة أطروحته ارتكزت على رسائل كونراد أكثر من ارتكازها على رواياته. وقد بدا أن هذا التغيير الثانوي كان مقبولا. وغاب عن كثيرين أنه اختار جنسا من الكتابة (الرسالة الشخصية) يغلب فيه «الكلام» parole على «اللغة» langue. كذلك كان ثمة دافع نفسي كامن خلف ذلك الخيار، ذلك أن الكتاب كان أيضا وسيلة للغوص في «ديالكتيك شخصي» مؤلم معروف كما كان يفعل هو أيضا[63]. وقد ألمح إلى أن رسائل كونراد تحتوي على شهادة «غنية إلى درجة محرجة» على حياة فكرية تقوم على قصة بيولوجية من صُنع الخيال[64]. فقد كان كونراد أيضا قد «استعمل البحر ليكون مرآة تعكس صورا عنه لجمهور القرّاء لاستقصاء دلالاتِ ما كثيرا ما دعاه غربته»[65]. غير أن سعيد اشتكى من دون وجه حق (لأنه عمل كل ما في وسعه للخروج بهذه النتيجة) من أن مراجعي الكتاب لم تكن لديهم أي فكرة عما كان يحاول فعله على رغم أنهم كانوا إيجابيين في أغلب الأحيان[66].

(*) أي اللغة بصفتها نظاما مجرَّدا، وهي تقابل «الكلام» parole، أي اللغة المستعملة للتواصل اليومي. [المترجم].

كان «البنيويّون» متنوِّعين، ولم يكن أيٌّ منهم يشبه الآخر تماما. وقد أبرز سعيد اختلافاتهم على نحو خاص في تأملاته ذات الأهمية البالغة حول البنيويَّة في مقالته المعنونة «ألفباء الثقافة: البنيويَّة، الغياب، الكتابة» Abecedarium Culturae: Structuralism, Absence, Writing (1971)، وهي مقالة اقترحها في الأصل لجريدة «النيويورك تايمز»، وأكسبته شهرة واسعة في الدوائر الأكاديمية. ولكنهم جمعتهم أهداف مشتركة كما أشار جيل دولوز عندما وصف ما اشترك به ميشيل فوكو مع معاصريه:

> تدميرٌ باردٌ منظمٌ للموضوع، كراهيةٌ شديدةٌ لفكرة الأصل، والأصل المفقود، والأصل المستعاد، وتفكيكٌ للتركيب المزيَّف الموحِّد للوعي، ورفضٌ لكلِّ محاولات تغليف التاريخ بهالة من الأسرار باسم التقدُّم، والوعي، ومستقبل العقل[67].

ومن العلائم الصغيرة على ميل سعيد إلى المشاكسة أنه نصح أصدقاءه بقراءة دولوز، وقال لهم إنه كان يكثر من قراءة أعماله أخيرا مع أن كل هدف من الأهداف التي كان دولوز يدعو إليها كانت تتعارض مع آرائه[68].

أصبحت البنيوية بعد عقد مؤتمر جامعة جونز هوپكنز في العام 1966 أقرب إلى قوَّة خفية هائلة بين ليلة وضحاها، وساد شعور بين النقّاد والكتّاب الطلائعيين بأن أنموذجا جديدا كان في طور التشكُّل، تحوّلا كوپرنيكيّا في التفكير حول مركزية اللغة في كلِّ المعاني السياسية والاجتماعية. وقد وجد سعيد أن هذه المشاعر الآخذة بالظهور آسرةٌ ليس فقط (تأسِّيا ببلاكمر) لأن الفلسفة الأوروبية آخذة بالتنامي في مقابل الأفكار المحلِّية الأمريكية، بل أيضا لأن «النظرية» لم يعد بالإمكان الاستهانة بها على أنها لعبة تتسلّى بها النخبة التي تقضي حياتها بين الكتب. فهي على العكس تتكلَّم بثقة وبلهجة التمرُّد عن قضايا السلطة، والتواصل، والمعنى التاريخي، وبذكاء نفّاذ ما عاد بإمكان أحد أن ينظر إليه من علٍ.

وجد سعيد نفسه منجذبا لتمرُّد البنيوية، ولكنه لم يكن على استعداد للتخلّي عن التاريخ والتقدُّم، فحاول التوفيق بين الجانبين. وعندما أنعم النظر في روايات كونراد فإنه لم يجد فيها، كما وجد الآخرون، الصيغة الرومانسية التي تقول إن المؤلِّف يخترع عالما خياليّا. أما هو فكان من رأيه أن المؤلِّفين يخترعون أنفسهم في عملية الكتابة[69]. وهذا يعني أن وجود الكاتب في العالم يعتمد إلى هذا الحدّ على الكتابة. ولكن كانت

هنالك مؤثِّرات أخرى. فقد كان يكمن في هذه الصياغة للفكرة اهتمام مالك الأقدم بالأساس الذي تقوم عليه التجربة اليومية – دنيوية وجود المرء (Dasein) – وهي فكرة خلَّفها فيه أستاذه السابق، الفيلسوف هايدِغر. لكن خلق الذات هذا كان في حالة كونراد خلقا مراوغا (وفق ما يقوله سعيد)؛ فقد غيَّر شخصيَّته بارتداء «أقنعة غريبة الشكل»، وهذا ما عدَّه سعيد هدف كونراد الرئيس[70].

وجَّهَ سعيد، بهذه الروح، كثيرا من الانتقادات إلى البنيوية في كتابه عن كونراد. فقد قال مثلا «إن الأسلوب... والنحو» عند كونراد يجب أن يفهما «بالمعنى الفيزيائي الخالص» وإن معنى ذلك أنه يجرِّد اللغة من الاستقلال الذي أرادت البنيوية أن تمنحها إيّاه[71]. وفي موضع آخر أشار باستهانة إلى البنيوية بوصفها «صناعة فكرية ثانوية في فرنسا»، واشتكى من أنها قد تكون ساحرة، ولكنها تثير الأعصاب[72]. وأغدق المديح على ليفي-شتراوس، مؤسس الحركة إلى جانب رومان ياكبسن، فيما هو ينبش الأساس الذي قام عليه فكره.

كان سعيد، على عادته، مهتمّا باللغة بوصفها كلاما، ولم يكن يحفل بالخروج باستنتاجات رهيبة عن عجز الأفراد عن التصرُّف وعن التعبير عما يقصدون على أساس طغيان اللغة المكتوبة. وقد وجد حليفا بالدراسات اللسانية الساحرة التي اضطلع بها إميل بِنْفِنيسْت Emile Benveniste في كتابه «مشكلات اللسانيات العامَّة» Problemes de linguistique generale (1966) الذي قام على أساس أن الناس فاعلون تاريخيون وأنهم أشخاص مكتملون، وذلك في مقابل البيئة الفكرية الفرنسية السائدة التي كان يسودها آنذاك - مثلما يسودها في الوقت الحاضر - الفكر ما بعد الإنساني Posthumanism لكلٍّ من نيتشه وهايدغر.

يكثر البنيويّون من استخدام كلمة subject التي استمتعوا بما فيها من تورية. فقد عكست الكلمة ما دعاه فرويد «بالمعاني المتعاكسة لبعض الكلمات الأساسية»(*)، من حيث إنها تشير إلى فاعل الفعل (كما في قولنا «فاعل الجملة» subject of a sentence) والخاضع للحاكم (كما في قولنا «أحد أفراد الرعية الخاضعة لحكم الملكة» the queen's subject). ولذلك فإنها كانت مفيدة للبنيويين من حيث

(*) Antithetical meaning of primal words.

إيحائها بحرِّيَّة مفترضة ولكنها من صنع الخيال في الواقع. نحن نتخيَّل أنفسنا مواطنين واعين، فاعلين في التاريخ، أفرادا، بينما تجبرنا قواعد اللغة على الخضوع لأنماط متوقَّعة من السلوك، وتجعل بعض الأفكار وموضوعات النقاش مستحيلة منذ البداية.

كان بِنْڤِنيسْت (وهو من اليهود السفرديم)، مثل سعيد، مهاجرا من الشرق الأوسط. ولد في سورية في عهد الانتداب الفرنسي، وانتقل إلى مرسيليا للالتحاق بالدراسات العليا. وقد جاء بتمييز مشهور بين المقول enonce (statement) والمنطوق enunciation (utterance)؛ أي بين ما يقال وكيفية قوله. وباستعمال فكرة عن اللغة لا تبتلعها البنى ونظم الرموز الشاملة، بل تخضع لما يطرأ في أثناء تبادل الحديث، كان من رأي بِنْڤِنيسْت أن الأدب نوع من الكتابة التي تعتمد على القول المروي [على عكس القول المباشر][73]. وقد استغل سعيد هذه الفكرة واستعملها للتخفيف من أثر تهجمات البنيوية غير المرحَّب بها على صنع التاريخ والقدرة على الفعل.

غير أن أشدَّ حلفائه تأثيرا في هذه الأمور كان المفكّر الذي يتجاهله قرّاء سعيد مع أن أهميته يصعب تأكيدها بما يكفي. فكتاب لوسيان غولْدْمان بعنوان «الإله الخفي» لم يكن مجرَّد دراسة مرهفة الأسلوب لشخصيتين متناقضتين من شخصيات عصر التنوير (عالم الرياضيات والفيلسوف بليز پاسكال Blaise Pascal وكاتب المآسي جان راسين Jean Racine الذي ينتمي إلى عصر الكلاسيكية الجديدة)، بل كان محاولة طموحة (وإن كانت مقنَّعة) لصنع بدائل للبنيوية التي كانت تهيمن على المشهد الفكري الفرنسي[74]. كان غولْدْمان، وهو ماركسي من رومانيا يكتب باللغة الفرنسية، ويعدّ نفسه تلميذا لغيورغ لوكاتش Georg Lukacs، قد صار يعني الكثير لسعيد في منتصف الستّينيات، وذلك في جانب منه لأنه ساعد في تقديم لوكاتش إلى الجامعات الأمريكية. وقد أعطى غولْدْمان لسعيد الوسائل لتخفيف أثر مقتبسات مالك من هايدغر، ولتقريب انشغالات ذلك الفيلسوف من صراع الأحداث الجارية.

أما التعليق الجانبي في كتاب «خارج المكان» الذي قال فيه سعيد إنه في كلية الدراسات العليا «كان غارقا في دراسة كونراد وڤيكو وهايدِغر» وإن هؤلاء

الثلاثة ظلّوا مهمين في حياته الفكرية فأمر يثير الحيرة في بادئ الأمر[75]. فالاثنان الأولان موجودان في كلّ مكان من كتاباته، أما هايدِغر فلا يُذكر إلا ذكرا عابرا، سلبيّا عادة، ثم بلهجة استهانة مع مرور الوقت[76]. لكننا نجد أن سعيد في بدايات سيرته المهنية ينحي باللائمة على النقاد لأخذهم عن هايدِغر من دون اعتراف، وهذا يوحي بمعرفة وثيقة بأعماله، وفي العام 1968 دُعي من قبل جمعية الفينومينولوجيا والفلسفة الوجودية إلى حضور مؤتمرها السنوي في جامعة نورثْوِسْترْن Northwestern، وهو ما يعني أنه كانت له سمعة في الحقل[77]. وهو بالفعل يخصص صفحة من أواخر صفحات رسالته عن كونراد لإشارة من إشاراته القليلة إلى هذا الفيلسوف في أعماله[78].

غير أن ما يدين به سعيد لهايدِغر أو لا يدين مهمٌّ لأسباب كثيرة. فالحضور الملموس لأفكار هايدغر في النظرية الفرنسية في عقدي الستّينيات والسبعينيات – التحوُّل مثلا إلى مسائل الوجود بدلا من مسائل المعرفة، والنظرة القائلة إن الإنسانية شكل غير أصيل من أشكال الوجود، والمذهب القائل باستحالة ترجمة اللغة (وهو ما يعني أننا مسجونون في ثقافتنا الوطنية ولا نستطيع الفكاك منها – يبدو أنه يتعارض مع تدخُّلاته نقطة بنقطة. ولذلك فإن سعيد شكا «من مصير هايدِغر الصابر والموجع داخل اللغة»، وهو مصير يجعل تلامذته يقبلون الثقافة بدلا من «التمرُّد عليها»[79]. والأشيع من ذلك ملاحظته في أثناء روايته لأحداث أمسية قضاها مع جان جينيه Jean Genet حول كونه مندهشا من ملاحظة أن الناشط جينيه دعا دريدا «صديقا» لأن سعيد افترض أن دريدا لم يكن سوى «مسالم هايدِغري في ذلك الوقت»[80]. غير أن التيّارات الهايدِغرية الخفية تبقى مع ذلك حقيقية، على رغم أنها قد يُساء فهمها.

فبينما استخدم غولْدْمان ليكون خصما فإن هايدِغر الذي استخدمه كان هايدِغر الخاص بجان پول سارتر الذي تفوَّق على الفيلسوف في كتابه «الوجود والعدم» (1943) Being and Nothingness. ففيه حوَّل الموقف المناهض للفلسفة الإنسانية إلى ضدِّها، وفعل ذلك على أساس حرِّيَّة الفرد ومسؤوليَّته الأساسية؛ أي على عكس ما أراده هايدِغر. وأصبحت كلمة «الوجود» بصفتها حالة أو صفة للأشياء هي شروط التجربة التاريخية (وهنا أيضا بقصد إفساد المعنى الهايدِغري

الأصلي). ومن هنا فإن سعيد يدعو في دراسته عن كونراد إلى منهج سايكوغرافي، أي منهج يقوم على وصفٍ تاريخي لنفسية الشخص، وليس إلى منهج تحليلي نفسي في النقد؛ لأن المنهج التحليلي النفسي كان ينحو إلى طمس الذات في متاهة من الأعراض التي لا تفيد[81].

هذا الغوص في الفلسفتين الفينومينولوجيَّتين لكلٍّ من إدمند هوسيرل وسارتر كان ضروريّا من وجهة نظره لكشف الضعف الأساسي في الدراسات الأدبية التي كانت تجري في ذلك الوقت، وهو أنها عدَّت الأدب أمرا مسلّما به[82]. أما هو فقد أراد أن يجعل من مصطلح «الأدب» مشكلة، وكان معنى ذلك، من بين أشياء أخرى، توسيع مداه توسيعا كبيرا جدّا. وقد انعكس ذلك المدى في ملاحظات مكتوبة بخط اليد لمادة عن اللغة كان يدرِّسها على نحو متكرّر في أواخر الستّينيات، وكان لا يجمع فيها نظرياتٍ مختلفة فقط بل يجمع أيضا أنماطا من التفكير في حقول دراسية مختلفة – العلامة اللاتيني ڤارو Varro(*) (أحد «شيوخ» ڤيكو)؛ عالم اللغة الأحيائي Biolinguist چومسكي؛ النحوي الدانيماركي أوتو يسپرسن Otto Jespersen؛ اللساني البنيوي فردنان دي سوسير؛ وعددا من المعجميين العرب[83].

كانت قراءات سعيد في الفينومينولوجيا والوجودية والتحليل النفسي واسعة، ولكن ولاءاته كانت سطحية. تعلَّم قدرا هائلا من هذه الطرق الدراسية، ولكنه حافظ على استقلاله، إذ إن ما كان يهمُّه هو الطريقة التي تخلق بها الأعمال الفنية «في بيئة كاملة». فبينما كانت هذه الحركات النظرية تكتسب حظوتها كان هو يبحث عمّا يمكِّنه من خلع القيود التي يفرضها نقدٌ يقوم على قراءة الروايات والقصائد فقط. لذلك فإنه – كما اعترف في وقت لاحق – كان يستعمل مفرداتها «بلا خجل»[84]. غير أن تعلُّقه بأعمال سارتر كان أبعد وأعمق لأن أسباب ذلك التعلُّق، والانسحاب منه فيما بعد، كانت سياسية وفكرية.

لم يكتب سعيد إلا أقلَّ القليل عن أعمال سارتر باستثناء إشارات عابرة في كتابه عن كونراد، غير أنه ظلَّ مشغولا بكتاباته، وبخاصَّة من بداية التحاقه بكلية الدراسات العليا حتى أوائل الثمانينيات. وكان الانجذاب طبيعيا من بعض النواحي.

(*) يلفظ الاسم وارو أيضا. عاش ما بين 116-27 قبل الميلاد. قيل إنه ألّف أكثر من 600 كتاب في مختلف فروع المعرفة. [المترجم].

فقد كان سارتر يتمتع بشهرة واسعة بين المثقَّفين العرب، وكان مفهومه المعروف بـ engagée littérature قد تُرجم بعبارة «الأدب الملتزم» وعبارة «أدب الالتزام» في كتابات الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني[85]. وكانت مواقف سارتر المعادية للاستعمار باستمرار، وانفتاحه نحو النظم الاشتراكية القائمة، ومقدِّمته الشهيرة لكتاب فانو «معذَّبو الأرض» قد دفعت سعيد إلى أن يدعوه في يوم ما بأنه «واحد من عظماء المفكِّرين في القرن العشرين، رجلٌ كانت نظرته النافذة ومواهبه الفكرية موقوفة على خدمة جميع القضايا التقدُّمية في زماننا هذا»[86]. وكان سعيد قد التقى بسارتر مدة قصيرة في محكمة رَسِل لجرائم الحرب في العام 1966، وصرَّح لأصدقائه عن تشوُّقه للتعرف على الرجل شخصيّا. وكان ذلك أمرا يسهل ترتيبه من خلال مجلة «مراجعة اليسار الجديد» New Left Review التي كانت في السبعينيات قريبة منهما، ولكن على رغم كلِّ ما كان يتمتع به سعيد من رغبة في إنشاء علاقات جديدة فإنه لم يقم بالمبادرة[87].

على أن إعجاب سعيد اضمحلّ اضمحلالا ملحوظا بعد المديح الأوّلي للعدد الخاص الذي أصدره سارتر من مجلة «الأزمنة الحديثة» Les Temps modernes في يونيو من العام 1967 وخصّصه للصراع العربي - الإسرائيلي. وحتى في ذلك الوقت لم يكن تدخُّل سارتر ناجما عن موقفه المناهض للاستعمار الذي توقَّعه سعيد من الرجل العظيم، ذلك لأن الفيلسوف لجأ إلى توازن كاذب عندما عبَّر عن أسفه لأن بطلين من أبطال التاريخ الحي جلسا جنبا إلى جنب في الشرق الأدنى، وكلٌّ منهما عاجز عن لقاء الآخر إلا بصفته عدوّا[88]. وفي نهاية المطاف لم يكن سعيد قادرا على أن يغفر لسارتر دعمه لإسرائيل، وفي مقالة متأخِّرة نشرها في مجلَّة «مراجعة لندن» The London Review في العام 2000 قدَّم سعيد صورة حلوة مُرّة للرجل الذي أنهكته السنون، صورة ممتلئة بالأسف على الفرص الضائعة، وروى فيها قصة لقاءٍ ثانٍ مع سارتر في شقة قليلة الأثاث تعود إلى الفيلسوف الشهير ميشيل فوكو في العام 1979 حيث التقت مجموعة من مشاهير المدعوّين (بمن فيهم سعيد) حيث عقد لقاء حول طاولة مستديرة عن فلسطين[89]. كان سارتر قد أنهكته السنون ويحيط به عدد من أتباعه المؤيدين لإسرائيل، وظلَّ صامتا معظم الوقت إلى أن أخجله سعيد بأن طلب منه الكلام، فلم يصدر منه سوى كلام عامٍّ تافه.

غير أن سعيد تمسَّك بشخص غير سارتر من البيئة الفرنسية نفسها هو موريس ميرلو-پونتي Maurice Merleau-Ponty الذي عمل هو وسارتر وسيمون دي بوڤوار على تحرير مجلّة «الأزمنة الحديثة» ذات التأثير الواسع، والذي أصبح في الواقع بديل سارتر. وبصفته مؤلِّف كتاب «فينومينولوجيا الإدراك» Phenomenology of Perception (1945) فإنه يكون قد قدّم أرضية وسطى بين انخراط سارتر الصريح في قضايا العِرْق، والطبقة، والعداء للسامية، ومناهضة الاستعمار من ناحية، والانسحاب غير السياسي من قضايا مثل تعامل البنيوية مع الطبقات الخفية من اللغة؛ أي انشغالها خارج الزمان مع الأنماط اللغوية المنفصلة عن أي معنى مقصود. لقد قدَّم ميرلو-پونتي ما دعاه سعيد «جنسا ثالثا من الوجود بين الذات الخالصة والموضوع»، ورؤية اللقاءات الإنسانية على أنها لذلك أشكال من التجسُّد[90].

لم يكن ميرلو-پونتي يخشى اتِّخاذ مواقف سياسية، ولكنه كان أشدَّ انتقادا للحركات الشيوعية من سارتر، ولذلك كان مقبولا أكثر من سارتر لدى اليسار. وتأثيره في فكر سعيد لا يمكن إنكاره. واستعارته لمصطلح «القصدية» Intentionality من هوسيرل، أبي الفينومينولوجيا، حوَّلها سعيد في كتابه اللاحق «البدايات» إلى عبارة «الإرادة والقصد» Will and Intention. كذلك فإن كلمة «الدنيوية» Worldliness، وهي من المصطلحات الأساسية عند سعيد، لا شكَّ في أنه استعارها من كتاب إرخ أورباخ «دانتي: شاعر العالم الدنيوي» Dante: Poet of the Secular World[(*)] (1929)، حيث يمكن ترجمة الكلمة الألمانية irdische (أرضي، مستند إلى الأرض) بكلمة secular أو worldly، وهي كلمة وجدت طريقها إليه أيضا من الترجمة المعتادة عند ميرلو-پونتي للفكرة التي يعبِّر عنها هوسيرل بكلمة Lebenswelt (أي عالم الحياة life-world). وقد أكَّد ميرلو-پونتي الطبيعة الدنيوية للذات التي هي في نهاية المطاف وفوق كل شيء جسد فيزيائي [أي طبيعي]. وقد انخرط سعيد إلى جانب ميرلو-پونتي في معركته

(*) كلمة «الدنيوي» secular هنا صفة لكلمة «العالم». وفي اللغة الإنكليزية تُفهم كلمة secular على أنها نقيض للديني أو الروحاني. أما عند سعيد فإن الصفة wordly والاسم worldliness يشيران إلى هذا العالم الذي نعيش فيه للتأكيد على الواقع في هذه الدنيا دون الإيحاء بالنقيض، أي الديني والروحاني. أما كلمة «علماني» في مقابل secular فهي اختراع حديث لا أراه موفّقا. [المترجم].

ضدَّ «الفكر ذي الاتجاه المطلق» la pensée de l'absolut، بتأكيد الغموض وأن الحقيقة تخضع للظروف.

هذه المصادر كلها كافحت لأن تتكلَّم بين الأسطر في كتابه المتواضع عن كونراد، ولكن كان هنالك مصدر آخر. فقد كان سعيد يتصدّى في الوقت نفسه لعملاق الفكر البنيوي، ألا وهو مؤسِّس الحركة في أذهان معظم الناس: عالم الأنثروبولوجيا كلود ليڤي-شتراوس Claude Levi-Strauss. ففي مقالة من أهمِّ مقالات سعيد المبكِّرة عنوانها «طغيان الفكر» The Totalitarianism of Mind (1967) (وهي بلا شكّ أبعدها تأثيرا)، قارن سعيد بلهجة ساخرة نظرية ليڤي-شتراوس عن «قانون الفكر mind... بقوانين الفكر thought العلمي المعاصر»(*)[91]. ولم تكن تلك المقارنة من قبيل الإطراء. كان ليڤي-شتراوس أحادي الجانب في إيمانه بالمنطق العلمي، وأشد يأسا حتى من كونراد في اعتقاده أن البشر نوع من الأحياء يسمِّم البيئة بسموم الحداثة، وبذلك كان مثالا على الفكر intellect المتصلِّب.

غير أن سعيد، بما عُرف عنه من عناد ومشاكسة، ما كان في إمكانه غير أن يعبِّر عن إعجابه بأوصاف ليڤي-شتراوس «الألمعية ذات الصبغة الشاعرية لممارسات الأهالي الأصليين في جميع أنحاء العالم»[92]. وعلى رغم كلِّ ما في دراساته للأساطير القديمة من استعلاء فإنها كانت، من بين أمور أخرى، علاجا لِشَرَك الهوية الشخصية. وقد شعر سعيد بأن طريقة ليڤي-شتراوس المتغطرسة «ابتلعت عمله»[93] في أثناء محاولته تفسير الاختلافات الثقافية الضخمة بواسطة أنماط من النظم المتكررة في جميع أنحاء العالم. ومع هذه المغامرات في حقلي الفلسفة الوجودية والفينومينولوجيا سرعان ما أخذ سعيد يعرف بأنه رسول «النظرية» على رغم أن تلك الفكرة أرعبته[94]. وبعد سنة واحدة أو أكثر قليلا تحوّل من مدعوٍّ مراقِبٍ في مؤتمر جامعة جونز هوپكنز إلى مشارك على المنصَّة مع پوليه Poulet، ودريدا، وهانس-غيورغ غادامر Hans-Georg Gadamer في ندوة في زيورخ عنوانها «نظرية التفسير الأدبي وممارسته»

(*) قد تعكس هذه الترجمة جانبا من مشكلة المصطلحات في العلوم الإنسانية وفي العلوم الطبيعية. فكلمة «الفكر» استخدمت مقابل كلمتين مختلفتين في اللغة الإنگليزية، وفي اللغة العربية كثيرا ما تترجم كلمة mind بكلمة «العقل» التي تستخدم أيضا ترجمة لكلمة intellect التي سترد بعد قليل. ويبقى الأمل في أن السياق قد يوضح الفرق إن وجد. [المترجم].

The Theory and Practice of Literary Interpretation (1968). لقد أصبح الآن في أذهان كثير من الناس الوجه الأكاديمي للنظرية نفسها.

***

في أثناء تحرُّكه نحو مركز الحياة الأكاديمية بين العامين 1963 و1968 حدثت حادثتان دمَّرتا شعوره النسبي بالأمان. كانت الأولى هي كارثة «حرب يونيو» أو «حرب الأيام الستة» في العام 1967 (التي دعتها الصحافة العربية بالنكسة)، وهي حربٌ مثّلت إشارة إلى بداية احتلال إسرائيل لكل الأراضي الفلسطينية مع نية البقاء فيها إلى الأبد. أما الحادثة الثانية فكانت انهيار زواجه الأوَّل في السنة التالية على رغم أنه رفض الطلاق حتى العام 1970. وأدّى انقلاب مثقَّفي نيويورك إلى اليمين بعد حرب العام 1967 إلى اتساع الهوّة بينه وبين الجماعات التي كان يتقرَّب منها. وبينما كانت مجلة Dissent لا تنشر الكثير عن إسرائيل قبل العام 1967 باستثناء إشارات ساخرة إلى القوميين المتعصبين اليهود فإنها انقلبت فجأة إلى مجلَّة صهيونية متعصّبة. وقد لاحظ چومسكي أن «إرڤنغ هاو Irving Howe بلغ من التطرُّف حدّا جعل الصحافة الإسرائيلية تسخر منه»[95]. وأخذ أناس لم يُعرَف عنهم تأييد إسرائيل يؤيدونها مع أنهم كانوا يناهضون حرب ڤييتنام.

وفي حادثة أقلَّ قتامة، تمكَّن الفلسطينيون المحلِّيّون في معركة الكرامة التي حدثت في العام 1968 من إثبات قدرتهم على الصمود أمام القوة الإسرائيلية الغازية. وفي تلك السنة توقَّف في لبنان لزيارة أبيه المريض، ومكث في بيروت مدَّة أسبوع[96] قبل مواصلة السفر لحضور مؤتمر زيورخ حيث ساعده پول دي مان Paul de Man في الوصول إلى مسكنه. وبعد ذلك بمدَّة، وفق ما يذكره سعيد، «كنت في عمّان في العام 1969 ثم في سنة 1970... بصفتي زائرا، ولكن أيضا بصفتي مشاركا مبتهجا باليقظة القومية التي شاهدتها»[97]. وقد شاهد «جزءا من مرارة أيلول الأسود وعنفه في العام 1970 عندما أدّى التوتُّر بين منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في الأردن والقوات الأردنية إلى خسائر كبيرة في الأرواح على الجانبين»، ولكنه أدّى أيضا إلى منجزات مؤسَّسية مهمَّة، أهمُّها ازدياد حضور منظمة التحرير الفلسطينية نفسها على المستويين الإقليمي والدولي[98].

لكن لم يكن اهتمام سعيد بالسياسة حتّى قبل العام 1967 على تلك الدرجة من الضعف التي حسبها الكثيرون، فحكاية هَجْرِهِ عالم السياسة، كما رأينا، كانت في جانب منها من صنعه هو، تعبيرا عن أسفه لأنه لم يكن منخرطا فيه أكثر مما كان، كما عبَّر عن ذلك بلا هوادة في أوَّل تحليل منشور للوضع الفلسطيني، وهو تحليل ظهر في مجلّة خرّيجي جامعة كولمبيا في العام 1969:

> [بعد العام 1948] كنت أقول إنني من لبنان، وقد بلغ ذلك من الجُبْن ما بلغه الامتناع عن قول أيِّ شيء لأن معنى هذا الامتناع هو قولُ شيء قُصِد منه عمدا عدم التحدّي. ومع مضيِّ الوقت حصلتُ على الدرجات العلمية وصرتُ أستاذا جامعيّا... ولكن ذلك لم ينفعني في ذلك الأسبوع الفظيع من يونيو [1967]. كنت عربيّا، وكنا - «أنتم» لمعظم أصدقائي الـمُحْرَجين - نتعرَّض للجلد. كتبتُ رسالة أو رسالتين بليغتين لجريدة «التايمز» (لم تنشرهما) واشتركتُ مع حفنة من العرب الآخرين في جلسات للتفكير الجماعي كانت في الواقع أشبه بالعلاج الجماعي... وبعد جرعة من رثاء الذات كتبتُ مقالة «صورة العربي»[99].

لكن على رغم جلد الذات هذا فإن طلبته يتذكَّرون هذه الفترة من حياته على نحو مختلف جدّا. فبعد انقضاء السنوات الخمس الأولى من التعليم في كولمبيا، لم يكن لدى أحد شكٌّ في أصله. وكان كثيرون ممن عناهم الموضوع يهودا إما بحكم الملاحظة أو لأنهم ينتمون إلى حركة التجديد اليهودية، ومنهم ألَن مِنْتْز Alan Mintz، وديڤد ومايكل سْتيرْن David and Micheal Stern، وديڤد ليمان David Lehman الذي كتب له في العام 1973 ليقول له إنه أهدى له «سلسلة من 17 سونيتة جديدة (قصائد هايكو(*) تتبع النمط 5-7-5)»[100]. وقد وَجَدَتْ تلك المجموعةُ هذا الفلسطينيَّ الذي لم يُخْفِ هويته شخصية ساحرة، فبَحَثَتْ عنه، ووجدت أن من السهل التحدُّث معه عن أي شيء[101]. ولذا فإن مقالة «صورة العربي» التي عرَّفت الجمهور العربي باسمه لم تكن في الواقع أول إعلانٍ عن الانخراط في السياسة حتى لو

(*) نوع من القصائد اليابانية التي تتكوّن من 17 مقطعا وتُرتَّب وفقا للنمط المذكور في النصّ، لكن الشعراء أخذوا يغيِّرون عدد المقاطع أحيانا. [المترجم].

أنها كتبت من قبل. بيد أن إعلانه عن ذلك أشار إلى أنه كان يلتحق بجماعة ثورية ثانية مثلما ارتبط بمجموعة الثوريين اللسانيين في مجال النظرية.

وقد قُدِّر له أن يسعى إلى التوفيق بين الجانبين في إربانا في ولاية إِلنوي عندما حصل على زمالة أمدها سنة كاملة من مركز الدراسات المتقدِّمة للسنة الأكاديمية 1967-1968. وعندما غادر نيويورك للالتحاق بالمركز كان لديه مشروع واضح في ذهنه. كان اسم المشروع الأصلي «سْوِفْت في التاريخ» Swift in History، وكانت مطبعة جامعة هارڤرد قد كلَّفته به، وكان الهدف من المشروع تقصّي الكيفية التي تقدَّم بها الروائي الشاعر الناقد الأيرلندي بنظرات غير متوقّعة في «علم اجتماع المعرفة»[102]. وقد كتب سعيد نصف المشروع في أثناء عمله زميلا في إربانا، ولكنه كان موزّعا أيضا بين هذا المشروع ومشروع مختلف تماما، وهو مشروع اتَّخذ فيما بعد شكل كتاب سعيد الثاني، أي كتاب «البدايات». لكنه نشر قي أثناء وجوده في المركز صيغة مختصرة من كتابه الثاني عنوانها «تأمُّلٌ حول البدايات» A Meditation on Beginnings (1968)، وتبعها بسرعة بمقالتين هما «السرد: البحث عن الأصول واكتشاف الضريح» Narrative: Quest for Origins and Discovery of the Mausoleum (1970) و«التمنُّع، التجنُّب، التعرُّف»Witholding, Avoidance and Recognition (1971)[103].

هنا أيضا كان تأثير غولْدْمان واضحا. وكما بيَّن في مشروعه الأصلي للكتاب (الذي عرف بعنوانين آخرين – «تناسق سْوِفْت» The Coherence of Swift، «سْوِفْت مفكِّرا» Swift as Intellectual): إن كان قد أخذ بعضا من «مبادئه الهادية» في كتابه عن كونراد من نقاد معاصرين من أمثال جان ستاروبنْسْكي ورولان بارْت، فإن اهتمامه هنا «بسبب الأهمية السياسية الخاصة لحياة سْوِفْت»، كان «شبيها باهتمام غولْدْمان الذي أظهر في دراسته المخصَّصة لكلٍّ من پاسكال وراسين التشابه بين عالم السياسة والشكل الإستطيقي لأعمال الكاتب»[104].

فاقت كثافة الإبداع في تلك السنة كثافة أي فترة سابقة. ولا يعني ذلك أنه جازى كرم المركز بالعرفان دائما؛ ففي البداية كان يمدح بحذر: «ليست إربانا بالمكان الجميل – كما أنه لا شكّ في أنك تعلم – ولكنها مدهشة من حيث إنها لطيفة والعيش فيها سهل. المكتبة رائعة (وهي بالتأكيد أفضل من مكتبة كولمبيا)»[105]. وبعد مضي شهر تحوَّل انطباعه المبدئي إلى احتقار:

> حتى إلى ما قبل أسبوع واحد كانت المدينة مكانا يثير الفضول – أقصد من الناحية الاجتماعية. إنها مدينة بالغة القبح، ولكن هذا ينطبق على معظم المدن الأمريكية، ربما باستثناء مدن نيو إنْغْلَنْد. النحّات جونَثَن شان وأنا عملنا سجلّا مطوَّلا يضمّ العبارات المتكرِّرة التي يكثر استعمالها هي والأفكار المسلَّم بها التي تتحكَّم في الحياة: تلك المهنة المضحكة التي لا تنتهي... أرجو المعذرة لهذه القرطاسية الرديئة[106].

لكن هذه القرطاسية هي التي يمكن لقرّاء أوراقه المجمَّعة أن يقرأوا عليها بعضا من أعمق الأفكار التي كتبها في حياته. وعلى الورق الرسمي «المروّس» نجد على بقعة صفراء على شكل شمس وصفا مختصرا لما سيصبح عليه كتاب «البدايات»، إلى جانب كتاب سْوِفْت الذي لن يرى النور[107].

وبما أنه أخذ يشعر بأنه منفيّ إلى المقاطعات البعيدة فإنه أخذ يتابع أخبار البيت، وكتب لجاره في نيويورك جري لُوِنْثال Jerry Lowenthal ليشكو من أن الموسيقى في إربانا كانت «ثقيلة على الطلائعيين الذين يصعب الاستماع إلى موسيقاهم. وكان جون كَيج John Cage عضوا من أعضاء مركز الدراسات المتقدِّمة على رغم أنه غائب معظم الوقت أو يجمع نبات الفطر» (وقد تبجَّح سعيد في وقت لاحق بأنه عزف موسيقى كَيج على آلة البيانو)[108]. وفي رسالة أرسلها لُوِنْثال بعد ذلك بمدَّة قصيرة لتسلية سعيد أخبره فيها عن تناول العشاء في بيت كلاوديو أراو Claudio Arrau، وعن زواج جاكلين دوپْري Jacqueline DuPre من دانْيِل بارِنْبويْم Daniel Barenboim. ولم يكن سعيد يحفل كثيرا بليونارد بيرْنستين Leonard Bernstein[109]، ولم يكن يذكره إلا عندما يكون موضوع الحديث هو الأنا المتورِّمة. فهو لم يغفر لبيرْنستين إصراره على إقامة حفل موسيقي وضع فيه موسيقاه على قدم المساواة مع موسيقى بيتهوڤن[110]. وقد أمتعته رواية لُوِنْثال عن «أسلوب بيرْنستين المألوف، المبتذل دون أن يكون مسلِّيا» مع مقارنته بحركات الممثل الكوميدي داني كَي Danny Kaye[111].

وعلى رغم التوتُّر الذي ساد العلاقة بين سعيد ومايرة في إربانا فإنهما كانا يعملان معا على إنجاز مشروع مهم. كان المشروع المشترك الذي أنجزاه في العام 1965، وهو ترجمة لمقالة أورباخ «الفيلولوجيا والأدب العالمي» Philology and Weltliteratur،

يقترب من الظهور بعد أربع سنوات، ثم ما لبث أن ظهر في العام 1969. كان ذلك مشروعا بالغ الأهمية من كل النواحي، فقد كانت المقالة سابقة لزمانها وتقف موقفا جريئا ضدَّ التيار البنيوي[112]. وفي المقدِّمة القصيرة التي كتبها المترجمان والتي أعادا النظر فيها كثيرا انشقّا عن الأعمال الوطنية الضيِّقة باسم «تناغم بين كلِّ الآداب التي أنتجها الإنسان عن الإنسان»، وامتدحا المنهج التاريخي، وتبنَّيا شمولية تقف ضدَّ معيارية السوق، واتخذا موقفا كان آنذاك مستهجنا مؤدّاه أن النقد يجب أن يكون أكثر من تقييم للروايات أو القصائد، وأن يكون بدلا من ذلك تفسيرا سياسيّا اجتماعيّا لكلِّ الأنشطَة اللغوية التي يقوم بها البشر أو لمعظمها. وكانا في هذه الإيماءات أبعد ما يكونان عن الاتجاهات النقدية السائدة، ولكنهما اتَّخذا الخطوة الحاسمة الأولى في نهوض الأدب العالمي الذي أصبح بعد أربعة عقود حقلا من أبعد الحقول تأثيرا في مجال الإنسانيّات.

ولا يدهشنا مع تصاعد التوتُّر في حياته الزوجية، وتشوُّقه للعودة إلى نيويورك، والتنقُّل المربك بين المشروعات البحثية، أنه وصف سنة التفرُّغ العلمي بأنها سنة محمومة[113]. كذلك كانت سنة مُحبِطَة، فعلى رغم كلِّ ما أبداه من إبداعٍ لا يهدأ فإنه لم يتمكَّن من العودة بالمشاريع التي شغلت ذهنه أكثر من غيرها. فطول سيرته العلمية كان هنالك مشروعان كبيران اشتغل عليهما على مدى عقود ولكنه لم ينتهِ منهما: الأوَّل هو دراسة المثقَّفين، والثاني هو هذا الكتاب عن سْوِفْت، الذي كان يأمل في الانتهاء منه في إربانا. هذا لا يعني أنهما لم يظهرا قط، إذ نجد أجزاء من الفكرة، وفقرات من النصّ منثورة هنا وهناك في جميع أعماله، وفي حالة سْوِفْت ظهر المشروع على هيئة كتابٍ بشكلٍ آخر. أما المشروع الآخر فلا يمكن أن يكون – بأي قدرٍ – أكثر مركزية ضمن أهداف سعيد الفكرية على المدى الطويل.

ظلَّ سْوِفْت حاضرا في فكر سعيد منذ البداية مع أولئك الكتّاب الذين اكتشفهم في صباه في القاهرة إلى جانب إينِد بْلايتن Enid Blyton(*) ولويس كارُل Lewis Carroll، وإدْغَر رايْس بَروز Edgar Rice Burroughs. لكنَّ أكثر ما وجده سعيد في شخصية سْوِفْت هو أنه، على غرار كونراد، قدَّم له طريقة في شنِّ حربٍ غير

(*) بلايتن: كاتبة قصص أطفال واسعة الشهرة. كارُل: صاحب قصة «ألِس في بلاد العجائب». بَروز: مبتكر شخصية طرزان. [المترجم].

مباشرة على الاتجاهات النظرية المعاصرة. وقد تمكن سعيد بهذه الطريقة، وباتِّباع إستراتيجية غولْدْمان، من تحييد استياء معاصريه بمسرحة مناقشات القرن العشرين بأن ألبسها أزياء القرن الثامن عشر[114]. وعلى غرار لَفِنْ، عبَّر سعيد عن إعجابه ببراعة سْوِفْت في استعمال «العنكبوت بوصفة الصيغة الأولى من أحدث رجال الحداثة بما يملكونه من آلات بارعة ينسجون بواسطتها بيوتهم العنكبوتية من أحشائهم، وبتخلّيهم عن النور والجمال وتفضيلهم القذارة والسموم»، بتعبير لَفِنْ، الذي أضاف قوله إنه في تاريخ الأدب الإنگليزي لم يقف أحدٌ نفسه مثلما وقفها سْوِفْت على فضح «التوجُّه المعادي للإنسانية لكثير من الكتابات التي ظهرت أخيرا»[115].

وفي الحقيقة، وبكلمات سعيد نفسه، كان التركيز الأكبر للمشروع يقع «على الطريقة التي يشكِّل النقد الأدبي بواسطتها موضوعه أو يغيّر شكله أو طبيعته، أو يفعل الشيئين معا»[116]. كان المطلوب أن يُفهَم النقدُ الأدبي على أنه المكان الأوَّل لإنتاج المعرفة ووضع الخطط؛ لذلك كان من المتوقَّع تماما أن ندوة من الندوات الدراسية الأولى التي كان سعيد سيدرِّسها بعد الوصول إلى كولمبيا ستكون مخصَّصة لسْوِفْت وأنه كان قد أكمل خطَّة الكتاب المقترح في السنة نفسها التي ظهر فيها كتابه عن كونراد. كذلك وجَّه سعيد نظره نحو سْوِفْت للمادّة التي عرض تدريسها في فصل الصيف في جامعة هارڤرد في العام 1968؛ وكان ذلك بمنزلة إعلان من نوعٍ ما؛ لأن ترك انطباعٍ حسن كان أمرا مهمّا في ذلك المكان، وأن سْوِفْت كان في الصميم من هويته المهنية.

استُقبِل مشروع الكتاب بحرارة، فقد حفَّز دانْيل بل Daniel Bell الذي كان يعمل آنئذٍ في جامعة شيكاغو على التوصية بمنحه زمالة جامعة إلِنوي التي حصل عليها فيما بعد. وقد كتب له بلهجة تدلّ على الألفة للتعبير عن دعمه غير المحدود للمشروع، وقال إنه أحبَّ التفات سعيد لغولْدْمان، وإنه أسعده أن منهجه - خلافا لكارل مانهايم Karl Mannheim - لم يجعل الأفكار مجرَّد تعبير عن قوى اجتماعية، بل إنه أخذ على عاتقه أن يبيِّن كيف أن الخيال الفنّي يوازي بنية الفكر السياسي والاجتماعي[117]. واقترح على سعيد أن يطَّلع على دراسة تعود إلى العام 1934 أجراها فرانز بوركِناو Franz Borkenau الذي كان آنذاك عضوا في معهد فرانكفُرت للبحث الاجتماعي (الذي يعرف باسم «مدرسة فرانكفُرت») عن النظرة البرجوازية للعالم. وقد عمل سعيد بالنصيحة وانتقد غولْدْمان فيما بعد في مراجعته لكتاب

«الإله الخفي» لأنه لم يعد إلى دراسة بوركِناو الذي عاد سعيد إلى أعماله بقدر من التفصيل في أطول مقالة من مقالاته عن سْوِفْت.

وعلى رغم أن الدراسة الموعودة عن سْوِفْت ظلَّت دائما على وشك الإنجاز، فإنه أخَّرها لأنه لم يعد يشعر بأنها يمكن أن تكون ناجحة بشكلها الأوغسطي هذا، فالتقاليد الأكاديمية المتشدِّدة المتعلِّقة بالخبرة ستضعه في النهاية، بصفته متخصِّصا في الأدب البريطاني الحديث، تحت رحمة أولئك الذين قطع الطريق عليهم عندما وصفهم بأنهم «فئة المتخصِّصين بأبحاث القرن الثامن عشر». وأدرك أن من المحتمل أن يُستهجن سعيُه لإنقاذ سْوِفْت من صورته الرسمية التي تجعله «كاهنا أنغليكانيّا جافي الطبع»[118]. وعلى رغم ذلك فإنه أشار في رسالة تعود إلى العام 1969 إلى كتابه الذي «سيصدر قريبا» من جامعة هارڤرد بعد أن أصبح عنوانه «فوضوية سْوِفْت المحافظة» Swift Tory Anarchy.

وفي رسالة للايْنل تْرِلِنْغ ذكر أن كتابه عن سْوِفْت يعاني الانتفاخ وأنه مشغول بإعادة كتابته[119]. لكن الكتاب في الواقع كان يعاد اختراعه باستمرار: مجموعة من المقاطع اللامعة التي لم تشكّل كلا متكاملا على الإطلاق. وكان ينوي أن ينشر كلا الكتابين (عن سْوِفْت وعن المثقّفين)، أحدهما في مطبعة جامعة هارڤرد والآخر في دار النشر المسمّاة «كتب أساسية» Basic Books. وعلى رغم أن طريقة عرضه للمشروع تغيّرت كثيرا بين الستينيات والثمانينيات بحيث أصبحت لهجة كلِّ صيغة من صيغ الكتاب مختلفة تمام الاختلاف عن الأخرى، فإن كتاب «العالم، والنصّ، والناقد» (1983) هو الشكل الذي تجسَّد به المشروع في نهاية المطاف، وفيه عبَّر عما يريد التعبير عنه[120].

يمثِّل سْوِفْت في الأدب الإنگليزي المشتغلَ بالسياسة الذي تُشكِّل اللغة عنده مشكلة نظرية. ويعبر سعيد في المقالة التي كتبها بعنوان «فوضوية سْوِفْت المحافظة» عن هذه المشكلة تعبيرا موجزا: «مواجهة درامية بين فوضى مقاومة الكتابة، والنظام المحافِظ الدائم المجسَّد في الصفحة المكتوبة»[121]. ومما لا شكَّ فيه أن قدرا من الشكِّ باقٍ هنا، ولكن هنالك أيضا تلميح إلى ملاحظة بلاكمر القائلة إن في الفوضوية قدْرا من المحافظة، بمعنى أن التصلب السلطوي هو ما ينتج عن التحرُّر من القواعد، مع ما في ذلك من مفارقة[122]. وقد بدا أن سعيد يقترح شيئا من

الانضباط («النظام»). واشتكى، من دون تسمية النظريات التفكيكية والتأويلية التي كانت في الستينيات تغزل شبكات للتشكيك في المعنى النصّي، من أن هذه الآليات المعقَّدة للتعامل مع النصوص لم تكلِّف نفسها عناء السؤال عما يشكِّل نصّا في المقام الأوَّل[123]. وكان ذلك، مع مسعاه إلى توسيع النقد إلى ما بعد الأدب الإبداعي، هو ما أخذ على عاتقه فعله.

كان سْوِفْت - حرفيّا – محافظا، ولكن على رغم أنه يؤمن بالنظام الملكي فإنه تعلَّم من التجربة السياسية القاسية الحاجة إلى النظام اللغوي في أسلوبٍ «لا يتهاون، صلب، متماسك»[124]. وقد حقَّق ذلك، فيما يرى سعيد، بتعقيد تعريفه للنص بطريقتين: أوَّلا، بالانتقال السريع من جنس أدبي إلى آخر استنادا إلى حاجات المناسبة التي تتطلَّب المخاطبة المباشرة. فكتاب «رحلات غَلِفَر» Gulliver's Travels مثلا يبدو مضطربا بالطريقة التي تصبح الكتابة فيها بديلا عن الأحداث؛ ولذلك كانت كتابة سْوِفْت في نظر سعيد فعلا «أقلَّ أهمية بكثير من فعل التكلُّم»[125].

كذلك كانت لثنائية التكلُّم والكتابة آثار سياسية، إحداها الطريقة التي تجاهلت بها مؤسستا الأدب والنشر الثقافات الشفوية في العالم غير الغربي حيث كانت للكلام والحضور الجسدي أهميةٌ أكبر من مجلَّدات الأبحاث العلمية الخاصة في مكتبة من المكتبات. ثم إن الكتابة في مقابل الكلام استدعت للذاكرة الثوابت المذهبية للأديان التوحيدية (أهل الكتاب في اليهودية والإسلام والمسيحية)، وهي الثوابت التي مارست دورا بالغ الأهمية في تاريخ الشرق الأوسط. في مقابل هذه الثوابت نجد محاولة سعيد لإنقاذ «الموضوع» من صيغته البنيوية بوصفها الأثر غير الملموس للنصوص. أما التكلُّم في المقابل فكان يعني وجود شخص حقيقي أمام الإنسان، شخص ملموس، من هذا العالم، مجسّد. ولئن وضع الكتاب الذي خُصِّص لكونراد التراث الأدبي الإنكليزي في مواجهة الفلسفة الأوروبية، فإن الدراسة المخصصة لسوِفْت كان يراد منها أن تفضح الكارثة السياسية الكامنة في نظريات الاستقلال الذاتي للغة. ومثَّل سْوِفْت حكاية تحذيرية بصفته مؤلِّفا ملتزما، غريبا، أيرلنديا في العاصمة الإنكليزية، ورجلا ذا مزاج ثوري ولديه ميول محافظة، وهو فوق كل شيء ناشطٌ سياسيٌّ رأى بنفسه الواقع القبيح لسلطةٍ هزمته في آخر المطاف.

عندما يسقط المحافظون تسقط اللغة، ويتحوَّلون إلى الاستحثاث اللغوي الذي

نجد علائمه المحزنة في المراحل المتأخِّرة من سيرة سْوِفْت المهنية. فبينما كان سعيد يدقِّق مخطوطات سْوِفْت وجد أدلَّة مدهشة على الألعاب الشاذّة التي كان الكاتب الأيرلندي يمارسها. فلعبه المستمر بالألفاظ جعل من المستحيل قراءة أيِّ شيء كتبه الرجل من دون الشكّ في أنه «قد تكون هنالك حيلة أو معنى، أو رسالة سرِّية كامنة فيه»[126]. وقد قاد ذلك إلى الموقف المضاد: فقد كان سْوِفْت يدعم الفكرة القائلة «إن سلامة موقف الكاتب تعتمد على سلامة موقفه تجاه حالة الأمور الفعلية» حتى إن كان إتقان سْوِفْت لاستعمال التفاصيل الواقعية اتَّخذ شكل الإغراق في مفردات القذارة الإنسانية، والتعليقات الجانبية السادية، وكراهية الرعاع. لقد كان سْوِفْت، بكلمات سعيد، «رجلا ليس من السهل أن يُحَبّ».

كان من الواضح أن سعيد في سعيه إلى شقّ طريقه الخاص به كان يحرص على الاستفادة من الدروس المستفادة من سيرة سْوِفْت السياسية. ففي البداية كانت نشرات سْوِفْت تتماشى بلا عقبات مع الواقع السياسي الذي كانت تسعى إلى التأثير فيه على رغم أن الرجل فيما بعد وضع اللغة في مقابل الواقع السياسي متَّخذا لنفسه دور المعلِّق فقط[127]. وقد سجلت تقلُّباتُ سْوِفْت نحو الكتابة تغيرات خطيرة في المناخ السياسي. وأتى التحديد التدريجي لسلطة الملك معه بحركة من الهواة الموهوبين ليصبحوا سياسيين محترفين، وبانتقالٍ من حقبة من الجدل الراديكالي إلى حقبة غدت فيها السياسة متوقَّعة بيروقراطيّا. وبدا أن المساواة المهمَّة التي جاء بها سعيد هي هذه: كلما زاد الموقف السياسي ضعفا ويأسا زادت الحركة نحو نظرية من نظريات اللغة المستقلَّة بذاتها[128].

ولذا فإن ما بدأ سعيد بالتصفيق له كان هو العكس؛ ألا وهو «فيض اللغة ذات الصقل العالي»، ووضع «الكلمات المناسبة في المحلات المناسبة». ومن اللافت للنظر في ضوء كتابات سعيد التي ظهرت فيما بعد عن الروايات السياسية التي كتبت في الشرق الأوسط أنه أثار الإمكانية التي تستوقف النظر عن أن نصوص سْوِفْت تقاوم المفارقة نفسها: «ما تقوله هو ما تعنيه... المفارقة تنهي نفسها في قراءتها». وهنا أيضا نجد أن الكلام المباشر وفن المحادثة يحصلان على المكانة العليا لدى سْوِفْت أيضا، فقد وضع اختيارُه للجنس الأدبي كليهما في المقدِّمة: الاقتراح المتواضع، والحكاية، والرسالة، والحجاج، والموعظة الدينية[129]. وباختصار، سجَّل مسار سْوِفْت

- بصفته كاتبا - مأساة المبالغة في الأسلوب الأدبي في عالم سياسي[130]. وفي نهاية المطاف، أسَّر سعيد إلى أحد أصدقائه سبب تخليه عن المشروع المتعلِّق بسْوِفْت بقوله: «وجدتُ في النهاية... أنني عاجز عن التعاطف مع غضب الرجل وكبريائه، فضلا عن غياب الاهتمام بحياته الشخصية، تلك الحياة التي وضعها دائما في المحلّ الثاني بعد قضية من القضايا أو خدمة يؤديها للأرستقراطيين»[131].

في هذه الأثناء قاوم سعيد الضغوط التي مارستها عليه جامعة إِلنوي للبقاء فيها برتبة «أستاذ» وبراتب كان يلذ له أن يصفه بأنه «خيالي»[132]. وفي العام 1972 جاءه العرض الأوَّل من عدد من العروض للانتقال نهائيا إلى جامعة هارڤرد، إلى جانب عرض من جامعة كاليفورنيا-سانتا كروز وجامعة نيويورك في بَفَلو. بعد العرض المغري الذي قدَّمته جامعة إِلنوي والذي تضمّن مكانا لمايرة أعطته جامعة كولمبيا رتبة أستاذ مشارك مع تثبيت مبكِّر، وأعطت مايرة وظيفة في بارنارد باعتبار ذلك جزءا من العرض للاحتفاظ به. وقد حققت مايرة نجاحا مثل نجاحه فنجحت في الدفاع عن أطروحتها في الأشهر التي شهدت بداية الجفاء بينهما في العام 1968. أما الرفقة العلمية فكانت من القوة بحيث داومت مايرة على حضور محاضراته حتى بعد إتمام الطلاق في العام 1970[133]. كانا معا في آخر المطاف، ولكن ذلك لم يعد أمرا مهمّا.

5

قبل أوسلو

يقف خراب الماضي

أنصعَ من صورة الشمس على صفحة السَّيْف.

كأنه سجنٌ محمومٌ لأحلامنا الإنسانية.

سعيد، من قصيدة «أزهار الصحراء»

Desert Flowers[1]

على رغم أن كولمبيا كانت مكانا محترما جدّا لتُحَطَّ فيه الرحال، فإنها كانت لاتزال تتَّصف بقدر من الخشونة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات. فهي تقع في منطقة مورنِنْغْسايد هايْتْس في الجانب الغربي المرتفع من مانْهاتَن، ويتداخل حَرَمها الجامعي مع بعضٍ من أفقر أجزاء الجزيرة، وكانت لها سمعة تقول إنها

خطرة. وقد كتب أحد أصدقاء سعيد اللبنانيين، وكان آنذاك يدرس في كلية المعلِّمين، معبِّرًا عن نفاد صبره من «حوادث الطعن والضرب والاغتصاب والعنف اللانهائية من كلِّ الأنواع. فقد تُرك أحد الأساتذة الشباب ودمه ينزف من رأسه... في وسط بْرودْوَي... [أنا] أتحاشى أمستردام أڤنيو مهما كان الثمن»[2].

لم تكن كولمبيا بمبانيها التي يبدو عليها القِدَم ذات جاذبية تنافس بها مثيلاتها من جامعات الآيڤي ليغ، وكان الالتحاق بها أيسر مما هو عليه الآن. ولم يكن طلابها كلهم من خريجي المدارس التحضيرية الواقعة في الساحل الشرقي بل من سكان نيويورك المتخرجين في المدارس الحكومية، وكثير منهم من اليهود[3]. لم تكن متنوعة الأعراق بعد كما ستصبح في التسعينيات (بمساعدة من جهود سعيد لجعلها كذلك)، ولكنها كانت تتَّصف بالشجاعة، والرغبة في التجديد، وبالحيوية الفكرية.

غير أن كولمبيا كان لها سحرها الخاصُّ بها. كانت الجامعة تتشكَّل من قسمين: «الكلِّيَّة» كما كانت تُعرف – وهو القسم المخصَّص لطلبة المرحلة الجامعية الأولى - والدراسات العليا. وكان من النادر أن يختلط القسمان على رغم كونهما متجاورين[4]. وقد كان سعيد يدرك وضعه منذ البداية. كان مكتبه يقع في قاعة هاملتن حيث تقع «الكلِّيَّة»، وليس قاعة الفلسفة، حيث كان قسم اللغة الإنگليزية يؤدّي أعماله[5]. وقد انسجم انسجاما تاما في العقد الأوَّل والنصف من سيرته التعليمية مع مسيرة الحياة الهادئة في الكلية، حيث لم يكن من بين أهدافها تخريج مهنيين يسعون إلى الالتحاق باللعبة الأكاديمية. كان التشجيع ينصبُّ على أن يتصارع الطالب مع الكتب العظيمة مصارعة الندّ للندّ، من دون تزويده بالعدّة البحثية، إلى أن يتمكن من هضمها واستنشاق أنفاسها.

غير أن الاحتجاجات التي اندلعت ضد الحرب في العامين 1968 و1969 حطَّمت هذا الموقع المتقدِّم للفكر العالي وأضافت الإحساس بأن الجامعة منطقة حربية. كانت أنشطة طلبة كولمبيا ضدَّ حرب ڤييتنام من أشدِّها دلالة على عقد الستينيات. وعندما كتب لَڤِنْ مفتخرا لزميله هنري هاتفيلد Henry Hatfield (كانا يتراسلان بشأن أطروحة مايرة) أن سعيد قبل عرض كولمبيا للبقاء فيها أضاف ساخرا: «لست على ثقة ممن يريد البقاء في كولمبيا في هذه الأيّام، فقد أعلن راديو الصباح أن إدارة الجامعة استدعت الشرطة»[6]. كان سعيد لايزال يقضي سنة التفرُّغ العلمي عندما

اندلعت المظاهرات، وكان يسعى بكل وسيلة للحصول على الأخبار، فزوَّده صديقه هيرْب ليبووِتْز Herb Liebowitz بالمعلومات التي شاهدها بنفسه:

> لم يتفوَّق على البلاغة الثورية شيء سوى عنف رجال الشرطة... والصدمة لدى رؤية الطلبة الذين علّمتَهم وقد تضرَّجت رؤوسهم بالدماء، أو لدى رؤيتهم وهم يُضربون ويُلقون على الأرض فيما هم يُرمون خارج البناية في عربات الشرطة؛ ورجال الشرطة بألبسة جنود الهجوم وبوجوه يشوهها غضب سادي[7].

ومثلما كان سعيد في ماونت هيرمن في أثناء ثورة القاهرة، وجد نفسه ثانية في المكان الخطأ في الوقت الصحيح. فبينما كان طلبته يواجهون عصيَّ رجال الشرطة أو ينشرون رسائل احتجاج في مجلة «مراجعة نيويورك للكتب» New York Review of Books كان دوپي يفعل الشيئين معا وانتهى الأمر بحصوله على عين متورِّمة؛ كان هو لايزال منعزلا في إربانا، تحدوه الرغبة الشديدة في معرفة كيف ستنتهي الأمور. كان بعض زملائه موجودين على الخط الأمامي: هومر براون Homer Brown، عضو هيئة التدريس المبتدئ الذي يشبه رَيْـمُنْد وِلْيَمْز Raymond Williams شكلا وصوتا، وليو بْرودي Leo Braudy – بينما كان هو بعيدا[8].

وعندما عاد إلى كولمبيا في خريف العام 1968 كانت آثار الأحداث لاتزال واضحة. وتذكَّر أنه «انخرط تماما في الأنشطة التي كانت تجري في الحرم الجامعي ضدَّ الحرب في ڤييتنام» لأن كثيرا من طلابه «كانوا جزءا من الثورة»[9]. كان واحدا من عدد قليل من الأساتذة على سبيل المثال الذين دعموا الإضراب الوطني للطلبة الذي دعت إليه منظمة الطلبة من أجل مجتمع ديموقراطي، وضدّ إجراء انتخابات في تلك السنة، ووافق على عدم التدريس في الحرم الجامعي تضامنا مع المضربين[10]. أما رأيه في الاتجاه اليساري في الكلِّيَّة فقد كان معقَّدا كما كان روبرت فْريدْمَن Robert Friedman، وهو صحافي، وناشط، ومن طلبة سعيد، يعرف تمام المعرفة، فقد تبيَّن من خلال أحاديثهما العديدة في تلك الفترة أن سعيد كان دائما يطلب مزيدا من المعلومات عن الأنشطة السياسية ويسأل عن التفاصيل كلها[11].

لكنه تراجع عن موقفه عندما استوعب طبيعة ما يشكو منه الطلبة. فقد وجد أن موقف المحتجّين الشامل ضدّ السلطة موقفٌ تعوزه الحكمة، ذلك أن

رفض الضوابط الاجتماعية كلها معناه عدم الاعتراف بأن الجامعة موجودة لإنتاج أحكام لها صفة القطع؛ إذ ليس دورها إلغاء القوانين بل تقييم القوانين التي تناسب حكومة تستحق اسمها. وكان في ذلك الوقت على الطرف المناقض من موقف صديقه المستقبلي في السلاح إقبال أحمد الذي كان له دور في إشعال الحركة المناهضة للحرب، بل يمكن النظر إليه على أنه من شخصياتها البارزة بعد أن اتَّهمته وزارة العدل في إدارة نكسن هو ودانيِل بَرِغَن Daniel Berrigan بالتخطيط في العام 1970 لاختطاف هنري كسنجر[12].

كان أحمد قد فعل ما فعله أبو لُغُد من قبله، وهو إحياء الماركسية الإنسانية المناضلة لدى الأطراف العالمية، وكان على معرفة شخصية بالعديد من ثوريّي العالم الثالث. ولد أحمد في بيهار في الهند في العام 1934، وكان أبوه من ملاك الأراضي، لكنه انتقل إلى باكستان بعد تقسيم الهند، وشهد مقتل أبيه في أثناء تمرُّد للفلاحين بينما كانا نائمين أحدهما إلى جوار الآخر. وكان مثل سعيد طالبا من طلبة جامعة پرنستن في الخمسينيات، وغادرها للالتحاق بصفوف الثوار ضدَّ الفرنسيين في الجزائر، وعمل إلى جانب فرانتس فانو في تحرير جريدة الحزب. وفي وقت لاحق أخذ سعيد يعتمد كثيرا على مشورة أحمد في تعامله مع منظمة التحرير الفلسطينية، وقد تبلورت آراؤه حول احتجاج الطلبة من خلال صداقته مع أحمد الذي التقاه سعيد في العام 1970 نتيجة لقراءة أحمد مقالة سعيد عن «صورة العربي» وطلب من أبو لُغُد أن يعرِّف أحدهما على الآخر.

كانت لدى سعيد مشكلات أخرى مع الطلبة المحتجّين، فعلى رغم أن احتجاجات الأمريكيين ضدَّ الحرب لم تكن من دون ثمن – إذ غامر الطلبة بالسجن، ودفع الغرامات، والطرد – فإنَّ ما كان يدفعه المحتجون من أثمان كان أقلَّ بكثير مما يدفعه أعضاء جبهة التحرير الوطنية التي تبجَّحوا أحيانا بمقارنة أنفسهم بها؛ ولذلك فإنه كان يرفض إجراء مقارنات كهذه، وانتقد بلا هوادة الطلبة الذين أخذوا يتباهون بهيئة المحاربين الفدائيين التي لم يستحقّوها[13]. وعند التفكير في الاحتلال الإسرائيلي واغتيال ممثِّلي منظَّمة التحرير الفلسطينية (الذين كان بعضهم أصدقاء شخصيين له)، وجد أن الطلبة لم تكن لديهم فكرة كافية عن الخطر السياسي. ولم يطل به الوقت بعد حتى عاد إلى التدريس في فبراير من العام 1969. وقد اعترضت

منظمة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي نحو أربعين حصة دراسية في ست بنايات من بنايات الجامعة وذلك بالدخول إلى تلك الحصص عنوة وتوزيع نشرات تدعو إلى الاحتجاج بالجلوس ضد الفريق المكوَّن من ضباط احتياط التدريب التابع للقوّات البحرية الأمريكية.

ووفقا لما نشرته صحيفة «كولمبيا ديلي سپكتيتر» Columbia Daily Spectator، دخل ثلاثة من أعضاء منظمة الطلاب من أجل مجتمع ديمقراطي القاعةَ التي كان سعيد لايزال يعطي محاضرته فيها، فطلب منهم الذهاب وهدَّدهم بأنه سيخرج إن بقوا. وطالبت أغلبية الطلبة الذين يبلغ عددهم خمسة وسبعين طالبا وطالبة بأن يغادر المتطفِّلون، ولكن سعيد خرج من القاعة قبل أن يجري التصويت، واستدعى المسؤولين عن الأمن الجامعي من مكتبه لإخراج المتطفِّلين[14]. وكانت حجّته أن قاعة التدريس آخر مكان تشن فيه الحرب ضدَّ الدولة، وشدَّد على هذه النقطة فيما بعد في جدل مع أحد النشطاء من طلبته على الدرجات المؤدِّية إلى مكتبة لوي Lowe Library. «ما المقصود بكل هذا؟ لست أفهم»[15]. واتَّخذ الموقف الذي اتَّخذه العديد من المدرِّسين وهو أن الحياة الفكرية يجب ألا تعطَّل على رغم عدالة ما يطالب الطلبة به. فمن ناحية، عندما قفز مايك سْتيرن Mike Stern، وهو طالب من طلبته، من نافذة قاعة التدريس التي كان يدرِّس فيها في هاملتن هول لتغطية المظاهرة الجارية فإن سعيد تعاطف معه ضاحكا على جرأة الطالب، ومبديا إعجابه بما في الحركة من مهارة[16].

اشتكى تْرِلِنْغ في وقتٍ لاحق في تعليق طويل كتبه بخطِّ اليد وأرسله إلى سعيد من كلية أولْ سولْز All Souls College بجامعة أوكسفُرْد حيث كان يقضي إجازته، من انحدار مستوى الحياة الفكرية في كولمبيا، وأشار على وجه الخصوص إلى «التأثير المقلق على معنويّاتنا» الذي جاءت به احتجاجات العام 1968، وإلى الحاجة إلى إصلاح المناهج لمواجهة الاتجاه السائد للسماح بكل شيء في الكلِّية[17]. أما سعيد فقد لَجم لسانَه في ردِّه لأن تْرِلنْغ أساء فهم رسالة من سعيد أرسلها إليه قبل ثلاثة أشهر اشتكى فيها لتْرِلنْغ من أنَ «حبّ العقل والمعرفة يتعرَّض للتهديد». ذلك أنه لم يقصد الإشارة إلى الاحتجاجات بل «إلى مصير الصمت أو مصير الضحالة واتِّباع التقليد السائد، وسرعة الزوال»[18]. ولذا فإن المقصود لم يكن أن النشاط السياسي يهدّد سكينة المعرفة بل إن الانزواء يعني التخلّي عن واجبات المفكِّر.

وحتى لو لم يحمل سعيد يافطات تؤيِّد الفييتكونغ Vietcong، فإنه لم يكن يتعالى على العرق والضجيج المصاحب لتنظيم الأنشطة في الحرم الجامعي، ففي العام 1970 نظَّم مع صديقه سامي البنّا (وهو أستاذ لمادة الصور الحاسوبية computer graphics في كولمبيا) مظاهرة تثير الإعجاب اتخذت شكل الجلوس حول المسألة الفلسطينية في كولمبيا، وفيها تحدَّث سعيد إلى الجمهور[19]. وفي تلك السنة نشرت مقالة طويلة عن المقاومة الفلسطينية كتبها أحمد بشارة في جريدة «الجامعة» اليومية عبّرت عن دعم القضية بعد حرب يونيو[20]. وفي وقتٍ كان الفلسطينيون قد جُرِّدوا من هويَّتهم (وصار لا يشار إليهم إلا بأنهم أردنيّون) كان من المتوقَّع أن تثير لغة بشارة الفزع لدى كثير من الطلبة بدفاعه عن «انبعاث شعب حمَلَ السلاحَ لضمان الحقوق الأساسية لوطنه»[21]. وتحدَّث سعيد أيضا بحماس مع أصدقائه في تلك الفترة وقال إن أعمال العنف الرمزية التي تجري لدعم ضحايا القصف والتعذيب والعقاب الجماعي الإسرائيلي أعمال مسوَّغة في مواجهة عسكرية لم يكن لهم دور في البدء بها[22].

***

كان انهيار زواج سعيد قد جعل أواخر الستينيات فترة مكفهرَّة في حياته، واعترف فيما بعد بأن كتاباته فيها جاءت «من فترة مظلمة في حياته»[23]. وشعر لبعض الوقت بأنه ضائع[24]. وفي العام 1967، أي قبل سنة من انهيار علاقته مع مايرة، التقى بمريم قرطاس في غرفة في مستشفى بنيويورك، حيث كان في زيارة لأخته جويس التي كانت تعاني كسرا في الرجل، وعندما دخلت إلى الغرفة «كان يجلس على كرسي يأكل الفُشار»، تبدو عليه الأنفة[25]. كان أهلها ينتمون إلى طائفة الكويكرز في برمّانة، وكانوا ينتمون من بعيد إلى حلقة آل سعيد الاجتماعية. وقد شعرت هلدا بالسعادة الغامرة وهي تراهما يقعان في الحب، ولكنها حذّرت ابنها من الالتزام بشيء إلى أن يكون واثقا من مشاعره فيما هي ترى أن علاقته بمايرة في طريقها إلى الانهيار. وقد تبيَّن أن مريم - وكان تخصصها الرئيس في الجامعة في إدارة الأعمال والاقتصاد وتعمل في مجال العقارات - قد التحقت بعمل مؤقَّت في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت بينما كانت سوق العمل تشهد كسادا، ولا شك في أن البيئة الجامعية المألوفة ساعدت في تنامي العلاقة الرومانسية في أثناء زيارات سعيد المتكرّرة في أثناء الصيف والعطل الأخرى.

تزوَّج سعيد ومريم في العام 1970، وبدا أن كلَّ شيء على ما يرام، إذ استُقبل سعيد بحرارة من جانب عائلة مريم المسيحية التقدُّمية، وهي عائلة تشبه عائلته شبها كبيرا. وبعد سنتين عاد متمتِّعا بزمالة غوغنهايم Guggenheim إلى لبنان مع زوجة جديدة وطفل صغير اسمه وديع (على اسم أبيه)، وأدّى دور ربِّ الأسرة. وكان وديع الأب قد توفِّي في شهر فبراير من العام 1971 بعد صراع مع سرطان الجلد المتنقّل دام عقدا كاملا. وبذلك زال الجدار العاطفي الذي كان يفصلهما، ولكن ظلّ قدر كبير من الأشياء التي لم تُقَل، والتي ستبقى كذلك إلى الأبد. وفي جلسة مبللة بالدموع مع المعالج النفسي سكب سعيد مشاعره حول الصلة التي ظلّ يبحث عنها مع أبيه ولم يجدها. أما في اللحظة الآنية فقد كان كل ما بوسعه فعله هو الصبر الجميل. واستذكر آخر لقاء مع أبيه فيما هو يصحو من غيبوبته ثم يغرق فيها، فاحتضنه ووجد في موته القريب رمزا لـ «الخاتمة المخيفة» لفلسطين، لبيت مغلق مسدل الستائر لم يعد بإمكانه الدخول فيه[26].

أمضى سعيد السنة الأكاديمية 1972-1973 في بيروت، وتخللت هذه الإقامةَ سفراتٌ قصيرةٌ لتلبية دعوة إلى إلقاء محاضرات في كراكاو (في بولندة) ولِنْز (في النمسا) في الذكرى المئوية لميلاد بيرتْرَنْد رَسِل: («آفاق التأثير في عصر الإمبريالية» Spheres of Influence in the Age of Imperialism، وقضاءُ عطلة في إيران بناء على طلب من مريم («من السخف ألا نرى پيرسِپولِس» حيث إنها «قريبة» من لبنان، وفي أصفهان، «ذلك المكان السحري بالكامل»)[27]. وفي تلك السنة انخرط سعيد في دراسة اللغة العربية الأدبية، وأجرى اتصالات بمنظمة التحرير الفلسطينية بعد انتقالها إلى بيروت من الأردن بعد الأحداث الدامية التي جرت في أيلول الأسود (1970) ـ وراجع كتاب «البدايات»، وهو الكتاب الذي كان قد بدأ بكتابته في إربانا، حيث كانت مريم تطبع صيغه المختلفة. وظلَّ يشكو بمرارة، على عادته، من الالتزامات العائلية، ولكنه وجد المدينة خليطا ساحرا، أشبه بشانغريلا Shangri-la(*) في جانب منها، ولكنها في مكان بعيد كل البعد عن الاهتمامات الفكرية[28].

(*) جنة خيالية في مكان بعيد كما صوَّرها الروائي جيمز هِلْتن في روايته «الأفق الضائع» (1933). [المترجم].

مثّلت السنوات التي انتهت بنشر هذا الكتاب الثاني من كتب سعيد تحوّلا جذريّا في حياة سعيد وعمله. فهو لم يُعِد كتابة مسوَّدات «البدايات» التي كان قد كتب نصفها بين العامين 1967 و1968 فقط بل واجه بداية شيء أسوأ. فقد اندلعت أحداث الحرب الأهلية في السنة التي ظهر فيها الكتاب واستمرّت على مدى عقد ونصف العقد، تتخللها المذابح أحيانا، وفترات من الهدوء في أحيان أخرى. وقد كتب لصديقه مورس دِكستاين Morris Dickstein (وهو من خريجي جامعة كولمبيا وكان يدرِّس آنذاك في نيويورك) من العاصمة اللبنانية في شهر يناير من العام 1973، يطمئنه بأنهم كانوا بخير «على رغم تعرّضهم لغارة هنا ومناوشات حدودية هناك... واليد الأمريكية الثقيلة ملموسة بوضوح»[29].

وبما أنه كان راغبا في التخلُّص من عناء المراجعة وعاجزا عن تجاهل العنف الذي يحيط به فإنه رغب في أن ينخرط أكثر في العمل السياسي، وبحث عن حنّا ميخائيل Hanna Mikhail، وهو من معاصريه في هارڤرد ويعيش الآن في بيروت، وكان قد فتح له عالما مختلفا. فبعد التخرّج في كلِّية الدراسات العليا انتقل للتدريس في جامعة واشنطن قبل التخلّي عن وظيفته الأكاديمية الآمنة ليصبح عضوا عاملا طوال الوقت في منظمة التحرير الفلسطينية في عمّان. أما وقد انتقل إلى العاصمة اللبنانية فإنه أصبح صلة الوصل السياسية بين سعيد والرجال البارزين محلِّيّا، ومنهم الكاتب المسرحي الشهير جان جينيه Jean Genet، الذي جعل ميخائيل شخصية في مسرحيته «أسير الحب» Presoner of Love (1986) باسم حركي هو أبو عمر. وكان ميخائيل قد توفِّي في العام 1976، إذ راح ضحية اغتيال في ظروف غامضة.

لم يكن اللقاء الأول بجينيه مريحا، إذ أعطى الإحساس باللقاءات العابرة التي تتميَّز بها تلك الظروف. كان يعيش مع مريم في بيت آل قرطاس في راس بيروت عند حافّة الحرم الجامعي المزروعة بأشجار النخيل عندما زاره جينيه في إحدى الليالي على حين غرَّة. وقد وصفه سعيد بقوله «إنه طائر غريب ميّال إلى فترات طويلة من الصمت»، وقال كذلك: «لم تبدُ عليه الرغبة في المغادرة إلى أن أخذ كلانا يتثاءب بشكل ملحوظ عند الواحدة والنصف تقريبا بعد منتصف الليل». وقال: «قد رأيته فيما بعد وهو يتسكَّع في الشوارع. وهو يتحدَّث كثيرا عن طفولته وعن الدين»[30].

والتقى كذلك بشخصيات أخرى لا تُنسى ولا تقلّ غرابة اجتذبتها صفات بيروت الخاصة؛ ممن فيهم المثقف الناري صادق العظم على سبيل المثال.

ذلك أن سحر المدينة لم يكن قد تعرَّض للدمار بعد بحرب لاتزال على مبعدة سنوات قليلة خلف الأفق. إنها خليط لا مثيل له من القِدَم والحداثة، وكان ما فيها من بقايا فينيقية، ورومانية، وعثمانية، وفرنسية في كل جانب، وبشوارعها المنحدرة وأزقَّتها الساحرة، ومطاعمها الأرمنية، ومناطقها الخضراء، أقرب إلى الأساطير. أما حرم الجامعة الأمريكية ببيروت بما فيه من جَرَسيات، وتماثيل، ومتاحف آثار، وأبواب حديدية فيذكِّر بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس أو جامعة جنوب كاليفورنيا، ولكنها كانت أكثر تنوّعا من حيث تضاريس الأرض. أما من حيث العراقة فهي لا تقلّ عراقة عن أثينا والإسكندرية، وهي، إلى جانب إسطنبول وحلب، تقع على ملتقى الطرق الرئيسة. كانت بيروت آنذاك ولاتزال أشد المدن الساحلية سحرا في المنطقة الشرقية من البحر الأبيض المتوسِّط، وهي أشدُّها انفتاحا من الناحية السياسية. وقد أدَّت بيروت، بصفتها ملجأ للمنفيين سياسيا وفكريّا في العالم العربي، الدور الذي تؤدّيه مكسكو ستي في أمريكا اللاتينية.

تباهى سعيد بتآلف المختلف فيها، فهي مدينة «قادرة على تقبُّل كل شيء» اختيارا أو اضطرارا، مدينة انفصلت عن سورية الكبرى، وهي الآن مكان يُقصد لموقعه ولجماله:

> العيش في بيروت يعني من بين ما يعني أن يكون لك الخيار في أن تفعل، وتشعر، وتفكِّر، وتتكلَّم، بل أن تكون ما يلي بتنوُّع شديد: مسيحيّا (بروتستنتيّا، مارونيّا، روميّا أورثودوكسيّا، مَلَكيا Melchite(*)، روميّا كاثوليكيّا... إلخ)، مسلما (سنِّيّا أو شيعيّا)، درزيّا، أرمينيّا، يهوديّا، فرنسيّا، أمريكيّا، بريطانيّا، عربيّا، كرديّا، فينيقيّا، جزءا من العالم الإسلامي، جزءا من القومية العربية، قَبَليا، عالميّا، ناصريّا، شيوعيّا، اشتراكيّا، رأسماليّا، مؤمنا بمبدأ اللذة، متطهِّرا، غنيّا، فقيرا أو لا هذا ولا ذاك، منخرطا في الصراع ضدّ إسرائيل... مبتعدا عن الصراع ضد إسرائيل، وهكذا. ولذا

(*) من أتباع فرع من الكنيسة الأورثودوكسية في بلاد أنطاكية والقدس والإسكندرية. [المترجم].

فإن قصور تسمياتٍ من أمثال «الجناح اليساري» أو «الجناح اليميني» سرعان ما ينكشف[31].

أما انتماءات سعيد فكانت تقع بين هذه التسميات. ولئن اتفقت مشاعره ومشاعر أمِّ مريم نحو القومية العربية واستقلال لبنان الذاتي، فقد كان محاطا الآن بمؤثِّرات أشد التزاما بالكفاح[32].

ربما لم يعبِّر مصطلحا «اليسار» و«اليمين» عن جميع الدلالات المقصودة بهما، ولكن الفلسطينيين المنتمين إليهما وجدوهما كافيين. فحزب الكتائب اللبناني مثلا كان حزبا فاشستيا صريحا يستهدف تفكيك النقابات العمالية، كما قال سعيد عندما أشار إلى أن القائد الكتائبي أمين الجميِّل تصوَّر نفسه «شاها لبنانيا»[33]. وعندما اندلعت الحرب الأهلية في العام 1975 فإن التركيبة الطبقية في البلد كشفت عن نفسها في الاستياء من الفلسطينيين الذين نظرت إليهم المليشيات اليمينية اللبنانية، وهي في أغلبها مليشيات مسيحية، على أنهم يشكِّلون تهديدا للنظام السياسي في البلد[34]. لكن الجامعة الأمريكية ببيروت كانت تعتبر في وقت سابق هي المكان الذي ولدت فيه القومية العربية، حيث ناقشت التجمعات الأولى من العراقيين والأردنيين والفلسطينيين والسوريين مستقبلهم المشترك[35]. وبعد العام 1948 دفعت الأزمة في فلسطين جميع الأفكار القومية باتجاه اليسار.

أحسَّ سعيد بهشاشة لبنان، ولاحظ أن انفتاح البلد وتفنُّنه حرماه من الأساس الصلب. فإسرائيل التي تجاوره لم تحدِّد حدودها، وكانت لها مطامعها الواضحة في الجنوب اللبناني. وتسبب التسامح والتعدد الثقافي في خلخلة السرديات التي أتى بها السلاطين والزعماء ومتطرِّفو الأديان، فصار بذلك مصدر تهديد لأعدائه. وقد أدّى ذلك أيضا إلى جعله عرضة للتجزئةِ الداخلية والمكانَ المنطقي لتنظيم المطالب السياسية العربية. كما فاقم وصول فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية الهاربين من الأردن بعد الاصطدام بقوات الجيش الأردني في أحداث أيلول الأسود الوضع للطرفين.

صادف دخول سعيد في عالم المجتمع اللبناني من خلال عائلة مريم في أثناء تمتُّعه بزمالة غوغنهايم التي تمتدّ سنة أكاديمية فترة كانت بيروت تمرُّ فيها بتحوُّل يقودها باتجاه مزيد من المواقف الثورية. ولما كان سعيد باحثا وزوجا وأبا لابن

رضيع، وشخصا يزداد دوره وضوحا بصفته ناشطا محلّيا فإنه لم يعد مجرَّد شخص عابر للشرق الأوسط. فمنذ أن ترك المنطقة في العام 1951 كما أوضح لچومسكي، كانت تلك الفترة أول فترة حقيقية يقضيها هناك منذ عهد المراهقة[36]. كانت الحياة اليومية أكثر من مليئة على رغم أنها كثيرا ما كانت تسبِّب الإحباط لأنه وجد الحديث في البيت وفي الجامعة لا يستثير التفكير، لا بل وجده مناهضا للفكر.

غير أن الاستثناء الكبير من هذا الوضع الرتيب كان قسطنطين زريق، أبرز أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت، ومؤلّف كتاب «معنى النكبة» (1948)، وهو كتاب جعلت شهرته مصطلح النكبة مرادفا في نظر الأغلبية العظمى من العرب لإنشاء إسرائيل. كان زريق متزوّجا من عمَّة مريم، وكان كثير الحضور في حياة سعيد. أما الشخص الذي كانت علاقته بسعيد أوثق في تلك السنة فكان صادق العظم؛ حليفه السوري في المعارضة. فقد كان الرجلان يلتقيان عدَّة مرّات في الأسبوع لإجراء مناقشات طويلة يدعمها كتاب العظم المثير «نقد الفكر الديني» (1969) الذي كان مع حلول العام 1972 قد منع في كل بلد عربي باستثناء لبنان، وكان المفتي قد حرَّم تداوله ووصفه بالكفر[37].

وعلى رغم جاذبية هذه المؤثرات التي من شأنها أن تثير الصراعات في الشوارع فإنه كان يتفادى التجوُّل بعيدا عن مكتبه. ولم تكن أولى محاضراته في الجامعة الأمريكية ببيروت في سنة الزمالة عن المقاومة الفلسطينية بل عن فوكو، وكانت بيروت هي التي شهدت نشر أول مقالة مطوَّلة عن أعمال هذا الفيلسوف الفرنسي[38]. وهو لم يقابل أيّا من كبار القائمين على منظمة التحرير الفلسطينية حتى العام 1974، أي بعد سنة من مغادرة بيروت عائدا إلى الولايات المتَّحدة. وكان من أقرب أصدقائه ومشاركيه في العمل شفيق الحوت، وهو شخصية تتصف بالاتّزان والشجاعة في قيادة المنظمة، وقد وصفه سعيد بلهجة الإعجاب والمحبة بأنه «يحب المبارزة»[39]. وإلى جانب الحوت كان هنالك كلٌّ من صلاح خلف، وخليل الوزير، وياسر عرفات نفسه («أبو عمّار») الذي لم يتعرَّف سعيد عليه إلا في العام 1974 عندما وصل إلى نيويورك لإلقاء خطبته الافتتاحية أمام الأمم المتَّحدة، وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي اعتُرف فيها بمنظمة التحرير الفلسطينية علنا في الساحة الدولية. وفي تلك الأثناء كان سعيد قد وطَّد صداقته مع كمال ناصر، عضو حزب

البعث الاشتراكي، المناهض للإمبريالية. وكان كمال ناصريّا قابله سعيد عدَّة مرّات في أثناء مكوثه في القاهرة في الخمسينيات. وهو من النشطاء الثوريين، وكان سعيد يكن له محبَّة خاصَّة، وقد اغتاله الإسرائيليون في العام 1973 في الليلة التي كان قد قضى ساعات منها في حديث مع سعيد ومريم في أثناء حضوره للمراسم التي تسبق دفن العمّة نبيهة[40].

روى الحوت الحادثة فيما بعد: ففي 10 أبريل 1973 نفَّذ رجال الكوماندو الإسرائيليون عملية استهدفت قلب قيادة منظَّمة التحرير الفلسطينية في بيروت. «فقد دخلت مجموعة من الكوماندو الإسرائيليين بقيادة إيهود باراك Ehud Barack، رئيس الوزراء في المستقبل، بنايتين في شارع ڤيردون قرب الصنوبرة واغتالوا كمال ناصر واثنين آخرين، ولم يتمكَّنوا من اغتيال عرفات بمحض الصدفة»[41]. وفي وقت سابق من تلك السنة كان سعيد مشغولا بإجراء مقابلات مع جناح فتح التابع لعرفات من منظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان هو وصادق العظم يحاولان فهم الكيفية التي تجري بها الأمور في المنظَّمة لأنهما كانا غير راضيين عما يريانه. واستنتجا أن الأمر لا يقتصر على وجود فصائل منفصلة بل يشمل أيضا الارتجال و«اللافعل». وكان مستوى البيروقراطية مفزعا؛ تعويضا في رأي سعيد عن النشاط الفدائي. وعندما تقدَّم سعيد من الشاعر الطليعي أدونيس (علي أحمد سعيد إسبر) ليطلب منه أن يكتب رسالة احتجاج على سوء المعاملة التي يتلقّاها الطلبة في مصر؛ عطّلها الشاعر ستة أسابيع بحجة أنه «لم ينزل عليه الإلهام». كذلك حاول سعيد أن يشكِّل مجموعة بحثية، ولكن لم يحضر أحد بعد اللقاء الثاني[42]. لكن الأثر الذي تركته خيبة الأمل الناتجة عما رآه من مظاهر الضعف هذه زادت من التزامه السياسي.

هذا العزم الجديد شكَّل خلفية الجهود التي كان يصرفها في كتابة «البدايات». ففي محاضراته عن فوكو في بيروت كانت إحدى المهمّات الرئيسة تفسير استعمال فوكو لمصطلح discourse، وهي كلمة عرَّفها سعيد مؤقّتا وإن يكن على نحو متوقَّع منه بأنها «إمكانية تشكيل نصوص أخرى وقاعدة ذلك التشكيل»[*].

(*) الترجمة الشائعة لهذه الكلمة هي «الخطاب»، وقد خضعتُ لقاعدة الشيوع في ترجماتي السابقة وسأفعل ذلك هنا على رغم اقتناعي بأن كلمة «حديث» التي يقترحها قاموس «المورد» وقاموس «المغني الأكبر» أقرب إلى المعنى الأصلي وللشرح الذي جاء به سعيد، مع أن «الحديث» يوحي بالمشافهة بينما توحي «النصوص» بالكتابة. [المترجم].

وكان يشير بذلك إلى الحقيقة القائلة إن أي مقولة بمعزل عن معناها الحرفي تعلن المجال الذي ستتحرَّك فيه المسألة، والمفردات التي ستستخدم، واللجوء إلى مرجعية معينة وليس إلى أي مرجعية أخرى. وكان من رأي فوكو أن أي مقولة تقريرية تتضمَّن أكثر بكثير مما تتضمنه من قول لأنها تملي كل مقولة من أجل أن تُتَّبَع؛ وذلك بحجب الخيارات الأخرى التي لم يعد بإمكانها البقاء خارج عالمها اللفظي. ولذلك فإن سعيد كان حريصا بشكل خاص (سواء في الكتابة أو في السياسة) على القيام بالحركة الصحيحة الأولى(43).

أما التفسير المنضبط الذي نجده في الكتاب المخصَّص لكونراد فقد بدا أنه غير قادر على أداء هذه المهمة، ولذلك فإنه بحث عن مبدأ مختلف للتنظيم، عن شيء يبقى صادقا لما كان يدعوه آنئذٍ بـ «اغتصاب» اللغة molestations of language؛ وهي الكلمة التي كان يستخدمها للتعبير عن التظاهر الذي يلجأ إليه المؤلِّفون فيما هم يبتكرون واقعهم الخيالي(44). هذا النحت اللغوي الذي استخدمه للمرَّة الأولى في ندوة زيورخ في العام 1968 ومن ثم في مقالة تعود إلى العام 1971 أثارت اهتمام كبار العاملين في الحقل الأكاديمي وساعدت في انطلاق سيرته العلمية في دوائر النظرية الفرنسية الآخذة في الظهور(45). فقد بدا لهم أنها تستوعب الحداثة التجريبية التي تقوم النظرية على أساسها، وتعلي من شأن الإخلال المتعمَّد بالقصد والمعنى المباشرين. لكنه في حقيقة الأمر لم يقصد أن تفهم الكلمة بهذا المعنى، ولم يتَّضح ذلك إلا في وقت لاحق.

تحكَّمت التجديدات الشكلية التي أجراها الأدباء الحداثيون من أمثال پول ڤاليري وإزرا پاوند وقطيعتهم المسرحية مع الماضي، وطلبهم من معاصريهم أن يجعلوا كتاباتهم جديدة، في الحقل الظاهري للكتاب بحيث بدا أن السؤال المركزي فيه هو: هل يمكن للمؤلِّفين أن يحقّقوا الأصالة أو أنهم كُتِب عليهم التكرار؟ هذا التوجُّه لاستثارة الكتابة(*) بعيدا عن ابتكار المؤلِّفين لأنفسهم أشار إلى ابتعادٍ خفيٍّ

(*) هاهنا إشارة ضمنية إلى تمييز للنصوص تحدَّث عنه رولان بارت باستعمال المصطلحين lisible وscriptable (وباللغة الإنگليزية: readerly وwriterly)، ومعناه ببساطة أن النصَّ قد يكون نصّا يرسله الكاتب لكي يستقبله القارئ بقضه وقضيضه كما هو (كما يحصل مع النصوص الدينية أو السياسية)، أو قد يكون نصّا يستثير القارئ لكي يستجيب ويفسّر ويرفض أو يقبل ويضيف. أي أن القارئ في هذه الحالة يسهم في خلق المعنى. [المترجم].

عن الكتاب المخصَّص لكونراد على رغم أنه سيعود إلى قضايا الكتاب السابقة عند آخر العَقد.

وعندما اقتربت المسوَّدات من صيغتها النهائية فإنه كان بوسعه أن يرى أنه صاغ شيئا فريدا. فقد كان يدعو المنتمين إلى مهنة الأدب في أمريكا، من بين ما يدعو له من أمور أخرى، ليس إلى فتح الأبواب للنظرية الأوروبية فقط، بل إلى صناعة المعاجم العربية أيضا. وبوصفه وسيطا ماهرا استثار أعداءه وأصدقاءه على حدٍّ سواء ليبتعدوا عن الاتجاه الفكري الأبوي في العالم الأكاديمي الأنغلوأمريكي، واتَّفق مع هيئة الإذاعة الوطنية على إعطاء سلسلة من الأحاديث عن فوكو وليڤي-شتراوس(46). وعلى رغم كلِّ ما في كتاب «البدايات» من تحدِّيات فإنه فعل ما فعله بالروحية نفسها، قاصدا أن يجعل هذا الفكر الدقيق الآتي من فرنسا والشرق الأوسط العربي متاحا لجمهور عريض من القرّاء.

وقد بدا في رسالة كتبها لناشر كتابه Basic Books أنه يريد طمأنة المحرّرين حول كون «الدفعة الأوَّلية» الكبيرة التي دفعت له كانت مسوَّغة(47). «دعوني أضع التواضع جانبا: سيكون الكتاب كتابا مهمّا... الطرق في رأيي جديدة كل الجدَّة، والمجال الذي يشمله واسع جدا. وبما أنني على اطِّلاع جيِّد على تراث رئيس من خارج التراث الأوروبي فإن بوسعي أن أقيم مقارنات في التاريخ والأدب في مجال واسع من المادَّة الغربية والعربية»(48). وكتب على المنوال نفسه إلى آخرين، وأسرّ لمرشده القديم في جامعة هارڤرد، مونرو إنغِل Monroe Engel، بأن عملية صنع الكتاب كانت تستحقّ العناء على رغم كل ما تسببه من عذاب(49). فقد انزوى بعيدا ليعمل من دون توقُّف على كتابة المخطوطة على مدى أشهر، ومنع نفسه من قبول المشروعات الجانبية المعتادة أو الانتقال المحموم من موعد نهائي إلى آخر كما كان يفعل في السابق. أما وقد فرغ من أتعاب البحث ووصل إلى مرحلة المراجعة في دقائق الأمور فإنه وجد أنه ما عاد قادرا على قراءة أي شيء باستثناء بعض القصص القصيرة لغْرِيَم غرين.

كتب الكتاب على فترات متقطِّعة. كان يستيقظ في الصباح، يدور في أنحاء الشقَّة، ويمسك بهذا الشيء أو ذاك(50). وقد لاحظت ابنته نجلا هذا النمط في وقت لاحق من حياته، حيث كان قلقا، لا يهدأ، ويتنقّل من مكان إلى آخر

ويتعذَّب. وكان عمله في ذلك الوقت كما في أوقات أخرى، يجري على شكل دفقات متقطِّعة[51]. «شعرت بحرية خلق الموضوع بينما كنت أمضي قدما... وكذا فإنني بحثت ما أردت بحثه من دون التزام بالمادَّة المقرَّرة، ومن دون محاولات شعائرية لـ «تغطية» دراسات الباحثين عن الموضوع... إلخ»[52] وبعد بضع سنوات أسرَّ لزميل أصغر سنّا بأنه ساورته الشكوك بشأن قدرته على كتابة كتاب جرى تصوُّره مسبَّقا من ألِفِه إلى يائه: «أحسب أنني أصلح لكتابة المقالات، على غرار «فيشات» fiches بارت التي يرتِّبها على شكل مقالات»[53]. ولكن بما أنه تمكَّن في هذه الحالة من كتابة شيء متكامل بغضِّ النظر عن أن اللصق يظهر هنا وهناك، فإن الكتاب ظلّ مشروعا أثيرا لديه.

خلافا لصمت الدراسة المخصَّصة لكونراد عن ثقافة الشرق الأوسط فإن هذا الكتاب أظهر عودة سعيد إلى الحياة العربية، وسردها أحيانا سردا خفيّا. وعلى مدار السنة التي فكَّر فيها جدِّيّا بترك كولمبيا والذهاب إلى بيروت، لا بل اتَّخذ الخطوات الأولى لفعل ذلك قبل أن تقنعه مريم بالعدول عنه. وقد صار ذلك أسهل بعد أن تبيّن وضعه القلق في بيروت. فالظاهر أن الحسد جعل أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأمريكية ببيروت يتجاهلونه ويتجاهلون عرضه لتدريس إحدى المواد من دون أجر، بل يضعون العراقيل التي لا معنى لها أمام حصوله على شيء يبلغ من البساطة ما يبلغه الحصول على بطاقة تخوِّله استعارةَ الكتب من المكتبة. ولا شكَّ في أن الاستياء جاء نتيجة شهرته المتنامية وصلاته بالآيڤي ليغ. وقد عبَّر سعيد عن شعوره بالإحباط في رسالة إلى صديق في القاهرة: «أرى أنه مكان لا أمل فيه، لا بل هو مكان شديد الأذى، لذلك فإنني حفاظا على سلامة عقلي لن تكون لي صلة به... ليس هنالك من أحد، لا أحد حرفيّا، يفعل شيئا يثير الاهتمام... كل من فيه خير – على رغم أن حليم [بركات] المسكين [كاتب الرواية السوري] رجل وديع بالمقارنة مع صادق العظم - يوضع على الرفّ، يُخْصى أو يرمى بعيدا، يفعلون به كل ما يمكن فعله بمنتهى الرخص»[54]. في هذه البيئة الـمُذِلَّة، حيث يعامَل الكتّاب من أمثال بركات بالدرجة نفسها من عدم الاحترام التي يعامَل بها مثير للقلاقل مثل صادق العظم، كان مالك هو الوحيد الذي دعاه إلى إلقاء محاضرة في الجامعة وليتحدَّث في سمناراته[55].

غير أن دراسته المكثَّفة للغة العربية لوَّنت كل سطر من أسطر «البدايات». فقد اتَّفق سعيد من ناحية مع الرأي الجريء الذي جاء به عبدالله العروي في كتابه «أزمة المثقَّفين العرب» (1974) وقال فيه إنه ليست هناك حضارة من الحضارات وضعت ثقتها بما ترى أنه الحقيقة في بنية لغتها أكثر مما فعلته الحضارة العربية[56]. كذلك كان من رأي العروي في حركة استعملها سعيد في كتاباته وهي أن هجوم النظرية الفرنسية على دراسة التاريخ – تشكيكها بالسعي إلى استعادة حقيقة الماضي بقراءة النصوص – قد جعلها على وفاق مع «المعطيات الأساسية» عند المسلمين السُّنَّة[57]. ومن وجهة نظر العربي التقدُّمي التي كانت تصغي دائما إلى المواقف الفكرية الفرنسية، كان من المؤسف أن يرى هذا العربي أن الطلائعيين الأوروبيين يشبهون التوجّهات الثقافية العربية المحافظة التي كان يتوقَّع منهم التنديد بها. وتابع العروي فكرته بقوله إن المعرفة التاريخية يمكنها أن تظهر «ما كان جذّابا عندهم، وربما ما كان مضلِّلا أيضا»[58].

أثَّر التعليم الذي تلقّاه سعيد في اللغة العربية الفصيحة المكتوبة (وهو كان يتكلّم اللهجتين المحكيتين الفلسطينية والقاهرية بطلاقة) في فهمه لمعنى كلمة «الأصل» نفسها، وهي كلمة كانت أساسية في كتابٍ يحمل عنوان «البدايات». فالخبرة العربية في الفيلولوجيا سبقت الخبرة الأوروبية بعدة قرون، وكانت قد وصلت درجة عالية من الإتقان، ولاسيَّما في السنوات السابقة واللاحقة لمحافظة المأمون في القرن التاسع الميلادي على الكتب الكلاسيكية اليونانية القديمة في ترجمات عربية. هذا الاهتمام باللغة وبناها استند في آخر المطاف إلى «الثبات القطعي» dogmatic fixity بتعبير سعيد للغة العربية الكلاسيكية التي ساد الاعتقاد بأنها وصلت إلى كمالها في القرآن، ولذلك نظر إليها الباحثون العرب على أنها نقطة البداية النصِّيَّة المطلقة. وقد عبَّرت الرسائل التي كان سعيد يرسلها إلى بلاده عن شعوره بالسعادة فيما هو يبذل جهودا مضنية لتعلم النحو العربي، وهو نحو اعترف بأن معرفته به تحتاج إلى «إصلاح» بعد قضاء اثنتين وعشرين سنة في الولايات المتَّحدة[59].

كان قد بدأ، كما قال، «بالتكلُّم باللغتين العربية والإنكليزية وهو في حضن أمه»[60]. أما الآن في بيروت فقد وجد نفسه منشغلا «بجمع حقائق من نوع غريب» تعود لافتتانه

المستمر بمشكلة اللغة كما كان قد تابعها في سمنارات الدراسات العليا في منتصف الستينيات وأواخرها[61]. فقد وجد أن الخليل (ابن أحمد الفراهيدي، مؤلِّف أوَّل قاموس عربي) «جذّابٌ جدّا»، وأضاف أنه كان يتمنى أن يكون لديه من الوقت ما يكفي ليدرس كلَّ اللغات السامية، مع عناية خاصة باللغة الأوغاريتية من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي لغة مكتوبة بالخط المسماري، وتعود إلى أوغاريت في سورية التي نعرفها في هذه الأيام[62]. وكان دور الفيلولوجيا العربية وڤيكو في سنة الزمالة التي قضاها في بيروت قد اندمجا معا على رغم أنه أحجم تأدُّبا عن قول أي شيء عن حطِّ ڤيكو من قيمة العلم العربي في سيرته الذاتية وعن وصفه لابن رشد بأنه عديم التقوى:

> الفصاحة بالنسبة إلى العربي المثقَّف في هذه الأيام أقربُ إلى ما مرَّ به ڤيكو وتكلَّم عنه منها إلى الناطقين باللغة الإنكليزية... والبلاغة والفصاحة في التراث الأدبي العربي يعودان إلى ألف سنة خلت، للكتّاب العبّاسيين من أمثال الجاحظ والجرجاني الذين وضعوا قواعد لفهم البلاغة تدهشنا بما فيها من حداثة[63].

وبينما كان مشغولا ببحوث تخصُّ كتاب «البدايات»، ويعمل على كتابة مسوَّداته، فإنه وجد متَّسعا من الوقت لأخذ دروس منتظمة مع أستاذٍ متقاعد للغة السامية هو أنيس فريحة، وهو صديق للعائلة أعطاه دروسا مختصرة عن «زوايا بعيدة من زوايا اللغة»[64]. ووِفْقا للحالة النفسية التي كان يمرّ بها فإنه نظر إلى الجهد على أنه مضيعة للوقت حتى لو كان ذا قيمة ثقافية. لكنه في أوقات أخرى كان يقول العكس، ويرى أن الفيلولوجيا والنحو العربي جعلا «الكلمات تحت الكلمات وكل ما هنالك» - وهذه عبارة أخذها من أبي البنيوية، عالم اللغة السويسري فردينان دي سوسير – عبارة تليق بالهواة. وقد قضى سعيد شهرين وهو يخوض في بحر العلوم العربية من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، فوجده علما مدهشا: «بارت ورهطه يمكنهم أن يتعلَّموا الكثير من التحليلات التي أجريت في العصور الوسطى»[65]. ووعد أنه في المستقبل سيجعل من هذه التحليلات تحضيرا أساسيّا لأعماله كلها[66].

مضى سعيد من هذه الخلفية التي تزداد استعداداتها العسكرية في بيروت إلى تراث أدبي مهمل ولكنه غير منسي يعود للقرون الوسطى. فالمؤرخ وعالم الاجتماع

الكبير عبدالرحمن بن خلدون الذي ولد في تونس في العام 1332، والمتحدر من عائلة من علية القوم في إشبيلية، وضعه وجها لوجه أمام تأثير كبير في عمله منذئذٍ فصاعدا. فقد بدأ من خلال ابن خلدون بالنظر في إمكانية الحديث عن إستطيقا عربية كانت ذات جاذبية خاصة بسبب التماثل بينها وبين ڤيكو الذي كان بلا شك تقريبا قد تأثَّر بسلفه المغربي[67]. وقد تذكَّر سعيد بعد عقدين من الزمان أنه «كان يخطط لما لا يقلّ عن ثلاثين سنة لتدريس سمنار عن ڤيكو وابن خلدون» وأنه قضى وقتا لا بأس به بالفعل في بعض المقالات التي جمعها في كتاب «نهاية عملية السلام» The End of Peace Process (2000) يدرس أوجه التشابه بين ڤيكو وسلفه العربي، ويدعو كتاب «العلم الجديد» Scienza Nuova لڤيكو و«المقدمة» لابن خلدون (1377) «كتابي الألفية» و«أروع إنجازين حقَقهما الفكر العلماني»[68].

أظهر ابن خلدون ميولا أدبية تشبه ميول سعيد قبله بوقت طويل. ففي رائعة ذلك المؤرِّخ العربي، أي في «المقدِّمة»، كانت الكلمة الأساسية هي «العصبية»، أي المبدأ الذي تعتمد عليه الجماعات في تماسكها. ولئن كان اعتماد الولاءات سابقا قائما على روابط الدم، فقد سعى ابن خلدون إلى توسيعها لتشمل التضامن القائم على الأفكار أو الأهداف المشتركة، فابتعد بذلك عن الرابطة القبلية. وقد أعطت «المقدِّمة» سندا لحالة سعيد المعاصرة، وهي أن سياسة الأدب يجب ألا تفهم حرفيّا بحيث تجري مساواتها بالآراء الراديكالية التي يعبِّر عنها الكتّاب من ناحية أو بالتجارب الرسمية التي يقال إنها تبيّن فساد أنماط التفكير السابقة من الناحية الثانية. كان المطلوب أن تفهم السياسة الأدبية من زاوية الدور الذي تؤديه الفصاحة البشرية في تشكيل الشعوب فضلا عن السجلّ النصّي لنهوضها واضمحلالها.

لم يكن سعيد الوحيد من بين المثقّفين العرب من أبناء جيله الذين وجدوا أن ابن خلدون مصدرٌ عالي القيمة على رغم أنه كان الوحيد الذي أقام إستراتيجية إستطيقية عربية تحديدا على أساس هذا المصدر. فقد بدا من أكثر من ناحية أن «المقدِّمة» تنبئ بمقاصد سعيد في «البدايات». ففي مخطوطة يبلغ عدد صفحاتها ألفاً ومائتي صفحة ويشير عنوانها إلى أنها مقدمةٌ للتاريخ وحُكْمٌ عليه (كما يحصل في المحاكم) كان ابن خلدون مشغولا مثل سعيد بالكيفية التي يتَّخذها العمل الفكري، وذلك بإعطاء الدروس، وأنماط الحجج، والاستراتيجيات البلاغية، وطرق

البحث التي يجب أن يستعملها كلُّ مثقَّف يرغب في التأثير في السياسة. وفي هذا السياق امَّحت الخطوط التي تفصل الأدب الخيالي عن التحليل الاجتماعي أو التاريخي. فقد جعل ابن خلدون علم التاريخ ذا صلة بدراسة وسائل التعبير البلاغية، وبالأجناس الأدبية، وخصائص اللغة، وهي الموضوعات التي تشغل الجزء الأخير من «المقدِّمة» بكامله. ولما كان سعيد شديد الوعي بهذه الحقيقة فإنه شدّد على النتائج الأدبية لسياسة الشرق الأوسط كما تشكَّلت في التاريخ اللغوي السابق لفكر ابن خلدون:

> في القرن الحادي عشر في الأندلس ظهرت مدرسة بالغة الفطنة من النحويين الإسلاميين الذين كان جدلهم ينبئ بالجدل الذي دار في القرن العشرين بين أصحاب القواعد البنيوية والقواعد التوليدية... وقد حوَّلت مجموعة صغيرة من هؤلاء اللسانيين الأندلسيين مسألة المعنى في اللغة إلى تمارين غيبية وأليغورية... هذه المدرسة الظاهرية كانت تعارض المدرسة الباطنية. فالباطنيون كانوا يقولون إن المعنى في اللغة يختفي داخل الكلمات... استُمِدَّ اسمُ الظاهريين من الكلمة العربية التي تدل على ما هو واضح، ظاهر؛ أما كلمة «باطن» فتدلُّ على ما هو داخل، وتوحي بأن الكلمات ليس لها سوى معنى سطحي[69].

هنا يبدو أن إشارة التأييد في دراسته عن سْوِفْت للكتابة «الواضحة الظاهرة» تعود للظهور بشكل جديد. فما كان يهمّ سعيد هنا هو موقفه الرافض لعدد من الأفكار البارزة في العالم الأكاديمي في السبعينيات والثمانينيات، وهي أفكار اشتملت على مذهب التفسيرات المبتكرة غير الصحيحة، أو الفكرة القائلة إن معنى الكتب يقرِّره قرّاؤها ولا تقرِّره مقاصد مؤلّفيها أو الخصائص الكامنة في النصّ. وقد كان في الوقت نفسه يقاوم التشاؤم المعرفي لتأويلية هانس-غيورغ غادامر، وكذلك فكرة البنيوي الفرنسي الماركسي لويس ألتوسير Louis Althusser عن «قراءة الأعراض» Symtomatic Reading بدعوتها إلى استخدام النصوص مادَّة أوَّلية تسمح للنصِّ بأن يقول كلّ ما هو في مصلحتهم السياسيّة. فكأنه كان يقول إن التفسير أمر معقَّد، ذو أحمال معيَّنة، وكثيرا ما يكون غامضا، ولكنه ليس غيبيّا، ولا يكون من قبيل العبث.

استغلَّ سعيد أيضا مصطلح «البيان»، وهو مصطلح يتكرر وروده في «المقدِّمة»، وهو يعني بكلمات ابن خلدون «القدرة على استخدام المفردات للتعبير عن الأفكار التي يرغب المرء في التعبير عنها... والقدرة على ملاحظة شكل التأليف الذي يجعل الكلام متوافقا مع متطلّبات الموقف»[70]. كان البيان فرعا مهمّا من العلوم الإنسانية العربية يشير إلى ذلك النوع من البلاغة التي تشرح وتوضِّح وتبيِّن – كما قال ابن خلدون مردِّدا قول القرآن - أن رفعة مقام البشر مصدرها أن الله خلقهم قادرين على البيان[71]. وكانت هنالك دلالتان أخريان لا تقلّان عن ذلك أهمية: الأولى هي أنها في وظيفتها التوضيحية يمكن أن تعني مانفيستو **manifesto** أو البيان الرسمي **communiqué**، وبالفعل أصدر سعيد في أعقاب الانتفاضة الأولى دعوة إلى مؤتمر دولي تحت عنوان «بيان»[72]. لكن العرب في مجال النظرية البلاغية يتكلمون عن «علم البيان» حيث تشير كلمة «علم» إلى «علم» الإنسانيّات والأدب كما قد تشير إلى علم الكيمياء والرياضيّات[73](*).

هذا التأمُّل بتصادم السياسة واللغة ظلَّ يشغل سعيد قبل حصوله على زمالة غوغنهايم وفي أثنائها. وكان العمل التمهيدي له قد تمَّ بصراحته المعهودة في تبادل حامي الوطيس مع عالم اللسانيات الكبير نُوَم چومسكي حول «التكلُّم واللغة» **Speaking and Language**، في مراجعته لكتاب پول غُدْمَن **Paul Goodman** «دفاع عن الشعر» **Defence of Poetry** في جريدة «نيويورك تايمز» في العام 1972[74]. فعلى شاكلة الكثيرين من أبناء جيله، كان سعيد قد سحره مقال چومسكي بعنوان «مسؤولية المثقَّفين» **The Responsibility of Intellectuals** الذي ظهر في مجلّة «ذا نيو يورك ريفيو أوف بوكس» **The New York of Books** في العام 1967. وبسبب من الإلهام الذي شعر به تحت تأثير هذا النداء الذي يدعو الأساتذة إلى التصريح بآرائهم الناقدة للدولة أخذ يراسله من دون انقطاع، والتقى بچومسكي مرارا في لقاءات عن قضية إسرائيل/فلسطين. وقد شجَّعه مثال

(*) كانت كلمة science تستعمل في اللغات الأوروبية كما كان العرب يستخدمون كلمة «علم»، وتخصُّصها بالعلوم الطبيعية حديث العهد. ومن الملاحظ أن كلمة «علم» في اللغة العربية تخصَّصت هي الأخرى وأخذت تدلُّ على العلوم الطبيعية (مع استثناءات قليلة). [المترجم].

چومسكي فيما هو يتابع مسعاه السياسي فاحتفظ بقصاصة تحتوي على هذا البيان الشهير المعادل لبيان «إني أَتَّهِم» J'Accuse(*) إلى جانب ملفٍّ ضخم من مقالات چومسكي، وكتب فيما بعد كلمة افتتاحية لكتاب «المثلث المصيري: الولايات المتَّحدة، وإسرائيل، والفلسطينيين» The Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians (1983)، حيث رفع من شأنه ووصفه بأنه مجدِّد نادر المثال[75].

لكن على رغم اتفاق هذين المفكِّرين في كثير من الأمور – وكانت صداقتهما قد توطَّدت في أوائل السبعينيات – فإنهما تمسّكا بآراء متعارضة حول قضايا لغوية أساسية. وقد برزت خلفية هذا النزاع قبل سنة من ذلك في تعليق سعيد المفصَّل على الثورة التي أحدثها چومسكي في علم اللسانيّات في مقالة عنونها هكذا: «اللسانيات وعلم آثار العقل» Linguistics and the Archeology of Mind (1971)، وفيها وضع سعيدٌ چومسكي، على نحو مثير للحفيظة، في مقابل مفكِّر كان في نظره دجالا، ألا وهو المحلِّل النفسي والمنظِّر الفرنسي القُحّ جاك لاكان من المدرسة ما بعد الفرويدية[76]. وقد تذكَّر چومسكي من جانبه أنه «دهش أيما اندهاش عندما وجد أن إدْ كان يمكنه حتى أن يفكِّر بأخذ هذا الهراء مأخذ الجدّ» – حيث تشير كلمة «الهراء» إلى اللغة بوصفها خلقا تعبيريّا خالصا، أو، في حالة لاكان، بوصفها مرآة اللاوعي وبنية الرغبة الاجتماعية واللبيدية[77](**). أما سعيد فقد حافظ على موقفه باحترام.

في مقالة علم آثار العقل بدا أن سعيد تقصَّد أن يضع موقفين لا يتَّفق أحدهما مع الآخر جنبا إلى جنب: منهج علم الاجتماع والمنهج المعرفي لعلم اللسانيات الأكاديمي المعتمد، وهو العلم الذي كان چومسكي يهيمن عليه بلا منازع، والفكر الإستطيقي النظري لمجموعة متنوِّعة من النقاد، وعشاق الشعر، والفلاسفة الفرنسيين. أضف إلى ذلك أنه فعل ذلك بنوع من السذاجة الكاذبة بحيث وضع كلَّ قدم من قدميه في حقل الآخر الأجنبي كأن الجمع بين الطرفين كان أمرا طبيعيّا[78]. غير أن هذه الحركة حيَّرت كلا الطرفين وأزعجتهما

(*) للروائي الفرنسي إميل زولا. [المترجم].

(**) نسبة إلى اللبيدو أو الرغبة الجنسية. [المترجم].

بما فيها من انتقائية مزعجة، وعجز كلُّ طرف من الطرفين عن التعرُّف على مكانه فيها.

كان أكثر ما أعجب سعيد في أعمال لاكان هو «تحليلات المواقف الملموسة» التي ألمح إلى أنها تختلف عن نموذج القواعد النحوية الشاملة. وفي غمرة المراسلات التي كانت تحتدّ وتدافع أحيانا بعد ظهور المراجعة التي كتبها سعيد عن غُدْمَن ضغط على چومسكي لأن يقرأ بارت، وقال له إن دراسة بنڤنيست ستكون مفيدة أيضا[79]. أما چومسكي فقد رفض، وعدّهما متطفِّلين لم يقوما بأيِّ بحثٍ علميٍّ حقيقي، ولم يقرآ إلّا القليل، وخلطا المصادر التي قرآها فعلا. وقد انزعج بشكلٍ خاص من حماس سعيد لنفور غُدْمَن من التخصُّص (كان العنوان الفرعي للمراجعة «الرجل الطيب(*) في مواجهة النظريات» A Good Man against Theories) ومن تمسكه الرومانسي بأفعال الكلام بدلا من منهجه هو، وهو المنهج المتضمن دراسة الأسباب اللغوية لأيِّ كلام ممكن أو حتى لأيِّ فكرة.

وفي الردِّ على موقف چومسكي قال سعيد «إن تعقيدات الكلام اليومي لا يمكن اختزالها إلى تنويعات على جمل إخبارية بسيطة»[80]. وأكَّد أن غُدْمَن كان مُحِقّا في إحساسه بأن الجمل الصحيحة قواعديّا ليست محايدة من حيث المعنى، وفي تساؤله عما إذا كانت المعالجة الچومسكية التي تتحكّم في كل تفاصيل اللغة لم تكن مقطوعة الصلة بثراء الحياة، وأن تلك المعالجة وضعت محل ذلك الثراء «إطارا للتواصل أو لإرسال الرسائل مقطوع الصلة بالأشخاص». فوفقا لِغُدْمَن (وسعيد الذي وافقه)، لم يكن بوسع چومسكي أن يفسِّر «لهجة الكلام، ونغمته، والحركات المرافقة له، وفترات الصمت التي تؤدّي دورا مهمّا في السلوك اللغوي»[81]. ثم إن العناد بلغ من چومسكي حدّا منعه من التسليم بأن القواعد الكونية Universal Grammer(**)، بغضّ النظر عما فيها من نظرات صائبة، كانت مقطوعة الصلة بالمواقف الفعلية والأحداث اللغوية؛ حيث يستغلُّ الأفراد الكلمات بوسائل تعبيرية لا نهاية لها كثيرا ما تكون شخصية جدّا.

(*) تلعب العبارة على اسم Goodman وتجعله Good Man. [المترجم].

(**) القواعد الكونية تعني نظام التصنيفات والإجراءات والمبادئ النظرية أو الافتراضية التي تشترك بها جميع اللغات، وهي تُرى في قدرة جميع الأطفال على اكتساب اللغة، وهي قدرة كامنة في كينونتهم البشرية منذ الولادة. [المترجم].

لقد أحسَّ سعيد أن عدم الاكتراث الضمني لدى چومسكي بقدرة الإنسان على الفعل يدلُّ على وجود عيب في رؤيته السياسية. والتجميع الرائع للحقائق التي تفضح أكاذيب الإمبراطورية في كتب چومسكي السياسية كان في نظر سعيد مبهم المعنى، واشتكى بقوله: «أنت تنتهي بأن تسبِّب الكآبة لنفسك، وتجعل من الصعب على قرّائك أن يعرفوا ماذا يفعلون بكلِّ هذه المعلومات»[82]. هذه الفضائح لم تعطِ القرّاء، مهما بلغ من شجاعتها وصدقها، أي فكرة عن كيفية محاربة هذه المظالم، أو عن سبب الردّ عليها وكيفية هذا الردّ. لكن غُدْمَن من ناحيته لم يكن هو الحلّ، وقد خفَّف سعيد من استياء صديقه عن طريق توجيه النقد الشديد لصورة غدمن الشخصية التي تدغدغ الذات بأنه خارجيّ مناهض للثقافة العقلية السائدة. فغُدْمَن لا يفتأ يستشهد بالفرد والحرية كأنه شاعر رومانسي، وهو يفتقر إلى التحليل الذكي للقيود التي تفرضها وسائل الإعلام، والشركات، والدولة على الحرية. «إنه يترك قارئه على مستوى اللغة»، يبدي إعجابه بجمالها أو قوَّتها التعبيرية وفق تفسير سعيد «من دون رؤية طريق العودة إلى العالم الواقعي ليغيِّره». وهنا احتجَّ سعيد بالقول «إن هذه الأخلاقيات اللبرالية» ليست سوى طريق مسدود[83].

على أن ذهنه كان مشغولا أكثر بمقالة أخرى نشرها بعد شهر عشية وصوله إلى بيروت. هذه الزاوية الأخرى من القصة الكامنة في خلفية «البدايات» يمكن الرجوع بها إلى مقالة من مقالاته لم تظهر باللغة الإنگليزية قط عنوانها «التمنُّع، التجنُّب، التعرُّف» (1972)، وهي مقالة نُشرت باللغة العربية في المجلَّة الأدبية «مواقف»، وهي مجلَّة فصلية يشرف عليها أدونيس[84]. فقد رضخ سعيد بعد ثلاث سنوات من إلحاح أدونيس عليه ليكتب للمجلَّة[85]. وتبيَّن أنها تخاطب شعبه مخاطبة مباشرة مؤلمة، وهي المقالة الأولى من مقالاته الفلسطينية الموجَّهة إلى الجمهور العربي فقط. عالجت مقالة «التمنُّع، التجنُّب، التعرُّف»، وهي مقالة تعدُّ صيغة أشد إيلاما وراديكالية من المقالة التي كتبها في العام 1968 بعنوان «البدايات» استعدادا لكتاب «البدايات»، قضايا ذات صلة من زاوية مختلفة[86].

مضى في تلك المقالة، بحذر أحيانا ودون حذر في أحيان أخرى، مدركا أنه قد يُرى كأنه دخيل من نيويورك يجرِّب مياها لا يعلم عمقها[87]. لذلك فإنه أحسن صنعا بالسماح لأدونيس، وهو حداثي أدبي يتمتع بقدر من الأهمية في أدب القرن

العشرين، وصديق الروائي إلياس خوري، الصديق اللبناني لسعيد، بالحكم عليها. ولما كان أدونيس يجمع إلى صفة الشاعر صفتي الـمُنَظِّر والمترجم، فإنه وجد المقالة مثيرة للفكر وذات أصالة عالية، ولكنه اختلف مع منهجها بلطف، ووجد أجزاء منها غير قابلة للترجمة، وانتقد المقالة بسبب إثارتها لقضايا خلافية تركتها من دون حلّ؛ ولاسيما علاقة الأدب الإنكليزي بالمعضلة العربية. كذلك وجد فيها أكثر من اللازم عن أمثال نيتشه، وأقلَّ من اللازم عن «المصادر القومية»[88].

تعقَّدت ردود الفعل على المقالة في الحقل المكتظّ الذي التحقت به. فقد كان عدد من المثقَّفين العرب في ذلك الوقت قد كتبوا «تشريحات» لنكسة العام 1967، مع كلام قاس حول ما يجب عمله منذئذٍ فصاعدا. وقد عبَّر الروائي الفلسطيني البارز غسان كنفاني عن استيائه من موجة النقد الذاتي بقوله إنها «حفلة ماسوكية لشتم الذات»[89]. وقد كانت مقالة سعيد تنتمي إلى تلك الموجة، وكان هو على وعي بذلك. وكان كثير من المثقفين العرب في تلك الفترة على استعداد للنظر إلى كتاب العظم، صديقه الجديد الماركسي السوري، بعنوان «النقد الذاتي بعد الهزيمة» (1968) على أنه قمة ما كتب في هذا النوع من الكتابة وأنه قنبلة الموسم. فإلى جانب كتابه الذي يعود للحقبة ذاتها، والذي انتقد فيه أسس الفكر الديني، جعله هذا الكتاب مشاغب العالم العربي الذي لا يكترث باللياقة. وقد بدا أن سعيد يقلِّد أسلوب العظم الذي يثير الحفيظة باختتام المقالة بتفسير لمسرحية عطيل استعاد فيه شخصية البطل الذي تعرَّض للإساءة ليكون أنموذج القائد العربي المعاصر الذي حيكت ضدَّه المؤامرات من كلّ جانب. وقد ركَّز سعيد على السطر الذي يقول فيه عطيل «عندما تروون هذه الأحداث العاثرة، تحدَّثوا عني كما أنا، ولا تُخفوا من الحقيقة شيئا»، وأصرَّ على أن مأساة عطيل الحقيقية لم تكن غيرته، أو سذاجته، أو المؤامرة التي حيكت ضدّه، بل هي افتراضُه أنه كان يعرف من هو.

ومادامت «الذات» على المحكّ فقد احتلَّ التحليل النفسي مكان الصدارة في مقالة «التمنُّع» التي وصفها سعيد بأنها «تاريخ نقدي نفسي للواقع العربي المعاصر»[90]. تساءل عن سبب افتقار العرب إلى أي إحساس «بالكفاية، بالتقدُّم... بالعلم أو بالحيوية الثقافية»، وقال إن من الواضح أننا «مزيج من المؤثّرات الغربية والتقليدية»، ولهذا السبب بالذات «فإنه ليس هنالك من يستطيع القول بصراحة

ما الذي ينبغي للعربي أن يكونه». ليس هنالك ما يستدعي أن يسير تقدُّمنا على وفق الإتقان الغربي لتكنولوجيات الكتابة التي جعلتنا أوروبيين من الدرجة الثانية. لقد تمكَّن الغرب تحت سلطة «الكتاب المقدَّس، والسبّورة، والمطبعة» أن ينشر صيغته من الواقع. أما وقد أصبح العالم «نظاما معقّدا من النظم المتشابكة» حيث يلغي الإعلام الرقمي قيمة النصوص المطبوعة، فإن النوع البشري نفسه أخذت قيمته تضمحل في وجه «الظواهر التي تتجاوز البشر مثل نظم التحكُّم، أو الفضاء الفاصل بين الكواكب. في شبكة الحداثة الزائفة هذه، يُنتَج العربي لكي تستهلكه ثقافة عدوانية تسعى إلى الاستحواذ».

فسَّر سعيد سبب كتابة المقالة التي كانت قد ظهرت قبل أشهر قليلة في رسالة حارقة لصديقه سامي البنّا في يوليو من العام 1972 بعد وصوله إلى بيروت لقضاء فترة الزمالة. وقد شهدت حدَّة الرسالة وطولها على تعقيدات ظهوره الأول في أوضاع الشرق الأوسط السياسية والأدبية، ولربما أعطت أفضل صورة منفردة عن فكره في واحدة من أوضح المراسلات في حياته. فقد اشتكى من أن الجميع في بيروت يتصرَّفون كأن الأمور ظلَّت على حالها (الملابس، التحيّات، ما إلى ذلك) على رغم أن ما حدث كان رهيبا. «في الأسبوعين الأخيرين... فقدت كلٌّ من مصر، والعراق، ولبنان، ومراكش، والسودان عددا من الجنرالات، وقُضي على عدة آلاف من الفلسطينيين، أو استسلموا لإسرائيل، أو اختفوا»، ومع ذلك فإن كل شيء يجري «كأن كلَّ ما حدث كان مجرَّد استراحة لشرب القهوة»[91]. وفي غمرة غضبه فسّر الأسباب: «المجتمع... فقد الذاكرة، فقد الإحساس بالأبعاد (ليس لديه تصور عن المستقبل، أو قدرة على التخطيط)، فقد الاستقرار باستثناء ذلك الذي ينتج عن التوازن المجرَّد».

وفي استباق يلفت النظر إلى مخاوفه المتعلِّقة بأصالة العالم الثالث في «البدايات»، استنتج بمرارة أن «الحركة التي يمكن توقُّعها من العربي هي الحركة الدائرية... ولذلك يُظَنُّ أن التكرار تجديد، وذلك خاصة لأنه يفتقر إلى الإحساس بالتعرُّف». ثم اشتكى من أنه على رغم كل ما يتشدَّق به مدَّعو المواقف الراديكالية فإنهم ليست لديهم أي فكرة عن كيفية البدء بالثورة. «الواقع عندنا نحن العرب وظيفة من وظائف اللغة. ومع أن ذلك يصحُّ على الغرب بشكل من الأشكال، فإن هناك في الغرب وعيا بذلك، أما هنا فهذا الوعي مفقود». لقد حدَّد المشكلة تحديدا واضحا

في مقالة «التمنُّع» عندما اشتكى من أن لغة العرب أخذت منهم عندما قيل لهم إنها لغة الله. وهي بهذا الشكل لغة ثابتة لا يمكنها أن تتغيَّر مع مسيرة التاريخ. عليهم إما أن يستعملوا لغة الغرب أو لغة الله، وهم واقعون بين اللغتين[92]. والإمكانيّات التي تتيحها اللغة الشعبية(*) تحجبها اللغة العربية الكلاسيكية المنمّقة، «الثابتة، ولذا فإنها تتصف بالكمال»، ولا تتيح للمرء سوى «تكرارٍ مجموعُه صفر»[93].

وعلى غرار مالك فإنه شعر بأن الوضع يسمح بالكلام عن «العقل العربي» على امتداد الحدود الوطنية في الشرق الأوسط؛ فقد شعر بأن ثمة نسخة مشتركة على رغم وجود اختلافات لا حصر لها. ومما يؤسف له، من وجهة نظره، أن المثقفين من أمثال طه حسين في مصر في ردٍّ فعلهم على حرب العام 1967 استعملوا البنى الفكرية الغربية التي لم تفحص. وحتّى فانُو الذي استعان سعيد به استعمل فرويد وماركس وسيلتين للاحتجاج ضدّ الاستعمار الأوروبي، وبذلك أجَّل مهمة خلق ثقافة ذات أصول محلية خالصة[94]. وبالنظر إلى الاقتباسات الطويلة في الكتاب من ڤِرلين، وإلْيُت، وفرويد فإن مَهَمَّة وضع تفاصيل ثقافة، وسياسة، وإستطيقا عربية هي ما كان يسعى إلى عمله في أثناء العمل على إنجاز «البدايات» على رغم كل ما في ذلك من بُعد الاحتمال.

***

عندما غادر بيروت متوجّها إلى بلاده(**)، لم يكن الكتاب قد اكتمل. فعند انتهاء السنة المملوءة بالأحداث في العاصمة اللبنانية، عاد سعيد إلى نيويورك عن طريق أوروبا في صيف العام 1973، قبل اندلاع حرب أكتوبر ببضعة أشهر، وهي الحرب التي شنتها كلٌّ من مصر وسورية لاسترجاع سيناء ومرتفعات الجولان اللتين احتلتهما إسرائيل في العام 1967[95]. كذلك كانت أخبار التحقيقات الجارية بخصوص فضيحة ووترغيت Watergate لدى توقُّفه ومريم في فرنسا في يونيو قد سرّته، فكتب إلى

(*) الكلمة الأصلية هي demotic، وتشير في العادة إلى اللغة اليونانية الحديثة في مقابل اللغة الكلاسيكية، واستعمالها يوفر لسعيد مقابلا مفيدا يخلصه من الصعوبات التي تنتج عن استعمال مصطلح اللغة العربية «المحكية» لأن هذه اللغة شديدة التنوع، وليس من السهل تحديدها بالوضوح الذي ينتج عن استعمال demotic في حالة اللغة اليونانية. [المترجم].

(**) المفارقة هنا هي أن بلاده في هذه الجملة تعني الولايات المتَّحدة، وهي بلاده فعلا بحكم جنسيته الأمريكية. [المترجم].

أصدقائه من سكن كولمبيا في ريد هول، في 4 شارع دي شيڤروس في باريس، وكشف عن مشاعره المتباينة حيال ما مرَّ به في لبنان: «الرقابة شديدة جدّا»[96]. النزاعات بين اللبنانيين والفلسطينيين كانت تتكرَّر، شأنها شأن الغارات الإسرائيلية[97]. «ولكنني أشعر بأن الحركة أبْلت بلاء حسنا عسكريّا وسياسيّا في المواجهة الأخيرة»[98].

لم يطل به الوقت بعد عودته قبل أن يندفع بلا تحفُّظ في غمار المقاومة الفلسطينية مدفوعا بما كان يحسُّ به من تفاؤل. وقد مهّد معارفه في بيروت السبيل، ولكن هذا المسار كان حتميا بالنظر إلى النجاح الذي حققته مقالة «صورة العربي» التي كانت انتشرت في الشرق الأوسط وفي الشتات العربي انتشارا واسعا. كان قد أصبح شخصا معروفا، فطُلِبَت منه المعونة في الترجمة الإنگليزية لخطاب عرفات في الجمعية العامة للأمم المتَّحدة في شهر نوفمبر من العام 1974. وكان أحد أقرب مستشاري عرفات، أي الحوت، صديقا منذ الطفولة لأبو لغد، وكلاهما من لاجئي يافا، «عروس فلسطين». وفي أثناء مكوث الوفد الفلسطيني الذي يمثِّل منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتَّحدة توطَّدت العلاقة بين سعيد والحوت مباشرة، مما أعطى سعيد إمكانية الوصول إلى كبار المسؤولين في المنظَّمة. ومن المعروف أن سعيد أهدى كتابه «سياسة الحرمان» The Politics of Dispossession (1994) إلى الحوت وزوجته بيان، وبقيا صديقين طوال حياتهما بعد ذلك[99].

كان نبيل شعث هو الذي وضع الصيغة الأصلية لخطاب عرفات ثم أرسلها إلى الحوت للنظر فيها[100]. وقد أعيد النظر فيها بمساعدة من وليد الخالدي، وصلاح دبّاغ، ومحمود درويش، الذي لم يكن يعرف اللغة الإنگليزية بما يكفي على رغم مكانته العالية في الأدب العربي، وعلى رغم كونه أمير الشعراء الفلسطينيين. ثم أُعطي الخطاب بشكله هذا لهدى عسيران للعمل على ترجمته مع فريق عرفات، ولكن النتائج لم تكن مرضية. هنا فاتح الحوت سعيد في هذا الأمر فوافق على تنقيحه، وعمل مع رندة خالد فتّال، وهي تعمل في مهنة التحرير، فأنتجا الصيغة التي ألقيت في الأمم المتَّحدة في 13 نوفمبر 1974. كان سعيد قد أضاف أمورا يعرف أنها ستترك أثرا حسنا لدى مستمعيه الأمريكيين، وأضاف بحماس خاتمة الخطاب الشهيرة: «لا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدي». ولما كانت مريم هي الوحيدة في المجموعة التي تعرف الطباعة، فإنها أنهت الصيغة النهائية على آلة الطباعة

المهلهلة من نوع سمث كورونا Smith Corona في البيت قبل أن يسلِّمها الحوت بنفسه في الساعة الرابعة من فجر يوم إلقاء الخطاب[101].

قُبِلَت نصيحة سعيد في هذه المناسبة، ولكنها نَدَرَ أنْ قُبلَت بعد ذلك، على رغم أن تأثيره ظهر بطرق أخرى. فعندما حضر مندوبو المنظَّمة إلى نيويورك في أواخر السبعينيات لإلقاء خطب في الأمم المتَّحدة عمل سعيد على ترتيب لقاءات مع مجموعات صغيرة من المتعاطفين مع قضيَّتهم والمنتقدين لمواقف المنظّمة. كانت هذه الندوات مصمَّمة لإسماع القيادة آراء بعض المؤيدين لقضيتهم من أمثال چومسكي، وأحمد، والمؤرخ الروسي ألكزاندر إرلخ Alexander Ehrlich عن كيفية تقديم وجه جديد أمام الجماهير. فقد وجد چومسكي مثلا أن المنظمة تختلف عن بقية حركات التحرير في العالم الثالث من حيث عجزها عن التفكير إستراتيجيّا[102]. ففنادق نيويورك الباذخة وحفلات العشاء المكلفة كلها كانت أعراضا خبيثة لمنظّمة لها كبرياؤها يتعرَّض أعضاؤها للتجاهل ولكنها وجدت نفسها فجأة تحت الأضواء عندما نالت الاعتراف الدولي في السبعينيات. ففي أحد المواقف وصف أحمد هذه المناسبات ساخرا بأنها «ولائم تقام بصفتها آخر أشكال الكفاح»[103].

أما وقد حصل سعيد على موطئ قدم في بيروت فإنه كثيرا ما عاد إليها في السنوات اللاحقة وزار عرفات زيارات روتينية. وفي كتاب شفيق الحوت «حياتي في منظمة التحرير الفلسطينية» (2011) سرد الكاتب كل الأحداث المثيرة في قصة أشبه بأفلام الرعب والمخاطر التي يتعرَّض لها الناطق بلسان الفلسطينيين. فقد نجا الحوت نفسه من ستٍّ محاولات اغتيال تراوحت ما بين تفجير مكتبه والقناصة الإسرائيليين الذين جرحوه بإطلاق النار من سيّارة متوقّفة بينما كان يغادر مسكنه[104]. أما عرفات، وبمعزل عن حبّ الفلسطينيين له وتأييدهم إيّاه، فقد كان ذا مظهر يلفت النظر، بعينيه النفّاذتين، وابتسامته اللطيفة، وحضوره الطاغي. وقد وصفته بيان بقولها «إنه لم يكن يصلح لأن يكون نجما سينمائيا، ولكنه كان شديد الانتباه على الدوام، ويحمل معه قلما ودفترا صغيرا لكتابة الملاحظات»[105]. أما شخصه فقد كان - على عكس الصورة التي ابتُكِرت له في وسائل الإعلام الغربية – حسّاسا، بالغ التهذيب، لطيفا، كثيرا ما يضحك، مسلِّيا. وكانت مؤهلات الشتات التي اكتسبها تناسب الوقائع الفلسطينية، فقد ولد في القدس بينما كانت العائلة تعيش في مصر،

وكان يتكلّم بلهجة مصرية، وكان مقرُّه في الكويت قبل أن ينتقل إلى الشرق الأوسط ليقود منظمة التحرير الفلسطينية.

عندما كان سعيد وعرفات يلتقيان كانا يتحدَّثان باللغة العربية فقط، ويستعمل سعيد لهجة بلاد الشام وليس اللهجة المصرية على رغم أنه كان بإمكانه استعمال اللهجة التي تعلَّمها في طفولته عند الحاجة[106]. وقد ظلَّ سعيد مخلصا لـ «الخِتْيار» the old man كما كان يدعوه حتى اتفاقات أوسلو؛ وكبر سن عرفات هو ما كان يتعرَّض للانتقاد الشديد بسببه حتى من قبل حلفائه. فعلى رغم كل عيوب عرفات قائدا – أسلوبه الزئبقي، تشدد قيادته، تذبذبه بين التعنت المذهبي والتنازلات غير الضرورية، وعدم قدرته على فهم الثقافة الأمريكية وعجزه عن مخاطبتها بالطريقة الصحيحة – فإن الحركة الفلسطينية كانت لا تنفصل عن وجود عرفات، سواء أكان ذاك لحسن حظّها أم سوئه. ولكن سعيد مارس قدرا من الضغط غير المباشر حتى في الأيام الوردية التي تسبق أوسلو، وجعل ألكزاندر كُكْبِرن Alexander Cockburn يلوم عرفات بسبب احتفاظه بالكفّية، واللحية غير الحليقة، والزي العسكري، وهي صفات جعلته هدفا سهلا لسخرية المجلّات الأمريكية منه[107].

غير أن عرفات هو الذي «أقام المؤسسات، ووزَّع الأسلحة، وزرع في الناس الإحساس بالأمل والاعتزاز» من خلال منظمة فتح[108]. ولذلك كان من المفهوم أن يشنَّ سعيد، في السنوات التي تلت، حملة دفاع عن زعامته بعد حصول تمرُّد داخل المنظَّمة بدعم من سورية والأزمات التي سببها الغزو الإسرائيلي الذي أجبر المنظمة على مغادرة بيروت[109]. ولم يتردَّد سعيد في مساعيه إلى أن دبّ الخلاف بينهما. ففي مجلَّة «إنترفيو» Interview (وهي مجلة تعبّر عن آراء أندي وارهول Andy Warhol وتنشر آخر الصرعات في عالم أزياء ما بعد الحداثة) روى سعيد بحرارةٍ لقاء مع عرفات في المقرّ الجديد لقيادة المنظمة في تونس، وأعطى صورة لا تنسى عن جاذبية شخصية عرفات، عن وقاره، وعن محبَّته له على رغم كلِّ عيوبه وخيبات الأمل التي سبّبها[110].

كان من بين النتائج التي نجمت عن كتابة مقالة «التمنُّع» تخصيص أرضية وسطى بين الفلسفة والنشاط السياسي، وبذا شحذ فهمه لعبارة مثل «سياسة الأدب» The Politics of Literature (وهي عبارة كانت في ذلك الوقت الشغل الشاغل للجامعات).

وقد كان عدم استعداده للفصل بين حياته المهنية وحياته السياسية قد أعطى خصومه مدخلا يدخلون منه. فقد استعانوا بالمفاهيم الخطأ الشائعة عن التخصُّص وسخروا مما وقف نفسه لخدمته. ومن هؤلاء آيمُس [عاموس] پيرْلْمَتَر Amos Perlmutter، وهو من معلِّقي وسائل الإعلام ومن المقرَّبين من الحكومة الإسرائيلية. فقد قلَّل من أهميته في برنامج «الساعة الإخبارية لمَكْنيل وليرَر» the MacNeil/Lehrer New Hour باللعب على الكلمات بقوله إن سعيد بصفته أستاذا للغة الإنكليزية «يحبّ القصص»، كأن التهم الموجَّهة لإسرائيل كانت من صنع الخيال[111]. ولم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي يفشل فيها أعضاء لجان الخبرة في الارتفاع إلى مستوى الحجج التي يطرحها سعيد. وكثيرا ما لاحظ سعيد أن القضية الإسرائيلية-الفلسطينية كثيرا ما اتَّخذت شكل الصراع على خلق الصور. «لم يؤدِّ علم البلاغة في أي صراع من صراعات العصر الحديث دورا بلغ من أهميته ما بلغه الصراع العربي - الإسرائيلي في إعطاء الشرعية لأفكار تجافي المنطق (وهو ما يوصف أيضا بخلق الحقائق)»[112].

ظلَّت كتابات سعيد تولي مسألة قدرة الخيال على تنظيم العلاقة بين العقيدة والفعل أهمية خاصة. فقد كان موقفه بالمقارنة مع مواقف غيره من نقّاد الأدب في أيّامه مناقضا تماما للموقف الذي استهدفته غمزة پيرْلْـمَتَر. إذ كان يؤمن بأن الواقع قد يكون مستقلّا عن القصص التي تُروى عنه، ولكن معنى ذلك الواقع لا يكون كذلك أبدا. فالحقائق «تخلق» بمقدار ما تُتَجاهل فيه حقائق أخرى، ويجري اختيار بعضها اختيارا، ثم تُرتَّب على شكل سردٍ يكون هو الطريقة الوحيدة لجعلها ذات معنى. وفي الأغلب يكشف الإصرار على «الحقائق» عن «احتقار للرأي والتفسير» مع الانحياز لما يعدُّ حقيقة في الرأي التقليدي، ولذلك يكون جزءا من «مذهب الموضوعية والخبرة»[113]. وبينما كان يعمل على كتاب «البدايات» فإنه لم يكن قد انتهى من صياغة موقفه من مسؤوليّات تمثيل الواقع بهذا المعنى، ولكنه مع نهاية عقد السبعينيات وجد صوته في ملاحظة كتبها بخط يده على ورقة من ورق فندق جامعة كورنل:

> أرى أن النظرية النقدية التي ظهرت أخيرا شدَّدت أكثر من اللازم على لامحدودية التفسير.. وهذا موقف أعارضه ليس فقط لأن النصوص توجد في العالم، بل أيضا لأنها من حيث إنها نصوص تضع نفسها [في مكان وزمان]، وهي على ما هي عليه بما تفعله في العالم[114].

من الواضح أن هذا الرأي نشأ في أثناء السعي إلى التوفيق بين الفيلولوجيا وفوكو في «البدايات». لكنه رأى في فترة متأخِّرة من حياته أنه على رغم أنه «بدأ بالفكرة القائلة إنه لا وجود لشيء اسمه التفسير الصحيح» فإنه انتهى إلى التخلُّص من هذا الرأي. لكنه لم يقل لنا إنه حقق ذلك لأسباب عملية بينما كان يعمل على صياغة مواقف سياسية وقرارات تصدرها الأمم المتَّحدة حيث تكون المعاني الدقيقة أساسية للسيادة القانونية والسياسية، ناهيك عن خلق دولة فلسطينية يكون فيها الأساس القائم على الحقائق للسرديات المتنافسة ذا أهمية قصوى[115].

وبما أن عددا من أقرب حلفائه كانوا يُقتَلون أو يتعرَّضون للتهديد فإن أنشطة سعيد في أثناء تنقلاته بين نيويورك وبيروت في السبعينيات كانت لها مخاطرها. ففي إحدى المرّات في ذروة العواطف المتأجِّجة في أثناء الحرب الأهلية لم يُشر إلى أن من كانوا في سيارة مفخخة كانوا «شهداء» (وهي كلمة التكريم المفضلة)، بل فعل ما هو أسوأ بقوله إن العملية كانت تخلو من الحكمة. وسرعان ما علم أن إحدى الجماعات قد قررت اغتياله. ولذلك فإنه عاش هو وعائلته مهدَّدين خشية تنفيذ التهديد الذي صدر بحق آخرين ارتكبوا الخطيئة نفسها. ومما زاد الأمور سوءا أن سعيد فُهم أنه قال بعد بضع سنوات في مقابلة مع جريدة «الشرق الأوسط» إن الكفاح المسلَّح «ليس سوى شعار، وأنه مفهوم عفّى عليه الزمن»[116]، وهو ما نفاه فيما بعد. وكما قال سعيد لمؤرِّخ الشرق الأوسط فْرِد هالِدَيْ Fred Halliday، كانت «الضجَّة التي أحدثها ذلك.. تكاد لا تصدَّق.. معظم الانتقادات اتَّهمتني بالخيانة، بالدعوة إلى الاستسلام، بالعمالة، بأنني عميل للإمبريالية الأمريكية، أضحوكة، وهكذا دواليك.. وقد شنَّت جريدة «الهدف» في آخر عدد لها في بيروت حملة إجرامية ضدّي»[117]. غير أن الخطر سرعان ما زال، ولكن سعيد شعر بنفاد الصبر إزاء هذه المواجهات التي جعلت حياته الثانية في الأدب تبدو أشد جاذبية.

لم تكن رحلاته إلى الشرق الأوسط تقصد لبنان دائما. ففي صيف العام 1975 وجد أن القاهرة، المدينة التي ترعرع فيها، مغبرَّة تتوسَّع، وتفتقر إلى الخدمات الاجتماعية، وادّعى أنه لن يعود إليها (وهو ادّعاء لم يثبت عليه). ومع ذلك أتيحت له الفرصة وتوافر الوقت لمشاهدة الراقصة المصرية الكبيرة تحية كاريوكا وهي تمثِّل في مسرحية ساخرة أعطت المجال، وفق ما قال آسفا، لظهور توجُّه يميني يتنامى

ويضيف حاجزا آخر لم يكن في الحسبان أمام طموح الفلسطينيين لإنشاء دولة خاصة بهم[118]. وفي العام 1977 بقي سعيد في كولمبيا، بينما سافرت مريم وابنه الصغير وديع وابنته الجديدة نجلا إلى لبنان في يناير في أثناء توقُّف مؤقّت للصراع، ثم التحق بهم فيما بعد في رحلة منفصلة في يونيو. وفي السنة التالية جعلت الحرب الأهلية السفر إلى هناك أخطر من أن يسمح بالمغامرة[119].

غير أنه تمكن من القيام برحلات إلى لبنان عندما سمح بالقتال، في محاولة منه، من بين أمور أخرى، لاستقطاب بعض الأكاديميين من أجل القضية. ففي العام 1979 فكَّر في أن أحد المستقطبين قد يكون الناقد الأمريكي فردرك جيمسن Fredric Jameson، وهو تلميذ سابق لأورباخ، وكان سعيد يسعى إلى استقطابه بعد ظهور كتابه البارز «الماركسية والشكل» Marxism and Form (1971). وكان قد قدَّم جيمسن لصادق العظم. أما الآن، فمادام جيمسن قد جاء إلى الشرق الأوسط في رحلة رتّبها سعيد مع إقبال أحمد، ومع وجود ديفد دلنجر David Dillinger ورامزي كلارك Ramsey Clark ومشاركة آخرين من العاملين من أجل السلام فإنه رأى أن الفرصة متاحة[120]. وقد كتب فيما بعد لروبرت أولتر Robert Alter من بيروت رسالة تكلَّم فيها عن دوافعه:

> من المصادفات الطريفة أنني فكَّرت أن الوقت قد حان ليسهم فْرِدرك جيمسن ومجموعة صغيرة أخرى كنت أنا قد شجَّعتها ورتّبت أمورها إلى حدٍّ ما (خاصة فْرِد، الذي تعرف أنني أحبه وأكنُّ له الإعجاب) في قضية سياسية تتضمّن شعبا وحركات، وكفاحا، وحتى حربا، ولا تقف عند حدّ النظرية إن كنت تفهم قصدي. الوضع هنا وضع يائس شديد التوتُّر: العنف منتشر في كل مكان.. سآخذ فْرِد والبقية إلى الجنوب غدا لكي يشاهدوا الوضع بأعينهم[121].

مع حلول العام 1982، وبعد الغزو الإسرائيلي، تحوَّل ميناء المدينة الذي كان بالغ الجمال إلى جدران مزَّقها الرصاص، وأُفرغت مجمَّعاتُ شققه بالقذائف الإسرائيلية. كانت بيروت في السابق منتجعا للعائلة من حرِّ أصياف القاهرة، ثم أصبحت في ذلك الوقت موطنا ثانيا على رغم ازدياد صعوبات زيارته.

6

عقل الأغيار

لا بداية إلا بعد قطع نصف المسافة[1]

لا بداية إلا بعد الانتهاء من نصف المَهمَّة

جون كيتْس John Keats

إن نقد سعيد المنتمي إلى ما بعد الاستعمار قد جعل الباحثين الأمريكيين في دراسات الشرق الأوسط عاجزين عن المساهمة في حرب بُشْ على الإرهاب

كانت حالات النجاح والفشل التي رآها سعيد في الحركة الفلسطينية في السبعينيات في لبنان قد دفعته على نحو لا فكاك منه ليس فقط إلى أداء دور الناطق الفكري باسمها، بل إلى أن يكون عضوا فاعلا فيها أيضا. وكان قد أصبح داعية ماهرا بمقالاته وخطبه، ولكن كثيرا من أصدقائه عدّوه غير مؤهَّل للنشاط العملي. وعلى رغم ذلك، فإنه منذ أواسط السبعينيات فصاعدا وجد نفسه يسافر في كثير من الأحيان

لحضور الاجتماعات والمناقشات مع الزملاء، وتحرير البيانات، واقتراح السياسات، وبناء المؤسسات غير البادية للعيان. وقد تبيَّن من المتابعة الحثيثة التي كان يجريها مكتب التحقيقات الفدرالي الذي كان يتابعه عن كثب أن سعيد، من وجهة نظر المكتب على الأقل، كان «هو حلقة الوصل غير الرسمية بين الولايات المتَّحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية»، وأن «[عرفات] كان يطلب منه النصح أكثر مما يطلبه من... الممثلين الآخرين للمنظمة في بعثتها الدائمة لدى الأمم المتّحدة»[2].

ليست مقالاته السياسية، ابتداء من أواخر الستينيات، مرورا بالسبعينيات والثمانينيات حيث ترسّخت قدراته فيها، استجابات إعلامية أو عاطفية أو تأمُّلات فكرية، بل مقالات ذات طبيعة إجرائية عملية. وإذا ما نُظِر إليها معا فإنها تشبه المخطَّط الذي تقوم عليه الحركة، والذي يبيِّن تعقيداتها التي قد تصعب ملاحظتها، على رغم أن المخطَّط لم يُتَّبع دائما[3]. وقد تجاوز عدد من المقالات الفائدة المباشرة فأصبحت أعمالا كلاسيكية. فليس هنالك، على سبيل المثال، تقرير أعمق عن الطبيعة الزلقة للعنف من المقالة المعنونة «الهوية، والنفي، والعنف» Identity, Negation, and Violence (1988). كذلك فإن مقالة «الصفات الأساسية للإرهابي» The Essential Terrorist (1986) ليست مجرد شكوى من استعمال الكلمة لتلطيخ اسم المنظَّمة، بل هي تشريح لما يتلبَّس حقبة كاملة من تاريخ وسائل الإعلام البريطانية والأمريكية. وقد رأى فيها المؤرِّخ پَري أندرسن Perry Anderson أروع ما قيل عن مصطلح «الإرهابي»، ذلك المصطلح الخبيث[4].

وفي نظر سعيد، كمَّل كونُه أستاذا جامعيّا عملَه السياسي. وقد ذكرت جوان ويپيشڤسكي JoAnn Wypijewski، وهي محرِّرة سابقة لمجلة «ذا نيشن» The Nation: «إنك تشعر دائما مع سعيد أنه يحتوي على الكثير»[5]. وقد أدّى اضطراره لإثبات قضيته المرة تلو المرَّة إلى «شيء أشبه بالشعور البركاني» الذي يهدأ إلى حدٍّ ما بالانسحاب إلى العالم الفكري الذي كان بإمكانه اللجوء إليه.

لقد شكَّلت مراسلات سعيد السياسية على وجه الخصوص منشورا زجاجيا prism يمكن بواسطته أن نرى الأوجه المختلفة لحياته[6]. ومن هذه أن يكون مرشدا لأولئك الساعين إلى إجراء أبحاث أصيلة عن فلسطين، أو لفضح أكاذيب وسائل الإعلام عن إيران والعراق ومناطق أخرى من العالم العربي[7]. فمنذ أوائل السبعينيات

كان يقضي معظم يومه عبر الهاتف وهو يقنع، ويلاطف، ويداهن، ويخبر، ويخطِّط، ويصل بين هذا وذاك لتشكيل شبكة من أصحاب الفكر الواحد. والأرشيف مملوء بالرسائل التي تلقّاها ليس فقط من أولئك الذين وجدوا فيه مثالا يحتذى بل من أناس يكتبون له لمعرفة رد فعله. لقد ظلَّ يتلقى الرسائل بشكل يومي على مدى ثلاثة عقود من منظمات الطلبة العرب، والمنظمات اليهودية المنشقّة، ومن لجنة الخدمات التي يقدّمها الأصدقاء الأمريكان (American Friends Service Committee)، ومركز أبحاث الحدّ من التسلُّح (Arms Control Research Center)، والاتحاد الأمريكي للحريات المدنية (American Civil Liberties Union)، واتحاد الهيئات العمالية (Confederacion Sindical de Comssionis Obreras)، والاشتراكيين الديموقراطيين الأمريكيين (Democratic Socialists of America)، ولجنة التنسيق الأوروبية للمنظمات غير الحكومية (the European Coordinating Committee of NGOs)، ومنتدى آينشتاين (the Einstein Forum)، ومطبعة الشجاعة العامة (Common Courage Press)، والكنيسة المشيخية(*) في أبنغتن (the Abington Presbyterian Church).

ومن أدواره الأخرى تقديمه ملخّصات لمشروعات بحثية مقترحة، وذلك بحثِّ المجلات، وفرق العصف الذهني، والمؤسسات، والأفراد للبدء بالبحث في س أو ص، والتوسُّع في هذه المبادرة أو تلك. كذلك انشغل، بعد أن اشتُهر، بفتح أبواب المؤسسات الراقية للباحثين من الشرق الأوسط، أو من العالم الذي خضع للاستعمار سابقا، وأعدّ مجالات النشر للباحثين في الأدب العربي (في مطبعة جامعة كولمبيا وغيرها)، وعمل على تأسيس أقسام جديدة أو توسيع الأقسام الموجودة فعلا. وفي سعيه إلى الحصول على مكرمات أو ممارسته الضغط للاستعانة ببعض من حلفائه، أوجد برامج مؤسَّسية للمعونات لم تكن موجودة من قبل.

كان سعيد مدركا ضعف الحضور العربي في وسائل الإعلام بسبب الجهل بالثقافة الأمريكية، ولذلك فإنه لم يألُ جهدا في سعيه إلى إنشاء برامج للدراسات الأمريكية في جامعات الشرق الأوسط كلها. وطالب في الوقت نفسه بإنشاء

(*) جذر الكلمة Presbyterian اليوناني يعني «الشيخ»؛ أي كبير السن. انظر قاموس المورد.[المترجم].

برامج للدراسات العربية في الولايات المتَّحدة لكي تحصل وسائل الإعلام على فهم أفضل للثقافة العربية. وكتب مرارا للمدارس والجامعات في لبنان والأراضي المحتلَّة ليؤكد لها: «إنني في خدمتكم إن أردتم أن أحاضر أو أدرِّس أو أن أفعل أي شيء»[8] . وفي العام 1972 تولّى هو ومريم مشروعا لجمع الكتب لمدرسة بيرزيت للبنات في رام الله، وأسهما في دفع تكاليف اشتراك المدرسة في مجلّتي «رامبارتس» Ramparts و«نيو ليفت ريفيو» New Left Review. وبعد عقد من الزمان، إثر المذبحة التي تعرَّض لها اللاجئون الفلسطينيون في لبنان، أقام الاثنان «صندوق الدفاع الفلسطيني» Palestinian Defense Fund. وإلى جانب تقديم المشورة للمحتاجين فإنه رحَّب بنصيحة الآخرين من جانبه. وعلى سبيل المثال، كتب في العام 1976 لِلِندا فوكْسْويرْذي Linda Foxworthy، مديرة «مركز صحَّتنا» Our Health Center، وهو عيادة صحية مجانية، يسأل عن قائمة بالكتب التي يُنصَح بالحصول عليها، وطلب النصيحة حول كيفية إنشاء عيادات محلِّيَّة في الأراضي المحتلَّة[9].

كذلك نجد أنه أوجد المؤسَّسات إضافة إلى تحليلها. فقد عمل لسنوات هو وأبو لغد على إنشاء جامعة فلسطينية مفتوحة في الضفَّة الغربية. وقد جاء الدافع الأوَّل نتيجة لدراسة موَّلتها اليونسكو عن إمكانيات نجاح المشروع أجريت بإشراف أبو لغد. وقد أريد للجامعة أن تتبع المقابل الإنگليزي لها، وهو النموذج المتمثِّل في الجامعة المفتوحة التي تعمل عبر التعليم عن بُعد، والمناسب تمام المناسبة للسكّان المنتشرين والمحرومين. كان سعيد هو القوَّة الدافعة الرئيسة وراء تشكيل منهاجها القائم بالدرجة الأولى على الإنسانيات، وقد أخذ على عاتقه مهمة جمع التبرُّعات، إذ كتب رسائل لكبار المسؤولين العرب في قطر وغيرها[10]. لم تر الجامعة المفتوحة النور، لكن بعض مبادراته المهمَّة تحققت فعلا. ففي العام 1978 أنشأ مع أبو لغد وفؤاد مُغْربي مجلة «الدراسات العربية الفصلية» Arab Studies Quarterly، وشارك في تحريرها معهما على مدى ثماني سنوات. وأصبحت المجلَّة موقعا أساسيّا ينشر فيه الباحثون العرب والمسلمون نتائج أبحاثهم، ولاتزال مكانا حيويّا لنشر الأبحاث الجادَّة والمناقشات الموضوعية عن الشرق الأوسط من وجهة نظر بديلة[11]. وانضم سعيد للمجلس الوطني لمديري

اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة التمييز العنصري بطلب من العضو السابق في الكونغرس جيمز ج. أبو رزق James G. Abourezk[12].

وقد تضمَّن عمله السياسي، حتى خارج الجامعة، توثيق مكتبةٍ عن الوجود الفلسطيني وتنظيمها والمحافظة عليها. ففي مقابلة أجريت معه في وقت متأخِّر من حياته أعلن أنه كان يعدُّ أرشيفا يحتوي على ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف صورة فلسطينية منذ العام 1948؛ وهو تصريح أعاد إلى الذاكرة السبب الذي دعاه في أثناء الغزو الإسرائيلي لبيروت إلى الإلحاح على عائلته وأصدقائه للاحتفاظ بدفتر يوميات، ولرسم الصور، ولكتابة وصف لما كان يجري[13]. كان البحث عن الحقيقة جزءا أساسيّا من جهوده التنظيمية. وظلَّ يدعو على مدى سنوات إلى إجراء تعداد سكّاني للفلسطينيين، وأعدَّ ملفّا طويلا للشعب الفلسطيني للمعهد المختصّ بالدراسات السياسية Institute for Policy Studies، ورسم (بالتعاون مع أبو لغد) صورة مكثَّفة للتاريخ الفلسطيني، واستغلال الأراضي، والتوزيع السكاني للجنة فرعية خاصَّة بالعلاقات الدولية لمجلس النوّاب الأمريكي في سنة 1975[14]. وفي سبتمبر 1980 كتب ردًّا مفصَّلا بطلب من وزارة الخارجية الأمريكية أرادت منه فيه أن يقدِّم «ملاحظات وتعليقات على التقرير الذي أعدَّته الوزارة عن حقوق الإنسان في إسرائيل والأراضي المحتلَّة»[15]. وكانت الأجوبة على هذه الوثيقة التي تبلغ نحو ألف صفحة دقيقة، وكثيرا ما تضمنت انتقادات. ولم تكتف هذه الأجوبة بإثبات المعرفة بالتفاصيل، بل أظهرت حيوية كاتبها وصبره على استيعاب التفاصيل، ونقده لكاتبيها بأسلوب ديبلوماسي[16].

لم يكن سعيد قد انضمَّ إلى أي منظَّمة سياسية من قبل، ولكنه استثنى رابطة خرّيجي الجامعات الأمريكية التي تأسست في شيكاغو في أكتوبر 1967. كانت الرابطة قد أنشئت لمحاربة التمييز العنصري المعادي للعرب، وكانت (بغضّ النظر عن الخطأ والصواب) قد أقيمت لخدمة المهنيين من أبناء الطبقة المتوسطة وليس لخدمة النشطاء من أبناء الطبقات الشعبية في الأراضي المحتلة أو العاملين مؤقتا في عالم الشتات العربي. كانت الفترة التي أنشئت فيها تلك الرابطة فترة عصيبة. وكانت حكومة نكسن في العام 1972 قد أطلقت «عملية بولدر» Operation Boulder التي قصد منها، على غرار قانون المواطنة Patriot Act بعد ثلاثة عقود، أن تخرس

العرب الأمريكيين بتهديدهم بالطرد من البلاد حتى، بينما كانت تغضُّ البصر عن التمييز ضد العرب في داخل الحرم الجامعي، وعن التحيز المؤسسي ضد نقّاد إسرائيل. وكان المحذور، وهو محذور نوقش بحدَّة، هو أن رابطة مخصصة لخريجي الجامعات وليس للعمّال العاديين قد يبدو أنها مؤسسة لأبناء النخبة. ولكن هذا المحذور قوبل بالرسالة الضمنية، وهي أن الأمريكان العرب كانوا يحملون شهادات عليا، وأن معظم العرب الذين هاجروا إلى الولايات المتَّحدة فعلوا ذلك للدراسة. وكان الهدف الأساسي للرابطة «تقديم المعرفة»[17].

لم يكن جميع زملائه سعداء بهذا الخيار الذي اتَّخذه عن وعي. صديقه البنّا على سبيل المثال رجاه في أوائل السبعينيات ألا يكون الأستاذ الحذر بقدر ما يكون المثقَّف الملتزم. فردَّ سعيد متحدِّيا: ما تحتاجه الحركة مثقّفون أكثر ونشطاء أقلّ، نشطاء لا تزيد لقاءاتهم الراديكالية على كونها لقاءات اجتماعية. كان بالإمكان تحقيق مزيدٍ بأن يكون المرء «صاحب تأثير، مفكِّرا أخلاقيا في العالم الأكاديمي»[18].

بهذه الروحية اتَّخذت بعض اقتراحات سعيد لتحقيق أنشطة سياسية ذاتِ أثرٍ أفضلَ شكلَ محاضراتٍ في رابطة خرّيجي الجامعات الأمريكية ومقالاتٍ في أوراق العمل التي وضعتها. وفي أوقات مختلفة عمل سعيد بصفة نائب رئيس الرابطة، وحضر اجتماعات مجلس إدارتها. ومع ذلك، فإن قاعدة الرابطة القائلة «إن أي عمل تضطلع به الرابطة مهما كان تافها يجب أن يوزّع بالتساوي» استُثني منها سعيد، وهذا أدّى إلى استياء بعض الأعضاء. وقد اعترفت إلين هاغوپيان Elaine Hagopian، مؤرخة أعمال الرابطة، أنها ظنته في البداية شخصا من الهواة، لكن رأيها فيه تغيَّر عندما لاحظت الحقل الخاص الذي احتلَّه الثنائي الرهيب الذي تشكّل منه هو ويده اليمنى أبو لغد. وبينما كان الثاني أفضل في حشد الدعم خلف الستارة، أو في اجتذاب دعم رجال الأعمال العرب ووكالات الأمم المتَّحدة، فإن سعيد كان المعبِّر عن المظالم، «والمكتبة المتنقِّلة للكشف عن الأساس الاستعماري الصهيوني لتلك المظالم»[19].

على أنه لم يصل إلى ذلك الدور على نحو طبيعي. فنوبار هوڤسپيان Nubar Hovsepian، وهو ناشط من جيل أصغر، وكان ينظر إلى سعيد نظرته إلى الأخ الأكبر، يذكر لقاءه الأوَّل به في مناسبة من مناسبات الرابطة في شيكاغو في العام 1975.

وكان سعيد قد صار يعدّ من المشاهير، ولكنه لم يصل بعدُ إلى مرحلة الكاتب الواثق بنفسه التي وصل إليها مع كتابه «المسألة الفلسطينية» The Question of Palestine (1979). وعندما كُلِّف بأن يتولّى وظيفة صاحب الدعوة إلى حفلة العشاء أظهر شيئا من القلق والارتباك؛ كان ذكيا ولكنه افتقر إلى الفصاحة[20]. وعندما دُعي في العام اللاحق إلى تقديم آرائه في مجلس العلاقات الخارجية فإنه حضر مستعدًا تمام الاستعداد، وأدّى دوره برشاقة وإيجاز، وهو ما جاء بلا شك نتيجة استعداد مُضنٍ، ووقَف وقفة غير مريحة بجانب ندِّه الإسرائيلي الذي كرّر كلَّ ما يحفظه عن المواقف المعروفة. وبعد أن طُرِح عدد قليل من الأسئلة كان الحدث قد انتهى. وقد أدّى الضغط العاطفي الهائل والفرق الشاسع بين الجهد الذي بذله وبين الحظوة التي نالها جهل خصمه إلى النَّيْل من سعيد، ثمَّ أشار إلى سيّارة أجرة. وبعد أن ودَّع صديقه تقيّأ في الشارع[21].

لكن على الرغم من بداياته القلقة فإن مكتب التحقيقات الفدرالي أحسَّ بأهمِّيَّته. وعند النظر في الـ 147 صفحة التي سُمِح بالاطِّلاع عليها من العدد الكلّي من الصفحات البالغ 238 صفحة التي يتشكّل منها الملفّ الخاص بسعيد لدى المكتب فإن تلك الصفحات تجعل من الواضح أنه كان تحت المراقبة منذ البداية، خاصة فيما يتعلَّق بأنشطته في رابطة خرّيجي الجامعات الأمريكية. وقد ركَّز المكتب تركيزا خاصّا على ترؤسه للندوة المسمّاة «الثقافة والروح النقدية» Culture and the Critical Spirit التي عقدت في مؤتمر بوسطن التابع للرابطة في أكتوبر 1971. وكانت مراقبة المكتب أشدّ بعد الهجوم الذي حدث في أولمبياد ميونخ في العام 1972. فقد دُرِست خلفيَّته، وجنسيَّته، وسجلّه في الانتخابات، وحسابه البنكي، وسجله الائتماني دراسة مدقِّقة بالتعاون المعيب من جانب المخبرين في جامعتي برنستن وكولمبيا، وكذلك من جانب مكتب خرّيجي جامعة هارڤرد. وفي شهر مايو 1982 سلَّم عميل خاصّ لمكتب التحقيقات في نيويورك تقريرا سرّيّا للمدير وليم وبستر William Webster «يقول إن اسم سعيد أثار انتباه فرع المكتب في نيويورك في سياق موضوعٍ يخصّ الإرهاب»[22].

تبيَّن أن الشكوك القائمة على إسناد الذنبِ إلى شخص بربطه بآخر (كان سعيد قد تراسل في يوم من الأيّام مع شخص عدَّه المكتب مخرِّبا) ليس لها أساس؛ ولذلك

تخلّى المكتب عن القضية. ومع ذلك فإن الملفّ كشف عن انشغال المكتب بما كان سعيد ينشره في الصحف وبكتاباته الأكاديمية. فقد وضع المخبرون في العام 1970 على سبيل المثال تحليلا تفصيليّا لمقالة نشرتها صحيفة «بوستن غلوب» Boston Globe عنوانها «أستاذ في جامعة كولمبيا يُلقي اللوم على الاتجاهات العرقية في الصراع العربي - الإسرائيلي»(*). وأعدّوا فيما بعد تسعة وأربعين ملخَّصا منفصلا لمقالات نشرتها صحيفة «نيويورك تايمز»، وقالوا إن آراءه المنشورة تشكِّل خطرا على إسرائيل خاصَّة، وأنها ستكون أخطر في المستقبل[23]. وقد تبيَّن أن مخاوفهم كان لها ما يسوّغها. فهذا ستانلي كيرتْس Stanley Kurtz، وهو مختصٌّ بعلم الأنثروبولوجيا في مؤسَّسة هوڤر Hoover Institute المحافظة، سيقدِّم شهادة أمام اللجنة الفرعية التابعة لمجلس النواب حول التعليم الخاص Select Education في العام 2003 يقول فيها «إن نقد سعيد المنتمي إلى ما بعد الاستعمار قد جعل الباحثين الأمريكيين في دراسات الشرق الأوسط عاجزين عن المساهمة في حرب بُشْ على الإرهاب»[24]. ذلك النصر الذي تحقَّق في وقت لاحق كانت بذوره قد نُثرت في السبعينيات عندما التحق ذلك الرجل الذي وصف نفسه بأنه «لا يلتحق بشيء» التحاقا فعالا وقاد الجناح الأمريكي من الحركة.

في العام 1977 انتُخِب سعيد عضوا مستقلّا في المجلس الوطني الفلسطيني، وهو البرلمان الفلسطيني في الغربة الذي كان يتطلب الإعلان عن الانتماء الحزبي. وعلى رغم أن سعيد كان في البداية متعاطفا مع الجبهة الديموقراطية، وهي جماعة انشقَّت عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العام 1969، فإنه لم ينتمِ إلى الجماعة، وصمَّم على البقاء خارج المنازعات الحزبية[25]. لكن مغازلاته مع الجماعة أشارت إلى ميوله السياسية في تلك الفترة. كانت الجبهة الشعبية تمثّل أقصى اليسار في المنظَّمات الفلسطينية، وهي منظَّمة ماركسية الاتجاه وليست شيوعية صريحة. هذان الاتجاهان داخل الجبهة الشعبية، وهما متَّصلان فكرا، منفصلان تنظيما، يعكسان ملاحظات شفيق الحوت عن عمق الاتِّجاه الشيوعي في تاريخ فلسطين الذي انتمى إليه كثير من الفلسطينيين (ولكن ليس الحوت نفسه) لأنه كان

(*) Columbia Professor Blames Racist Attitude for Arab-Israeli Conflict.

أوضح طريقة للتعبير عن احتقار السياسات الإمبريالية لكلٍّ من الولايات المتَّحدة وبريطانيا[26]. كذلك كانت القوَّة الدافعة داخل الحزب الشيوعي الإسرائيلي تكاد تكون فلسطينية بكاملها. أما منظمة فتح، وهي أكبر حزب في منظمة التحرير الفلسطينية، فقد ظلَّت دائما في نظر سعيد ذات توجّه قوميّ مبالغ فيه، وشديدة الميل إلى التقرب من الإسلام السياسي. وقد لاحظ سعيد حتى في وقت مبكِّر تهديد التطرُّف الإسلامي Islamic Fundamentalism(*) داخل الحركة[27].

وإذا أزحنا هذه الصراعات الفئوية جانبا، فإننا نجد أن سعيد بقي عنصرا أساسيّا في الكفاح الفلسطيني. وتلقَّت محاولاته المتردِّدة الأولى ليكون الناطق الأول باسم الحركة في المحافل الدولية دعما من قِبَلِ الترحيب النسبي الذي أبدته سنوات حكم كارتر. فقد توافرت منافذ لإقامة دولة فلسطينية أكثر من أي وقت مضى أو تلا، وتبيَّن أن رابطة خرّيجي الجامعات الأمريكية هي الجهة التي توجهت لها حكومة كارتر للتفاوض. وسرعان ما اتَّصل به زميله في الدراسة بجامعة پرنستن هُدِنْغ كارتر الثالث Hodding Carter III للقاء سايرس ڤانس Cyrus Vance، الذي كان آنذاك وزير الخارجية، فالتقى، مع زملاء آخرين من الرابطة، بكلٍّ من ڤانس وفلِپ حبيب Philip Habib، نائب وزير الخارجية، في 8 نوفمبر 1977. وبعد مدَّة قصيرة من زيارة الرئيس المصري أنور السادات الخلافية إلى القدس لمخاطبة الكنيست الإسرائيلي، التقى كارتر بالمجموعة في 15 ديسمبر، على رغم أن سعيد تغيَّب لارتباطه بموعد في الخارج. وفي السنة التالية طلبت وزارة الخارجية الأمريكية من سعيد أن يرى ما إذا كان بإمكانه أن يقنع منظمة التحرير الفلسطينية بالاعتراف بإسرائيل رسميّا. في مقابل ذلك وعد كارتر بدعم حل الدولتين، وضمان أن تكون الأراضي التي احتلَّتها إسرائيل في حرب العام 1967 هي الأراضي القومية للدولة الفلسطينية.

(*) إن مصطلح fundamentalism يُستعمل في المسيحية للدلالة على صدق كلِّ ما ورد في الكتاب المقدَّس. والمصطلح الذي يعبر عن هذا المفهوم عند المسلمين هو «المذهب الظاهري» القائل إن كلّ ما ورد في القرآن الكريم صحيح بمعناه الظاهر. أما مفهوم التطرُّف، الذي يُعبر عنه حرفيا باللفظ الإنجليزي Extremism، والذي ألحق بالإسلام والمسلمين أخيرا؛ فهو من قبيل فرض المصطلحات على وسائل الإعلام لأغراض سياسية واضحة. ومما يؤسف له أنه قد اصطُنِعَ ربط مفهوم التطرف باللفظ fundamentalism، وشاع ذلك الربط حتى بات من الصعب التخلَّص منه، ولذلك فإنني استعملت كلمة «التطرف» مقابل المصطلح fundamentalism؛ لأن هذا هو ما يقصده المؤلّف (وربما سعيد نفسه وفق المصدر الذي ينقل عنه المؤلّف، وهو سامي البنّا).[المترجم].

لا شكَّ في أن الطلب جاء نتيجة للشهرة المفاجئة التي حقَّقها سعيد بعد تلميح السادات غير المتوقَّع له قبل ثلاثة أسابيع في خطبة علنية قال فيها «إن أستاذا أمريكيّا من أصل فلسطيني» يحسب أنه مقبول تماما ليرأس وفدا فلسطينيّا في محادثات السلام في جنيف[28]. وبينما أخذ سعيد عرض كارتر على أنه فرصة نادرة، ونقل العرض لعرفات بلهفة، فإن رئيس المنظمة لم يُجِب. فاضطر ڤانس للعودة إلى سعيد سعيا إلى معرفة أسباب الصمت الذي أبداه عرفات. وفي هذه الأثناء، وبعد دراسة الوضع، شعر سعيد بأن من الحكمة التقليل من شأن المبادرة التي ألمح إليها السادات. لم يغلق الباب تماما، بل فسَّر الأمر لوسائل الإعلام في مقابلة أجريت معه بقوله إنه لم يكن أفضل شخص لأداء المهمة، لاسيما أنه يعيش في الولايات المتَّحدة[29]. وكان خياره الأفضل أن يظلّ في الخلفية.

استمرّ صمت عرفات حول اقتراح ڤانس لما يقرب من أربعة أشهر، فاتَّصل سعيد بالحوت فزعا ليتأكَّد من أن عرفات تسلم العرض. ثم سافر إلى بيروت شخصيّا ليحصل على الجواب الصافي، ولكن عرفات رفض قبول المبادرة بحجة أن الأمريكان كانوا غير عادلين باستمرار وأن منظمة التحرير ليست بحاجة إلى ذلك الاعتراف[30]. هنا شعر سعيد بالحرج والحيرة، وعاد بالرسالة إلى البيت الأبيض، وفكَّر فيما بعد بالمفارقة التي جعلت عرفات يحثُّه في العام 1982 لكي يتدخَّل مع جورج شُلْتْس George Shultz الذي كان آنذاك وزيرا للخارجية في عهد ريغن لمنع القضاء على قيادة المنظمة فيما كانت دبّابات شارون تزمجر باتِّجاه بيروت.

***

عُرِف سعيد في السنوات الأولى من التحاقه بجامعة كولمبيا بأنه باحث شابّ مجدِّد في تعامله مع أعمال كونراد. أما مقالاته عن المنظِّرين الفرنسيين الـمُتعبِين من أمثال پوليه وليڤي-شتراوس، أو ذلك الفيلولوجي الموسوعي أورباخ، فقد لوحظت؛ ولكنها بقيت على الهامش إلى أن غاص في النظرية الفرنسية مع كتاب «البدايات» (1975). وقد رأى أن الكتابَ بالدرجة الأولى كتابٌ عن دور المثقَّف وما يهدف إليه النقد، ورأى أن من شأن الكتاب أن يفتح الطريق أمامه أو أن يغلقها. كانت الانطباعات الأولية ذات أهمية قصوى، وهذا هو السبب الذي جعل ما جمعه فيه على تلك الدرجة من الغرابة، إذ وَضَعَ ڤيكو، عالِمَ البلاغة الكبير ودارسَ القانون

الروماني الذي اشتهر في أوائل القرن الثامن عشر، إلى جانب ميشيل فوكو، خليفة لسارتر وخصمَه الكؤود.

لقد بدا لمعظم القرّاء أن وضع ڤيكو مع فوكو يثير الاستغراب. فقد كان كلٌّ منهما نقيض الآخر في كلِّ النقاط التي ركَّزا عليها: اللغة، التاريخ، القدرة. عدَّ ڤيكو أساطير الأوّلين أشكالا من الفلسفة العقلية التي جرى التعبير عنها بطريقة شعرية. أما فوكو فقد تبع نيتشه في أنه عدّ الحقيقة تركيبا ميثولوجيا للغة. وكان من رأي ڤيكو أن طبيعة الشيء الحقيقية verum لا يمكن معرفتها إلا بصنعها factum، بينما رأى فوكو أن التاريخ ليس له صانعون، وأن التغيير يأتي عبر تغيُّرات لا اسم لها في المنظور.

كان ڤيكو، وهو من دعاة المذهب الإنساني humanist المتحمّسين، يدعو «عصر البشر» age of men مرحلة من مراحل التاريخ تنضج فيها الطبقات الدنيا وتشكّل أول قانون عام وتستقل عن العبودية التي سادت في عصر الآلهة والأبطال. أما فوكو فقد وضع «الإنسان» man في عالم الأوهام وقارنه في مقارنته الشهيرة بالكتابة على الرمال التي تمحوها الأمواج والأزمان. وكان القانون عند فوكو شيئا مشكوكا فيه لأنه مال إلى أن يرى أن الدولة الحديثة أشدُّ طغيانا من النظم الملكية المطلقة التي ظهرت في الماضي؛ وذلك لأنها أحلَّت محلَّ العنف المباشر في العقاب نظاما «رحيما» يتغلغل في كلِّ ناحية من نواحي الحياة المستيقظة، ينظّم أفكارنا، وشهواتنا الجنسية، ووظائفنا البيولوجية. لقد أحلَّت الحداثةُ الرقابةَ و«التربيةَ» محلَّ الشنق في الساحات العامَّة، وأخضعت بأسلحة العقل والرعاية الأخلاقية كلَّ من يعيش خارج معاييرها.

انصبَّت جهود سعيد في الكتاب على غَزْلِ نسيج واحد من هذه الخيوط المختلفة. وكان قد وصف أطروحته في صِيَغٍ أبكر من الكتاب على النحو الآتي: «اكتشاف لغة مشتركة بين ثقافاتٍ ولغاتٍ متصارعة»[31]. كلّ صيغة من «البدايات»، باستثناء الصيغة التي نشرت فعلا، انتهت بقسم طويل خصِّص للغة المشتركة، وهي فكرة أخذها عن ڤيكو الذي تحدَّث عن «لغة عقلية مشتركة بين الشعوب كلها... حيث تربط الوحدةُ اللغوية البشرَ معا على حساب حضور بعضهم الوجودي المباشر إزاء بعضهم الآخر»[32].

غير أن التعليم السياسي الذي تلقّاه في بيروت غيَّر تفكيره عن إمكانيّات الأدب، وترك آثارا في كل ناحية من نواحي «البدايات». وكان بالفعل قد مدَّ نظره خارج إطار التراث الأوروبي في العام 1972 وكتب عن الروائي المصري نجيب محفوظ[33]. أما الآن، بعد سنتين، فقد استغل تلك المعرفة واستعملها في مقالة غير عادية تجاهلها كثير من قرّائه، ألا وهي المقالة المعنونة «النثر العربي والرواية النثرية بعد العام 1948» Arabic Prose and Prose Fiction after 1948، التي ظهرت في الأصل على شكل مقدِّمة لرواية حليم بركات «أيام الغبار» Days of Dust (1974) التي تجري أحداثها في أثناء حرب الأيّام الستَّة. إنها أبرز ما كتب في الحقبة الأولى من حياته المهنية، وهي مقالة تجمع البلاغة والسياسة معا بطريقة تذكِّرنا بكتابه عن سْوِفْت:

> كان ما عُنيت به [بعد العام 1969] هو كيف أنّ... لغة من اللغات يمكن أن تتشكَّل؛ الكتابة بصفتها تشكيلا لوقائع خدمت هذا الغرض أو ذاك بصورة عملية... وكنت قد كتبت مقالة تميل إلى الطول عن النثر الروائي العربي بعد العام 1948 ذكرت فيها شيئا عن الطبيعة المجزَّأة المتصارعة للمسار السردي[34].

وكان الرأي الذي قدَّمه هنا متشدِّدا وغير رومانسي. وقد غازل، باقتطاف أفكار من كتاب سارتر «ما الأدب؟» (1948) What Is Literature?، الواقعية الاجتماعية إن لم نقل الواقعية الاشتراكية. كان هذا الرأي محرجا في الدوائر الأكاديمية التي كان يتحرَّك ضمنها، ولربما ساهم ذلك في تعرُّضه للإهمال، لكنه سيعود فيما بعد لمحفوظ في عدد من المقالات البارزة في مجلة «لندن ريفيو أوف بوكس» London Review of Books وغيرها حاول فيها أن يتابع البرنامج الذي بدأه بمقالة «النثر العربي والرواية النثرية بعد العام 1948». فقد ركَّز على أهمية محفوظ بصفته مؤرِّخا لا مثيل له للحياة القاهرية ومصدر إلهام للروائيين الذين ظهروا بعده، ورأى فيه شخصا مترفِّعا لا يقلقه شيء، مبتعدا عن نقد الناصرية، وواحدا من أوائل المثقفين الذين أيّدوا معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية (وهو ما جعله يستحقّ النقد في الصحافة العربية وفق ما يرى سعيد)[35]. أما في الجلسات الخاصة فقد كان سعيد يشير إلى محفوظ بعبارات أقل إطراء، مشيرا إليه بأنه بُلْوِر لِتُن Bulwer

Lytton المصري؛ في إشارة إلى مؤلِّف الروايات الطموحة المكتوبة بلغة شيكسبيرية مفتعلة[36]. كان سعيد راغبا في المضيِّ إلى أبعد من «وقف محفوظ نفسه للأدب على الطريقة الفلوبيرية... التي تبعها مسار حداثي إلى حدٍّ ما» جعله يقف على الضدّ من روائيين عرب لم ينالوا من الشهرة ما ناله هو، روائيين من أمثال جبرا إبراهيم جبرا وطه حسين.

كانت كتابات آخر جيل من الروائيين العرب أهمَّ في نظر سعيد من كتابات محفوظ الذي كثرت أوسمته من الناحيتين الفنِّيَّة والسياسية. فقد كان الروائيون الأصغر سنّا أكثر «حركة». فالنثر المفتّت الذي يستخدمه غسّان كنفاني وتعدّد الرواة عنده، على سبيل المثال، ينجحان في التعبير عن انعدام قيمة الحياة عند العمال الفلسطينيين الوافدين إلى الخليج، بحيث يلتقي القدر والشخصية في سلسلة من التصادمات المدمِّرة. أما الأسلوب التجريبي الساخر في رواية إميل حبيبي «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» The Secret Life of Saeed, The Pessoptimist(*) (1974) فقد مزجت إيسوب Aesop بألكزاندر دوما Alexandre Dumas ووُلْت دِزني Walt Disney بمعالجة فلسطينية حرّة لرواية التشرُّد[37]. وأشار سعيد إلى أن الاطِّراح المتعمَّد للشكل الروائي مكَّن هؤلاء الكتّاب من التخلُّص من متطلَّبات الأجناس الأدبية الموروثة ومن تقديم أرضية واقعة بين المقالة والسيرة الذاتية والرواية. وقد مارس كلٌّ منهم، برموز أَهْمَلَت البُعد الساخر، إنتاج ما يدعوه سعيد بعبارةٍ تثير التأمّل هي «لغة الأرض الواضحة» well-articulated earth language. وقد بدا أن سعيد لا يبحث عن أقلَّ من شكل جديد لفنِّ الأطراف العالمية global periphery(**).

وصلت الرواية متأخرة في العالم العربي على غرار ما حدث في كلٍّ من أفريقيا وآسيا، ولكن كان لذلك بعض الفوائد. ففي الغرب ميَّز الكتّاب بسهولة بين أنماط من السرد التاريخي؛ كما في كتاب ماركس «الصراع الطبقي في فرنسا» The Class Struggles in France (1850) ورواية فلوبير «التربية العاطفية» Sentimental Education (1869)، وكلاهما عن ثورة 1848 في باريس، لكن الكتاب الأول كتاب

(*) لفظ «المتشائل» Pessoptimist منحوت من لفظي «المتشائم» Pessimist و«المتفائل» Optimist.[المحرر].
(**) الأطراف في مقابل المركز، أو العالم الثالث في مقابل العالم الأوَّل.[المترجم].

في النقد السياسي، أما الثاني فهو رواية. وكان بوسع الكتّاب الغربيين أن يتجاهلوا تاريخ الأشكال لأن تمييز هذا التاريخ بين الأجناس كان أمرا مفترضا منذ البداية، فأتاح لهم ذلك مزيدا من التأمُّل الداخلي والتفنُّن النصّي كما في الرواية التأسيسية في الغرب، رواية «الدون كيشوت» Don Quixote، التي تتناول قصتُها أكثرَ أو أقلَ من مسألة قراءةِ الروايات وكتابتِها.

أمّا مَهَمَّة الروائيين العرب في المقابل فلم تكن مقيّدة بهذه القيود المسبَّقة. وظهرت رواياتهم في باريس ولندن كأنها روايات بدائية توثيقية نشأت لتلبية الحاجات الخاصة للفنانين العرب للتعبير عن الأزمة كأنها تسجيل ضروري معاصر. وفي ضوء ذلك فإنه لم يكن من باب التهويل أن تدعى كتابة الروايات عملا تاريخيّا، بل فعلا من أفعال المقاومة، كما قال الناقد الأدبي المصري غالي شكري بعد العام 1967: «لم تكن الكتابة وما كان بإمكانها أن تكون حرَّة: كان لا بدَّ من أن تضع نفسها في خدمة الحياة»[38]. وقد اتَّفق سعيد مع هذا الرأي في هذه المقالة، واستعان بالمسرحيات الكوميدية الشعبية التي كانت تمثَّل على مسرح الريحاني لعرض الردح الكلامي بما يشبه قتال الديكة، ونظر إلى تراث القرون الوسطى الكلاسيكي المتمثِّل بـ «مقامات» الحريري (1237)، وهي مجموعة من القصص التي تجمع الشعر إلى النثر، وتتكوَّن في الأساس من تبادل حكايات تنظر في الحياة اليومية للطبقات الدنيا. وفي الجزء الأخير من المقالة مزج سعيد بين العناصر العربية والماركسية بالالتفات إلى صادق العظم الذي مثَّلت كتاباته، في رأي سعيد، الإمكانيّات التي تتيحها هذه التيّارات الغنيَّة الجديدة. قال سعيد: «إن الصفة التعليمية، لا بل المتحذلقة، لنثر العظم» يجب أن تُرى في رأيه على أنها تسعى للدقَّة، وأنها على استعداد لتقبُّل النقد المقذع لابتعادها عن ادِّعاء التواضع أو الانغماس في عبث «خلط الأساليب»[39].

كُتِبَ كتاب «البدايات» في ظلِّ احتدام هذه الصراعات في الذهن، وجاء الكتاب نتيجة لصراعٍ مزدوج من حيث إنه ظهر في السنة التي بدأت فيها الحرب الأهلية اللبنانية وانتهت فيها حرب ڤيتنام رسميّا. وهنا اصطدم الكتاب وجها لوجه مع الحالة الذهنية العامة التي مثَّلتها أفضل تمثيل الكوميديا الهابطة المرتبطة باسم جِرَلْد فورد Gerald Ford وثقافة شعبية يرمز لها النقد اللاذع للحكومة في برنامج «ليلة السبت على الهواء مباشرة» Saturday Night Live. وبدا أن الإنهاك السياسي

الذي أعقب عقدا من الاحتجاجات لا يشجِّع على شنّ حملة جديدة. ولذا فإن سعيد استغلَّ الوقت غير المؤاتي، وشرع بالإضافة إلى كتاباته عن الشعر العربي والرواية العربية بكتابة مقالات عن جويس بصفته كاتبا مناهضا للاستعمار، وعن الغياب المخزي في فن الرواية الأمريكية لروايات عن الإمبراطورية الأمريكية، وهو الأمر الذي يتميَّز به البلد.

وفي بحثه عن شخص يتفهَّمه كتب رسالة لمحرِّر مجلَّة «دياكريتيكس» Diacritics قبل سنتين قال فيها: «هل تشعر مثلي بأن هناك موجة لا تصدَّق من الكتابات الزائفة التي تجتاح البلد بحيث يجعل كل باحث أو مثقَّف من نفسه توم وُلْف Tom Wolfe مصغَّرا، ويبحث الكلُّ عن الأضواء والقبول السهل، وحيث تطرح آخر الأفكار كلها معا؟»[40] وأحسَّ بعبارة «عقد الاهتمام بالأنا» me decade(*) تطلّ من وراء الأفق، وحاول بطريقته الخاصة أن ينفذ الضربة الأولى. ومع أن كثيرين لم ينتبهوا إلى ظلال المعاني فإن التلميحات إلى الشرق الأوسط لم تفت كلَّ الناس. فهذا رِچَرْد كْلاين Richard Klein مثلا، وهو أستاذ في جامعة كورنل (حيث كانت مجلَّة Diacritics تصدر)، حسب أنه في قراءته بين السطور قد وجد «وسائل فكرية قوية... موضوعة لخدمة المصالح القومية العربية» وفق ما قال في رسالة مريرة إلى المحرّرين، وهي رسالة مرّرها لسعيد نفسه أيضا[41]. وقد كرَّمت المجلَّة كتاب «البدايات» بأن خصّصت عددا خاصّا كاملا له، بما في ذلك مقابلة طويلة مع سعيد، فاعترض كلاين على ذلك لأن الكتاب من وجهة نظره كان يعرض على الناس بديلا جذّابا عن السردية اليهودية-المسيحية المتداولة.

حقَّق الكتاب نجاحا باهرا كما توقَّع سعيد، وحصل على مراجعات في كلِّ مكان كتبها عتاة العاملين في المهنة، لكن النتيجة كانت غير متوقَّعة من بعض النواحي، فالعدَّة الضخمة التي استخدمها الكتاب جعلت قراءته أمرا صعبا لمعظم القرّاء. فهذا إنغل Engel، المشرف المشارك على أطروحة سعيد في مرحلة الدكتوراه، رفع يديه للتعبير عن أسفه لأنه كان يفتقر إلى الإعداد الفلسفي الضروري لفهم الكتاب[42].

(*) هذه عبارة ابتكرها الكاتب توم وُلف وصفا لعقد السبعينيات من القرن الماضي ليشير إلى أن ذلك العقد هو عقد النرجسية، والانغماس في المتع، وعدم الاكتراث بالقضايا الاجتماعية، خلافا لما أبداه جيل الشباب في عقد الستينيات من مناهضة للحرب واهتمام بالقضايا السياسية والاجتماعية.[المترجم].

وقال طالب سابق من طلبة سعيد، وهو الآن صحفي معروف، بدأ بقراءة الكتاب ولكنه تخلّى عن هذه المهمة قائلا إنه «يفتقر للمؤهلات الضرورية»[43]. أما توني تانر Tony Tanner، الأستاذ المتميّز في جامعة كيمبرج وصديق عزيز من أصدقاء سعيد، فقد طلب تفهُّم وضعه: «هنالك أجزاء من الكتاب يعجز عقلي الأنغلوسكسوني عن متابعتها حتى عندما يمارس كل ما لديه من قوَّة (أو ضعف)»[44].

أدرك سعيد منذ البداية أنه كان يتعيَّن عليه تكوين جمهور لم يكن موجودا بعدُ إن كان للكتاب أن يفهم فهما تامّا. فمعظم مدرِّسي الأدب في ذلك الوقت استقوا معرفتهم مباشرة من الشعراء والروائيين الذين كانوا يقرأونهم إن كانوا راغبين في التعرُّف على نظريات اللغة أصلا. كانت قصائد پول ڤاليري وت. س. إِلْيُت، مثل روايات مارسيل پروست Marcel Proust، شديدة الشبه بالنظرية؛ بمعنى أنها كانت قصصا عن قصص، وكتابة عن الكتابة وعن مزالق اللغة. وقد استعمل كتّاب من أمثال بارت وفوكو ودريدا أساليب الشعراء والروائيين في اللعب باللغة، متلذِّذين بالغموض والتعميات اللغوية؛ ذلك النوع من اللغة الذي يستدعي الانتباه لنفسه كأن الكلمات خلقت المؤلِّفين وليس العكس. وقد سمح سعيد لنفسه في المقابلة التي أجرتها معه مجلّة Diacritics بالمزاح حول انعكاس الدور هذا، فقال إن التحيز المعتاد هو أن الناقد بالنسبة إلى الفنان يشبه هاوَرْد كوسِلّ Howard Cosell بالنسبة إلى محمد علي، الرجل الساذج بالنسبة إلى عبقرية الآخر[45]. كان هدفه في «البدايات» أن يقول إن فن كتابة القصص والنقد أساسيان بالدرجة نفسها، وإن النقد، وليس فن كتابة القصص بالضرورة، هو المكان الذي تُكشف فيه أعمق خفايا المجتمع الثقافية.

شَرَحَ سعيد في مراسلاته مع محرِّريه مقاصده بوضوح[46]. كان القصد من الكتاب أن يكون معلما من معالم الأدب المقارن، وتوضيحا لما يمكن أن ينتج عن دراسة المصادر الإنكليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والعربية بلغاتها الأصلية. وكان فرويد أساسيّا أيضا، بعد تعريجه [أي سعيد] على علم النفس العربي في مقالة «التمنُّع». كانت نقطة الانطلاق في الكتاب قلب فكرة الكتاب الشهير الذي وضعه الناقد الأدبي فرانك كِرمود Frank Kermode بعنوان «الشعور بالنهاية» The Sense of an Ending (1967) رأسا على عقب. فقد أدّى هَوَس كِرمود بفكرة

نهاية العالم وبالنقد المتعلِّق بالكتاب المقدَّس إلى تقديم النماذج الخطأ لعصرنا هذا. أما سعيد فكان همُّه الأكبر «مسألة الاستقلال والتبعية، أو الحرية والخضوع»، وهذا يتطلَّب «إطارا جديدا للنظرية والمنهج في العلوم الإنسانية؛ إطارا مستمدّا من العالم الذي نعيش فيه».

كُتِبَ كتاب «البدايات» أصلا ليتشكَّل من اثني عشر فصلا مستقلّا، لكن الصيغة النهائية منه تشكَّلت من ستة فصول متداخلة مكتوبة بأساليب مختلفة. ففي الحركة الأولى، تنقَّل المؤلّف بشكل بالغ الذكاء بين المعاني المختلفة لكلمة «البدايات» نفسها، وقال إن المعالجات التاريخية في النصوص الموجودة في الفيلولوجيا الكلاسيكية كانت تتّصف بالمفارقة من حيث إنها ذات توجُّه طليعي أكثر من التوجُّهات النظرية الحالية. ثم انتقل لاستقصاء الكيفية التي استخدم كتّابٌ مختلفون فكرةَ البدايات من خلالها انطلاقا من واقعية القرن التاسع عشر (وهنا كانت رواية «الآمال الكبيرة» Great Expectations لچارلز دِكِنْز Charles Dickens مثاله الرئيس) إلى الرواية الحداثية (رواية «نوسترومو» Nostromo لكونراد)، حيث انزاحت الواقعية لتحلَّ محلَّها السخرية من التاريخ والإصلاح الاجتماعي[47]. وقد ظلَّ طوال الكتاب يضع الوضع الراهن للنظرية الفرنسية البنيوية وما بعد البنيوية في مقابل ڤيكو الذي خصَّص له سعيد الفصل الأخير، قائلا إن ذلك هو ما كان يسعى للوصول إليه منذ البداية[48].

كان المقصود أن يفهم التمييز بين الأصول والبدايات بمعنى الفرق بين الدين والعلمانية. فالكلمات الافتتاحية في سفر التكوين «في البدء» تشير إلى نقطة البداية الوجودية. في لحظة من اللحظات كان هنالك العدم، وفي اللحظة التالية كان هنالك عالَم. وليس من الممكن الحصول على نقطة حاسمة أكثر من هذه، أو نقطة أشدّ غربة عن الجهد والفهم الإنسانيَّين؛ ولذلك فإن الأصل يؤكِّد عجز الجهد الإنساني النابع من الكلمة الإلهية. أما البداية فتشير في المقابل إلى ما يفعله المرء؛ والبداية لا تدلُّ على مفرد، فهناك بدايات كثيرة، وبالإمكان دائما أن يبدأ المرء من جديد. وقد كان اهتمام سعيد الشديد بڤيكو - المعاصر لِسْوِفْت والماركيز دي ساد The Marquis de Sade كما كان سعيد يحبُّ أن يذكِّر – يعود إلى هذا التمييز. وكان الهدف تفادي «الأفكار الدينية عن الخَلْق» على غرار ما فعله ڤيكو[49].

لقد جعل الصوت الشخصي، لا بل الاعترافي، المستخدم في الكتاب فكرته فكرة يصعب التنبُّؤ بها لأنها تحطّ فيما يبدو على مجلَّدات مختلفة في المكتبة، وتقتطف عبارات من كتب متباعدة. وكانت أنماط الفصول التي أبداها سعيد لا تنتمي إلى فئة دون فئة، ولكنها بلغت من التنوّع التاريخي حدّا جعلها لا تتناسب ودوره المفترض بوصفه دليلا يقود القرّاء في مجاهل النظرية الفرنسية لأن كثيرا من مصادره بدا أنها اختيرت لزعزعة الأسس التي تقوم عليها هذه النظرية. لقد كان سعيد في كتاب «البدايات» قد أخذ يتخطّى بنيوية ليفي - شتراوس ليصل إلى ما بعد البنيوية عند فوكو، ودريدا، ودولوز، ودون المكوث هناك. فلم يكن بوسعه أن ينظر إلى اللغة كما نظروا إليها على أنها واسطة للرغبة، «لآثار المعنى»، وليس على أنها معرفة إن شئنا الدِّقَّة. ورفض متابعتهم للدخول في تلك الهوَّة حتى وهو يبدي إعجابه بحيوية انتصارهم في جعلهم المثقَّفين يشعرون بدوار الفكر لأن أرضيته قد أزيحت من تحت أقدامهم. لقد بدا تحليله لمعظم الأسماء بالغ الجدَّة، وسابقا لزمنه. ذلك أن من السهل أن ننسى أن كثيرا من هذه الشخصيات في النظرية الفرنسية لم تكن أعمالها قد تُرجمت في تلك الفترة. وبينما كان يقدِّم هؤلاء المنظِّرين الذين كانوا لايزالون أحياء وفي ذروة قواهم الفكرية للقراء الأمريكيين، فإنه كان يمضي قدما ويخلِّفهم وراءه. وما صنعه سعيد هو أنه جعل شكَّهم الأساسي حول المعرفة ينسجم مع الفيلولوجيا؛ وهي مدرسة نقدية مثَّلت – كما رأينا – الثقة المعاكسة بصحَّة النصوص وإمكانيات التوصُّل إلى التفسير الصحيح.

كانت إحدى المهمات الأساسية لدارسي أصول الكلمات، ومحقّقي النصوص الكلاسيكية، ودارسي النحو التاريخي في علم الفيلولوجيا، على سبيل المثال، أن يثبتوا أن النصوص التي وصلت إلينا من العصور القديمة نصوص أصلية. وبالنسبة إلى علماء من هذا القبيل كان النصّ الأصلي أشبه بشبح لا يمكن العثور على الدليل على صحته إلّا بشكل غير مباشر بمقارنة الأخطاء في الصيغ التي أصابها التلف أو التزييف في وقت لاحق. ومن الناحية العملية كان النص دائما نتاج تجميع لقصاصات متبقّية من زمنٍ ماضٍ، وبعبارة أخرى نتاج مِزَقٍ أُلْصقت معا بقدر من التخمين لتشكيل نصٍّ كامل. وبعد مرور قرون من الزمن يتعفَّن الورق، وتوضع الصفحات في غير محلّها الصحيح، ويشحب لون الحبر، ويزيد المحرِّرون النصَّ

تلفا، ويتلف الرقباء النصوص. ولا يلمس الباحث بيده أو الباحثة بيدها الشيء المادّي الذي يمكن أن يقال عنه إنه الأصل.

استعمل سعيد هذه الصورة استعمالا ناجحا جدّا، مذكّرا معاصريه من أصحاب النظريّات بأن الإنسانيين الذين سبقوهم تساءلوا مثلهم عن الأصول. وفضلا عن ذلك وجدت المدرستان أن الأصول «لازمة» بمصطلحات سعيد (أي غير فعّالة، تقلل من أهمية المؤلِّف). غير أن النظرية، خلافا للفيلولوجيا، تجاهلت أننا جميعا مدفوعون بالرغبة لاكتشاف تلك الأصول في كل الأحوال بالاعتماد على «القصد والمنهج» (وهذا هو العنوان الفرعي لكتاب «البدايات») الذي يستخدمه النقّاد لإعادة الحياة لتلك النصوص بقوَّة الإرادة. إذ كيف يمكننا أن نعرف من نحن إن لم نعرف من أين جئنا؟ لقد استقصى سعيد في حاشية عن فوكو تنتمي إلى تلك الفترة ما يترتَّب على هذا الاختلاف بشكل واضح:

> كلما أبعدت نفسي عن مراكز ثقلي الطبيعية المعتادة زادت فرص فهمي للأسس التي من الواضح أنني أقف عليها... أحاول أن أجد أصولها... الضوابط التي تفرضها علينا؛ ولذلك فإنني أحاول أن أضع نفسي على مبعدة منها، وأن أبيّن كيف يمكن للمرء أن يهرب[50].

لقد أعيد منطقيا، بتأكيده الجانب الفعّال من الأصول على هذا النحو، إلى البدايات، وهي التي أكَّد أصحاب ما بعد البنيوية أنها أسطورة، والتي اعتقد الحداثيون أنها مطلقة؛ طريقة جديدة تمام الجدَّة للرؤية من دون تحمُّل أي دَيْنٍ للماضي. أما سعيد فلم يكن يثق بالجدَّة المطلقة. وهو لم يكن راغبا في إنكار الأصول؛ كلُّ ما أراده هو الهروب من آثارها الطاغية.

من الواضح أن هذا التأمل في البدايات كان إعلانا عن بدايته هو أيضا. ولربما كان إمساكه بمصطلح الفيلولوجيا أبعد حركة عن التوقُّع من هذه الزاوية؛ ذلك أن الفيلولوجيا كان لها دائما شيء من الإحساس بالعفن المتَّصل بدراسة اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية كما كانت تُحشر في صفوف الدراسة في القرن التاسع عشر. وبهذا المعنى كانت تستدعي للذاكرة الدراسة المتعبة للنحو المقارن، وأصول الكلمات، ووضع المعاجم، ولذلك بدت بعيدة كل البعد عن الانسجام مع استكشاف التجارب الفرنسية المعاصرة في الفكر المغامر. وبعد مرور سنوات قال سعيد متندِّرا

إن الفيلولوجيا أقلُّ فروع المعرفة المتَّصلة بالإنسانيّات جاذبية[51]. لكنه مع ذلك وجدها بالغة الإغواء. فقد رأى فيها ما كان ڤيكو قد رآه: «دراسة كل الأفعال اللغوية الإنسانية، أو معظمها»، ليس القصائد والروايات فقط، بل القانون، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، والتاريخ... رأى فيها فنّا شاملا وعلما جديدا. ويعود انجذابه هذا إلى أبكر أيام تدريسه في مرحلة الدراسات العليا في برنامج التاريخ والأدب في جامعة هارڤرد في أواخر الخمسينيات، حيث كانت الفيلولوجيا هي موضوع المواد التي درَّسها حتى في ذلك الوقت. وفي السنوات الأخيرة من سيرته المهنية أعلن بمنتهى الوضوح أن مشروعه يمكن التعبير عنه ببساطة بأنه «تجديد تراث الفيلولوجيين العظماء»[52].

كان سعيد بقوله هذا يرفض التخصُّص، فالفيلولوجيّون الذين يدفعهم جوعهم إلى كل شيء لغوي لم يكونوا بعيدين عن روح الحداثة الأدبية نفسها. فلئن كانت الخطوة الجبارة للفيلولوجيا هي ذائقتها العامة على امتداد المعرفة فإن تمرُّد النظرية الفرنسية (بتعبير سعيد) يمكن تلخيصه بطريقة تكميلية وإن كانت مختلفة بقولنا إنه «عدم انتظام المعرفة وعدم استمراريتها... وافتقارها إلى لوغوس(*) مركزي منفرد»[53].

كان سعيد يبحث، بدلا من قطيعة كاملة مع الماضي، عن أصالة تستند إلى تراث على رغم ما في ذلك من مفارقة، وهنا وقف فوكو في طريقه. ومن هنا جاء غموض مشاعره نحو المفكِّر الفرنسي الذي زوَّده بالثروات الفكرية فيما كان يثير الشكوك:

> الأصل والبداية غريبان [عما يقصده فوكو] بمجرى الخطاب وغائبان
> عنه. (هذا موقف بنيوي حاولت في أثناء هذا الكتاب أن أنتقده وأعدِّله؛
> أما هنا فإنني أقدِّم موقفهم(**) كما عرضوه هم)[54].

هذه النحنحة تشير إلى السبب الذي جعل الكتاب قراءة غير مباشرة. وفي الواقع، هنالك أبعاد لا يستهان بها من «البدايات» تلمِّح إلى مقالة «التمنُّع» مباشرة. فقد تناول كلٌّ من الكتاب والمقالة مشكلات «التمثيل» **representation** بالمعنى

(*) أبسط تعريف لهذه الكلمة هو أنها في الفلسفة اليونانية المبدأ العقلي الذي يتحكَّم في العالم ويطوِّر الكون. [المترجم].

(**) الضمير هنا يبقى عالقا بلا عائد في الأصل، وهو كتاب «البدايات»، لكننا نفهم من السياق العام أن ضمير الجمع هذا يعود على البنيويين أو أصحاب النظريات الفرنسيين. [المترجم].

المزدوج: تصوير الواقع بالكلمات (أي المحاكاة والتقليد)، والكلام باسم مجموعة من الناخبين كما نستخدم من أجله عبارةَ «ممثِّل» سياسي political representative.

على الكتابة أن تستنسخ الواقع لتكون مخلصة له. ووفقا لمنطق سعيد، فإن «محاكاة» الواقع تعطي الكتابة قوّة أكثر من المطلوب. وكان مما يُحسب للحداثة أنها بيَّنت فساد ادِّعاءات الواقعية الأدبية، ليس فقط لأن الاستنساخ لا يمكن أن يكون واقعيّا حقّا، ولكن لأن الجهد نفسه يضع المستنسِخ في وضع المدين للأصل، وهو وضع يذكِّر بالمعضلة العربية في العلاقة مع أوروبا. وقد تخيَّل سعيد، بالاعتماد على ڤيكو، ماضيا لم يكن عبدا للتقليد، وذلك في جانب منه برفض الوهم القائل إن الاختراع يدلّ على شيء جديد من أوَّله إلى آخره، وباستعمال ملاحظة ڤيكو الجوهرية، وهي أن بإمكان المرء أن يكرِّر الأصل بطريقة أصيلة. كلُّ إعادةٍ ricorso إمكانيةٌ جديدةٌ في نظرية ڤيكو الشهيرة عن التكرار التاريخي.

لاحظ سعيد وجود «علاقة جدلية بين اللغة الشفهية واللغة المكتوبة عند سطح أي نصّ» في العالم الأدبي العربي، بالنظر إلى مكانة القرآن بصفته نصّا تلاه الـمَلَك جبريل مشافهة على محمد؛ أي إن الشفهي (الشعبي) يكافح لأن يُسمَع من خلال الحُجُب الطاغية للغة المكتوبة (الرسمية). فـلئن كانت اللغة العربية في التصور الثقافي لأبنائها ثابتة لا تتغيَّر (إذ هي لغة الله) فإن الصراع حول المعنى الذي يحرك المشروع الإنساني في الأدب الغربي غير ممكن في اللغة العربية؛ لأنه ليس في وسع أحد في تلك اللغة أن يكون مؤلِّفا حقيقيا. فالتأليف يقع «في مكان آخر» طول الوقت[55].

هذه الأزمة داخل الأدب العربي أرَّقت سعيد منذ أن كان طالبا في مرحلة الدراسات العليا، فقد كتب في دفترٍ من دفاتر عهد التلمذة أنه بما أن اللغة العربية «ليس فيها حضور وسيط للبنى اللغوية الرسمية تتصل بالعالم المتغير وتجسِّده» فإن النتيجة كتابة مطرَّزة لا تنشئ علاقات مع مستويات أخرى من الخطاب. وهذا يؤدّي إلى «نتائج محزنة»[56]. وبما أن العرب مُجبَرون «للتكلُّم إما كما يتكلّم الغربيون وإما كما يتكلَّم الله»، فقد وجدوا أن من المستحيل «ابتكار شكل [من أشكال اللغة] يمكن أن يكشفنا لأنفسنا»[*][57]. وكان فوكو في ذلك الوقت متاحا

(*) قد يتَّضح بعض هذا الكلام بالعودة إلى حديث فردرك جيمسن عن مفهوم الـ mediation (أي العلاقة بين مستويات الخطاب أو بين أمثلة منه) في كتاب The Political Unconscious، ص39-40.[المترجم].

لمدّ يد المساعدة في تشكيل الأدوات الضرورية للبدء بمشروع إيجاد هذا الشكل من أشكال اللغة، ولكنه شكل خفَّف ڤيكو من غلوائه.

***

«البدايات» على أنها قصة تصادم بين أنماط فكرية يسعى كلٌّ منها إلى السيطرة داخل سعيد. فقد وصلت غرابة ڤيكو عن الأنماط الباريسية السائدة أقصى حدٍّ يمكن أن تصله. فهذا القارئ النهم الذي تسهل استثارته، المتبحّر في اللغة اللاتينية، والذي يحتل وظيفة بسيطة في ناپولي في طرف من أطراف أوروبا التي كانت تخضع لقبضة محاكم التحقيق التي كانت تنظر إلى الشمال باستياء باتجاه مركز الحياة الفكرية والفكر الحرّ في هولندة؛ التي كانت في ذلك الوقت ملجأ للمفكرين المنشقّين [عن الكنيسة] القادمين من جميع أنحاء أوروبا بمن فيهم ديكارت، الذات الثانية لڤيكو. لقد دفن نفسه في نوعٍ من البحث الذي وصل ذروته في المدينة قبل قرن من الزمان، نوعٍ وجد مادَّته في الأساليب الفيلولوجية للتفسير الأدبي المعتمِدة على دراسة القانون الروماني.

وفوق ذلك كله كان عمله الفذّ، أي كتاب «العلم الجديد» (1744)، خليطا من الحفريات اللسانية، والقراءات الرمزية للصور القديمة، والقصص الخيالية عن الأزمان الغابرة للأمم البدائية. وقد بدا أن الكتاب لا يتبع نمطا معيَّنا، وأنه كتب على مدى حياة كاملة. وقد جمع الكتاب، بما فيه من جاذبية لا تنقطع، ومن جرأة وجمال، حِكَما، وأمثالا، وحواشي محتدمة، وادّعاءات بدقَّةٍ تشبه الدقَّة الهندسية. ومع ذلك فإن القصة التي يرويها ڤيكو ليست مجرد قصة توثيقية جافَّة، فقد امتلأ الكتاب بحكايات عن الصراع الطبقي، والتمرّد، والحروب القَبَلية، والقصص عن انهيار الإمبراطوريات. أما مغزى الكتاب الكلي فقد خدم غرض سعيد خدمة جُلّى: وهي أنه ليس من شعب، أو عرق، أو إقليم له اليد العليا في تاريخ الحضارة الإنسانية. فالأمم nations (وهي كلمة ربطها ڤيكو اشتقاقيّا بكلمة «الميلاد» nativity) ربما بدأت على شكل عشائر، ولكنها تطوَّرت مع الزمن وصارت دولا لا تستند إلى المزايا العرقية[58]. وبينما تشير فكرة «الخطاب» discourse التي تحدَّث عنها فوكو إلى منظومة فكرية تفرض من فوق عبر اللغة الرسمية للتعليمات ومؤسسة الدولة، فإن ڤيكو كان يقول إن

المؤسسات المدنية التي تعبِّر عن نظامنا وعن قدرتنا على معرفة ما يمكن للبشر أن يعرفوه هي ما عليهم صرف وقت أطول لمعرفته.

في أواسط السبعينيات لم يكن سعيد هو المرتدّ الوحيد من أجل ڤيكو، فقد كانت الأبحاث التي أُلقيت في ندوة عالمية عن ڤيكو قد نشرت في العام 1969، وفي اجتماع خطِّط له قبل سنتين دعم معهد ڤيكو عقد مؤتمر امتدَّ أسبوعا كاملا تحت عنوان «ڤيكو والفكر المعاصر» Vico and Contemporary Thought في يناير 1976 في أعقاب ظهور كتاب «البدايات»[59]. عقد المؤتمر في «البيت الإيطالي» Casa Italiana في جامعة كولمبيا وفي «المدرسة الجديدة» the New School، وكانت أحداث المؤتمر من الأهمية بحيث «غطّته» جريدة «نيويورك تايمز». وقد طَلَبَ كبار المختصين بأعمال ڤيكو وكبار الناشرين من سعيد أن يضع كتابا عنه، ولكنه لم يستجب، لأنه لم يكن حريصا على أن يشتهر بصفته مختصّا بالدراسات الڤيكوية[60]. كان ولاؤه أشدّ خصوصية من ذلك.

فمثلما احتوت كلمة «الأمَّة» فكرة «الميلاد» فإن أصول الحضارات تستدعي نظرية عن «الميلاد». وقد كان اللفظ «غير يهودي» gentile هو الذي عبَّر عن معنى الميلاد هذا. فعلى رغم أن الكلمة في الاستعمال الدارج تشير إلى غير اليهود فإن الكلمة عند ڤيكو اتَّسقت تمام الاتِّساق مع المذهب المسيحي السائد في أيّامه القائل بأولوية اليهود في قصة الخطة الإلهية. ومع ذلك فإن شبكة الأفكار التي يقدّمها طوال كتاب «العلم الجديد» ذات دلالات علمانية. فقد وجدت الكلمة جذورها، وفق ما لاحظ ڤيكو، في الكلمة اللاتينية gentes؛ أي العائلات الممتدَّة التي نمت منطقيّا من مؤسسة الزواج، وهو أحد الأفعال الأولى في دين «الأغيار». ففي فجر ما قبل التاريخ زحف البشر المتوحشون من الغابات لبناء المدن الأولى، وصار الروّاد أغنياء أقوياء، واستعبدوا من أتى بعدهم ووجدوا أن عليهم أن يحصلوا على حماية الآخرين. ثم أجبر «الأغيار» على صنع تاريخ خاص بهم، فابتكروا مؤسسات الزواج، والدين، والدفن، والحُكم؛ لأن طريقهم لم يكن مقدَّرا عليهم سلفا، خلافا لليهود.

وقد بدا أن ڤيكو يقول: فلينعم الشعب المختار بحلفهم مع الله، أما نحن بقية الخلق فلدينا القصة التي لم تُرْوَ عن كفاح البشرية للتعرّف على الله بطريقتها هي، لتستعمل مخافته لبناء الحضارة عن طريق اللغة، والعادات، والقوانين. وكان من

المهم جدا أن كتاب ڤيكو، شأنه شأن مقدمة ابن خلدون، كان في جوهره كتابا في النقد الأدبي على رغم أنه كتاب عن التاريخ، وعلم الاجتماع، والأديان المقارنة. فقد تقدَّم بتفسير أدبي لوثائق مجزَّأة من الماضي بمعنى خاصٍّ جدّا، فتقدَّم برواية عن مولد تاريخ الأغيار وكأنه تاريخ تحدّثت شخصياته بلغة الشعر فقط. وقد اكتشف ڤيكو أن الشعر في بدايته ليس هو اللغة الراقية التصويرية التي نراها في الطقوس أو العُروض الفنّيَّة، بل الوسيلة العادية للتواصل. لقد فكَّر أسلافنا وتكلَّموا باستخدام الكنايات والصور الشعرية، وكانت قوانينهم الأولى قصائد. هذا النمط التاريخي - الذي يتضمَّن الانتقال من عصر الآلهة، فالأبطال، فالبشر العاديين - كان يتّخذ في رأي ڤيكو شكل الدورات التي تتخللها فترات نكوص للبربرية. وبهذا المعنى يمكن للتكرار أن يكون أكثر من مجرَّد محاكاة، إذ يكتشف المثقف علاقات جديدة «بأن يعيد اكتشافها إن شئنا استخدام عبارة من عبارات ڤيكو المفضلة».

كان تأثير فوكو، إلى جانب تأثير ڤيكو، عظيما على عدد من المستويات من حيث الأسلوب، واللغة، والسيرة. فإلى جانب كونه «الشخصية الرئيسة في أهمِّ ازدهار للحياة الفكرية المعارضة في الغرب في القرن العشرين» بكلمات سعيد، وجزءا من مجموعة لامعة «قد لا نرى مثيلا لها لأجيال عديدة»، كان فوكو شديد البراعة في استغلال الأساليب البلاغية[61]. وقد كان من المستحيل على سعيد أن يكتب «البدايات» بالأسلوب الذي كتبه به لولا براعة أسلوب فوكو في التعبير حيث تبدو الكتابة كأنها تسبح في عالمها الخاص بها: وظيفة فنية في حقل من القوى السياسية. فالنص عند فوكو، وفق تفسير سعيد، «لا يسجِّل فقط، وليس تعبيرا كتابيّا عن الرغبة في الكتابة فقط». إنه «يوزِّع حوافز نصية متنوِّعة»[62].

لقد بدا أن إدخال الأفكار اللسانية في نقد المؤسسات الاجتماعية عند فوكو شبيها بما فعله ڤيكو إلى حدٍّ ما[63]. ولكن سعيد اشتكى في الصفحات الأخيرة من «البدايات» من أنه على رغم أن فوكو تكلَّم على نحو مقنع عن قواعد «الإرسال» Transmission في اللغة – أي تجميع القوة بالانتشار عبر المؤسسات – فإنه في كلِّ هذا الاهتمام بـ «نظم الخطاب» لم يكن هنالك شيء عن عالم الاحتكار، وهيئات الرقابة الدعائية، ووسائل الإعلام الجماهيري. عن هذه الأمور لم يكن لدى فوكو ما يقوله مباشرة.

غير أن سعيد وجد أن التعاطف مع كتابات فوكو المبكِّرة عن المرضى والمجانين سهل، تلك الكتابات التي كشف فيها كيف أن أولئك الذين يعيشون على هوامش المجتمع قد عُوقبوا بكرم الدولة التي وصمتهم بالشذوذ. وقد درَّس واحدا من هذه الكتابات وهو «الجنون والحضارة» Madness and Civilization في الموادّ التي تولّى تدريسها في العام 1972[64]. كذلك جَذَبَه أسلوب فوكو، وهو أسلوب «ساخرٌ، متشكِّكٌ، عنيفٌ في ثوريته، كوميديٌّ لا يدخل المسائل الأخلاقية في الاعتبار عند قلب المعتقدات التقليدية والأصنام والأساطير رأسا على عقب»، وكان يُصاب بالوجل إزاء استحالة محاكاة الفيلسوف[65]. ففوكو لم يقف عند حدِّ تقرير بعض المسائل، بل قرَّرها من خلال الشكل نفسه، بمراكمة صيغ لغوية تحوِّل الفعل إلى كينونة، وبتنظيم الأفكار على هيئة مجموعات من أربعة أمثلة بدلا من اثنين أو ثلاثة، وبإثبات ما يريد إثباته بالاستشهاد بماضٍ أُفرِغَ من كل الأسباب والمسبِّبين. وقد أعجب سعيد كثيرا بتفكير فوكو المناهض للتسلسل، أي بعدم اكتراثه بأسماء «المرجعيات» المتعارف عليها فيما هو يبتكر أنماط النظام الخاصة به[66].

وكما كان الحال مع سارتر كانت مشاعره ذات صلة بالشرق الأوسط، ولاسيما في مواقف فوكو الصادقة المؤيدة للفلسطينيين. وفي رسالة لإلين سكسو Helene Cixous تعود إلى يناير 1973 قال سعيد إنه كان قد رأى من فوره الحملة من أجل الفلسطينيين التي نشرتها صحيفة «لوموند» Le Monde في ذلك اليوم وأنها كانت قد وقّعت عليها هي وجينيه Genet وفوكو. وقال إنه «تأثر» بتلك المبادرة وأنه «شاكر» للموقعين، وإن اليسار الأمريكي متخلِّف حول هذه المسألة. «وبالنسبة إليَّ، فإن أسماء مثل أسمائكم (وقد قابلت الموقِّعين كلهم باستثنائكِ أنتِ) تقوّي فكرنا وتصميمنا»[67]. وبعد أن نشر مقالته ذات النظر الثاقب عن فوكو في خريف العام 1972 («ميشيل فوكو بصفته خيالا مثقّفا») Michel Foucault as an Intellectual Imagination غامر بإرسالها مباشرة إلى الفيلسوف كأنها رسالة في قنّينة. وفي شهر نوفمبر يبدو أن فوكو قد فوجئ بدقّة وصف سعيد لمشروعه وشموليته فكتب له ملاحظة بخط اليد طافحة بالمشاعر الودّية:

عند عودتي من أمريكا وجدت المقالة التي كنتَ على استعداد لكتابتها عن أعمالي. لستُ بحاجة إلى أن أقول لك كم أنا شاكر للجهد الذي بذلته لقراءة التأتآت التي تمكَّنتُ من إخراجها، ولفهمها وتحليلها... أنا معجب أشدّ الإعجاب بذكائك وقدرتك ودقة تحليلاتك، فقد ساعدتَني على توضيح طبيعة ما سأكتبه في المستقبل... أودُّ أن أتعرَّف على أعمالك وإلى أين تتَّجه[68].

سُرَّ سعيد بهذا الكلام أيما سرور فردَّ على كلام فوكو بمثله، وكتب له عن لقاء مع جينيه، الذي أخبره بدوره بشيء فاجأه وهو أن دولوز، وسولير، ودريدا من بين آخرين كانوا يؤيدون الجانب الفلسطيني. وعبَّر عن سروره بأن يعلم أن «الأرواح» التي أثارت إعجابه كانت تحمل آراء تقدُّمية كتلك. «وأضيفت مشاعر الشكر الفلسطينية والسياسية... وأنا سعيد لأنني أدركت في أعمالك النظرية مسارا ثوريّا قد يسهم في تطوير فكر عربي - فلسطيني ثوري»[69]. لقد التقى فوكو وسعيد بعد وقت طويل، ولكن كان التضامن بشأن فلسطين قد تفكَّك[70].

تبيَّن في أثناء العمل على التوفيق بين فوكو وفكر ڤيكو أن الحلف بينهما مشكوك في أمره، لكنه تابع العمل. أقرَّ سعيد بأن فوكو وقف مع وجهة نظر هايدغر البائسة بخصوص الحرية الإنسانية، وهي وجهة نظر تختلف تمام الاختلاف عن فكرة الإنسان الصانع التي يتحدَّث عنها كتاب «العلم الجديد». ولكن فوكو، وفق ما كان سعيد يحاول أن يقول، لم يفعل أكثر من التعرُّف على هذه النظرة البائسة، وهو ليس من أتباعها[71]. قد يكون فوكو من أتباع فلسفة ما بعد الإنسانية، ولكن تأثيره تأثيرٌ مُؤَنْسِن[72]. لكن مع مضيّ الوقت أخذ الأسلوب النبوئي عند الفيلسوف يزعج سعيد[73]. فالمفكِّر الذي يعطي الأولوية لـ «القواعد المجرَّدة والأقوال غير المنسوبة إلى قائل، والتعبيرات المنضبطة» والذي يدّعي أن اسم المؤلّف ليس بذي أهمية، وبدا أن فوكو قد نسي أصحاب الأنوات(*) سيئة الذكر، بما فيها أنا فوكو نفسه «السائدة في المشهد الفكري الفرنسي»[74]. وعلى عكس ڤيكو فإنه تجاهل سابقيه أو قلَّل من شأنهم، وجعل أفكاره تبدو أشدَّ أصالة مما كانت عليه في الواقع[75]. «إن

(*) جمع «الأنا».[المترجم].

ما لا تستطيع مركزية اللغة linguicity أن تفعله هو أن ترينا السبب الذي يجعل البنية تبني». وفي النهاية مال إلى قبول حكم لَقِنْ القائل إن هذا النتاج الفكري كان «إسكندرانية عصرنا»؛ أي إنه نقد تجميلي مثل ذلك الذي أنتجه باحثو الإسكندرية القديمة المهووسون بالشكل، القريبون من الغيبيات، المحتقرون لأي شيء عادي[76].

بيد أن سعيد أخذ يعبِّر، مع مضي السنين وبالاعتماد على ما تجمّع لديه من معلومات وأفكار مختلفة، عن خيبة أمله بالفيلسوف الفرنسي بصراحة أشدّ. قال لمراسليه بلهجة قاطعة: «نفضتُ يدي من فوكو»[77]. وفي معرض تقييمه لكتابات طالب كان قد أشرف على أطروحته قال مازحا إنه كان سيستفيد أكثر «لو قرأ أقلّ من فوكو وأكثر من غرامشي Gramchi وچارلز رايْت مِلْز C. Wright Mills»[78]. وقد استاء بشكل خاص من فكرة فوكو في مقالته «الحقيقة والقوَّة» Truth and Power (1977)، حيث صبَّ الفيلسوف جامّ غضبه على المثقفين «الشموليين» الذين يتحدَّثون عن التعاونيات السياسية مثل البروليتاريا، والمحاربين الجزائريين من أجل الحرية، أو المقاومة الفرنسية، مفضلا الكلام عن المثقّفين المهتمين بقضايا «معيَّنة» وينأون بأنفسهم عن الآخرين.

في الصفحات الختامية لكتاب «البدايات» أخذ سعيد يعلن تضامنه مع تلك الفئة من المثقّفين الذين سخر منهم فوكو ووصفهم بأنهم شموليون، ومنهم المؤرخ اليساري غَبْرِيل كولكو Gabriel Kolko الذي أهدى كتابه «التيارات الكبرى في التاريخ الأمريكي الحديث» Main Currents in Modern American History إلى الثورة الڤييتنامية «والشعب الذي قام بها»، والذي وصف حربي أمريكا في ڤييتنام وكوريا بأنهما «هولوكوست»[79]. وكان الذين امتدحهم في تلك الفترة لا يقلون عنه شهرة: هاري بْراكن Harry Bracken الذي ظلت مقالته «الجوهر والعَرَض والعرق» Essence, Accident, and Race تتردَّد في ذهنه طوال عقد السبعينيات دخولا في الثمانينيات، وجونا راسكن Jonah Raskin الذي ترك كتابه «ميثولوجيا الإمبريالية» The Mythology of Imperialism (1971) أثرا عميقا في سعيد[80]. وقد أسرّ في أذن المؤلِّف فيما بعد قوله «يبدو لي أنه ليس هنالك من أحد اقترب من تناول القضايا التي أثرتها»، وهو قول غير متوقَّع في ضوء الصوت الذي نسمعه في كتاب «البدايات»؛ لأن راسكن كتب في كتابه عن «رجال العصابات،

والمتآمرين، وإرهابيي الصفحة الأدبية»، وأصدر إعلانات عن مطلوبين منهم ت. س. إلْيُت، و ف. ر. ليفس F.R. Leavis، ولاينل تْرِلِنْغ، وعبّر عن تطلُّعه «لدفن الإمبريالية الأمريكية»[81].

ومن المفارقات أن كتاب «البدايات» فاز بعد ظهوره بسنة واحدة بأول جائزة باسم لاينل تْرِلِنْغ في جامعة كولمبيا. وبعد مضي سنوات عديدة ظلّ سعيد يشعر بأن الكتاب يستحقُّ مزيدا من التفصيل، وأن موضوعاته أغنى مما أتيح له الخوض فيها، لاسيَّما فيما يتعلَّق بڤيكو[82]. أما الذين لم يبعث كتاب «البدايات» السرور في أنفسهم فقد كان من بينهم لَڤِنْ، الذي اعترف، مقتبسا من «جحيم» دانتي، أنه أضاع دربه في غابة سعيد المظلمة. وعلى رغم أنه امتدح عمق نظرات سعيد التي لا مثيل لها فإنه ظلّ يتساءل عما إذا كانت فكرة «البدايات» فكرة أصيلة أو أنها ليست سوى ما دعاه روجيه Roget بـ «العلاقة المجرَّدة... نوع له من العمومية ما يجعل معناه يتغير مع تغيُّر السياق». ولكنه كان يعرف سعيد معرفة كافية لينتقد وعيه المزدوج: «أنت لا تبتعد كثيرا عن الفيلولوجيا أو النظرة التاريخية؛ ولست، والحمد لله، مناهضا للنظرات الإنسانية إلى ذاك الحد الذي تصف نفسك به أحيانا بتلك اللغة الرنّانة»[83].

وعلى رغم أن سعيد كثيرا ما كان يستاء من النقد عندما تكون سمعته على المحكّ، فإنه في هذه الحالة لم يردّ، بل كتب يقول: «عزيزي هاري(*)، إن ما بدا في الكتاب شيئا جدليا وقطيعة تلفت النظر مع الماضي لهو شيء أجد نفسي الآن محرجا بسببه. أقصد أنني أجد أنني أجادل ضدَّ الموقف النظري الصارخ المناهض للتاريخ الذي يبدو أنني أدافع عنه في «البدايات». كان في تلك الآونة، وفق ما أعلن باعتزاز، يعمل على إنجاز شيء سيبعث السرور في نفس لَڤِنْ؛ شيء هو تاريخي بالدرجة الأولى، شيء يمكن القول حتى إنه وضعيّ positivist عن مصير الدراسات الشرقية في الغرب»[84].

(*) أودّ التذكير هنا بأن لَڤِنْ هو الذي أشرف على رسالة الدكتوراه التي كتبها سعيد، وأنه كان من كبار أساتذة الأدب المقارن في جامعة هارڤرد.[المترجم].

7

من سايغون إلى فلسطين

يا من تقودون طائرات الفانْتُم في السماء

حضِّروا الفُرْسَ الأنذال للموت ليتمرَّغوا مع الأفاعي والناپالم.

الله يخلق ونحن نحرق(*)

أغنية السَّرية 77 للحرب التكتيكية، القوّة الجوية التابعة للولايات المتحدة[1].

لم يخطر ببال أحد أن كتاب «الاستشراق» Orientalism سيحقِّق ما حقَّقه من شهرة. فقد كُتِب على خلفية تحقيقات ووترگيت Watergate، واعتمد اعتمادا شديدا على ما

لا أحد يكسب الاحترام، لا بل لا أحد يوجد في عيون الآخرين، إلا إذا كان قادرًا على سرد روايته وإسماعها للآخرين

(*) كلمة «الله» هنا هي الكلمة العربية Allah، وليست God؛ لأن كثيرا من الغربيين يرون أن Allah خاص بالإسلام. [المترجم].

في الأرشيفات من وثائق، وكان شديد الوضوح في مفاهيمه، يتنقَّل ما بين الصور التفصيلية القريبة واللقطات البانورامية. يبدأ الكتاب بلقطة سريعة كاشفة لبنايات بيروت المهدَّمة التي تعاني الحرب الأهلية، ثم يأخذ القرّاء بفقرات قليلة إلى تاريخٍ لنوعٍ من البحث الأكاديمي يعود إلى الفترة الرومانسية. بعد ذلك ينتقل القارئ إلى قراءاتٍ في روايات تعود إلى القرن التاسع عشر، قبل الانتهاء إلى الأوبرا الكوميدية القائمة على حلقة الأخبار الأمريكية وأفعال هنري كسنجر القذرة. وما لم يكن المرء قد تعوَّد على قراءة كتابات سعيد في العقد السابق، أو لم يكن يألَف قراءة كتابات المؤرخ وِلْيَم أپِلْمَن وِلْيَمْز William Appleman Williams عن الإمبراطورية بحيث تكون بمنزلة «أسلوب حياة»، أو لم يألف شعر لامارتين Lamartine، فإن اختيار سعيد لمصادره سيبدو له غريبا أو مذهلا. وقد بدت كذلك لكثير من المؤرِّخين، واللسانيين وعلماء الاجتماع الذين أزعجهم نجاح الكتاب. لقد كان الكتاب لنصف قرّائه نصرا، وللنصف الآخر فضيحة، ولكن لم يكن بوسع أحد أن يتجاهله.

لقد شعر قرّاؤه في كثير من أنحاء الشرق الأوسط بالغبطة الغامرة. فقد قال طريف الخالدي مثلا: «نجد ههنا للمرة الأولى كتابا كتبه واحد «منّا» يقول للقوى الإمبريالية أن تذهب للجحيم». وبدا أن سعيد يقول: «نحن نعرف أساليبكم»، ولم يكتفِ بوضع نقدٍ للأفكار الجامدة التبسيطية على المنضدة، بل جاء بنظرية معرفية كاملة استعملتها تلك القوى لخدمة أغراضها. «وفتح مئات الأبواب التي عبّر منها فيض من الانتقادات»[2]. ونجح كتاب «الاستشراق» في فضح الدراسات الإنكليزية والفرنسية المتعلِّقة بالعرب والإسلام نجاحا لا ريب فيه. فقد بيَّن سعيد أن الدراسات الشرقية مهما بلغ من تخصُّصها في الماضي قد دعمت الصورة غير الواقعية للعرب والإسلام وفي بعض الحالات خلقتها. أحيانا كانت الصور المعطاة باذخة آسرة، وأحيانا مستهينة كريهة، ولكنها لم تصف العرب والمسلمين وصفا يجعلهم جيران الأوروبيين أو معاصريهم؛ أي وصفا يجعلهم أناسا يواجهون مشكلات يومية كتلك التي يواجهها الغربيون.

لقد ظلَّت هذه المكتبة الضخمة من الصور والمشاعر تتجمَّع عبر القرون بحيث تشكَّلَ كيانٌ نقديٌّ ونشأت شبكة من العلاقات التي أثَّرت في آراء صانعي السياسة في الحكومات، ووسائل الإعلام، والكنائس، والجامعات. هذه الشبكة المعقَّدة من

الأفكار التي تدعمها سلطة العلوم النصِّية والعلم الواسع الذي جاء به صانعوها دعمت المشاعر والعواطف العدائية السوقية التي كانت شائعة من قبل. هذا الكيان المعرفي حرم العرب من كل شيء باستثناء الواقع النصّي، وهو في العادة قائم على عدد قليل من الوثائق الدينية القروسطية التي جمَّدتهم في كلاسيكيات ماضيهم. ويبدو أن هذا القدْر من معنى كتاب «الاستشراق» لم يكن موضع خلاف على رغم أن القرّاء لم يتَّفقوا على كثير سواه.

فشلت أغلبيتهم في ملاحظة الغموض الحقيقي لمشاعر سعيد نحو المستشرقين. ومن الواضح أنهم صادفوا أسماء المذنبين في القصَّة، ألا وهم الباحثون الذين منحت «حقائقهم المعروفة» مصداقية علمية لصورة الآخر العربي الإسلامي. وكانت هذه القصة قصة كشفت قدرا أكبر عن حاجة الغرب لـ «الأشرار» العرب مما كشفت عن الشعوب التي كانت تعيش في المشرق، وهي شعوب كانت «حقيقتها الملموسة» (بتعبير سعيد) «أكبر مما يمكن أن يقال عنها في الغرب»[3]. ومن ناحية أخرى، ألم يكن هؤلاء الباحثون من غير الفيلولوجيين؟ ألم تكن الفيلولوجيا طريقة للقراءة والدراسة أراد إحياءها؟

لهذه الأسباب نجد أن أحكامه معقَّدة. ففي مقالات نشرت بُعيد نشر الكتاب (وكانت النية أن تكون جزءا منه) عبَّر عن احترامه للعديد من المستشرقين الذين انتقدهم في الكتاب، وأبدى إعجابه بلويس ماسنيون Louis Massignon، صاحب «العقلية الفريدة»، وبريمون شواب Raymond Schwab، صاحب «الموتيفات الجلية على نحو بالغ الذكاء»[4]. وكان من إحدى النواحي يجادل بأن على الباحثين والمفكّرين العرب المعارضين للتوجُّهات السائدة التعلُّم مما لدى المستشرقين «من صور، وإيقاعات، وموتيفات»، وأنه هو نفسه عازم على أخذ الملاحظات عن لطائف أساليبهم وطرقهم في عرض أفكارهم، على نحو منفصل عما يبدون من معرفة هائلة[5]. وكان من رأي سعيد أن نجاح كتاب «الاستشراق» يعود برمَّته إلى إتقانه لما تعلَّمه من دروسهم.

رافق الاستقبالَ الذي تلقّاه الكتاب كثيرٌ من سوء الفهم. وقد يكون من باب المبالغة المفرطة، بطبيعة الحال، أن نقول إن الكتاب لا يتناول «الشرق الأوسط»، وأن فلسطين لا تكمن خلف القصص التي يرويها عن الصور الكاريكاتيرية لـ «التخلُّف»

العربي التي أشاعها أمثال دزريلي Disraeli، واللورد كرومر Lord Cromer، وهـ. أ. ر. غِب H. A. R. Gibb. لكن الكتاب من الناحية الثانية لم يقتصر على الشرق والمستشرقين، ولم يكن حتى عنهم في المقام الأوَّل. ولم يكن من المتوقَّع من أولئك الذين تابعوا كتاباته قبل كتاب «الاستشراق» أن يغيب عنهم أن الكتاب تأمُّلٌ حول الدرجة التي يكون فيها التمثيل جزءا من الواقع، وليس مجرَّد تعبير عنه بالكلمات. لقد قصد، بدلا من محاولة قياس الدقَّة وعدمها في تصوير المستشرقين للحياة العربية والإسلامية، أن يركِّز على الأصداء التي ينتجها التمثيل نفسه.

ومن المتوقَّع أن يجد المرء داخل هذه التركيبة المغلقة من الإيماءات، والمصطلحات، والأقوال دلائل على الآلية التي تنتشر بها الأفكار، وكيف تكتسب المرجعية، وكيف تدعم نفسها من دون أن يلمسها العالم الفعلي. وما ظنه كثيرون مخطئين أنه محاولةٌ فاشلةٌ لرسم خريطة علم الاستشراق كله (وهو شيء لا يهمه على الإطلاق) كان يستهدف شيئا مختلفا تمام الاختلاف. ولذا فإنْ تناول كتاب «الاستشراق» موضوعا واحدا فهو أن الإنسانيات ذات نتائج سياسية، ليس فقط بسبب المكانة التي يتمتَّع بها المستشرقون ومدى التأثير الذي يمارسونه، ولكن أيضا بسبب دراستهم موضوع التمثيل على غرار ما يفعله نقاد الأدب (وخلافا لما يفعله السياسيون، والصحفيّون، وعلماء الاجتماع). فهم وحدهم الذين يمكنهم أن يفسِّروا كيف يتشكَّل الاستشراق، وكيف يكتسب «كثافة مادَّته وقوته المرجعية» بتعبير سعيد[6].

وحتى أولئك الذين لم يستثرهم وصفه الجماعات التي تحلَّقت حول سلڤستر دي ساسي Silvester de Sacy، أو للثرثرة القديمة في رواية «سالامبو» Salammbo لفلوبير، أحسّوا بوجود جانب على الأقل مما كان يستهدفه: وهو أن وسائل الإعلام، وفرق العصف الذهني، والجامعات كانت تتعاون، بعلمها ومن دون علمها، بمغامرات السياسة الخارجية لدولها. ولم يكن سعيد هو الذي ابتكر مصطلح الاستشراق، ولم يكن حتى أوَّل من استقصى الآثار الضارَّة لهذا الحقل، ولكنه أعطى الكلمة أصداء جديدة. وأصدق دليل على الأثر الذي تركه هو عدد الكتب التي كتبت لتفنيده (وهي كتب فاق عدد صفحات بعضها عدد صفحات كتاب «الاستشراق» الـ 329)[7].

***

بعد الانتهاء من المسوَّدة الأولى في 2 أغسطس 1976 قرَّر سعيد أن يعنون الكتاب «تشريق الشرق» Orientalizing the Orient[8]. فهذا العمل الذي هاجمه الخبراء المختصّون بدراسة المناطق بأنه الكلمة الأخيرة في الفلسفة العدمية، لم يكن في ذهن مؤلِّفه سوى تصحيح للتاريخ يعتمد على الحقائق. وكانت رغبته في أن يُعَدَّ مادِّيّا متَّزنا أوضح في السنة التي ظهر فيها كتاب «الاستشراق»، عندما دعا لَقِنْ ليكون أحد المشاركين في دورة المعهد الإنكليزي المرموق التي ترأسها سعيد في كولمبيا في تلك السنة. فبعد أن اعتذر الاشتراكي الويلزي رَيْمُنْد وِلْيَمْز، ومؤرِّخ الحزب الشيوعي البريطاني السابق إدْوَرْد پالمر تومپسن عن عدم القدرة على الحضور بالنظر إلى ارتباطات سابقة، توجَّه سعيد إلى لَقِنْ الذي اقترح، بعد أن رأى الانتماءات الجديدة، أن يتكلَّم عن نقّاد وسائل الإعلام من مدرسة فرانكفُرت الماركسيين الألمان[9].

ولما كان سعيد على علم بأن «الاستشراق» قد يعدُّ كتابا يقصد منه تحطيم الأصنام التقليدية فإنه وجد صداقته مع چومسكي، وهو محطِّمٌ آخر للأصنام التقليدية، ذات قيمة عالية. ذلك أن الانتقادات الشديدة التي كان يبثُّها عالم اللغة ذاك كانت كثيرا ما تجعله ينخرط في جدالات عرَّفته بكيفية التعامل مع الصحف. وكان كتاب چومسكي بعنوان «المثقَّفون والدولة» Intellectuals and the State (1976) الذي كان قد ظهر على شكل محاضرة في العام السابق معروفا لسعيد؛ وهو نقد لتواطؤ المؤسسات الأكاديمية مع الحرب في ڤييتنام. وكان سعيد قد فكَّر لوهلة أن يشترك مع چومسكي في تأليف كتاب عن التصوير الثقافي الزائف للشرق الأوسط، ويبدو أن كتاب «الاستشراق» قد بدأ بمثل هذه النيّة. غير أن چومسكي لم يتمكَّن من متابعة العمل نظرا إلى ارتباطات أخرى، ولذا فإن سعيد مضى فيه منفردا، وكان «الاستشراق» هو النتيجة[10].

على أن عالم اللسانيات الذي ينتمي إلى معهد ماسَچوستس للتكنولوجيا(*) مدَّ يد العون بطرق أخرى. فقد كان أوَّل من قرأ الصيغة الأولى من الكتاب «في جلسة واحدة تقريبا»[11]. وقد أعجب بصرامة تحليلاته، ولكنه حذَّره حول ضرورة «الحفاظ على التوازن بين التحليل والاقتباس المباشر». سيكون نقّاده كثيرين، ومن المحتمل،

(*) أي چومسكي. [المترجم].

كما يرى چومسكي، أن يركِّزوا على القلّة النسبية للتوثيق. «وقد يكون من المفيد أن يُضاف شيء حول موضوع التعصُّب العرقي، وحول الاستشراق وحرب ڤييتنام؛ وأظننا بحثنا هذه النقطة».

بدأ سعيد كتابه بعد الحرب بين العرب وإسرائيل في العام 1973، وانتهى من الصيغة الأولى منه بعد سنة من آخر حملة قصف للهند الصينية Indochina أمر بها نكسن. وكان الهدف منها وصف الصراع في الشرق الأوسط على أنه تمرُّد ضدَّ الاستعمار شديد الشبه بذلك الذي كان يجري في ڤييتنام[12]. وإذن لماذا لا نرى حرقا للأعلام أو احتلالا للكاپيتول في واشنطن دعما لفلسطين؟ فعلى غرار الأدب العالمي الذي تحدَّث عنه غوته في أعقاب الغزوات النابليونية لأوروبا الوسطى، كان كتاب «الاستشراق»، من بين أمور أخرى، استجابة للحرب[13].

في أوائل العام 1978 كتب سعيد رسالة لإسرائيل شاحاك Israel Shahak – وهو أحد الذين نجوا من المحرقة، وأستاذ في مادَّة الكيمياء، ورئيس العصبة الإسرائيلية للحقوق الإنسانية والمدنية - وصف فيها دوافعه الأخرى لتأليف الكتاب. وقال إن أبطال الثقافة الغربيين من أمثال جون سْتِوَرْت مِلْ وماثيو آرنولْد «لم يمتنعوا عن معارضة التمييز العنصري والإمبريالية فقط... بل ساندوهما بأن سمحوا باستخدام أسمائهم ومكانتهم للإعلاء من شأن الثقافة والعرق دعما للشر». لقد كانوا يعلمون تماما ما الذي كان يجري، وصرّحوا بذلك، ولذلك غدوا صورة أولى لـ«المثقفين اللبراليين المعاصرين»، الذين يصدرون تفسيرات تشبه تلك التي يصدرها المسؤولون أو يكتبها محرِّرو جريدة «النيويورك تايمز»، بل كانوا أجدادهم المباشرين[14].

أثَّر المكان الذي كتب فيه الكتاب في نظراته تأثيرا لا يُستهان به. فقد كان الجزء الأكبر من المسوَّدة الأولى قد كُتِبَ في مركز بحثي مخصَّص للعمل في مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية؛ ألا وهو مركز الدراسات المتقدِّمة في العلوم السلوكية في سْتانفُرد CASBS(*) في العامين 1975 و1976[15]. وقد عبَّر عن سعادته في رسالة أرسلها لصديقه المؤرِّخ البريطاني روجر أُوِن في يوليو من العام 1976، يقول فيها: «أنهيت فصلين طويلين (نحو 250 صفحة)، وأنا ماضٍ في كتابة القسم الأخير»[16].

(*) Center for Advanced Study in the Behavioral Sciences.

ويمكن رصد بداياته احتمالا في حرب 1973. وكان هذا المشروع قد تخمَّر في ذهنه في أثناء المشي الوئيد في حرم جامعة كولمبيا مع سامي (وهو صديق لمريم كانت تعرفه قبل الالتقاء بسعيد، وصار إشبين سعيد في حفل زواجهما). سأل سامي بصوت عالٍ عن السبب الذي يجعل كل الأعمال العظيمة عن الشرق الأوسط أعمالا كتبها الباحثون الغربيون[17]. كان «الاستشراق» والمجلدان المرافقان اللذان نشرهما بعده بسرعة، الكتب الأساسية الوحيدة التي صنفها بوصفها كلّا عضويا من البداية إلى النهاية بدفعة مركزة من النشاط.

في العام 1975 ألغى أنور السادات القائمة السوداء التي ظلَّت معتمَدة طوال عقد الستّينيات، فعاد سعيد إلى القاهرة مع مريم بصفة سائح في الصيف، وأقام على مدى أسبوع في فندق، ولكنه خاب أمله بسبب الضوضاء والقذارة والازدحام. كان مقرُّه خارج الولايات المتَّحدة هو بيروت التي كانت أفضل حالا بقليل في الأشهر السابقة على انتقاله إلى سْتانفُرد لأن الحرب الأهلية اندلعت في ذلك الصيف. وقد تحدَّثت الرسائل التي تلقّاها في المركز عن «المذابح الفظيعة» في لبنان، وأبدت تعاطفها معه، واستفسرت عن عائلته[18].

وعلى الرغم من أنه كتب لأصدقائه في إنكلترا أنه «لم يكن يستمتع بوجوده في المركز كثيرا»، فإن مناخ كاليفورنيا ذكَّره بمناخ شرقي البحر الأبيض المتوسط، وسرعان ما اكتشف مطعما لبنانيّا في بيركلي. كذلك فإن حيويته الناتجة عن عشقه للعب التنس جعلته شخصا اجتماعيّا، لاسيما مع النساء اللواتي وجد أن من الأسهل عليه أن يفضي إليهن بأسراره[19]. وفي تلك السنة كان جونَثَن كول Jonathan Cole، الذي أصبح واحدا من كبار المسؤولين في جامعة كولمبيا، يقضي سنة في المركز نفسه، ويتذكَّر أن سعيد كان مركز الاهتمام، وأنه يختلط مع الآخرين بسهولة ويشاركهم في أحاديث مطوَّلة في فترة الغداء.

ومن الصدف الغريبة أن أحد المعيَّنين بوظيفة زميل معه في تلك السنة كان يهوشافات هركابي Yehoshofat Harkabi، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، والمتخصّص الشهير باللغة العربية. كان هركابي شخصا واسع الثقافة، يحبُّ الشعر العربي، «يشبه شخصية البوليس السرّي»، ميّالا إلى التحفّظ الهادئ وفق وصف المؤرِّخة الفنِّيَّة سڤتلانا ألپرز Svetlana Alpers، ووصفه هو نفسه

بأنه «حمامة مكياڤللية»[20]. وقد خشي بعضهم من أن يتصادم الاثنان ويشعلا حربا شرق أوسطية في المركز نيابة عن المنطقة الأصلية[21]. لكن سعيد وهركابي حافظا على اللياقة المطلوبة، وعلى رغم أن أحاديثهما لم يتخللها الدفء فإنها بقيت مهذَّبة، وكثيرا ما تطرَّقت إلى مواضيع آمنة تهمّ الطرفين. وقد ذكرت ألبِرز عددا من «صداماتهما المسلّية» وشعرت بأن علاقتهما غير مريحة[22]. وفي السنوات التي سبقت مجيء هركابي إلى المركز كان هركابي قد تطوَّر من شخص متشدِّد (قال چومسكي بلهجة جافة إن «تجديداته المبتكرة» تضمنت «الرسائل المفخَّخة في قطاع غزَّة في الخمسينيات») إلى الدعوة الصريحة إلى إنشاء دولة فلسطينية[23]. وسواء أكان ما فعله بتأثير سعيد أم لم يكن فإن هركابي أخذ بعد مغادرة المركز بوقت قصير يحثّ إسرائيل على التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية للانسحاب من الأراضي المحتلَّة تمهيدا لإنشاء دولة فلسطينية مستقلَّة.

كان هركابي، صاحب الثقافة الواسعة، قد وصل إلى سْتانْفُرد بعد أن كتب أطروحة سياسية عن النفسية العربية بعنوان «الاتجاهات العربية نحو إسرائيل» Arab Attitudes to Israel (1974)، واستند فيها إلى تحليل مئات من الكتب العربية والصحف والبرامج الإذاعية. ويظهر اسمه في كتاب «الاستشراق» ظهورا وجيزا بلقب «الجنرال يهوشافات هركابي»، الرجل الذي قيل إنه وصف العرب بأنهم «منحطّون، معادون للسامية حتى النخاع، يتَّصفون بالعنف وعدم التوازن»[24]. ومهما كان الهدف من كتاب هركابي فإنه ينتمي إلى جنسٍ من الكتب كان سعيد على معرفة جيِّدة به، وكان ينوي التحدُّث عنه في كتاب «الاستشراق».

كان أوضح كتاب سار على نهجه كتاب رفائيل پاتاي Raphael Patai «الذهن العربي» The Arab Mind (1973). وكان پاتاي، المستشرق الهنغاري اليهودي الذي كان يدرِّس في جامعتي كولمبيا وپرنْستن، قد وضع دراسته الأنثروبولوجية عن العرب، واستنتج أن العرب يكرهون كل عمل يوسِّخ أيديهم، وأنهم مشغولون بالجنس، ويكرهون كلَّ الغرباء من دون تمييز. حصل هذا الكتاب الذي فحص عقدة الاضطهاد التي افترض المؤلِّف أنها تكمن في أعماق الأحاسيس العربية على مراجعات إيجابية جدّا، وانتهى به الأمر إلى أنَّ وزارة الدفاع الأمريكية انتبهت له. وقد كشف سيمور هيرش Seymour Hersh في مقالة نشرها في مجلَّة «ذا نيو

يوركر» The New Yorker في العام 2004 عن أن الكتاب أصبح «كتاب المحافظين الجدد المقدَّس فيما يتعلَّق بسلوك العرب»، واستُعمِل في التحقيقات التي أجريت في أبو غريب للهجوم على نقاط الضعف لدى المساجين، إذ ساد الاعتقاد بأنهم يخشون الإذلال الجنسي أكثر من أيِّ شيء آخر[25].

تبيَّن أن التاريخ كان قد جمع هركابي وسعيد معا في مناسبة سادها التوتُّر قبل لقائهما في سْتانْفُرد. فقد عقدت رابطة خريجي الجامعات الأمريكية من الطلاب العرب AAUG مؤتمرها السنوي في فندق أورنْغتن في مدينة إيفانْستن في العام 1970، وشاءت الصدف أن الطلبة الإسرائيليين الذين يدرسون في الولايات المتَّحدة كانوا يعقدون لقاءهم السنوي على مبعدة حارات قليلة من مكان مؤتمرهم، وكان هركابي متحدِّثهم الرئيس. ويبدو أن «الجنرال الطيِّب» قد دفعه دافع مفاجئ إلى أن يقود تسعين من الطلبة باتِّجاه أورنْغتن من دون سابق إنذار لإجراء حوار بريء. وكانت جماعة الجبهة الشعبية الفرعية PELP التي كان سعيد يتعاطف معها بسبب صداقته مع سامي (الذي كان عضوا فيها) أوَّل من سمع بالوفد القادم. استثار ذلك التصرُّف غضب سعيد لأنه عدّه تحدّيا سافرا، فقاد شباب الجبهة لمجابهتهم. وعندما اقتربوا صرخ سعيد بأعلى صوته: provocateurs (مثيرو شغب!). وبعد مواجهة متوتّرة على الدرج صاح هركابي بأنهم جاءوا بسلام، وبعد ذلك تراجع الإسرائيليون وانسحبوا[26].

والتقى سعيد وهركابي مرة أخرى في باريس في العام 1979 في شقَّة فوكو حيث كانت مجلة Les Temps modernes تعقد لقاء «طاولة مستديرة» حول إسرائيل/فلسطين. وفي هذه المناسبة وصفه سعيد بتحفُّظ يغلي تحت السطح بأنه «في طريقه إلى تغيير موقفه ليصبح حمامة السلام الأولى لدى المؤسسة الإسرائيلية»[27]. والظاهر أن كتاب «الاستشراق» الذي يَدْرس في الظاهر المتخصصين في الثقافة العربية المنتمين إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان لديه أوغاد آخرون أقرب عهدا، وأن وجوه الفيلولوجيين الأوغاد كْرِسْتيان سنوك هرخرونيه C. Snouk Hurgronje، وثيودور نولدَكَه Theodor Noldeke، وإدْوَرْد پالْمَر Edward Palmer كانت تخفي وراءها هركابي وپاتاي وغيرهم ممن يعيدون ذكرى طرق العمل الأقدم.

على أن أجداد كتاب «الاستشراق» الطيِّبين كانوا أكثر عددا من السيِّئين. ففي السنوات التي سبقت وصول سعيد إلى سْتانفُرْد، حرص على الكتابة إلى كبار المتخصِّصين في دراسات الشرق الأوسط وإلى نقّاد حقل الدراسات العربية الأكاديمية مثل أنور عبد الملك الذي صادف أنه كان ابن عمّ نبيل (Bill) مالك، صديق طفولة سعيد، الذي يرد ذكره في كتاب «خارج المكان». وكانت الدراسة التي نشرها عبد الملك بعنوان «الاستشراق في أزمة» Orientalism in Crisis (1963) بالغة الأهمية، وتبادل الرجلان الرسائل لسنوات وقد أرسل عبدالملك قائمة بأعماله بعد أن قرأ الملخص الذي أعدَّه سعيد لكتاب «الاستشراق» (بعنوان «أساطير تحطّمت» Shattered Myths في مجموعة تنتمي إلى العام 1975)، واشتكى من أن سعيد لم يستشهد به[28]. وقد قاد ذلك إلى تبادل الرسائل الودّية بين الاثنين، وفيها تساءل سعيد عن السبب الذي منع عبد الملك من الإشارة إليه هو الآخر[29].

غير أن سعيد سرعان ما تجاوز هذه البداية الحساسة وكتب للتعبير عن إعجابه: «ليس هنالك من أحد في عالمنا (أقصد العالم الثالث أو العالم العربي) من لديه ما لديك من الذكاء الأيديولوجي والتمكُّن المنهجي من القضايا الحضارية والثقافية»[30]. وقد وجّه بعض من كتبوا مراجعات لكتاب سعيد تهمة استعارة الأقوال من دون نسبتها إلى أصحابها، ولكننا نجد منذ المقالة الأولى عن القضية الفلسطينية في العام 1969 (في مجلَّة خريجي جامعة كولمبيا) أنه ذكر سابقيه منذ البداية وبوضوح تام: جاك بيرك Jacques Berque، ومكسيم رودنسن Maxine Rodinson، وقسطنطين زريق، وجورج أنطونيوس George Antonious، وألبرت حوراني[31].

عدَّ سعيد بيرك واحدا من ألمع مستشرقي القرن[32]. ولد بيرك في الجزائر لأبوين فرنسيين مقيمين في الجزائر من فئة «ذوي الأقدام السوداء» pied noir(*)، وكان سعيد مهتمّا به منذ سنوات، وتبادلا الرسائل الودِّية منذ أوائل السبعينيات. كان بيرك معارضا للنظام الاستعماري، شديد الإعجاب بالأدب العربي المعاصر على عكس أنداده، مخالفا بذلك الموقف التقليدي القائل إن كل ما يستحق الاهتمام في الأدب العربي هو القديم منه، وأن الشرق راكد. أما مكسيم رودنسن الذي كان سعيد قد

(*) هم الفرنسيون وغيرهم من ذوي الأصول الأوروبية الذين ولدوا في الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي بين العامين 1832 و1962. [المترجم].

كتب مراجعة لكتابه «الإسلام والرأسمالية» Islam and Capitalism (1968) لمجلة «النيويورك تايمز بُك رِفْيو» في شهر نوفمبر 1974 بعنوان «ماركسي فرنسي يفسِّر الشرق الأدنى الغامض» A French Marxist Explains the Mysterious East فكان مفكِّرا يشعر سعيد نحوه بالمهابة(33). كذلك اعتمد سعيد كثيرا على المصادر الإسرائيلية، وبخاصة على شاحاك الذي كانت تنقيباته فيما تنشره الصحف باللغة العبرية ذات قيمة عالية له لأنها كشفت للملأ السياسات الإسرائيلية، وقرارات المحاكم، والأقوال غير الرسمية التي يدلي بها المسؤولون السياسيون ويوجهونها إلى الاستهلاك المحلّي فقط(34).

كان كتاب «الاستشراق» هو الذي أظهر مؤلِّفه بوضوح أنه ينتمي إلى ذلك النمط من المفكِّرين العرب الذين أنتجتهم النهضة؛ أي اليقظة التي بدأت في القرن التاسع عشر. ففي تحضيره كتاب «الاستشراق» تلمذ نفسه على نحو واعٍ على مفكِّري النهضة، وانضمَّ إلى أمثال كلوڤيس مقصود Clovis Maksoud، العروبي اللبناني الأمريكي الكبير الذي عمل سفيرا للجامعة العربية (1961)؛ حوراني، الذي أسَّس دراسات الشرق الأوسط في العالم الناطق باللغة الإنكليزية؛ محمد حسنين هيكل، الصحفي المستقل الشهير في القاهرة، الذي دعاه سعيد «موسوعة فعلية للمعلومات عن مصر والعالم العربي»؛ العروي في كتابه المتميِّز «أزمة المثقَّفين العرب» (1974)؛ وفِلِپ حِتّي الذي وضعه كتابه «الإسلام والغرب» (1962) في وضع مشابه للموقف الذي وضع كتاب «الاستشراق» مؤلِّفه فيه، أي في وضع يجعله مصدرا للمعلومات الموثوقة أمام الوكالات الحكومية(35). ففي العام 1944 قال حتّي أمام لجنة من لجان مجلس النوّاب إنه ليس هنالك من سند تاريخي لإنشاء وطن يهودي في فلسطين(36).

لكن حتى موضوع الاستشراق الذي عمل كتاب سعيد على فضح تصوير الغرب الكاريكاتيري له كان له تاريخ أطول. فهذا ميخائيل رستم، مؤلِّف كتاب «الغريب في الغرب»، الذي نُشر في نيويورك في العام 1895، يشتكي مرَّ الشكوى من الأكاذيب العنصرية التي ملأت كتاب الدكتور هنري جِسَپ Henry Jessup المعنون «الحياة البيتية السورية» Syrian Home Life (1874) ومن الكتاب الأسوأ منه بعنوان «نساء العرب» The Women of Arabs (1873). فقد صنَّف رستم أساليب جِسَپ ليُظهر كيف أعطى عنصريته المعادية للعرب مظهر التعليقات ذات المصداقية:

فاختار بعض الحقائق وتجاهل أخرى، وجرّدها من سياقها، وحكم بذلك على شعب بكامله[37]. صحيح أن كتاب مقصود «صورة العرب» The Arab Image (1963) تناول مشكلات التمثيل التي تناولها كتاب «الاستشراق»، وأن كتاب حوراني «تاريخ الشعوب العربية» (1991) أكَّد أهمية المصطلحات التي تتميَّز بها كتابات فوكو (الحقيقة، القوّة، الثروة) لكن علم الاجتماع الماركسي عند العروي هو الذي جاء بأكثر نقاط الالتقاء[38]. وفيها بيَّن العروي أنه كان على المثقفين العرب أن يتّخذوا جانبا من اثنين: فإما أن يتابعوا التيارات النظرية الغربية ليكونوا مجرَّد شُرّاح؛ وإما أن يتنكَّروا لها أملا بالبقاء عالميّي النظرة غير ملتزمين[39].

غير أن الأثر الأكبر لا بدَّ أنه جاء من قسطنطين زريق، الذي قضى سعيد معه ساعات طويلة في حديث شخصي في أثناء اللقاءات العائلية. كان زريق، من عدد من النواحي، الأنا الأخرى لشارل مالك. ولد زريق في دمشق، من طائفة الروم الأورثوذوكس، وعمل في السلك الديبلوماسي، ومربِّيا جليلا في الجامعة الأمريكية ببيروت، ولم يحفل كثيرا بأسلوب مالك الاعترافي. كتب مالك بأسلوب ناصع البيان، وبحماسٍ ملتهب، وبلهجة الداعية الحريص. أما زريق فقد طرح قضيّته بلهجة هادئة وثقة أبوية. وكان والدا مريم وعائلة زريق على علاقة بلغ من متانتها أن مريم كانت تشعر كأنها إحدى بنات زريق، بينما لم يكن يفصل سكن زريق وعائلته عن سكن سعيد وعائلته سوى مسافة قصيرة في بيروت. ولربما لم يكن من السهل على المرء أن يرى في النقاش زواجا للعقول(*) عندما كان زريق وسعيد يقضيان ساعات طويلة في نقاش محتدم بعد العشاء، فقد اختلفا عندما وصل الحديث إلى أثر «فرويد ونيتشه وغرامشي في أعمال» سعيد وفق ما قال فيما بعد[40]. ولكن سعيد ظل يسعى إلى الحصول على نصح زريق ويعتمد على دعمه على رغم كل الخلافات.

في فبراير 1974 كتب سعيد رسالة لكوستي Costi(**) (كما كان زريق يعرف في العائلة) بناء على إلحاحٍ من وداد، والدة مريم، للنظر في إمكانية حصوله على منصب تدريسي دائم في الجامعة الأمريكية ببيروت. كانت تلك الجامعة هي

(*) يلمح المؤلِّف هنا إلى السونيتة 116 من سونيتات شيكسبير التي يقول فيها «ليس هنالك من حائل يحول دون تزاوج العقول الصادقة». [المترجم].

(**) اختصار لقسطنطين Constantine. [المترجم].

الوحيدة (وفق تأكيد سعيد) التي تتصف بالرقيّ الفكريّ وبالمتابعة النظرية؛ «إنها المكان الوحيد الذي له قيمة في الحقل الذي أعمل فيه» في الشرق الأوسط. لكن كانت جامعات [جونز] هوپكنز وهارڤرد وكولمبيا تسعى كلها إلى استقطابه، وكان الوقت قد حان لاتّخاذ القرار. كان في موقف حاسم في حياته، وكان ميالا إلى التوجُّه شرقا. «مهما تكن المعرفة التي أملكها الآن عن الشرق الأوسط فإنها توظَّف في خدمة الإمبراطورية الأمريكية، ولماذا لا أضعها في خدمتنا نحن؟»[41] كان العرض الذي تلقّاه في النهاية هو أن يصبح رئيس قسم الأبحاث في معهد الدراسات الفلسطينية، الذي كان مستقلا من الناحية التنظيمية عن جامعة بيروت الأمريكية. ونحن لا نعلم النصيحة التي قدَّمها له كوستي، ولكنه تخلّى عن الخطة بضغط من مريم. فإلى جانب أنها لم تكن لديها رغبة في العيش كلّ الوقت في لبنان فإنها خشيت أن يقفز إلى أوحال سياسة الشرق الأوسط، وأن يتخلّى عن التثبيت الذي سعى إلى الحصول عليه طوال حياته، وأن يفقد فرصة العودة.

لم تسع دراسة زريق الفذّة بعنوان «معنى النكبة»، على رغم دعوتها الناقدة إلى التوجه باتِّجاه الغرب، إلى التخلّي عن العروبة، بل إلى إعادة تشكيلها. وكان من رأي زريق أن ثمة في الثقافة العربية وحدة أساسية قوامها رؤية روحية، وتطلُّعات شاملة، واعتقاد بوحدة الحقيقة وليس بنسبيَّتها، والانفتاح على الثقافات الأخرى. وكان تأثيره في سعيد على أوضحه في جعله يؤمن بأن الباحث القدير المتحرِّر من نزعة الانتقام سينجح عند محاولة ترسيخ هذه الصفات وجعلها تسود. وكان من الواضح أنه يختلف مع سعيد في احتقاره لميل العرب إلى الأدب بانتقاده الموهبة العربية السخيفة للتعبير عن الأوهام السياسية بلغة موشّاة بالعبارات الجميلة، لكنه ركَّز على الثقافة بوصفها وسيلة للتحوُّل الاجتماعي[42].

وفي رسائل أخرى كتبها سعيد في أثناء انشغاله بالكتاب عبَّر عن قضايا أخرى غير متوقَّعة. وعلى رغم أنه لم يكن قد وصل بعد إلى النقطة التي يرى عندها أن وحدة الكتاب تكمن في المشكلة النظرية الخاصة بالتمثيل فإنه حيَّر كثيرين فيما بعد بشأن ما يحاول كتاب «الاستشراق» قوله:

> أطروحتي على رغم فجاجتها طريقة فعّالة لدراسة المرحلة الحديثة [من الصراع بين الشرق والغرب]. أبدأ بحفنة من المصادفات في أواخر

القرن الثامن عشر... حملة نابليون في العام 1798، توحيد شركة الهند الشرقية، مولد الجمعية الآسيوية Societe Asiatique والجمعية الملكية الآسيوية Royal Asiatic Society... ونشأة الفيلولوجيا المقارنة... والتمييز الذي أوضحه شليغل Shlegel للمرة الأولى ولكنه تمييز تابعه همبولت Humboldt، بين اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية. ذلك أن موضوعي هو تاريخ الاستشراق البريطاني والفرنسي في العالم الإسلامي القريب (بما في ذلك احتلال الجزائر 1830 ومصر 1882، وما إلى ذلك على مدى القرن)، وعلاقة ذلك بالسيطرة السياسية... وأنا أقول إن نظرة معينة للإسلام والعرب تأخذ بالظهور (ولهذا تاريخ سابق للقرن الثامن عشر يعود بطبيعة الحال إلى أوائل من بدأوا بالحجاج ضد الإسلام الذين كانوا كلهم مسيحيين سوريين، وهم أسلاف المارونيين في لبنان في هذه الأيام)... إن الثقافة الرسمية نفسها وليس تشويهات وسائل الإعلام فقط، متواطئة[43].

كان ذلك تصريحا يلفت النظر، إذ لا يمكن للمرء أن يجد فيه إحلالا للشرق الأوسط محلّ الشرق كلِّه، وهو ما هوجم بسببه من دون هوادة. فنحن نجد هنا أن متخصصين في شمال أفريقيا والهند من أمثال أنكتيل دوپيرون Anquetil-Duperron كانوا جزءا من خطَّته الأصلية. كما أنه لا يهمل الاستشراق منذ العصور الوسطى حتى عصر النهضة كما ادَّعى النقّاد فيما بعد. فهو يستبعدهما بدلا من ذلك لتحقيق مزيد من التركيز.

لم يعتقد سعيد يوما أن الفاصل بين الشرق والغرب فاصل نحت في صخر كأنه هوَّة ضرورية لا يمكن ردمها كما صوَّرها مؤلِّفون من أمثال رَدْيَرْد كِپْلِنْغ Rudyard Kipling وإدمُند مورغَن فورْستر E. M. Forster. فقد كتب سعيد كتاب «الاستشراق» لإثبات فساد ذلك الرأي في واقع الأمر. كان الفاصل، كما رآه هو، فاصلا جغرافيا إستراتيجيّا[44]. وللسيطرة على الشرق شعرت أوروبا أن عليها أن تتقن الموضوع لأن المعرفة قوَّة، واتَّخذت المعرفة صيغة تعيين جوهر الشرق، شخصيته الداخلية الحقيقية (كأنه ليس له إلا شخصية واحدة). كان ذلك مشروعا أخذته أوروبا على عاتقها «لأنها كانت قادرة عليه»؛ كانت تملك المصادر الضرورية، والخطة العالمية، والقرب الجغرافي، ولذلك وجب عليها تصوير الشرق على أنه الآخر[45].

يعود جانب كبير من هذه الحالة العامَّة لا إلى مصادر عربية، بل إلى أعمالٍ مثل كتاب رَيْمُنْد وِلْيَمْز Raymond Williams بعنوان «الريف والمدينة» The Country and the City (1972)، وإلى النظريات اللسانية التي ظهرت في فترة العشرينيات للمفكِّر الإيطالي الشيوعي أنتونيو غرامشي Antonio Gramsci[46]. وقد ظلَّ سعيد يحتفظ فوق أحد رفوف الكتب في مكتبه بملصقٍ دعائي يظهر هو فيه مع وِلْيَمْز في مناسبة حدثت في جامعة لندن في العام 1987. وفي تلك المناسبة التي جمعتهما في أواخر حياة وِلْيَمْز، وقفا على المسرح للإجابة عن أسئلة حول عروض تلفزيونية عن أعمالهما. وكانا قد التقيا في السنة السابقة في برنامج «أصوات» Voices الذي عرضه التلفزيون البريطاني مع روجر سْكروتن Roger Scruton، المحافظ، صاحب الأطوار الغريبة في مجال حرب الثقافات، والذي كان هجومه السليط على اليسار الجديد the New Left ممثَّلا في سعيد بالدرجة الأولى قد ظهر من فوره[47].

كان سعيد شديد الاحترام لِوِلْيَمْز، فصوَّر نفسه في مقالات كتبت فيما بعد بصورة التلميذ المعجَب بمعلِّمه، ولكنهما في لقائهما كانا أقرب إلى أن يكونا نِدَّين. وعلى رغم أنهما كانا يحملان أفكارا متشابهة فإنهما أبديا تحفُّظا متبادلا. وفي فترة الغداء التي شاركه فيها مع زوجته قبل التسجيل في برنامج «أصوات» وصف شعورهما، وقال إنه كان من الصعب تجاوز الحديث الودّي المعتاد[48]. ولم تساعدهما تنشئتهما المختلفة على تخطّي الشعور بعدم الراحة. فقد ولد وِلْيَمْز في بيئة من عمال المناجم، وكان طول حياته اشتراكيّا من الريف الويلزي، يكتب الروايات، ثم أصبح فيما بعد أستاذا للدراما ومنظِّرا في موضوع الإعلام. ولم تكن تجربته في تعليم طلبة من الطبقة العاملة في دورات تعقد لتعليم البالغين بعد الحرب العالمية الثانية وظيفة مؤقتة، بل هواية ذات طابع سياسي. وعلى رغم تعارض الخلفيات فإنهما تمكَّنا من قضاء فترة ما بعد الظهر يتمشَّيان في شوارع بلومزبري وقد اندمجا في حديث طويل بعد انتهاء مهمتهما. وقد أعجب سعيد بشكل خاص بقدرة وِلْيَمْز على البقاء «متفائلا، آملا، لطيفا، كبيرا» في مواجهة «الثرثرة الفارغة» في برنامج «أصوات».

كان من عادة سعيد أن يلجأ للظُّرف واللطف في لقاءات كهذا اللقاء، ولكنه كَبَح نفسه بسبب اختلاف اللهجة وبسبب ما كان يكنّه من إعجاب شديد.

فقد كان يلتقي للمرَّة الأولى برجل كان يحرص على تدريس كتبه طوال العقد السابق[49]. ظهر كتاب «الريف والمدينة» في العام 1972 قُبيل بدء اشتغال سعيد بكتابة «الاستشراق»[50]. وقد اعترف فيما بعد بأن ذلك الكتاب كان أحد نماذجه الرئيسة. فاعتقاد وِلْيَمْز بأن الثقافة ليست مجرَّد نتيجة ثانوية للوضع الاقتصادي، وأن أساليب الحكومة في السيطرة الاجتماعية تترك مجالا لـ «أفعال ومقاصد أخرى» كانت متطابقة مع اعتقاده[51].

للوهلة الأولى لم يكن ثمة كثير في كتاب «الريف والمدينة» مما يمكن استخدامه لوصف النماذج العربية المتوارثة، فهو كتاب عن الحياة الريفية الإنگليزية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما تُرى من منظار قصائد البيوت الريفية؛ وهي في أكثرها مدائح للأراضي التي يملكها الـمُلّاك الأغنياء. لكن وِلْيَمْز كان يهتم، خلف هذه الستارة، بالكيفية التي أخلَّت بواسطتها هذه الصور الطوباوية بتاريخ المنطقة من حيث شكلها ومحتواها، وفرضت على الظروف الريفية القاسية صورة ذاتية غيَّرت شكلها[52].

كذلك لم يُترك الاتجاهُ المعادي للإمبريالية في كتاب «الريف والمدينة» مدفونا في الرمال[53]. فقد كتب وِلْيَمْز صراحة (وهو أمر لم يكن النقد الإنگليزي قد اعتاد عليه في تلك الفترة) عن قصائد تشهد بما كان يجري في مرحلة انتقالية من الحياة الاجتماعية في إنگلترا مُورس فيها نوع من السيطرة السياسية على المستعمرات داخل البلد وخارجه. فالحرب بين الأرياف والمناطق الحضرية داخل إنگلترا عكست العداء بين الأطراف والمركز العالمي وهما يعيدان إنتاج نفسيهما على مستوى مختلف[54]. وقد تمكَّن وِلْيَمْز، كما فعل سعيد فيما بعد، من تسجيل الدهشة من أن النقاد والروائيين كانوا يهملون آثار القوّة الإمبريالية على الخيال الإنگليزي باستمرار، وقد كان كتاب وِلْيَمْز واحدا من أوائل الكتب التي صوَّبت هذا الخطأ. وقد كان من رأي وِلْيَمْز أن الناقد، وليس الشاعر، هو الذي يقودنا بعيدا عن الكلام المخفف إلى اللهجة التي تزداد حدّة باستمرار: «من بين آخر النماذج من الصراع بين الريف والمدينة هو ذلك النظام الذي نعرفه باسم الإمبريالية»[55].

ساعد وِلْيَمْز سعيد بربط اللغة بالجغرافيا بأن أعطاه موضوعا من موضوعات كتاب «الاستشراق» المركزية. وكان هذا ما فعله أنتونيو غرامشي، الذي سجنه

موسوليني في أحد سجونه الفاشية، وهو واحد من مؤسسي الحزب الشيوعي الإيطالي، ومن الثوريين الثقافيين الكاثوليك في بيئة القرن العشرين التي هيمن عليها ماركسيون يهود لامعون[56]. أما هوية غرامشي فقد شكّلتها الضرورة الجغرافية. فبما أنه كان ينتمي إلى جزيرة ساردينيا والريف الإيطالي الجنوبي؛ فإنه تابع تعليمه في الشمال المصنَّع، ولذلك فإنه عومل كأنه أدنى من الناحيتين العرقيّة والإثنيّة. وفي مقالة عنوانها «نواحٍ معيَّنةٌ من المسألة الجنوبية» Certain Aspects of the Southern Question (1926) – وهي مقالة كثيرا ما قرّرها سعيد على طلبته في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات – وجد غرامشي في الصراع بين الريف والمدينة مثلا مما دعاه سعيد في «الاستشراق» «الجغرافيا الخيالية» imaginative geography حيث تصبح الأرض نفسها رمزا للفروق الثقافية المؤذية.

والأهم من ذلك أن اللغة كانت لغرامشي هي التي تضع حدود الصراع على الأرض. ففي تورِن Turin درس غرامشي على يدي ماتِيو بارتولي Matteo Bartoli، وهو واحد من أصرح القائلين بأن اللغة تضم سجلا للهجرة والغزو الأجنبي، وليس روح الشعب فقط كما قال الرومانسيون. ففي المناطق المتنازع عليها تتواجه لغتان مختلقتان مضطرَّتان للتنازع على المكانة[57].

أما وقد حصل مشروع كتاب «الاستشراق» على هذه المصادر فإنه حرَّك سلسلة من الكنايات المكانية. وقد أشارت إحداها؛ وهي «الموقع الإستراتيجي» strategic location، إلى الكيفية التي يتموضع بها الكاتب باعتبار كتابته. وأشارت أخرى؛ وهي «التشكيل الإستراتيجي» strategic formation، إلى الكيفية التي تحصل بها الأفعال على «قوَّة مرجعية» referential power ما دامت تحتل مكانا بين مجموعة من القوى المتكاملة بدلا من الوقوف وحدها. وقد كان ذهنه مشغولا بالتعرُّف على الكيفية التي تجمع بها نصوص معينة القوة والتأثير بينما لا تنجح نصوص أخرى في ذلك. ولذا فإن سعيد كان يشير بعبارة «الجغرافيا الخيالية» إلى مفارقة تقول إن قرب الشرق الأوسط جعل الشرقي قويّا وخطرا في الذهن الغربي. وبما أن المنطقة تقع على مقربة من أوروبا، فإن ذلك يسهِّل زيارتها من جانب الرحالة، والمغامرين الاستعماريين، والمبشِّرين، ولذلك فإن تجاربهم لا بدّ من معالجتها في قصة مشتركة تعطيهم المعنى «الحقيقي». قد تكون الأرض مادَّة الجغرافيا، أما الأفكار فتنحو

إلى تجريد المكان من مادِّيَّته بحيث يبدو الجيران بعيدين. وقد تظاهر الاستشراق عندما اتَّخذ شكل الصينولوجيا والهندولوجيا والدراسات الإسلامية أنه يشمل أكثر من نصف العالم. ولذا فإنه تساءل: كيف يمكن لحقل دراسي له مثل هذا الاعتزاز بالاهتمام بالتفاصيل الدقيقة أن يشمل هذه المساحة الثقافية عن طريق ملء الفراغات في مخطوطة متخيَّلة سلفا؟

***

شارفت السنة على نهايتها فيما كان سعيد مشغولا بكتابة مسوَّدات الصيغة الأولى من الكتاب. وخلافا للحظات أخرى من حياته (باستثناء الفترة التي كان فيها طالبا في كلية الدراسات العليا) لم تكن هنالك مواجهات مثيرة أو مكائد سياسية. فقد أمضى أيّامه في ستانْفُرد مشغولا بدراسته. وبعد رحلة قصيرة لإلقاء محاضرة في ليبيا في ربيع العام 1976، كانت الزمالة التي حصل عليها قد وصلت إلى نهايتها. وكانت خطته أن يعود إلى بيروت، ولكن المطار كان قد قُصِف، ولذلك فإنه تخلّى عن الفكرة، فبقي مع عائلته في كاليفورنيا، والتقى بأخته جين وعائلتها قبل العودة إلى نيويورك في أواخر أغسطس. وبعد ذلك بفترة قصيرة شارك بصفته ضيفا مدعوّا لندوة عربية أمريكية عقدها معهد أميرِكَن إنترپرايز American Enterprise بواشنطن.

كان سعيد قد تلقّى، حتى قبل نشر كتاب «الاستشراق»، عروضا لشغل منصب أستاذ متميِّز من جامعات منها جامعة بيركلي وجامعة جونز هوپكِنْز. وفي أوائل شهر مارس 1978 نوى القيام بزيارة قصيرة لبيروت وحده، ولكن الإسرائيليين غزوا جنوب لبنان بينما كان هو ومريم في باريس، ولذلك قرَّر العودة إلى نيويورك. وكان قد رتب للتعريج على باريس لتقديم محاضرة عن «الاستشراق» في جامعة السوربون، واعترف لطالب سابق في القاهرة بعد أن قرر إلقاء المحاضرة باللغة الفرنسية أنه كان يملأه «القلق والتهيُّب»[58]. لكن مخاوفه لم تكن في محلِّها، ذلك أن الاستقبال الرائع الذي تلقَّته المحاضرة لم يتضمَّن أي إشارة إلى الضجيج الذي كان بانتظاره فيما بعد.

كان استقبال «الاستشراق» في البداية بهيجا، فقد رُشِّح الكتاب الذي كان في طريقه إلى أن يُترجم إلى ثلاثين لغة والذي قدِّر له أن يوحي ببرنامج توثيقي كامل، لنيل جائزة حلقة نقّاد الكتاب القومي the National Book Critics Circle

Award للعام 1978، لكنه خسر الجائزة في تلك السنة لفائزين تقاسما الجائزة هما غاري وِلْز Gary Wills على كتابه عن تاريخ إعلان الاستقلال، وморين هاوَرْد Maureen Howard عن كتابها «حقائق الحياة» Facts of Life، وهي سيرة ذاتية تتّسم بالصلافة عن رحلة كاتبة من الحب إلى الفن. وتلقّى الكتاب مراجعات تنمُّ عن الحسد، وتطلَّب الأمر عدة سنوات قبل أن يتحوَّل إلى فضيحة على رغم أن سعيد كان قد شرح أفكاره الجدلية قبل عامين من نشره في مقالة نشرتها مجلة «ذا نيو يورك تايمز بُك رِفيو» The New York Times Book Review مراجعات الكتب التي تصدرها جريدة «نيويورك تايمز»[59].

في العام 1979 التقى سعيد بدومنيك إدّه Dominique Edde، وهي شابَّة لبنانية صارت فيما بعد روائية. كانت في ذلك الوقت موظَّفة في دار النشر Seuil، وهي الدار التي نشرت كتاب «الاستشراق»، وكانت قد قرأت الكتاب باللغة الفرنسية، وأرادت أن تعمل على تسويقه. نشأت بينهما علاقة وجيزة، عادا لها في العام 1995 بعد انقطاع طويل، ثم انقطعت العلاقة بعد بضع سنوات. كانت العلاقة قد استمرَّت عن بُعد، وكانت في معظمها نقاشات ورسائل متبادلة. ثم نشأت علاقات أخرى مع أناس من دول مختلفة، وتجمَّع حوله أصدقاء جدد مع تنامي سمعة الكتاب، وأخذ يتلقّى سيلا من رسائل المعجبين ممثلة برسالة من الفيلسوف والناشط السياسي كورنِل وِسْت Cornel West أرسلها في العام 1978، وهي رسالة لقيت لهجتها المبتهجة صدى لدى المثقفين المعارضين، ولاسيّما المثقفين من غير البيض في جميع أنحاء العالم: «أنت تقف عند الحدود – الحدود الغرامشية»[60]. كان قد أصبح نجما أكاديميّا، وما كان من هذه الشهرة العالمية إلا أن أنتجت آثارا سلبية كثيرا ما تنتج عن الشعور بالزهو والكبرياء. وبما أن كل معارفه أرادوا قطعة منه فإنه استغلَّ الوضع. واشتكت أخته غريس من تعالٍ جديد، من قدرٍ متزايد من الطبع السيِّئ في تعامله مع أخواته[61].

وبالطبع لم يساعد ابتعادُه العاطفي عن أزواج أخواته في تمتين العلاقات العائلية، إذ لم تكن بينه وبينهم أمور مشتركة كثيرة، ولم يكونوا يكلِّفون أنفسهم عناء زيارة أحدهم للآخر إن حدث أنه وجد نفسه قريبا من سكنه. وعند وجود التزامات مشتركة، كما في حالة زوج روزي أنطوان زحلان فيما يخصُّ فلسطين،

فإن عقبات أخرى منعتهما من تطوير صداقة حقيقية بينهما. ففي هذه الحال كان زحلان، بصفته متخصّصا في علم الفيزياء، ويعمل في الجامعة الأمريكية ببيروت، وله مصالح تجارية في كلٍّ من العراق وسورية، يعمل مع حكومتين لم يكن سعيد على استعداد للتغاضي عنهما. وشعرت جين أيضا بأنه على الرغم من لسانه السليط، الذي قد يمكن التغاضي عنه بحجَّة أنه «مزّاح ثقيل»، فإنه لم يقل الكثير عن أخواته؛ وذلك لأنه «لم يشعر بالكثير نحوهنَّ»[62]. أما من وجهة نظر سعيد فإنه لم يحصل منهن على ما يستحقُّه من الاحترام، إذ لم تهنِّئه أيٌّ منهنَّ على منجزاته، وتعمَّق الاستياء لأن الأمّ أدَّت دورا سلبيّا في هذا المجال. وبينما يمكن القول إن سعيد وأخواته أحبّ بعضهم بعضا فإنهم وجدوا أن من الصعب أن يعيشوا معا.

في هذه الأثناء وجد نقّاد الكتب أنهم لا يقلّون حماسا ضدّه عن حماس المعجبين به. ففي 10 نوفمبر 1980 ردَّ سعيد على مراجعة للكتاب كتبها صديقه صادق العظم يقرب طولها من أربعين صفحة كان قد أرسلها للتوّ إلى مجلّة «الدراسات العربية الفصلية» (التي كان سعيد يشارك في تحريرها). فقد انتقد العظم على نحو خاص تلميح سعيد إلى أن ماركس كان يشبه الاستعماريين البريطانيين في الرأي القائل إن العالم الثالث لم يكن أهلا للحكم الذاتي، ووصف ذلك بأنه «تشويه» لآراء ماركس. أما الادّعاء – كما فعل سعيد - بأن أصول دوافع الاستشراق تعود إلى هوميروس ودانتي فمعناه تصديق الفكرة القائلة إن الشرق ثابت لا يتغيَّر. لكن ما الذي يهاجمه كتاب «الاستشراق» إن لم يكن هذا؟

لقد غفل العظم عن نظرية سعيد الخاصَّة بالتمثيل تماما، فصاح (كما صاح علماء الاجتماع الذين غفلوا عنها أيضا) قائلا إنه لا يكفي أن نقول إن الباحثين لم يفهموا الشرق. من الضروري أن نظهر كيف ستكون المعرفة غير المشوَّهة للعرب والمسلمين. ثم أضاف قوله إن الاقتباس من ماركس الذي يقول «إنهم لا يمكنهم تمثيل أنفسهم، ولذلك يجب أن يُمَثَّلوا» والمأخوذ من كتاب عن ثورة 1848 في فرنسا، كان مشكوكا في معناه. كان ماركس يشير إلى التمثيل السياسي، إلى الظروف المعزولة الفردية للفلاحين التي أتاحت المجال لنصّاب مثل نابليون الثالث لأن يستغلَّهم. أما سعيد في الجهة المقابلة فقد استعمل الفعل «يمثِّل» represent بمعنى «المحاكاة»

للتعبير عن غرض الكتاب الخاص بالخيالات التي تُسقَط على الشرق الأدنى. أما العظم فقد اعتقد أنها تهمة مفبركة، ولذا فإنها في النهاية تشويه.

كان من رأي العظم أن «الاستشراق» أشبه بالتحية الإسلامية التي تقول: «حماك الله من الشيطان». وفي النتيجة فتح سعيد الباب أمام أتباعه لأن يبدأوا كلَّ مناقشة بصبٍّ اللعنات على المستشرقين[63]. وكان الوقت الذي ظهر فيه الكتاب بالغ السوء، كما قال. ففي اللحظة التي كان اليساريون العرب يحاولون الترويج للعلم الغربي في صراعه مع التعمية الدينية سكب سعيد ماء باردا على تلك الجهود وأعطى هدية للملالي الذين كانوا في ذلك الوقت يصبون جام غضبهم على التغريب Westoxification. وفي هجوم مشابه وقف عزمي بشارة، وهو عربي مسيحي يعيش في إسرائيل ويعمل في معهد ڤان لير Institute Van Leer، ضد رسالة «الاستشراق»؛ لأنها، مثل كل أنواع اللبرالية العاجزة في المنطقة، تصب اهتمامها كله على الفنون والثقافة، بينما كان اليسار يحث المثقَّفين على التعامل مع حقائق الاقتصاد السياسي المادِّيَّة.

وبعد ستة وثلاثين عاما كان العظم يعيش في المنفى في برلين يرافقه الإحساس بوطأة ما جرى بينه وبين سعيد من تبادل للانتقادات ويستعيد الجدل الذي انتهى بوضع حدٍّ لصداقتهما. وكما يذكر، كان سعيد قد كتب له «رسالة بالغة القبح والحدَّة... مخيفة في الواقع بما فيها من عداء وغضب»[64]، لكن الرسالة نفسها، وهي لاتزال موجودة، كثيرا ما كانت تحاول التهدئة، وتمزج بين الترغيب والدفء بينما كان سعيد يحاول الحفاظ على صداقتهما من دون الامتناع أحيانا عن بعض التعليقات الجارحة. ففي سعيه إلى تقييم المراجعة التي كتبها العظم اعترف بأنها «كتبت بعناية»، وأنها «تشكِّل وثيقة مقنعة تستثير الإعجاب في بعض الأحيان» على رغم أنها بحاجة إلى أن تُختصر إلى نصف ما هي عليه (ليس وفقا لطلبه هو، بل وفقا لطلب المحررين المشاركين الآخرين: أبو لغد والمغربي). واحتفظ سعيد بسخريته حتى آخر الرسالة: أنت لم تتجاوز في الواقع ماركسية الأممية الثانية، في حين «إنني من المتشكِّكين، وفي كثير من الأحيان من الأناركيين، ولست من المؤمنين مثلك بالقوانين أو النظم، أو أي من ذلك الهراء الذي يكبت أفكارك ويضيق أفق كتاباتك». وفي أشد لحظاته مرارة، يَتّهم العظم بأنه «خميني اليسار، وهو شيء ما كان ممكنا لأيٍّ من بَطَلَيَّ، غرامشي ولوكاتش، أن يكونه»[65].

وبعد مرور شهر، بعد تسلم رفض العظم لحذف أي شيء، تقدَّم سعيد بغصن الزيتون، ووعد بأن يدعو في اجتماع هيئة التحرير القادم إلى نشر مراجعة العظم كاملة مع إجابته عليه: «أنا مستعد للتسليم بأن «الاستشراق» ليس كتابا جيدا جدّا، ولكنني أصرُّ على أنه يحتوي على قراءات وتفسيرات ممتازة، مع بعض الاستثناءات». ثم اقترح أن يلتقيا في بيروت في يناير، ولكن الأذى كان قد حصل، ودُفِع فيما بعد إلى مدى لم يعد الإصلاح ممكنا بعده، وذلك بعد أن وضع العظم نفسَه، وقد عاد للتدريس في سورية، في قبضة نظام الأسد، واتَّهم سعيد في مقالة نشرها في إحدى المجلات بأنه يعمل لمصلحة المخابرات الأمريكية. وعلى رغم المحاولات التي أجراها كلٌّ من خوري ودرويش، وهما صديقان مشتركان كان يحدوهما الأمل بوصل ما انقطع، فإن الرجلين لم يستعيدا ما كان بينهما من وئام.

جاء الهجوم على كتاب «الاستشراق» من أربع زوايا: (1) من باحثين معاصرين في حقول اللغة العربية والإسلام والشرق الأدنى يعتقدون أن سعيد تنطَّع لحقل يتطلَّب من المعرفة قدرا فاق قدراته؛ (2) من ماركسيين باكستانيين وعرب (مثل إعجاز أحمد وصادق العظم) شعروا بأن خط الشرق والغرب المرسوم في الرمال، بغض النظر عن استعداده للمواجهة، لم يكن ديالكتيكيّا، وطمأن يمينا إسلاميّا كانت خشيته من «أوروبا» شبحية الطابع تفتقر إلى التعريف ولا تقلّ عن خشيته هو؛ (3) من أخطر نقّاده، وهم أساتذته في دراسات الشرق الأوسط، ولاسيّما بيرك ورودنسن، بل أيضا من العروي، الذين رأوا أن ما حصل عليه من تدريب في الأدب منعه من إدراك تنوُّع الدراسات الاستشراقية من الناحية العملية؛ (4) من مجموعة يريحها الانتماء إلى فرق البحث اليمينية أو وسائل الإعلام المعادية التي كانت مهمتها لا تنحصر في تقويض الأساس الذي يقوم عليه كتابه بل تتعدّاه إلى محو سيرة سعيد المهنية برمّتها. وكانت عناوين كتاباتها تشي بما لديها من احتقار: جوشوا موراڤچك Joshua Muravchik: «كفانا سعيد» Enough Said (2013)؛ مارتن كْرَيمر Martin Kramer: «أبراج عاجيَّة على الرمال» Ivory Towers on Sand (2001)؛ والكتاب الذي كتبه مجهول يدعو نفسه ابن ورّاق: «الدفاع عن الغرب» Defending the West (2007).

ولم يشفع لسعيد أن الترجمة الأولى لكتاب «الاستشراق» إلى اللغة العربية عُدَّت «كارثة»[66] على نطاق واسع. فهذا صادق العظم، وهو ممن لا يطلقون الكلام على عواهنه، يصفه بأنه «فظيع» بسبب محاولته للتذاكي على غرار ما فعله إدْوَرْد فِتْزجِرَلْد Edward FitzGerald في ترجمته لعمر الخيّام، فلجأ إلى ابتكار المفردات، وإلى بنى لغوية غريبة جعلت النصّ عسيرا على الأفهام[67]. وقد أصرَّ المترجم كمال أبو ديب نفسه على أن صيغته حازت قبولا حسنا في العالم العربي إن صحَّ القول إن «قنبلة» حطّمت كل القواعد وأعادت تعريف مفهوم الترجمة[68]. وبغض النظر عن الحقيقة، فإن هذه الترجمة أضافت طبقات من الحيرة والمقاومة.

وبما أن النقّاد كانوا واثقين بالتفوُّق المنطقي لموقفهم فإن قلَّة منهم كلَّفوا أنفسهم عناء النظر في منطلقات سعيد الفلسفية. فعندما قال سعيد على سبيل المثال إن المواقف النقدية تحتاج إلى فضاء ثقافي للتعبير عن نفسها فإن منتقديه وجدوا أنفسهم في حيرة لأنهم وجدوا أنهم غير معتادين على هذا النوع من التعقيدات. فالحقائق من وجهة نظرهم حقائق، وليس لشكل الكتابة من علاقة بمعناها. وبما أنهم موجودون في فضاء مختلف وغير مستعدّين للدخول في فضائه فإن نقدهم كثيرا ما أخطأ الهدف.

وبغض النظر عن اختلاف المنطلقات التي كان نقّاد «الاستشراق» يبدأون منها فإنهم ظلّوا يعودون للنوع نفسه من النقاط. فهذا دانْيِل مارتن ڤارسكو Daniel Martin Varsco، على سبيل المثال، وهو خبير أنثروبولوجي في مجال النصوص الزراعية اليَمَنِيّة التي تعود للقرن الثالث عشر، يزعم أن حماس سعيد للهواة لا يهدف إلا إلى تزيين حقيقة أنه هاوٍ عند دخوله حقله من دون استعداد كافٍ[69]. وبما أن سعيد كان يشكو (وفق هذا الرأي) من فراغات كبيرة في المعرفة، فلا عجب «ألا يكون ثمة شيء اسمه الحقيقة» في نظر سعيد، أو أن «مشكلته تتصل بعلاقته مع الواقع وليس حول معناه». أما ابن ورّاق فقد اشتكى على النحو نفسه من لجوء سعيد الذي لا نهاية له «إلى رطانة ما بعد الحداثة»، وهي لغةُ رجلٍ يحسب، بكلمات روبرت إرْوِن Robert Irwin، أن «إعطاء الأدلَّة... شيء رجعي»[70].

دفع إرْوِن بالذات بالهجوم ضدَّ سعيد إلى أقصاه في كتابه «خضوعا لشهوة المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم» For Lust of Knowing: The Orientalists

and Their Enemies (2006). كان إرْوِن من تلاميذ أعدى أعداء سعيد، أي بيرنَرْد لويس Bernard Lewis، وتخصَّص في تاريخ المماليك في العصور الوسطى، وقد سخر من سعيد لقوله إن المستشرقين كان بإمكانهم مدّ يد العون للإمبراطورية عندما كانت الحقيقة أنه لم يكن هنالك من يهمه صدق ما يقولون. ولم يكن هناك شيء من الاتساق مع الحقل الذي ألمح إليه سعيد، ذلك أن الحقل لم يكن أكثر من مجموعة من الأفراد الذين وقفوا أنفسهم لخدمته، ومن المنقِّبين في الكتب، والعاملين في المكتبات، ومن غريبي الأطوار الذين يشملون عنجهية نولدكه الألمانية، والاتجاه الاستعماري نحو الإسلام عند هرخرونيه Hurgronje... ومنهج مرغوليوث Margoliouth للنصوص العربية الأشبه بحل معضلات لعبة الكلمات المتقاطعة[71]. وأضاف إرْوِن وڤارسكو معا أن لجوء سعيد المستمرّ إلى أمثلة أدبية من فلوبير، ودانتي، والمآسي الإغريقية وسَّع حقل الاستشراق توسيعا أفقده معناه[72].

لكن حتى أولئك الذين أبدوا إعجابهم بسعيد مثل رودنسن، اتَّفقوا مع بعض تلك التُّهم: «بصفته متخصِّصا في حقل الأدب الإنگليزي والأدب المقارن فإنه ليس على علم كافٍ بالعمل الفعلي الذي يقوم به المستشرقون». واستنكر الماركسي اللبناني مهدي عامل – الذي كثيرا ما يدعى «غرامشي العربي» – انتقادات سعيد التي لا داعي لها لماركس، وكرَّر مقولة العظم أن كتاب «الاستشراق» أذنب بإسناد صفات ثابتة لثقافات كاملة[73]. وما زاد الطين بلَّة أن بعض تلاميذ سعيد السابقين تمرَّدوا. فقد شعر ديڤد ستيرْن أن كتابا عنوانه «الاستشراق» كان عليه أن يركِّز على اليهودي الهنغاري إغناتْس غولْدتْسيهر Ignac Goldziher؛ أهم المستشرقين قاطبة. أما ألان منتز Alan Mintz فقد أقلقه أن سعيد لم يستغل الفرصة لجعل الكتاب عن اليهود والمسلمين معا، وهما موضوعا الأوهام الغربية اللذان يتناولهما الخطاب الاستشراقي[74]. أما صديقه وأمين أسراره بيرْك فلربما وجَّه له أوجع الضربات عندما قال إن أطروحة «الاستشراق» ليست مجافية للمعقول بقدر ما هي مبتذلة: «من الواضح... أن كل عمل من الأعمال، سواء كان في مجال العلم أو الفن، يعكس الظروف التي كتب فيها»[75]. ولم يكن مستغربا والحالة هذه أن الباحثين في الحقبة الڤكتورية عكسوا النزعات الڤكتورية.

لكن لم يكن أيٌّ من هؤلاء النقاد يعلم شيئا عن أعمال سعيد السابقة أو كيف تتّصل هذه الأعمال بكتاب «الاستشراق»، كما كانت لدى بعض هؤلاء النقّاد حسابات خاصة يرغبون في تصفيتها[76]. فإرون، مثلا، ترك العالم الأكاديمي ليتفرَّغ لكتابة الروايات بعناوين مثل «سر الجزائر» The Mystery of Algiers و«الكابوس العربي» The Arabian Nightmare، وكانت سيرته الموجزة شبيهة بسيرة إرنست رينان Ernest Renan الذي يتناوله كتاب «الاستشراق» بالتفصيل بصفته شخصا ينشر المعرفة ذا روح مستقلَّة ورغبة لا تشبع في الحصول على الأشياء الشرقية (تحول إرون إلى الإسلام لفترة وجيزة بينما كان يدرس في الجزائر). وسواء ألاحظ أوجه الشبه هذه بينه وبين رينان أم لم يلاحظها، فإنه حكم على كتاب «الاستشراق» بأنه «شعوذة خبيثة». وفي العام 1982 كتب سعيد إلى كلية وِسْتمِنْستر Westminster College، أوكسفُرد، يشكو من مراجعة إرون ذات التوجُّه الآيديولوجي الفجّ، «ومن تلميحاته شبه الصريحة حول أصلي العرقي»[77]. أما بيرنَرْد لويس، أستاذ إرْوِن، وهو شخص قال عنه شاحاك إنه يعمل بشكل مباشر تقريبا بصفته عميلا إسرائيليّا، فقد كان مستشرقا معروفا في أوكسفُرد وپرنستن، وكان هو الذي انخرط معه في سجال شهير حول كتاب «الاستشراق» على صفحات صحيفة «نيويورك تايمز» ومجلَّة «ذا نيو يورك رِفيو أُف بُكس» The New York Review of Books[78].

كانت هذه المواجهات أكثر من مجرد استلال للسيوف أمام الناس، إذ كانت ذات طابع شخصي مرير لأن «الاستشراق» صوَّر لويس، إلى جانب مفكِّرين آخرين يعملون لمصلحة وزارة الخارجية من أمثال دانْيِل پايْپْس Daniel Pipes وفؤاد عجمي، بصفتهم أحفاد البحث القائم على أساس عرقي، وهو البحث الذي استهدف الكتابُ فَضْحَه. وبينما مثَّل عجمي المخبر الأهلي الذي يستقصي مخاطر النفس العربية وهشاشتها في البرامج والمقابلات التلفزيونية، فإن پايْپْس حصل على موقع خاص به في وسائل الإعلام بالتشديد على الخطر الكامن في الثروة العربية على الصعيد العالمي، وعمل على إنشاء «الرقابة الجامعية» Campus Watch، وهي جماعة تراقب الأساتذة التقدُّميين وتعمل على ملاحقتهم وإزعاجهم[79].

لم يكن ثمة من مفرٍّ من المواجهة بين سعيد والساعين إلى الانتقاص منه بسبب الشهرة التي حقّقها كتاب «الاستشراق». وكانت المواجهة الحاسمة بين سعيد

ولويس في 22 نوفمبر 1986 في اجتماع لرابطة دراسات الشرق الأوسط Middle East Studies Association في بوسطن[80]. كانت قاعة الاجتماعات مملوءة بالحاضرين، وكان هنالك ستمائة آخرون خارجها يجلس كثير منهم على الأرض. وكانت عدوانية سعيد واضحة من لهجة الاستهزاء السابقة للقاء، إذ همس باللغة العربية لأسعد خير الله في أثناء تناول الغداء: «سوف ـــ... أمه»[81]. وفي الحقيقة، بدا أن لويس خسر المواجهة، إذ تفادى الأسئلة عن استقلاله العلمي، وحاول التفكُّه عبثا عن الأنماط الشائعة عن الشرق الأوسط، وقال: بما أن الرحالة الغربيين إلى شبه الجزيرة العربية كانت تتلبَّسهم الأفكار عن الشهوانية التي لا حدَّ لها حول حريم السلاطين، وبما أن الرحالة من الشرق وجدوا أن النساء الغربيات خليعات، فإن من غير المفهوم ألا يكون الجانبان متفاهمين. أما رفيق لويس في المناظرة لِيون ويزِلْتير Leon Wieseltier، وهو كاتب عمود في جريدة «نْيو رِپَبْلِك» the New Republic (وواحد من طلبة سعيد السابقين، ويقف موقف الخصم منه) فقد أعلن أن الأمسية كانت في نظره «كابوسا». كان بيرنَرْد «أخا من كوكب استشراقي آخر» يقول أشياء بالغة الغرابة. شعرت شعورا فظيعا، فوجئت لأنني لست كذلك. لقد استسلم لخصمه[82].

والظاهر أن الجميع لم يدركوا أن «الاستشراق» كان عن نظام متداخل من الصور التي جعلت الغزو أسهل وذلك بأن جعلت تفوُّق أوروبا يبدو أمرا طبيعيّا، فالكتاب لم يتناول أمرا بلغ من ابتذاله أن يثبت أن هذا المستشرق أو ذاك كان عميلا للاحتلال الأجنبي على رغم أن ذلك كان صحيحا في حالة هرخرونيه وبِكَر Becker (كما أقرّ إروِن)[83]، فماسينيون على سبيل المثال (الذي عامله كتاب «الاستشراق» بإعجاب واضح) عمل مباشرة مع الجيش الفرنسي وقوّات التجسُّس. كذلك فإن القول بأن سعيد بالغ في تقدير الأدب، وهو قول تردَّد كثيرا، بدا أنه قول متسرِّع. هل نسي القرّاء ضيقه في الكتاب مما دعاه بـ «الاتجاه النصّي» textual attitude؛ أي المبالغة في تقييم الأدب؟ لقد كان موقفه كلُّه من قوّة الاستشراق وما رافقه من تضليل مستندا إلى أفكار الآخرين الخاطئة القائلة إن «الارتباك الذي يمر به بنو البشر يمكن فهمه على أساس ما تقوله الكتب؛ أو النصوص»[84]. وقد عبّر عن ذلك تعبيرا جارحا بقوله: «إن المرء لا يستطيع التعرُّف على إسبانيا

في القرن السادس عشر بقراءة «أمادس الغولي» Amadis of Gaul»(*). ومن الناحية الثانية قَلَبَ سعيد الموقف ضد منتقديه بمعنى ثانٍ أيضا وذلك بأن أبرز الشيء الذي عدّوه نقطة ضعفه: «أنا واثق بأنكم ستجدون أن الأدب يحصل على أقلِّ قدر من التمثيل من بين التخصصات الاستشراقية الفرعية، وذلك لأسباب واضحة: فالأدب يربك التصنيفات ذات الترتيب الحسن التي يبتكرها المستشرقون للحياة الشرقية. والحقيقة الجلية هي أن المستشرقين لا يعرفون كيف يقرأون، ولذلك فإنهم يهملون الأدب بكل سرور»[85].

أما التهمة المعروفة القائلة إن سعيد كان من أتباع ما بعد الحداثة وإنه لم يكن يقرُّ بوجود شيء اسمه الواقع، فإنه عمل كلَّ ما بوسعه في محاضرات ألقاها قبيل نشر «الاستشراق» بوقت قصير لنسف مفهوم ما بعد الحداثة[86]. كذلك فإنه تمسَّك بشدّة بموقفه المعارض لما بعد البنيوية، وبيَّن فساد المقولة الشهيرة التي جاء بها التفكيكي جاك دريدا، وهي أن «الواقع ليس سوى عنصر نصّيّ لا أساس له في الواقع»[87]. كان سعيد يكره كتابات دريدا، ويعدّه «مفكِّرا منحلّا decadent، متصنِّعا، متغندرا يتسلّى»، وأن أتباعه كانوا منخرطين في نوع متدنٍّ من الشكِّ في كلِّ شيء[88]. وعندما أعلن في مقالة عن دريدا أنه «ليس هنالك من شيء اسمه الشرق الحقيقي» فإنه لم يقصد أنه لا وجود لأناس في الأردن أو العراق، يمشون فوق الأرض، ويشعرون بالألم، أو يموتون[89]، بل كان يقصد أن الواقع «الموجود هناك» لا يمكن الوصول إليه إلا بوجود مفاهيم مشتركة تنتقل بوساطة اللغة حتى لو كان ذلك الواقع مستقلّا عن أفكارنا. هذا الرأي كان رأيا مسلَّما به لكلِّ من درس النظرية الأدبية في السبعينيات. والواقع عند الفيزيائيين والاجتماعيين كما هو عند نقّاد الأدب، لا يكتسب معناه وشكله إلا بوساطة مفاهيم نكوِّنها عنه، ولا يكتسب هذا الواقع معناه إلا في اللغة. والمفاهيم بهذا المعنى وحده ليست ثانوية بالنسبة إلى الواقع بل هي ما يشكِّل هذا الواقع.

لو لم يكن سعيد مؤمنا بأن الشرق الأوسط موجود بغضِّ النظر عن أفكارنا عنه لما قضى الفصل الأخير من «الاستشراق» وهو يجادل ضدّ تشويه وسائل الإعلام

(*) رواية رومانسية. [المترجم].

الأمريكية للواقع في فلسطين وإسرائيل. ومن الواضح أن الحرب التي كان لها معنى هي تلك التي تتَّصل بالتفسير، وليس كل تفسير صحيحا بالدرجة نفسها. ولذلك لم تكن إستراتيجيته في هذا الكتاب رسم صورة أدقّ للشرق في جوهره الحقيقي، أي تكرار الرغبة غير المسوَّغة لدى خصومه. ما كان يهمُّه هو إثبات عدم اكتراث المستشرقين بما يرويه الشرقيّون عن حيواتهم هم.

لكن من غير الممكن إيجاد تفسيرات لكلٍّ ما قد يعدُّ ضعفا في الكتاب. فالمعجبون بسعيد أنفسهم وجدوا أن «الاستشراق» لم ينتبه أحيانا لما فيه من تناقضات، وذلك في استعداده مثلا لحشر مفكِّرين مختلفين في الجانب نفسه[90]. فهل كان بإمكان أي أوروبي بشروط سعيد أن يعمل عبر ثقافته من دون مزاج سائد؟ إن سخريته كثيرا ما اكتسحت تلك اللحظات التي امتدح فيها سعة علم المستشرقين، وخرَّبت المبالغاتُ حِجاجه عندما ادَّعى أن المستشرقين «نادرا ما كانوا مهتمّين بشيء أكثر من اهتمامهم بإثبات صحة تلك «الحقائق» البالية بتطبيقها دون نجاح كبير على الأهالي الذين لا يفهمونها ولذلك فإنهم منحطّون»[91]. هذا الادّعاء تناقض مع تصويره هو للسيرة العلمية لكل من ريمون شواب Raymond Schwab وإدْوَرْد لَين Edward Lane وغيرهما من الباحثين الذين اقتصرت جريمتهم على مبالغتهم في منجزات الماضي العربي والإسلامي. وبسبب رغبته في إبراز نظرية عربية لا تدين بشيء لأوروبا فإن سعيد قلّل من جدَّة الموقف المعادي للاستعمار عند فلاسفة ودعاة غربيين من أمثال ميشيل دي مونتين Michel de Montaigne، ودني ديدرو Denis Diderot، ويوهان غوتْفْريد هيردر J. G. Herder، وڤكتر شولشر Victor Schoelcher.

اقترب سعيد أحيانا من إنكار قدرة أيِّ شخص غير شرقي على كتابة تاريخٍ للشرق من دون أن يتماهى مع سياسة بلده الخارجية. فقد قال في أحد المواضع من الكتاب مثلا إن المرء يكون «إما أوروبيّا أو أمريكيّا أوّلا ثم يكون فردا»[92]. وكان يجب أن تكون محاذير قول كهذا واضحة: إذ لا يمكن أن يكون هنالك من تفسير لا يتأثر بهوية الشخص. ثم مضى ليقول: إن الأوروبيين في القرن التاسع عشر كانوا يؤمنون كلهم بتميزهم الإثني[93]. لكن الأمثلة المضادَّة لهذه التهمة الصارخة لم تكن بعيدة المنال ولو أنه لم يذكرها: فالإثنوغرافي لِيو ڤْروبينْيُس Leo Frobenius، على سبيل المثال، حصل على مديح واسع من الباحثين السود بسبب

إعادة المكانة العالية لأفريقيا، والروائي إدوار دوڤيز دِكَر Edu ard Douwes Decker فضح نهب جاوة على يد هولندة في كتاباته التي تناولت مشكلتي اللغة والواقع اللتين تناولهما كتاب «الاستشراق».

لكن من الناحية الأخرى كانت مبالغات سعيد مقصودة، أراد منها التنفيس عما لدى القرّاء من غضب. وقد لاحظ أصدقاؤه المقرَّبون أنه كان يعلم أن عليه التخفيف من حدَّة أقواله، ولكنه شعر بأن عليه أن يبدي القوّة والقطعيّة لأسباب سياسية. كان أسلوبه يستهدف أن يكون لمّاحا على وجه العموم، ولكنه «لم يرد أن يضيع في التلميح» كما قال زميله وصديقه مايكل وود Michael Wood[94]. وقد أثار سعيد هذه النقطة في كتاب «الاستشراق» نفسه. إذ كان الخطر أنه قد ينتهي بالانخراط في «جدل فظّ» يكون من العمومية بحيث «لا يستحق الجهد المبذول»، وأن يفقد من الناحية الثانية الخطّ العام من القوّة الذي يحرِّك الحقل[95]. وبينما حذَّر من النظر إلى الاستشراق على أنه «مؤامرة غربية إمبريالية خبيثة لإبقاء العالم الشرقي تحت السيطرة»، فإن عرضه للموضوع كان لا بدَّ أن يكون صادما بما يكفي لأن يُسمع. وقد نجحت سياسة الملامة في استقطاب باحثين من المستعمرات السابقة، وكانت السبب الرئيس في النجاح العالمي الذي حقَّقه الكتاب. فكما لاحظ أحد النقّاد المُعادين، «صار الكتاب بيانا للعمل الإيجابي في نظر الباحثين العرب والمسلمين، وأنشأ اتجاها سلبيّا نحو الباحثين الأمريكيين والأوروبيين المستورَدين»[96].

وبعد أن نجح كتاب «الاستشراق» بمفرده في وضع مؤسسة كاملة تحت المجهر، فتح المجال أمام أولئك الذين لا يناسبهم قسم اللغة الإنكليزية، ولطلبة أمريكا اللاتينية، وللمتعثِّرين من الطلبة العرب الذين وجدوا أنفسهم في قسم مخصص لدراسة المنطقة التي جاءوا منها. لقد وضع الباحث الباكستاني إعجاز أحمد، المقيم في الولايات المتَّحدة، أصبعه على المدلولات الديمغرافية الهائلة للكتاب، بعد أن كان قد وجَّه نقدا شديدا له من جانب اليسار كما فعل مهدي عامل وصادق العظم وغيرهما: فقد فتح أبواب العالم الأكاديمي للمُهاجِر المنتمي إلى الطبقة الوسطى وللمثقّف الذي ينتمي إلى الأقليات الإثنية[97].

***

كان الكتابان اللذان تبعا «الاستشراق» بسرعة – وهما «القضية الفلسطينية» The Question of Palestine (1979) و«تغطية الإسلام» Covering Islam (1981) – مستمدَّين من المشروع الأصلي وشكّلا معه ثلاثية. وكانت النية الأولى في الحقيقة أن يكون «الاستشراق» كتابا قصيرا جدّا ليظهر إلى جانب دراسة إخبارية عن القضية الفلسطينية[98]، لكن «الاستشراق» نما وأصبح كتابا له وزنه. أما كتاب «القضية الفلسطينية» فقد كانت له، على رغم أنه كتاب تثقيفي من بعض النواحي، طموحات نظرية أعمق، وكان تأثيره أشد مما كان بإمكانه أن يتوقّعه. وقد أصبحت شهرة مؤلِّفه من الإثارة بحيث يمكن تلمُّسُها في صورة خبيثة - ولو أنها حافظت على لهجة الاحترام - نشرتها جريدة «نيويورك تايمز» بعد نشر الكتاب: «النجم اللامع في الأدب الإنگليزي ومنظَّمة التحرير الفلسطينية» Bright Star of English Lit and P.L.O[99]. بهذا الإعلان لم يكن هناك مفرٌّ من أن تضيع بعض أفكار الكتاب الدقيقة على القرّاء على رغم أن سعيد عمل كلَّ ما في وسعه لوضع أطروحاته بشكلٍ مبسَّط:

> من الصفات الثابتة للمثالية التي تخدم نفسها... الفكرة القائلة إن الأفكار ليست سوى أفكار. والميل إلى النظر إلى الأفكار على أنها لا تتصل إلا بعالم من المجرَّدات يزداد بين الناس الذين يرون أن الفكرة تتصف بالكمال، والجودة، والتجرُّد من الرغبة أو الإرادة الإنسانية... وعندما تصبح الفكرة فعّالة – عندما تثبت قيمتها في الواقع بالقبول الواسع لها - سيبدو أن قدرا من المراجعة لها ضروري لأن الفكرة سيُنظر إليها على أنها اكتسبت بعض صفات الواقع الملموس[100].

ثم تابع سعيد الفكرة بقوله إن الصهيونية لم تسعَ إلى التكيُّف مع الواقع. فقد قدَّمت نفسها على العكس من ذلك على أنها فكرة لا تقبل التغيير، وهي الآن تتعزّز باتخاذها شكل الدولة. ولذلك كان من الصعب تقصّي أصول «صلة القرابة والانتماء، والارتباط مع أفكار أخرى ومع مؤسَّسات سياسية». أما العواطف المشبوبة والتحزبات المرتبطة بمسألة إسرائيل/فلسطين فلها صلة بخلق هذه الأسطورة المعقَّدة الثابتة المتعلِّقة بالصهيونية الكتابية(*) خارج التاريخ.

(*) نسبة إلى الكتاب المقدَّس. [المترجم].

لقد رأينا إصراره على الإحداثيات المادِّيَّة للصراع بعد خيبات الأمل التي مرَّ بها في بيروت، وبعد أن طمأن لَقِنْ عن تمسُّكه بـ «الوضعية» positivism بدا أنه يقول إن الأفكار أقوى من الجيوش والمدافع والأرض. في هذه الدراسة الفرعية، حيث كانت أهميةُ بيانِ الموقف الفلسطيني باللجوء إلى الحقائق أهمية قصوى كأنها تعرض في محكمة، نراه يستخدم الفلسفة. وعلى رغم كل ما جمعه الكتاب من معلومات عن التاريخ السابق لإسرائيل، وعن نشوء الصهيونية بصفتها آيديولوجيا، وعن الدعم الإمبريالي البريطاني (ومن بعده الأمريكي)، وعن المنظمات الإرهابية اليهودية، والحقوق الفلسطينية في الأرض، فإن ما حافظ على وحدة الكتاب كان أمرا نظريّا. ففوق كل شيء، كان الكتاب يقول إن الأفكار والقصص لا تعكس الواقع بشكل ثانوي، بل تشكّل الأعصاب التي تربط أجزاءه بعضها ببعضها الآخر. وكرّر هذا القول بأشكال مختلفة: «حدث التحويل الضخم الذي أجرته إسرائيل معماريّا وسكّانيّا وسياسيّا في فلسطين» في البداية على شكل تخطيط للمستقبل. كانت الصورة هي المحرِّك الحقيقي[101]. أما المطلب الضمني فكان: ولذلك فإن علينا أن يكون لدينا تخطيط خاصٌّ بنا.

لقد كان ما يتميَّز به الكتاب من وضوح وصبر – في الفصل المركزي المستفزّ بعنوان «الصهيونية من وجهة نظر الضحايا» Zionism from the Standpoint of its Victims – شيئا جعله مختلفا عن أي شيء رآه الناس في الولايات المتَّحدة يتَّصل بهذه القضية النارية، ولذلك فإن سعيد وجد أن من الصعب نشره[102]. إذ لم تكتفِ بيكُن پْرِس Beacon Press، دار النشر الأصلية، برفض المخطوطة بعد تأخير الردّ عدة مرّات طويلة، بل رفضت في البداية حتى مجرَّد إعادتها، وطلبت استرجاع المبلغ الذي كانت قد دفعته على الحساب. وقد كتب المحرّر في رسالة أرسلها إلى سعيد أوضح فيها أن أسباب رفض الكتاب كانت سياسية: «فما يجب التركيز عليه هو الفلسطينيون بصفتهم شعبا، وليس الجرائم التي ارتكبت باسم الصهيونية»[103].

ومع حلول شهر سبتمبر 1978، وبعد اعتذار دار النشر سايْمُن وشُسْترِ Simon & Schuster لأسباب تجارية، قرّر سعيد التوقُّف عن محاولة نشره حتى السنة التالية[104]. ولم تكن هنالك أي دار نشر عربية على استعداد للنظر في الأمر، إذ أرعبها أن الكلام عن «الدولة التي يهمُّها الأمن القومي» قبل كل

شيء قد يزعج قادة المنطقة[105]. وقد وصف زريق الكتاب بأنه يشكِّل «اختراقا»، ولكنه أضاف أن بعض مسلَّماته كانت غير مقبولة «من جانبنا»، وخشي أنه قد يسبِّب الأذى لسعيد في العالم العربي[106]. وفي محاضرة حضرتها أعداد غفيرة في كلية المعلِّمين في تلك الفترة، تعرَّض لمقاطعات كثيرة من الحاضرين. وألمحت جريدة «نيويورك تايمز» في مقال خاص نشرته في شهر فبراير 1980 أبرزته على صفحتها الثانية، إلى أن سعيد ينتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وإن كان ذلك بشكل غير رسمي. وقد جعله ما حصل عليه من اهتمام مشهورا بالمعنى السلبي، وعمل عدد من زملائه على فصله[107]. أما «آنتي وداد»، أي أمّ مريم، فقد كتبت رسالة إلى نسيبها بعد ظهور الكتاب قالت فيها: «أرجو أن تواصل الكتابة في حقول أنت المؤهل لاستقصائها. لن يطأطئ الإسرائيليون رؤوسهم إعجابا بالعقل العربي إلا عندما تتاح لهم فرصة قراءة دراسات كهذه»[108].

جاء كتاب «تغطية الإسلام» نتيجة لأزمة الرهائن التي حدثت في الفترة الواقعة بين العامين 1979 و1980، وهو كتابٌ أهداه سعيد إلى زوجته مريم، وفيه وضع فكرة كراهية الإسلام (وليس مصطلح «الإسلاموفوبيا») في لغة الخطاب اليومي الجادّ للمرة الأولى. كان هذا الكتاب هو الكتاب الذي أوجد سعيد فيه موقفا يتَّصف بالأَنَفَة يمكن التعرُّف منه على آيديولوجيا معادية للعرب وللإسلام ناتجة عن خوف يجافي المعقول، آيديولوجيا يمكن وصفها بأنها عمود من أعمدة السياسة الأمريكية[109]. لم يكن كتاب «تغطية الإسلام» مجرَّد استجابة تأملية للتغطية الهستيرية التي تتولاها وسائل الإعلام إبّان أزمة الرهائن. وقد كان الفِلم الذي بثّته الشبكة العامة للإذاعة PBS بعنوان «موت أميرة» Death of a Princess في 12 مايو 1980، والذي علَّق سعيد عليه مطوَّلا في الكتاب، واحدا من أشدِّ الأمثلة تطرُّفا. لقد قدَّم الكتاب نفسه بوضوح تامّ على أنه جزءٌ من موجة جديدة من الأعمال النقدية التي تتناول وسائل الإعلام الأمريكية، وانضمَّ بذلك إلى شخصيات مثل چومسكي، وهربرت شِلَر Herbert Schiller، وفْرِتْس ماكْلَپ Fritz Machlup[110]. كذلك كان سعيد يمضي في طريق إسرائيل شاحاك، وكان قد كتب لشاحاك قبل عامين ليشكره، لأنه هو الذي ألهمه للنظر في مشكلة المثقَّفين والدولة[111]. وقد تطلَّب النظرُ

عدمَ الاكتفاء بنقد صناعة الإعلام بل النظر أيضا في استخدامها استخداما أشدّ إبداعا. وقد مضت الدعوة للمضي إلى ما بعد الطريق المسدود للاستراتيجيات العسكرية – وكانت هذه وفق شكواه هي الشغل الشاغل للناس في بيروت – يدا بيد مع استخدام الأفلام السينمائية والتلفزيون والمجلّات لكسب الهيئات غير الحكومية كالكنائس، والجوامع، والجامعات.

وقد لام أصدقاءَه المقرَّبين في دوائر الأدب الإنكليزي لجهلهم بنظريات وسائل الإعلام التي ينادي بها الراديكاليون المعادون لنظم الحكم القائمة وبأفكار علماء الاجتماع من ذوي الاتجاه السياسي من أمثال رِكْ مكارثر Ric McArthur، وإدْوَرْد هيرمَن Edward Herman، وريجس دِبْرَي Regis Debray، وأرمان ماتيلار Armand Mattelart[112]. وفي واحدة من أشدِّ مقالاته دلالة عنوانها «حدود الخيال الفني» (1995) The Limits of the Artistic Imagination تناول موضوع إدارة وسائل الإعلام لـ «تشكيل الذهن» mind management بوصفها حالة خاصة من حالات «تشويه القدرة الإنسانية (أو اللاإنسانية) على الفعل أو طمسها»، وهو موضوع أثير لديه على مدى العقدين السابقين[113]. وقد تعزَّز تحليله بحقيقة أنه كان هو نفسه قد أصبح شخصية إعلامية مرموقة وصار كثيرا ما يظهر على مدى العقدين السابقين في البرامج الإخبارية والتحليلات السياسية الكبرى التي تبثُّها قنوات التلفزيون: برنامج إڤنز ونوڤاك Evans & Novack (CNN)، «هذا الأسبوع» This Week لديڤد بْرِنْكْلي David Brinkley (ABC)، الساعات الإخبارية لمَكْنيل وليرَر the MacNeil/Lehrer New Hours على قناة الشبكة العامة للإذاعة (PBS)، وبرنامج فِل دوناهيو the Phil Donahue Show، وبرنامج چارلي روز the Charlie Rose Show، وبرنامج «نايت لاين» Nightline. وقد تضمَّن محاوروه على مدى السنين بِنْجَمِن نتانياهو، وياسر عرفات، وجين كيرْكپاتْرِك Jean Kirkpatrick، وهنري كسنجر، وجورج وِل George Will، وسام دونَلْدسن Sam Donaldson، وكثير غيرهم. وعندما ظهر كتاب «تغطية الإسلام» كانت تلك العملية قد بدأت.

نجح الكتاب في هذه البيئة، ولكنه تأرجح بين مستويات مختلفة من الكلام. فالتورية الموجودة في العنوان حيث تشير كلمة «تغطية» covering إلى

الشمول(*) والإخفاء؛ وقد عنت للعاملين في حقله عند الوهلة الأولى أكثر مما عنته لمن هم خارجه؛ إذ ربط لاعبا على الكلمة بين: التركيز المعتاد في قاعة الندوة الدراسية على مشكلات التمثيل، وبين النقد الشامل لوضع الإعلام. وقد اندمج العالمان بأوضح الأشكال في استخدام المصطلح الأدبي المعتاد: مصطلح «السرد» narrative. فالسرد، كما أوضح في أشد مقالاته الفلسطينية طموحا، وهي «الإِذْن بالسرد» Permission to Narrate (1984)، ليس ترفا تستمتع به الطبقات الوسطى. كل أنواع القوّة تعتمد عليه. لا أحد يكسب الاحترام، لا بل لا أحد يوجد في عيون الآخرين، إلا إذا كان قادرا على سرد روايته وإسماعها للآخرين. كان لدى الصهاينة روايتهم بعنوان «الخروج» Exodus(**)، وسِيَرُ جنرالاتهم الشجعان ذوي الأعين المعصوبة، أو فلاسفتهم الوجوديون القدّيسون من أمثال مارتن بوبر Martin Buber. أما الفلسطينيون فلم تكن لديهم قصّة بقدر ما يتعلق الأمر بالجمهور[114]. وكان جمهور إسرائيل الخيالي يضمُّ كلَّ شخصٍ في أيِّ مكان يمكن أن يُعَدَّ يهوديا، مما أعطاه مجالا للحركة في العالم غير الخيالي، وزوَّده باحتلالٍ عسكريٍّ، ومكَّنه من غزو جيرانه.

غير أن سعيد لم يندب غياب السردية الفلسطينية، فلقد جاء كتاب «القضية الفلسطينية» بسردية من عنده ودعاها «الفلسطينيّة» Palestinianism[115](***). كان شعبه شعبا متحرّكا، يتنقَّل تنقُّلا سيّالا بين شعوب أخرى وأمم ذات وجود راسخ. وكثيرا ما استخدمت هذه الصفات لإنكار حقِّهم في الحصول على دولة خاصة بهم لأنهم كانوا يفتقدون؛ بصفتهم بدوا، هوية قومية واضحة. لكن سعيد رفض النظر إلى الفلسطينيين على أنهم ضحايا محشورون في مخيّمات قذرة، ورسم صورة لشعبٍ كانت أساليب حركتهم وتَبادُلِهم قد أوجدت هوية إقليمية فضفاضة من دون حدود قطعية. ولم يكن ذلك مصدر ضعف لهم، بل مصدر قوّة.

إن للفلسطينية بصفتها قصة بعض المزايا على الصهيونية. فعلى رغم أنها تروي كفاح شعبٍ من أجل الاستقلال فإنها أخذت تدلُّ على مبادئ لها صفة العمومية.

(*) هذا المعنى دخل إلى اللغة العربية عبر الترجمة الحرفية لكلمة covering. [المترجم].

(**) رواية من تأليف ليونٍ يورس نشرت في العام 1958. [المترجم].

(***) مصدر صناعي يدلُّ على مفهوم أو مذهب؛ وهو ليس صفة؛ والسياق كفيل بالتمييز بينهما. [المترجم].

فأولا كانت هي الصرخة التي رمزت إلى الشرق الأوسط برمَّته. فكل من هم غير يهود فيه شعروا بألم الجرح الذي سبّبه المحتلّون الغربيّون، وهو الجرح الذي اتَّخذ شكل المستوطنين الإسرائيليين. ثانيا، رمزت إلى الأنشطة المناهضة للاستعمار في كلِّ مكان، وأثبتت أن الاستعمار كان لايزال حيّا قويّا، وشكَّلت اختبارا للمعتقدات الحقيقية المناهضة للاستعمار لأن انتقاد إسرائيل كان معناه في العادة فقدان السمعة أو حتى مصدر المعيشة. ثالثا، أن تمييز الصهيونية القطعي بين اليهود وغير اليهود لم يكن مستحيلا في التطبيق العملي فقط؛ بل كان جريمة ضد التاريخ المشترك للمنطقة لأنها «ضخّمت فترة قصيرة من الهيمنة الإسرائيلية لكي تطمس التاريخ الحيوي المتنوِّع بكل ما فيه من تنوُّع ثقافي في فلسطين»[116]. إن جوهر الصهيونية هو الاستبعاد، بينما كان تاريخ فلسطين هو الاحتواء.

للوصول إلى هذه النتائج الإيجابية كان عليه أوّلا أن يمعن النظر في القوة السلبية للمؤسسات. وكانت الخطوة الأولى في التغيُّر الاجتماعي هي اللجوء إلى النقد، وقد تطوَّر حسُّه النقدي في أحسن حالاته وأعمقه فكرا في حقل الإنسانيّات. ولذلك لم تنحصر طموحات «تغطية الإسلام» بإثبات أن الإسلاموفوبيا هي الأسطورة التي يُلجَأ إليها لتسويغ المخططات الأمريكية. كذلك كان الكتاب عرضا عمليّا للقوَّة السياسية التي تتمتَّع بها النظرية الأدبية (لاسيّما في ضوء ما تزودنا به من نظرات ثاقبة في دلالات السرد) للغوص في منطق الدولة والحقائق التي تمثّلها الشركات. وبعد الفراغ من هذه الثلاثية فإنه فكَّر بأنه قد آن الأوان لمساءلة مؤسسة أخرى لديها القدرة على إدارة العقول – الجامعة – وبذلك يعيد الحرب إلى ساحتها الأصلية.

8

في مواجهة الآلهة الزائفة

النظرية شاهدة باردة كاذبة على قبر الحقيقة الميتة

جوزف كونراد[1]

بما أن سعيد كان يعمل في الوقت نفسه على إنجاز ثلاثة كتب وعشرات المقالات، فقد شعر بالتعب عند نهاية العقد. وعلى رغم أنه حقَّق بعض الانتصارات، فإن أصدقاءه أخذوا يلاحظون اعتلال صحَّته وتنامي كآبته، فقد اشتكى لزميل له في يوليو 1978 من «مرض ذات الرئة الذي لا يفارقه»، ومن ضلعين مكسورين بسبب السعال[2]. وقد اضطرَّ إلى التخلّي عن عدد من الدعوات على مدى السنوات الخمس السابقة بسبب أمراض لم

«ثمة علاقة وثيقة بين رجال الدين وبزوغ فجر الدول الحديثة. ولا غرو أن تكون لرجال الدين علاقة بالاستخدام المنظم والمتزايد للوسائل الاستخباراتية. ولربما كانت الدولة الكنسية أول دولة حديثة لديها إدارات حكومية، في حين كان القائمون عليها روادا فيما يتعلق بالحصول على التقارير الخاصة بما يحصل في العالم من تحولات سياسية وتصورات عقلية»

يكن قادرا على الشفاء منها. وقد وصل الفزع بعبد الملك حدّا جعله يحدِّثه عن وضعه الصحّي السيِّئ، ورجاه أن يقضي وقتا أطول في ممارسة الرياضة، وأن يبتعد عن نمط حياته الذي لا يرحم[3].

كان سعيد قد أفضى إلى صديقه سامي في وقت سابق أنه كان يخشى أنه لم يبقَ له من العمر أمدٌ طويل[4]. لكن يبدو أن هذه النزعة التشاؤمية نزعة متأصِّلة في آل سعيد، وهي عادة التعبير عن الخشية من عواقب أسوأ الأوضاع الصحية. ولا شكَّ في أن هذا الميل إلى الميلودراما هو ما كان في ذهن سلمان رشدي عندما وصف وسواس سعيد من المرض بحميمية بقوله: «يخشى سعيد إذا سعل أن يكون ذلك عرَضا من أعراض الالتهاب الشُّعَبي، وإذا شعر بالمغص فإنه يعبِّر عن يقينه بأن زائدته الدودية على وشك الانفجار»[5]. لم يكن أيٌّ من أصدقائه يعلم أن السرطان في طريقه إليه (مثلما لم يكن رشدي يعلم أن زائدة سعيد كانت قد استؤصلت في طفولته)، ومثلما أشار الروائي نفسه، فإن سعيد توقَّف عن الشكوى واحتمل سرطان الدم عندما دهمه بعد عقد من الزمان أو أكثر بقليل.

لا شكَّ في أن الشهرة التي حقَّقها كتاب «الاستشراق» ضاعفت من التعب الجسماني. فقد وجد، بسبب التعرُّض المضاعف لطلبات وسائل الإعلام، أن فرص إطالة النظر في النصوص خضوعا لمتعة القراءة أصبحت صعبة المنال. كذلك تضاعفت الأنشطة الجانبية في محاولة منه لتوضيح ما عبَّر عنه كتاب «الاستشراق» والدفاع عنه. وظلَّ على مدى اثني عشر عاما (1981-1993) غير قادر على إنتاج كتاب آخر يتناول فكرة متَّصلة على رغم أنه حاول أن يفعل ذلك، فباستثناء مجموعة إعلامية عن أبحاث كاذبة تتناول القضية الفلسطينية في كتاب «لوم الضحايا» Blaming the Victims (1988) فإن كلَّ ما استطاع إنتاجه كتابان عن أشدِّ ما نجده في أعماله من تعبير أصيل عن العواطف والاتِّهامات، الأوَّل هو «بعد السماء الأخيرة» After the Last Sky (1986)، وهو مزيج من الصور والنصوص، وهو من نواحٍ كثيرة أشبه بالعمل الذي ينبثق أثناء كتابته. والثاني هو مجموعة من المقالات التي نُشرت في العام 1983، ولكن معظمها كتب في عقد السبعينيات، وهو الكتاب الذي أنهى فيه مشروعه عن سْوِفْتْ. وتُعَدُّ هذه المجموعة من المقالات التي تدرس دور الجامعة في المجتمع الأمريكي أجرأ كتبه وأشدَّها ثورية، وأبدعها أسلوبا.

وقد لاح بعد تسلّم مارغريت ثاتچر Margaret Thatcher السلطة في العام 1979 وتسلّم رونَلْد رَيغن لها في السنة التي تلتها أنَّ عقد الثمانينيات كان أبعد ما يكون عن الترحيب بالمفكِّرين المنشقّين، لاسيَّما في الجامعة التي كان كلٌّ من الزعيمين يسعى إلى إيقاف تمويلها. وحلَّت أفلام مِلَني غْرِفِثْ Melanie Griffith ومايكل ج. فُكْس Michael J. Fox التي تصوِّر حياة ما يزيد على عشرين من كبار رجال الأعمال محلَّ الأفلام الخشنة التي تتناول حياة الطبقة العاملة كفِلم «الغريب» Alien وفِلم «الياقة الزرقاء» Blue Collar ، ولم يطل الوقت بعد أن لاح أن تسوية القضية الفلسطينية غدت ممكنة في عهد كارتر حتى شهد العقد الجديد موجة من الغزوات العسكرية الأمريكية للدول التابعة الجديدة في كلٍّ من نيكاراغوا والفلبين وغرانادا ولبنان. وفي هذه الأثناء تولَّى عاملون معروفون بقدرتهم على جمع الأموال، وعلى تشكيل الاستراتيجية الإعلامية، من أمثال رِچَرْد ڤيغري Richard Viguerie ورالْف ريد Ralph Reed ومؤسَّستَيْ سْكَيْف Scaife وأولِن Olin، قيادة التوجُّه اليميني الأمريكي، فيما كان اليمين المسيحي يكافح لاحتلال موقعه في السياسة العامَّة. وبما أن مقاومة طلبة الجامعات لم يعد من الممكن الاعتماد عليها وسط الشعور العام الذي تبع حرب ڤييتنام فقد أخذت الاتِّجاهات السياسية الرجعية تبدو جذّابة، وجُسِّدَت بأيقونات موسيقى «عقد الاهتمام بالأنا» me decade مثل إلڤس كوسْتِلو Elvis Costello، وذا بوليس The Police، وبالمشهد الفني لما بعد الحداثة الذي أخذ يمجِّد الثقافة الشعبية بوصفها حاضنة الابتكار والحرِّيَّة.

كانت تلك هي السنوات التي وَجَدَ فيها كتاب «الاستشراق» جمهوره على غير ما قد نتوقَّع، وقد تبيَّن أن رسالة الكتاب الآخذة بالانتشار لم تكن تتناغم مع الشعور السائد، فقد جرى تصوير الحملات التي شنَّها البيت الأبيض بقيادة رونَلْد رَيغن ضدَّ النقابات والتعليمات الحكومية والرفاه الاجتماعي على أنها مبادرات شعبية من جانب كثير من وسائل الإعلام على رغم المقاومة التي واجهتها، وتسرَّبت آثار تلك الحملات إلى الجامعات مع كل جيل جديد التحق بها. ومع اكتساب اليمين للسيادة على المشهد في أثناء تنظيمه الحملات الانتخابية، واستيلائه على محطّات الإذاعة، وإقامته ما يدعى بحلقات الفكر بدا أن اليسار الثقافي في الجامعات قد عجز عن الحركة وأنه يخوض حربا رمزية في معظمها ضد نظريّات التحليل النفسي

والسميوطيقا المتعلِّقة بالميول الجنسية والاختلاف العرقي والشرور الناتجة عن كل أنواع السياسة باستثناء سياسة التمثيل. وفي شهر أغسطس 1979 كتب سعيد رسالة من بيروت يعبِّر فيها عن شعوره بالذَّنْب لما يبديه من رضا عن النفس وهو ينشغل بكتابة المقالات عن كونراد وسْوِفْت بينما كان الإسرائيليون يقصفون مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب على مبعدة لا تزيد على نحو أربعين ميلا بتأييد من حلفاء إسرائيل الفاشيين، أي حزب الكتائب اللبناني.

كان سعيد في الصيف السابق قد تمكن من الحصول على قدرٍ من الابتعاد عن الإزعاجات بأن قضى عطلته في الأندلس («إسبانيا العربية») مع عائلته، وهو مكان كان بالإضافة إلى جاذبيته السياحية مكانا مورس فيه التسامح الديني بين العرب والمسيحيين واليهود في القرون الوسطى[6]. وفي العام 1981 قضى عطلته مع عائلته ليس في التلال المطلَّة على بيروت بل في تونس بسبب الخراب الذي ألمَّ بلبنان، وهناك قضى هو وعائلته العطلة برفقة الشاعر محمود درويش في بيت ضخم فيه بركة سباحة وبيانو كبير عزف عليه سعيد كلَّ ليلة قبل وجبة العشاء[7]. وفي أوائل سبتمبر سافر إلى باريس في رحلة لإلقاء بعض المحاضرات[8]. وقد أبلغته المنحة الوطنية للإنسانيّات بانتخابه عضوا في مجلس نيويورك للإنسانيّات. غير أن هذه الأنباء الطيِّبة أفسدها الغزو الإسرائيلي الشامل للبنان في صيف العام 1982 واكتساح جنوب لبنان، واحتلال بيروت، وتعرُّض كثير من أفراد عائلته وأصدقائه للخطر. وقد هدَّد الكتائبيّون عائلة أخته جين مباشرة برسالة قالوا فيها: «نحن نعرف أين أنت»، وأوضحوا بذلك أن عليها أن تترك شقَّتها أو أن تُقتَل. أما إبراهيم أبو لغد، صديقه القديم في رابطة خريجي الجامعات الأمريكية من الطلاب العرب AAUG، فقد وجد مأوى في شقَّة هلدا بعد أن تعرَّضت شقَّته للتدمير بقذيفة إسرائيلية.

كتب سعيد يقول إن لبنان «انتقل من وضع سيِّئ إلى وضع أسوأ: الجيش الإسرائيلي ينهب، والجيش اللبناني يعتقل المئات، وربما الآلاف، من الناس للاشتباه بشيء أو آخر بما يشبه [الانقلابات العسكرية في] الأرجنتين و - نعم - چلي Chile. لقد بدأت حقبة جديدة، وهي لا تبشِّر بخير»[9]. وتسبَّب الدَّور الذي أدّاه في اللجنة المؤقَّتة التي شُكِّلت للاحتجاج على الاجتياح الإسرائيلي بتلقّيه بعضا من أولى رسائل الكراهية، وتوالت الرسائل التي دعته من بين ما دعته بـ «المتعاطف مع الشيوعية»

و«العربي القذر الخدّاع»[10]. وتلقّى صندوق الدفاع الفلسطيني الذي كان يديره هو ومريم رسائل تضمَّن بعضها تبرُّعات بخمسة دولارات أو عشرين أو خمسين، إلى جانب واقيات حمل مستعملة في رسائل رسمت عليها السواستكا النازية ذات اللغة البالغة العنف تتحدَّث عن «الرغبة في غرس عمود من أعمدة السياج في عينيك» على سبيل المثال، كما يتذكَّر مساعدُه الطالب في الدراسات العليا في تلك الفترة. وقد ظلَّ يتلقّى رسائل من هذا النوع على مرِّ السنين كلَّما استدعى القصف الإسرائيلي احتجاجا من جانبه. هذا مثال:

> أنت ابن زانية غبي. أنت الآن تحت المراقبة، ويعرف اثنان من أصحابك ذلك، يكذبون من أجلنا، فهمت؟ كلِّمْهُ ثانية عن أي شيء تحصل على أشعَّة المايكرووَيف، أشعَّة تصيب الرأس، الأشعَّة أنظف من الرصاص، لا تتوهَّم أنك أصغر من أن تتعرَّض لذلك، ابحث عن الكاميرات؛ أنت لن تجدها»[11].

وبعد سنوات قليلة تعرّض مكتبه للتفجير، وترك أحدهم سيغارا متَّقدا على مكتبه فأنتج ثقبا في النشّافة الجلدية، وسُكب الحبر على أوراقه، وسُرق أربعون كتابا من فوق الرفوف[12]. «زارني أفرادٌ من مكتب التحقيقات الفدرالي وقالوا لي إن الفاعل مجموعةٌ من المجموعات اليهودية المتطرِّفة... ثم هدَّدتني [تلك المجموعات] على صفحات مجلَّة «ذا فيليج فويس» «The Village Voice»[13].

لم يُعتَقل أحد على رغم أن مكتب التحقيقات الفدرالي أصدر تعليمات محدَّدة لفحص كل الطرود التي تثير الشبهات بعد المذابح التي ارتكبت في العام 1982 في صبرا وشاتيلا، المخيَّمين الفلسطينيّين اللذين يقعان في ضواحي بيروت[14]. نُفِّذَت القتْلَةُ من قِبَل حزب الكتائب وبتشجيع من الإسرائيليين وحمايتهم. وفي ذلك الوقت تقريبا طرقت امرأة قاسية الملامح ترتدي زيّا عسكريّا باب مكتبه في الحرم الجامعي واندفعت مهدِّدة، واخترقت مساعديه وهي تقول: «أين هو؟»، كان مكتب سعيد ومكتب رئيس جامعة كولمبيا المكتبين الوحيدين المزوّدين بزجاج لا يخترقه الرصاص، وكان مكتب سعيد مزوَّدا بجهاز إنذار يرسل إشارة إلى وحدة أمن الحرم الجامعي[15]. كانت آخر كلمات والده قبل وفاته: «أخشى مما قد يفعله الصهاينة بك، خذ الحذر»[16].

لم يكن أعداؤه كلهم إسرائيليين، فأخته جين تذكره وهو يمرُّ بحالة من الرعب في بيروت خشية على حياته بعد مقابلة أجريت معه في أواخر العام 1979، فقد أشيع أنه واحد من الأشخاص الذين تقرَّر اغتيالهم[17]. إذ فسَّرت بعض التنظيمات الفلسطينية موقفه على أنه يستنكر الكفاح المسلَّح بدلا من الدبلوماسية. ولتوضيح موقفه كتب رسالة نشرتها صحيفة «الشرق الأوسط» بعد ذلك بقليل أنكر فيها أنه فُهِمَ فهما تامّا[18]. وبعد عقد من الزمن، في حادثة منفصلة كان يساند فيها منح اللجوء لمفكِّر فلسطيني، اشتكى من أنه غير قادر على زيارة بيروت الغربية خوفا من السوريين والمتطرِّفين. كما منع هو وابنه وابنته من زيارة أخوالهما وخالاتهما وجدّيهما وأبناء أخوالهما وخالاتهما في إثر تلك الحادثة[19]. وعلى رغم أن مريم زارت بيروت برفقة ابنها وابنتها في العام 1983 ومن دون رفقتهما بعد سنة من ذلك التاريخ، فقد كان من غير الممكن لسعيد نفسه أن يسافر إلى تلك المدينة في السنوات التي تلت الغزو الإسرائيلي في العام 1982. ومما زاد من قتامة الموقف الخبرُ الذي وصله في العام 1983 بأن والدته كانت تعاني سرطانا لا شفاء منه.

كان الوضع السياسي الباعث على الكآبة في كلٍّ من الوطن وبلاد الغربة قد جعله توّاقا إلى الانخراط في العمل السياسي، لكن الحركة على الأرض في لبنان في العام 1983 لم تكن توحي بالأمل: «أما فيما يتعلَّق بثوّار البقاع... فبما أنني أعرف الزعماء هناك فلا يمكنني القول إنني أتعاطف أدنى تعاطف مع أهدافهم أو أساليبهم في تحقيق تلك الأهداف، فهم ليسوا سوى مجموعة من الأشخاص الأغبياء المتوحِّشين»[20]. ففي أحد الطرفين كان هناك العنف الأعمى، وفي الطرف الآخر كان هناك الاسترخاء الكسول. وبعد رحلته إلى تونس في يوليو 1983 لزيارة المقرّ الرئيس لمنظَّمة التحرير الفلسطينية التي كانت قد أجبرت على الخروج من بيروت نتيجة للغزو الإسرائيلي، شعر بالقنوط بسبب الشلل الذي تعانيه المنظَّمة، بينما كان هو توّاقا إلى فعل شيءٍ ملموس؛ «لكنني لم أكن أعرف ما هو»[21]. ومما فاقم الوضع أنه لم يتمكَّن من المشاركة في اللقاء التاريخي الذي عقده المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في تلك السنة؛ لأن ابنه وديع كان قد أصيب بالتهاب مخ العظام، وكان مرضه شديدا[22]. كانت وفاة ابنه محتملة تماما، فاضطرَّ سعيد إلى التخلُّف عن ذلك اللقاء. كان من المنطقي إذن أنه اختار، عندما دعته كلِّيّة النقد

والنظرية School for Criticism and Theory ذات المكانة الراقية في جامعة نورْثْوَسْتِرْن Northwestern في الصيف السابق، إلى أن تتناول محاضرته موضوع «إخضاع الدراسات الأدبية للمعايير المؤسسية والمهنية»(*)؛ إذ كان ذلك أقرب شيءٍ للسياسة يمكنه أن يتَّخذه، فقد كان يشعر بخيبة الأمل لعدم اكتراث مهنته غير المفهوم بالاستجابة لهجوم ريغن على مستويات المعيشة، وعلى حركات التحرُّر في العالم الثالث (في نيكاراغوا خاصة)، وفصل السلطات، وهو ما دعاه «بعصر رونَلْد ريغن»، ورأى فيه عودة إلى الحرب الباردة[23]. وأشار بلهجة لا تقلّ عن هذه سخرية إلى «النظرية» الأدبية بعبارة «النقد الجديد الجديد»، قاصدا أن الشكلانية الأدبية التي تعود إلى عقد الخمسينيات من القرن العشرين لم تفعل أكثر من تغيير ثيابها في عقد الثمانينيات وقد تزيَّت بالزيّ الثوري للتفكيك، والتحليل النفسي اللاكاني، وما بعد الحداثة.

تلك النظريات نفسها، النظريات التي بدا قبل عقد واحد من الزمان أنها مغامرة فكرية، حلَّت محلَّها رطانات مشفَّرة من الإحالات، واقتصر دور الجامعات فيها على ما لا يزيد على خطٍّ لإنتاج «منظِّرين» متخصِّصين مشكوك في قيمتهم. وشعر أيضا بالنفور من مظاهرها المسرحية بينما كان الأساتذة الأمريكيون الذين يسهل خداعهم يتقرَّبون من أندادهم الفرنسيين: جاك لاكان وهو يتَّصل بفوكو من مكتب في الجامعة لكي يزيد من تكاليف المؤتمر أو لنقل كلِّ الأثاث حول غرفته في فندقه ذي النجوم الخمس قبل أن يطلب كأس الوسكي بينما هو يلقي حلقته الدراسية[24].

كذلك شعر بقدْرٍ مماثل من الفزع، ولو أنه مختلف من حيث النوع، نحو الحقل الأكاديمي الذي رحَّب بهذه النظريات ومكَّنها من السيطرة على الجامعات الأمريكية والبريطانية، هذا الحقل الذي يعرف بدراسات ما بعد الاستعمار Postcolonial Studies كان قد دخل في الاتجاه الأكاديمي السائد من الفُرجَة التي فتحها نجاح كتاب «الاستشراق» الباهر. ولقد عُدَّ سعيد مؤسِّس هذا الحقل، ولم تكن لديه أيَّ مشكلة في الترحيب بجهود العاملين فيه لإدخاله مزيدا من المؤلِّفين غير الغربيّين في مناهج الكلِّيّات، ولتحدّي التحيُّزات الخفية الموجودة في ذلك الكمِّ الكبير من الكتب

(*) Institutionalization and Professionalization of Literary Studies.

الغربية. كما أنه أيَّد محاولات ذلك الحقل لتنويع الكلِّيّات بالرجوع إلى الإثنية والأصول القومية. غير أن الصراعات الطائفية في لبنان، هذا إذا تجاوزنا الدروس التي تعلَّمناها من ابن خلدون وڤيكو، جعلته يمقت التلبُّس بفكرة «الهوية» Identity الشخصية التي سرعان ما غدت مسوِّغ وجود الحقل فيما كان الطلاب والأساتذة من غير البيض يشقّون طريقهم لاحتلال مواقع كانت مغلقة في وجوههم[25]. كان قد قاد المسيرة وأوجد حركة أكبر منه، ولم تعد تحت سيطرته، وهي تتلقّى الإلهام من كيان فكري كان هو في تلك اللحظة مشغولا بمقاومته.

كانت دراسات ما بعد الاستعمار في أواخر التسعينيات قد تحوَّلت إلى شيءٍ أكبر من مجرَّد حقل أكاديمي، وأصبحت مصطلحاته المفتاحية – «الآخر»the other، «الهُجنة» hybridity، «الاختلاف» difference، «المركزية الأوروبية» Eurocentrism - شائعة في البرامج المسرحية وقوائم الناشرين، وكتالوجات المتاحف، وحتى أفلام هوليود، أصبحت جزءا من الثقافة العامَّة، وذلك بتأثير منه في جانب من جوانبها، مما شكَّل معضلة لأنه كان ينكر وجود أي حالة تسمّى ما بعد الاستعمار: «لست واثقا بأن الانقطاع الذي حصل بين حقبة الاستعمار وما بعدها كان على تلك الدرجة من الأهمية»، ثم اعترف فيما بعد لزميل له بقوله: «لا أظنُّ أن عبارة ما بعد تنطبق على الحالة أصلا»[26]. كان واجب الناقد أن يكشف أن الاستعمار كان لايزال حيّا وبصحَّة جيِّدة، بالأمس في الهند ومصر، واليوم في جنوب أفريقيا ونيكاراغوا وفلسطين.

ومن المفارقات أنه على رغم عبارته الساخرة التي وصف بها الحقبة الريغنية فإن ريغن وزوجته أرسلا إليه بطاقة عيد الميلاد في العام 1987 تمنَّيا له فيها «عطلة من البهجة والفرح وسنة جديدة ملؤها الصحة والسعادة»[27].

***

كانت الفترات الطويلة من الزمن التي قضاها بعيدا عن التدريس في إرْبانا وبيروت وسْتانْفُرْد قد زوَّدته بوقت كافٍ للكتابة، ولكنه أعلن في ديسمبر 1981 عن شعوره بالراحة لأنه سيعود إلى أداء واجباته التدريسية للمرَّة الأولى بعد نحو ثمانية عشر شهرا. وكان مسرورا بالعودة إلى نيويورك بعد غيابٍ طويل قضاه في عمل الفلم المسمّى «ظلُّ الغرب» The Shadow of the West، وهو فلم كتبه وتولّى سرده

لسلسلة تلفزيونية تذيعها محطة البي بي سي بعنوان «العرب» The Arabs، وقد أذيعت الحلقة في العام 1982[28]. وتمكَّن بعد أن عاد إلى التدريس بعبءٍ كامل، وبحالة من التأمُّل الداخلي، من إكمال العمل على الكتاب الذي طال العمل عليه كلَّ تلك المدَّة، وهو الكتاب الذي حدَّد فيه اهتماماته في النصف الأوَّل من سيرته العلمية بأوضح صورة ممكنة.

لم يكن كتاب «العالَم والنصّ والناقد» (1983) أقلَّ من نقدٍ للنقد نفسه. ولكن تصويره لما في النظريات الأكاديمية المتعلِّقة باللغة والتحليل النفسي والجسد من أمجاد وعذابات لم يأتِ دفقة واحدة. لم يتدفّق بوصفه استجابة متأخِّرة لما آلت إليه الحياة السياسية الأمريكية، بل اتَّخذ شكل الانتقام من التيّارات الخفيَّة المقلقة لذلك المآل، وهي استجابة يمكن تلمُّسها في سني السبعينيات ذات الطبيعة التجريبية.

على رغم افتقار كتاب «البدايات» إلى الجاذبية فإنه كان في نظر أقدم طلبة سعيد في مرحلة الدراسات العليا كتابا مما ينتجه المدرِّسون من كتب[29]. وحتى أولئك الذين لم يدرسوا أيّا من المواد التي درَّسها كان بإمكانهم أن يروا في صفحاته أسلوب الخوض في المناقشات غير المكتوبة في قاعة السمنار. وقد كان كتاب «العالَم والنصّ والناقد» بالنسبة إلى الجيل الثاني من طلبته كتابا يكتبه مدرِّس بالمعنى نفسه، مع فارق أنه كتاب أعمقُ حكمة وأشدُّ غضبا بكثير. فقد أوقف العمل بالمزايا الفكرية الآسرة في كتاب «البدايات»، مؤقَّتا على الأقلّ، ليتفرَّغ للمهمة العملية، مهمة وصف الوظيفة الاجتماعية للعلوم الإنسانية. ولم يتحرَّج من طلب المعونة في هذه الـمَهمَّة من الكردينال جون هنري نْيومَن John Henry Newman، وشارك رجل الدين الڤكتوري ذاك اعتقاده بأن الجامعة يجب أن تحرِّر نفسها من زرع المذاهب الأخلاقية أو تحضير الطلبة لوظائف يختارونها لبقية حياتهم[30]. لا شيء في التعليم يجب أن يتضمَّن «الاستعمال المباشر أو الفائدة المباشرة».

لقد تمسَّك بالمبدأ القائل إن الأساتذة يجب ألّا يَدْعوا إلى قضايا معيَّنة، وكتب يقول: «لم أدرِّس مادَّة عن الشرق الأوسط طوال ثلاثين سنة من التعليم، أنا لا أؤمن بتسييس قاعة الصفّ»، وليس بوسع منتقديه أنفسهم أن ينكروا ذلك[31]. وفي أثناء المظاهرات التي جرت في كولمبيا لمناهضة الحرب كان رأيه أن الجامعة يجب أن تكون ملجأ من السياسة حتى لو كان ذلك الملجأ مملوءا بالدلالات السياسية. وقد

بدأ كتابه «العالم والنصّ والناقد» بوصف أهم هذه الدلالات، وهذه كانت تتَّصل بطرق الدراسات الإنسانية فوق كلِّ شيء، وذلك عندما قدَّم دفاعا عمّا تسهم به، وهو إسهامٌ تعجز العلوم الطبيعية والاجتماعية عن تقديمه.

كان سعيد قد وجد طريقه إلى الفكرة الرئيسة في كتاب «العالم والنصّ والناقد» منذ العام 1968، ألا وهي أن المسائل النظرية التي يبدو أنها تتناول الواقع ما هي في الحقيقة سوى «وهم أو مجموعة أوهام غير واعية ذات أهمية لصحَّتنا العاطفية»[32]. فقد كان مشروعه عن سْوِفْت يستهدف من بين ما يستهدف نقد الأسلوب غير المباشر وتفضيل الكلام المباشر، وقد بقي الشكل الذي ظهر فيما بعد لذلك المشروع [في كتاب «العالم والنصّ والناقد»] ملتزما بذلك المقصد على رغم أن تعقيدات الجامعة الحديثة وعلاقتها المتقلِّبة مع الدولة صعبة التحديد، وأن النطاق الواسع لأفكار الكتاب يجبره على الانضباط. وكان مشروعه الآخر الذي خطَّط له منذ زمن طويل لدراسة المثقَّفين قد لقي المصير نفسه، وكان يأمل أن يضاهي ذلك المشروع الأقوال الكبرى عن الموضوع التي ترتبط بأسماء مثل غرامشي، وألَفِنْ گولدنر Alvin Gouldner، وديبْرَي Debray، لا بل إنه صرَّح لزملائه بأن دراسته الكبرى عن المثقَّفين كانت في طريقها إلى الاكتمال[33]، غير أنه شعر في الحالتين أن تصوُّره الأصلي سيحتاج إلى وقت أطول مما تسمح به أنشطته الأخرى، ولذا فإنه تخلّى عن مشروعه الخاص بالمثقَّفين مضطرّا.

أما فيما يتعلَّق بكتاب «العالم والنصّ والناقد» فقد ناشد سعيد في أواخر العام 1979 مود وِلْكُكْس Maud Wilcox، المحرّرة المسؤولة عن متابعة كتابه في جامعة هارڤرد، أن تصبر عليه، وقال إنه كان يعمل بلا كلل، ويشعر بأنه سيتمكَّن من إرسال المخطوط لها في آخر السنة، وشرح سبب التأخُّر بقوله إنه كان يعمل على كتابة كتابٍ آخر مختلف تمام الاختلاف كان قد قرّر كتابته بدلا من دراسته عن المثقَّفين. هذا المشروع الذي تحدَّث عنه مع أصدقائه قائلا إنه يوشك على الانتهاء منه، وكان قد تعاقد مع أحد الناشرين بشأنه، كان مخصَّصا لغرامشي ولوكاتش، وكان يحاول أن يلملم بعض أفكار الكتاب، ولكنه لم يكن راغبا في «ترك بقع كبيرة من الموضوع من دون معالجة»، ولذا فإنه كان محتاجا إلى مزيد من الوقت[34]. وكانت حلقات البحث التي درَّسها بين العامين 1978 و1982 تتراوح بين حلقة عن

المفكِّرين البريطانيين الماركسيين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (بمن فيهم إرك هوبسبوم Eric Hobsbawm، و ڤ. غ. كيرنان V. G. Kieranan، وج. د. برنال J. D. Bernal، عالم الأحياء الجزيئية الآيرلندي الذي اشتُهر في فترة ما بين الحربين، وعُرف بأنه اشتراكي ومؤرِّخ للعلوم)، وحلقة خصَّصها لغرامشي ولوكاتش[35]، وقال إنه لا بدَّ من إعادة النظر في الصيغة الأولى من تلك الدراسة من أجل أن يحيط علما بالكمِّ الهائل من الدراسات التي كُتبت عن المفكِّرَيْن من أجل «ألا يجعل من نفسه أضحوكة»[36]. لكن لا شكَّ في أن قوى أخرى وقفت في طريقه أيضا: محاضرات في بيروت، وحلقة دراسية في الصيف لمصلحة المنحة الوطنية للعلوم الإنسانية عن «النظرية التقدُّمية الحديثة» كان قد قدَّمها في العام 1978 في جامعة كولمبيا.

كانت حلقة المنحة الوطنية للعلوم الإنسانية مقدّمة بكلِّ المعاني لكتاب «العالم والنصّ والناقد»، ولكنها أوضحت أيضا تحوُّل سعيد تحوُّلا أكثر صراحة إلى الانتماءات السياسية اليسارية، وكان ذلك نتيجة من نتائج الضغوط التي واجهها في معركته مع وسائل الإعلام الأمريكية. فقد عدَّ سعيد ذلك التجمُّعَ [أي تجمُّع المشاركين في الحلقة المذكورة] الذي عُقِدَ ستَّ عشرة مرَّة على مدى ثمانية أسابيع جبهة فكرية موحَّدة ضدَّ تكميم الدولة ووسائل الإعلام للمَلَكة النقدية نفسها: «كنتُ راغبا في قراءة مجموعة من النقّاد الذين تأثَّروا تأثُّرا عميقا بالماركسية، واللسانيّات، وبالمدرسة الشكلية، والمدرسة التاريخية، ولم يحوِّلوا منهجيّا أيّا من تلك المدارس الفكرية إلى أدوات نقدية متزمِّتة، ميكانيكية، مُثقَلة بالعبارات المحنَّطة»[37]. والتقى في هذا التوجُّه الجديد بمفكّرين من أمثال أدورنو Adorno ووولتر Walter بِنْجَمِن Benjamin على وجه الخصوص لم يكونوا قد أسهموا كثيرا في كتاباته حتى تلك النقطة، ولكن سيكونون بالغي الأهمية بعد ذلك. وقد أرسل له پَري أندرسن Perry Anderson، الذي جسَّد القوَّة الكامنة خلف المجلَّة العالمية المسمّاة مجلّة «اليسار الجديد» New Left Review التي تصدر في لندن المجموعة المهمَّة المسمّاة «الإستطيقا والسياسة» Aesthetics and Politics (1977) بعد ظهورها بقليل، وهي مجموعة من المناظرات بين عددٍ من كتّاب المسرح والفلاسفة الماركسيين (برتولت بْرِخْت Bertolt Brecht، وإرنست بلوخ Ernst Bloch، ووولتر بِنْجَمِن، إضافة إلى كتاب سوزان بَكْ-مورْس Susan Buck-Morss بعنوان «أصول الديالكتيك السلبي»

The Origins of Negative Dialectics (1977)، وهو دراسة لفكر أدورنو. كان الكتابان مهمَّين لتوجيه فكر سعيد نحو فَلَك الفيلسوف الألماني)[38].

في العام 1983 تمكَّن سعيد أخيرا من الوفاء بوعده لِمود وِلْكُكْس بتسليم ما كان يجب أن يكون كتابه عن سْوِفْت. وكان منذ سنوات يحاول إقناعها بالتخلّي عن فكرته الأصلية عن سْوِفْت لمصلحة كتاب أشدَّ مرونة يتكوَّن من أجزاء متفرِّقة لأنه أراد «الوصول إلى جمهور مختلف»[39]. فقد مثَّل له غرامشي في الزمن الحاضر ما كان سْوِفْت قد مثَّله في الماضي، ألا وهو أنموذج التوتُّر في السياسة كما في الكتابة بين اللحظة الحاضرة المباشرة الزائلة، وما هو باقٍ على مرِّ العصور، ولكنه يأتينا مغلَّفا بشيء آخر ولديه القدرة على التشكيل. وقد كان يتحدَّث بافتخار عن «كتابين في النقد» على وشك الظهور على رغم أنه كان من الجلي أن المشروعين كانا يندمجان معا ليصبحا مشروعا واحدا[40].

ولئن كان قد انطلق في الكتابين من الرغبة في انتقاد النظم العليا (مشيرا بالدرجة الأولى إلى التحليل النفسي والسميوطيقا على وجه التحديد) فإنه كان في ذلك المسعى «مدينا لأنواعٍ معيَّنة من الماركسية المناهضة للمنظَّمة الأممية الثانية(*)، وهو الموضوع المفترض للكتاب الثاني. كانت الأممية الثانية تعني له، كما عنت لسواه عادة، الماركسية التطوُّرية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أي عنت ماركسية وضعية في أساليبها وحريصة على لبس لبوس «العلم». أما الفكر الماركسي الأذكى والأقدر على التحوُّل والتعديل، وهو الفكر الذي ظهر في الأممية الثالثة وجاء مع الثورة الروسية فقد كان أقرب إلى ما يفضِّله هو. وبكلمات أخرى، كان كلٌّ من لوكاتش وغرامشي، اللذين كان يشير إليهما بعبارته «المناهض لماركسية الأممية الثانية»، الممهِّدَ المنطقيَّ للرفض الذي عبَّر عنه كتاب «العالم والنصّ والناقد» «للرطانة الجديدة، والهرمسية(**)، ونزعة التزمّت الفكري التي كانت

(*) المنظمة الأممية الثانية (1889 - 1916) منظمة ضمَّت أحزابا اشتراكية وعمالية تشكَّلت في 14 يوليو 1889 في لقاء في باريس شاركت فيه وفود من عشرين دولة. [المترجم].

(**) الهرمسية: تقاليد دينية وفلسفية وغيبية مستمدَّة بالدرجة الأولى من كتابات تُنسب إلى الشخصية الأسطورية هرمس مُثَلَّث العظمة. وكانت هذه التقاليد ذات أهمية كبيرة في عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني في أوروبا. وفي السياق الراهن يبدو أن الكلمة تشير إلى الرطانة التي تتصف بها آراء بعض المفكِّرين الذين شاعت أفكارهم بسبب ما فيها من غموض وإيحاء بالرسوخ في العلم. [المترجم].

تنتشر في كلّ مكان» في أوساط منظِّري الأدب الذين كانوا قد استلهموا أفكاره في المرحلة الأولى من سيرته العلمية[41].

وعندما أدرك في أوائل الثمانينيات أنه لن يتمكَّن من الانتهاء من كتابه عن لوكاتش وغرامشي فإنه ركَّز المادَّة في مقالةٍ واحدة طويلة كان ينوي ضمَّها في كتاب المقالات، ولكنه غيَّر رأيه فلم يدخلها في الكتاب، ولم ينشرها بعد ذلك في أيِّ مكان[42]. فلربَّما شعر بأن مدحه للمفكِّرَيْن الشيوعيَّين قد يعكِّر المياه الصافية، أو قد يجعل هجومه على المؤسسة الأكاديمية مثيرا للحساسية لأن انتقاداته كانت على تلك الدرجة من الشدَّة. لكن ربما شعر بأن الوقت أدركه، وأنه لم يعد بإمكانه أن يعطي المفكِّرَيْن ما يستحقّانه من الدراسة المتأنِّية. وعلى الرغم من الاختلافات بين الصيغة القاسية الأولى واللهجة الأقل حدَّة في الصيغة الأخيرة لهذا الكتاب المثير فإن هجومه كان واضحا، ولذلك شن جنرالات النقد الجديد (كما كان قد دعا به نظريةَ ما بعد البنيوية) هجوما معاكسا.

رفضت مجلَّة Diacritics على سبيل المثال، وهي المجلَّة التي أبدت إعجابا شديدا بكتاب «البدايات»، مراجعة استحسن كاتبها كتاب «العالم والنصّ والناقد»، وقالت لكاتب المراجعة إن المجلَّة «ترغب في أن يتولّى أحدهم كتابة مراجعة يقسو فيها على الكتاب»[43]. أما محرِّر دار النشر Editions de Seuil التي نشرت الترجمة الفرنسية من كتاب «الاستشراق» فقد امتدح «مزيجَ رهافة الفكر والعنف اللذين أرى أنهما من خصائص نظراتك النقدية»، ورفض الكتاب بحجَّة أنه أكاديمي أكثر من اللازم، وأمريكي أكثر من اللازم[44]. غير أن الاستياء الذي لقيه من الجانبين لم يمنعه من تلقُّف جائزة رينيه وِلِك ذات المكانة الرفيعة، التي تمنحها سنويّا الرابطة الحديثة للغة Modern Language Association (MLA) لأفضل عمل من أعمال الأدب المقارن، وذلك بسبب أناقة المبدأ التنظيمي الذي قام عليه الكتاب. لم يحقِّق سعيد ذلك بسهولة.

ألمح سعيد إلى المبدأ التنظيمي في الكتاب بتسميته أصلا بـ «المنهج» Method، وهو العنوان الذي قال مفسِّرا إنه ظلَّ في ذهنه طوال الوقت[45]. فبدلا من استقصاء الطريقة التي يُكتب بها كتابٌ يكتسب الأهمية بالتدريج ويتنقَّل في أرجاء العالم، كما حصل في حالة كتاب «الاستشراق»، فإنه هنا يبحث في كيفية اكتساب بعض

النصوص والأفكار التي يأتي بها الآخرون مرجعية لا تقوم على ما يبدو فيها من أصالة وقدرة على الإفهام بل على أساس المواقف الآيديولوجية السائدة. وبعبارة أوضح، كانت المسألة التي تلحّ عليه هي هذه: كيف يحصل أمثال دريدا ورِچَرْد رورْتي Richard Rorty على كلِّ ذلك الاهتمام، عند النظر في تداول الحظوة، بينما هناك أشخاص مثل علي مزروعي ولوسيان غولْدْمَن في المشهد؟ يُتوقَّع من الطلبة جميعا أن يقرأوا ديكارْت، ولكن يُسمح لهم بتجاهل ڤيكو وهيردر، ما السبب في ذلك؟ أجاب بقوله إن الثقافة السائدة مدينة بما تحظى به من هيمنة إلى «هيمنة المنهج المنظَّم»[46].

من الواضح أن إحدى الضحايا في قائمة الكتب التي يجب أن تُقرأ في الغرب هي الأدب العربي الذي كان سعيد يسعى إلى دعمه في أثناء كتابة «العالم والنصّ والناقد»[47]، وبدلا من تقديم التفكيك إلى الشرق الأوسط كان همُّه تقديم دراسة محمد مصطفى بدوي للشعر العربي الحديث إلى «الملحق الأدبي لجريدة التايْمز» اللندنية Times Literary Supplement. وبعد أن اكتشف نجيب محفوظ في العام 1972 فإنه قضى عقد الثمانينيات وهو يسعى إلى أن يُترجَم وتُنشَر أعمالُه في الولايات المتّحدة، وهو مشروع صار أسهل بكثير عندما نال محفوظ جائزة نوبل سنة 1988[48]. وقد كتبت جاكلين كندي أوناسِس Jacqueline Kennedy Onassis، التي كانت أحد كبار المحرِّرين في [دار النشر] دَبِلْدَيْ Doubleday، رسالة تقديرية شكرته فيها ردّا على رسائله التي كان يلحُّ عليها بها بأسلوب لطيف، على «شرف اكتشاف» الروائي العظيم من خلال تشجيعه، وأرسلت إليه النسخة المطبوعة الأولية (البروڤة) من «بين القصرين» (1956) التي كان قد عرَّفها بها في وقت سابق، ووقَّعت رسالتها بخطٍّ جميل بعبارة «مع الإعجاب بأعمالك»[49].

كان كتاب «العالم والنصّ والناقد» من حيث متابعته مسألة المنهج أقرب إلى ما يستخرجه عالم الآثار من حفريّاته ليعرضَ فيه مراحل سيرته العلمية كلّها. لم يكن أيٌّ من كتبه السابقة متماسكا تمام التماسك، كلُّها كانت تشكو من التضخُّم، وكان كلٌّ منها يشكو من قسم منفلت واحد على الأقلّ. أما في هذا الكتاب فقد كان الخلل من نوعٍ مختلف، فقد تكشَّفت مراحل تطوُّره الفكري تحت الضوء الكاشف لحكم يصدر على دوره السابق بوصفه رسولا من رسل الطليعة النقديَّة. وكان قد

بدأ فعلا بمساءلة هذه الفكرة بالذات متسائلا أمام زملائه «عما إذا كان ما يُدعى بالطليعة النقدية شيئا مشروعا، وعن أنواع القضايا المرتبطة بمن يُدعى بالناقد المتقدِّم advanced critic وما إلى ذلك»[50].

لقد ضمَّ الكتاب مقالتين تنتميان إلى كتاب «الاستشراق» (تناول فيهما ريمون شواب ولويس ماسنيون)، ومقالتين إحداهما عن الأصالة والأخرى عن التكرار، ومن الواضح أنهما تنتميان إلى كتاب «البدايات». أما المقالتان الخاصَّتان بكونراد وسْوِفْتْ فكانتا بدورهما من بقايا أطروحته ومن الكتاب الذي لم يتحقَّق. غير أن مجموعة المقالات تماسكت معا بتأثير من المقالة المهمة التي وضعت قرب نهاية الكتاب، وعنوانها «النقد بين الثقافة والمنهج» Critisism between Culture and System، وهي ليست أطول المقالات وأشدَّها صرامة فقط، بل كانت أصلا تحمل عنوان الكتاب كلِّه. في هذه المقالة بيَّن سعيد فساد «الأورثودوكسية الجديدة» التي نشأت عبر الاستجابة الأمريكية لكلٍّ من فوكو ودريدا[51]. أما المقالتان اللتان أراد في البداية إدخالهما في هذا المجلَّد – «رسائل من العالم الثالث» Dispatches from the Third World، وهي مراجعة كتبها لمجلة «ذا نيشن» The Nation عن الكاتب ڤ. س. نايپول V. S. Naipaul، و«أشكال الكتابة العربية منذ العام 1948» The Forms of Arab Writing since 1948 فقد استبعدهما لأنهما لم تسهما في دراسة «المنهج».

تعطي مراسلاته مع وِلْكُكْس الانطباع الزائف بأنه سلَّم الكتاب بعد أن أُعيد النظر فيه جذريّا، كأنه سلَّة تحتوي على ما هبَّ ودبَّ في آخر لحظة. أما الحقيقة فإن الكتاب كان قمّة حياته بصفته كاتب مقالات كما أكَّد عدد من زملائه وأصدقائه بلهفة[52]. فقد شكَّل الكتاب، بما فيه من لهجة واثقة، وبموقفه المناهض لثبات المبادئ الأخلاقية السائدة(*)، عرضا لافتا للنطاق الواسع لـِمَلَكاته الفكرية مستخدما الفرصة التي أتاحها موقف ريغن المناهض لكي يدعو زملاءه في الجامعة لكي يتحمَّلوا مسؤوليَّة مواجهة الكارثة. فقد غامر في واحدة من تأمُّلاته العاصفة حول النقطة

(*) الكلمة الأصلية هي antinomian، ومعناها، خارج السياق الديني، هو أن المبادئ الأخلاقية ليست ثابتة بل تتغيَّر مع الزمن. [المترجم].

التي يلتقي عندها التعليم والفهم السياسي والتنظير المجرَّد باستثارة انتقاد زملائه له بنشره ما ظلَّ حتى ذلك الوقت محصورا بتبادل الأحاديث الخاصّة. وعلى رغم أنه لم يكن على اتِّصال منتظم مع آرثر غولد لسنوات خلت فإن صديقه القديم كتب له رسالة يشيد فيها باستجابته الرائعة لمشهد أمريكي «يرى في النقد الفرنسي دعوة إلى ما لا يزيد على تَبَدٍّ آخر للخيال الرومانسي»[53].

انبثقت الفكرة الأولى لهذا الكتاب، بشكله الذي اتَّخذه في نهاية المطاف، في مؤتمرٍ عُقِد في مدينة سَينْت لويس بولاية مِزوري في العام 1974، حيث ألقى محاضرة عنوانها «الكلمة والنصّ والناقد» The Word, the Text and the Critic، ومع انتقاله على مدى العقد التالي من «الكلمة» word إلى «العالَم» world فإن مَهَمَّته لم تقتصر على تقديم المؤلِّفين للطلبة أو لتذوُّق التفنُّن الشكلي معهم، بل شملت أيضا السؤال عن كيفية تداول النصوص، كيف أن تطوُّر الكلمات وتاريخها يوحيان بكتابة الروايات ولا يقتصران على بيان معناها بعد اكتمالها. فرواية Tristram Shandy التجريبية العظيمة التي كتبها في القرن الثامن عشر لورنس سْتيرْن Lawrence Sterne على سبيل المثال تدين بأسلوبها وأفكارها للمسائل العلمية التي أثارها جون لُك، مثلما أن خيال بلزاك Balzac اغتنى بما أخذه عن عالم الطبيعة جورج كوڤييه Georges Cuvier. لقد شدَّ سعيد خيطا من خيوط كتاب «البدايات»، فكشف وضع الأعمال الأدبية بصفتها إبداعات مستقلَّة ومنتجات جانبية إلى حدٍّ ما من البحث العلمي. وفي حالة الأدب الإنگليزي بالذات كانت إحدى النقاط الرئيسة تذكير القرّاء بما كان شواب قد بيَّنه: وهو أن جانبا كبيرا من الرومانسية كان وليدا مباشرا من البحث الاستشراقي، وليس العكس.

كان جانبٌ من كتاب «العالَم والنصّ والناقد» موجَّها ضد التبجيل غير النقدي من جانب القرّاء لكلِّ ما هو علمي، وسخر من هوس القائمين على إدارة الجامعة بالمعدّات التكنولوجية بقوله إنه أشبه بـ «إصلاح السيّارات»[54]. وبينما كان لايزال في إربانا كتب عن «القضية الرهيبة» التي دعمها المركز هناك تحت عنوان «العلم والوضع الإنساني» Science and the Human Condition؛ فقد اقتنع، بعد حضور اللغو الذي لا نهاية له، بأن «الوضع الإنساني هو الإصابة بالبواسير»[55]. أما

الآن؛ إذ عاد إلى وضعه الطبيعي، فقد انحاز إلى عالم الاجتماع الكبير پيير بوردو Pierre Bourdieu، وهو واحد من أصدقائه، بحثا عن متنفَّس من «الطغيان الرمزي» للعلوم[56].

غير أنه، بدلا من أن يحصر نفسه بوصف المناهج المختلفة في العلوم والإنسانيّات، حفر عميقا للوصول إلى جذور العداوة بينهما. وألمح إلى أن المصير المحزن للتفكير النقدي عكس مشكلة أكبر في الثقافة، وكان تشخيصه للمشكلة على أوضحه في المقالة التي لم يدخلها في الكتاب مع أنها عبَّرت عن مقاصده تعبيرا مُحكَما، وهي المقالة المعنونة بـ «المعارضون، والمستمعون، والمناصرون، والمجتمع» Opponents, Audiences, Constituencies, and Community (1982)، وهي واحدة من أهمِّ المقالات التي كتبها في حياته(*).

كان رأيه في مقالة «المعارضون..» أن ما يتَّصف به العلم من غموض يقع في الصميم من الثقافة العسكرية الكينزية(**) التي سادت في عهد ريغن. وقد عمل المفكِّرون المرتبطون بذلك العهد كلَّ ما في وسعهم ليجعلوا المواطنين يحسبون أن تقدُّم جانبهم في مقابل تخلُّف من هم أدنى منهم مصدره السوق الذي ينظِّم نفسه بنفسه، وأوهموهم أن العقلانية ما هي إلا القدرة على التحكُّم في الأمور، وأن الديمقراطية ما هي إلا الإنتاجية والكفاءة[57]. وفي الجامعة قوبل هذا الهجوم بشعور لا يليق بها من الوجل، بينما عملت فئات صغيرة من الحرس القديم old guard(***) على تقليد العلوم بعبادة الماكنة الساخنة المعقَّدة febrile machine التي وجدوها في الخلاصة summa(****) التي وضعها نورْثرُپ فْراي Northrop Frye في كتابه «تشريح النقد» Anatomy of Criticism. وقد احتلَّ هذا الكتاب مكان الصدارة في أقسام اللغة الإنگليزية وكأنه الكلمة الأخيرة في علم الأدب لأنه

(*) نشرت هذه المقالة في كتابه Reflections on Exile، وقد ترجم إلى العربية ونشرته دار الآداب في العام 2020. [المترجم].

(**) نسبة إلى عالم الاقتصاد البريطاني جون مَيْنَرْد كَينْز الذي كان من رأيه أن مشكلة النسبة العالية من البطالة في النظام الاقتصادي المستقرّ يمكن علاجها بزيادة الطلب على المنتجات من خلال رفع مستوى الصرف على المشروعات العامّة وتخفيف الضرائب. [المترجم].

(***) تعبير شائع يعني المحافظين على النظام القائم في الدين أو السياسة أو الاقتصاد. [المترجم].

(****) كلمة تعني خلاصة شاملة لعلم من العلوم الإنسانية كاللاهوت أو الفلسفة. وقد تُرجم الكتاب المشار إليه من أعمال فراي ونشرته الجامعة الأردنية. [المترجم].

وضع كل عناصر الأدب في مكانها على خارطة الأدب، ورسم كلَّ العلاقات التي أمكن لماكنة الخيال الأدبي أن تنتجها[58].

في هذه الأثناء هجم شبابٌ في غمرة حلمهم الفرنسي على دفاعات فْراي فأتوا بتمايزات من دون اختلافات، ولم يكن ما أتوا به أفضل مما أتى به، وقدَّموا لنا نظرة علمية جديدة تقوم على أوهام الدقَّة الموجودة في البنى اللغوية التي تعمل كما تعمل الساعة. ولم يكن هوس النظرية الأدبية بالبنيوية كما وصفه سعيد سوى صيغة أخرى من عالم العلوم الاجتماعية القائم على الوظيفية functionailsm الخالية من القيم بما تضمُّه من «مذهب السلوكية والقياسات الكمِّيَّة»[59]. أما العالم المعيش بما فيه من صراعٍ وجدلٍ واختلافات آيديولوجية فقد مُحِيَ لمصلحة وهم الوصول إلى اليقين الموضوعي الذي تحقَّق على حساب القدرة الإنسانية على الاختيار. وعلى رغم كلِّ ما حقَّقته النظرية الأدبية من رفعٍ للتكاليف الفكرية فإنها غرقت في خطاب «الإخفاء والتسويغ» باللجوء إلى الأساليب العلمية في الظاهر مغلَّفة بغلاف شبه فني لكسب المشروعية لنفسها في ثقافة ترى أنه لا قيمة لأيِّ شيء آخر.

واشتكى من أن مسار التفكير هذا يعتمد على الجهل بالإجراءات العلمية الفعلية، وبيَّن أن مؤرِّخي العلم من أمثال ج. د. برنال، وتوماس كون Thomas Kuhn، وجورج كانغيلم Georges Canguihelm(*)، وجِرَلْد هولتن Gerald Holton سعوا إلى إفهام الجمهور أن ظروف العمل العلمي «مشهورة بعدم دقَّتها في تحديد ذلك العمل بطرق لم ينظر فيها العاملون في الإنسانيّات (وحتى العاملون في العلوم) نظرا كافيا»[60]، فالعلماء كثيرا ما اعتمدوا على القفزات الفكرية التي تُعَدُّ من نواحي الضعف عند العاملين في الإنسانيّات. وهناك عدد من نقاط الشبه التي تثير التأمُّل من حيث الثيمات بين بعض النواحي في كتاب «الاستشراق» وكتاب «بنية الثورات العلمية» The Structure of Sientific Revolution لتوماس كون، وهو كتابٌ كثيرا ما أثنى عليه سعيد، بما في ذلك ما في مقالته ذات العنوان «المعارضون»؛ فقد ركَّز كلا الكاتبين على دور التقاليد الموروثة في المعرفة حيث ينجذب العلماء

(*) هذا هو اللفظ الذي يعطيه أحد المواقع على الشابكة، وهو يختلف قليلا عن اللفظ الذي أعطاني إياه المؤلِّف. [المترجم].

والنقّاد لعادات البحث المعروفة، ويتركون مساحات واسعة من ممارساتهم من دون فحص[61]. هذه هي الروح التي دخلت فيها مسألة «المنهج» في السرد الذي قدَّمه.

كان سعيد قد كتب الكثير عند هذه النقطة بلهجة تملأها الحدَّة عن الطريقة التي ألحق بها رينان - الذي جعله كتاب «الاستشراق» شرّير القصَّة - نفسَه مجازيّا بعمل كوڤييه، حيث كان الساميّون واللغات الساميَّة مجرَّد حكايات «مبتكرة في المختبر الفيلولوجي»[62]. ففي نظر رينان كانت العلوم كاشفة؛ بالمعنى الديني، «تقول للإنسان بلهجة قطعية الكلمةَ المنزلةَ عن الأشياء»، كأن للأشياء لغة لا يقرأها إلا العلم. هذه الموتيفات التصنيفية المستعارة من العلوم الطبيعية أنتجت ما دعاه سعيد باحتقار «تشريحا فلسفيّا» philosophical anatomy[63]، فبقدر ما حطَّت النظرية من قيمة البشر فإنه عدَّها «هجوما على الفكر نفسه»[64].

وبينما عمل على تشجيع صديقه سامي، وهو فنّيٌّ يعمل في تشكيل الصور الحاسوبية، على قراءة المزيد من الروايات، فإنه عدَّ رأي چومسكي القائل إن العلوم الإنسانية «تفتقر إلى ما في العلوم الطبيعية من المحتوى الفكري» بأنه رأي ساذج[65]. وقد استقصت مقالته المخصصة لريمون شواب المنشورة في الكتاب هذه المنازلة المنهجية بين الإنسانيّات والعلوم. الإنسانيّات تتَّسم بالنَّهم الفكري الذي يحرِّرها مما يقال عن التقشُّف العلمي المزعوم. فقد جسَّد شواب مواهب العالِم القادرة على استخراج عدد لا يحصى من التفاصيل «بدقَّة مذهلة» في حين أنه يعطينا ما لا يستطيع العالِم أكثر من الحلم به؛ يعطينا «رومانس الأفكار» ضمن «دراما ثقافية هائلة».

لقد مثَّل شواب على نحو رائع الوعي الكريم الذي يتَّصف به المشتغل بالإنسانيّات، فمزج المعرفة الواسعة بالحركة الحرَّة القادرة على ربط الأشياء بعضها ببعضها الآخر التي كان ڤيكو قد دعاها ingenium؛ أي «ربط الأشياء المبعثرة المختلفة لتصبح شيئا واحدا»[66]. هذا النمط العام الذي يتعمَّد التنقُّل بين الحقول المعرفية للتعامل مع المسائل اتّبعه كتاب «العالِم والنصّ والناقد» لأنه يحتوي على مزايا تجعله يتفوَّق على مَيْل العلوم البحتة إلى التركيز على أجزاء منفصلة من الطبيعة من دون النظر إلى الكلّ المجتمعي أو زوايا النظر الفردية الملوَّثة، معتقدا أنه قادر بهذه الطريقة على كشف أسرار الطبيعة. إن العقل المتنقِّل الذي كثيرا ما

يوصَم بأنه شكل من أشكال الهواية يسمح للناقد مع ذلك بأن يرى الصلات العامة التي يعجز الخبراء عن رؤيتها باستمرار.

***

تشكَّل كتاب «العالم والنصّ والناقد»، بوصفه كتابا وضعه مدرِّس، من كمٍّ من الملاحظات الخاصَّة بالمحاضرات. ولم يقف الأمر عند جمع المؤلِّف الغريب لأشخاص مختلفين، بل تجاوزه إلى حدِّ الحرص الشديد على تدوين التفاصيل الخاصة بحياة الكاتب والاقتباسات منه التي تبرز في هذه المدوَّنات، وفيها ينقل بخطِّ يده مقاطع طويلة، ويلصقها على صفحات ممتلئة بالخطوط والأشكال التي تتخلَّلها التعليقات والإضافات. أحيانا تبدو هذه الصفحات كأنها الصيغة الأولى من مقال، وفيها تكون الصفحة بيضاء في البداية، ثم ترسم الخطوط عليها باللون الأصفر، ثم يسطر عليها باللون الأبيض، ثم تنتزع من دفتر يجمع الأوراق معا بسلك معدني، مضافة إليها كتابات على ورق من أحد الفنادق. وكان أصدقاؤه يشكّون في كلامه عندما يدَّعي أن أفضل أفكاره تأتيه من التعليم، ولكن كلَّ من قرأ ملاحظاته المخصَّصة للتعليم في قاعة المحاضرات بين العامين 1964 و1984 يدرك أن تلك المقولة محتملة جدّا[67].

كتب سعيد على سبيل المثال مقالة بعنوان «تاريخ النظريات النقدية» History of Critical Theories في العام 1971، ولكن تلك المقالة لم تُنشر على الإطلاق. تتشكَّل المقالة من عشرات الصفحات المطبوعة أو المكتوبة بخطّ اليد عن شلي Shelley وأفلاطون وقوانين التفسير القروسطية، ولكن هذه الصفحات كلها تحلُّ محلَّها دراسة مطوَّلة عن «فيدرس» Phaedrus لأفلاطون حيث يستثيره أنموذج الفيلسوف الذي يجسِّد الفضيلة الفلسفية. فبدلا من أن يكتب «لتزجية الوقت»، فكّر سعيد بالانغماس «في فنّ الديالكتيك أي الجدل، فالمجادل يختار روحا من النوع الصحيح». وبعد صفحات من هذه الاقتباسات يكتب ملاحظة موجَّهة إليه هو نفسه: حوار «فيدرس» سيتناول لغة «تستدعي العقل لأنها عقلية، وتستغرق بعض الوقت، وهي متعدِّدة المعاني، وليست أُحادِيَّتها»[68].

لم يأتِ ذلك الاقتباس كيفما اتَّفق، ففي أوائل السبعينيات فسَّر سعيد السبب وراء اختياره لمجموعة الكتب التي اختارها لكي يقرأها طلبته بقوله إنها تضمُّ كُتّابا

«يعارضون فكرة الجدل بمعنى أن الجدل كما استعمله هيغل مهَّد الطريق إلى تعالٍ نهائي أو إلى التوصُّل إلى حلّ (أو إلى الاثنين معا)»[69]. ونكتشف أن هيغل لم يكن مؤمنا في الواقع بأن الفكر يمكن إيقافه في طريقه بهذا الشكل، أو أنه يصل إلى مستقرِّه حيث ينتهي العالم بعد أن يتحرَّر من كلِّ العداوات بين الذات والآخر، بين الوعي والأشياء. ولكن لا شكَّ في أن الفلاسفة الفرنسيين النيتشويين عزوا هذه الفكرة لهيغل وأن سعيد الذي لم يقرأ الكثير من كتابات هيغل شاركهم الرأي[70]. وفي حديث مع الروائي والناشط السياسي طارق علي تساءل سعيد مازحا: «هل قرأت أيّا من كتب هيغل فعلا؟ لا تكذب عليّ»، كأن ذلك شيءٌ لا يفعله إلا شخص يحبُّ أن يعذِّب نفسه[71].

هذا الصراع بين الوصول إلى قرار «وترك العقل ليمارس وظيفته» كان يكمن خلف خطَّته الأصلية لجعل الفصل المخصَّص لغرامشي ولوكاتش واسطة العقد في كتاب «العالم والنصّ والناقد»، فوضع التركيز على التاريخ والزمن في جانب لوكاتش في مقابل الاهتمام بالجغرافيا في جانب غرامشي، على رغم أن الاختلاف بالشكل الذي وضعه سعيد لم يكن مسألة إما/أو[72]. كان قد سأل أحد أصدقائه: «هل قرأت مقالة پَري أندرسن عن مكوِّنات الثقافة الوطنية؟ كنت أسعى إلى تطوير بعض الأفكار بالاستناد إليه». كان أندرسن، وهو مؤرِّخ بريطاني ماركسي النزعة، قد تناول في مقالته الآثارَ القاتلةَ التي تتركها موجة المحافظين فكريّا الذين قدموا إلى المملكة المتَّحدة بعد الحرب العالمية الثانية (ومنهم كارل پُپَر Karl Popper، ولويس نَيمير Louis Namier، ولوتڤج ڤتغنشتاين Wittgenstein) على الثقافة البريطانية. وكان يبدو أن سعيد يريد أن يقول إن المفكِّرَيْن اللذين ظهرا في فترة ما بين الحربين قدَّما تصحيحا لمسار الحياة الفكرية الأمريكية ذات الطبيعة غير السياسية، وهو المسار الذي دعمه المهاجرون اليمينيّون المؤيِّدون للنظام القائم (ومنهم إدْوَرْد لُتواك Edward Luttwak، وهنري كسنجر Henry Kissinger، وآين راند Ayn Rand).

ظلَّ سعيد يشعر بالإحباط بعض الوقت لأن لوكاتش لم يكن معروفا بما فيه الكفاية في العالم العربي، ولأن كتابه الفذّ «التاريخ والوعي الطبقي» History and Class Consciousness (1923)، وهو واحد من أوسع الأعمال الفلسفية تأثيرا في القرن العشرين لم يحظَ بترجمة عربية. وعلى وجه العموم، لم يكن حتى أولئك

المفكِّرون في العالم الثالث الذين كانوا على معرفة بمدرسة فرانكفُرت من أمثال هربرت ماركوزه Herbert Marcuse أو المنظِّر المناهض للاستعمار فرانتْس فانُو إلا أقلَّ القليل عمّا يَدين به كلٌّ منهما للوكاتش، وهو الشخص الأهمّ فيما دعاه ميرلوبونتي MerleauPonty بـ «الماركسية الغربية»[73].

عندما طلبت جريدة «نيو سْتَيتْسْمَن» New Statesman منه أن يشارك في العمود الذي خصَّصته لـ «التأثيرات» Influences، شدَّد على مركزيَّة كلٍّ من لوكاتش وغرامشي في تفكيره[74]. وفي القائمة القصيرة للكتب التي ذكر أنها كانت ذات أثر كبير فيه ذكر كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» وكتاب «دفاتر السجن» Prison Notebooks لغرامشي، وكتاب ماركس وإنغلز «الآيديولوجيا الألمانية» The German Ideology، وفي مجال الأفلام السينمائية اختار فِلم غيلو پونتيكورڤو Gillo Pontecorvo «معركة الجزائر» The Battle of Algiers وفِلم بوب رافِلْسن Bob Rafelson «خمس قطع سهلة» Five Easy Pieces، وفي الموسيقى اختار الفصل الثالث من أوپرا سيغفريد Siegfried Act III لڤاغنر Wagner، وتنويعات غولدبيرغ Goldberg Variations لباخ Bach، ولولو Lulu لبيرغ Berg، ومجموعة الأغاني المسمّاة «إلى الحبيب البعيد» An die ferne Geliebte لبيتهوڤن. ومما يثير التساؤل أنه لا يشير إلى سْوِفْتْ أو أورباخ أو ڤيكو، ولا إلى كونراد باستثناء رواية واحدة هي نوسترومو Nostromo لكن ذلك لا يعني أن هؤلاء لم يعودوا يهمّونه؛ كلُّ ما في الأمر أن جراح العقد السابق جعلته يفضِّل أصحاب المواصفات التي لا تلين عندما أصبحت القضية قضية مقارعة النظم الفلسفية.

يمكن القول إن ما فعلته مقالة «عن الوعي النقدي: غرامشي ولوكاتش» On Critical Consciousness: Gramsci and Lukacs هو أنها أحيت ما دعاه في فترة لاحقة من حياته «التراث المادّي الإيطالي الممتدّ من لوكريشيوس» Lucretius حتّى غرامشي ولامپيدوزا Lampedusa، ووصْفه له بأنه تراث مهمّ يصحِّح تراث الفلسفة المثالية الألماني الذي خلَّفه هيغل[75]. فقد قال إن النظم الفلسفية الكبرى – بما فيها النظرية الفرنسية – تركت أثرا أشبه بأثر الأديان فيما تأتي به من قوانين النظام ومحاولتها «فرض الطاعة وكسب الأتباع»[76]. وقد عنْوَنَ الفصل الأخير من كتاب «العالم والنصّ والناقد» النقد الديني Religious Criticism موازنا بذلك

عنوان المقدِّمة «النقد الدنيوي» Secular Criticism. وتساءل عن السبب الذي جعل اتّجاها في النقد الأكاديمي ينشأ ولا يستطيع التحدُّث إلا عما يستحيل التفكير فيه، ويستحيل اتِّخاذ القرارات بشأنه، وعن المفارقة، في زمنٍ أخذ ريغن فيه يقوِّض السياسة الأمريكية[77].

كانت العلائم الخفية للحافز الديني موجودة في كلِّ مكان، من القراءات الكابالية Kabbalistic (*) للتفكيك، إلى استثمارات فرانك كِرْمود Frank Kermode الأخروية في الدراسات الكتابية بوصفها أنموذجا للنقد الأدبي[78]. كانت أماكن عرض الكتب في المؤتمرات الأكاديمية ممتلئة بعناوين مثل «تكوين السِّرِّيَّة» The Genesis of Secrecy(**)، و«الكابالا والنقد» Kabbalah and Criticism، و«العنف والمقدس» Violence and the Scared، ولا شكَّ في أن الماضي قدَّم لنا نماذج أفضل مثل كتاب «الأورغانون الجديد»(1620) New Organon لفْرانْسِس بَيكن Francis Bacon الذي شنَّ حربا على «أصنام الكهف والقبيلة والسوق التي تشكِّل معا الأصنام الاجتماعية»، أي على الأهواء المضلِّلة التي توجِّه المنتمين إلى أعضاء الدائرة نفسها من المفكِّرين والأنماط الثقافية الموروثة، والحرص على الكسب[79]. كان ما كتبه في ذلك المجلَّد أشدَّ حماسا من المعتاد، وذلك في جانبٍ منه لأن المفكِّرَيْن الرئيسين في الكتاب عكسا الجانبين المتعارضين في شخصيَّته. فبقدر ما يتعلَّق الأمر بلوكاتش، كانت الصفات الغالبة هي المواجهة، والشوق، والشعور بضياع التعالي؛ أما غرامشي فكان يتَّصف بالخيال الجغرافي واستبعاد أيِّ شيء خبيث من الدخول في الوعي الذاتي. كان لوكاتش يهيم في المياه الفلسفية العميقة، أما غرامشي، الجندي المضحّي والمنظِّم، فقد وجد ما يلهمه في شخصية مكياڤلي بعد تعديلها وإضفاء صفاتٍ ألصق بالإنسانية عليها[80].

ربما كان على خلاف مع النظرية الأكاديمية، ولكنه ظلَّ يحتلّ مكانه مع أبطال مسرحها اللامعين، بمن فيهم جوليا كرستيڤا، ولوي ألتوسير Louis Althusser، ولاكان، وبارت، وفوكو[81]. وعلى رغم حدّته في الجدال أحيانا فإنه خفَّف في العادة من الحدَّة التي كانت تشتعل في داخله، فعندما طلبت منه جين ستاين Jean Stein،

(*) نسبة إلى الكابالا (أو القَبالة)، وهي فلسفة دينية سرّية. [المترجم].

(**) نسبة إلى «سِفر التكوين» Book of Genesis؛ الجزء الأول من التوراة، والذي يتناول قصة الخَلْق. [المحرر].

محرِّرة مجلَّة «غراند ستريت» Grand Street، على سبيل المثال أن يكتب مراجعة لكتاب من تأليف جان بودريار Jean Baudrillard، ذلك المشاكس الشهير من أعلام ما بعد الحداثة، فإنه كشف عن احتقاره له: «اسمعي، لقد انتهيت من قراءة هذا العمل من أعمال بودريار... من الصعب القول إن لديه كثيرا من الأفكار، ليس أيٌّ منها فكرة بالمعنى الصحيح، إنها كلها أقرب إلى التجشُّؤات التي لا تنتهي، سيكون نشر هذه المقالة مضرّا به إلا إذا كنت ترغبين في وضعها في المجلَّة على أنها مثال على الإشباع الذي انحدر له الفكر الفرنسي أو ارتفع اعتمادا على وجهة نظرك»(82).

كذلك لم يكن مستعدّا لتغيير رأيه في جوليا كرستيڤا، المهاجرة البلغارية إلى فرنسا، التي عُدَّت رمزا من رموز اليسار الثقافي. ففي كلمة التأبين التي كتبها بمناسبة وفاة رَيْمُنْد وِلْيَمْز Raymond Williams في مجلَّة «ذا نيشن» The Nation في العام 1988 أعاد إلى الذاكرة تسجيل البرنامج التلفزيوني الذي أنتجته محطّة الـ BBC في لندن عندما التقى وِلْيَمْز للمرَّة الأولى. كان المنظِّمون قد عبَّروا عن رغبتهم في تحقيق التوازن وفقما قال، ولذلك فإنه هو ووِلْيَمْز كان المقصود من وجودهما هو أن يمثِّلا اليسار، وأن يمثِّل دَيڤِد كوت David Caute الوسط، وأن يتشكَّل اليمين من كرستيڤا (إلى جانب روجَر سْكروتن Roger Scruton، الفيلسوف الرجعي غريب الأطوار)(83). انتهت مجلَّة The Nation إلى حذف المقاطع الخاصَّة بكرستيڤا لتركيز الفكرة التي يقوم عليها العمود فيما قيل، فقد كان قد اشتكى فيه من أنها ظلَّت تقاطع النقاش «بلهجة ادِّعاءٍ قُصِد منها أن تُعلي من شأن عباراتها المتكرِّرة الرثَّة»(84).

يمكن القول إن كتاب «العالم والنصّ والناقد» أطلق أقصى ما في سخريته من قوَّة، فقد انسابت من صفحاته عبارات مثل: «فصل المقال في عالم النظرية الذي خرج ساخنا للتوّ من أتون المطبعة»؛ «مجموعة من التلاميذ والميتافيزيقيين المتشدِّدين»؛ «عبارات ما بعد الحداثة التي تحطِّم الفكَّيْن برطانتها التي تملأ المشهد الراهن»(85). وعلى رغم أنه احتفظ بصفته كاتبا بأشدِّ درجات غضبه ليصبَّها على خبراء الشرق الأوسط فإنه استعار لغة تلك التهجُّمات من تعنيفاته للعالم الأكاديمي، إذ لم يجد في المقابَلات التي أجريت معه من وسيلة للردِّ أفضل من الردِّ على مراسِلة الـ «نيويورك تايمز» جودث مِلَر Judith Miller (التي انتقلت فيما بعد للعمل في محطَّة «فوكس

نيوز») بقوله إنها «تحتقر الحقائق احتقارا يليق بأشد التفكيكيين ابتعادا عن العالم الملموس»[86]. وقد كانت أحد ألدِّ أعدائه في عقد الثمانينيات صحافية حرَّة(*) اسمها جون پيترز Joan Peters قد كرّرت المقولة الصهيونية القديمة القائلة إن الشعب الفلسطيني ليس سوى بدعة، ولذلك فإنه لا سند لمطالبته بالأرض. وقد تلقّى كتابها الرائج «من زمنٍ سحيق» From Time Immemorial (1984) المديح من الصحف الأمريكية، ولكنه قوبل بالسخرية في كلِّ مكان تقريبا (حتى في إسرائيل) بسبب ما فيه من بحث بلغ من ضعفه أنه وصف بـ «المضحك»، وبأنه «تزييف». أما ردُّ سعيد الحارق عليه فقد جاء تحت عنوان يناسبه تماما هو «مؤامرة المديح» Conspiracy of Praise، وشدَّد على ضرورة «الحقائق»، وكيف يجري التوصُّل إليها، وما الذي يجعلها مهمَّة، وكيف أساءت الكاتبة استخدامها[87].

ولم يسلم الأكاديميون الماركسيّون من النقد هم أيضا، فقد وجد سعيد العرض الوديع لما بعد الحداثة في كتاب فْرِدْرِك جيمسن Fredric Jameson عن وِنْدَم لويس Wyndham Lewis «إزعاجا شديدا»[88]. واشتكى من أن الأفكار النظرية المألوفة جرى تقديمها في كتاب جيمسن كأنها حقائق لا جدال فيها. وقبل ذلك بسنة أرسل رسالة لجيمسن عبَّر فيها عن بَرَمِهِ بماركسيَّته النصّيَّة الخالصة: «أتمنى عليك أن تكون أنشط في السياسة، ولكنك قد تكون كذلك من دون أن أعلم. هناك الكثير مما يمكن عمله»[89]. وكان من رأيه أن نظرة جيمسن إلى العالم كانت في جوهرها نظرة حنين إلى الماضي، وأن عمله يذكِّر باللاهوت المدرسي لتوماس الإقويني الذي يتصرَّف كأنه افتقد شيئا في التاريخ ما يفتأ يبحث عنه في «التاريخ» History بحرف H كبير(**)[90].

كان يعلم أنه خيَّب ظنَّ بعض أساتذته القدماء من أمثال ج. هِلِس مِلَر J. Hillis Miller الذي فتح له كلَّ تلك الأبواب في السابق، والذي وجد أن كتاب «العالم والنصّ والناقد» قد ابتعد عن جادَّة الصواب عندما أقام علاقة بين النظرية الأكاديمية والثقافة الريغنية[91]. غير أن سعيد ضاعف تشدُّده وكتب لأحد الناشرين

(*) أي غير مرتبطة بدائرة أو شركة. [المترجم].

(**) التمييز في النص مصدره الفرق في كتابة الكلمة: history في مقابل History. التهجئة الأولى تشير إلى التاريخ بوصفه ما جرى في الماضي، أما التهجئة الثانية فتشير إلى المفهوم الفلسفي للتاريخ. [المترجم].

أنه بينما كان لايزال معجبا بعقلية فوكو اللمّاحة فإنه يجده قد تحوَّل الآن من منافحٍ عن المظلومين إلى شخصية من شخصيّات النظام القائم، وأخذ يتبنى مواقف معاديةً لليسار حول أمورٍ مثل معارضي النظام السوفييتي من أمثال سولجنيتسن Solzhenitsyn ومعارضي النظام الكوبي[92].

أما فيما يتِّصل بدراسات ما بعد الاستعمار التي يفترض أنه كان مؤسسها، فإنه لم يعد يشارك في المناقشات الدائرة فيها ولم يعد يجاريها باستثناء تقريعه غير المباشر لأحد زعماء الحقل، وهو هومي بَبا Homi Bhabha، بسبب استهانته بفانُو أو بسبب شكواه من مأساة سياسة الهوية في مقالته المعنونة «سياسة المعرفة» The Politics of Knowledge[93] وعندما وجد أنه يواجه ضغوطا من الجانبين فإنه أبدى مقاومة بالاتِّجاهين. وبينما كان موقفه مما يُدعى بالطليعة vanguard موقفا نقديّا فإنه نصح الناشرين في الوقت نفسه برفض مخطوطات تقدَّم بها رجال ينتمون إلى مدرسة النقد الجديد أمثال و. ك. وِمْسَتْ W. K. Wimsatt لأنها ممتلئة «بتأمُّلات أشخاص في الأربعين أو الخمسين»[94]. وعندما قاومت الدوريّات التي تنشر مقالات في النظرية الأدبية فإنه تلقّى النقد من العاملين التقليديين في العلوم الإنسانية أيضا. فقد جمع سعيد كتابا من مقالات مختارة لإرك أورباخ وخطَّط لكتابة مقدِّمة للكتاب، غير أن عائلة أورباخ عارضت المشروع وأبدت رفضها القاطع لأن يرتبط اسم شخص على تلك الدرجة من «الالتزام السياسي» بـ «الإرث الذي خلَّفه أورباخ»[95].

اختار كتاب «بعد السماء الأخيرة» After the Last Sky، وهو الكتاب الآخر الوحيد الذي وضعه سعيد منفردا في عقد الثمانينيات، أن يبتعد عن هذه الصراعات، وتخلّى عن خوض حرب لا يمكن كسبها بأن غيَّر الموضوع[96]. وكان منجذبا دائما لفكرة مزج النص والصورة بوصفه نوعا فنِّيّا، كتب بإعجابٍ شديد عن تعاونِ جون بيرغر John Berger مع المصوِّر الألماني السويسري جين مور Jean Mohr في كتاب «طريقة أخرى للسرد» Another Way of Telling (1982)، وهو كتاب كتب سعيد مراجعة له بحماس شديد لمجلة The Nation في ديسمبر 1982. كان بيرغر، وهو مؤرِّخ للفنّ يختلف عن سواه، وكاتب رواية فاز بجائزة البُكَر Booker، يعيش في الريف الفرنسي. وقد أوصل هو مع مور النوعَ الفنِّيَّ في كتاب «الرجل

المحظوظ: قصة طبيب ريفي» A Fortunate Man: The Story of a Country Doctor (1967) وكتاب «الرجل السابع» A Seventh Man (1975) الذي يتناول العمّال المهاجرين الأوروبيين، إلى درجة عالية من الكمال فأوجد بذلك طرقا جديدة لملاحظة تلك الفئات المهمَّشة من المجتمع، التي تختلف في العادات والمعتقدات وتعاني الحرمان.

تُرافِق الصورَ المجرَّدةَ من الإضافات العاطفية التي التقطها مور بالأسود والأبيض للفلاحين، والفنّانين المهاجرين من أوروبا الشرقية، نصوصٌ كتبها بيرغر، وهي نصوص موحية، كثيرا ما تكون غامضة، وتقاوم أيَّ إغراء باستعمال الشعر أو المفارقة أو المعاني المزدوجة. وقد عالج نثر بيرغر، الذي كثيرا ما تناول فيه العمّالَ، موضوعاتِهِ بلغة قَصَد منها أن تكون أقرب ما يمكن للغة العادية. وقد أعجب سعيد بهذه الصفات، فدافع عنه ضدَّ التهمة القائلة إنه جادٌّ أكثر من اللازم ويسعى إلى عرض ميوله إلى البروليتاريا. ولكنه انتقده في الوقت نفسه. فبصفته شديد الملاحظة اكتفى بالسرد الأخّاذ. وما ينقصه وما أراد سعيد أن يُضاف هو «الإستطيقا الممزوجة بالأفعال»[97].

ومهما يكن من أمر فإن بيرغر ومور هما اللذان ألهما مشروعه في المقام الأوَّل، فضلا على تجربة سعيد مع الشكل الذي يضمُّ الصور والنصوص لتدريب عينيه على النظر إلى الحياة اليومية للفلسطينيين في الأراضي المحتلَّة[98]. وقد حافظ على رهافة إحساس أنموذجَيْهِ، ورفض استعمال الصور الرثائية التي تعتمد على صور الفقر لحشد المشاعر. وفي الحقيقة فإنه استبعد بعض الصور التي فضَّلها مور على غيرها عندما قرَّر استبعاد بعض الصور من الصيغة الأخيرة للكتاب بحجَّة أن «العنصر الإستطيقي فيها كان أكثر من المطلوب»[99].

كُتِبَ كتاب «بعد السماء الأخيرة» بسرعة، وكان أقلَّ كتبه خضوعا للتخطيط، فقد جاء استجابة سريعة لمؤتمر دولي عقدته الأمم المتَّحدة حضره سعيد في العام 1983 في قصر المؤتمرات في جنيف، حيث كان مور يعيش. وفي تلك الرحلة قدَّم بيرغر، وهو أحد أصدقاء إقبال أحمد، سعيد لمور، ثم سافر الاثنان لزيارة بيرغر في محلِّ سكناه في أوت ساڤوي كْونسي في المنطقة الشرقية الجبلية من فرنسا، قريبا من جنيڤ، حيث قضوا «عصرية» وأمسية طويلة وهم يأكلون ويتحدَّثون. وبما أن مؤتمر

الأمم المتَّحدة عُقِد لبحث عواقب الغزو الإسرائيلي للبنان، فإن المنظِّمين وافقوا على أن تعرض صور الفلسطينيين التي كان مور قد التقطها بينما كان يعمل في منظَّمة الصحّة العالمية والصليب الأحمر في بهو القصر بشرط أن تُحذف التعليقات التي تذكر أن الصور صور فلسطينيين.

وفي مطعمٍ بجوار بحيرة جنيف فيما بعد اتّفق كلٌّ من شفيق الحوت وسعيد ومور ونوبار هوفْسِبيان Nubar Hovsepian على مواجهة هذا القرار المجحف فولدت فكرة الكتاب. وبعد أشهر عديدة من التخطيط للكتاب التقى كلٌّ من سعيد ومور في نيويورك في العام 1985، وكان مور يحمل معه عدَّة مئات من الصور إلى شقَّة سعيد حيث قضيا فترة عمل طولها عشرة أيّام اتّفقا فيها على الصور المختارة. وقبل أن تغادرهما سيمون، زوجة مور، لشأن من شؤونها، جلست هي وسعيد لعزف قطعة موسيقية للبيانو كُتِبت ليعزفها شخصان معا[100].

لربما جاء الكتاب بالمصادفة، لكن مجيئه جلب معه درجات جديدة من المشاعر، ولم يقصد منه، باعتراف المؤلِّف، أن يكون كتابا «موضوعيّا»[101]. وبعد أن تلقّى دريدا نسخة عليها إهداء شخصي من سعيد، كتب معبِّرًا عن إعجابه بهذا «الكتاب الرائع»، مدركا توجّهه المضادّ إلى الجانب الإستطيقي: «نحسُّ في كلِّ سطر بأن الإيماءات السياسية والشعرية مترابطة معا في التحليل نفسه... نصُّك هذا يندمج بهذه الصور غير العاديَّة كأننا إزاء قصة رمزية لشعب يراجع مصيره، ذلك المصير الذي لا يسمح له بأن يتحوَّل إلى قصة رمزية بسبب عذابه الذي لا نهاية له»[102]. هذا الكتاب الذي يقع على النقيض من الوثيقة التسجيلية كان القصد منه أن يكون تعبيرا عن الشوق الذي يرافق الشتات. صورة الأم التي تكتب ملاحظة بينما تنظر إليها ابنتُها الضَّجِرة (ص37) تستجدي التفسير. تقدِّم هذه الصورة ما يقدِّمه الكتاب كلُّه: ليس شهادة تخلو من المشاعر، بل لقطة تعبر عن نفسية سعيد. لم يكن الهدف تثقيف القراء عن النواحي المجهولة من الحياة في الأراضي المحتلَّة بل تسجيل الشعور بالعجز لدى شخصٍ يسعى إلى التعبير عن المعاني الشخصية لأنه كان قد أُبْعِدَ جسديّا عنها.

يتحوَّل قلم الأمّ إذن بالطريقة التي وضعها سعيد إلى رمز للمقاومة ضدَّ تعقيدات القيود القانونية الإسرائيلية في الأراضي المحتلَّة كأن ما تكتبه هو ردٌّ على ما

كتبوه. فعلى رغم كلِّ ما يبديه الكتاب من رغبة في عدم تحويل المأساة الفلسطينية إلى تجربة إستطيقية فإن سعيد اعتمد على صوت التأمُّل والرومانس الذي نافس ما نجده في روايته غير المنشورة. ففي مثل عبارة «دوران زوبعة من الرؤى الألفية»، وعبارة «ما مدى ما نستطيع احتماله من اللؤم التافه؟» سمح لنفسه بأن يجرّب فنَّ الروائي. أما وقد ألهمته التجربة فإنه أخذ يعمل في أواخر العام 1986 وأوائل العام 1987 على مخطوطة رواية عن بيروت، مستغلا بعض اللحظات من عمله على فِلم «المنفيّون» Exiles الذي بثّته محطَّة الـ BBC للتلفزيون في 23 يونيو 1988[103]. ولم تمض سنة بعد ذلك حتى تخلّى عن الرواية لمصلحة المذكّرات، جاعلا هذه تُغْني عن تلك.

***

تلقّى سعيد بعد سنة من نشر كتاب «بعد السماء الأخيرة»، وبينما كان مشغولا بالرواية، خبرا مفاده أن صديقه العزيز غولد وقع فريسة المرض، فما كان منه إلا أن ترك كلَّ شيء وسافر بالطائرة إلى بوسطن ليراه على فراش الموت، وذلك قبل أن وافته المنية في 31 ديسمبر 1988 عن ثلاثة وخمسين عاما[104]. وهنا تحدَّث الصديقان ثانية حديثا مشبوب العاطفة عن آسيا وأفريقيا والفرق بين الشرق والغرب، وعن عشقهما المشترك للشعر[105]. كان غولد قد أكمل سلسلة من القصائد الجميلة بعنوان «قصائد كُتبت في فترة من المرض»(*)، ظهرت اثنتان منها في مجلة «ذا باريس ريفيو» The Paris Review ومجلة «ذا نيو ريبابليك». ولم يكن سعيد قادرا آنذاك على التنبُّؤ بأنه سيجد نفسه بعد سنوات قليلة وهو يتأمَّل في مرضه هو بعباراته الأدبية هو – في فنّ الرواية – قبل أن تضيع الذكريات إلى الأبد[106].

كان سعيد قبل ذلك بعدَّة أشهر قد وجد نفسه في مركز «اختراق» في الموضات الفلسطينية، وكانت الانتفاضة قد دفعته فذهب هو وشريكه في العمل أبو لغد إلى واشنطن بناء على دعوة من وزير الخارجية شُلْتْز Shultz إلى اجتماعٍ يعقد في 26 مارس 1988. كان اقتراحه المُغري بقبول فترة انتقالية طولها ثلاث سنوات تؤدّي إلى تنازل إسرائيل عن الأراضي المحتلَّة يكرِّر عناصر من تفاهمات كامب ديڤد

(*) Poems Written During a Period of Sickness.

في العام 1978 فيما هو يقدِّمها باعتبارها مبادرة من إدارة ريغن[107]. كانت الدعوة أقرب إلى التحدّي وتستدعي الترحيب في الوقت نفسه. فعلى رغم كون منظَّمة التحرير الفلسطينية الممثِّلَ الشرعيَّ الوحيد للشعب الفلسطيني - وهو موقف التزم به كلٌّ من سعيد وأبو لغد التزاما صريحا - فإن الاثنين اختيرا ليكونا رسولين لأنهما كانا مواطنين أمريكيين فضلا على كونهما فلسطينيين بارزين، ولم يكونا عضوين في منظَّمة التحرير. كانت تلك وسيلة شُلْتْز لتفادي الغضب الإسرائيلي[108]. لكن المبادرة لم تسفر عن شيء في نهاية المطاف. وقد سخر سعيد فيما بعد بقوله إن شُلْتْز تحدَّث عن كلِّ شيء باستثناء منظَّمة التحرير وتقرير المصير، وكان الموضوع الجانبي الرئيس كتاب «البدايات» لسعيد، فقد أعلن شُلْتْز أنه قرأه وأنه راغب في مناقشته[109].

هنا وفي أمكنة أخرى وجدت أنشطة سعيد السياسية أساسها في النقد الأدبي. فالقضايا التي شغلته في كتاب «العالم والنصّ والناقد» على سبيل المثال كانت ترفرف فوق طلب عرفات في العام 1988 (كما فعل في العام 1974) مساعدة سعيد في ترجمة مسوَّدة بيان من منظَّمة التحرير الفلسطينية التي كتبها درويش. وبينما كان سعيد يعمل على ترجمة البيان شعر بأن ذلك البيان يفضح جهل عرفات المطبق بما ينبغي أن يتضمنه بيان كذلك. فقد كان رئيس المنظَّمة قد حذف كلَّ ما ينبغي أن يُقال للمجتمع الدولي بعبارات أدخلها سعيد بعناية وأحلَّ محلَّها مواقفه العرجاء. ومما يلفت النظر أن سعيد، على رغم أنه المنظّر الأدبي فيما كان زعماء منظَّمة التحرير يمثلون المواقف السياسة الصلبة، وجد الحادثة كلّها مثيرة للأعصاب، وتدلُّ على أن المنظَّمة «تشعر بالحساسيات البلاغية التي تليق بأتباع ما بعد الحداثة»[110]. وقد علّق سعيد على الاجتماع الذي عقده المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في العام 1988 بقوله ساخرا إنه يشبه «مؤتمرا للنحويين» بسبب ذلك القدر من التدقيق في صياغة القرارات.

وهكذا نجد أن كتاب «العالم والنصّ والناقد» كان يسير عكس التيّار ليس داخل الجامعة فقط، بل خارجها أيضا. كذلك بدا بصفته كتابا كتبه مدرِّس ليستعمله مدرِّسون أنه يعود بشكلٍ من الأشكال إلى ثوابت عهد مضى. فالحركة المتَّصفة بالمفارقة، المتمثِّلة في العودة إلى شخصيات تقليدية من القرن الثامن عشر وفترة ما بين الحربين لخلق قوّة فكرية معارضة للتيار الراهن كانت ذات طبيعة تثير القلق

والاضطراب في زمن كان المتشدِّدون في اقتصاد الوفرة supply-side economics(*) منشغلين بتمزيق العادات الراسخة، وكان من دعوا أنفسهم ثوريّي النظرية الأدبية يعلنون القطيعة الكاملة مع الماضي. أما المتشكِّكون من جانبهم من داخل الدوائر النظرية فقد حاولوا تجاهل انتقاداته بالنظر إليها كأنها ليست سوى نزعة أدبية خفية، بل محافظة من ذلك النوع الذي يرتبط بعضوية النادي الإنكليزي. أما سعيد فلم يحاول طبعا إخفاء حقيقة أنه كتب ما كتب على طريقة صاحب الاختصاص الفرعي البريطاني الذي ينتمي إلى قسم اللغة الإنكليزية في فترة الخمسينيات والستّينيات من القرن العشرين. كان قد تجاوز الفترة التي كان يحاول فيها استثارة إعجاب «الحرس القديم»، ولذلك فإنه استشهد لتوضيح أفكاره عن كلِّ شيء؛ من باخ إلى الدبلوماسية الأمريكية وحرب البوير، باقتباسات من سامْيُوِل بَتلَر Samuel Butler، وهوپكنْز، وڤرجِنيا وولف، ووِلْيَم بَتلَر ييتْس W. B. Yeats، وهنري جيمز. وبدا أنه يطمئن قرّاءه بأن كلَّ شيء يبدو صعبا من الناحية السياسية أو النظرية في كتابه كان قد جرى التعبير عنه قبله في كتابات كتّابٍ عرفوهم وأحبّوهم.

هذا التوازن القلق بين الحفاظ على التراث وتحطيم الرموز كان واضحا أيضا في واجباته اليومية بصفته مشتغلا في مجال التربية والتعليم. كان سعيد منخرطا بشكل يثير الدهشة في الخدمات التي تقدِّمها الكلِّيَّة على جميع المستويات، فطبع ذلك تفكيره بخصوص الأمور العملية بطابعه. فحتى عندما كان يقدِّم حقولا جديدة في المجال المعرفي فإنه كان مشغولا أيضا في إدارة كلِّيَّة كولمبيا. فقد استغلَّ مكانته رسميّا على سبيل المثال في الموازنة بين الأدب الإنكليزي والأدب المقارن، وحكَّم المباريات الشعرية التي يشارك فيها طلبة المرحلة الجامعية الأولى، وعمل طويلا رئيسا للجنة تنظر في الصلاحيّات المنوطة بالكلِّيَّة، واختلف مع تْرِلنْغ في جدلٍ علني حول دور التعليم الثانوي في تحضير الطلبة للعمل الجامعي، وخطب أمام عميد الكلِّيَّة دعما لعلم المكتبات[111]. وقدَّم ردّا نقديّا على تقرير الهيئة العالمية الخاصَّة بالثقافة والتطوير (اليونسكو) بعنوان «تنوُّعنا الخلّاق» Our

(*) اقتصاد الوفرة نظرية اقتصادية كلية ترى أن النمو الاقتصادي يمكن تشجيعه والحفاظ عليه بتخفيض الضرائب وتخفيف القيود. وطبقا لهذه النظرية فإن المستهلكين يستفيدون من وفرة المعروض ورخص الأسعار وارتفاع مستوى التشغيل. [المترجم].

Creative Diversity اشتكى فيه من أن التقرير، على رغم كل النقاط الجيِّدة التي تضمَّنها، لم يذكر شيئا عن تشجيع الطلبة على التفكير المستقلّ. كذلك لام التقرير لأنه تجاهل الغرابة الأساسية في التعليم الجامعي بتركيزه على ضرورة الخضوع لسلطة التراث والانتظام والبحث العلمي في وجه الحداثة والقطيعة الكوبرنيكية للنظرية مع كلِّ ما جاء قبلها.

أما في قاعة التدريس فإن التركيز على الانضباط جعله شخصا مرهوب الجانب. قال عنه أحد مراسلي جريدة Columbia Daily Spectator «إنه يستجمع القوى الضرورية لإخراج الطلبة غير المرغوب فيهم من قاعات التدريس باستخدام القوَّة التي تحشدها تعابير وجهه الغاضبة»[112]. وكان أحيانا يقاطع الطلبة وهم يقرأون تقاريرهم الضعيفة أو سيِّئة الإعداد بأن يحني رأسه باتجاه المنضدة بينما تخرخش يده بالعملة المعدنية في جيبه. وكان في بعض الأحيان ينقذ الطالب في أثناء أدائه الهادئ لتقريره الفاشل بأن يسأل سؤالا يستخرج من الطالب ما كان قد فشل في قوله. وقد طلب من الطلّاب أن يقرأوا كلَّ كلمة في رواية «بحثا عن الزمن الضائع» A la recherche du temps perdu لپْروسْت Proust باللغة الفرنسية. أحيانا كان يلوم الطالب الذي يشكو من أن فيلسوفا ما عجز عن قول شيء ذي معنى، بقوله «لسنا هنا في معرض البحث العلمي ... ولا يقع ما تقول تحت عنوان التفكير النقدي». وكان يقول دائما (أحيانا على سبيل النكتة، وأحيانا بمنتهى الجدّيّة) إن مسألة التفسير مسألة بمنتهى الخطورة: «لا يمكننا تبذير الوقت القصير الذي يجمعنا في قاعة الدرس»[113]. وأجاب عندما سألته زميلة شابَّة وهي تعتصر يديها طلبا للتعاطف عمّا إذا كانت مؤهّلة بما يكفي للحصول على زمالة جامعية بقوله: «أهِّلي نفسك»[114].

ومع أن كثيرا من طلبته أصبحوا أساتذة فإنه لم يطمح إلى جعلهم كذلك. وقد كره فكرة أن يكون له مُريدون. وبما أنه لم يكن مهتمّا بصعود سلَّم المناصب الجامعية أو أن ينخرط في المنافسات بين أعضاء القسم، فإن رسالته كانت تقتصر على الكتابة والمشاركة في المناسبات العامَّة. ولذا كانت قاعة المحاضرات مهربا من كلِّ ذلك، ومكانا لتجربة الأفكار، مكانا يستدعي فيه الطلبة أو يخيفهم من أجل أن يختاروا بأنفسهم. وعلى غرار أساتذة آخرين في جامعة كولمبيا من الذين نشأوا قبل

أن تصل التكنولوجيا إلى ما وصلت إليه فيما بعد في الكلِّيَّة ذات الصبغة الراقية، فإنه كان يقول للطلبة: «نريد أن نعرف بِمَ تفكِّرون، وسنقسو عليكم»[115]. وهكذا كان التركيز على النصوص الأساسية - الطالب والنصّ في حوار - وليس على التلمذة في صنعة أو على المعدّات البحثية. كان سعيد حاضرا باستمرار بتعبير لُويز يَلِن Louise Yelin بلا رطانة، «بلا كلام فارغ»[116]. ومع ذلك فإنه كان «ممتعا... جادّا جدّا، شديد القرب من النصّ»، ليس حاضرا معنا لتسليتنا «حتى عندما يروي لنا نكتة»، كما يذكر ليون ويسِلْتير Leon Wieseltier[117].

كانت طريقته في متابعة النصّ فريدة من نوعها. كانت محاضراته تبدأ ببطءٍ شديد، وكثيرا ما أبدى بعض العصبية إلى أن «يسخن»: «كان في الإمكان رؤية العرق على جبينه إلى أن يجد نقطة البداية ويتمكَّن من التقاط أنفاسه ويندمج اندماجا تامّا في فنِّه القائم على مزج الدقَّة والارتجال» بتعبير تلميذه السابق صانع الأفلام رِكْ بيرْنْز Ric Burns[118]. وقد اعترف هو نفسه «باضطراب معدته وتعرُّق يديه، وهو شيء يرافقه قبل بدء الدرس وفي أثنائه»[119]. كان بعد الوصول إلى البيت متأخِّرا من رحلة قد تطول أربعة أيّام يصحو في الرابعة صباحا ليقرأ كتبا كان قد قرأها عشرات المرّات للتأكُّد من أنه سيدخل قاعة الصفّ على أتمّ الاستعداد.

كان ابنه وديع وابنته نجلا يتوقَّعان منه أن يترك التعليم خارج الباب، ولكنه على العكس من ذلك كان يقرأ ما كتبه كلٌّ منهما عن وظيفتيهما، حتى أولئك الكتّاب الذين لم يكونوا يروقون له (دستويڤسكي وبِكِت). كان طوال المدَّة التي قضياها في المدرسة يلاحقهما عن كلِّ جزئيَّةٍ من الجزئيّات، ويقرأ كل المقالات التي كتباها للمدرسة، ويكتب التعليقات على الحواشي، وكانت التعليقات تشجيعية في العادة، موجزة، وتميل إلى تجنُّب النقد («أنت رائع»). ولكنه جعلهما يشعران بأنه بشكل من الأشكال لم يكن يرخي لهما الحبل لأنه كان أبوهما وكان معجبا (ومندهشا قليلا) بما كان في مقدورهما عمله[120]. وعندما كانت مريم تتعلَّم اللغة العبرية في البيت في غمرة استعدادها للتقدُّم للعمل موظفة مكتبة في قسم دراسات الشرق الأوسط في كولمبيا، كان سعيد يظهر من حيث لا يُتَوقَّع بعد الانتهاء من كلّ درس ليمتحن معلِّمها ديڤد يروشَلْمي، وهو يهودي إيراني كان في تلك الفترة يدرُسُ في قسم لغات الشرق الأوسط وثقافاته. كان يسأل، مخاطبا

يروشَلْمي باستعمال صيغة محلِّيَّة من الاسم ديڤد: «طيِّب يا داود، أين وصلت مريم؟» مستعملا الصيغة المحلِّيّة من الاسم داود ليظهر أنه كان يعرف الفرق. ويجيب يروشَلْمي: «إنها جيِّدة جدّا»، فيجيب سعيد بلهجته الطفولية المعتادة: «أنا أستطيع الفراغ من هذا الكتاب في أسبوعين»[121].

أما طلبته في مرحلة الدراسات العليا فقد علَّمهم طريقة في عمل الأشياء هي في المقام الأوَّل طريقة متمهِّلة شمولية، ولكنها بالغة الجدِّيَّة عندما تصل إلى زبدة الموضوع. كان يعلِّم عن طريق الأفعال، وليس عن طريق وضع برنامج للعمل، ويُعِدُّ بذلك نفسه للمعرفة. فقد علَّم بعضهم مثل دَبُرا پول، المتخصِّصة في الأنثروبولوجيا ومساعدته السابقة، «أهمية الحماس في البحث العلمي، ودور التصميم الغاضب وأهميَّته»[122]. أما من حيث محتوى المعرفة فقد عرَّف الطلبة بأهمية الفيلولوجيا - ماذا تعنيه في الوقت الحاضر وما كانت عليه في تاريخها الطويل – وهي علم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا، ولكنه كان يتمتَّع، كما قال مايكل وود Micheal Wood، بموهبة التعلُّم منهم أيضا، كما اعترف لحشد حضر مؤتمرا عن «النقد الأدبي والثقافي في العالم الثالث»(*) عقد في العام 1987 في جامعة ديوك.

لم يغامر سعيد بالخروج من دائرة الأدب الغربي إلّا في أواسط الثمانينيات تحت ضغط طلّابه الذين حثّوه على قراءة چنوا أچيبي Chinua Achebe، وأيي كْوي أرماه Ayi Kwei Armah، وآسيا جبار Asia Djebar وغيرهم من عالم الجنوب. وكان ابنه وديع مهمّا أيضا، إذ إنه عرَّف أباه بالباحثين الشباب الذين كان سعيد يجهلهم، وهذا ما أدّى فيما بعد إلى تحالفات، ولفت نظره إلى الروائيين المعاصرين الذين منعه اهتمامه بالقضايا الفلسطينية من قراءتهم[123]. كان الاستثناء هو فِلِپ رُث Philip Roth الذي كان سعيد يراسله، وكان يرى أن روايته بعنوان «الرعوية الأمريكية» (1997) American Pastoral التي تعالج علاقة أبٍ بابنته المنشغلة بالسياسة، هي أفضل رواية قرأها على مدى عقد كامل. وكان بطبيعة الحال قد عمل لبعض الوقت لدعم الرواية والشعر العربيَّين (كان مطَّلعا على أعمال الروائي السوداني الطيب صالح منذ العام 1976 على الأقلّ. وكان قد قال بلهجة عابرة لإنغل

(*) Third World Literary and Cultural Criticism.

في شهر نوفمبر من العام 1972 إنه تعرَّف على روائيٍّ «متميِّز حقّا اسمه محفوظ») ولكن الفراغات التي ملأت قراءاته من كتابات جنوب آسيا وأمريكا اللاتينية كانت واضحة بحلول الثمانينيات، ولم يعد ذلك مقبولا لديه[124].

اشتكى فيما بعد، في العام 1990، في جامعة كِنت من أن كثيرا من هذه الأعمال أخذت تُستعمَل في غمرة الحماس الديمقراطي لضمِّها إلى ما يجب الاطِّلاع عليه من دون التفاتٍ كافٍ إلى ما يستحق الاهتمام فيها من أمور فكرية وإستطيقية. قليلة هي الأعمال القريبة إلى قلبه مما أنتجه العالم الثالث من غير العرب، باستثناء روايات غابرييل غارسيا ماركِس وشِعْر كونستانتين كاڤافي Constantine Cavafy وقد كان كتاب «الثقافة والإمبريالية» في طور التخطيط مع حلول العام 1987، وتطلَّب العمل عليه قراءة قائمة طويلة من أدب العالم الثالث، وهو ما فعله بمساعدة طلّابه.

مضى كثير منهم للانشغال بأمور أخرى، ولكنه أظهر معهم جميعا مزيجا من الشدَّة وحدَّة المزاج والوفاء والاستعداد للمساعدة[125]. ففي رسائله لطلبته خلَّف صراحة وحشية في أثناء تصحيح كتاباتهم. فقد كتب لطالب من الطلبة الذين كان يشرف عليهم: «إطالة لا تُحتَمَل». مبالغة «مفاهيم فارغة مثل: تركيبي والفضاء العقلي». كتابتك مغرقة في «إرضاء الذات، وفي الخصوصية، وبعيدة عن الانتماء إلى موقف معيَّن لتكون جيِّدة»[126]. لم تكن تعليقاته كلُّها توبيخا. فقد ترك لدى طلبته الانطباع بأنهم ليسوا أقلَّ من الكتّاب الذين قرأوهم في المادَّة التي درسوها معه. كانت السمعة التي اكتسبها في وقتٍ مبكِّرٍ من سيرته العملية من بين النخبة من العاملين في مهنته، والعدد الكبير من العروض التي تلقّاها من الجامعات الأخرى، تستند إلى الشعور الشائع بأنه كان أفضل مدرِّسٍ عرفوه[127]. وقد أضاف بِرْنز: «أن تكون معه أشبه بأن تكون مع صديق لعوب، يكون تارة شديد الالتزام بما يقول ويقرأ، شديد الاستغراق في ذاته، لكنه ينفجر فجأة ويمتعك بحسِّ النكتة، وينقلب فجأة ليصبح شديد الغضب، أو صديقا يصعب إرضاؤه؛ صديقا صعب المراس. هو في الوقت نفسه أفضل أصدقائك». «يمكنه أن يسيِّرك في دوّامة، ولكنه يبدي حرصا شديدا عليك»[128]. في دقيقة من الدقائق تكون في حِماه بحيث تبدو كأنك كلُّ ما يهمُّه، أما إذا ما شرد ذهنه إلى عالم آخر فإنك تشعر بأنك في ما دعاه أحد الزملاء طور الاختفاء[129].

9

بضع أفكار بسيطة

الفكر يقول «لا»... وهو يقول «لا» لنفسه.

ألان[1]

كان مصير المفكِّرين المعروفين لعامة الناس في الولايات المتَّحدة، بما تملكه من حلول تكنولوجية مثالية ورطانة جديدة مُحكَمة، أضعف من مصير أمثالهم في أوروبا باستمرار. وكانت صورة أمريكا التي جرى إعدادها على يد خبراء واشنطن أو بين المحاربين الثقافيين من أمثال ألَنْ بْلوم Allan Bloom وروجر كِمْبول Roger Kimball تحتلُّ المساحة التي يطمح لها الجميع في وسائل الإعلام. وعلى رغم أن البلاد كان فيها مفكِّرون معروفون لعامة الناس

عندما نأتي إلى أفكار سعيد «القليلة البسيطة» نجد أن براعته النقدية لم تلق ما تستحقُّه من تقدير لا من أصحاب النظريات الأدبية ولا من الصحافيين

– هم في العادة كبار المذيعين أو كتّاب الافتتاحيات في الصحف، فإنهم ندر أن كانوا فلاسفة، أو فنّانين تجريبيّين، أو معارِضين. ولم تنشأ ضرورة لسجن أمثال هازْلِت Hazlitts ووُلْستُنكْرافْت Wollstonecraft في العالم الجديد. كلُّ ما هنالك أنهم لم يكونوا يُعطَوْن وقتا لمخاطبة الجماهير بحجَّة أن الديموقراطية تقتضي الانحدار إلى القاسم المشترك الأدنى. ولما كان سعيد أقرب شخصية أمريكية لشخصية سارتر فإنه بذل جهوده منذ البداية ليكتشف القرّاء العامّين خارج الجامعة. ولكن ذلك السعي في الثمانينيات كان قد غدا مسألة بقاء. وإذا ما عجز عن إيجاد طريقة للمضيِّ في طريق النجاح في مواجهة المعارضة المتجدِّدة في عالم وسائل الإعلام في نيويورك، فإنه لن يكون سوى حاشية أخرى في مجلَّة أكاديمية.

كان سعيد على وعي ببعض هذه الصعوبات عندما قارن أسلوبه الفكري بأسلوب الفيلسوف الاجتماعي الألماني الكبير يورغن هابرماس Jürgen Habermas – وهو مثله ينتمي إلى اليسار، ولكنه، خلافا له، عضوٌ من الجيل الثالث من أعضاء مدرسة فْرانكْفُرت. فقد اشتكى سعيد من أن المناقشات ذات الأهمية البالغة التي أجراها المفكِّر الألماني بشأن مسائل مثل «الحقل العام» و«خطابات الحداثة» كانت تخلو من المركز الأخلاقي ومن الأساس العاطفي على رغم أنها مناقشات واسعة المعرفة وتتَّصف بالضرورة الملحَّة. فمن وجهة نظره، كانت تلك المناقشات لا تزيد على كونها «كلاما فارغا»[2]، أما سيرته العلمية هو نفسه – فقد قال إنها غُزِلت من عدد قليل من الأفكار البسيطة، ومن «شكلٍ لا يخضع للقيود من أشكال المضيِّ قُدُما»[3].

كان الشكل غير الخاضع للقيود لأفكاره تلك مناسبا لطريقته في العمل. فقد كان لا يهدأ ولا يملُّ من العمل، وكانت أيّامه تميل إلى الخلف وإلى الأمام من دون انتظام. كان يصحو في الخامسة أو الخامسة والنصف صباحا، ثم يعمل على مدى ساعة أو أكثر قليلا، ثم ينتقل من مكتبه إلى المطبخ ويحضِّر كأسين مزدوجتين من القهوة له ولمريم، ثم يحضِّر المائدة للإفطار: فطيرة إنكليزية مع مربّى البرتقال يغرفه من العينات التي احتفظ بها من الفنادق والطائرات، أو قد يستعمل اللبنة والزعتر على رغيف مستدير، مع عصير البرتقال الطازج المحضَّر بواسطة عصّارة اشتراها من محلٍّ لهذا النوع من الأجهزة من إحدى المناطق الراقية[4]. بعد ذلك كان يشاهد

التلفزيون في الصباح – برامج الأخبار – ثم يحضر إفطارا متعدِّد المكوِّنات لمريم (وهو ما وصفته ابنته نجلا بأنه «ظريف»)، وبعد ذلك يقرأ الجريدة «من الجلدة إلى الجلدة». ثم يخصِّص ساعة أو ساعتين للكتابة، ومن ثم ينتقل إلى التمارين – تتضمّن في العادة السباحة في بركة السباحة الموجودة في الحرم الجامعي، أو في لعبة السكواش أو التنس. يتبع ذلك جزء مخصَّص للكتابة إلى أن يهدأ فكره بالمشي بمحاذاة رِڤَرْسايْد پارْك. وكان كثير من لقاءاته بزملائه وطلبته يحصل في هذا التجوال حول مورنِنْغ سايْد هايْتْس. لم يكن سعيد من أولئك الذين يعملون أربع عشرة ساعة يوميّا مُسَمَّرين إلى جانب المنضدة.

وعلى رغم ما قد يبدو من تمهّل في هذا الروتين فإن كمية المراسلات التي كان عليه أن ينتهي منها يوميّا لا تعطي سوى إِشارة سريعة عن مدى انشغاله في زحمة الأعمال. ففي يوم واحد كانت هنالك طلبات لإجراء مقابلات مع جريدة نِكَيْ Nikkei المخصَّصة للأعمال، والإذاعة المسمّاة KPSB في مدينة سانتا بارْبَرَه. وكتبت له كاترينا ڤاندن هوڤل Katrina vanden Heuvel محرِّرة مجلَّة ذا نيشن The Nation لتؤكِّد له أن تغطية المجلَّة لحرب العراق لم تكن على تلك الدرجة من السوء الذي بدت عليه، وطلبت منه أن يعطيها أسماء الكتّاب الذين قد تكلِّفهم المجلَّة بالكتابة عن الموضوع. ودعته مؤسَّسة الأمل Hope Foundation إلى المشاركة في برنامجهم التلفزيوني الطويل. وأرسلت له محطة التلفزيون الخامسة TV5 الباريسية تفاصيل رحلته لتناول الغداء بعد عرض البرنامج الوثائقي عن حياته الذي عرضته قناة الجزيرة. وطلب منه المنظِّمون في سول(*) أن يلقي كلمة في مؤتمرهم الحادي عشر المخصَّص لمكافحة الفساد. وأرسل له عدد من المؤلِّفين الذين كانوا يعبِّرون عن إعجابهم به كتبَهم برجاء دعمه لها. وكانت هنالك – أخيرا – قائمة تتضمَّن «درِّينة» من الأعمال المتعلّقة بالتحرير والأمور البنكية. كان ذلك الروتين يتكرَّر كلَّ يوم ولا يتغيَّر فيه سوى أسماء طالبي ردِّه عليهم: اليونسكو، جوائز خليل جبران للروح الإنسانية Kahlil Gibran Spirit of Humanity awards، كونسرڤاتوار دمشق للموسيقى the

(*) عاصمة كوريا الجنوبية. [المترجم].

Damascus music conservatoire، وول سْتريت جيرنال، جريدة لا مونْد دپلوماتيك Le Monde Diplomatique، راديو البوسنة، التلفزيون الأيرلندي، شركة أخبار جنوب أفريقيا، مجلَّة برازيلية: كلُّهم كانوا يطلبون مساهمته أو مقابلته، أو كلمة أو اثنتين استجابة لما أرادوه منه.

لا عجب إذن إذا ما اضطُرَّ إلى حصر اهتمامه في آلة البيانو بفترات متقطِّعة من عشرين دقيقة كلَّما أراد أن يمارس العزف. كذلك كانت المكالمات الهاتفية تعترض هدوء المكتب صباحا ومساء، والكثير منها حول أمور العمل، ولا تحتاج إلى كثير من الوقت، بينما لا يقصد من بعضها الآخر أكثر من الكلام الودّي، أو ترتيب لقاء على الغداء في مقهى اللوكسمبيرغ[5]. كان يتَّصل بأصدقائه المقرَّبين في ساعات الصباح الباكر ويدَّعي أنه مندهش لأنهم لم يكونوا قد استيقظوا بعد، ويوبِّخهم بسبب الكسل. وكان من بين أصدقائه المفضَّلين ذلك المتخصِّص بالأسلوبية Stylistics ليو شْپِتْسر Leo Spitzer الذي يكره الانشغال بالعمل الأكاديمي الذي يعترض التفكير. وقد قال يوما بأسلوبه البليغ: «إن تلفون المنظِّم هو العدوُّ اللدود لمنضدة الباحث»[6]. أما سعيد من جهته فقد عدَّ أحدهما سلاح الآخر. «يستعمل التلفون كأنه آلة العازف للفنّان» طبقا لما رواه دون گوتنپلان Don Guttenplan، مراسل مجلَّة الأمة The Nation في لندن، وأحد طلبته السابقين[7].

كان إيقاع العمل يحدِّد شكل الأفكار. وقد تحدَّث من عرفوه جيِّدا عن ميله إلى أقلام مون بلان وإلى الورق الأزرق الفاخر، وكان يوبِّخ طلبته بعد انتهاء الدرس وهم في طريقهم إلى مختبرات الحاسوب بقوله وهو يخرج قلم الحبر من الجيب الداخلي لجاكيته: «هذا كلُّ ما أحتاجه». وكانت جوآن ويپيجوسكي JoAnn Wypijewski التي كانت آنذاك محرّرة تعمل في مجلَّة الأمة قد زارته للعمل معه على مقالة للمجلَّة. وعندما اقترحت بعض الملاحظات «فتح غطاء قلم الحبر وهزَّه قليلا وقلب ردن قميصه ذي الطراز الفرنسي وأخذ يكتب». وفكَّرت: «لربما كان بالفعل مثل بلزاك يكتب كلَّ شيءٍ بخطِّ يده»[8]. أما زينب إسترابادي Zaineb Istrabadi، وهي واحدة من مساعديه، فقد طبعت كثيرا من رسائله ومقالاته من المسوّدات المكتوبة على ورق ملوَّن فاخر.

غير أن أوراقه التي جُمعت معا تروي قصَّة مختلفة، فالمخطوطات تلفت النظر ليس فقط في خلوِّها النسبي من التعديلات، بل في الخليط العجيب من الكتابة بخط اليد – بعضها مكتوب بقلم الحبر على ورقٍ أزرق ثمين، ولكن كثيرا منها مكتوب بقلم الرصاص على ورق عاديٍّ مسطَّر أصفر أو أبيض مما يستعمل للحاسوب. وفي بعض الأحيان نجد أن النصّ ينتقل في وسط الصفحة، بل أحيانا في وسط الجملة، من خط اليد إلى فقرات مطبوعة، ثم يتخلَّلها مقطع مطبوع في مكان آخر ملصقا بين الأسطر. كثير من المخطوطات مطبوع. ويتَّفق معاونوه جميعا على أنه كان يجيد الطباعة[9]. ونجد الأنواع الثلاثة في كثير من الصفحات: من الكتابة بخطِّ اليد، إلى مقاطع من نصوص ملصقة لصقا، إلى مقاطع مطبوعة – كأنه تعب من أحد الأنواع وانتقل إلى النوع الآخر، أو ربما كان مسافرا بعيدا عن آلات الطبع، وبعيدا عن التكنولوجيا المتقدِّمة أو المتخلِّفة، أو أنه انتقل من مكانه إلى كرسي أو إلى منصَّة، أو انتقل من البيت إلى مكتبه في الحرم الجامعي، أو ربما كان الوضع مختلفا تماما لأن الكتابة كانت بالنسبة إليه تجربة حسِّيَّة ولذا دفعته أحاسيسه إلى التخلُّص من الإحساسِ بالضيق.

كانت شقَّته حتى منتصف السبعينيات تمتلئ منذ ساعات الصباح الباكر بطقطقة آلة الطباعة اليدوية الزرقاء من نوع سْمِث كورونا Smith Corona، وبعد ذلك بصوت الآلة الكهربائية من نوع «آي بي إم» IBM المزوَّدة بشريط يمحو الأخطاء الطباعية. ومهما كانت الآلة المستخدمة فإنه كان يعتمد على بطاقات صغيرة وعبارات نثرية منتزعة من رحلاته المختلفة إلى الخارج[10]. ومع حلول عقد التسعينيات وأوائل القرن الجديد كانت جميع المقالات التي كتبت عن مواضيع الساعة لكلٍّ من جريدة «الحياة» وجريدة «الأهرام» قد كتبت على الحاسوب النقّال laptop. وقد تحدَّث في وقتٍ لاحق عن الكيفية التي حلَّت بها «أعاجيب شبكة الإنترنت وسرعة التواصل الإلكتروني محلَّ القلم وآلة الطباعة والرسالة المنقولة باليد، وحتى المكتبة إلى حدٍّ ما، وهي الأشياء التي كانت أساسيّات التعليم الذي تلقَّيتُه»[11]. وقد قرَّر أن يوازن بين المخترعات التكنولوجية الجديدة بينما ظلَّ يحتفظ بالذهنية التي تولَّدت لديه في الحقبة الرعوية التي كان يعتمد فيها على الكتابة بقلم الحبر.

غير أنه كان عليه أن يؤدّي بعض الواجبات البيتية. فهو لم يكن يسمح لغيره باستعمال آلة صنع القهوة الإكسبرسو، وكان يمنع استخدام أي نوع من أنواع الماء باستثناء إڤيان أو ڤولڤك. كان هو المخوَّل باستعمال الآلات الكهربائية: فإن احتاج أحد أفراد العائلة إلى جهاز ستيريو جديد فإنه هو الذي كان يرتّب الرحلة إلى الوز The Wiz ويتولّى التحدُّث مع موظفي المبيعات[12]. وقد وجد كثير من أصدقائه المقرَّبين متعة لا تقاوم في الحديث عن حبه للتسوُّق، وعن طريقته في التعامل مع أفضل محال الملابس الرجالية، والخياطين، والمختصّين بأمور التدخين، وعن ذوقه في الغلايين وأجهزة الستيريو الثمينة وأنواع السيگار. على أن ميوله إلى الأشياء الجميلة كانت تختلط بعدم العناية بها. وعندما كان يُدعى إلى مناسبة من مناسبات الديبلوماسيين كان يتوقَّع منه أن يشرب أنواعا خاصة من النبيذ وأن ينتبه لنجوم مِشْلِن Michelin stars(*)، ولكنه كان يفضِّل خلطة الوسكي العادي على المولْت غير المخلوط، وظلّ دائما يكره المطاعم المبالغ في بهرجتها.

كانت الكتابة أقلَّ أنماط العمل تجزئة عنده. وكانت مقالاته تستغرق يومين أو ثلاثة أيّام للفراغ منها، وتمرُّ في ثلاث مسوَّدات لإجراء التصحيحات البسيطة. ويبدو أنه، باستثناء حالات معيَّنة، لم يرهق نفسه في البحث عن أساليب خاصة في التعبير أو في اختيار المفردات، فنثره ليس نثرا مصنوعا لأنه يجري مع الأفكار وليس مع الشكل على رغم وعيه بالأثر الذي يحدثه مزيج المفردات العالية والأسلوب غير الرسمي، وبأثر العبارات الأجنبية والعبارات المتداولة. ومهما يكن من أمر فإن أسلوبه كان ينساب من قلمه كما نجده في شكله المطبوع، وهذه موهبة ذات قيمة عالية بالنظر إلى التحدِّيات الجديدة التي أثارتها وسائل الإعلام في وجهه في نيويورك في الثمانينيات.

أخذ سعيد منذ انفصاله عن مايرة يكره النوم كرها رافقه بقية عمره، وتضاعف كأنه اعتراف لا نفع فيه بفضل ما كانت أمُّه تعانيه من نوم متقطِّع، أو هذا ما وصفه سعيد به في المراحل الأخيرة من مرضها[13]. وسواء كان الأرق نتيجة للشعور البروتستنتي بالإثم بسبب الوقت المضاع أو هو الاكتئاب السريري (وفق تفسير

(*) طريقة لتقدير درجة جودة المطاعم. [المترجم].

ابنته نجلا)، فإن الأرق عمَّق فيه فعل الكلام[14]. ومع مضيّ الوقت، وجد الراحة في اتِّخاذ قرارات مفاجئة للانقطاع عن العمل، واتِّخاذ قرار سريع بالذهاب إلى حفلة موسيقية، أو التخطيط لرحلة من الرحلات، كما في حالة رحلته إلى إسبانيا في العام 1979، أو لقضاء شهر في تونس في العام 1982، أو إلى المغرب مع عائلته في العام 1988 وسط برنامج عمل مرهق[15]. وكانت قراءاته لهذا السبب تحصل بشكل سريع في أثناء الطيران أو في البيت بعد انتهاء المحاضرات، وبقي الجزء الأكبر من يومه مخصَّصا لأحاديث مع زوّاره، أو مع المتَّصلين عبر التلفون. وعلى رغم أنه يعمل في مجال البحث العلمي فإنه كان يفتقر إلى العزلة التي تحتاجها المهنة، ولذلك فإنه كان يعيش حياة الصحافي المفتقرة إلى التركيز.

هذا النمط من الحياة تضمَّن بطبيعة الحال بحثا دائما عن علاقات جديدة. وكما كان دوپي قد فعل في الستّينيات أدَّت جين ستاين Jean Stein، التي ولدت في لوس أنجلس وورثت ثروة من أعمال تسلية الجماهير في نيويورك، دور الوكيل غير الرسمي والداعم بكلّ الوسائل الممكنة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات. كانت العلاقة مفيدة للطرفين، فقد عرَّفها سعيد على عالم لم تكن تعرف عنه شيئا، وقدَّم لها المشورة فيما يتعلَّق بـتحرير مجلة غراند ستريت Grand Street، وعلى شعراء الشرق الأوسط ومثقَّفيه. أما هي فقد عملت ما في وسعها لفتح الأبواب التي لم يكن قد فتحها بنفسه، وساعدته بحبٍّ غامر وإخلاص لا تحدُّه حدود. وقد بلغ من الألفة بينهما أنهما كانا لا يترددان في استعمال لغة ترفع فيها الكلفة كما يتبيّن من هذه الرسالة التلفونية في صيف العام 1994:

> مرحبا، جين. لا داعي للاتصال بي، أنا أعمل عندك، لذلك فإنني أسجِّل وقت الدوام عندك مثل الموظَّفين الذين يبدأون يومهم بثقب البطاقات، وها أنا أثقب بطاقة لأقول لك إنني اتَّصلتُ بك نحو الساعة الرابعة والربع، اسمي إدورد سعيد... هذا كلُّ ما هنالك، أنا طبعا أنتظر ردَّك بفارغ الصبر، وسأكون سعيدا بتلقّي الردّ، ولذلك فهآنذا أنتظر بجانب التلفون على أحرّ من الجمر[16].

كانت ستاين قد تسلّمت مجلَّة قراند ستريت في العام 1990عندما اضطُرَّ مُنشِئُها، صديق سعيد الحميم بِنْ سونِنْبيرْغ Ben Sonnenberg إلى التقاعد بعد

تسع سنوات، بعد أن فقد القدرة على المتابعة بسبب تصلُّب الشرايين. كانت المجلَّة قد أُنشِئت العام 1981 وفق تقاليد المجلّات الصغيرة التي عُرفت في عشرينيات القرن العشرين، وقد أُريد لها أن تبدو «شديدة»، ولكن ممتعة، أن تمزج الوقاحة بالفائدة، بتعبير سونِنْبيرْغ[17]. وكانت المجلَّة لبعض الوقت أكثر المجلّات شعبية لدى طليعة الفنّانين والصحافيين، بمن فيهم و. ج. سِبولد W. G. Sebald، وخوسيه ساراماگو José Saramago، وجانِت وِنْتَرسن Jeanette Winterson، وكْونْتِن تارنتينو Quentin Tarantino، ودون ديليلو Don DeLillo، وأَلِسْ مُنْرو Don DeLillo. وقد كتب سعيد سبع مقالات نشرها فيها على مدىَ سنوات.

ينتمي كلٌّ من سونِنْبيرْغ وستاين إلى عائلتين ثريَّتين، وقد عاشا في نيويورك منذ أواسط العقد الثاني من العمر على رغم أن سعيد ومريم هما اللذان أعادا تقديمهما أحدهما إلى الآخر بعد سنوات من الانقطاع، وذلك في عشاء أُقيم لذلك الغرض في شقَّتهما. وقد بدا أن جين هي الخليفة المنطقية لسونِنْبيرْغ في رئاسة تحرير مجلَّة قراند ستريت بعد أن اشتهرت بالمقابلة التي أجرتها مع وِلْيَم فوكنر لمجلّة باريس ريفيو Paris Review، وتعزيز سمعتها بالكتاب الرائج بعنوان «إدي: سيرة أمريكية» (الذي حرَّرته مع جورج پْلِمْپتن George Plimpton، ونشر في العام 1982)، وهو تاريخ شفوي لواحد من أفراد الدائرة المقرَّبة من أصدقاء أندي وورهول. لقد جعلها هذا الكتاب، هو وصلاتها مع الأثرياء، قوّة يحسب حسابها في مانهاتَن.

كان التحرُّك عبر وسائل الإعلام ذا أهمية خاصة لسعيد بعد الشهرة الإشكالية التي حقَّقها كتاب «الاستشراق». فقد كان العَرض الإيجابي الذي قدّمته مجلَّة «تايم» Time عنه في العام 1978 قد مضى وانقضى، وأصبح منبوذا في الجناح المساند لإسرائيل من الناشرين في نيويورك بعد الأثر العميق الذي خلَّفه كتاب «القضية الفلسطينية»[18]. لم يكن سعيد في أي يوم من الأيام من المحسوبين على مجلَّة The New York Review of Books، ولذلك كانت مساهماته فيها محدودة طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات إلى أن تمكَّن من نشر مراجعته الطويلة الشاملة بعنوان «قسوة الذاكرة» لروايات نجيب محفوظ في العام 2000[19]. أما العلاقة الباردة بين سعيد ومحرِّر المجلَّة المشارك روبرت سِلْڤرز Robert Silvers فكانت نتيجة لشكاوى طويلة الأمد وصلت ذروتها عندما نشر سِلْڤرز مراجعة

لكتاب سعيد التي وصفها سعيد بأنها مراجعة «مضطربة ممتلئة بالثرثرة» لكتاب «العالم والنصّ والناقد» The World, The Text and the Critic في العام 1983 كتبها إر إهرنپريز Irvin Ehrenpreis المتخصّص في أعمال سْوِفْت، إذ لم يطل به الوقت حتى كتب لسلڤرز رسالة قال فيها إن سِلْڤرز كان عليه أن يخجل من ذلك «المقال المضحك الفاضح» على رغم أنه كان يعلم أن ذلك كان بعيد الاحتمال لأنه هو وسلْڤرز كانا يعرفان الغرض من هذه «الهجمات السنوية ضدّي»[20]. وحتى في مجلَّة ذا نيشن The Nation، وهي مجلَّة تفتح صدرها للأفكار التقدُّمية، فإن المانحين الأثرياء من المؤيِّدين لإسرائيل اعترضوا بقولهم إنه كان يحظى بمساحة أكثر مما يجب في صفحاتها. أما البرامج التلفزيونية الإخبارية التي أخذت تمتلئ أكثر فأكثر ببغاوات الحكومة فسرعان ما أدرك أنه أخذ يُعامل بصفته ممثِّلا للعرب، لا يدعى إلا لكي يسكتوه بالصراخ؛ لذلك فإنه أخذ يبحث عن منصّات جديدة.

كانت الصلات التي أنشأها لذلك الغرض في صالونات ستاين الأسطورية لا تقدَّر بثمن على رغم أنه كان يعرف الكثير من الكتّاب والشخصيّات التي تحضر إلى هذه الصالونات. كانت هذه الصالونات هي مركز الحياة الأدبية في نيويورك، ولذلك فإنها كانت تجتذب أمثال نورمَن مَيلَر Norman Mailer، ووارِن بيتي Warren Beatty، وريناتا أدلر Renata Adler، وجولز فايفر Jules Feiffer، وجون دِدْين Joan Didion، وسول ستاينبرغ Saul Steinberg. وعلى رغم أن المجموعة كانت تتكوَّن من مشاهير فإن ستاين أسبغت عليه شرف تسمية إحدى الغرف في شقَّتها «غرفة إدورد سعيد» لأنها كانت تحتوي على مناضد منخفضة، وأثاث شرقي، وديكور ذي ملامح غير عاديَّة – وعلى شريطٍ من فنّ الخطّ يقع تحت السقف بمسافة قليلة[21].

وعلى رغم أنه تحرَّك في مجتمع نيويورك بمساعدة مريم، فإنه ظلَّ يشعر بالغربة في تلك المناسبات، مثقلا مرَّة أخرى بالشعور بعدم الثقة. وكان من يريدون الخير له يشعرون بأن شعوره هذا بعدم الأمان غير مفهوم. وكانوا يعرفونه معرفة تكفي لأن يعلموا أنه بينما كان يتنقَّل في الغرفة كان يعذِّب نفسه بصمت بأن يسأل: «ما الذي يهمُّ أناسا مثل هؤلاء بشخصٍ تافه مثلي؟»[22]، غير أنه كان في اللحظة التالية يستعين بسحر شخصيَّته ويمسك بفكرة ما ويحيل شعوره بعدم الثقة إلى بلاغة. ولقد ظنَّه سلمان رشدي شخصا منسجما تمام الانسجام في حفل أقيم على شرف الساندنيستا

في مُتحف المتروپولِتَن للفنّ حيث وصف سعيد بأنه «ودود، أنيق... متحدِّث، يطيل في الكلام، ويميل إلى الضحك والإيماء، واسع المعرفة، ويميل إلى المغازلة»[23].

ومهما يكن من أمر الاضطراب الداخلي فإن هذه الجاذبية ساعدت في توسيع شبكة العلاقات. أما في البيئة المريحة التي تسود جوَّ المؤتمرات الجامعية فإن حضور بديهته في كلِّ لحظة – «مدهش اجتماعيّا، لا يفوقه أحد» – كسب له كثيرا من الأتباع، ورافقه في غزواته في المجتمع النيويوركي[24]. وكان من الصعب ألّا يُظنَّ أنه مغرور إلى حدٍّ ما، ولكنه، وفق تفسير الكاتبة مارينا وورنر، «كان له الحقّ في أن يكون كذلك... بشخصيَّته الملتهبة ـ العاطفية، الرشيقة. لم يكن مجرَّد رجل بملامح جذّابة»[25]. وأضافت: «والنتيجة أنه كان له أصدقاء كثيرون من بينهم نساء كثيرات ينتمين إلى نوعٍ معيَّن – أنيقات، من نمط معيَّن، تجاوزن مرحلة الشباب، مثقَّفات». أما هي فلم تكن من بينهن، ولكن كانت هنالك موجات منهن يرتبطن به من خلال السياسة بالدرجة الأولى، لأن «السياسة شغلت ذهن إدْوَرْد أكثر من الأدب»[26].

ومهما يكن من أمر فإن شبكة العلاقات التي تنشأ في حفلات وسائل الإعلام هذه مكَّنت سعيد من اكتشاف شيء أهمّ: مجموعة جديدة من الأصدقاء الذين لم يتَّفقوا معه سياسيّا فقط، بل وجوديّا أيضا فيما يتعلَّق بنظرته إلى عقد الثمانينيات الفظيع. فقد التقى من خلال الصحافي ألكزاندر كُكْبيرْن Alexander Cockburn بكاتب العمود الصحافي أندرو كُپكِند Andrew Kopkind، ومن خلال سوننبيرغ بإليزابث پوكودا التي كان زوجها يعمل في دار النشر بانثيون بوكس Pantheon Books، وكان قد عمل محررا في مجلَّة ذا نيشن The Nation عندما تولَّت ابنة ستاين كاترينا ڤاندن هوڤل منصب رئاسة تحرير المجلَّة بدلا من ڤكتر ناڤاسكي Victor Navasky في العام 1995. كذلك تعرَّف من خلال المحرِّرة المشاركة لمجلَّة New York Review of Books باربره إپستين Barbara Epstein بشلي واغنر Shelley Wanger التي عملت أوَّلا في كوندي ناست Conde Nast ثم في مجلة أنترفيو Interview. وقد أعطته واغنر على وجه الخصوص فرصة لتجربة نوعٍ آخر من الكتابة، نوعٍ أقرب إلى الاعتراف، وساعدته على نشر مقالته عن طفولته في القاهرة في مجلَّةٍ هاوس أند ڤاردن House and Garden، وعلى جمع مقالاته الفلسطينية في وقت لم تكن دور النشر الأمريكية الرئيسة ترحّب بها إلا القليل منها.

كذلك مهَّدت الطريق لنشر مقالته المعنونة «إفطار مع عرفات» في مجلة «أنترفيو»، وقادت مذكِّراته خارج المكان في مسيرتها إلى النشر.

أما نجاحه الباهر مع لندن ريفيو أوف بوكس London Review of Books فقد تمثَّل في جهوده الفردية التي أدَّت إلى تحويل ما تنشره المجلَّة عن الشرق الأوسط باتجاهٍ داعمٍ للقضية الفلسطينية. وتتذكَّر مَيري كَي وِلْمَرْز Mary Kay Wilmers، التي تشغل الآن منصب رئيسة التحرير، لقاءها الأوَّل به في أوائل الثمانينيات في مكتب المجلَّة، وكان يرتدي كنزة صفراء فاقعة اللون ذات فتحة للرقبة على شكل V، وأنها استنتجت منها ما شاء لها الاستنتاج عن روحه الرياضية وحياته الاجتماعية، وهي استنتاجات لم تكن مخططة فيها[27]، وكان الناقد الأدبي الأمريكي رِچَرد پوارييرِ Richard Poirier، وهو واحد من أعزّ أصدقائه، كثيرا ما يرافقه في التجوال في نيويورك، وكان على معرفة برئيس تحرير المجلَّة آنذاك كارل مِلَر karl miller. وتذكر وِلْمَرز التي تسلَّمت تحرير المجلَّة في العام 1992، أنها بصفتها «يهودية غير مؤمنة، ولا تمارس الشعائر، وحيادية إلى حدٍّ ما، كانت إلى جانب إسرائيل بقدر ما فكَّرت في الأمر. غير أن لقائي بإدْوَرْد غيَّر كلّ ذلك إلى الأبد»[28]. كانت أولى مقالاته التي نشرتها المجلَّة تتناول موضوعا مناسبا تماما، إذ كانت عن وولتر لِپْمَن Walter Lippman، أي عن «علاقة الصحافي بالسلطة – مهما كان نوعها – وسلطة الصحافي نفسه».

كان جانب من استراتيجيته في مجال النشر في وسائل الإعلام، وهو جانب عبَّر عن شخصيَّته أيضا، يقتضي قدرا من التنويع. لم يكن يريد لكل كتاباته أن تحافظ على اللهجة نفسها بسبب ما تتصف به كتاباته السياسية أحيانا من نفاد الصبر والغضب. ولم تشكِّل مقالاته عن الأدب والفلسفة نوعا من التخفيف من الحدَّة لأنها كانت في نظر الكثيرين جهدا نظريّا مضنيا. كان يسعى إلى أن يظهر جوانب أخرى من شخصيَّته. وعندما نشرت لندن ريفيو أوف بوكس London Review of Books مقالة خُصِّصت لتفسير السبب الذي يحتاجه إصلاح المصعد لكل ذلك الوقت الطويل فإنه عبر عن احتجاجه لوِلْمَرز بقوله: «لماذا لا تطلبين مني أن أكتب مقالات كهذه؟»[29]، وقد تذكَّر زميله مايكل روزنثال Michael Rosenthal أيضا هذه اللهجة المازحة والاستعداد للتجريب. فقد قرَّر سعيد في أحد الأيام أن يتعلَّم

لعب كرة السلَّة، فارتدى سرواله القصير وذهب هو وصديقه إلى الملعب المجاور وأخذا يركضان. «كان لعبه بالغ السوء، ولكننا استمتعنا»[30].

بعد أن خرج سعيد من حروب النظريّات وجد أن عليه أن يعدّل أسلوبه ليتوافق مع أسلوب المحادثة الهادئ المستخدم في لندن ريفيو أوف بوكس London Review of Books. فعندما أجرت المجلَّة بعض التعديلات التحريرية على مقالاته كان من عادته الاتّصال بالتلفون ليقول للقائمين عليها إنهم «ارتكبوا مذبحة بحق نصِّه، على رغم أن ما حصل لا يعدو شيئا طفيفا يمكن إصلاحه بسهولة»[31]. وبعد ساعة كان يتَّصل ليقول إنه كان مخطئا، وأن كل شيء كان على ما يرام، وانتهى الأمر بأن عدد التعديلات كان قليلا. كانت المجلَّة من حيث الأساس سعيدة بنشر كتاباته عن الشرق الأوسط بينما كانت منشورات نيويورك ترفضها. ولقد أثَّرت مقالاته عن خروج منظَّمة التحرير الفلسطينية من لبنان، وعن طفولته في بيروت، وعن المجادلات التي دارت حول الصهيونية على هيئة التحرير. وعندما حدثت الانتفاضة الأولى في العام 1987 وفقما تذكر وِلْمَرز، «شعرنا بأن موقف الفلسطينيين كان يصعب الردّ عليه، ولم تتغير نظرتنا بعد ذلك»[32].

كانت الصورة مختلفة في المدينة التي يعيش فيها. كان قد وجد موطئ قدم في مجلة «ذا نيشن» في أواخر الستّينيات، وكانت النتيجة أنه تعرَّف إلى حدٍّ ما على ناڤاسكي الذي كان محرِّر المجلَّة وناشرها في الوقت نفسه، على رغم أن العلاقة كانت متوتِّرة. لكن التعرُّف على محرّري المجلة على نحو أفضل حصل في الشرفة الشهيرة لناشره السابق في أوائل الثمانينيات، أندريه شِفْرِن Andre Schiffrin. فبما أنها كانت منطلقا لليسار اللبرالي فإن مجلة «ذا نيشن» كانت ذات توزيع متواضع، ولكن قرّاءها ظلوا مخلصين لها، وكانت أصولها تعود إلى القرن التاسع عشر. وقد أصبحت، هي ومجلة هاربر Harper's Magazine والبروغرسف Progressive وذا فيلج فويس The Village Voice ملجأه ووسيلته للتعبير في العقد المضطرب الذي شهد حكم ريغن - بُش مع أنه كان ينشر مقالات ومراجعات قصيرة في «النيويورك تايمز».

ولكن علاقته بمجلَّة «ذا نيشن» لم تكن مريحة دائما. فقد كانت المجلّة ممتلئة بالترتيبات الطبقية والإهانات السخيفة، فلم يشعر بأنه مرغوب به فيها. وكانت معظم كتاباته، إن لم نقل كلها، توضع في «آخر الكتاب» – أي في الصفحات

المخصصة للفنون. وباستثناء عاموده المخصص للأوبرا فإن أكثر ما كتبه للمجلَّة كان مراجعات للكتب. ولكن حتى مع إزاحة مواهبه من حقل التعليقات السياسية فإن اللبراليين المؤيِّدين لإسرائيل ضغطوا على ناڤاسكي لكي يحرمه حتى هذا المستوى من المساحة بعد أن عبَّر كلٌّ من سعيد وكُكْبيرن عن دعمهما لترشيح جسي جاكسن Jesse Jackson لمنصب الرئاسة في إحدى وسائل النشر المطبوعة. فقد كان جاكسن قد أظهر اهتماما خاصّا بالقضية الفلسطينية والتقى بشكل غير رسمي بسعيد وغيره في العام 1984 في جناح فندقي حيث كان يجلس بملابسه الداخلية[33].

لكن ما يلفت النظر أن كون سعيد «من خارج المكان» كان بمنزلة جواز السفر لدى أجهزة نقل الأخبار التي أخذت تستشيره حول كلِّ ما يتعلَّق بالشرق الأوسط. وقد شمل أندادُه الذين كانوا يعبِّرون عن مواقف الحكومة الأمريكية العراقي البريطاني كنعان مكِّيَّة Kanan Makiya، أستاذ دراسات الشرق الأوسط في جامعة برانديس Brandeis، الذي كان يعتمد عليه في حفظ أقوال وزارة الدفاع الأمريكية؛ ولكن على رغم ما كان يتلقّاه مكِّيَّة من دعم رسمي فإنه لا هو ولا بقية الناطقين بلسان حكومة الولايات المتَّحدة من أبناء الشرق الأوسط حقَّقوا المكانة التي حققها سعيد[34].

غير أن كتّاب الأعمدة في مجلَّة «ذا نيشن» ساعدوه على تجاوز الشعور بالغربة. وكان من بينهم كْرِسْتُفَر هِچِنْز Christopher Hitchens الذي عمل بعض الوقت بصفة معاون، ومحرر مشارك، ومتحدِّث على المنصَّة نفسها للدفاع عن فلسطين. أما العلاقة مع كُكْبيرن فكانت أعمق من تلك التي ألمح إليها هِچِنْز في عنوان مراجعته لأحد كتب كُكْبيرن: «ألكس الرائع» Alex the Magnificent. كانا قد التقيا في السبعينيات عبر مجلَّة «ذا نيو لفت ريفيو» وعمّقا علاقتهما في أثناء الوقت الذي قضاه كُكْبيرن في مجلة «ذا فويس» في أوائل الثمانينيات. كان كُكْبيرن يشبه سعيد من حيث كونه يروق للنساء بتعبير ويپيشڤسكي، واحتوى الاثنان تناقضاتهما، وتباهيا بالتعليم الراقي الذي حصلا عليه (هارڤرد وأوكسفُرْد) وبشقّتيهما الفاخرتين غربي سِنْترَل پارْك وجادّة رِڤَرسايْد، وجرأتهما في ترجيح كفَّة النقاش العمومي باتِّجاه اليسار[35].

في ليلة من الليالي بينما كانا في طريقهما إلى أحد المطاعم تحوَّلا فجأة في سيّارة الأجرة للتحدُّث باللغة الفرنسية، وأخذا يتباهيان فيها كأنهما «طاووسان يعرضان

ريشهما الجميل»[36]. وعندما كان بِن سوننبيرغ ينضم إليهما كان الثلاثة يشكِّلون «عصابة» من نوع ما. وقد كان سوننبيرغ يبدو لكلّ من حوله كأنه روح جميلة، «أروع رجل على وجه البسيطة» بعبارة ويپيشڤسكي[37]. كان كلٌّ منهم على طريقته ألمعيّا لَمّاحا، وشكَّل الثلاثة جمعية لتبادل المدائح، يتناولون العشاء معا في شقَّة سوننبيرغ كلّما جاء كُكْبِرن إلى المدينة. وكثيرا ما كان سعيد الذي كان يهاتف سوننبيرغ يوميّا يأتي بالسندويشات إلى بيته لوجبة الغداء ولتبادل الأخبار الأدبية التي يحبُّ كلاهما تبادلها بينما كان سعيد، الذي شكّل نورا ساطعا في حياته، يَصِلُه بكثير من الكتّابِ الذين كان هو ينشر أعمالهم في مجلَّة ڤراند ستريت[38]. أما كُكْبِرن فكان يسمي سعيد بالأسد «لأنه كان يبدو أحيانا عندما يتكلَّم كأنه يلطم الهواء براحة يده، ويلوّح بذيله»، ثم يستثيره بحضوره ليستثير زهوه بنفسه[39]. عندما وجد وديع ومريم نفسيهما وقد ضلا طريقهما في واشنطن بسبب عاصفة ثلجية وجد سعيد نفسه عاجزا عن تسلية ابنته نجلا التي كانت في الثالثة من عمرها. كان الحلّ الذي وجده هو أن يأخذها معه إلى شقَّة كُكْبِرن، وبعد أن انخرط في حديث سياسي، طلب منها أن تتسلّى بالفرجة على البارك من النافذة. كان أبوها، وفقما تذكرتْه فيما بعد، شديد الإحساس بالآخرين، مُحِبّا، رقيقا، منتبها، ولكن من دون إفراط. كان «يضطلع بواجبه، ومن ثم يعود إلى العمل»[40].

كان سعيد ينحِت نثرا يتلألأ بيانه حتى عندما يكتب للمجلّات والصحف، نثرا تفيض منه شخصيّة تشكِّل تحدِّيا أشدَّ من ذلك الذي نلمسه في ألمعية هِچِنز السيّالة، أو تأمُّلات كُكْبِرن الجريئة التي تفتقر إلى العمق. وقد أيّدت كلٌّ من إلِزَبِث سِفْتن وشلي واغنر، المحرّرتين اللتين تعملان في دور النشر التجارية، رأي ويپيشڤسكي القائل إن سعيد كان كاتبا ذا أسلوب سيّال يروق لكلِّ أنواع القرّاء. واقتصر تحريرهما لمخطوطاته على أمور تجميلية في معظم الأحيان. أما مقالاته عن الموسيقى المخصَّصة للنشر في مجلَّة «ذا نيشن» فقد وجدها محرِّرو المجلَّة بالغة التكثيف، عميقة «ولكنها ليست ما يتوقَّع القارئ العادي الذي يقرأ مجلَّة سياسية ذات محتوى عام أن يجده فيها»[41]، وقد تلقّى سعيد تعديلات التحرير بصبر وشيء من التهكُّم، وصبر على أولئك الذين وجدوا كتاباته أكاديمية أكثر من اللازم. واحتفظ لنفسه بالتقريظ الذي كان يرسله له الموسيقيّون ونقّاد الموسيقى

الجادّون الذين كانوا يقولون له إنهم يقرأون مجلَّة «ذا نيشن» بسبب ما تنشره له من كتابات عن الموسيقى.

***

عندما نأتي إلى أفكار سعيد «القليلة البسيطة» نجد أن براعته النقدية لم تلقَ ما تستحقُّه من تقدير لا من أصحاب النظريات الأدبية ولا من الصحافيين. فهو عند الفريق الأول صاحب فكر عالٍ ولغة متداولة، بينما يراه الفريق الثاني، بما يجدونه عنده من إلمام مذهل وإشارات علمية، مُتعبا أكثر من اللازم من الناحية الفكرية. أما وقد وجد نفسه عالقا بين الطرفين فإنه شغل نفسه باختراع قاموس خاصٍّ به. لكن المفردات الخاصة به التي ابتكرها لم تُنحَت نحتا بالضبط، بل هي كلمات أخرجت من تاريخها «العائلي» وفق تعبيره – أي إنها تحرَّرت من ارتباطاتها الموروثة، ومن ثمّ ارتباطاتها ذات التأثير الطاغي. لقد أعطى معانيَ جديدة لكلمات متداولة، وذلك في جانب منه بإتقان فنّ نحت الكلمات نحتا غامضا مثل affiliation (الانتساب)، وinventory (كشفٌ بالموجودات)، وeccentricity (غرابة الأطوار). يقول سعيد: «أعتمد على بعض النصوص الأدبية، وبعض الأساليب الأدبية، وقضايا التفسير التي علَّمتني الكثير عن كيفية انتقال الأفكار، وتشكيلها، وجعلها جزءا من المؤسسة»[42]، من هذه الأساليب بلاغة الصدق. وقد كان بإمكانه، بتحرير كلمات مثل «المساواة» و«العدالة» و«المتعة» من علامات الاقتباس، توجيه النقد الشديد للـفكر اليائس لما بعد الحداثة و«الواقعية» السياسية التي تتحدَّث عنها حلقات الفكر think tanks[*] في واشنطن.

كان قد تعلَّم من أورباخ وشْپِتْسر أن بعض الكلمات يمكنها، إن اختيرت اختيارا صحيحا، أن تعرِّف شعوبا كاملة فيما هي تؤرِّخ حِقَبهم بشكل مكثَّف. وقد كان أورباخ قد خصَّص واحدة من أشهر مقالاته وأبعدها أثرا لتفكيك محتويات كلمة واحدة هي فغورا figura (الجمال، الشكل، الكناية، الأسلوب)، بينما خصَّص شْپِتْسر القسم الثاني كلَّه من كتاب طويل لكلمة Stimmung (الحالة النفسية/ الذهنية). وقد ظلَّ سعيد طوال عقد الثمانينيات يكثر من الحديث عن هاتين

(*) هي فرق من الخبراء تشكّل لحل مشكلة فنية أو اقتصادية أو سياسية بالبحث والاستقصاء. [المترجم].

المقالتين مبديا إعجابه الشديد بقدرتهما على تشييد كيانات كبرى على أساس بهذا الصغر. وقال إن بالإمكان أن يمثِّل مصطلحٌ من المصطلحات الكاتب نفسه إذا استُغِلَّ استغلالا صحيحا. فمثلما تستعيد كلمة technics بالذاكرة للويس مَمفُرد Lewis Mumford، أو تستعيد عبارة «الاستهلاك البادي للعيان» بالذاكرة لثورستين ڤبلن Thorstein Veblen، فإننا لا يمكننا التفكير في كلمات مثل «الدنيوية» worldliness و«الانتساب» affiliation من دون التفكير بسعيد.

ظلّ جمهوره يتكون من خليطٍ من طليعة المجتمع النيويوركي، ومن صحافيين غيَّروا مواقفهم السابقة، ومن ثوريي الشرق الأوسط والأكاديميين الفينومينولوجيين. ولذلك فإن معجمه كان عليه أن يتعامل مع الصعوبات كما تتعامل القصائد: بالإيحاء ومن دون حصر المعاني بمعنى واحد. واعتمدت figura سعيد على وهم الحضور المادّي. جلبت كلماته المفتاحية عنصر الحضور المباشر إلى كتاباته النظرية، من ذلك النوع الذي رأى محرّروه في مجلَّة «الأمَّة» وفي دار پانثيون للنشر أنه مفرط في التعقيد عند القراءة الأولى. وأشارت صفة «أكاديمي» ذات المعنى السلبي إلى بُعدٍ في كتابته حرص كثيرا على الاحتفاظ به وعلى إغراء قرّائه للتعلُّم منه.

لقد مرَّ بنا عدد من هذه المصطلحات مثل «معلِّم نفسه»، و«الهواية»، والمزاوجة بين «البدايات والأصول». ولكن من أهمّ المزاوجات عند سعيد تلك التي يعقدها بين الانتماء filiation والانتساب affiliation. وقد يكون من المفيد أن نتتبَّع كَيْفَ كيَّف معنى كلمات مألوفة في حقل من الحقول بإعطائها معنى مختلفا في حقلٍ آخر. فرولان بارت Roland Barthes على سبيل المثال تحدَّث في المقال المعنون «من العمل إلى النص» (1971) عن «أسطورة الانتماء» قاصدا بذلك أن «أبوَّة» النصّ لا تتطلّب وجود مؤلِّف لأن النصَّ ليس سوى انتقال من كلمة إلى أخرى من دون الحاجة إلى تدخُّلٍ من جانب الكاتب الواعي. وكان زميل سعيد في قسم اللغة الفرنسية في جامعة كولمبيا مايكل رِفاتير Michael Riffaterre (الذي كان سعيد قد انتقده في كتاب «العالم والنصّ والناقد») قد أقام حالة مثل هذه قبل سنة من ذلك التاريخ زاوج فيها بين الانتماء والانتساب من أجل اللعب بالحقيقة المبتذلة القائلة إن النصوص لا تتشكَّل من أفكار أو أشياء بل من إعادة استعمال مجموعات من الكلمات التي تنتقل من نصٍّ إلى آخر[43]. أما سعيد فقد قلب هذه

المزاوجة رأسا على عقب، واستخدم «الانتساب» بمعنى المعتقد المشترك في مقابل «الانتماء» بمعنى الإرث العائلي. وكانت الفكرة عنده أن نوعي الانتماء يمكن أن يكونا خطيرَيْن عندما «يعيدان إنتاج هيكل سلطة العائلة». وليس يكفي للمرء أن يقف ضدَّ العنصرية أو الشوفينية القومية إذا ما كرّر تضامنهما من دون تفكير، فحتى القضايا التقدُّمية لها منطق عائلي عندما يتحكَّم فيها «وعي الانتماء إلى مهنة، إلى الإجماع... إلى الطبقة»[44].

كثيرا ما اتُّهم سعيد بأنه يفرط في الميل إلى الجدل، ولكنه كان في الواقع يسعى إلى كسر القواعد غير المكتوبة للعبة المهنية التي يفترض فيها ألا ينتقد أحدٌ زملاءه أو حلفاءه، لكنه بدا على العكس كأنه يصف نفسه في التمهيد الذي كتبه لكتاب «التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية» (1996) لإسرائيل شاحاك، وفيها عبَّر عن إعجابه بالتزام شاحاك «بأن يكرِّر، أن يصدم، أن يثير الكسالى أو الذين لا يكترثون بحيث يستيقظ وعيهم المشحون بالألم الإنساني الذي ربما كانوا مسؤولين عنه»[45]. لكنه في الواقع – وهذا أمر يبدو أن منتقديه لا يدركونه – كان يسعى أكثر إلى التهدئة، بل إلى المراوغة. ففي ردِّ فعله للتحالف المخجل بين النقد الأكاديمي والاتِّجاه المحافظ في عقد الثمانينيات مثلا عبَّر عن نفسه بأسلوب حذر بقوله «إن تياراتها الفكرية والعملية... تؤدّي دورها داخل الحقبة الريغنية»[46].

كان التركيب النحوي معهودا، فالتزاما بحرصه على تفادي توجيه اتهامات مباشرة أو روابط سببية («تؤدّي دورها داخل» ولا تصل إلى درجة «تدعم» على سبيل المثال)، فإنه ترك لنفسه فرصة للهروب، لكنه من الناحية الثانية مزّق قلوب مناوئيه عندما أراد مثلما فعل مع صاحب الاسم المستعار سمير الخليل الذي ألمح إلى أن سعيد كان يتعاطف في السرّ مع صدّام حسين (على رغم أن سعيد كثيرا ما هاجم صدّام في الصحف)، وتسبَّب في استثارة توبيخ وصفه سعيد فيه «بالواوي المتلصِّص» الذي انكشف جُبْنُه باتخاذه لذلك الاسم المستعار الدّبق[47]. ولا يدهشنا لذلك أن الكوادر الداعمة لإسرائيل والمسؤولة عن التدريب في أيپاك نُصحت بعدم مقاطعة المتحدِّث في المناسبات العامَّة «لأن في ذلك مخاطرة كبيرة - مقاطعة إدْوَرْد سعيد ونُوَم چومسكي مثلا... إدْوَرْد سعيد كان مذهلا – من شأن تحدّيه أن يُظهركم بمظهر سيِّئ»[48].

وبعد أن انتُخب سعيد رئيسا لرابطة اللغات الحديثة في العام 1998 استقال جون وِتْمَن Jon Whitman، وهو واحد من طلبة سعيد السابقين، وكان قد انتقل إلى إسرائيل للعمل في الجامعة العبرية، من الرابطة بحجَّة أن سعيد لم يُبْدِ القدْر الكافي من الاحترام عند الردِّ على نقّاده[49]. فما كان من ردِّ سعيد العلني إلا أن ذكَّر الأعضاء بأن ردوده جاءت استجابة لتهجّمات تقطر سُمّا، وبأن العديد من الأعداء الذين قيل إنه جرَّدهم من إنسانيَّتهم كانوا مايزالون من أصدقائه المقرَّبين[50]. أما سَلْقُه لأعدائه – كما في ردوده على مايكل وولتْسَر Michael Walzer وروبرت غْرِفِن Robert Griffin مثلا – فهي مسلِّية جدّا، لا بل هي مخيفة قليلا لما فيها من عنفٍ لفظي. ولا شكَّ في أنه قادرٌ على توجيه الهجاء المقذع، كما في الرسالة التي أرسلها لجريدة هَآرِتس Ha'aretz عندما وجَّه ميرون بنڤنيستي Meron Benvenisti اللوم للفلسطينيين لفقدان وطنهم وأملاكهم في معرض اتّهام سعيد بأنه اختلق ماضيه بينما أخفى بنڤنيستي «دوره الحقير في التطهير العرقي للقدس» بعد العام 1967: «بنڤنيستي الفجّ، الغوغائي الهادر هذا، يأمرنا باستخدام لغة السوق الممجوجة التي لا تصلح للفكر السوي أو للحوار المنطقي، إن كان لنا أن نحكم من رداءة كتابته»[51]. ولكن على رغم هذه الأمثلة فإن التعبير المهدِّئ غير المباشر كان النمط الأغلب عنده.

قال سعيد في العام 1983، مع كلِّ التحدّيات للجوانب الجدلية من ذهنه، إن بعض الناس حسبوا أنه ليس سوى «ماركسيّ غير معلن»، ولذلك فإن الوقت حان لتوضيح موقفه[52]. ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع، بينما لم يحقِّق من فعلوا سوى نجاح محدود[53]. وسواء أكانت أفكاره بسيطة أم لم تكن فإن من الممكن وضعها في مكانها الصحيح عند النظر إليها على خلفية ثلاث طرق في النظر إلى العالم ظلّ يتعلَّم منها على الدوام، طرق رفع من شأنها أحيانا ولكنه ظلّ يمتنع عن الالتحاق بها وهي الماركسية، والنسوية، والتحليل النفسي.

***

يبدو أن من المعقول تماما أن نتَّفق مع الشاعر الأيرلندي شيمس دين Seamus Deane وآخرين على أن سعيد لم يكن ماركسيّا بشرط أن نكون على علم بالدرجات المختلفة التي يمكن للمرء فيها ألا يكون ماركسيّا[54]. وعلى غرار آخرين من معارضي

السياسة الخارجية للولايات المتَّحدة، وُصِف سعيد أحيانا بأنه متعاطف مع «الشمولية السوڤييتية»[55]. كانت التهمة سخيفة، ولكن يجب أن نلاحظ أن كثيرا من المفكِّرين الذين انجذب إليهم دعموا الاتحاد السوڤييتي معظم حياتهم. ومن هؤلاء إدْوَرْد پالمر تومپسن E. P. Thompson، وإميل حبيبي Emile Habiby، وج. د. بيرنال J. D. Bernal، وصادق العظم Sadik Al-Azm، وبطبيعة الحال گرامشي Gramsci ولوكاتش Lukács. وقد يكون الأصح أن نذكر – بسبب اهتماماته المهنية - لأنه من جيل كتّاب العالم الثالث الذين بدأوا بصفتهم زملاء في الكتابة في پولندة، وألمانيا الشرقية، وچيكوسلوڤاكيا وأماكن أخرى من الكتلة السوڤييتية. وقد شملت هذه حليفَه وصديقَه بالمراسلة مؤرخ جنوب آسيا راناجيت غوها Ranajit Guha، والمؤلِّف والناقد الكيني نغوغي وا ثيونغو Ngugi wa Thiongo، وصديقَه، أمير الشعراء الفلسطينيين، محمود درويش.

ظلَّ سعيد واضحا فيما يتعلَّق برفضه عضوية المنظَّمات الشيوعية لأسباب عملية وسياسية. ولكن سياسة القوّة الواقعية السوڤييتية في الشرق الأوسط على رغم اختلاط خيرها بشرِّها ألهمت الجماعات الشيوعية داخل الحركات القومية العربية عموما. وبلغ من تداخلها مع سياسة الحياة اليومية أنها غدت من وجهة النظر الفلسطينية جزءا من المشهد وليس تدخُّلا أجنبيّا من الخارج. وفي أوقات أخرى ادّعى عدمَ فهم ما يجري، ورفض بشكل غير مقنع طلبا من صديقته المعجبة به ڤانِسا رِدْغرَيڤ Vanessa Redgrave لأن يكون عضوا في مجلس منظَّمة سياسية يساريَّة كانت تنتمي إليها بحجَّة «[أنه] جاهل بالتاريخ السوڤييتي، وبخاصة تاريخ الماركسية؛ لذلك [فإنه سيشعر بأنه] أبله تماما»[56].

عبَّر سعيد عن رأيه الإيجابي المشروط بالسياسة السوڤييتية الخارجية نحو الشرق الأوسط منذ العام 1969 وموقفه الشخصي منها بصراحة[57]. غير أنه كثيرا ما تساءل عمّا إذا كان من الممكن للماركسية التي ابتكرها الغرب أن تكون ذات فائدة خارجه: «مازلتُ لا أرى ترجمة مقنعة للماركسية الأوروبية لظروف العالم العربي أو ظروف العالم الثالث»[58]. ومع كلِّ ما تتَّصف به القومية العربية من روح بطولية واستقامة فإنه وصفها في يوم من الأيّام بأنها مستعارة وغير أصيلة، ولذلك فإنها «أرخص» من اللازم[59]. وبما أنها نشأت واكتملت في مكان آخر فقد كان من المستحيل صبغها

بالصبغة العربية الأصيلة، وينطبق هذا الكلام على الشيوعية. وفي الولايات المتَّحدة كان اليسار المنظّم قد انغمس في مناقشات حول أيهما أهمّ، العنصرية أم الصراع الطبقي، بحيث لم يكن لديه ما يقدِّمه للكفاح الفلسطيني، وهو السبب الرئيس الذي جعله لا يفكِّر أبدا في الانضمام إلى صفوفه رسميّا.

لم يزُر سعيد أيَّ بلد من بلاد الكتلة السوڤييتية حتى وهو في قمَّة شهرته على رغم ما تلقّاه من دعوات باستثناء زيارة قصيرة إلى پولندة بينما كان يعمل على بحثٍ دعمته مؤسسة غوغنهايم في بيروت[60]، لكنه من الناحية الأخرى استثاره جِنْز في لحظة غضبٍ كاشفة: «هل تعلم عن شيء لم أفعله طوال حياتي السياسية؟ أنا لم أنتقد الاتِّحاد السوڤييتي علناً... لم يفعل السوڤييت أي شيء لإيذائي أو لإيذائنا»[61]. وعلى رغم كلِّ صراخ وسائل الإعلام ضدَّ «الثوريين المثبَّتين في الخدمة» والتلقين الماركسي في الجامعة فإن معظم اليسار الأكاديمي نأى بنفسه عن الماركسية أو حوَّلها إلى نمط من أنماط السلوك المخالف، أما سعيد فقد حرص على ألا يفعل أيّا من هذين البديلين[62].

كانت الماركسية بالنسبة إلى سعيد شيئا أكبر وأقدم من الأشكال التي ظهرت بها في القرن العشرين في الاتحاد السوڤييتي أو في الشرق الأوسط. وكانت في أشدِّ أشكالها مثارا للاحترام جزءا من تُراث اليسار الذي يمتدُّ إلى ما قبل ماركس. ويمكننا أن نقول إن ما بذله من جهد في دراسة ڤيكو كان القصد منه إحياء تراث بديل يرفع من شأن الجهد الإنساني، لقدرة الناس العاديين على صنع التاريخ، للصراعات الطبقية التي أنشأت الجمهوريّات الأولى، ولروح الاتِّساع الإنساني الذي يرفض التخصُّص الضيِّق، ويشدِّد على غرار ما فعله ماركس على النظرية السياسية والاقتصاد بروح شعرية. وفي ضوء ذلك نجده يستشهد باستمتاع بالـمُصلِح القروسطي كولا دي ريينزو Cola di Rienzo بصفته أحد مؤسِّسي الفكر ذي النزعة الإنسانية[63]. كان ريينزو، وهو ابن أمٍّ غسّالة وأبٍ يعمل في حانة، يسعى إلى الانتقام من سوء تصرُّفات النبلاء، وللتنديد بطبقة الأرستقراطيين. وقد برع في إثارة الغوغاء بعد أن تعمَّق في دراسة شعراء اللغة اللاتينية وخطبائها بهدف استغلال بلاغتهم لتوحيد إيطاليا.

أشار سعيد أيضا إلى مواقف أخرى في اليسار التاريخي من خلال دير تيليم Abbaye de Thélème، وهو مكان مثالي مناهض للنزعة التسلّطية وصفه رابليه

في روايته «غارغانتوا وپانتاغرول» (1532)، وهو مكان كان بوسع المرء فيه أن يشبع الرغبة الفكرية والجسدية، متحرّرا من العناء والخضوع للسلطة[64]. كان سعيد يسعى، فضلا على عرض التاريخ السابق للنقد الماركسي من أسفل، إلى أخذ الفلسفة الإنسانية من أيدي المحاربين الثقافيين الذين يدَّعون الفضيلة لأنفسهم والذين كانوا ينشغلون في مجلّة هِلْتن كْرَيمر Hilton Kramer المحافظة الجديدة بعنوان نيو كرايتريون New Criterion بإصدار الأحكام عن هذه الأعمال الكلاسيكية نفسها العائدة إلى الحضارة الغربية لغرضٍ مختلفٍ تماما هو فضح بربرية التوجُّه الجديد نحو دراسة الثقافة الإمبريالية.

كان حريصا في نظرته إلى اليسار على تفادي ما فعله جورج أورِول وغيره ممن يصفون أنفسهم بأنهم «اشتراكيّون» ويتفنَّنون في تفادي نقد الطبقة الوسطى من المثقَّفين بأن يعلنوا كفرهم بآلهة اليسار - وهي وسيلة عرفها سعيد جيِّدا من الأعمال الصحافية المتأخرة التي أنتجها هِچِنْز وكتابات لِشِك كُواكوفْسكي Leszek Kolakowski، وكونور كروز أوبراين Conor Cruise O'Brien، وغيرهما من الذين ظلّ في صراعٍ مرير معهم على مرّ السنين. ففي مقالة إثر أخرى نراه وهو يتدخَّل إلى جانب اليسار في محاولة منه لجعل الشيوعيين والمثقَّفين الماركسيين بشرا عاديين بأن يجعل الآخرين يرون أنهم أعضاء في مجهود فكري جماعي[65]. ففي توزيعه للمدائح الإستراتيجية للمؤلِّفين الذين أراد من الآخرين أن يقرأوهم شكَّل قائمة من العروض الديموقراطية الاجتماعية للسياسة الخارجية الأمريكية ودولة المراقبة الداخلية. وكان يحبّ بشكل خاصّ الدراسة الميدانية للتواطؤ المؤسَّسي، مستشهدا أكثر من مرَّة بربِكا سْتونر سونْدَرز Rebecca Stoner Saunders بخصوص الحرب الثقافية الباردة، وبناديا أبو الحاج بخصوص القصص الخيالية التي يختلقها علماء الآثار الإسرائيليون، أو بكتاب كارول گروبر Carol Gruber بعنوان «المرّيخ ومنيرڤا»، وهو دراسة للطرق التي حوَّلت الجامعات نفسها بها إلى آلات في وزارة الحرب في أثناء الحرب العالمية الأولى[66].

تناولت المقالة المعنونة «النظرية المتنقِّلة»، وهي واحدة من أكثر مقالات سعيد التي يجري الاقتباس منها، مسألة استهلاك الحيوية الفكرية التي تتعرَّض لها مفاهيم ماركسية مثل «الكلية» totality و«التشيُّؤ» reification في أثناء ابتعادها

عن الالتزامات الثورية في الصراع الاجتماعي الفعلي بين الأحزاب والحركات نحو الطمأنينة النظرية بعد إخراجها من سياقها[67]. هنالك بطبيعة الحال أمثلة كثيرة يكشف فيها سعيد منظورا سياسيّا لبراليّا صريحا وليس ماركسيّا، ويثير الشكّ ليس فقط في الحكومات التي تسيء التصرُّف، بل يكتشف في منطق المؤسسات بوادر طغيان جديد. والأنموذج اللبرالي الكلاسيكي الذي يضع الفرد الضعيف ضدّ المنظّمات يمكن أن يرى في المقالة المعنونة «النقد العلماني» عندما يختار الثالوث غير المحتمل: النخبة الأنغليكانية عند ت. س. إِلْيُت T. S. Eliot، والحزب التقدُّمي عند لوكاتش، ومجتمع التحليل النفسي عند فرويد للاشتراك «في بقايا ذلك النوع من السلطة التي ارتبطت في الماضي بنظام الانتماء» – أي بافتقاد العقل والعدالة عند التعامل مع أولئك الذين يوجدون خارج «العائلة» الآيديولوجية[68]. ففي التفكير اللبرالي بوجهٍ عامٍّ، يصوَّر الفرد بشكل يجعله مهدَّدا بتراتُبيَّة الجماعات والأحزاب والبرلمانات.

وهناك تلميحات إلى هذه الوسطية يمكن أن نلاحظها في حماسته لمعاصر غرامشي پييرو غوبِتي Piero Gobetti الذي يُلْهِمُه باستعمال شعار في كتاب «الثقافة والإمبريالية»: «العامل الغوبِتي»[69]. فقد مثَّل غوبِتي بصفته مثقَّفا أدبيّا شابّا لسعيد معرفة فلسفية واسعة غير ملتزمة وضعت لاستنهاض الآخرين. كان غوبِتي، شأنه شأن غرامشي، طالبا في جامعة تورِن، وقد تغيَّرت نظرته إلى الأبد بعد أن شاهد الدَّورَ الرائع الذي كان غرامشي الشابّ يؤدّيه في حركة العمّال في تورِن. وقد استوعب، أكثر من أي شخص آخر من جيله، درْسَ غرامشي، وهو أن من المهمِّ جدّا وصل الجنوب («الذي كان فقرُه ورصيده الضخم من اليد العاملة»، كما قال سعيد، «خاضعين لسياسات الشمال وسلطته») بالشمال الذي يَعتَمِد عليه[70]. لكنه، على غرار سعيد، كان أقلَّ ثورية من غرامشي، مؤيدا للحزب الشيوعي الإيطالي، ولكنه لم ينتمِ إليه في حياته. وقد وجد غوبِتي في الحقبة الفاشيِّة أن المدافعين الوحيدين الثابتين والفعَّالين عن المُثُل اللبرالية كانوا أعضاء اليسار المنظَّم. وقد ألمح سعيد إلى أنه انتمى إلى اليسار عن غير رغبة، ولأسباب عملية، وبذا أصبح غوبِتي عصره.

لكن هذا أيضا بدا أنه قناع كونرادي، إذ كانت هنالك أمثلة معاكسة أخرى كثيرة. فقد قال يوما في تعليق جانبي ساخر: «نحن اللبراليين» نصف موقفا من المواقف بأنه معقَّد «في إشارة من إشارات البلاغة... قبل النطق بكذبة، أو عندما

يوشك تواطؤ خطير مناهض للأخلاق مع فعل من أفعال الظلم على أن يجري التكتُّم عليه»[71]. وعلى رغم أنه أقرَّ بتأثير الشجاعة والوضوح المتمثِّلين بشخصية وِل روجرز Will Rogers واللذين أبداهما الفيلسوف البراغماتي رِچَرد رورْتي Richard Rorty مثلا فإنه لم يكن مقتنعا «بلبراليته الحاسمة» وكره سياسته القائمة على مبدأ «أمريكا أوّلا»[72]؛ وبما أنه لم يستسغ الدجل اللبرالي فإن أصدقاءه المقرَّبين قطعوا بأن سعيد كان «ماركسيّا في الأساس»، ولكنه ليس شيوعيا طبعا[73].

لكن صادق العظم من الناحية الأخرى رأى أن «البنى الأساسية لتحليلات سعيد بعيدة كل البعد عن الماركسية»، وأن ماركسيته ليست سوى «مساحيق تجميلية» على رغم أن العظم أقرَّ باحترام سعيد لفلاسفة القرن العشرين الماركسيين[74]. وقد وافقه چومسكي في هذا الرأي وتحدّى أي شخص يمكنه أن يُرِيَه مكانا في أعمال سعيد تدخل فيه الماركسية بصفتها مبدأ تحليليا جادّا[75]. كذلك ابتهجت دِيرْدْرَه بيرغسن Deirdre Bergson، وهي صديقة مقرَّبة كانت في وقتٍ سابق من حياتها نشطة في الحركات التروتسكية في جنوب أفريقيا، باعتراف سعيد في كلمته التي ألقاها في حفل تخرُّجه في كلية هاڤرفورد أنه كان ينبغي أن يدرس الاقتصاد بجدِّية أكبر، ولكنها اشتكت (على نحو غير دقيق وفقما تبيَّن فيما بعد) من أنه لم يقل أيَّ شيء عن الطبقة في أيٍّ من أعماله[76].

غير أن الهجوم على ماركس في كتاب «الاستشراق» بدا لكثيرين أنه ينهي مسألة ميول سعيد الحقيقية، ففي حركة أصاب الباحثون في انتقادها حشر سعيد ماركس في صفٍّ جون سْتوَرْت مِلْ بوصفه رجلا يؤمن بتدنّي مستوى الهنود[77]. لكن ما على المرء سوى أن يطَّلع على قراءات سعيد المطوّلة والمتأنِّية لكتاب ماركس بعنوان «الثامن عشر من بروميِر الخاص بلويس بوناپارت» Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte في المقالة المعنونة «في التكرار» On Repetition للخروج بانطباع معاكس. وفي الأشهر التي كان يكتب في أثنائها كتاب «الاستشراق» كان دعمه للشيوعي الألماني [ماركس] قويّا، بل أمْيَل إلى الدفاع:

> قيل عن ماركس إنه رأى هذا الصراع بوصفه أمرا اقتصاديّا خالصا؛ هذا تزييف خطير... لقد كان يدرك تماما أن الصراع جرى التعبير عنه مادِّيّا، ويمكن وصفه بعبارات اقتصادية. ولكنه كان، في رأيي، بالغ

الحساسية للديالكتيك الذي يتحكَّم في النتائج، وللتصوّرات غير الملموسة ولكنها حقيقية جدّا، وللتوافقات والتنافرات التي أنتجها الصراع. هذا هو الفرق بينه وبين هوبْز الذي رأى أن الحياة قبيحة، ووحشية، وقصيرة[78].

من الواضح هنا في كل الأحوال أن سعيد كان يتَّهم الفكر البورجوازي (ممثَّلا بشخص هوبْز) بالمادِّيَّة الفجَّة، ويقول إن ماركس نفسه كان، من بين أشياء أخرى، ناقدا ثقافيّا لا يقدّر بثمن، ظهر في وقتٍ مبكِّر[79]. أما ما كان لديه من تحفُّظات فيبدو أن القصد منها كان تشجيع مفكِّري العالم الثالث على التحرُّر من الأيقونات الأوروبية، بغضِّ النظر عن نزعتها التحرُّرية. وكان شديد الرغبة في أن يبيِّن أنه ليس معنيّا بمبدأ «التضامن قبل الانتقاد»، وهذه عبارة كثيرا ما استُخدِمت للتعبير عن مدى الشعور البورجوازي عندما يحافظ الحلفاء على الصمت إزاء أخطائهم حفاظا على القضية المشتركة. وبهذا كان سعيد يعني أنه حتى ماركس، وهو عملاق من عمالقة التحرُّر والالتزام الأخلاقي، لم يكن قادرا على الإفلات من المركزية الأوروبية.

كثيرا ما جاء نقده للماركسيين من جهة اليسار، فقد اشتكى من أن أساتذة الجامعات أضعفوا القوة الثورية للماركسية بتحويلها إلى «أسلوب للقراءة بالدرجة الأولى»[80]. وشعر بالانزعاج عندما وجد أن زبدة الكتابات الماركسية كانت تُعامَل بلا دراية، أو تُشوَّه من جانب أناس يتمتَّعون بالحرية السياسية، وشعر بأن من واجبه حمايتها. ففي تقريرٍ يعود إلى العام 1976 كتبه عن كتاب «النقد في البرّيَّة» Criticism in the Wilderness لجِفْري هارتْمَن Geoffrey Hartmann على سبيل المثال، وجد مما لا يغفر للمؤلِّف أنه «أخرج كلَّ ما يتعلَّق بالماركسية وعلاقتها بالفلسفة الهيغلية من الغرفة»[81]. أما الخطبة القَبَلية المملَّة بعنوان «صراع الحضارات» The Clash of Civilizations (1996) لسامْيُوِل هَنْتِنْغتن Samuel Huntington فقد عرض فكرته من دون الالتفات إلى «عولمة رأس المال». واقتبس من كتاب أوسكار وايلْد «روح الإنسان تحت حكم الاشتراكية» - «ليس هنالك من طبقة تعي ألمها حقّا في حياتها»، وأضاف أنه «لذلك السبب فإن مثيري الاضطراب ضروريون لإيقاظها من غيبوبتها»[82].

غير أن حسابات الاقتصاد السياسي ومعضلات الصراع الطبقي التي تتصل بالماركسية تؤدّي دورا بارزا في كتابات سعيد عن فلسطين على نحو خاص. ففي

المقالة المعنونة «مستقبل فلسطين: وجهة نظر فلسطينية» وصف ما دعاه من دون مواربة «دور المثقّف في الطبقة»[83]. وظلَّ يلحُّ مرارا وتكرارا على ضعف البورجوازية الوطنية العربية التي عجزت عن تشكيل مجتمع مدني، ولذلك فإنها خضعت للبديل الذي لا يطاق ألا وهو «دولة الأمن الوطني»، فيما أخذ يهاجم العرب الداعين إلى حرّيَّة السوق في كتاباته المتأخرة التي نشرها في صحف الشرق الأوسط[84].

لذلك يبدو أن من المعقول أن نقول إن العظم وچومسكي لم يكونا مصيبين في قولهما إن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في الماركسية لم تشكِّل جزءا أساسيّا من تحليلات سعيد، فهي على العكس من ذلك واضحة كلَّ الوضوح في دراسته للقطاع الخاصّ العربي في «نهاية عملية السلام» The End of the Peace Process (2000)، وليس هناك فقط[85]. لقد صدمه المستوى المتدنّي للتنظيم والوعي النظري للمناضلين في بيروت في العام 1972، فكتب تفسيرا بنيويّا للوضع السيِّئ ابتعد فيه عما هو شخصي أو حزبي:

> [نجد] أن نمط الإنتاج ونمط التوزيع يؤدِّيان إلى الاستهلاك والتفتُّت. أقصد أن ما يحدث هو كالتالي: بما أن المجتمع ليس سوى سطح، غلاف خارجي، فإنه لا ذاكرة له، لا إحساس بالأبعاد... ولذا فإن الإنتاج – للمفارقة – هو الاستهلاك... أنت تُنتِج فكرة، مُنتَجا، حركة، من أجل أن تجعلها تحدث فقط – بانتظار أن تُستَهلك... ليس هنالك من تاريخ[86].

وهذا يعني أنه على رغم استخدامه لأنماط التفكير الماركسية وجهازها المفاهيمي فإنه قاومها في الوقت نفسه؛ وذلك لسبب وحيد، وهو أن أتباعها لم يعملوا على تطويرها تطويرا إبداعيّا.

يشكِّل التحليل النفسي جزءا مهملا آخر من العدَّة الفكرية لدى سعيد. وقد ذهب صديق طفولته أندريه شارون Andre Sharon إلى حدِّ القول إن «التحليل النفسي هو مفتاح شخصية سعيد»[87]. وهنا أيضا نجد أن سجلَّ تعامل سعيد مع فرضيات «العلاج بالكلام» وإجراءاته ناقص ولا ينتهي إلى نتيجة حاسمة. ويميل القرّاء إلى نسيان البحث الطويل الذي خصَّصه سعيد لفرويد في كتاب «البدايات» Beginnings، أو إسقاطه من حساباتهم. لكن سعيد أكَّد أهمِّيَّة الدَّور الذي أدّاه الطبيب الڤِيَنّي في الكتاب وذلك في التمهيد الجديد الذي كتبه للإصدار الجديد

لكتاب «البدايات» في العام 1985. ويمكننا أن نرى أن وضع ذلك الدَّور هناك دليل على أهمِّيَّة نظريّات فرويد لعمله، ذلك أن القراءة المعتمدة على التحليل النفسي لكونراد والكتاب الأخير الذي نشره قبل وفاته بعنوان «فرويد وغير الأوروبي» Freud and the Non-European (2003) تحدّ سيرته المهنية من طرفيها. غير أن الاهتمام الذي أبداه نحو هذا الحقل قد لا يروق لأغلبية الفرويديين بالضرورة.

لم يحصل القرّاء المتمعِّنون لكتاب «البدايات» إلّا على قدر ضئيل من عنايته الشديدة بالدلالات النفسية للغة. وعلى رغم معالجة سعيد لكتابات فرويد عن الأحلام، ودور الأب، وعقدة أوديب Oedipus complex، فإن من الواضح أنه ينظر إلى النظام الفرويدي بصفته نظاما لغويّا نصِّيّا بالدرجة الأولى. ومن الواضح تماما أن التحليل النفسي يعتمد على الكشف عن أسرار اللاوعي («لوح الكتابة المملوء بالأسرار» بتعبير فرويد) عن طريق التدقيق في أصول الكلمات التي ينطق بها المريض الذي يتلقّى العلاج من دون قصد منه. وبالطريقة نفسها، ليست قوى الخيال عند الكاتب في نظر فرويد سوى نتيجة للتعبير عن النوازع الجنسية بعبارات يقبلها المجتمع. ويستشهد كتاب «البدايات» بفرويد للتحرُّر من التقاليد الأدبية بالكشف عن الدوافع الكامنة خلف حركة السرد زمانيّا ومكانيّا وجعل الأفكار مساوية للرغبات[88]. أما الحركات التي قد يربطها المرء بالقراءة التحليلية نفسيّا (مثل استقصاء الأعراض المكبوتة، أو تركيز الطاقة النفسية على شيء واحد أو فكرة واحدة، أو أنواع العصاب السايكوسوماتية(*) فلم تكن ذات أهمية لسعيد.

غير أن جهوده كانت تعود إلى أسباب شخصية وليست فكرية فقط. فقد بدأ سعيد بالتحليل المكثَّف في أثناء المرحلة الجامعية الأولى في پْرِنْستن وبقي تحت العلاج بقية حياته[89]. فالاضطراب الذي نتج عن أبٍ كان يحسُّ أنه بعيد غير متعاطف، والمعرفة الجنسية التي تعرَّض لها بعد تحرُّره من أحضان أمه الخانقة أدّى كلٌّ منهما دوره فيه. ولكنه شعر أيضا بتوتر يصعب حلُّه ناجم عن صعوبة التوفيق بين متطلَّبات السياسة التي لام نفسه لعدم فعل ما يكفي لها، ومتطلَّبات الحياة الفكرية التي لم يكن بوسعه العيش من غيرها. كذلك كانت عاداته في الكتابة

(*) أي التي لها أعراض جسمانية ذات أصل نفسي. [المترجم].

مصدرا آخر للعذاب، فبدلا من السماح لأفكاره بالتفتُّح عبر وضعها في مسوّدات متتالية فإنه اختزنها في ذهنه وأطلق أجزاء منها في الحديث إلى أن لم يعد قادرا على حبسها، فأخذ يسجِّلها في تيّار دافق من الكتابة. وعلى رغم أنه عاش في عذاب فإنه لم يسمح لكثيرين برؤية هذا الجانب[90].

كان قد أغرق نفسه في أدب التحليل النفسي في أوائل السبعينيات، واحتفظ بقائمة طويلة من المصادر والمراجع التي تضم أحدث ما صدر منها حتى العام 1973 ـ وهي قائمة كان قد أعدَّها في «مركز الدراسات النفسية للفنون» التابع لجامعة بَفَلو[91]. كان ذلك في جانبٍ منه، كما كشف في مقالته بعنوان «الفوضى المحافظة عند سْوِفْتْ» لأنه كان ينوي في دراسته عن سْوِفْتْ أن يكتب تفسيرا نفسيّا قد لا يكون كاملا ولكنه سيحاول على الأقل "أن يصف الظروف التي جعلت مدى الحالة النفسية عند سْوِفْتْ ممكنة، من الاهتمام «بالحرِّيَّة العادلة إلى الهوس بالفوضى»[92]. ونحن نعلم أنه كان مشغولا في شهر أكتوبر من العام 1968 بإعداد دراسة (لم ترّ النور) عن الصلة بين اللسانيّات وعلم النفس وعلم الطبِّ النفسي لكي تنشر في ذا هدسون ريفيو The Hudson Review، وكانت النيَّة أن تضع هذه الدراسة في مواجهة مع محاضرات لاكان التي ألقاها في روما في العام 1953 ونظريات چومسكي[93]. وهذا مما جعل صداقته الوثيقة مع زميلين مختلفين تمام الاختلاف من حيث السنّ والسياسة والمشاعر العامّة هما أَلِن بيرغسن Allen Bergson وجاكلين روز Jacqueline Rose، أوّلهما محلل نفسي ممارس، والثانية ناقدة أدب من وجهة التحليل النفسي... أمرا طبيعيّا.

أمّا ما قد يغفل عنه حتى أشدُّ قرّاء البدايات انتباها من الناحية الثانية فهو الطبقة العربية التحتية لكلِّ مغازلات سعيد مع النظام الفرويدي. فقد كتب في العام 1972 لسامي شكوى مريرة قال فيها: «لم يُنتِج العرب من ابن سينا وابن خلدون (اللذين استعارا من أرسطو) أي نظرية عن العقل»[94]. وهذا موضوع ظلَّ يؤرِّقه باستمرار ويزيد من تصميمه على تصحيحه. فعلى الرغم من أن المستشفيات العقلية المتقدّمة والروايات النفسية الممتازة التي أنتجتها الثقافة العربية فإنها «ظلَّت مفتقرة إلى علم النفس» في نظريتها الاجتماعية[95]. لكن سعيد امتدح محفوظ للعمق النفسي في تصويره للشخصية وفي القدرة على التعبير عن «النمط الخاص للتجربة النفسية العربية».

> من أقوى الأشياء المتعلِّقة بالثقافة الغربية إقامة الكيان كلِّه على نظرية فعّالة للعقل الإنساني... ففي غياب هوية للأنا وثبات لهذه الأنا تكون العلاقات عابرة. وما يقال يكون صحيحا في أثناء اللحظة ومن ثمّ يموت (مجازيّا). والصلة بين اللغة والواقع لا يجري بحثها أبدا[96].

هذه الإمكانيات المدنية للتحليل النفسي كانت هي التي ركَّز سعيد عليها. فقد أثَّرت فيه، على سبيل المثال، مقالة إرِك إرِكْسن Erik Erikson بعنوان «أوَّل محلِّل نفساني» The First Psychoanalyst (1956)، لاسيّما نظريته الخاصة بصراعات الهوية داخل الأنا وما ينتج من خلطٍ حول دور الفرد المنتج في المجتمع. ففي رأي فرويد تكون الشهوات المادية للاوعي هي العوامل الرئيسة للحياة العقلية، أما إركسن فيرى أن حاجات الأنا النفسية هي لإشباع الرغبات ذات الطبيعة الاجتماعية.

وصف سعيد هذه الأبعاد المدنية للتحليل النفسي بعبارات أوضح في الحواشي التي وضعها لكتاب «البدايات». فقد لاحظ أن فرويد أراد أن يكون محاميا، أو سياسيّا، أو مُشَرِّعا قبل أن يختار دراسة الطبّ، وعندما نُفِيَ من النمسا في العام 1938 حمل تحت إبطه مخطوطة عن موسى، المشرِّع الأكبر. وقد لاحظ سعيد من هذه الزاوية أوجه الشبه بين التحليل النفسي وكتاب «العلم الجديد» لڤيكو، ذلك أن ڤيكو ربط نفسية البشر في حقبة ما قبل التاريخ بدراسة حياتهم الاقتصادية، وتألّه العمل في أسطورتي هرقل وڤَلْكَن(*) مثلا، وبيَّن أن الخوف من الرَّعد قاد البشر الأوائل لتدجين الطبيعة في الزراعة. وما رآه سعيد عند ڤيكو لاحظته حنّة أَرِنْتْ أيضا، ووصفته باحتقار (ولكن بدقَّة) بأنه «آيديولوجي المجتمع غير الطبقي»[97].

كان اهتمامه، وفقا لوصفه، ينصبُّ على علم النفس السياسي أكثر مما ينصبُّ على التحليل النفسي. وقد وُجد نموذج في مقالة نديم روحانا بعنوان «الأسس النفسية للسلوك السياسي» Psychological Bases of Political Behavior، وفيها أراد الكاتب أن يفسِّر العوامل الداخلية لـ«الإنكار» الإسرائيلي – وهو إحلال المسؤولية عن عذاب الآخرين باستعادة ذكرى قومهم[98]. ولذا، فإن سعيد أصاب في كتابه «فرويد وغير الأوروبيين» حيث يجري تصوير فرويد ليس باعتباره المستكشف

(*) هو في الأساطير الرومانية إله النار والأشغال المعدنية. [المترجم].

الجريء للاوعي بل بوصفه شخصا أثار الشكَّ في تفرُّد الانتماء اليهودي بإبداء ملاحظة تقول إن موسى كان مصريًا. ولربّما أعاد اليهود أصلهم إلى إبراهيم، ولكن ديانتهم التوحيدية جاءت «من الخارج، من غريب عظيم»[99]. وفي الوقت نفسه نهض فرويد بصفته شخصا تحدّى بصراحة ما يقال عن أن اليهود غرباء عن الثقافة الأوروبية؛ إنهم، وفقا لرأيه، جزء من نسيجها، ولذلك فإنهم ليسوا غرباء. أضف إلى ذلك أن فرويد أبدى غضبه على الصهيونية أو أبدى مخالفته لها – فكتابه «موسى والديانة التوحيدية» يشكِّل محوا تاريخيّا لانسجام الهوية القَبَلية بحدّ ذاتها لأن مؤسس الدين كان في الحقيقة غريبا وليس أوروبيّا[100]. لقد أشار الكتاب إلى تشابه التجربة الفلسطينية واليهودية.

ولئن كان التحليل النفسي في نظره «نصِّيّا» بمعنى أنه تعلَّم من استراتيجيات الكتابة عند فرويد، فإنه كان في الشرق شيئا عالي القيمة بذاته ولو بطريقة أقرب إلى الاجتماع والسياسة مما يسمح به تركيز فرويد على نفسية الفرد. وعندما اقترح كارل براون Carl Brown، أحد مراسليه الأكاديميين، عقد مؤتمر عن التحليل النفسي في العام 1972 فإن سعيد تحمَّس للفكرة، ولكنه أراد إعطاء اهتمام خاصٍّ «بالجانب العربي من الحقل»[101]. وكان سعيد متحمِّسا لهدف براون المتضمِّن الكشف عن كثير من إساءة استخدام التحليل النفسي في الشرق الأوسط بما في ذلك التعذيب النفسي الذي استخدمته قوّات الاحتلال في الجزائر وتستخدمه في الأراضي الفلسطينية المحتلَّة، فضلا عن الكليشيهات الفرويدية التي تتحكَّم في تغطية كل تلك الأعداد من وسائل الإعلام الغربية، كما حدث عندما نُسِبَت دوافع ناصر في أزمة السويس إلى كرهه لأبيه. ولكنه حذَّر من مشكلات الترجمة «لأن معظم العاملين في التحليل النفسي لا يعرفون اللغة، ولأن معظم من يعرفون اللغة لا يعرفون شيئا عن التحليل النفسي».

على رغم كلِّ ما وجده سعيد في التحليل النفسي من جاذبية فإنه كيَّفَه ليتوافق وما يريد. قرأ أندريه غورين André Green، المختصّ في التحليل النفسي والمولود في القاهرة لأبوين يهوديين علمانيَّين، والتقى كرِسْتُفَر بولاس Christopher Bollas، مؤلِّف المفهوم النفسي الحديث المهم، وهو مفهوم «المعروف الذي لم يخطر على البال» unthought known[102]. وكان في ذلك الوقت على معرفة حتى بطرق

العلاج غير المألوفة، ولكنه شنَّ حملة ضدّها. كان الجانب المهم من فرويد في نظره هو فرويد المؤلِّف صاحب الأسلوب المتميِّز وليس صاحب نظرية خيالات الطفولة، وقدرة الأحلام على الإبداع. وكتب في رسالة لبراون عبارة مضلّلة متكرِّرة تقول إن الشعراء هم أوَّل من مارس التحليل النفسي. وفصَّل القول في هذا الرأي على نحو حَذِرٍ في توطئة أطروحته عن كونراد (في فقرات حذفت من الكتاب)، وقال «إن الجدل ضدّ التحامل الذي يكنُّه نقد أعمال كونراد على التحليل النفسي لا يزيد على كونه إدانة لتلميذ الساحر(*)»[103]. باختصار، مهما كان السحر الذي أنتجته المدرسة الفرويدية من النقّاد فإنه كان مستمدًا من معلِّمهم (كونراد في هذه الحالة)، وهذا هو السبب الذي جعل سعيد يحتفظ بإعجابه بقوَّة الساحر التي تخضع لسيطرته.

وعلى رغم كلِّ ما قدَّمه التحليل النفسي، فإنه لا يسلِّم بأن العقل «يمكن استرجاعه بالحفر النفسي»[104]. فقد صدمه مشهد التحليل النفسي في نيويورك الذي كانت له فيه جذور عميقة تعود إلى بدايات سيرته العلمية، ففي 9 يناير 1966، أي بعد سنوات قليلة من التحاقه بهيئة التدريس في جامعة كولمبيا، وَصَفَ سعيد حفلة أحييت في بيت زميل له على النحو الآتي:

> كنت أراقب في تلك الليلة في بيت كْوِنْتن أندرسن Quentin Anderson؛ اللباقة، والاستخدام الواثق المعتز، الاستحواذ، متسلّحين بفرويد من خلال ستيفن ماركُس Steven Marcus، ورِچَرد هوفْستاتر Richard Hofstadter، واقتنعت بأن فرويد قد استبدل – أو (مثل إنشاء دولة إسرائيل) حقَّق العهد القديم لليهود. أرض الميعاد، المخلِّص. البساطة، تحقيق الأماني، تحقيق حلم ضخمٍ مستمرّ. كلُّ الشهوات والغرائز يعود أصلها إلى مكان واحد (فرويد)، ثم يذهبون إلى آخَر عندما تتحقَّق، هم أنفسهم – إسرائيل. يا للكمال والبساطة، إنه نظام لا يقاوَم، نظام ليس جذابا فقط، بل خبيث. يجب الابتعاد عنه مهما كان الثمن. (التأكيد لسعيد)[105].

(*) تشير عبارة «تلميذ الساحر» إلى قصيدة لغوتة بعنوان Der Zauberlehrling اعتمد عليها الموسيقار پول دوكاس في واحد من أجمل مؤلّفاته الموسيقية. [المترجم].

بدلا من السعي إلى الدخول في هذه الدائرة الخاصة تحوَّل سعيد إلى آيزَك دويچر Isaac Deutscher الذي قال في كتابه «اليهودي غير اليهودي» The Non-Jewish Jew (1968): إن الوضع القلق والشعور بالغربة داخل أوروبا أعطى يهودا من أمثال سپينوزا، وماركس، وتْروتْسكي، وفرويد موقعا متميِّزا وسببا للمقاومة، ومن الممكن تفسير نصرهم الفكري بالرجوع إلى تهميشهم الاجتماعي بأفضل من تفسيره بالدوافع الغريزية أو الإرادة الربّانية[106].

على غرار التحليل النفسي، شكَّلت الحركة النِسْوية في حياة سعيد المهنية مسألة مؤرِّقة، وتداخلت إلى حدٍّ ما مع التحليل النفسي بصفتها استقصاء للرغبة والحياة الجنسية وتشكيل الذات. وكانت التزاماته نحو «قضية المرأة» ذات عمرٍ أطول وأوضح مما حسبه الكثيرون، وقد عبّرت دِيَرْدْره دَيڤِد، وهي طالبة سابقة من طلبته ظلَّت على اتصال معه فترة طويلة، عن هذه الناحية بوضوح: «كان سعيد من أنصار الحركة النسوية»، ليس فقط لأنه كان محاطا بنساء متميِّزات وعمل معهن بصفتهنَّ أندادا له، واعترف بمساهماتهنَّ، بل لأن النساء كنَّ فئة خاضعة[107]. أما الحركة النسوية الأكاديمية الأمريكية فلم تقنعه قط. وقال إن المشاركات السياسية التقدمية لأناس مثل ميشيل بارِت Michèle Barrett في بريطانيا لم تجد في الأغلب من يتابعها في فرنسا أو الولايات المتَّحدة حيث «أصبحت مسألة الجندر (مسألة الذكورة والأنوثة) مسألة ميتافيزيقية ونفسية»[108]. كذلك لم يغب عن ذهنه أن الموجة الأولى من الحركة النسوية عملت جنبا إلى جنب مع الإمبريالية[109]، لكن من ناحية أخرى، وفي ظلٍّ ظروف مختلفة، كانت قضيَّتهن جزءا من قضيَّته. فقد عمل سنوات لتأسيس مركز المصادر للنساء Women's Resource Center في الضفة الغربية، وسرعان ما اعترف بالدور المركزي الذي أدَّته النساء في الانتفاضة[110].

وقد كان من رأيه أن المؤيِّدين لن يغضبهم شيء سوى الجرأة المفرطة للحركة النسوية، مثلما حصل معه بصفته فلسطينيّا عندما أصرّ على أن اليسار واليمين ليسا القطبين الوحيدين في السياسة. كان وضع الفلسطينيين يشبه وضع النساء من حيث «الغياب والصمت» اللذين تعانيهما الفئات الاجتماعية غير المرغوب فيها بفعل الاستبعاد المتعمَّد المبرمج[111]. وقد ظلَّ سعيد طوال عقد الثمانينيات، بعد أن أخذ يفقد الاهتمام بالنظرية الأدبية، يجد في الحركة النسوية ظاهرة تتضمَّن «محاولات

جديدة، جريئة، تثير الاهتمام لعمل شيء من وجهة نظر تاريخية تستخدم المحاكمات العقلية والوسائل التي كثيرا ما كانت تتجاوز الأعراف السائدة»[112]، وكثيرا ما أشار إلى كتاب The Mad Woman in the Attic «المرأة المجنونة في العلِّيّة»(*) (1979) من تأليف ساندرا گِلْبرت Sandra Gilbert وسوزَن غوبار Susan Gubar، إلى جانب كتاب Plotting Women (1989) لزميلته في جامعة كولمبيا جين فرانكو Jean Franco، ومجادلات جون سْكُتْ Joan Scott «المدهشة المملوءة بالحيوية»، وكتاب «الجنس الاجتماعي والثقافة والإمبراطورية» Gender, Culture and Empire (1986) لهِلِن كالَوَيْ Helen Callaway، وأعمال إيلين سِكْسو Hélène Cixous وغيرها، وهي أعمال جعلت من غير الممكن... تجاهل قضايا الجنس الاجتماعي في إنتاج الفنّ وتفسيره[113].

لم تحصل أي امرأة في مَجْمَع عُظَمائه على مرتبة تعادل مرتبة ڤيكو طبعا، ولكن دور النساء، ولاسيَّما في النقد الموسيقي، حصل على قدر كبير من التركيز. فقد شجَّعه كتاب كاثرين كْلِمِنْت Catherine Clement بعنوان «الأوبرا: تدمير النساء» Opera: The Undoing of Women (1979) على رفع صوته ضدَّ الأنماط التي تثير الأعصاب في التراث الكلاسيكي الغربي حيث صُوِّرت النساء إما «بصورة الملهِمَة، الـمُعينة، المساعدة، الـمُحِبّة، الأدنى مرتبة، لموسيقار شهير» أو الساحرة التي «تجمع الغواية والدمار» – كما في «لولو» Lulu لألبان بيرْغ Alban Berg، أو «سالومي» Salome لرِچَرْد شتراوس Richard Strauss[114]. وعند الانتقال من الثيمات إلى المؤسسات علَّق على ندرة الأعمال المهمة التي تتناول دور النساء في إنتاج الموسيقى وأدائها. واشتكى سعيد من أن النظرية النسوية لم تُبدِ من المعرفة والحذق في النقد الموسيقي بقدر ما أبدته في حقول أخرى، ولم يكن ذلك بالأمر المفاجئ لأن مؤسسة الموسيقى الكلاسيكية الغربية كانت «حقلا ذكوريّا... شديد التنظيم»[115]. هل تُعلي أوبرا فيديليو لبيتهوڤن من شأن النساء أم تحتقرهن؟ لم يكن سعيد واثقا فاتَّجه

(*) العلِّيَّة attic في طرز العمارة الغربية التي تجعل السقف مائلا اتّقاء تراكم الثلج والمطر تجعل المساحة الواقعة تحت هذا السقف «غرفة» ضيقة تودع فيها الأشياء التي لا حاجة إلى أهل البيت بها. وعنوان الكتاب المذكور يشير إلى شخصية في رواية جين آير للكاتبة شارلوت برونتي، وهي شخصية صارت رمزا لوضع النساء في المجتمع قبل ظهور الحركة النسوية. [المترجم].

بصره نحو النقد النسوي بحثا عن جواب[116]. وتبادل الرسائل بانتظام مع روز سوبوتْنِكْ Rose Subotnik، وهي في طليعة الداعين إلى ما يدعى نقد «الموسيقى الجديدة» طالبا النصيحة، ومستغلا ما لديه من تأثير لدعمها مهنيّا.

كذلك شعر بـ «التوأمة» (بتعبيره) مع عالمة الاجتماع جِلْيَن روز التي بَهَرَته إحاطتها بالفلسفة مثلما بَهَرَه أسلوبُها الفكري الذي لا يتهاون بأي شيء - وكانت مثله قد تأثّرت بأدورنو، كما كانت مثله تمقت ما بعد البنيوية مقتا حسبه ينفرد به[117]. أما من الناحية الشخصية، فقد كانت النساء أقرب من كان يفضي إليهن بمكنون نفسه حتى قبل وفاة والدته، وهذه حقيقة قامت على أساسها حقيقة شعوره العميق بأن دَيْنه الشخصي والمهني يعود إلى النظرات الثاقبة التي لم يأت له بها سوى النساء، والشعور بالراحة في وجوده معهن[118]. فعندما طلب المشورة اتَّجه للنساء وليس للرجال. ومع أنه اشتكى من أن علاقته بأخواته «لم تكن على ما يُرام» فإنه كان يتحدَّث معهن بحرِّيَّة حتى في أشد الأمور في حياته خصوصية، للاعتراف أحيانا، وللتبجُّح في أحيانٍ أخرى، ولكن طلبا للنصيحة في كلِّ الأحوال[119]. لقد أدّى احتياجه إلى الحب والثقة إلى نشوء علاقات حميمة لا تقل حدَّتها من ناحيتها الشخصية عن ناحيتها السياسية - وبكلمات طارق علي، «كان فظيعا» من حيث الحاجة إلى «المديح»[120].

كان انتقاد سعيد للحركة النسوية الأمريكية أشدَّ من أن يسمح له بأن يضعها في موقع بارز، لكنه حافظ على احترامه للبحث العلمي الذي أنتجته النساء على رغم تجاهل الآخرين له، وعمل على فتح الأبواب للنساء مهنيّا. وكان زميل له في قسم الفلسفة هو عقيل بِلْغرامي قد شارك سعيد في تدريس بعض المواد في السنوات الأخيرة من حياته. اقترح بِلْغرامي أن يدرّسا سمنارا معا عن الحركة النسوية بينما كان هو وسعيد يتمشَّيان في شارع مخصص للمشي في الكلية، ربما لأنه كان مدركا لهذا الجانب من تفكير سعيد، وهو جانب لم يكن معروفا إلا لقلَّة من معارفه[121]. توقّف سعيد في الطريق - وهي حركة كثيرا ما لجأ إليها - وفتح فاه كأنما ليقول: «لا تقل لي». كانت الحركة غامضة المعنى إلى حدٍّ ما، لكن مع أن بِلْغرامي كان يحاول استثارته فإن سعيد لم يضحك ولم يرفض. لربما كانا سيتّفقان على تدريس السمنار - من الصعب القطع في ذلك، فقد توفِّي سعيد قبل أن تتاح لهما الفرصة.

10

العالم الثالث يتكلَّم

سمفونية حقيقية من الأصوات المتنافرة

سعيد: «القلعة»[1]

يمكن القول إن منظَّمة التحرير الفلسطينية بلغت ذروة مجدها، باستثناء السنوات التي حكم فيها كارتر، في الدَّورة التاسعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي عُقدت في الجزائر في العام 1988، وهي الدورة التي سُمِّيت بلقاء الانتفاضة، وفيها لم يعد الموفدون ينتظرون القوى الكبرى وقبّعاتهم في أيديهم لتعترف بهم، فأصدروا إعلان الاستقلال وأسسوا دولة فلسطينية من جانب واحد، ثم أعلنوا اعترافهم الرسمي بالدولة اليهودية القائمة،

لاحظ سعيد أن مستقبل فلسطين يكمن في حركة ثورية تنتمي إلى العالم الثالث من ذلك النمط - حركة تعلَّمت قوَّة الرموز لاجتذاب أتباعٍ كثر من جميع أنحاء العالم

وقبلوا قراري الأمم المتَّحدة الرقم 242 والرقم 388 اللذين اعترفا لإسرائيل بحق العيش «بسلام داخل حدود آمنة معترف بها» في مقابل انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلَّتها بعد العام 1967. ومن ثم توافق جميع الجهات على إنهاء «جميع الأنشطة العسكرية».

كان سعيد هو الذي اختارته منظَّمة التحرير الفلسطينية لإعلان الأخبار الطيِّبة. وبصفته الممثِّل الفلسطيني على البرنامج البارز «نايت لاين» Nightline الذي تبثه قناة «أي بي سي» ABC يوم 15 نوفمبر فإنه نقل الخبر بحماس من الجزائر بعد الإعلان بلحظات، ولم يكن في أي وقتٍ مضى على تلك الدرجة من الوفاق مع قيادة منظمة التحرير. وبالفعل قدَّمته اللقطة الافتتاحية للبرنامج وهو يجلس على يمين عرفات. كان يجلس هناك بصفته مستشارا مؤتمنا يناقش مسوَّدات وثائق يحملها بيده الممدودة بينما ينظر إليه عرفات الممتلئ بالحيوية نظرة تدلُّ على الموافقة. وفي أثناء البرنامج، وبينما ركَّزت الكاميرات على موجز تعريفي له وسماء الجزائر في الخلفية، وأخذ يشرح الموقف الذي اتَّخذه على الدوام والذي أصبح الآن جزءا من الموقف السياسي لمنظَّمة التحرير الفلسطينية: «دولتان، واحدة عربية، والثانية يهودية... تتقاسمان فلسطين بينهما وتتعايشان بسلام».

لم يدُم إجماع المجلس الوطني طويلا، فما لبث سعيد أن تنبَّأ بعد ذلك بوقت قصير في مقابلة ناريّة في أكتوبر 1989 مع صحيفة «القبس» الكويتية في باريس أن القيادة الفلسطينية كانت تدفع بالحركة إلى حافَّة الهاوية[2]. وكان هو وأبو لغد «مشمئزَّين من الإهمال، والفساد، والعجز» الذي تتَّصف به قيادة أخذت تتصرَّف تصرُّف المستعطف، وتعامل الحكومة الأمريكية كأنها «الأب الأبيض الكبير» بينما كانت الولايات المتَّحدة تتصرَّف كأنها محامي المصالح الإسرائيلية. كان سعيد «يملأ عيني عرفات وأذنيه» بالأخبار عمّا كان ينقصه منذ خمسة عشر عاما، ولكن من دون جدوى، وكتب للديبلوماسية الفلسطينية ليلى شهيد في العام 1991 للتعبير عن الشكوى نفسها: «لم يكلِّف نفسه عناء طلب النصح من أيٍّ منا... ما هذه القيادة؟»[3].

وقد زرع اجتماع العام 1998 نفسه بذور الشقاق. فقد وافق الجميع على أن إعلان الاستقلال الفلسطيني من طرف واحد وتكليف منظمة التحرير الفلسطينية بمهمات الحكومة المؤقَّتة من شأنه أن يضيِّق خيارات إسرائيل؛ لأن العنف الذي

سترتكبه في تلك الحالة سينظر إليه باعتباره اعتداء على سيادة ذلك الشعب وليس على أنه إخماد لتمرُّدات داخل مناطقها. وقد كسب ذلك الموقف دعما مهمّا من جيروم م. سيغال Jerome M. Segal، وهو باحث في معهد الفلسفة والسياسة العامَّة في جامعة مَرِلَنْد، كان قد نشر سلسلة من الافتتاحيّات في صحف «نيويورك تايمز»، و«لوس أنجلس تايمز»، و«واشنطن پوست» اقترح فيها خطَّة تكاد تكون مطابقة لتلك التي تبنّاها المجلس الوطني الفلسطيني[4]. وتركَّز الخلاف على كيفية تعامل الحكومة مع الانتفاضة نفسها؛ إذ بما أن القاعدة الشعبية قد اتَّخذت موقفا ثوريّا واجه فيه الشباب الفلسطينيّون الدبّابات بالحجارة والمقلاعات، فإن إسرائيل في الواقع هي التي احتاجت إلى عرفات وليس العكس. أما وقد وجد عرفات الآن أنه موضع اهتمام جديد فإنه أخذ يؤدّي دور «المعتدل» المستعد لمبادلة الأرض بالسلام «وليعمل ما بوسعه لتهدئة الشباب الفلسطينيين»[5]. أما سعيد فقد أراد تشجيع الغليان الثوري وليس تهدئته، ولذا فإنه أخذ يستعمل لهجة الاتّهام في خطابات ألقاها يقول فيها إن الانتفاضة «كانت أعظم تمرُّد منضبط ضد الاستعمار في هذا القرن»[6] (وهو رأي لم يكن مؤيِّدوها أنفسهم يتَّفقون فيه معه).

على أن الأمور تعقَّدت بنشوب توتُّرات سياسية مزعجة. فبينما كان بُش الأب يستعدُّ لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط مع الغزو الأوَّل للعراق في أغسطس 1990، استقبل سعيد سقوط سور برلين في العام 1989 بمشاعر مختلطة. فقد رحَّب في البداية بتلك الحادثة، ورأى مشابه بين أحداث أوروبا الشرقية والانتفاضة[7]. لكنه مع مرور الوقت وجد أن من الأفضل أن ينضم إلى أمثال المنظِّر الفرنسي جان فرانسوا ليوتار الذي امتدح بعد سقوط السور انتصار الرأسمالية الأمريكية في سلسلة من «الحكايات التي تنتمي إلى ما بعد الحداثة»[8]. لكن سعيد استمتع فيما بعد بالسخرية من ليوتار لإشاعته الفكرة القائلة إن من الأفضل أن يعيش المرء بلا اقتناعات، وإن القضايا النبيلة خطرة، وإن الثقافة الاستهلاكية تؤدّي إلى الشعور بالحرِّيَّة. هذه الأفكار التي أشاعها سقوط الشيوعية دعاها ليوتار فيما بعد بـ«حالة ما بعد الحداثة»، وقد جعلها سعيد هدفا متكرِّرا لسهامه في عقد التسعينيات.

في يونيو من تلك السنة توفّيت هِلْدا، والدة سعيد في واشنطن بعد صراع مع السرطان على مدى سبع سنوات. وكانت أخته غرَيس، التي كانت تعيش آنذاك

في العاصمة، تعتني بها بكلِّ تفانٍ، وكان سعيد كثيرا ما يزورها قادما من نيويورك. كانت تخضع لرعاية مؤسسة لرعاية العجزة، بينما تعيش في شقَّة غرَيس، وكانت تتبادل المكالمات التلفونية مع ابنها لساعات. وكانت غرَيس تسأل: «ما الذي تتحدَّثان عنه طوال الوقت بالله عليكما؟»[9] وكان يجيبها إجابات غامضة: عن هذ الشيء وذاك. ولم تكن أخته تفهم كيف يملآن الوقت، ولكن الأحاديث كانت في معظمها عن أخبار الناس، فهي كانت بحاجة إلى ما يلهيها، فهي على غرار ابنها كانت تجد صعوبة في الخلود إلى النوم. كان هو يستثير ذاكرتها عن أناس يعرفهم، ولكنها كانت تعرف أنه ليس مهتمّا بتبادل الأخبار بقدر اهتمامه بالحاجة إلى العلاقة الحميمة التي تجمعهما. وفي الأسابيع الستة الأخيرة من حياتها انتشر المرض في مخّها، ففقدت الوعي في معظم الوقت، وعلى رغم ذلك فإنه بقي إلى جانبها مع غرَيس بانتظار أن تصحو. وبعد سنوات عبَّر عن إعجابه بشجاعتها في رفض العلاج الكيميائي على رغم إلحاح الطبيب، فقد كانت تقول: «لا أريد العذاب الذي يأتي معه».

كان موتها أعمق أثرا بما حمله من معانٍ رمزية. فقد قضت هلدا آخر ستِّ سنوات من حياتها تتنقَّل كالبدو الرُّحَّل بين بيروت وواشنطن ونيويورك، فضلا على رحلات جانبية تزور في أثنائها الاختصاصيين في لندن. وكانت قد مُنحت الجنسية اللبنانية في الخمسينيات، شأنها شأن الكثير من الفلسطينيين، ولذلك فإنها لم تكن بلا وطن من الناحية الرسمية، ولكن الڤيزا الأمريكية تطلَّبت أن تغادر البلاد وأن تعود من جديد[10]. ولما كان أبناؤها قد حصلوا على الجنسية الأمريكية من قبل فقد كان من السهل عليها أن تحصل على الجنسية بدورها، ولكن ذلك تطلَّب المكوث الإجباري لمدة سنة في كلِّ مرّة، فلم يَرُق لها ذلك. غير أن مرضها جعل السفر من الولايات المتَّحدة وإليها مستحيلا، ولذا فإنها تجاوزت المدَّة المسموح بها في الڤيزا. وهكذا بدأت دائرة الهجرة والتوطين إجراءات الترحيل مع أنها كانت مُسَجّاة على فراش الموت. ولم يجعل تلك الإجراءات نوعا من العبث إلا موتها، على رغم أن القاضي الذي استمع إلى كلام الدائرة الأمريكية أسمعها كلاما قاسيا بسبب ما أبدته من قسوة القلب.

***

عمل سعيد على نحوٍ متقطِّع على رواية عن الخيانة ما بين العامين 1987 و1992[11]. ومع حلول منتصف التسعينيات، وفق ما قال لمريم مرّات عديدة، كان موضوع الخيانة قد تداخل مع موضوع آخر يركِّز على عجز الرجال من العرب (وهو يناسب حقبة ما بعد أوسلو)، ولكنه في النهاية تخلّى عن المشروع. كانت الخلفية المختارة للرواية هي بيروت عشية الأزمة السياسية التي نشبت في العام 1958، وكانت الرواية سترِّكز على المكائد – على شيءٍ أشبه بروايات جون لو كاريه John le Carré أو غْرَيَم غرين Graham Greene ولكن بطابع شرق أوسطي، ولو أن شخصيّاتها الكثيرة المستمدَّة من بلاد متعدِّدة جعلت من غير الممكن تجاهل رواية نوسترومو Nostromo لكونراد الكامنة خلف المشاهد والمواقف. كانت الحبكة ستتناول التجسُّس، وظلم الشرطة، والإذلال الذي تسبّبه السياسة بصفتها عناصر الحبكة الكبرى، لكنه في النهاية لم يكمل منها أكثر من 45 صفحة، ومن بينها ملاحظات تفصيلية وملخَّصات للصفحات التي لم يكتبها. وكانت القصة الكامنة خلف كل ذلك قد حدثت فعلا: ففي العام 1958 طالب المسلمون والدروز اللبنانيون تحت تأثير الناصرية الصاعدة بانضمام لبنان للجمهورية العربية المتَّحدة. لكن كميل شمعون، المسيحي الماروني، استجاب بأن طلب تدخُّل الولايات المتَّحدة عسكريّا، وحدث ذلك في 15 يوليو، وبقي الأمريكيون في لبنان إلى أن هدأ القتال واستقر وضع حكومة شمعون الموالية للغرب.

في هذه الخلفية تدور الرواية حول اختطاف طالب طبّ شارك في الاحتجاجات الطلابية ضدّ آيزنهاور ودَلِس، ويخونه مخبر، ويؤخذ إلى سجن سرّي. ثم تظهر شخصيات عرفها سعيد في حياته بعد إجراء تغييرات طفيفة عليها. طالب الطبِّ هذا يذكِّر بالطبيب القاهري فريد حدّاد الذي قُتل، بينما تمثِّل إمِلي أم فريد هِلْدا[12]. وهنالك أيضا قريب في موقع قوي ولكنه لم يعد على وفاق مع العائلة، وهو ميشيل سابا الذي يتصرّف بشيء من العنجهية. يظهر في أوَّل الأمر في مكتبه وهو يقرأ مواعظ القدّيس يوحنّا فم الذهب، ويلقي المحاضرات على كل الناس من حوله عن شرور الشيوعية، وشخصيَّته لا تكاد تخفي شخصية شارل مالك. سابا مهتم كثيرا بتنصير فريد صاحب الشخصية القلقة، وبعد إجباره على الخضوع يسلِّمه للأمريكان.

أما سعيد نفسه فهو مزيج غامض مشوَّه من شخصيَّتين مختلفتين – أسعد فرانكُب (وهو «نقيض» فريد وفق ملاحظات سعيد) وهو شخصية «حرباوية»، يثرثر كثيرا، ويقيم علاقة غرام مع صحافية مرتبطة بجاسوس أمريكي سرّي، وصدقي، وهو رجل في الخمسين يحمل شهادة دكتوراه متميِّزة في الفلسفة، وتثير كتبه المنشورة الكثيرة وسمعته الدولية زملاءه في بيروت لأن يذلّوه بأن يطلبوا منه الحصول على شهادة الثانوية العامة المحلِّيَّة قبل السماح له بالتدريس في الجامعة.

تعطينا الأجزاء الباقية من الرواية فرصة لا تقدَّر بثمن للاطِّلاع على مقاصده الجمالية فضلا عن لمحة من السخرية من الذات التي تظهر هنا وهناك. فوفقا لما تقوله ملاحظاته، تمكَّنت أفضل الكتابات الفلسطينية من الحفاظ على التوازن بين «الكلاسيكي/ العالمي والجديد/ الخاص بالموقف» – أي إنه يحتل المسافة الوسطى بين الواقعية الوحشية والطقوس[13]. فبيروت لا يمكن أن تمثِّل إلا نفسها في الرواية، المكان الحرفي الذي يجمع المتعة ذات الصبغة العالمية والكفاح والمهانة اليومية، ولكنها تمثِّل أيضا «مسرحا عربيا في طور الظهور». أما فرانكوب فليس شخصا بقدر ما هو نمط إشكالي، «الرجل المتحرِّر تماما» الذي «يمكنه التخلُّص من أيِّ شيء من دون أن يراكم تاريخا». أما صدقي، وهو أكثر الشخصيّات رمزيَّة، فيمثِّل المثقَّف الغربي الذي «انقطع عن العرب والغرب، وهو على وعي باليهود... عاجز عن التغيُّر، وأصدق من أن ينتمي». ولئن كان صدقي أقلَّ إثارة للنفور من فرانكوب (الذي نكتشف فيما بعد أنه هو الذي خان فريد) فإن سعيد لا يقلُّ قسوة في تصويره (مع لمسة إضافية من العظم) على أنه مجادل ذو أصول أرستقراطية، رجل «لم يتعلَّم كيف يُلغِز أو يلمِّح... أشبه بفيل يمشي على العشب». وفي تعليق جانبي حارق يتوقَّف عند افتقاره هو إلى الأصالة فيصف الشخصية التي تمثِّله بحيث يبدو «مفرطا في الطول، بجسم مكسوٍّ بمنتجات ليفيز Levis، وجاكيت سفاري، وحذاء موكاسان من ماركة برونو مالّي ويميِّزه عن الجمهور الضخم من الرجال والنساء الذي يرتدي معظم أفراده قمصانا رصاصية اللون وسراويل رمادية أو كاكيّة وشباشب».

ترك سعيد الشكل النهائي للرواية غير واضح، ولكنه أبقى تعليماته لنفسه لتحطيم «المسار السردي الطويل» المرتبط بالرواية الواقعية التي كان من رأيه أنها مسؤولة عن خلق أوهام الاستمرار. فقد شعر أن ذلك لا ينطبق على التجربة الفلسطينية.

وكانت نصيحته هي: «التزم بما هو غير كامل»، «أنا أثق بقِصَرها المشتَّت، بأنها تسعى دائما إلى البدء من جديد»، تلك هي الطريقة الوحيدة التي قد تمكِّنني من تجاوز «الانضباط المؤذي... وتسمح لِذاتيَّتي بالتدفُّق» وفق تعبيره. ومع تأمين حصر ذاتيَّته بين علامتي اقتباس، فقد أراد أن يتحاشى، مهما كان الثمن، الشكل الاعترافي الذي يطبع كثيرا من ذلك الشعر الغنائي وذلك الفن الروائي التسجيلي السيئ الذي ينتجه العالم الثالث.

انتهى سعيد إلى الشعور بأن شخصية المؤلِّف عنده تفزعه، وكان لذلك الفزع دور كبير في تخلّيه عن الرواية. وقد فسَّر أسبابه فيما بعد في مقالة تلفت النظر ألهمته لكتابتها صديقته نادين غورْدِمَر Nadine Gordimer، الروائية الفائزة بجائزة نوبل من جنوب أفريقيا، وفيها تحدَّث عن المؤلِفين بوصفهم كوميديين اجتماعيين تنتهي وظيفتهم عندما يمسكون بالوجود بالكلمات من دون رهبة أو على نحو جميل[14]. هذا التهديد بملاحظة الحماقة والظلم من الخارج ومن فوق، وقبولهما بعد ذلك، جعله يتوقَّف. إن الروائي لا يكتمل إلا بالنقد، وهذا يعني قول «لا» لما هو موجود وليس إعادة إنتاجه.

***

في سبتمبر 1991 وقبل أن يزيح الرواية جانبا، نظَّم سعيد مؤتمرا في لندن على أمل تقوية مواقف التفاوضية الضعيفة لمنظَّمة التحرير الفلسطينية وتوضيحها استعدادا لمؤتمر مدريد الذي كان مزمعا عقده في أواخر شهر أكتوبر. كانت مبادرة مدريد التي تلقَّت دعما مشتركا من كلٍّ من الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السوفييتي قد قُصِد منها أن تُحيي عملية السلام بإشراك الأردن ولبنان وسورية في المفاوضات. وكان سعيد قد انطلق هو وأربعة آخرون من المجلس الأمريكي لشؤون فلسطين «لحلحلة المأزق السياسي»[15]، ولكن لسوء الحظ، انتهى الجهد بفشل يقبض النفس بسبب ما أحاطه من منازعات بين الفصائل وتكرار الأفكار البالية نفسها[16]. وأدرك سعيد مرة ثانية الاتجاه المقلق لدى قيادة منظمة التحرير للبحث عن طرق خلفية وللسعي إلى الحصول على مِنَحٍ من الأقوياء. وبما أن قوتين عظميين قد تقدَّمتا للحصول على موافقة المنظَّمة فإن قادتها شعروا بأنهم لم يعودوا مجبرين على الحصول على رضا الجماهير. ولئن كان رأي

سعيد لا يكاد يُسمع في السابق، فإنه بعد تجمّع مدريد استُبعد تماما تقريبا. وكانت صيغة أوسلو الكارثية آخذة بالتشكُّل.

في هذه الأثناء اتَّصل سعيد في فترة استراحة بين الاجتماعات بزوجته بسبب انشغال فكره المعتاد بوضعه الصحّي ليعرف نتائج فحصٍ للدم أجراه لمراقبة مستوى الكولسترول، فقد كان طبيب العائلة چارلز هازي قد لاحظ ارتفاع عدد الكريّات البيضاء في الدّم وأنها كانت في ازدياد مستمرّ - وهي من العلامات الأولى على احتمال الإصابة بالسرطان. وكان سعيد قد تنبَّه إلى هذه الإمكانية، ولذلك فإن القلق أخذ يساوره، وكان متلهِّفا لمعرفة النتائج، وما أدهشه هو أن مريم لم تحاول طمأنته، بل طلبت منه أن يتَّصل بهازي على الفور. هنا دبَّ الرعب في قلبه فألحَّ عليها إلى أن أخبرته بالحقيقة.

أظهرت الفحوص أنه يعاني لوكيميا تضخُّم الأنسجة اللمفاوية المزمن[17]، غير أن هازي قلَّل من خطرها، وأصرَّ على أنها ليست حالة تهدِّد الحياة، وأن في وسع المختص الجيِّد بأمراض الدم ومخّ العظم أن يعالجها. وقد أحيط كلٌّ من نجلا ووديع بالوضع، ولكن قيل لهما إنه لم يكن ثمة ما يقلق لأن حياة أبيهما ليست في خطر محدق. شعر سعيد في البداية بشيء من الراحة، إذ على رغم ما كان يعانيه من وسواس المرض فإن المرض الحقيقي، لا سيما إذا كان من النوع المهدِّد للحياة، لم يكن شيئا يريد العيش معه، ولذا فإنه سعى سعيا حثيثا إلى الاطمئنان.

لم يصل التشخيص درجة القسوة إلا عندما راجع مركز السرطان المعروف باسم مِمورْيَل سْلون كِترِنغ في نيويورك، وهناك قال له الأطبّاء بأسلوب عَدَّهُ خاليا من الذوق أنه لن يعيش طويلا، لكنه لم يكن على استعدادٍ لتقبُّل هذا الحكم، فأخذ يبحث عن آراء أخرى، وفي غضون ستة أشهر اكتشف كانْتي راي المختصّ بأمراض الدم والأورام في المركز الصحّي اليهودي في لونْغ آيلَند، والطبيب الذي تولّى علاجه على مدى العقد التالي من حياته. ومع مرور الوقت توطَّدت الصداقة بينهما، فعرَّف سعيد صديقه على أعمال نيتشه، ودعاه لحضور محاضراته، وأقنع غورْدِمَر بأن تعرِّفه على جنوب أفريقيا، وفي المقابل عرَّفه راي، المولود في جودپور، على التنانير الهندية الطويلة الراجستانية في أثناء حفل زواج ابنته في العام 1996، وتوطَّدت صداقتهما بتبادل القصص عن سيئات

الإمبراطورية البريطانية. وقد أتيحت الفرصة لسعيد لزيارة الهند للمرّة الأولى بعد سنة، وحاضر في كلٍّ من دلهي وكُلكاتا.

كان سعيد معتادا على كتم مشاعره، وكان يتمتَّع بموهبة جعل الآخرين يشعرون بأنهم مستودع أسراره بينما هو يتكتَّم على مواطن ضعفه وشكوكه إلى أن يحين الوقت للكشف عنها. وعندما يحصل ذلك كان يخبر الجميع. أما وقد أصبح التشخيص واضحا، فقد صمَّم على عدم الإفضاء بشيء، بينما وجدت مريم وأفراد العائلة أن عليهم أن يتعايشوا مع ما يعنيه هذا الوضع. وبعد ذلك بأسبوع، استيقظ سعيد فجأة في منتصف الليل وأخبر مريم بأنه يريد إخبار العالم بأنه مريض بالسرطان[18]، فطلبت منه أن ينتظر إلى أن تخرج الفحوص الأخرى، ولكنه أصرَّ، وأخذ يفضي لأصدقائه بحالته الواحد تلو الآخر كأنه يخصُّه بسرٍّ مرضه، ويقول إن التشخيص كان ينبئ بأسوأ الاحتمالات.

بدأ راي العلاج بواسطة المناعة الذاتية باستعمال المضادّات الحيوية المستنسخة monoclonal antibodies في يونيو 1992، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الطرق التقليدية التي تعتمد على العلاج الكيميائي (فلودارابين وريتوكسيماب) بعد مارس 1994[19]. واستعمل فصول الصيف لأقوى جرعات العلاج لكي يستعيد سعيد قدرته على التعليم خلال السنة الأكاديمية. ولكن بما أنه كان يملك من الأنفة والكبرياء ما جعله يفرض على نفسه قدرا من السوية النسبية لنصف العقد الأوّل من المرض فإنه تمكَّن من الحفاظ على وهم الصحَّة بالالتزام بمظهر القوة الجسمانية، والحفاظ على شعر الرأس على رغم تساقط بعضه، ولكن مع نهاية عقد التسعينيات كان العلاج الكيميائي قد دمَّر حيويَّته، فشحب وجهه الجميل وغارت وجنتاه. وجعله ورم في البطن يبدو كأنه يضعف ويزداد وزنه في الوقت نفسه.

بدأ سعيد كتابه خارج المكان Out of Place في مايو 1992 في ردٍّ مباشر على التشخيص الذي يهدِّد بالنهاية، وقد كان ذلك واحداة من عدد كبير من النقاط الحاسمة المهمة التي استثارتها التوقُّعات المتغيِّرة[20]. ففي أغسطس من تلك السنة كان منهمكا في تصحيح مخطوطتين للنشر بدلا من مخطوطة واحدة: «كتاباتي السياسية على مدى 25 عاما» كما وصف كتابه «سياسة الحرمان» The Politics of Dispossession (1994)، وكتاب «تمثيلات المثقَّف» Representations of

the Intellectual (1994). وكان لايزال يشير إلى مذكِّراته بالعنوان الأصلي ليست صحيحة تماما Not Quite Right عندما فكَّر في المشروع الذي كان مايزال في مهده ويقول إنه «آخذ بالغرق في متع السيرة الذاتية، وللأسف، في مشكلاتها أيضا».

كان قبل التشخيص بأربعة أشهر يمرُّ مع ذلك بفترة من الاكتئاب السياسي، ولكن دفعة جديدة من الطاقة جاءته من مصدر غير متوقَّع؛ ففي شهر مايو من العام 1991 تلقّى دعوة لزيارة جنوب أفريقيا لإلقاء «محاضرة الحرية الأكاديمية» المسمّاة باسم ت. ب. دَيڤي، وهناك التقى بوولتر سِسولو ونِلْسن ماندِلا، الذي كان قبل قد أُطلق سراحه في فبراير من العام الفائت بعد سبعة وعشرين عاما من السجن[21]. استضافته جامعة وتووتَرزراند University of Witwatersrand في جوهانِسْبيرغ قبل أن ينتقل إلى المهمَّة الرئيسة في كيپ تاون، ذلك أنه كان الضيف الرسمي للمؤتمر الوطني الأفريقي الذي كان مايزال هو الشعلة المركزية لمقاومة الفصل العنصري. وبعد لقاء خاصٍّ قصير مع ماندِلا قضى وقتا أطول مع سِسولو (وهو بدوره قائد قضى سنوات عديدة في السجن) وهما يتحدَّثان عن تاريخ الصراع الذي خاضه المؤتمر الوطني الأفريقي. ولم تكن نهاية المؤتمر الذي وقفت في طريقه خيانة مبادئه وقيادته الفاسدة قد اتَّضَحت آنذاك كما اتَّضحت فيما بعد على رغم أن بعض أصدقاء سعيد من جنوب أفريقيا المنتمين إلى اليسار لم يكونوا يجلّون المؤتمر كما كان يجلُّه هو من دون النظر في حقيقته[22]، فقد نظر إلى تحذيراتهم بهدف استيراد الدروس التكتيكية للحركة الفلسطينية.

أحيت أحاديثه مع سِسولو جهوده لتنظيم لقاء لندن بعد أربعة أشهر، وبعد أن امتلأ ذلك اللقاء بدروس المؤتمر الوطني الأفريقي التي لا تقدَّر بثمن والتي ركَّزت على كسب الموقف الأخلاقي العالي بدلا من التركيز على الحملات العسكرية المقضي عليها بالفشل. وكان هذا التماهي مع حركة تحرُّرية مناهضة للاستعمار أفضل ردٍّ عرفه على الروح الرجعية التي سادت في عقد الثمانينيات. ففي حقبة شهدت إخماد حركة الجوهرة الجديدة التي قادها موريس بِشُپ Maurice Bishop في غرانادا، وإنهاك أعضاء الساندنيستا، والطريق المسدود في السلڤادور، وغزو پنما، لاحظ سعيد أن مستقبل فلسطين يكمن في حركة ثورية تنتمي إلى العالم الثالث من ذلك النمط – حركة تعلَّمت قوَّة الرموز لاجتذاب أتباعٍ كثر من جميع أنحاء العالم. لكن

هذه المبادرة الإصلاحية ووجهت بالنقد كما هو متوقَّع؛ فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي غازلها في يوم من الأيّام هاجمته بحجَّة أنه برجوازي أكثر من اللازم، فقطع علاقته مع زعيمها جورج حبش الذي اتَّخذ موقفا متصلِّبا رفض فيه الاعتراف بإسرائيل في لقاء العام 1988 الذي عقده المجلس الوطني الفلسطيني، والذي أيَّد سعيد فيه موقف الأغلبية.

كان من الممكن تلمُّس إستراتيجياته في وسائل الإعلام بعد المؤتمر الوطني الأفريقي في الفِلم المعنون «پونْتِكورڤو: ديكتاتورية الحقيقة» Pontecorvo: The Dictatorship of Truth، وهو فِلمٌ أنتجه ورواه للقناة الرابعة من محطة BBC التلفزيونية في 6 مايو 1992. هذا الفِلم الوثائقي الرائع كان في ظاهره عن مُخرج إيطاليّ من أتباع الواقعية الجديدة، ولكنه تتبَّع موضوعا مناهضا للاستعمار، مركِّزًا على معالجة پونْتِكورڤو الكلاسيكية بالأبيض والأسود لموضوع فلم «معركة الجزائر» The Battle of Algiers (1966). استعمل سعيد الفلم للغوص في جمالية مقاومة العالم الثالث على رغم أنه لم يكن معجبا بأعمال پونْتِكورڤو اللاحقة التي ركَّز فيها على الاستقلال الفني على حساب جمال الأفكار.

كان قبل بضعة أعوام، في العام 1988، قد زار پونْتِكورڤو في روما، وطرق بابه «ومعه تقديم بالغة القصر»[23]. كان پونْتِكورڤو يهوديًّا من الطبقة الوسطى ترعرع تحت حكم موسوليني، وكان قد التقى بپيكاسو، وسْترافِنْسكي، وسارتر في باريس حيث عاش آنذاك بصفته لاعب تنس، ثم أصبح فيما بعد رئيس حركة الشباب الشيوعية، وعمره لا يتجاوز الرابعة والعشرين، وقائد حركة مقاومة الفاشيَّة في شمال إيطاليا كلها. تساءل سعيد: كيف يمكن لرجل بهذا القدر من المشاعر السياسية الجيّاشة «أن يحوِّلها تحويلا كاملا إلى صور وموسيقى» في أعماله التي تنتمي إلى وقت قريب؟ كان جواب سعيد أن الجمالية سبّبت له الكُساح الفنّي[24]. وعبَّر عن أسفه لأن هذا الرجل الذي أَلْـهَمَ أولڤر سْتون Oliver Stone، وكوستا-غاڤراس Costa-Gavras، وبيرتولوچي Bertolucci «كان قد اختفى كلِّيّا تقريبا من مسرح السينما الأوروبية» في ذروة شهرته وتأثيره لأنه لم يُرِد أن يتدخَّل المنتجون في رؤياه الفنِّيَّة. ومن المحزن أن پونْتِكورڤو كان قد خطَّط لعمل فِلْم عن الانتفاضة أيضا، ولكن هذا المشروع راح ضحية لسعيه إلى الكمال.

كانت الظروف غير مواتية لسعيد، فقد وجد نفسه محاصرا أكثر فأكثر داخل الحركة الفلسطينية نفسها. وبعد أن التقى بالرئيس السابق كارتر في ڤرجينيا في 24 أغسطس من تلك السنة، كتب له رسالة في سبتمبر طلبا لمساعدته لِرابطة العمل الخيري Welfare Association، وهي منظمة خاصة تجمع الأموال لمساعدة الفلسطينيين في الضفة الغربية، وغزَّة، وإسرائيل، ولبنان. وكان يحاول أن يرتِّب اجتماعا بين كارتر ومدير الرابطة جورج عابد، مؤلِّف كتاب The Economic Viability of a Palestinian State (1990) (إمكانية الصمود الاقتصادي للدولة الفلسطينية)[25].

وعلى رغم هذه المبادرات وأمثالها على مدى العقد السابق، وبسببها جزئيّا، أشاعت قيادة منظَّمة التحرير الفلسطينية شائعة مفادها أن سعيد كان عميلا أمريكيا. وعندما نشرت جريدة «القبس» المقابلة التي ظهرت بعد لقاء الجزائر في العام 1988 – وفيها عبَّر عن شكوكه بخصوص قيادة المنظَّمة – هاجمه نبيل شعث الذي كان آنذاك رئيس لجنة الشؤون الخارجية في المجلس الوطني الفلسطيني، إلى جانب مروان كنفاني، وهو موظَّف في جامعة الدول العربية وأخو الكاتب المعروف غسّان كنفاني. ومن بين ما أشيع عنه أنه بصفته عضوا في مجلس العلاقات الخارجية منذ العام 1983 فصاعدا كان سعيد متضامنا مع سياسيّي حزب العمل الإسرائيلي[26]. ومن المفارقات أن سعيد ظلّ سنوات يدعو الآخرين إلى أن يدركوا أن وضع منظّمة التحرير آمالها على لبراليي حزب العمل كان سوءَ تقديرٍ قاتل. لكن مُتَّهِميه مع ذلك وجدوا في علاقاته التقليدية مع شخصيّات في وزارة الخارجية ومجلة الشؤون الخارجية ما يثير الشكوك. وكانت الدعوة التي تلقّاها من ديڤد روكفلر للتحدُّث إلى البعثة الثلاثية (وهي دعوة اعتذر سعيد عن عدم تلبيتها) قد بدت كأنها دليل آخر على صدق الصورة التي تدينه[27].

كان الجوّ ملبَّدا بما يكفي لأن تتدخَّل صحيفة عربية تصدر في باريس هي «اليوم السابع» لتدافع عنه ضدَّ التهمة القائلة إنه انتقل إلى الجانب الآخر. وأشار سعيد إلى أن عرفات وياسر عبد ربه، وهو عضو في اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية، دُعيا أيضا إلى مجلس العلاقات الخارجية، وأنهما متلهِّفان لقبول الدعوة. وقال إن رفض هذه الفرصة يقع في باب الحماقة. وفي كلِّ الأحوال، لم يكن المجلس

مجرّد هيئة استشارية خبيثة مؤيِّدة للولايات المتَّحدة، بل كانت، كما أوضح في المقابلة، «منظَّمة خاصَّة يتشكَّل أعضاؤها من شخصيات مرموقة تهتم بالسياسة الخارجية للولايات المتَّحدة»[28]. وقد جعلها تأثيرها في السياسة الأمريكية الخارجية، وهي سياسة كان جانب كبير منهم كارثيا من وجهة نظر سعيد، جعلها نظيرة شديدة الشبه بـ جاتَم هاوس Chatham House(*) في المملكة المتَّحدة، ولذلك فإنها مكان يحسن بالمرء أن تُسمع آراؤه فيه إن استطاع الوصول إليه. لكن موقفه ومقاصده أسيء فهمها ليس من جانب منظمة التحرير الفلسطينية فقط بل من جانب أعدائها أيضا. فزميله الإسرائيلي إسرائيل شاحاك استطاع الحصول على تقرير أعدَّه معهد أميركان إنتربراز American Enterprise الذي يقصد فيما يبدو إلى تعطيل الطموحات الفلسطينية بجعل سعيد ووليد الخالدي «يساعدان إسرائيل لخلق انشقاق داخل منظَّمة التحرير والانخراط في نقاش عن كامپ ديفد مع الإسرائيليين»[29].

لقد قُدِّر لسعيد أن تدخل حياته السياسية مرحلة ثانية بعد أقلَّ من سنة تفصل المرحلتين مناصفة فيها اتفاقية أوسلو للسلام بعد عقدها في سبتمبر 1993. فبعد النتائج المذلَّة لهذه الاتِّفاقية التي وقّعها بأجواء احتفالية باذخة كلٌّ من ياسر عرفات وإسحاق رابين في الباحة العشبية للبيت الأبيض في أثناء حكم كْلِنْتن قطع سعيد علاقته برئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذي كان قد دافع عنه بلا كلل طوال عقدي السبعينيات والثمانينيات عندما كان مجرَّد ذكر اسمه في العلن يستثير السخط. وهنا وجد سعيد نفسه يخوض حربا على جبهتين.

لم تنتهِ مقاومته لاتِّجاه العصر من دون الحصول على مكافأة؛ ففي يونيو 1991 أصبح زميلا قي الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم ذات المكانة العالية (ولم يُنتخَب عضوا في الأكاديمية إلا في العام 2002 بعد أن تدخَّل مايكل فْريد الناقد الفني وعضو المجلس، وصديق سعيد في كلية الدراسات العليا، ليبين أن التشريف تأخَّر أكثر من اللازم)[30]. وفي العام 1994 منحته اليونسكو ميدالية پيكاسو على ما أنجزه في حياته، وفي أبريل، بالتزامن مع حصوله على جائزة تعليمية يَمْنَحُها مجلس طلبة كلية كولمبيا، تقديرا لمهارته في «الإعلاء من شأن المنهاج الأساسي»، أصبح أول

(*) جاتَم هاوس أو المعهد الملكي للشؤون العالمية، معهد مستقلّ يقع مقرُّه في لندن. تتلخص رسالته في تقديم تعليقات موثَّقة عن الأحداث المهمة في العالم واقتراح الحلول للتحديات التي تواجهه. [المترجم].

عضو هيئة تدريس يحصل على جائزة لاينل تْرِلنغ Lionel Trilling Award مرّتين، هذه المرَّة على كتابه «الثقافة والإمبريالية» (Culture and Imperialism (1993 الذي وصفته لجنة التحكيم بأنه «عمل فذّ»[31].

غير أن أعظم انتصاراته لم تأتِ على شكل جوائز بل على شكل منصّات. كانت سلسلة محاضرات ريث The Reith radio lectures التي تذيعها محطّة الـبي بي سي BBC هي واسطة العقد في البرامج التي تقدّمها تلك الإذاعة، وكان قد أسسها برْتْراند رَسِل، وقدَّمت محاضرين من أمثال روبرت أوپنهايمر، وعلي المزروعي، وجون كَِنِثْ غولبريث. وفي الوقت الذي اعترض فيه المحافظون البريطانيّون في الصحف التي تعتمد على الإثارة قدَّم سعيد محاضراته في العام 1993 حول الدور الفريد الذي يؤدّيه المثقَّفون، وعلّق فيما بعد لصديق قائلا: «كانت موافقتي أقرب إلى الجنون». كان عليه أن يكتب ست محاضرات لتنشر مباشرة وتُذاع «في فترة شهر واحد»[32]. وقد عوَّضت هذه المحاضرات عن الدراسة المطوّلة عن المثقَّفين التي كان يخطط لها باستمرار ولكنه لم يكتبها. لقد تمكَّن بشكلٍ من الأشكال أن يكمل المحاضرات، فظهرت تحت عنوان «تمثيلات المثقَّف» Representations of the Intellectual بالشكل الذي أُذيعت فيه على الهواء تقريبا.

كان ارتباطه بمواعيد يطلب منه فيها أن يحاضر قد جعل إبقاء عائلته قريبة منه صعبا على رغم حاجته إليها بعد أن تبيَّن أن وضعه الصحّي يدعو للقلق. وفي العام 1993 رافقته نجلا، التي كانت في سنتها الأولى في الجامعة، في رحلته إلى فرنسا لحضور مائدة مستديرة نظمتها اليونسكو. وكان الروائي الكولمبي غابرييل غارسيا ماركيس Gabriel García Márquez أحد المشاركين، وهو كاتب كان سعيد شديد الإعجاب به (كان يتعجب مع أصدقائه من روايته القصيرة «لا أحد يكتب للكولونيل» (No One Writes to the Colonel[33]. وفي حفل الاستقبال توجَّه غارسيا ماركيس باتِّجاه نجلا مباشرة وسألها بالفرنسية: «ما الكتاب الذي قرأته من كتبي؟» وهو سؤال يبدو أنه وجَّهه لكل من التقى بهم. ولما كانت نجلا غير قادرة على الكذب في هذا وفي أي شيء آخر فإنها أجابت بسرعة: rien (لا شيء)[34]، فوجد الجواب لطيفا ووجد أنها جميلة، فأمسكها من ذراعها وسار معها في أنحاء الغرفة كأنها الصديقة التي تواعد معها لبقية المناسبة.

لكن الأحداث الممتعة من هذا القبيل كانت نادرة. وعلى رغم أن تشخيص مرضه قد أفزعه، فإن اللوكيميا لم تغيِّر نمط حياته لعدّة سنوات تالية. لكنه في العام 1993، أي عندما اتَّضح اتِّجاه المرض أخذ يفكِّر في إجراء تغييرات مهمَّة[35]، من ذلك أنه غامر بالعزف على آلة البيانو أمام الجمهور، فعلى رغم أنه كثيرا ما عزف أمام الطلاب والأصدقاء في شقَّته (بما في ذلك عزفه في حفل عيد ميلاده الستّين)، فإن عزفه بعد انتهاء الدوام في الكلية اقتصر على عزف قطع قصيرة بهدف التمثيل خلال المحاضرات التي ألقاها عن موسيقى وِلِك Wellek في إرڤاين. وقد حان الوقت للتغلُّب على القلق الذي يرافق الأداء الذي لاحظه جون سولَم شريكه في الغرفة في جامعة پرنستن. قرَّر أن يقدِّم عزفا مشتركا في مسرح مِلَر في جامعة كولومبيا في نيويورك في 27 أبريل 1993 مع ديانا تقي الدين، وهي عازفة بيانو محترفة وزميلة منذ السبعينيات في بيروت، وعزفا مجموعة من القطع الصعبة المكتوبة لآلتي بيانو من تأليف بْرامْز، وموتسارت، وشوپان، وبْرِتن، وشوبرت (وأعيد هذا البرنامج في جورج تاون). وقد قلَّل سعيد في كلمته الافتتاحية على المسرح من شأن عزفه بوصف ديانا بأنها «عازفة البيانو الحقيقية».

كان للعزف أمام الجمهور فائدة غير متوقَّعة: فقد أصبح من المستحيل على أعدائه أن يقلِّلوا من شأنه بالقول إنه ليس سوى مجادلٍ هشّ[36]، فبعد انتهاء الحفل شعر بالنشوة التي يحسُّ بها بعد الانتهاء من محاضرة ناجحة، وبالسعادة الغامرة لأنه تمكَّن من الانتهاء منها، وبدت للغالبية العظمى من الحضور حفلة مدهشة، رافقتها انتقالات ديناميكية وأساليب تعبيرية رشيقة. وكتب لزميل له فيما بعد قائلا بتواضع غير ضروري إنه يأسف لأن زميله لم يحضر الحفلة «لا لأن العزف كان رائعا (لعله كان مقبولا)، بل لأنها كانت حدثا عظيما من جامعة كولمبيا، من وجهة نظري على الأقلّ. بعد ذلك احتجت إلى ثلاثة أيّام لكي أتمكَّن من الخروج من الفراش»[37]. وفي الأسابيع التي سبقت الحفل كان قد أتعب ديانا تقي الدين لكثرة ما ألحَّ على التدريب لأنه أراد المناسبة أن تتوَّج بالنجاح. كان بعض الموسيقيين المحترفين الحاضرين قد لاحظوا بعض الأخطاء بطبيعة الحال، واشتكى بعضهم من ذلك في أثناء الاستراحة. لكن بما أنه كان يدرك أنه ليس عازفا محترفا فإنه أخذ يعذِّب نفسه، ويعبّر عن مشاعره عبر التلفون لصديقه ألن بيرغسن قائلا إنه كان فظيعا

وإنه جعل من نفسه أضحوكة[38]. أما ردُّ فعل من حضروا الحفل فكان مختلفا تماما، فقد كان الحفل يعد انتصارا بكل المقاييس تقريبا.

في هذه الأثناء عادت جامعة هارڤرد إلى مغازلته، وفي هذه المرَّة قرَّر الاستجابة. كانت مهارة سعيد في التفاوض على الراتب والفوائد الإضافية أقرب إلى الأسطورة بين أصدقائه، ولكن في هذه الحالة لم يكن ثمة مجال للعب[39]. كانت مدينة كَيمْبْرِج أهدأ من نيويورك ولا تنفصل في ذهنه عن حدَّة العيش في الدير التي استمتع بها في سنين الدراسة في مرحلة الدراسات العليا. خطر بباله أنها ستكون مدينة مناسبة للموت فيها[40]. كان من غير المحتمل أن يترك عاصمة العالم للإعلام والنشر حيث تُعرض أفضل الأوپرات في أمريكا، لكنه كان يحتفظ بكثيرٍ من العلاقات مع كَيمْبْرِج، ثمَّ إن نجلا ولدت هناك في العام 1974.

وفي أثناء محاولة سابقة قبل عقدٍ من الزمان كان سعيد قد كتب في 26 ديسمبر 1985 رسالة لهاري لَڤِنْ للتعبير عن مشاعره بوضوح: كان يشعر، على رغم الإيقاع المحموم لمدينة نيويورك، «بوحدة تتعمَّق... وهكذا يصاب المرء بوحشة تتعمق مع مضي الزمن، والغربة التي تنتج عن ذلك في هذه المدينة التي تفتقر إلى الجذور وتُشعِر المرء بأنه يعيش في منفى تضاعف الشعور بالوحدة»[41]. وكان ذلك أصدق ما يكون عند التفكير في الموت. ولكن سعيد تراجع عندما أدرك أن الأسباب التي تدعو إلى مغادرة نيويورك كان أكثرها نابعا مما تفتقده مدينته وليس لما في كَيمْبْرِج من أمور جاذبة. وهكذا فإنه قرّر في 22 أبريل 1993 أن يعتذر عن عدم قبول عرض جامعة هارڤرد نهائيا، منهيا بذلك غزلا دام طوال عقدين من الزمان[42]. وبعد أربعة أشهر طُلِب منه أن يساعد في الدفاع عن السيد نضال عيّاد المتَّهم في تفجيرات مركز التجارة العالمي، لمساعدة المحامين في النظر «في الأسلوب النحوي لرسالتين تنوي الولايات المتَّحدة تقديمهما بصفتهما جزءا من الأدلّة الرئيسة في القضية»، لكن سعيد رفض بعد ثلاثة أسابيع بلهجة حاسمة[43].

وجد سعيد، بمساعدة عالم الاجتماع الفرنسي پيير بورديو Pierre Bourdieu، منصَّة مهمّة ثانية، فقد دُعِيَ إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في الكوليج دي فْرانْس Collège de France في العام 1996، وهي المحاضرات التي شكَّلت فحوى الأفكار التي أدّت، بعد إجراء تعديلات كثيرة، إلى وضع كتابه الأخير «عن الأسلوب المتأخِّر»

On Late Style (2006)[44]. كتب إلى «العزيز پيير بورديو» في أغسطس رسالة شرح فيها خططه للمحاضرات بأسلوبه المعهود الذي يدلّ على انعدام الثقة: «قرَّرتُ في النهاية – على رغم كلِّ شيء – أن ألقي المحاضرات باللغة الفرنسية؛ سيكون ذلك مغامرة في أقلِّ تقدير»[45]، وهنا أيضا كان الشعور بعدم الثقة في غير محلِّه. فقد سافرت مارينا وورنر، المؤرِّخة والروائية البريطانية، إلى باريس لسماع آخر محاضرات سعيد عن أدورنو ففوجئت بطلاقته وبقدرته على محاورة المشاركين بالفرنسية بعد المحاضرة. ويبدو أن الحاضرين شعروا الشعور نفسه، فقد امتلأت القاعة بالحضور لسماع محاضرته عن ڤاغنر، التي أعقبها عشاء رسمي في بيت ليلى شهيد، السفيرة الفلسطينية الأولى التي كان مقرُّها في باريس[46].

***

عادت الموسيقى، بعد أن توقَّفت منظمة التحرير الفلسطينية عن الإصغاء له، لاكتساب أهمية أعظم في حياته؛ فهي من ناحية زوَّدته بوسيلة للمعرفة والشعور لم تكن متاحة لكثير من زملائه؛ وهي من ناحية أخرى تخلو من العبء الثقيل الذي تخلِّفه النظريّات النقديَّة أو الصراعات السياسية؛ ولذلك فإنها أخذت تجد طريقها في كتب يبدو أنها لا تتصل بالموسيقى على الإطلاق – في «الثقافة والإمبريالية» مثلا، وهو الكتاب الذي وعد به كتاب «الاستشراق»، وفي كتاب «عن الأسلوب المتأخِّر».

انقلب كتاب «الثقافة والإمبريالية» على رغم كلِّ ما يتَّصف به من أناقة وعلم غزير على نفسه على نحو غريب، فالظلّ الطويل الذي خلَّفته عملية درع الصحراء (1990-1991) جعلت صفحاته والمشاعر الكامنة خلفها قاتمة. وكما كان قد تعلَّم من مشاريع سابقة تخلّى عنها، كانت هنالك مخاطر من كتابة كتاب بهذا الشمول، وبالفعل فإن العدّة البحثية للكتاب كان يبدو عليها الاستعجال، فقد ذكرت مئات من العناوين ذكرا عابرا، ولكن من دون إشارة إلى الكمِّ الهائل من المراجع المكتوبة عن الإمبريالية بصفتها عملية اقتصادية، أو بصفتها نظاما اتَّخذ أشكالا تاريخية عديدة يختلف كلٌّ منها عن الأشكال الأخرى. كيف يمكن أن يُكتَب عن الإمبريالية من دون الحديث عن آليّات العمل المعقَّدة للرأسمالية الحديثة؟ ويبدو أنه قد وضع ثقته بنقّاد الأدب الذين تتداخل أعمالهم مع النظرية الاقتصادية للتعويض عن هذا النقص.

كان لوكاتش واحدا من هؤلاء النقّاد بوصفه واحدا من نقّاد «التشيُّؤ» – أي مَيْل المجتمع إلى تحويل العلاقات الشخصية إلى أشياء قابلة للبيع[47]. وفي أثناء البحث عن ملامح في الشكل والمضمون في الروايات لاكتشاف التوّجهات التاريخية اتّضح أن سعيد لم يكن في يوم من الأيام أكثر اتفاقا مع آراء لوكاتش منه في «الثقافة والإمبريالية». كان إعجابه بلوكاتش أقدم من ذاك بكثير طبعا، ولكن المهمَّ هنا كان ما اقتبسه منه على وجه التعيين، فالاقتباسات هنا لم تكن هي تلك التي ركَّز عليها في مقالاته السابقة. ففي رسالته لجان ستاروبنسكي jean starobinski في العام 1967 امتدح لوكاتش للأسباب نفسها التي انتقده بسببها زملاؤه الأمريكيّون، وامتدح النموذج التفسيري الذي اتَّبعه الماركسي الهنغاري، والذي تتبَّع فيه الامتدادات التي نراها في الأعمال الأدبية وفي «الآراء الكلية حول وضع العالم... والظروف الاجتماعية الثقافية» بقدر مذهلٍ من «رهافة الفكر النظري»[48]. كان سعيد قلقا قبل ظهور الكتاب من إمكانية أن تُساء قراءة هذه القراءات السياسية للأعمال الروائية؛ ففي رسالة أرسلها في العام 1989 لمونرو إنغل Monroe Engel، المشرف المشارك على رسالة الدكتوراه، عبّر عن ذلك القلق بقوله: «لا أريدك أن تظنَّ أنني أدرس الأدب كأنه وسيلة للتعبير عن معتقداتي، فأنا أدرسه بصفته جزءا من عمليات عامَّة استُخلصت منه»[49].

كانت هنالك أسباب تكتيكية وجيهة في ظن سعيد لدراسة جانب واحد مما قصده الكتّاب، ففي تخلّيه عن استقصاء ما قد يكونون قد قصدوه أُتيحت له الفرصة لاستخدام ما هو متَّفق عليه لأغراض معيَّنة. كانت تلك سياسة مثلى لما بعد كتاب «البدايات» قوامها التضحية بدقائق الأمور من أجل الوضوح القائم على المبادئ، وهي عادة تذكِّر بردٍّ غرامشي على المفكِّر الواسع التأثير بَنِدِتو كْروتْشي Benedetto Croce الذي كان قد انتقد الحركة الشيوعية بسبب معالجتها الفجَّة لبعض المفاهيم. فقد وافقه غرامشي، ولكنه أضاف قوله إن تبسيط بعض الأفكار الصعبة سياسة تتبعها كلُّ الحركات الجماهيرية، وهي ضرورية لانتشارها. وكان التعليق الذي كتبه سعيد لملحق التايمز الأدبي في العام 1992 لتقييم كتابين حديثين لمنظِّرين أحدث سنّا ينتمي إلى هذا النمط من التفكير: «إنهما يسمحان للدقَّة النظرية لنظاميهما بحجب التفاوت في القوّة... لكن لماذا لا يلجآن لدراسة أعمال

كتّاب مثل إدْوَرْد تومپسن الذي عارض الإمبريالية صراحة؟ أو أعمال بعض القوميين الهنود والأفارقة الذين كتبوا في تلك الفترة؟»[50].

يتَّضح من ذلك في كلِّ الأحوال أن قضايا الشكل الجمالي لم تكن تعني كثيرا لسعيد في أثناء تفسير الأدب في الثقافة والإمبريالية. فقد دافع من دون تردُّد عن قراءة الروايات لما تكشفه عن الحقبة التاريخية بقوله إن تلك القراءة لم تقلِّل من أهمية العمل الفني، بل بيّنت «الروابط المتشابكة مع البيئة الحقيقية التي يجري تصويرها فيه»[51]. كانت كلمات لَڤِنْ في كتابه ذا ڤيتس أوف هورن The Gates of Horn (1963) قد عبرَّت عن رأي تلميذه السابق تعبيرا تامّا تقريبا: «المَيْل الأكبر إلى الرواية في الغرب الحديث كان باتّجاه تصميم الكتّاب على مواجهة الحياة، وتصويرها كما هي، ونقدها»[52]. وبتحديد الهدف بدقة، سار سعيد في الخطى التي رسمها ذلك الكتاب الذي نشر في سنة تخرُّجه في جامعة هارڤرد، وذلك بتركيز النظر على هذه المنافسة بين «المحتوى القابل للفصل» و«مغازلة الأساليب الأدبية» بتعبير لَڤِنْ[53]. وقد فاز الخيار الأوّل عند كلا الرجلين، على الأقل من الناحية التكتيكية لهذه المشاريع.

كان الجهد الذي أنتج هذ الدراسة الضخمة مدهشا، إذ تطلَّب كلَّ ما لدى سعيد من قدرات على السرد. وكان يشير إليها في مراسلاته بأن «إطارها أكبر من اللازم قليلا»[54]، ولربما كان المقصود من أشهر أجزائها – تلك الفصول الخلافية عن رواية مانسفيلد پارك Mansfield Park لجين أوستن Jane Austen ، وأوپرا عايدة Aida لڤيردي Verdi، وهي فصول استثارت عددا من الردود الغاضبة التي تدافع عن صدق المشاعر النسوية لدى أوستن وعن السياسة المناهضة للاستعمار لدى ڤيردي – أنها تهدف بالدرجة الأولى إلى إثبات الكيفية التي قد تتضمَّن الأعمال الفنية فيها علاقة إمبريالية عنيفة بهدوء وتتنصَّل منها[55]. والفرضية الكامنة هي أن الفن الأصيل يستوعب بيئته استيعابا يبلغ من رهافته أنه يكون شاهدا على قِيَمٍ لا يملك القدرة على تشخيصها.

غير أن هذه الناحية من الدراسة، وهي ناحية استثارت قدرا من السخرية أحيانا – كما فعل صادق جلال العظم عندما قال: «ليس هنالك من كشف جديد في القول إن ثقافة البلد الإمبريالي تعكس توجهات إمبريالية» – لم تكد تلمس طموحات

الكتاب[56]. لقد حظي الكتاب بترحيب بالغ من جهات عديدة (فقد عدَّه چومسكي هو وكتاب «القضية الفلسطينية»، أهمَّ كتبه)، وطبع طبعة خامسة في يونيو 1993، وكان لا يشبه الملخَّصات الشعبية الني ظهر واحد منها في مجلَّة «تايم» على سبيل المثال[57]. هذا الكتاب «اللذيذ» (بتعبير روبرت هيوز) يتناول «الكيفية التي عملت فيها الحقائق الكبرى الثلاث للإمبراطورية – الاستعمار، والمقاومة من جانب الأمَّة المستعمرَة، وعملية التخلُّص من الاستعمار – على تشكيل الرواية الإنكليزية والفرنسية على وجه التعيين»[58].

بيد أن لكتاب «الثقافة والإمبريالية» طموحات أكبر من هذه بكثير، فلم يكن سعيد مستعدّا لحصر الإمبريالية في «الاتجاه الذهني» وحده، بل ربط فكرة الكتاب بالحقائق المادِّية المتمثِّلة في الاستيلاء على الأراضي، وهو شكلٌ ثانٍ من أشكال إدخال الاقتصاد في حِجاج كان يبدو أنه يهمله: «مع حلول العام 1914 كان المعدَّل السنوي [للاستيلاء على الأراضي] قد ارتفع ليصل إلى 240 ألف ميل مربَّع، وسيطرت أوروبا على ما مجموعه 85 في المائة من الكرة الأرضية على شكل مستعمرات»[59]. وقد ذكَّر سعيد قرّاءه في كلِّ مناسبة بأن كلَّ شيء - من الاختلال في العلاقات التجارية، واستخراج المواد الخام، ونظم التعليم الاستعمارية – كانت تعود أصوله لمعارك على ما يمكن الحصول عليه من الأرض. وعلى غرار كتاب «الاستشراق»، الذي انتقل فصله الأخير من مصر نابليون إلى وزارة خارجية الولايات المتَّحدة ـ فإن خاتمة الكتاب حوَّلت نظرها إلى الوضع الإمبريالي الحالي، حيث تنخرط الشركات التي تتجاوز ملكيَّتها حدود الأمة الواحدة في صراع يرقى إلى حرب على «الملكية العامة»[60].

إن الحقيقة الملموسة لمادِّيَّة الأرض ولمحدوديتها في هذا الكوكب زوَّدت الكتاب بأساسٍ ما كان يمكنه الحصول عليه من غيرها، وهذا ما ساعده على تفادي التهمة القائلة إنه مثالي أكثر من اللازم بإعطائه المكان الأبرز للصور والأفكار بدلا من العوامل الحقيقية المتمثِّلة في الأسلحة، والمال، والمصادر الطبيعية (وهي تهمة وجَّهها له صديقُه وحليفه السياسي سامي البنّا من بين آخرين). غير أن سعيد كان يؤكِّد في الواقع على ديمومة الأرض التي لا مراء فيها، وعلى حدود المكان، وعلى المركزية الطاغية للغة الإنكليزية. وكان تركيزه على الجغرافيا جليّا لزوّاره في شقَّته، حيث كان يستخرج أحيانا خريطة كبيرة من تلك التي يستخدمها القادة

العسكريون والمخططون الاستراتيجيون في الحرب في غرفة العمليات لدراسة توازن القوى عند نشوب المعركة القادمة. وهناك كان ينتقل لِيُرِيَهم بالضبط ما كان الفلسطينيون يواجهونه، والبانتوستانات(*) التي كانوا يُحصَرون فيها، والطرق التي تخترق أراضيهم وتخنق المواصلات وتمنع الوصول إليهم، تماما مثلما كان يحصل في نظام البلدة في جنوب أفريقيا في عهد الفصل العنصري[61].

لا يشير سعيد إلى الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين مباشرة في الثقافة والإمبريالية، لكن من الواضح أن ذلك كان في ذهنه في أثناء تفصيل القول في غزو الهند وأفريقيا وجنوب شرق آسيا. ولكنه فعل ذلك بينما كان يتوسَّع في مفهوم الجغرافيا الخيالية في حركة عدَّها البنّا وآخرون مغرقة في المثالية. ولم تصل قوَّة حجَّته في أي مكان آخر إلى ما وصلت إليه في الثقافة والإمبريالية عندما تقدَّم بالرأي القائل إن حق استيطان بقعة من الأرض والعمل فيها «شيء يجري تصويره والصراع حوله والوصول إلى قرار بشأنه في السرد الروائي»[62]، وتعطى السلطة القانونية على الأرض عادة لأولئك الذين لديهم حقّ الإرث أو السبق في الاستيطان. وكلتا هاتين الطريقتين تُدعم بقصص عن صيغة من الماضي وليس عن سواها. وفي النهاية، يتوافق القانون مع القصَّة التي تكسِب الجمهور الأكبر.

هذا التصادم في الفكرة المطروحة بين القدرة التشكيلية للأفكار من ناحية، والمادِّية الملموسة للأرض من الناحية الثانية كان علامة ثانية على مشروع يحارب نفسه. ومن الممكن ملاحظة هذا التوتُّر في استعماله لمصطلح «الإمبريالية» نفسه. ففي الحركة الافتتاحية للكتاب عكس سعيد بجرأة، وبشكل غير مقنع إلى حدٍّ ما، الفهم المعتاد للتسلسل الزمني بين الإمبريالية والاستعمار. فالاستعمار يعتقد في العادة أنه يأتي أوّلا، وهو إجراء عملي غير منظَّم قائم على المغامرات الخاصة وعلى الشركات القابضة من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر، وفيه تسرق المصادر وتسخَّر العمالة، وتقام المستوطنات خارج البلاد، ويحصل كلُّ ذلك فيما بعد على دعم التاج. وتشكِّل شركة الهند الشرقية نموذج هذا النوع من العمليات.

(*) منطقة محصورة تعيش فيها جماعة إثنية تختلف عن الدولة التي تضمها، تتمتع شكليا بقدر من الاستقلال ولكنها تعتمد على الدولة المسيطرة اقتصاديا وتفتقر إلى السلطة الحقيقية. [المترجم].

أما في المفهوم السائد حاليّا فإن الإمبريالية تُفهَم على أنها التحويل الذي جرى في القرن التاسع عشر للعملية السابقة إلى إجراءات مالية. وخلافا للاستعمار، فإن الإمبريالية تمارس السيطرة عن بُعد عبر إجراءات تجارية عقابية، وتحكُّم صندوق النقد الدولي بنسبة الفائدة، والعقوبات الحكومية، وخطط التقشُّف التي يفرضها البنك الدولي. وبدلا من احتلال البلاد الأخرى وإقامة الأجهزة البيروقراطية، أو تدريب النخبة المحلِّيَة، فإن القوة يجري تأكيدها بالتهديد بالتدخُّل العسكري وفرض العقوبات. لكن سعيد يعكس الترتيب الزمني. وفي «الثقافة والإمبريالية» يرى أن الإمبريالية ليست امتدادا لنظام يقوم على سرقة المصادر الطبيعية وتسخير العمالة، بل هي حافز أوّلي، بل هي شهوة للغزو والإخضاع العرقي الذي يسبق الاستعمار: «إنها إحساس مقيم، يكاد يكون ميتافيزيقيا لحكم شعوب تابعة، أدنى، أقلّ تقدُّما». وهو يرى أيضا بصورة لا تقلُّ تحطيما للتصور القديم أن الاستعمار «انتهى تقريبا»، وهو موقف يتعارض مع كثير من أقواله السابقة عن الموضوع[63].

هنا أيضا قد يجد القارئ اختلافا مع طموح آخر للكتاب لم تتناوله مراجعة مجلَّة «تايم» هي ومصادر أخرى تمثِّل الآراء السائدة. ولم ينتبه قرّاؤه بعامَّة، ولا الأكاديميّون منهم بخاصة، لهدفه الواضح في الكتاب، وهو التنويه بالعصر الذهبي لحركات التحرُّر المعادية للاستعمار، حركات فرانتس فانُو، وپاتريس لومُمْبا، وأمِلْكار كبْرال(*)، وغيرهم. وكان يصرُّ ليس فقط على أن تجاربهم كانت لاتزال ذات صلة بالموضوع، بل على أنهم زوّدونا بنماذج أفضل من تلك التي فضلها المثقَّفون لفهم النظام الإمبريالي المعاصر. هذا التردُّد النظري حول ما إذا كان الاستعمار لايزال موجودا أو غير موجود عكسه الكتاب في مستويات الخطاب العاطفي المستعملة، وفيها تنحَّت القراءة المدقِّقة وما يرافقها من تبجيل للأبطال الذين أُغفِل ذكرهم وتمجيد الباحثين لهم، وحلَّت محلَّها قصصٌ عما عاناه ثوريو الإمبراطورية ونقّادُها من قسوة السجون والجوع والعذاب. هذه العناصر الأخيرة أعطت الكتاب شيئا شبيها بلغة استثارة الغوغاء التي لا تتناسب مع مصادر الكتاب ومراجعه ذات الوزن الثقيل، ومع التعبير عن عدم اليقين في بعض الأحيان.

(*) قاد حركة استقلال غينيا بيساو؛ واغتيل قبل إعلان الاستقلال بثمانية أشهر في العام 1973. [المترجم].

لكن سعيد حافظ على وحدة هذا المشروع برغبة واحدة متماسكة على رغم هذا التنافر في الأفكار، فبغضِّ النظر عن الأشياء الأخرى التي فعلها، فإنه أراد هنا في آخر المطاف أن يقيم نظرية أصيلة مصدرها الوحيد هو العالم الثالث، بينما كان يشكو منذ سنوات أنها غير موجودة. وقد بدا في مرحلة من المراحل أنه وجد صيغة من صيغ «المعارضة» لدى السكان الأصليين في العالم الثالث ممثَّلة في صيغة «الاحتجاج الدارمي» dharmic protest(*) عند المؤرِّخ البنغالي راناجيت غوها، ولكنه بحث عن مزيد من الأمثلة[64]. ولتحقيق هذا الهدف لجأ إلى كلمات أساسية في العناوين الفرعية للكتاب، وهي عناوين أوحت بالسعي المضني إلى الوحدة: «الفروق»، «أفعال المقاومة»، «الرؤى الموحَّدة». ولكنه هنا أيضا كان يعمل ضدّ ما يريد، واستسلم في النهاية لتنظيمٍ كلّيٍ جرى التأكيد فيه «على جانبين، وعلى رؤيتين».

كانت صورة الطباق الموسيقية إحدى طرق التعبير عن هذه الثنائية: لحنان متزامنان تختلط أصواتهما ولكنهما يحافظان على كونهما اثنين مستقلَّين على رغم أن التوافق بينهما يأتي عبر الحركة الأفقية وليس عن طريق اتحاد الطرفين في الصوت العمودي. وكان يبحث، كما بحث في كتاب «الاستشراق»، عن الأرضية المشتركة، ويصرُّ على الاحترام المتبادل للاختلافات بين الشعوب، ولكن من دون اهتمامٍ بالانفصام الأسطوري المطلق بين الشرق والغرب الذي نجده في شعر كپلنغ Kipling. انطلق، مسلّحا بهذه العقلية، لتحطيم «اللعنة الغربية ذات التوجُّه اليميني» التي ترى كلَّ ما ليس بالأبيض، ما ليس بالغربي، ما لا ينتمي إلى التراث المسيحي اليهودي على أنه خارج الخليقة(**) الغربية، وسخر بالدرجة نفسها من القوّة من أمثال عالِمَيْ الاجتماع الإيرانيَّين علي شريعتي وجلال آل أحمد اللذيْن عَدّا الغرب «عدوّا، ومرضا، وشرّا». غير أن صورة «الجانبين، والرؤيتين» خلَّفت في نفسه ثنائية الشرق في مقابل الغرب غير المريحة على رغم كلِّ ذلك[65].

(*) من بين المعاني التي يذكرها القاموس المسمى American Heritage Dictionary لهذه الكلمة السنسكريتية: القانون الذي ينظم الكون، وواجب الفرد نحو الجماعة ـ ومجموعة التعاليم البوذية. [المترجم].

(**) هذه الكلمة تقابل كلمة ethos، ويعرّفها The American Heritage Dictionary على هذا النحو: المزاج، أو الصفات، أو القيم، الأساسية التي يتَّصف بها شخص، أو شعب، أو ثقافة، أو حركة. وهي معان أحسبها متضمنة في كلمة «خليقة» كما ترد في بيت زهير بن أبي سُلمى:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ. [المترجم].

يمكن القول إن كتاب «الثقافة والإمبريالية» أقلُّ كتبه تشدُّدا من بعض النواحي، لكنه جعل العواطف المنقسمة في كتاب «الاستشراق» أعلى حدَّة. وبدا في بعض الأحيان أنه يؤمن بلغة «القوّتين العظميين» التي تستخدمها لغة الأخبار الأمريكية التي طفِق ينتقدها في مقالة إثر أخرى(66). وقد أعطت بعض الفقرات الانطباع بأن الصراع الأساسي في العالم يقع بين الأجناس البيضاء والسوداء، بين نظرتين منفصلتين انفصالا مصيريّا يتعارض مع الملاحظات الـمُطَمْئِنَة في الفصل الأوَّل: «أراضٍ متداخلة، تواريخُ متشابكة»(67). كان مفكِّرو الغرب سواء كانوا من أتباع الماركسية، أو النسوية، أو البنيوية، أو التحليل النفسي، مصابين – مع استثناءات قليلة – بالعمى عند النظر إلى الإمبريالية في رأيه(68). وحتى رَيْـمُنْد وِلْيَمْز Raymond Williams، الذي كان سعيد قد أصاب في امتداحه لموقفه المعاكس، تحوَّل فجأة إلى مفكِّرٍ «لم تكن التجربة الإمبريالية عنده ذات صلة»(69). ومما يثير الاستغراب أن تُنسى في هذا التعليق كتاباتٌ مناهضة للاستعمار أنتجها شعراء وروائيون وكتّابُ مقالاتٍ مثل ديدرو، وبْليك، و و. إ. ب. ديو بُويْس W. E. B du Bois(*)، و هـ. ج. وِلْز H. G. Wells، ونانسي كيونارد Nancy Cunard(**).

أعلن سعيد أن أوروبا كلَّها كانت تتّصف حتى العام 1904 «بحماس إمبريالي لا يعارضه فيها أحدٌ». لكنه (بسبب تردُّده) خفَّف التهمة فيما بعد، ثم تراجع عنها تماما. وفي الحالة الثانية تحدَّث «عما يقرب من التغيُّر الكوبرنيكي(***) في العلاقة بين الثقافة الغربية والإمبراطورية» في السنوات الأولى من القرن عندما جاءت موجة من التفكير الجديد والطاقات الثورية التي أطلقتها روسيا فجعلت الكثير من المثقَّفين يدركون أن الحرب العالمية الأولى كانت مشاحنة بين القوى الأوروبية الساعية إلى السيطرة على المستعمرات(70).

غير أنه عاد بعد هذا التنازل الظاهري لتأكيد موقفه الأصلي القائل إن المبشِّرين الغربيّين، والأنثروبولوجيين، والمؤرِّخين الماركسيّين، بل حتى حركات التحرير نفسها

(*) وليم إدورد بيرغهارت ديو بويس (1868-1963) كان عالم اجتماع أمريكيا، واشتراكيا، ومؤرّخا، وناشطا في حركة الحقوق المدنية، وكان أول أمريكي أفريقي يحصل على شهادة الدكتوراه. [المترجم].

(**) (1896-1965) كاتبة بريطانية من الطبقة العليا، قاومت العنصرية والفاشية، وكانت على صلة بكبار الكتّاب والفنانين في عصرها. [المترجم].

(***) نسبة إلى كوبيرنِكس الذي طرح نظرية مركزية الشمس بدلا من مركزية الأرض. [المترجم].

عبَّرت عن موقفها الأبوي نحو أفريقيا [بمعنى حكمها وحرمانها من الحقوق والمسؤوليّات]، وأنكرت عليها استحقاق السيادة: «الوضع الثقافي العام... اتَّفق مع هذا النمط من التفكير»[71] وأرَّخ بعناية «تطوُّر النظرات الثاقبة العظيمة التي أنتجها عصر التنوير» في العنصرية، وتناول الكتابات التي كشفت لاأخلاقية المشروع الاستعماري على يد بارتولومي دي لاس كاساس Bartolomé de las Casas(*)، والأب رينال Abbé Raynal(**)، وكانْت، وهيردر. ولكننا لا نحصل إلا على انطباع باهت عن مدى الصراحة والاستمرارية في مهاجمة المشروع الإمبريالي. كذلك لا يرد ذِكْرٌ لردود الفعل المتعاطفة في أوروبا مع الثورات التي حدثت في الجزائر ومصر في القرن التاسع عشر، أو مع حروب قبائل الزولو التي نجحت بعض الوقت ضد البريطانيين في سبعينيات القرن التاسع عشر - وكانت هذه كلها نقاطا مفصلية أظهرت أن نقده والنقد الذي أنتجته دراسات ما بعد الاستعمار تتحدر من تاريخ طويل من التفكير المناهض للاستعمار لم يحصل على ما يستحقُّه من التقدير[72]. وعلى رغم الحذق الواضح في نسج هذه الخيوط لإخراج شكلٍ تعليميٍّ واسع فإن الخيوط الجدلية تشابكت أحيانا تشابكا جعل متابعتها بالغة الصعوبة.

أعطتنا مقالتان تعودان لتلك الفترة، وهما أجرأ ما قاله عن الحروب الثقافية، نظرة فاحصة عن أسباب هذا السعي إلى تقديم موقف متوازن. والمقالة التي تثير الإعجاب أكثر من الأخرى هي تلك المعنونة «سياسة المعرفة» (1991). تبدأ هذه المقالة بروايةِ حادثةٍ عن تقديم صيغةٍ أولى من مقدِّمته لكتاب «الثقافة والإمبريالية» في إحدى الجامعات الكبرى التي تهتم بالبحث العلمي (جامعة رَتْغَرز)، وصف فيها تعرُّضه للهجوم في أثناء فترة السؤال والجواب من جانب امرأة أفريقية أمريكية تنتمي إلى هيئة التدريس في مجال التاريخ لها حظٌّ من الشهرة[73]. والظاهر أنه عومل بقسوة، وكانت التهمة هي أنه لم يذكر أي امرأة غير أوروبية في ورقته. وكان واحد من أعدائه القدماء، وهو مستشرق عربي، حاضرا، انضمَّ إليها فيما بعد

(*) (1484-1566) التحق بسلك الكهنوت، وأرّخ، وشاهد فظائع الاستعمار، وكتب عن تدمير حضارة السكان الأصليين في جزر الهند الغربية. [المترجم].

(**) (1713-1796)؛ أهم كتبه هو تاريخ فلسفي سياسي للهنديْن، الذي نشر بأربعة أجزاء في أمستردام في العام 1770. [المترجم].

وهاجمه للأسباب نفسها[74]. ويبدو أن الحادثة جرحته، لذلك فإنه كان لايزال يشكو لأصدقائه بعد أشهر من تلك الحادثة.

قال في تلك المقالة إن تأكيد وجود «آخر» من غير البيض لا يرقى إلى مصاف الحجَّة، فضلا عن مصاف الحجّة التقدُّمية. فلا العرق ولا الجنس [ذكر/ أنثى] هو البداية أو النهاية للشخص. فلو كان ذلك كذلك كما فعلت المدرِّسة في جامعة رتغرز لكانت النتيجة التي تجافي المنطق التي تجعل كرّاسة من الدرجة الخامسة وإحدى الروايات العظيمة متساويتين في القيمة تقريبا. «لكن المهم في النهاية في رأي سعيد هو كيف يُكتب العمل وكيف يُقرأ». ومن الممكن تماما أن يجري التعبير عن المشاعر المناهضة للاستعمار بقراءة ييتس أو شلي قراءة نقدية. ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى كان قد أنجز مقالة أخرى حول الأفكار نفسها نشرها في مجلَّة ترانزشن Transition التي تهتم بالقضايا الأفريقية، وفيها تناول المناقشات التي كانت تدور حول «التراث المعتمد»(*)[75]. وقال إن النقّاد المحافظين من أمثال إِرِك دونَلْد هِرْش E. D. Hirsch كانوا يبالغون في حجم التغييرات التي أجريت على قوائم القراءات المطلوبة من طلبة الكليات، وهي قوائم تملأها أسماء مثل شيكسپير وت. س. إلْيُت. كذلك فإنه اعترض في الوقت نفسه على «سخافة» الأساتذة الشباب وطلبة الدراسات العليا الذين هاجموا كبار الباحثين ووصفوهم بالعنصريين، وهاجموا زملاءهم لأنهم يخالفونهم سياسيّا.

يعود الكثير مما في كتاب «الثقافة والإمبريالية» من غموض إلى محاولة التوفيق بين حركات التحرير المتشدِّدة من ناحية واتّفاق آراء المنتمين إلى الفكر الجديد في مرحلة ما بعد الاستعمار من ناحية ثانية. فالموجة الجديدة من

(*) الكلمة الأصلية هي canon، وهذه تستعمل أحيانا لتدلّ على ما ثبتت نسبته من أعمال كاتب من الكتّاب في مقابل ما نسب إليه أو إلى غيره خطأ. وأوضح مثال على الفكرة في الثقافة العربية الإسلامية هو الحديث النبوي. فالمسلمون السُّنَّة يسلِّمون بأن ما ورد في صحيحي مسلم والبخاري canonical، أي يعتمدون الأحاديث التي رويت فيهما جزءا من تراث الإسلام، بينما يصفون أحاديث وردت خارجهما بأنها ضعيفة أو موضوعة. وقل مثل ذلك عن دواوين الشعر التي تفرّق بين الأصيل والمنحول. لكن الفكرة تتوسَّع أحيانا فنقول إن الشعر العربي المعتمد هو الشعر الذي تمثله المعلَّقات وشعر عدد قليل آخر من كبار الشعراء. وفي سياق الأدب الإنكليزي لم تكن كتب المختارات الكبرى تضمّ كتابات للنساء أو الأمريكيين الأفارقة؛ لذلك فإن التراث المعتمد كان يُقصي كتّاب الأقليات أو المستضعفين. لكن تعريف التراث المعتمد أخذ يضمّ أمثلة من هذا الأدب تحت الضغوط السياسية التي مارستها الحركات النسوية والأقلّيات السياسية. [المترجم].

الباحثين في أدب ما بعد الاستعمار دخلت إلى الحياة الأكاديمية في الغرب للمرَّة الأولى، وكثير منهم ينتمون إلى البلاد المستعمَرة سابقا أو يتَّصلون بالميلاد أو باسم العائلة إلى أولئك الذين كانوا يعيشون في تلك البلاد. كذلك كانوا ينتمون إلى جيلٍ تشكَّل في عهد الرئيس ريغن من ناحية وحقبة ما بعد الحداثة من ناحية ثانية. وقد هاجر كثير منهم من جنوب آسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط إلى الجامعات الموجودة في المركز الحضاري metropolitan(*) بسبب الفرص التي أوجدها سعيد. ولكنهم بمجرد أن وصلوا إلى هناك، وشعروا بالقوّة التي وجدوا أنهم يملكونها، انتسبوا إلى نظرية «الانفجار الكبير» القائلة إن مقاومة الاستعمار لم يكن لها وجود قبلهم. وبدا أن الفكرة هي أن على المرء أن ينتمي إلى جماعة عرقية أو إثنية أو قومية مظلومة من أجل أن يقاوم المظالم الإمبريالية؛ وهكذا جيء بمعادلة (ظلَّ سعيد يعارضها على الدوام) بين ما يعرفه المرء وما هو. وفي خلفيةٍ شهدت نهاية الانتعاش الاقتصادي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية (1972) وسقوط جدار برلين (1989) أخذت الاهتمامات التي تشغل صفحات دراسات ما بعد الاستعمار تختلف عن اهتمامات سعيد التي أخذت تركِّز على إيجاد دول جديدة، والتشكّي للحكومات، والمعارك التي تخوضها وسائل الإعلام في المجال العام. أما دوافع دراسات ما بعد الاستعمار من جهتها فقد توصف بأنها كراهية عامَّة لكيان غربي يطلق عليه اسم غامض هو «الحداثة».

وعلى رغم أن دراسات ما بعد الاستعمار كانت قد اختُرِعت في أقسام اللغة الإنگليزية، فإنها كانت بعيدة كلَّ البعد عن أن تكون دراسات أدبية خالصة. فقد أخذت تستعين بالنظريات الفرنسية والألمانية الاجتماعية والإستطيقية، وأنتجت أنواعا مختلفة من الكتابة، أعمالا فلسفية مزجت الإثنوغرافيا والتاريخ بلغة مليئة بالمصطلحات والاتِّجاهات الماركسية والفوضوية. وانتشرت بسرعة من حقل الإنسانيّات إلى كل جناح من أجنحة العلوم الاجتماعية، وكان بإمكانها أن تجد باحثين في مجال دراسات ما بعد الاستعمار في حقول الأنثروبولوجيا، والتاريخ،

(*) الكلمة الأصلية هنا هي metropolitan، وتدل في العادة على المدن الكبرى في البلد، ولاسيّما العاصمة. لكنها أخذت تستعمل بمعنى مركز الحضارة الحديثة بعامة كما قد نصف الولايات المتحدة أو أوروبا الغربية في مقابل العالم الثالث. [المترجم].

والجغرافيا، مثلما قد تجدها في حقل الأدب المقارن. إذن، كانت عبارة «نظرية دراسات ما بعد الاستعمار» هي العبارة التي تمثّل سعيا وراء أوروبا «أخرى» باستعمال مفاهيم تعود لفئة معيَّنة من الفلاسفة الأوروبيين في رفض غامضٍ سياسيا لما يدعى بـ «الإنسان الغربي». وهكذا وجد سعيد نفسه بين تقليديّين بُلَداء يزعجهم أيُّ شيءٍ جديد، وطليعيين تخلوا عن بعض من أشدّ أنماط التفكير النقدي الذي ظهر في الماضي بحجَّة أنه أبيض وذكوري. كان قد أصبح هو الأب الاسمي لحقلٍ كان متردِّدا في التخلّي عنه، ولكنه حقلٌ لم يعد يتوافق مع رؤياه.

كانت حدَّة انزعاجه كعادته أوضح خارج كتاباته الأكاديمية. وتعطينا مراسلاته الكاشفة مع كاميل پاليا، وهي كاتبة ذات أسلوب يفيض بالحيوية، تدرِّس في كليةٍ صغيرةٍ للفنون(*) في فيلادلفيا، مثالا على ما نحن بصدده هنا. كانت پاليا قد أثارت حفيظة العالم الأكاديمي بمقالتها الصاخبة بعنوان «الأسهم الرديئة وتكتُّل الغزاة» (1991) بينما كان سعيد يستعدُّ للانتهاء من «الثقافة والإمبريالية». هذا الهجوم المنفلت على ظاهرة «حكّ ظهري لأحكّ ظهرك» كان هجوما على النظرية أيضا، لأنها في رأيها أزالت كلّ ما في الفن من متعة[76]. كانت پاليا من أنصار الحركة النسوية، وقد ركَّزت في أكثر كتاباتها على الطبيعة الجنسية وعلى الثقافة الشعبية، لكنها في هذه المقالة دافعت عن الأعمال الكلاسيكية، وعبّرت عن رأيها القائل إن الثقافة المضادَّة في عقد الستّينيات (التي استمدَّت منها إلهامها) كانت قد قضت على كليشيهات الحداثة وأنقذت النقد الجديد. وأوضحت للجميع أن أتباع ما بعد البنيوية من أمثال لاكان ودريدا وفوكو كانوا «رَجعيّي زمننا المتحجِّرين». انتقدها سعيد بلطف بسبب ميلها إلى المبالغة أحيانا، ولكنه كان متَّفقا مع أطروحتها القائلة إن النظرية «خطر» على الطلّاب[77].

تركت إحباطاته أثرها في قاعة التدريس أيضا، وأبعدته عن مساره المعتاد، وخالف الاتجاه السائد في العالم الأكاديمي فأخذ يدرّس أقلّ مع تعاقب السنين في العقد الأخير من القرن العشرين، وأخذ يشكو من أن الطلبة فقدوا الحسَّ النقدي، ولم يعودوا قادرين على اتَّخاذ موقفٍ خاصٍّ بهم: «أهينهم، ألاطفهم، أداهنهم...

(*) هي في الواقع جامعة اسمها The University of the Arts. [المترجم].

ولكنهم لم يعودوا راغبين في المجادلة. يأخذون كلَ أقوالي كأنها نصائح مهنية»[78]. وأخذت موازنته بين النقد القاسي والدفء والتشجيع تضمحلُّ شيئا فشيئا. وعلى رغم أنه حافظ على حضوره الطاغي في قاعة التدريس، فإنه لم يكن دائما لطيف الأسلوب مع الطلبة، إذ أخذ لا يفوِّت الأخطاء، وأخذ صبره ينفد بسرعة[79].

بقيت أهداف «الثقافة والإمبريالية» مخفية في غابات من التوجيهات غير الصحيحة نتيجة للصراع الداخلي، ففي فصل من الفصول المضطربة في منتصف الكتاب على سبيل المثال تأمّل في كتابات مؤلِّفين من أمثال توماس مان Thomas Mann وأندريه جيد André Gide تمكنوا من جعل الإمبريالية موضوعا من موضوعاتهم، ولكنهم لفّوه بغطاء أخفى معالمه، ولم يصلوا إلى حدّ إعطاء السكان الأصليين صوتا خاصّا بهم، أو إلى تجاوز تصوير عالمهم غير المألوف وإضفاء جوٍّ من التشاؤم عليه. فالهدف من كتابة كتاب «الثقافة والإمبريالية» بوصفه استكمالا لكتاب «الاستشراق» كان المضيّ مما هو سلبي إلى ما هو إيجابي. لم يكن الهدف هو إظهار الأعمال السيئة التي ارتكبتها أوروبا، بل إعطاء مثقّفي العالم الثالث فرصة للكلام، وهو أمرٌ لم يفعله كتاب «الاستشراق» على رغم كلِّ حرارته الثورية؛ لذلك فإن الكتاب يستند إلى تراتبية تبدأ من تمجيد أبطالٍ ظهروا في العالم الثالث من أمثال الطيب صالح، وجان جينيه، وجورج أنطونيوس الذين يختلفون عن مان وجيد في أنهم أظهروا أن ثقافتهم ذات أبعاد ثلاثة وذلك وفق رؤيتهم هم، وقدَّموا نظما بديلة للقيم من منطلقات جديدة موجودة في الأطراف.

لم تكن هذه المقارنات ذات المنحى التعليمي شيئا يخفى على الناظر، وكان الكتاب مملوءا بها، عارضا بوضوح ما هو جيِّدٌ، وأجود، والأجود في قضايا الثقافة والإمبريالية. ونتيجة لذلك، وعلى رغم أن هذه الإيماءات الدعائية كانت ضرورية للخط السياسي في الرمال التي أراد تصويرها، فإن كثيرا من خيوط فكرته لم تلفت النظر، ومن أهم هذه الخيوط ذلك الذي يكمن في القسم المسمّى «تعليق على الحداثة».

كتب سعيد ما كتب بوعي تامّ لحقيقة أن الكتابات الحداثية لكلٍّ من غيرترود سْتاين، وجويس، وكافكا، ومالارميه لم تكن مجرَّد مدرسة أدبية أخرى تُعلَّم في الجامعة. وقد كان الأساتذة على مدى عقود من الزمن يضعون الحداثة في المركز من

التعليم الأدبي ويجعلونها مقياسا ينبغي أن تقاس به كلّ الكتابات العظيمة. ولكنهم فعلوا ذلك في رأيه لهدف في أنفسهم، فالمواصفات المألوفة للحداثة: ما لا يمكن تجنُّبُه، وما لا يعرف كُنهُه، وما هو مرجعيةُ ذاته – هذه المواصفات أصبحت معتقد اليأس المدني. والكتابات التي حُبِكَت حبكا جيّدا عن موضوعات الكَرْب، والخواء، والصمت الحداثية ليست هي كلّ ما هنالك في رأيه في روايات ڤرجنيا وولف وشعر إزرا پاوند، فهي تعكس في الواقع «ورطة الناقد وليس صعوبة الأدب»[80]. وكان قد اشتكى يوما لِلاينل تْرِلِنْغ من أن التصفيق الذي يكاد يكون شاملا للحداثة في العالم الأكاديمي اعتاد أن يركِّز على «الجانب المظلم، المضطرب من عدميَّتها»، مع نسيان ذلك الجانب منها الذي يمثِّله نيتشه. كان نيتشه يملك «إحساسا متجدِّدا بالمعرفة العقلية وإحساسا بنّاء بالعلوم الإنسانية»، إحساسا قويّا بالكيفية التي تعبِّر بها الطرق المختلفة لدراسة المجتمع والثقافة، طرق مثل الاقتصاد وعلم الاجتماع والموسيقى عن نفسها من خلال البحث الإنساني وحده[81]. قد تقدِّم الجامعة موقعا دفاعيّا عقلانيّا ضد إزعاجات السياسة، ولكن السياسة تدخل إلى الجامعة بطريقة ملتوية عبر الحداثة التي تتَّخذ شكل الفضاء العقلي لمناقشة اليأس في بيئة الذوق الإستطيقي، تلك البيئة التي لا تتصف القضايا المثارة فيها بقدر كبير من الخطورة.

هذه الناحية من النقاش قرّبته من لوكاتش. وكان قد تساءل باستمرار عن السبب الذي جعل كثيرا من النقّاد الأمريكيين يبتعدون عن هذا الماركسي العظيم بينما كان لديه الكثير مما يقوله عن الكيفية التي تشكِّل فيها الحركات الأدبية أو الاستراتيجيات الإستطيقية (التي يقال إنها ليست فعّالة في هذا المجال) التوجُّهات السياسية للمجتمع[82]. كان بوسعه هو شخصيّا أن يتفهَّم قدرة الفيلسوف الهنغاري على الإفلات على نحو بهلواني من النقد الرسمي بسبب موقفه المعارض، ويتجاوز الضغط المستمر القادم من فوق ومن الجوانب كلها. وليس واضحا ما إذا كان سعيد يعلم الكثير عن كتابات لوكاتش عن الثقافة والإمبريالية من عقدي الثلاثينيات والأربعينيات، وهي الكتابات التي استقصى فيها تأثير الاتجاهات الإمبريالية على الفلسفة والفنون في ألمانيا بعد حقبة بسمارك حتى الانهيار الذي أعقب الحرب العالمية الأولى[83].

ومهما يكن من أمر فإنه لا يشير إلى أعمال لوكاتش التي تعود إلى هذه الحقبة على رغم أن من الواضح أنه أدرك العلاقات التي أقامها لوكاتش بين الحداثة و«الفترة

الإمبريالية» (بتعبير الفيلسوف)، لأن أفكاره في الكتاب تماثل تلك الأفكار عن كثب. وكان سعيد قد وصل إلى حدّ القول قبل عقد من الزمان إن نظريات لوكاتش الاجتماعية ذات أهمية عميقة للشرق الأوسط، وأنها «تشبه المناقشات ذات المدى الواسع التي كانت تدور في العالم الإسلامي»[84]. ولذلك لا يدهشنا أن نجد لديه ما لدى لوكاتش من تحفُّظات عن الحداثة على رغم أنها لم تكن متوقَّعة من جانب كثير من قرّائه لأن الفنانين الحداثيين كانوا مادة تدريسه بصفته متخصِّصا في الأدب البريطاني الحديث، وبدا أنه ينطلق من كتاباتهم في مقالاته[85].

ومع ذلك فإنه وجد ما يدعوه إلى التعبير عن عدم رضاه بالتركيز على الاتِّجاهات الإمبريالية الكامنة تحت سطح الثقافة، وبالتأمُّل في تجاربه المضادَّة مع الواقعية العربية المتكرِّرة. وحيث إن الحداثة كانت نظرة إلى العالم أو «آيديولوجيا» (بعبارة لوكاتش) فإنها نَحَتْ نحو استثارة الحواس أكثر من استثارة الأفكار، ونظرت إلى بني البشر على أنهم منعزلون، غير اجتماعيين، عاجزون عن إقامة علاقات فيما بينهم. وقد شارك سعيد لوكاتش في هذه الشكوى وأضاف لها أفكارا من عنده. فقد انتقد مَيْل الحداثة إلى «الاستغراق في الذات، والانقطاع عن الآخرين، وجعل الذات مرجعية نفسها، والسخرية الجارحة»[86]، ولن تظهر نظرية محلية مصدرها العالم الثالث إلا إذا نُظِر إلى هذا الاتِّفاق الحداثي على أنه وجهة نظر تخصّ المركز وليس مصيرا إنسانيّا عامّا. وبذلك يعترف المثقَّف الأوروبي بالأذى الذي تأتي به الإمبريالية، ولكنه لا يقبل أي مسؤولية، ويؤكِّد لنا عدم وجود بدائل. وعلى رغم كلِّ ما تأتي به الحداثة من ثراء ثقافي ونظرة عالمية، وعلى رغم جرأة ما جاءت به من إعادة ترتيب للزمن التاريخي وانتهاك للأعراف فإنها ابتكرت مفارقة في الشكل «يُحِلُّ الفنَّ... محلّ التركيب الذي كان ممكنا في يوم من الأيّام لإمبراطوريّات العالم»[87] وكانت في تعطيلها للحسّ النقدي واستباقها للرغبة في المبادرة عند كونراد كما عند غيره جزءا من النظام الإمبريالي نفسه.

***

أخذ سعيد ينظر إلى الموسيقى طوال عقد التسعينيات، تحدوه الرغبة في جعل جانب واحد على الأقلّ من حياته غير خاضع للجدل، على أنها الجدار الحامي من اليأس في الثقافة السياسية الأمريكية التي أخذت تحزنه أكثر فأكثر. لكن هذه

الإستراتيجية لم تكن فعّالة دائما، ففي ردِّه على الرواية الناجحة پاتْرِشا هايْسْمِث Patricia Highsmith في العام 1988 ذكر أن مقالته التي تناول فيها عازفي البيانو قبلتها صحيفة «النيويورك تايمز»، ولكن رئيس تحريرها أيبرَهام روزنثال «قتلها» في اللحظة الأخيرة «لا لشيء إلا لأنني كاتبها»[88].

كانت مجموعة الأعمال الموسيقية الكلاسيكية الغربية تكمن تحت سطح أكثر نتاجاته في السياسة والأدب، وقد أدَّت دورا مهمّا في كتاب «الثقافة والإمبريالية». وعندما استذكر كتاب البدايات في العام 1987 على سبيل المثال عزا بنيته لهيكل الكتاب إلى استخدامه أصواتا مستعارة عديدة شبَّهها بالجوقات الهارمونية في الموسيقى اليوليفونية[89]. وقد كان التاريخ الفلسطيني شاهدا على مدى عشرين سنة «على صوت لحن أساسي يرافق الاستيلاء على الأراضي»، صوت «كونْتِنْيُوو»(*) حقيقي[90]. كذلك كان استعمال ڤيكو للتكرار شبيها بالـ cantus firmus أو اللحن الموجود سابقا الذي يُبنى عليه مؤلَّفٌ موسيقيٌّ أطول وأكثر تعقيدا، أو بالـ chaconne، وهي شكل من أشكال الموسيقى تتكوَّن من سلسلة من التنويعات التي تقوم على أساس موسيقي متكرِّر، وهاتان وسيلتان موسيقيّتان تقوم التنويعات التجميلية التي تبرز فوقهما على النغمات الأساسية فيهما[91]. وقد لاحظ سعيد أن التوتُّر بين المكوّنات الهارمونية واللحنية في أوپرا ذهب الراين لڤاغنر شبيهٌ[92] بالتوتُّر بين نظام الأشياء والأشياء في التاريخ بوصفه سلسلة من الأحداث.

لكن حتى تدريس الأدب اتَّخذ صبغة موسيقية. فقد دعا الطلاب إلى شقَّته ليعزف لهم على آلة البيانو ليوضِّح الكيفية التي تروي فيها القطع الموسيقية القصص، وكيف أن مغادرة البطل وعودته في الرواية تذكِّران ببنية الفيوغ(**) مثلما يذكِّر تفاعل الشخصيات بعضها مع بعضها الآخر بانتقال اللحن بين العازفين في الكونشيرتو غروسو(***)[93]. وكانت محاولاته الأدبية تعجُّ بالمصطلحات

(*) نحن مضطرّون إلى استيراد المصطلحات الموسيقية الإيطالية كما تفعل بقية اللغات في أوروبا وغيرها، ومنها هذا المصطلح: continuo، وهو يشير إلى نوتات ترافق القطعة الموسيقية تُعزَف على آلة البيانو أو الهارپسيكورد وتشكّل شيئا يشبه القاعدة التي تقوم عليها القطعة. [المترجم].

(**) قطعة موسيقية طباقية تتألف بنيتها من ثيمة أو ثيمات تتكرر بأشكال مختلفة. [المترجم].

(***) هو كونشرتو لمجموعة صغيرة من الآلات مع أوركسترا، وهو يختلف عن الكونشرتو العادي الذي يكتب لآلة منفردة تتحاور مع الأوركسترا. [المترجم].

والأحاسيس الموسيقية كما في هذه القطعة البليغة من قصيدة كتبها عندما كان طالبا في مرحلة الدراسات العليا:

لا يُعَبِّر العالَم عن زمنه من الشرق
حيث تختلط الأصوات الصاخبة بالثغاء السخيف
وتأسر أشعة الشمس كما في الـدورات النمطية...
كان الشَّنق حلما بسيطا يمكن الاستيقاظ منه
وغناء الجولات المحتومة بعد استعادة الحيوية، وبصوت جهير.
رأيُنا لم يكن رأيا حكيما لأننا طالبنا بهارمونيّات(*) جديدة[94].

وقد جرى التعبير في كتاب «الاستشراق» عن كثير من الموضوعات في بواكير الكتاب بصور مستقاة من عالم الموسيقى. وفي القصيدة المقتبسة أعلاه نقرأ عن الثقافة التي فقدت مقامها الموسيقي، وصراع أمة الشاعر وقد تحوَّل إلى opera buffa أي أوپرا هزلية، وعن الشرق المضطر إلى السير خلف الغرب إلا إذا أمكنه ابتكار هارمونيّات جديدة. وفي قصيدة «هانس فون بيولو في القاهرة»، وهي قصيدة كتبت في الفترة نفسها، نجد موضوعا متَّصلا ولكنه مختلف، وهو موضوع غرام أوروبا بالهروب الشرقي. فالبارون هانس گويدو فون بيولو، وهو واحد من أشهر قادة الفرق الموسيقية في القرن التاسع عشر، انتقل إلى القاهرة فعلا في وقتٍ متأخِّر من حياته بهدف الشفاء من مرضه في جو القاهرة الجافّ[95]. وقد استعمل سعيد هذه الحادثة التاريخية ليرسم صورة لـ «صائغ الأصوات» المسنّ وهو ينفض الغبار عن نعليه، ويعاني الحرّ اللاهب، مستعيدا أمجاده أيام علاقته السرّيَّة مع كوسيما، زوجة ڤاغنر، وهو يطلُّ من شرفته على نهر النيل الذي لا يهمُّه الأمر بـ «غضب صامت يشعّ من وجنتيه» فيما يتقدَّم الموت نحوه.

(*) قد يكون من المفيد أن أذكر إضافة إلى ما يقوله المؤلّف في تعليقه أن المصطلحات الموسيقية قد لا تكون واضحة للعيان، ولكن التدقيق في القطعة يظهر الآتي: الأصوات الصاخبة ترجمة لعبارة crashing noises، وهي عبارة كثيرا ما تستخدم للتعبير عن أصوات الصناجات النحاسية التي تطرق في أوقات الذروة. الدورات النمطية ترجمة لعبارة modal rounds، والمصطلح الموسيقي فيها هو modal، وهو يستعمل للإشارة إلى سلّم موسيقي لا هو بالكبير major ولا بالصغير minor، أما الصوت الجهير والهارمونيات فصلتها بالموسيقى واضحة. [المترجم].

كان التوجّه العام بكامله لدى سعيد غارقا في الأحاسيس الموسيقية. فاستعمال مصطلح «الطباق»(*) في كتاب «الثقافة والإمبريالية» كان جزءا واضحا من محاولته توسيع المدى الذي تصل إليه الاستعارة الموسيقية؛ وذلك نتيجة لاهتمامه السابق بالموسيقى التي تستخدم أسلوب تعدُّد الألحان التي تعزف معا polyphony، وأشار إلى اختلافه غير المعلن مع الاتجاهات السائدة في زمنه. فتعدُّد الألحان نمط هارموني يضمُّ أصواتا مستقلَّة معا دون مزجها، مع الاحتفاظ بعدد من المواقع المتناقضة التي تلتقي في بعض المواقع في نقطة تمتزج فيها للحظة من اللحظات، فارتفاع خطَّين لحنيَّين وانخفاضهما يرسم التقدُّم المكاني كما يحصل في الرسم التخطيطي المتزامن. وقد كان كتاب «الثقافة والإمبريالية»، من بين ما كان، تجربة في استحضار هذا البعد المكاني المرافق لاستخدام الرموز الموسيقية ومفرداتها لتطوير الأفكار الخاصة بالخيال الجغرافي.

لكن كثيرا من قرّاء الكتاب فهموه فهما أقلّ دقَّة ليعني نوعا أشدّ تحرُّرا من القراءة وأقلّ ميلا إلى المواجهة – نوعا مدرِكا لوجود حبكات مختلفة من دون تفضيل أي منها على سواها[96]. وتبيَّن في نهاية المطاف أن المصطلح كان خلافيّا أكثر من ذلك، ففي مقالة عنوانها «الرؤية الطباقية عند غْلِن غولْد» على سبيل المثال لام سعيد التسجيل الميكانيكي ونظام الشهرة على إجبار عازف البيانو الكندي على الشعور بالراحة «في جانبي الطباق المتعارضين». وفي هذه الحالة لا تكون الصورة صورة تناغم بل صورة تصادم[97]، وهذا يعني أنه كان ثمة شيء مقلق لسعيد حول إتقان غولْد للطباق؛ لأن ذلك عنى أداء دور الإله لأنه تضمَّن «السيطرة التامة على إدارة الزمن، والتقسيم الدقيق للمساحة الموسيقية، والاستحواذ التام على العقل»[98]. وقد أشار في موضع آخر إلى الطباق بأنه «أكاديميٌّ»، «خاضعٌ للقواعد تمام الخضوع»، بعيدٌ كل البعد عن صورة الانفتاح التي أوحى بها لجمهور التسعينيات[99]. لكن لا، فالطباق فوق كلِّ شيء صورة عن المكان، كما أوضحت المقالة المخصصة لغولد بمناقشتها الطويلة لأهمية هندسة فيثاغورس للطباق، ودور «المجاورة» في التأليف الموسيقي.

(*) شرح معجم المعاني هذه الكلمة بقوله: الطِّبَاقُ في البَديع: الْجَمْعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ أَو مُتَضَادَّيْنِ: هُوَ حَيٌّ وَمَيِّتٌ. أما المغني الأكبر فيحافظ على المعنى الموسيقي لَلكلمة بَقوله: خاص بلحن يضَاف إلَى لَحن آخر ليكون مصاحبا له. وهذا قريب مما يقوله معجم Random House شرحا للكلمة. [المترجم].

كانت الأبعاد المكانية للموسيقى موضوعا ضمنيّا من موضوعات كتاب «بحث موجز لإستطيقا جديدة للموسيقى» SAketch of a New Esthetic of Music (1907) لِفروچيو بوزوني Ferrucio Busoni. كان هذا الكتاب في نظر سعيد واحدا من الكتب العظيمة التي لم تنل حظَّها من الاهتمام في التراث الإنساني، ثورة ضد «المشرِّعين» المملّين في عالم الموسيقى، وقد استبق موضوعا مألوفا لدى سعيد بالتوقُّع من العازفين أن يحيوا أعمال المؤلِّفين التي غدت مملَّة لا تُفهم، وأن ينظروا إلى ذخيرة الأعمال المعتادة لا على أنها مجموعة من تحف في متحف، بل على أنها منصَّة انطلاق للبدء في مسعى فلسفي. لكن الانتماء، كالكثير مما تضمُّه أعمال سعيد، لا يخلو من الإشكالات، ففي سعي بوزوني إلى الوصول إلى المعاني الطليقة العليا للموسيقى شدَّد على أبعادها المجرَّدة وغير المادِّيَّة، وهي أبعاد لا تتوافق مع التشديدات التي يحتويها كتاب «الثقافة والإمبريالية» على الأبعاد الجغرافية. لا بل أكثر من ذلك، رَبَطَ بوزوني نفسه بالنظريات الخلافية لهاينريخ شِنكَر Heinrich Schenker، معاصرِه في أواخر القرن التاسع عشر، الذي كان سعيد يمقته بشدَّة.

لكن لا شكَّ في أن النظرة المكانية للموسيقى عند سعيد جاءت نتيجة للتأثُّر السلبي بالطريقة الشنكرية. يرى أتباع هذه الطريقة أن العناصر السطحية للموسيقى النغمية تخضع للبنية الأساسية. وقد وجد بعض المختصّين بعلم الموسيقى التحليل الشنكري مشابها بنواحِيَ معيَّنة لفيلولوجيا القرن التاسع عشر[100]. فكما بحث علماء فقة اللغة philology عن اللغة الأصلية وجعلوا كلّ اللغات الأخرى متفرِّعة عنها، فإن التحليل الشنكري اعتمد على مبدأ «الفضاء النغمي» حيث كان الثالوث النغمي هو القلب المستقل بذاته بينما شكَّلت النغمات القريبة زينته[101]. ويبدو أن كراهية سعيد لهذا التناول قد تضاعفت لأن مدرسة مانِس للموسيقى الواقعة في المنطقة المجاورة لمحل سكناه في الجهة الغربية العليا من مانهاتن كانت موطنا للطريقة الشنكرية، ولربما كان ذلك هو ما أدى إلى اكفهرار تعليقه على أداء واحدٍ من أشهر خرّيجي المدرسة، وهو مَري پِرايا Murray Perahia الذي كان في يوم من الأيام «عازفا ممتازا للبيانو» وفقا لوصف سعيد، ولكن حفلاته الموسيقية صارت الآن «مملَّة تنشد الأمان... شأنه فيها شأن تابع لطائفة من الطوائف غير المعروفة يأتي إلى مذبح زُيِّن كما تزيَّن قاعة من قاعات القرن التاسع عشر المخصصة للرقص»[102].

هذا التركيز على بنية أصلية مركزية تَناقَضَ بشدَّة مع إعجاب سعيد الطاغي ببوزوني الذي أحبَّه بسبب استعداده للمغامرة وبسبب شِعره المنفلت، فدعاه بـ «المفكِّر وبصاحب الرؤية» سواء أكان ذلك من داخل النظام أم بصفته ناقدا له[103]. ولم يحقِّق بوزوني الصور التي كوَّنها سعيد عنه قدر تحقيقه إيّاها عندما كتب: «نحن نُعجَب بالإنجازات التكنيكية... ولكنها سرعان ما تُتَجاوَز، أو تَمَلُّ منها الذائقة، فتُهمَل»[104]، فقد كانت هذه هي مشاعر سعيد بالضبط في مرحلة الدراسات العليا عندما كتب ملاحظة موجَّهة إليه هو نفسه يصف فيها الآثار الكارثية لهوس عالم الموسيقى بكمال التكنيك: «يكاد كلُّ مستمع نبيهٍ للموسيقى أو قارئ للنقد الموسيقي أن يقول لك إن النقد الموسيقي كما يمارس في هذه الأيام مهلهل، مملّ، أحمق»[105]. ثم مضى للقول إن السبب هو أن النقد الموسيقي، شأنه شأن الأداء، تحوَّل إلى «ندرة متخصِّصة»، كيف يمكن لعازفي البيانو المحترفين أن يجعلونا ننمو بينما هم يُخفون أنفسهم بعيدا عن العالم، يتدرَّبون باستمرار من أجل التنافس في الدائرة الموسيقية؟[106].

للإجابة عن هذا السؤال بحث سعيد عن نماذج يمكن الاستفادة منها في نقده هو عند الموسيقيين الممارسين الذين حاولوا إماطة الحجب عن الموسيقى: چارلز روزن Charles Rosen في «الأسلوب الكلاسيكي» The Classical Style (1971)، في مقالات غْلِن غولد، في كتاب پيير بوليز Pierre Boulez «توجُّهات» Orientations (1985)، وفي كتابات أدورنو (وهو نفسه مؤلِّف موسيقي من الدرجة الثانية) الذي أعلى سعيد من شأن كتابه «فلسفة الموسيقى الجديدة» Philosophy of New Music (1949) في سلسلة من الندوات التي حظيت بسمعة طيبة، والتي قدَّمها في جامعة كولمبيا في العامين 1982 و1983[107]. ولما كان سعيد قد اكتشف أدورنو في وقت متأخِّر فإنه تصارع مع كتاباته صراعا كثيرا ما كان سلبيّا حتى آخر حياته، لاسيما في السنوات الخمس الأخيرة منها. ولم يفكِّر سعيد في كتابة دراسة تحتاج إلى كتاب كامل عن الموسيقى إلا بعد وفاة غْلِن غولد في العام 1982 على رغم أنه أقنع نفسه بالاكتفاء على مدى العقد الذي أعقب ذلك بنشر مقالات متفرِّقة في مجلّات فانتي فير Vanity Fair وذا نيشن The Nation ولي موند دبلوماتيك Le Monde Diplomatique. لم يفكِّر أحدٌ

حتى العام 1989 في حثِّه على وضع أفكاره المتناثرة عن الموسيقى بشكل يتكامل مع أعماله التي رسخت مكانتها عن الإمبراطورية، واللغة، والمثقّفين.

دعاه معهد النظرية النقدية في إرڤاين في تلك السنة إلى تقديم المحاضرات في قاعة وِلِك، وطلب منه التحدُّث عن الموسيقى. قَبِل الدعوة قبولا حذرا لأنه كان يعلم أنه يدخل منطقة جديدة سيحتاج فيها إلى قدْر هائل من المعرفة الفنية. المقالة العارضة عن الموسيقى يمكن كتابتها بصفتها جهدا جانبيّا، أما التأمُّلات النظرية المركَّزة فقد عرَّضته لنوع مختلف من النظر الفاحص. أنتج ثلاث محاضرات، واحدة عن الأداء المتطرِّف، وأخرى عن تجاوز الحدود الموسيقية، والأخيرة عن العزلة وتأكيد اللحن الموسيقي، وهذه نُشرت تحت عنوان «تفصيلات موسيقية» Musical Elaborations (1991). وكما حدث في حالة كتاب «الاستشراق»، فإنها أمتعت بعض الناس وأغضبت بعضهم الآخر، لاسيّما بعض الأوصياء الموسيقيين للمجموعة[108]، وقد أقيمت فكرتها على مقولة مفادها أن الموسيقى تحتاج إلى الصمت، فقد لاحظ أن «أشد الفنون صمتا»، أي الموسيقى، «هي أيضا أشدّها خفاء وصعوبة على من يتحدَّث عنها»[109]. وبعد عقد من الزمان عاد إلى تلك الفكرة في اقتراح بأن يكتب دراسة مطوَّلة عن باخ وبيتهوڤن - دراسة يقصد منها أن تكون مقولة لها وزنها حول موضوع العولمة تنافس عمل فْرانْسِس فوكوياما، وپول كندي، وبِنْجَمِن باربر عن الموضوع.

لكن مثلما وصف المستشرقون مؤلِّف كتاب «الاستشراق» بالدَّعي، فإن عددا من المتخصِّصين في علم الموسيقى وصفوه بأنه «سمكة خارج الماء»[110]، فقد كان واضحا أنه تجاوز حدوده. وقد كان القصد من «تفصيلات موسيقية» أن تبدِّد الاستقلال الذاتي للموسيقى وعزلتها الصوفية عن المعاني المعقولة والتجربة الاجتماعية. وقد فوجئ عدد من علماء الموسيقى لأنهم أحسّوا أنهم أهينوا، وشعر بعضهم الآخر بأنهم في بعض جوانب هذا الموضوع - في «علم الموسيقى الجديد» على سبيل المثال - كانوا قد بدأوا في تحريك المشروع[111]. لكنه في الحقيقة كان رائدا بقدر ما كانوا هم أيضا من الروّاد. فقد كانت مقالاته الاثنتا عشرة والنصف التي تعود إلى عقد الثمانينيات عن الظروف الاجتماعية للموسيقى قد نُشرت في وقت تزامن نشرها فيه مع الكتب التي عرَّفت بحركتهم، وكان سعيد بدوره لا يدَّعي أنه المجدِّد الوحيد،

إذ كان قد عرَّف طلبته في مرحلة الدراسات العليا بأعمال علم الموسيقى الجديد في ندوات دراسية تعود إلى أوائل التسعينيات[112].

لم تجد إحدى الشخصيات البارزة في الحركة، واسمها روز سوبوتْنِك، أي صعوبة في قبوله بوصفه جزءا من قضية مشتركة، وليس ذلك بسبب المراسلات الدافئة بينهما فقط. «لا أعرف إلا عددا قليلا من الباحثين الذين أصغوا بعناية لما كنت أتحدَّث عنه، أو تحدثوا معي حديثا كريما من دون معرفة شخصية»[113]. وهكذا فإن قبوله الحماسي جدّا بين غير المتخصِّصين كَسِبَ كذلك أتباعا من المختصين على رغم أن بعضهم قابلوا انتقاداته باستياء. وكما حصل كثيرا في حياته المهنية (كما في المشروع الخاص بسْوِفْت وفي حالة كتاب «الاستشراق» على سبيل المثال) فإنهم اعترضوا بقولهم إن عليه أن يكفَّ عن إطلاق القذائف بينما هو يفتقر إلى تجربة أهل المهنة. أما الاستجابة التي اتّسمت بأشدّ قدر من الحدّة والاستهانة فجاءت من الباحث كوفي أ گاوو Kofi Agawu في مراجعةٍ كتبها عن «تفصيلات موسيقية» بعنوان «ملاحظات مغلوطة»[114].

غير أن باحثين عديدين في الموسيقى مدحوا نظراته الثاقبة لأنهم لم يكونوا مهووسين برطانة المهنة. وبعد الحفلة الموسيقية التي أحياها في قاعة مِلَر في كولمبيا، على سبيل المثال، طلب منه وولتر فْرِش Walter Frisch، رئيس قسم الموسيقى في جامعة كولمبيا، أن يدرِّس مادّة لطلبة القسم. وكان فْرِش قد أعجب بالفكرة الرئيسة التي جاء بها سعيد عن الاستقلال الذاتي المشكوك فيه للموسيقى: «نحن نحاول أن نكون قسما متكاملا من الناحية الفكرية، بينما كان في الماضي يتشكّل من برامج منفصلة في علم الموسيقى التاريخي، والنظرية الموسيقية، وعلم موسيقى الثقافات المختلفة فإننا تمكنّا من دمجها معا بشكل فعّال»[115]، وبعد بضع سنين دعي إلى تقديم الكلمة الرئيسة في ملتقى الفنون الأوروبية في سالزبرغ بدعمٍ من الاتحاد الأوروبي واحتفال سالزبرغ Salzburger Festspiele - وكان «أول عربيٍّ يُدعى» كما قال لصديق له مفتخرا[116]. ومن الواضح أنه كان هنالك مختصّون عرفوا قيمة رأيه.

ربما كانت أغنى صلة عقدها سعيد مع المؤسسة الموسيقية هي تلك التي حدثت عندما تابع عالم الموسيقى المبجَّل رالف لُكْ Ralph Locke قراءة سعيد لأوپرا عايدة لڤيردي في كتاب «الثقافة والإمبريالية». ففضلا عن أن ذلك أظهر أن

لُكْ يرى في سعيد قوَّة يعتدُّ بها، فإن ردَّه كشف عن جميع المشاعر المختلطة التي أطلقها تدخُّل سعيد في الدوائر الموسيقية الرسمية. فالفصل المعقّد الذي عقده لُكْ في كتابه «موضوع الغرابة في الموسيقى» (Musical Exoticism (2009، والذي طُوّرت أفكاره على مهل، استند إلى إشارات متبحِّرة لمراسلات ڤيردي، وإلى معرفة وثيقة بنصّ ڤيردي الموسيقي وباللبريتو، بهدف أوَّل هو امتداح سعيد للكشف عن طرق جديدة لفهم الأوبرا، ثم بيّن بعض الأخطاء في قراءة النص الموسيقي، ولكن ما يثير الاهتمام هو أن أهم انتقاداته كانت سياسية وليست موسيقية أبدا. فقد قال إن سعيد تغاضى عن مشاعر ڤيردي المناهضة للاستعمار وعن إمكانية أن يكون تصوير مصر القديمة في الأوبرا لم يكن القصد منه تمثيل الإشارات القومية من جانب الخديو إسماعيل إلى الماضي المجيد، بل تمثيل الدور الذي كانت تؤديه بريطانيا الإمبريالية. وكان من رأي لُكْ أن سعيد يصوّر ڤيردي كأنه مستشرق بينما هو كان يدعم العناصر الثورية في حركة توحيد إيطاليا، وكان من الواضح أنه يناهض الاستعمار في مشاعره.

لقد لاحظ لُكْ بنظره الثاقب ما فات كثيرين من القرّاء: أن فكرة سعيد ذات أساس جغرافي، لكنه في هذه الحالة أغفل ذكر الكيفية. يتحدَّث سعيد ليس عن فكرة الغرابة المتضخَّمة في خيال إيطاليٍّ مشهور عن الشرق (كما يفترض أغلب الناس) بل عن ليلة افتتاح عمل فنِّيٍّ كبير في دارٍ للأوبرا بُنِيَت حديثا على الأرض المصرية وفرضت على منطقة من أشد مناطق القاهرة اكتظاظا – منطقة فصلت القسمين الشرقي والغربي من المدينة. وبحسب تعبير سعيد، «ليست أوبرا عايدة عن الإمبراطورية بل هي جزء منها». فهناك من ناحية فنادق وقطارات وشوارع بثلاثة خطوط، وكهرباء، وحياة عصرية؛ وهناك من الناحية الثانية شوارع غير مبلَّطة، وعربات تُجَرُّ باليد.

كان سعيد يحاول أن يثبت أن حادثة ثقافية قصد منها أن يكون لها مغزى قومي من نوع معيَّن كان لها في الواقع مغزى آخر. فقد كان الخديو يأمل أنه بما أن ڤيردي مثَّل أفضل ما في الغرب، فإن تحديث القاهرة بهذا الافتتاح المبرمج سيكون بمنزلة الحجّة ضدَّ السيطرة العثمانية. غير أن الحادثة في نهاية المطاف رمزت إلى الخضوع لشكل فنِّيٍّ لا يمكن فهمه إلا على أنه رمز للإمبريالية الأوروبية وشعورها بالعظمة تجاه العالم. ولم يكن بوسع معظم القرّاء أن يعرفوا عن علاقة سعيد

الشخصية بأوپرا عايدة في تلك الخلفية المصرية ونضجه في عالم الموسيقى بصفته من روّاد الحفلات الموسيقية، وعازفا هاويا له طموحاته في تلك السنوات التي قضاها في القاهرة، حيث حضر العزف في دار الأوپرا نفسها التي بناها الخديو، وحصلت أوپرا عايدة على عرضها الأول فيها في العام 1871.

كان لايزال يذكر هذه التجارب في روايته التي لم تكتمل بعنوان Elegy (رثاء)، حيث أطال الحديث عن مجموعة الشخصيّات، وعن الأصوات والروائح في حفل موسيقي لأوركسترا القاهرة السمفونية. وهناك يمتلئ المشهد بعازفين غربيين يرتدون قمصانا بيضاء، ومديرين أرمن، وبوّاب سوداني ضعيف البنية، وفتاة مختلطة الأصل (إيطالية ـ يونانية، أمريكية) متزوجة من شابٍّ فلسطيني، وقائد أوركسترا يوغسلافي نبيل المظهر. وهكذا فإن المنطق الكامن وراء موقفه المعارض للجغرافيا الإمبريالية في المقاطع التي تخصّ أوپرا عايدة في كتاب «الثقافة والإمبريالية» لم يكن يخصّ التمثيلات السيئة للآخرين، بل يخصّ الشكل الفني المهيمن للبرجوازية الأوروبية التي هبطت وسط مدينة القاهرة ذات الصبغة العالمية لتحتل مركزها الحيوي. والأسوأ من ذلك أن ڤيردي، الفنان المبدع بصفته الأنا الإمبريالية، يحوّل الأوپرا إلى مشروع تجاري بينما يجب على هذا الشكل الفني أن يعتمد اعتمادا أكبر على التعاون[117].

كشفت المراسلات مع لُكْ مخاطر استسهال التنقُّل بين نظراته السياسية والموسيقية. ولا شكَّ في أنه عبَّر عن جوانب من شخصيته في الموسيقى لا نراها في أي مكان آخر. والمدى المدهش لمقالاته المختارة التي تنتمي إلى ثلاثة عقود في كتاب «الموسيقى في أقصى حدودها» Music at the Limits (2008) يكشف عن قدرة فنية صاخبة مثلما تكشف عن أحكام تثير شعر الرأس بصفته كاتب مراجعات. فخلافا لسلوكه في حقله، نراه يتكلّم في وسط المعمعة كأنه رجل ما عاد يخشى الخسارة (ولا يتورَّع عن قول أشياء مثل «ثرثرة روزن البائسة»، و«تنفُّج شتراوس ومبالغاته الڤاغنرية الجديدة»، و«الملل الذي يكاد يخيفنا» عند پوليني و«عَرَضُه المفزع لتفنُّنه سيِّئ المزاج»[118]. لقد منحته ميزة كونه من الهواة حرّية الخوض في أفكار ليست لها عواقب سياسية أو مهنية. وفي غمرة آثارها العاطفية تحدَّث أحيانا عن الموسيقى كأنها عالم سرّي سابق للمنطق أو غير خاضع له، كأنه يستمتع

بالأمكنة التي لا مهرب منها والتي حرم نفسه منها عندما كان يكتب عن الحداثة الأدبية.

قد يكون التأثير الكلّي الذي تركه سعيد في دانْيِل بارِنْبُويْم، وهو من أشدّ قادة الفرق الموسيقية وعازفي آلة البيانو مدعاة للاحترام، مختلطا. فقد أعلن بارِنْبُويْم دون مواربة أن «إدْوَرْد يعرف كلَّ شيء» فيما يتعلَّق بالموسيقى، من الأساسي إلى الغامض – تواريخ الحفلات الموسيقية، وبرامج الاحتفالات الكبرى (بالسنة)، ومقامات الأعمال المجهولة لكبار المؤلفين وسرعة الإيقاع، والأعمال الكبرى للمؤلِّفين المغمورين[119]. وقد اتَّفق الرجلان في الرأي حول الكيفية التي اتخذت الموسيقى الغربية شكلها الذي نعرفه. «كان إدْوَرْد واحدا من قلَّة من الناس الذين اعتقدوا وفهموا حقّا أن تطوُّر الموسيقى كان عملية عضوية واحدة بدأت بالترتيل الغريغوري، فالموسيقى السابقة للباروك، فالباروك، فالأنغام الكلاسيكية المتزامنة، فالحركة الرومانسية، فالكروماتية، وهذه أدت عن طريق التطوُّر الطبيعي إلى الموسيقى اللامقامية»[120].

معنى ذلك أن القطيعة التي أحدثها آرنولد شونبيرغ مع الموسيقى المقامية وابتكاره لنظام المقامات الاثني عشر لم تكن خطوة ثورية على الإطلاق، بل «كانت استمرارا منطقيّا لا مفرَّ منه لتوسيع العالم الهارموني من خلال الكروماتية(*) بعد أخذها للحدود القصوى». ولئن استمتع بعرض معرفته الواسعة بالتفاصيل، لاسيما عند مناقشة الخبراء، فإن بارِنْبُويْم ذهب أبعد من ذلك[121]. فقد قال إن سعيد «كانت لديه معرفة دقيقة بفن التأليف والتوزيع»(**) تفوق معرفة معظم العازفين الذين تعاون معهم في سيرته العملية الطويلة[122].

ولئن كان التقاء سعيد ببارِنْبُويْم مصادفة في فندق من فنادق لندن في العام 1993 قد غيّر حياته (كانا يتحادثان يوميّا بالتلفون، واعترف بارِنْبُويْم بأنه «وقع في غرام» سعيد)، فإن قائد الفرقة لم يكن النجم الموسيقي الوحيد في مداره. كان سعيد الذي سحرته حياة الموسيقي، يراقب من الخطوط الجانبية، معجبا واقعا تحت تأثير

(*) هي الموسيقى التي تتكون من اثني عشر نصف نغمة. [المترجم].

(**) اشتقَّ واضع قاموس المورد من «أوركسترا» بجرأته المعروفة فعلا هو «يؤركس»، وصاغ من ثم اسما هو «الأركسة». الفكرة هي أن أجزاء المؤلَّف الموسيقي توزَّع على الآلات المستخدمة في الفرقة الموسيقية وفقا لما يرتئيه المؤلِّف. [المترجم].

النجوم أحيانا، مؤدّيا دور المدّعي المغرور في أحيان أخرى. وقد مثّلت علاقته بمخرج الأوبرا التجريبية بيتر سِلَرز Peter Sellars شيئا من الجانبين[123]. فمن ناحية، تبادل معه الرسائل كأنه حليف، ودعاه ليعطى سمنارات في جامعة كولمبيا؛ ومن ناحية أخرى حافظ على مسافة معينة، إذ عدَّ إخراجه لأوبرا «دون جيوڤاني» وأوبرا «كلُّهن يفعلن» ذلك لموتسارت إخراجا «أقيم بمهارة» ولكنه يعتمد على الحيل الميكانيكية – يناهض النظام القائم ولكنه يتجاهل الصراع الطبقي الموجود في الصيغة الأصلية التي وضعها موتسارت[124]. وبعد أن جمعته خشبة مسرح مع عازف الكمان الشهير يهودي منوهين في معهد الفنون المعاصرة في لندن في شهر يوليو 1991، فإنه بدأ سلسلة مراسلات معه دامت سنتين. كان منوهين قد أعجب أيما إعجاب بالمقالة التي كتبها سعيد بعنوان «المشهد الاستعماري في عايدة»، فرد سعيد التحية بأن أشاد بـ «الكلمات الشجاعة» في «خطابه الرائع في الكنيست» الذي اتَّهم فيه الحكومة الإسرائيلية بممارسة «الحكم بالتخويف» في الضفة الغربية «احتقارا للمتطلّبات الأساسية للحياة الكريمة»[125].

وجد سعيد في الموسيقى (على غرار منوهين) طريقا للاتّصال مع أولئك الذين كانوا يستعملون لغة أخرى، ففي زيارة ودِّية للكاتب سِرِل ل. ر. جيمز C.L.R. James في شارع ريلتون في بْرِكْسْتن في العام 1987 – وكانت آنذاك منطقة أقرب إلى المنطقة التي جار عليها الزمن من الأبنية المهترئة والشرطة التي تعترض الناس – وجد أن من الصعب في بداية اللقاء أن يجد موضوعا مشتركا يمكن الخوض فيه. ومما لا شكَّ فيه أن جيمز – وهو من ترينداد، ومؤلِّف كتاب «اليعاقبة السود» The Black Jacobins، وهو دراسة رائدة لثورة العبيد في هاييتي، إلى جانب دراسة أصيلة للعبة الكرِكت بصفتها شكلا فنيّا عند السود والطبقة العاملة، شارك سعيد قي معتقداته المناهضة للإمبريالية. وكان الغرض من زيارة سعيد في واقع الأمر الاعتراف بفضل مساهمات جيمز للفن ولتحرير السود. ولكن مع أن جيمز كان قد عاش مدَّة طويلة في الولايات المتَّحدة مثل سعيد، وامتدح أولئك الذين تكفَّلوا بتعليم أنفسهم (كما فعل جيمز نفسه) فإن تجاربه السياسية كانت مختلفة تمام الاختلاف.

كان جيمز قد قضى ردحا طويلا من حياته منتسبا إلى أحزاب تروتسكية تعمل على تنظيم العمّال أو تكافح ضدَّ الزعماء الوطنيين الكاريبيين في محاولة لإيجاد

اتحاد هندي غربي. وكانت ميوله الفنية تنحو نحو الثقافة الشعبية (لاسيّما أفلام هوليود) وليس إلى الثقافة التي يمثّلها سعيد. والأهم من كلّ شيء آخر هو أن معرفة جيمز عندما تمّت الزيارة بمكانة سعيد كانت محدودة. ولم تكن قد مضت سوى أسابيع قليلة على زيارة الناشط في الحقوق المدنية والمنتمي سابقا إلى مجموعة الفهود السود، أي ستوكلي كارمايكل Stokely Carmichael، ولم يكن واضحا ما إذا كان جيمز (الذي لم تكن المجاملات الاجتماعية تهمُّه كثيرا) قد عرف من هو الزائر[126]. لكن لم يكد سعيد يذكر أنه يعزف على آلة البيانو حتى استقرّ الوضع بين الرجلين. فقد تحدّثا على مدى الساعة ونصف الساعة التي قضياها معا عن سوناتات بيتهوڤن، وعن كرههما لڤيردي وپوچيني. وقد أرسل سعيد إلى جيمز فيما بعد كاسيتة تحتوي على تسجيلٍ لعزف غولد لتنويعات غولدبيرغ [لباخ]، فردَّ جيمز بحرارة برسالة مكتوبة بخطِّ اليد شاكرا إياه «مليون مرَّة»، ومشجِّعا إياه على إرسال أي شيء يعيد المرء إلى «تلك الأيام التي كانت فيها السرعة والنغم هما أساس كل شيء في الموسيقى»[127].

وعلى رغم أن الرجلين كانا على اتِّفاق في هذه المناسبة، فإن ذوق سعيد كان أشدَّ ميلا إلى المغامرة، فقد اشتكى مرارا في الحقيقة من الجوّ الرسمي لحلقة روّاد الحفلات الموسيقية – «من الطقوس الاجتماعية التي ترافق الحفلة والتي تجعل المرء ينفر منها»، حيث يساق الجمهور السلبي إلى ما يشبه «التجربة السادية الماسوكية»[128]، وعندما تضاف رشَّة صغيرة من الأعمال الجريئة لأوليڤييه مِسْيان أو دميتري شوستاكوڤِچ فإنها لا تكفي لموازنة الأوپرات الإيطالية ذات الطعم السكَّري والسمفونيّات النمساوية الألمانية المحافظة التي تُضخّ في كل موسم من المتروپولِتَن أوپرا هاوس. وبينما التزم سعيد العازف بأعمال شوبرت وبيتهوڤن وباخ، فإن سعيد المستمع انجذب لمؤلِّفي الموسيقى التجريبيين من أمثال بوليز، وهانْس ڤيرنَر هِنْزَه، ومدرسة ڤيينا الثانية(*)، وليوش ياناچك، وجورجي لِغتي، وكيج.

أما الألبومات التي كان يصغي لها في البيت فقد لا تكون كلها من المدرسة الطليعية، ولكنها كانت أبعد في المغامرة مما تقدّمه الفرق المعتادة من أعمال تقليدية، ومن

(*) تشير هذه العبارة إلى مجموعة من مؤلِّفي الموسيقى، ومن أشهرهم ألبان بيرغ وآرنولد شوينبيرغ وأنتون ڤيبرن. [المترجم].

هذه الأعمال غير التقليدية: «موت كْلِنْغهوفر» The Death of Klinghoffer لجون آدمْز John Adams، و«المدينة الميِّتة» Die Todte Stadt لإرخ ڤولفغانغ كورنغولد Erich Wolfgang Korngold، و«انتصار الزمن» The Triumph of Time لهارِسن بيرتْوِسل Harrison Birtwistle. لكن ما يلفت النظر في مجموعته الضخمة من الأقراص المدمجة، والأسطوانات والكاسيتات في البيت أن مجموعة الأعمال الكلاسيكية كانت كلها تقريبا أوروبية غربية. هناك من دون شكّ عدد كبير من مؤلّفي أوروبا الشرقية، منهم ياناچك وبارتُك، ولكن ليس من بينهم روس باستثناء عمل واحد لچايكوفسكي، وواحد لموسورغسكي، و«طقوس الربيع» طبعا، ومجرَّد عينة من سمفونيّات شوستاكوڤِچ. أما الموسيقى الشعبية فكان لديه من الأعمال العربية عدد أكبر مما توحي به كتاباته، بما في ذلك أعمال المؤلِّف والمغنّي الشعبي مارسيل خليفة.

لقد استمتع بحياة الموسيقيين وحلم بأن يكون واحدا منهم، فآماله الأصلية في ماونت هيرمن وفي جامعة پرنستن لم تفارقه قط في الحقيقة. غير أن ملكاته النقدية في النهاية وجدت طاقتها في الكلمات والأفكار، وليس في الصوت والصمت. وفي لقاءاته مع تيغرمان في بيته في كتسبوهل في العطل الصيفية كان يحيِّر الرجل بمعرفته المدهشة بنظريات الطليعة الموسيقية. ولكن ذلك قوبل بالبرود من جانب عازف البيانو لأن كلّ ما كان يهمُّ تيغرمان هو العزف[129]. كان بارِنْبُويم هو الوحيد الذي كان بإمكانه الإفاضة في الحب المتبادل للتنظير حول الموسيقى، ولكن على رغم ذلك فإن الصديقين كانا يتبادلان الأدوار أحيانا.

كان من ناحية هو الصديق المؤتمن والندّ، وكان من الناحية الأخرى معجبا يفيض بالكلام عن عزف قطعة كتبت لشخصين مع بارِنْبُويم في خلفية المسرح قبل بدء الحفلة (القطعة المسمّاة Fantasy in F-Minor لشوبرت)، يقارن عزف صديقه بالأوركسترا بسبب ما في القطعة من فيض وفن موسيقي. أما بارِنْبُويم من جهته فقد كان معجبا بقدرة سعيد على إدخال النقد الاجتماعي على الموسيقى وعلى الاستفادة من طرقها الخاصة للوصول إلى المعرفة. أما عمل ذلك في مجالات أخرى فقد تطلَّب كل مهارات سعيد على الارتجال في السنوات التي كانت بانتظاره فيما كانت الجدران السياسية تضيق، واضطرَّ إلى التخلّي عن دولة فلسطينية لمصلحة الحلم فلسطيني(*).

(*) يشير الكاتب في هذه الجملة لإدورد سعيد نسبة إلى أصوله التي ترجع لفلسطين وحلمه كما ذكر سابقا أن يصبح عازفا ماهرا. [المحرر].

11

شعبان في أرض واحدة

غيِّر ساحة المعركة من الشارع إلى الذهن[1]

دارت حياة سعيد السياسية بعد العام 1993 بشكل كامل تقريبا حول إنشاء دولة واحدة في فلسطين/ إسرائيل، ووجد أن عليه أن يقرَّ لچومسكي بأن المطالبة بدولة مباشرة واحدة تقوم على مبدأ شخص واحد صوت واحد ستكون «هدية للجناح الإسرائيلي اليميني»[2]؛ ولذلك كان الرجلان حريصين على التمييز بين الخطوات الأولى والخطوات اللاحقة. تمضي الخطوات الأولى على مراحل، تبدأ بتسوية على أساس الدولتين، تتبعها ترتيبات تناسب الطرفين، فتخفيف لإجراءات السفر عبر الحدود، فترتيبات فيدرالية تؤدّي إلى نظام ثنائي القومية.

الطريق التي تفضي إلى التقدُّم في الصراعات التحريرية تكمن في «القوى السياسية المرنة، القادرة على الحركة، المعتمدة على المبادرة، والإبداع، والمفاجأة أكثر من اعتمادها على التمسُّك بالمواقف الثابتة»

قبل البدء بأي شيء تعرَّض سعيد لهجوم مرير من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي. وقد بلغ من كثرة المقالات التي كتبها والمقابلات التي أجراها عقب توقيع «إعلان المبادئ»، كما كان اتفاق أوسلو للعام 1993 يسمّى رسميّا، أنها ملأت خمسة مجلَّدات (وقد وُقّع اتِّفاقٌ منفصل في العام 1995). استُقبِل الاتِّفاق بحرارة في البداية، بل بابتهاج من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، ومن جانب أكثرية الرأي العام (اليهودي والعربي)، ولاسيَّما في الولايات المتحدة.

من وجهة نظر القيادة الفلسطينية كان أهم ما أنجزه اتّفاق أوسلو هو تأسيس سلطة فلسطينية ذات حكم ذاتي محدود في الضفة الغربية وغزّة. ولكن لم يكن هناك اتِّفاق على وضع القدس، والمستوطنات غير القانونية، وحقّ عودة الفلسطينيين، أو الاعتراف بفلسطين على أنها دولة ذات سيادة. وعلى رغم أن المعاهدة وعدت بالسلام بين إسرائيل والفلسطينيين، ورحَّبت بها وسائل الإعلام في جميع أنحاء العالم، فإن سعيد انفرد بمهمة فضحها على أنها خيانة - ليس بصفتها تحقيقا لصفقة لا تتصف بالكمال كما وصفتها الصحافة، بل بصفتها «نهاية عملية السلام». وقد عاش العقد الأخير من حياته وفق ما قاله ابنه وديع في حالة دائمة من الغضب والألم[3].

لقد رجاه أصدقاؤه ألا يرسم هذا الخط الفاصل على الرمل، فبغضّ النظر عن عيوب الاتِّفاق فإن المعارضة المتصلِّبة قد تنتهي بعزلته، ومن الأفضل من الناحية التكتيكية أن يصبر إلى أن يحين الوقت المناسب[4]. غير أن انتقاداته اللاذعة ضد الصفقة لم تنقطع، وتبدو قاسية جدّا إذا ما قورنت بأسلوبه التصالحي حتى ذلك الوقت كما لاحظ عويد بلبان في مقالة عنوانها «سعيد الثاني» التي ظهرت أصلا باللغة العبرية في صحيفة «مشارف» التي تصدر في حيفا[5]. فقد وثَّق بلبان أنه على رغم الانتقادات التي وُجِّهت لسعيد فإن موقفه كان خارجا عن الرأي السائد في الجزء الأكبر من حياته، إذ اعترف بإسرائيل قبل سواه من المتّفقين معه في الرأي، وركَّز على آلام الشعب اليهودي، وليس على آلام شعبه فقط، وأصرّ على الاعتراف المتبادل.

لقد كان واضحا لكلٍّ من همَّهم أن يلاحظوا أن المتعاونين معه كان من بينهم على الدوام رجال ونساء إسرائيليون ويهود يعملون في العلوم والفنون، وأنه كان على استعداد للجدال مع أناس يختلف معهم أو يمقتهم مثل الحاخام مايكل ليرنر

Michael Lerner حتى لو امتنع عن ذلك مع آخرين مثل المنظر السياسي الأمريكي مايكل والتزر Michael Walzer الذي استغلّ قصة الخروج كأن اليهود هم الوحيدون الذين مرّوا بتجربة النفي. بل سعى أكثر من ذلك منذ مدّة إلى التواصل مع الصحفيين المعارضين ومع المؤرِّخين الجدد داخل إسرائيل نفسها من أمثال توم سِغف Tom Segev، وأميرة هاس Amira Hass، وإيلان پاپيه Ilan Pappe، على رغم أنهم لم يكونوا كلُّهم من مناهضي الصهيونية. وقد شعر بأنه مدين بشكل خاص للأبحاث التي أجرتها عن غزَّة سارة روي Sara Roy، وهي ابنة والدين نَجَوا من المحرقة من الحي اليهودي لودز Lodz، وكانت قد اختارت العيش في أمريكا ذات التعدُّدية الثقافية بدلا من العيش في إسرائيل، وكتبت كتابات بالغة الأثر عن التضييق المتعمَّد ضدّ تطوير اقتصاد قطاع غزَّة. وقد اعترف كثير منهم باعتمادهم في أبحاثهم على مجالات البحث التي هيّأها سعيد لهم من قبل.

كان الحاخام إلمر بيرغر أقل حلفاء سعيد الصامتين شهرة، وهو مؤسس جمعية البدائل الأمريكية اليهودية للصهيونية ورئيسها، وتمثِّل نظرتها «العالمية الإنسانية» الديانة اليهودية على أنها ديانة ذات قِيَم عالمية تختلف عن الاستثنائية التي تمثِّلها إسرائيل[6]. ومن المفارقات أن هذه المراسَلات صارت ممكنة عندما سمح بالحوار الإسرائيلي الفلسطيني داخل إسرائيل بعد «المصافحة التي جرت بين رابين وعرفات» لأنها جعلت الأفكار المتبادلة أقلَّ تحريما وقابلة للانتشار بحرية أكبر[7]. وفي الوقت نفسه جعلت هذه التنازلات الصغيرة التي أمكن الحصول عليها من الجانب الإسرائيلي في أوسلو وصول سعيد إلى فلسطين أسهل. وقد قال متفكِّرا: «هذه هي المرَّة الأولى في حياتي التي صار بإمكاني أن أزور فيها الضفة الغربية وغزة وإسرائيل زيارات متكرّرة منذ أن غادرت فلسطين في آخر العام 1947»[8].

بلغ من عدم ديمقراطية الطريقة التي صيغت بها الاتفاقات نفسها ما بلغته الحكومة التي أجيز إنشاؤها بها. وقد ذكرت حنان عشراوي، وهي واحدة من كبار مفاوضي منظَّمة التحرير، في كتابها بعنوان «هذا الجانب من السلام» (1995) أن الاتّفاق جرى بسرِّيَّة تامَّة في أوسلو، بالنرويج، دون أي نقاش علني، ومن دون أن يخبر أحد فريق المفاوضين من منظمة التحرير عن الاتِّفاق إلى أن صار في حكم الأمر الواقع. وفي طريقها من تونس إلى واشنطن لحضور الجولة الحادية عشرة من

المفاوضات، أعطيت نسخة من الاتِّفاقية، وقيل لها إنه لا مجال لتغيير أي شيء. كانت تعلم أن شيئا بالغ الأهمية قد حدث في سبتمبر من العام 1993 عندما تلقَّت مكالمة غامضة من زميل لها أكَّد لها فيها «أن القنوات الخلفية وفت بما وعدت». كان أبو العلاء وحسن عصفور، وهما شخصان أكاديميّان لم تطأ أقدامهما أرض فلسطين، وقَّعا السلام المنفصل بالأحرف الأولى وفق تعليمات الرجل الثاني في سلّم القيادة، أي أبو مازن، بحضور وزير الخارجية النرويجي. أما الاثنان اللذان وقّعا فكانا يقعان على هامش الحركة، ولم يطَّلعا على أيٍّ من تقارير الفريق المفاوض، أو على الدراسات المضنية للوقائع، أو على القائمة الاستراتيجية للمواقف البديلة[9].

قالت عشراوي لأبي مازن من دون مواربة: «ستكون لهذا نتائج عكسية». وبالفعل، لم يتحقَّق أيٌّ من الأهداف الرئيسة. ما اعترفت به إسرائيل لم يكن حق الفلسطينيين بالعيش في أمان، بل حق منظمة التحرير الفلسطينية لأن تمثِّل الشعب الفلسطيني، وأن يسمح لها بالعودة إلى غزَّة وإلى مدينة أريحا في الضفة الغربية. وكانت هذه هي الراية التي قال عرفات تحتها إن الحركة الفلسطينية قد أنقذت. وكما قالت عشراوي، كانت عملية مصيرية قد بدأت. وبما أن منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل كانتا في حالة سلام رسميا، فقد كان يمكن للعالم العربي بكامله أن يطبِّع العلاقات مع إسرائيل.

لم يكن سعيد وحيدا في الحكم على الاتِّفاقية بأنها استسلام، ولكنه كان الوحيد الذي شجبها بسخرية مريرة قصد منها حرق الجسور. فقد وصف عرفات بأنه بوتليزي(*) إسرائيل، أي المسؤول عن بانتوستان، وقارن السلطة الفلسطينية بحكومة ڤيشي(**)[10]. وقد ظلَّ على مدى العقد الذي تلا ذلك يكتب عن بدائل ملأت ثلاث مجموعات مدهشة من المقالات، ظلَّ يجرِّب فيها أفكاره في السيرة الذاتية، والأحداث العابرة، والهجاء، والتأملات الفلسفية من كل زاوية ممكنة. ومن الناحية الأدبية والفنية كان هذا العمل أكثر بكثير من كونه تعليقات

(*) بوتليزي كان يحكم قبائل الزولو في جنوب أفريقيا تحت إمرة حكومة الفصل العنصري. البانتوستانات كيانات هزيلة تحت سيطرة الحكومة المركزية. [المترجم].

(**) ڤيشي هو الاسم الشائع للدولة الفرنسية عندما كان يحكمها هنري فيليب پيتان إبان سيطرة الألمان عليها في الحرب العالمية الثانية. [المترجم].

صحافية أو مقالات تكتب من حين إلى آخر لتنشر في الصحف العربية. فقد مثّلت هذه المقالات بعضا من أجمل ما كتب من حيث الأسلوب ورهافة التفكير. وقد كان ذلك الإنتاج بالغ الأهمية ـ فبرغم طوله الذي بلغ أكثر من ألف صفحة مطبوعة، فإنه ليس سوى جزء مما كتب، أما البقية فقد توزَّعت على عدد من المنشورات الصغيرة - العربية في الأغلب.

وصف سعيد في كتابه «السلام وإحباطاته» Peace and its Discontents (1993) – «أوّل كتاب من كتبي موجَّه بكامله إلى القرّاء العرب» – «المستوى الهابط» لاحتفالات البيت الأبيض، والمنظر المهين لياسر عرفات وهو يشكر الجميع لما تبيَّن أنه تعطيلُ حقوق شعبه، و«المهابة التافهة للدور الذي أدّاه بِلْ كْلِنْتن، كأنه إمبراطور روماني في القرن العشرين يرعى مَلِكَين تابِعَيْن عبر طقوس المصالحة والطاعة»[11]. وعندما أتيحت الفرصة لعرفات فإنه منع تداول كتب سعيد في الضفة الغربية وغزَّة[12]. وفي هذه الأثناء أفقدت بيانات سعيد كثيرا من حلفائه توازنهم، ومنهم صديقه العزيز سامي الذي خشي من أن صعود سعيد على هذا الغصن قد يجعله غير ذي نفع سياسيا. أما سعيد فقد ردَّ بغضب قائلا إن موقف صديقه يشبه موقف أولئك الذين التزموا الصمت في أثناء حرب ڤييتنام، ولم تكن تلك خطوة تكتيكية، بل كانت ضربا من الانتهازية[13].

شكَّل الشعار المركزي في كتاب «السلام وإحباطاته» – «شعبان في أرض واحدة» – إشارة إلى اتجاه نضالي جديد[14]. وقد كَمَنَت خلفه تغييرات بنيوية حاسمة: أوّلا، أصبح السكان الفلسطينيون واليهود متداخلين مع مرور الزمن. فكثير من أفراد الجيل الأصغر سنّا من الفلسطينيين كانوا مواطنين إسرائيليين، وأخذوا يعرفون بانتمائهم إلى ذلك البلد، ويكافحون للحصول على المساواة داخله. ومن المفارقات أن العمالة التي استخدمتها إسرائيل لبناء المستوطنات غير الشرعية وتوسيعها تشكّلت غالبيّتها من الفلسطينيين بحيث أصبح لهم مصلحة مالية في عملية الحلول محلَّهم. والفلسطينيون الشباب بوسعهم الآن مشاهدة التلفزيونات العربية ومحطة الـ CNN، وبينما هم يقارنون وضعهم مع وضع أندادهم في الخارج، أخذوا يطمحون للمواد الاستهلاكية ولقليل من الحياة الطبيعية بدلا من العيش في حالة حصار دائم. أما في وضع الاستقطاب السابق فقد رفض النشطاء

العرب المتضامنين مع فلسطين زيارة الأراضي المحتلَّة، واحتقروا فكرة الاعتراف بشرعية إسرائيل بأي شكل من الأشكال. ولكن الأثر السيئ الذي خلَّفه ذلك تمثَّل في حرمان المنطقة من المعونة المادِّيَّة والخبرة الفكرية، وهي مشكلة وعد حل الدولة الواحدة بتخفيفها[15]. ظلَّ موقف سعيد في مرحلة ما بعد أوسلو يمرّ بتنقيحات تدريجية على مدى نصف عقد من الزمان، ووصل إلى أوضح صيغه المعلنة في مقالة نُشرت في مجلة «نيويورك تايمز» في 10 يناير 1999 بعنوان «حلُّ الدولة الواحدة».

لقد بدا أن الحقائق الجغرافية التي تقبض النفس لا تسمح بخيارات أخرى. كانت أوسلو قد باركت منح الفلسطينيين «سبع جزر غير متَّصلة تعادل 3 بالمئة من الأرض تحيط بها مناطق تسيطر عليها إسرائيل»[16]. وقد أدرك سعيد أن الفكرة القائلة إن الإسرائيليين والفلسطينيين يمكنهم العيش معا بصفتهم مواطنين متساوين في دولة ديمقراطية واحدة قد تكون أقرب إلى الحلم الطوباوي. ولكن، من الناحية الثانية، هل هنالك أسوأ من الوهم القائل إن الفلسطينيين يمكن أن يحصلوا على دولة خاصَّة بهم بعد أن أصبحت أراضيهم مقطَّعة الأوصال، معرَّضة للإرهاب العسكري، وخاضعة للحظر، أما حلُّ الدولتين الذي كافح من أجله سنوات طويلة فلم يعد ممكنا. وإذا ما بقيت الفكرة تتحرَّك حركة عرجاء في الوعود الكاذبة التي تتحدَّث عنها الولايات المتَّحدة بسيادة مستقبلية فإنها كانت تُمحى بالتدريج بتقطيع الأراضي الفلسطينية إلى جيوبٍ صغيرة تتقاسمها المستوطنات الإسرائيلية والوجود الدائم للجيش الإسرائيلي. وقد فكَّر سعيد بأنه مادام الهدف الكلّي للإستراتيجية الإسرائيلية هو جعل وجود الدولة الفلسطينية مستحيلا، فإنها نجحت نجاحا لم يعد ممكنا معه تصديق الخدع السابقة. وهو لم يكن يدعو إلى إنشاء دولة واحدة. الدولة الواحدة موجودة مع أنها موجودة على شكل دولة فصل عنصري تطبق فيها مجموعتان غير متساويتين من القوانين والحقوق والامتيازات.

لم تكن المطالبة بدولة ديمقراطية علمانية واحدة في فلسطين بالأمر الجديد، ولكنها لم تحظَ بالقبول عقب الابتهاج الذي تبع أوسلو. كانت الفكرة قد نوقشت منذ العام 1948، وكانت هنالك أسباب تاريخية جيدة لدعمها. فبما أن سعيد مسيحي ينتمي إلى الشرق الأوسط فقد كان لزاما عليه، كغيره، أن يتحرّك ضمن الترتيبات التي خلَّفها الاستعمار. وكان على وعي تام بالعراقيل التي تنتظر الترتيبات السياسية

القائمة على تعدُّد الإثنيات وعلى توزيع السلطة على الانتماءات المختلفة. ففي بلاد الشام، كان الفرنسيّون قد ابتكروا نظاما ارتبط التمثيل فيه بالهويات الدينية، ووزع البرلمان وفق الحصص المئوية. وجرت العادة مثلا، وإن لم ينصّ الدستور على ذلك، أن تكون رئاسة الجمهورية في لبنان من نصيب شخص ماروني، وأن تكون رئاسة الوزراء من نصيب شخص سُنّي، ورئاسة البرلمان من نصيب شخص شيعي، ووزارة الخارجية من نصيب الروم الأورثودوكس، كان المقصد من هذا التوزيع إيقاف التمييز الطائفي بإعطاء كل من الديانات المختلفة نسبة من السلطة في مؤسسات الدولة، وقد كتب هذا الترتيب هذه الاختلافات كتابة لا تمحى في الكيانات السياسية الرسمية[17]. ومن المهم أن نفهم مدى معرفة سعيد بهذا النظام الفاشل لكي نقدر سبب معارضته لقيام دولة يهودية أو إسلامية.

كان سعيد أشهر دعاة هذه القضية في العالم، لكنه كان شخصية غير مرغوب فيها من جانب السلطة الفلسطينية الجديدة. وقد أخذ مؤخَّرا يخاطب جمهورا عربيّا مرّات أكثر مما كان يفعل في السابق. فمنذ منتصف التسعينيات فصاعدا كتب، وفق قوله، أربعا وعشرين مقالة صحافية في السنة تنشر بمعدّل مقالتين في الشهر. وقد شكَّل ذلك تحدِّيا له باعترافه للبقاء متنبّها طوال أدائه لتلك المهمة الكئيبة التي تطلّبت العودة إلى معلومات قديمة لجمهور ينسى بسرعة أو يرفض أن يسمع[18]. كانت وسيلتاه الرئيستان لمخاطبة ذلك الجمهور هما جريدة الحياة التي توزَّع في جميع أنحاء العالم العربي وتطبع نحو 200 ألف نسخة، ومقرُّها لندن، وكانت قد أسست في لبنان وتستخدم هيئة تحرير تنتمي إلى عدد من البلاد العربية، وجريدة الأهرام، وهي جريدة تتناول الشؤون العربية وتصدر باللغة الإنگليزية، ومقرُّها القاهرة. في البداية كتب مقالاته باللغة العربية، بوضوح وبأسلوب معبِّر وفق قول مساعديه على رغم أن محرري الجريدتين أرادوه أن يكتب مقالاته باللغة الإنگليزية لكي يترجمها العاملون فيهما. غير أن تلك الترجمات كثيرا ما كانت سيّئة، بل أحيانا غير مفهومة إلا لمن قرأها باللغة الإنگليزية أوَّلا، وكثيرا ما كانت الترجمة بحاجة إلى تصحيح تقوم به مساعدته العراقية زينب الإسترابادي أو [زوجته] مريم[19].

كانت الكتابة المتكرِّرة للنشر في الصحف العربية قد غيَّرت أسلوبه. فقد اعترف في رسالة إلى عبد الرحمن الرشيد في مجَّلة «المجلَّة» في العام 1990 بأنه «لم يكن

لديه جمهور عربي في السابق، وأن تدريب النفس على مخاطبة الناس شهريّا كان ذا أثر جيِّد جدّا في وضوح الفكرة وصحَّة التعبير». أما الأثر السلبي فكان اضطراره إلى أن يتوخّى الحذر: «يمكنني أن أكتب بحرية أكبر عن القضايا العربية في جريدة إنكليزية أو أمريكية أو فرنسية مما يمكنني فعله في جريدة عربية»[20]، وقد تحوَّل عدد من المفكِّرين الاستراتيجيين الفلسطينيين إلى مواقفه التي لم تكن تحظى بالقبول في السابق بشأن أوسلو، بمن فيهم عشراوي، التي وافقت على مضض على الحضور إلى الساحة العشبيَّة أمام البيت الأبيض لتوقيعها، واعترفت فيما بعد بأن الخيار الأفضل كان القطيعة الواضحة[21].

اكتشف سعيد في أثناء مخاطبته للجمهور العربي لهجة ذات طابع شعبي. أما من الناحية الرسمية فقد كان دائما في حالة حرب مع الثقافة الأمريكية الشعبية بحجَّة أنها لا تعنيه (وهي حجَّة غير صحيحة). أما [ابنته] نجلا، (التي كان يدعوها «ناج») فقد قاومته، وعرَّفته بالمغنِّية وكاتبة الأغاني الآيرلندية سنيد أوكونور، وأخبرته بالخبر المريح عن كون موسيقاها مهينة لبريطانيا تحت حكم ثاچر، وأنها تدعم الـ IRA (الحزب الجمهوري الآيرلندي). وأجبرته على الاستماع، فقال فيما بعد إن أغانيها مثيرة، وإنه وجد فيها تشابها مع ييتْس[22]. وقد دُهش وسُرّ عندما أشارت إلى أن مغنية الروك-البديل alt-rock أني دِفْرانكو Ani DiFranco كانت تكتب المقالات لمجلة «ذا نيشن». أما وديع فقد كان يحتقر الموسيقى الكلاسيكية ويلوم أباه لافتقاره إلى ما يكفي من الميول التي تليق بالطبقة العاملة، وعمل ما بوسعه لإثبات أن موسيقى الهيفي ميتال(*) تعبِّر عن ثورة سياسية.

إن بإمكاننا أن نجد إشارات عابرة لأمثال جون كولنز، وميري تايلر مور، ودايان كيتن، وجون لي كاريه منثورة عبر كتاباته كلها، ولكن مغامراته في عالم الثقافة الشعبية كانت في معظمها تتعلَّق بعالم الاستعمار والعالم العربي. فقد كتب، من بين من كتبوا، عن «كوكب الشرق» أم كلثوم، زعيمة الغناء العربي التقليدي، وعن السينما العربية، وعن الراقصة المصرية المشهورة والممثِّلة تحية كاريوكا، وعن جو ساكو الكاتب المالطي الذي كتب روايات واقعية عن الحياة في الأراضي المحتلة،

(*) باللغة الإنكليزية Heavy Metal Music، وهي موسيقى صاخبة من نوع موسيقى الروك شاعت في الستينيات والسبعينيات في بريطانيا والولايات المتَّحدة. [المترجم].

وعن أفلام طرزان التي شاهدها في فترة الصِّبا في مصر[23]. كانت روح هذه المصادر تعطيه الإحساس بالانتماء إلى ذلك المكان بينما هو في منفاه الأمريكي، وتعبِّر بتخلُّلِها مقالاته السياسية الفلسطينية عن إحساس مختلف في كتاباته. هذه الحالة النفسية الجديدة جاءت إلى حدٍّ كبير نتيجة للزيارة التي قام بها إلى إسرائيل والمناطق المحتلَّة في يونيو من العام 1992 بعد تشخيص مرضه بقليل. فللمرّة الأولى بعد خمس وأربعين سنة عاد هو ومريم ووديع ونجلا «لأُريَ أفراد عائلتي أين ولدتُ، والبيتَ الذي كبرتُ فيه، والمدرسة التي أُرسِلْتُ إليها»[24]. لقد كان نبأ إصابته باللوكيميا يدفعه هو والعزلة السياسية المتزايدة إلى بداياته.

***

عندما بدأ سعيد في العام 1992 بكتابة مذكِّراته «خارج المكان» (1999) فإنه فعل ذلك ليس لأنه فشل في إتمام الرواية التي عمل على كتابتها بين الحين والآخر لما يقرب من خمس سنوات بعد العام 1987، بل لأنه رفض إتمامها. ففي انقلابٍ على النفس في الجزء الأخير من حياته في ضوء حياة قضاها في التعليم رفض الرواية بوصفها شكلا من أشكال الأدب، وقال إنها لم تعد تعني شيئا. ومع أنه لم يبدأ بكتابة المذكِّرات جدّيّا إلا في أوائل التسعينيات، فإن أصولها تعود إلى وقتٍ أبكر في المقالة المعنونة «القاهرة في الذاكرة» التي نشرت في مجلَّة هاوس أند غاردن في العام 1987، وأكثر حتى من ذلك في العام 1988 عندما أرسل قصَّة عن طفولته لجيمز أتلَس James Atlas في مجلّة «نيويورك تايمز».

كتب في رسالته إلى أتلَس: «لا أقول ما أقول من باب التباهي ولكن لا أحد له خلفية مثل خلفيّتي - أمريكي، فلسطيني، أكاديمي... إلخ - صنع ما أنوي صنعه... قصة لقاءات... تجربة مليئة، وربما خطيرة»[25]. في الحقيقة، وباستثناء الكتاب الذي كتبه محمد شكري بعنوان «من أجل الخبز وحده» For Bread Alone (1972)، وهو سيرة ذاتية عن السرقة من أجل البقاء في زمن المجاعة، وعن النضج الجنسي والأدبي في مراكش في الأربعينيات والخمسينيات، لم يكتب أحد في العالم العربي كتابا هو في الوقت ذاته كتاب اعترافات وكتاب مشحون بالقضايا النفسية[26]. وكما تبيَّن فيما بعد، سيصبح كتاب «خارج المكان» أوسع كتب سعيد انتشارا في المنطقة.

اعترف سعيد لأحد أصدقائه بُعيد البدء بكتابة المذكِّرات بوقت قصير بأن المشكلة المركزية هي مقدار ما ينبغي الكشف عنه ومقدار ما يجب عليه أن يخفيه، وكيف يتَّصل الجانبان أحدهما بالآخر. وأسرّ بقلق إلى أولئك الذي يعيشون بالقرب منه بأن روزي، وجين، وجويس، وغريس لن تسعدهن الطريقة التي صور بها والديهن، وأنهن سيمتعضن من قراره ترك الأخوات خارج لعبة الكشف والإخفاء. والحقيقة هي أنهنَّ استأن «لأننا شعرنا بصفتنا أخوات بأنه حصل على الجزء الأفضل من الصفقة... لقد جعل الأمر يبدو كأنه كان هو المضطهد، ولكنه لم يكن كذلك»[27] هرب إلى القاهرة لمدّة ثلاثة أسابيع في العام 1994 لكي يبتعد عن الهموم العائلية، وللحصول على راحة الفكر للعمل على مذكِّراته التي بدا أن ضرورتها أصبحت أعظم بعد سنتين. فالمعالجات التي جُربِت في العامين 1994 و1995 لم تنجح على رغم الآثار الفظيعة التي خلَّفتها على جسمه، كذلك فإنه أصيب بنوبتين من ذات الرئة في فبراير وأغسطس من العام 1996، كادت الثانية منهما أن تقتله[28].

ظلَّ ينوي أن يدعو الكتاب «ليس صحيحا تماما» وتمسّك بهذا العنوان إلى ما قبل دفع الكتاب إلى المطبعة بوقت قصير. ولربما فكَّر في نهاية الأمر أن موضوع المنفى الملتصق بكلمة «المكان» سيكون أوضح وأقل غموضا من العنوان المتروك، وهو العنوان الذي أوحى بالروح الداخلية للكتاب، وهي ليست عن المنفي بل عن عدم العيش في المكان الصحيح، عن عدم الشعور بأنه «في بيته» في أي مكان. كانت المشكلة هي كيفية الكشف عن التعقيدات النفسية لشخصية عربية نمطية من نوع معيّن - بالإشارة إلى نظرية عن العقل كان قد اشتكى من أن الثقافة العربية تفتقدها – على أن يفعل ذلك من دون استعراض أعراضها فيه هو ليركِّز الآخرون أبصارهم فيها. وكان قد كتب في مقالة غير منشورة تعود للعام 1977: «معرفة النفس لا تعني دعوة إلى الوعي المَرَضي بالذات»[29].

ولما كان الكتاب يصف صبيّا شديد الملاحظة في عالم تكمن روعته في جانبه الإستطيقي بالدرجة الأولى فقد كان لا محالة له من أن يستدعي پروست Marcel Proust لأذهان كثيرٍ ممن راجعوه. وهذا ما جعل سعيد يشير إلى الكتاب على أنه «تأمُّل پروستي» في جانب منه لأنه، على غرار پروست، ركَّز على ذاته الشابَّة كأنها لم تكن هو، بل هي مخلوق غريب قاوم كلَّ محاولات التفسير[30]. لقد اعتاد سعيد

أن يدرِّس سمنارا محبوبا في السبعينيات مخصّصا بكامله لذلك الروائي العظيم، كان على الطلبة فيه أن يقرأوا الرواية المكوَّنة من عدة مجلَّدات بكاملها باللغة الفرنسية. أما القصَّة فكان يعرفها معرفة بلغ من عمقها أنها تداخلت مع قصته هو – ذلك الشوق غير الصحّي الذي يشعر به الصبي نحو أمِّه، والعزلة التي تأتي مع الامتيازات، والإحباطات التي يشعر بها ذهن مغامر وهو يشاهد مغامرات الآخرين ويعيشها من بعيد. وبرغم كلٍّ ذلك فإن قصة سعيد، التي تروي قصة العالم الخارج عن المألوف للطبقات العليا، كانت تختلف تمام الاختلاف عن عالم پروست فيما تستثيره من مشاعر. وبدلا من جمل پروست ذات الإيقاع التوكيدي يعطينا سعيد تعليقات جانبية ذات أثر جارح. لسنا نجد في «خارج المكان» أيَّ شيءٍ شبيه بالتمهُّل الپروستي، بل نجد تلك الجمل النمطية عن عالم الغنى والعزلة: «واسْپ(*)من شمال الشرق، مخلوق من مخلوقات ذلك العالم المكوَّن من مواطنين دفعت لهم كلٌّ مستحقّاتهم – مواطنين مستقيمين أخلاقيّا، تملأهم الثقة، يتكلَّمون من علٍ على وجه العموم»[31].

وعندما نشر الكتاب، وصل الجهد الذي بُذِل لكتابته على امتداد سبع سنوات إلى نهايته، وهو مشروع كتب على فترات غير منتظمة في الساعات السابقة لبزوغ الشمس. وبما أن سعيد كان خجلا من نواحيه الروائية، ومدركا لما كانت هذه النواحي تخفيه، فإنه أخذ يصفه باستمرار بأنه «رواية توثيقية»[32]. لكن مهما كان النوع الأدبي الذي ينتمي إليه الكتاب فإنه جاء تتويجا، وصار أكثر من غيره الكتاب الذي جمع مواهبه كلها في مكان واحد. وعلى رغم أن سعيد خصّ شلي وانْغر Shelley Wanger بالمديح لأنها قادته على مدى مئات من الصفحات التي كتبت «بنثرٍ بولغ في كتابته أو ظلّ كامنا لم يكتب»، فإن تلك المحرّرة في دار پانثيون للنشر التي تولَّت تحرير كتابه قالت إن الصفحات التي سلّمها للدار لم تحتجْ في الحقيقة لكثير من المراجعة: «كان يعرف كيف يفعل ما أراد أن يفعل بالضبط»[33] كانت بِنية الكتاب قد استقرَّت في ذهنه، وكتبت المخطوطة بخطّ اليد على ورق أزرق، وأصفر، وأبيض، بتدفُّق مستمر لا يكاد يظهر فيه أي شطب[34].

(*) WASP، وهذه الكلمة مكوّنة من الأحرف الأولى لكلمات تدلّ على الأمريكيين ذوي البشرة البيضاء، والأصول الأنگلوسكسونية، والديانة البروتستنتية، وهؤلاء يرون أنهم هم الأمريكيون الأصلاء، وأن كل من عداهم من الأجناس والأديان الأخرى دخلاء ولا يحق لهم التمتع بأي حقوق. [المترجم].

ترك كل كتاب من كتبه أثرا، وعُدّت ثلاثة منها على الأقلّ أحداثا مهمّة، ولكن المديح الذي ناله «خارج المكان» كان شاملا، فإلى جانب المراجعات الحماسية والجائزة التي منحتها إياه مجلَّة «النيويوركر»، وهي جائزة تـُمنح للكتب غير الروائية، فإن المذكِّرات جعلت بعض الحاصلين على جائزة نوبل (نادين گورْدِمَر Nadine Gordimer وكنزابورو أوي Kenzaburo Oe)، ونجوم السينما، ومنهم إما تومپسن، وجودي فوستر، وڤانِسا ردغْريڤ يكتبون له رسائل إعجاب[35]. وقد أضيفت تعليقاتهم التي تعبِّر عن إعجابهم إلى تعليقات أصدقاء الطفولة والأقارب الأبعدين الذين شكروه بعد انقطاع دام سنوات طويلة على العالم المنسيِّ الذي تمكَّن من إحيائه. وكان غرامه بهوليود لايزال بالقوة نفسها، ولم تخفِّف منه شهرته الشخصية. فقد كان في تلك السنة قد أدلى بشهادة أمام البرلمان الأوروبي، وحضر معهد هربرت فون كارايان Herbert von Karajan في ڤيينا، وقدّم أوَّل محاضرة في مؤسسة جائزة سپينوزا في الكنيسة الجديدة في لاهاي في شهر نوفمبر. ومهما يكن من أمر، فإن التعليقات التي جاءته من نجوم الشاشة الذين كان متعلِّقا بهم جعلته يشعر كأنه طفلٌ سحرته النجوم وجعلته يستعيد الوقت الذي التقى فيه بداني غْلَفَر، ووارِن بيتي، وآنيت بَنِنْغ في حفلة، وشَعَر بارتباك جعله لا يعرف ماذا يقول[36].

كتبت غوردِمَر في سبتمبر من العام 2000 تقول: «عزيزي إدْوَرْد، كنتَ تحدَّثتَ عن رغبتك في كتابة رواية، أتساءل عمّا إذا كنتَ في الأشهر الأخيرة قد بدأت»[37]. كان سعيد محاطا بالروائيين – كان على صداقة مع سلمان رشدي، وفِلِپ رُثْ، وپول ثيرو – لكنه تفادى الجواب عن السؤال حتى وهو يغري بطرحه[38]. وفي مقابلة مع مجلَّة «تايم» أجريت معه بعد أن بدأ بكتابة «خارج المكان»، قال لمن يُجْرون المقابلة مداعبا إن المذكِّرات التي كان مشغولا بها عن العالم الذي اختفى ستتناول عهدا بقيت منه آثار بلغ من قلَّتها «أن بوسعي أن أسمح للذاكرة بلعب كل الحيل التي تريد. في الحقيقة أنا أريد ذلك؛ ولذلك فإنني قد أكتب شيئا أشبه بالرواية»[39]. كان ذلك التعليق في ذلك الوقت أشبه بالحركة التضليلية. وفي رأي أصدقاء طفولته وأخواته، كان ما تميَّز به الكتاب واقعيته الفوتوغرافية. كان يتذكَّر كلَّ شيء بدقّة تثير العجب، محافظا على إيماءات الوجوه ونغمة الأصوات.

وإذا ما أسرَّ لأصدقائه بنيَّته في الانسحاب من العالم يوما ما لكتابة رواية، فإنه ندر أن أوحى إلى أولئك الذين من حوله بأنه قد فعل ذلك فعلا. فبعد أن حثَّ طارق علي لإنهاء مجموعة الروايات التي تتعلَّق بالباكستان سأله علي إن كان قد فكَّر في يوم من الأيام في كتابة رواية أو نصٍّ مسرحي[40]، فكان جواب سعيد: «لا، لا أظن أنني قادر على ذلك. عمَّ تراني سأكتب؟»، لربما كان ذلك الجواب جزءا من ذلك الشعور بعدم الثقة – ذلك المزيج الغريب، كما لاحظ بارنْبويْم، من الشعور «بكل تلك الثقة وكل ذلك الشعور بعدم الأمان». كثيرا ما انتهت جُمَلُه بعبارة «ألا توافقني؟» وهي جملة لم يكن القصد منها النحنحة فقط بل اختبار أفكاره بالمقارنة مع أفكار شخص آخر. لكن سعيد كان يحبُّ أن يكذب مازحا، ففي سن الحادية عشرة أجريت له عملية لاستئصال الزائدة الدودية تركت أثرا لجرح كبير، وعندما سألته نجلا عنه قال إنه نطحه ثور بينما كان يدرس مصارعة الثيران في إسبانيا. وكان يحبُّ أن يلعب لعبة ابتكار القصص عندما لا يكون للحقائق قيمة. ففي الأيام الأولى من علاقته بمريم أراد أن يثير إعجابها، فقال لها إنه كان يتواعد مع كاندس بيرغن. وفي أثناء تناول العشاء مع زوج وزوجته بعد سنتين تباهى أحدهما بأنه قابل أحد نجوم السينما المشهورين، فقالت مريم: «إدورد تفوَّق عليك، فقد كان على علاقة بكاندس بيرغن». لكن سعيد ضحك وقال بهدوء خوفا من أن تنهال عليه الأسئلة عن علاقاته الحميمة: «هل صدَّقتِ ما قلتُه فعلا؟ كنت أمزح».

كانت لديه لـمّاحية الروائي في ملاحظة التفاصيل، وتذكُّر ما كان الشخص يرتديه من الملابس، وكيف أمال رأسه، وخفة يده عند المصافحة. لحظات كهذه تستدعي النظر من أفضل صفحات «خارج المكان»، كما يحصل عندما يصف «الكأكأة القميئة» لأمّ آبي، ابن خالته في ضاحية كوينز بنيويورك أو في بعض الصور التي لا ترحم في قصَّته القصيرة بعنوان «سفينة للمستمع» An Arc for the Listener[41]:

> كانت مارغَرِت فيما يبدو نتيجة لساعات من الترتيب والدفع، والعجن، والسحب، واللَّيّ. كانت سلسلة من الزوايا التي تهدِّد في كلِّ لحظة بالانفجار والتحوّل إلى شحم يسبح؛ ليس ذلك الشحم اللطيف المكوَّر الذي نراه في أختها نعمة، الأكبر سنّا، بل الشحم القوي، المكسوّ بالشعر، الشحم العضلي الذي كان بإمكانه أن يجتاحك قائلا: ذاك هو مكانك – ابقَ هناك![42].

يعود جانب من عدم اعترافه بما كتب من قصص إلى شعوره بالقوَّة في صفاتٍ لا تخدم هذا الفن. فپاترشا هايْسمِث، الكاتبة الشهيرة لرواية «غرباء في قطار» Strangers on a Train (1950) ورواية «السيد رِپْلي الموهوب» The Talented Mr. Ripley (1955) وغيرهما أثَّرت فيها الحيوية السياسية والكلام الصريح المباشر في مقالاته، وكتبت له رسائل تعبِّر عن الإعجاب لذلك السبب[43]. كذلك تجاوز كنزابورو أوي، في سلسلة من الرسائل الطويلة التي تعبِّر عن الاحترام، موضوع المديح لأسلوب سعيد «القوي، الحادّ، المؤثِّر»؛ وقد وجد في مقالات سعيد السياسية شيئا له صفة الديمومة يصحّح موقفه في رواياته[44]:

> لم أخبرك يا عزيزي سعيد بأن كتابك حفَّزني لكي أعيد الحياة لنفسي بصفتي كاتب روايات... لقد اختلطت مادَّة رواياتي بحياتي أكثر من اللازم من ناحية، ومن ناحية ثانية بالأمور الغيبية، ولو مضيتُ قدما في الكتابة بهذا الشكل لتحوَّلت رواياتي إلى اعترافات مشوَّهة بمعتقداتي. في تلك الحالة الذهنية استلمتُ جائزة نوبل في سْتُكهولم، شاعرا بأنها أقرب إلى العبء[45].

وفي سلسلة وثيقة من الكتابات الرقيقة عبر الفاكسات، الطويلة إلى حدٍّ ما عبَّرت گورْدِمَر عن رأي مشابه. وهنا، وضعت روائية عالمية أخرى نفسها عند قدمي ناقدٍ من نيويورك: «أنت الغراب الذي يطعمني في هذه الأيام(*) – على رغم أن الغراب أشدُّ التصاقا بپو منه بك، بينما الحمامة أنعم من أن تناسب روحك العظيمة وأشدُّ ميلا إلى إرضائك»[46]. كانت هذه الرسائل المتبادلة جزءا من حميميَّةٍ «تجاوزت مشاعر الاحترام، وأقرب إلى الصداقة الـمُحِبَّة التي يصعب وصفها»، بتعبير راي، المختص بالأورام الذي كان يعالج سعيد، والذي شهد العلاقة عن كثب[47]. لقد أرسلت إلى سعيد كلمتها التي ألقتها في حفل تسلُّم الجائزة، وقالت إن مقالاته السياسية أوحت بموضوعها المركزي الذي يتناول الكتّاب كشهود. وفي بحثها عن النصح والدعم كانت رسائلها مملوءة بتطاولات الشريك في مؤامرة. وعندما نال ڤ. س. نايپول V.S. Naipaul جائزة نوبل للعام 2001، على سبيل المثال، أرسلت إلى سعيد وصفا لحفل تسليم الجائزة في

(*) إشارة إلى قصيدة لإدغر ألَن پو بعنوان «الغراب». [المترجم].

سْتُكهولم، ووصفت نايپول بأنه «گريتا گاربو(*) حائزي الجائزة» بسبب تغيُّبه عن الاحتفالات الرسمية واستهانته بزملائه الفائزين بالجائزة عندما تجمّعوا عند بار الفندق[48]. ثم أضافت: كلُّ الفائزين الآخرين احتقروه.

وفي غياب رواية من وضعه، أشاع بعضهم فكرة تقول إن الإبداع القصصي الحقيقي هو حياة سعيد نفسها. والحقيقة هي أن عددا من الروائيين جعلوا منه شخصية مركزية في كتبهم. ومن هذه الروايات التي تخفي أسماء شخصياتها تحت أسماء مستعارة رواية أهداف سويف Ahdaf Soueif «خارطة الحب» The Map of Love، حيث يظهر سعيد تحت اسم عمر الغمراوي قائد الأوركسترا المصري الأمريكي والكاتب السياسي الشهير، صاحب الشعر الأسود «الآخذ بالتحوّل إلى اللون الأبيض عند الصدغين... والعينين السوداوين، السوداوين»؛ ورواية دومنيك إدِّه Dominique Eddé «الطائرة الورقية» Cerf-volant، حيث يظهر تحت اسم فريد مالك، المهاجر السوري إلى الإسكندرية، وهو ناشط لامع يسعى إلى تغيير العالم[49]. تركِّز كلٌّ من الكاتبتين على حركاته وعاداته الخاصة به: عند سويف، «طريقة دخوله إلى الغرفة، والطاقة التي تتفجَّر منه، والرؤوس تستدير لتنظر إليه... إزابِل مغرمة به... لا حيلة لها في ذلك. نساء كثيرات عجزن عن مقاومة حبِّه، ولم يسبِّب لهنَّ ذلك أيَّ أذى بقدر ما أعلم»[50]. وفي رواية إدِّه: «يداه كانتا أنيقتين عصبيَّتين. كانت أصابعه طويلة كثيرة الحركة يطعن بها الهواء، توقِّت كلَّ شيء حتى وهي في وضع الراحة... يبدي فضولا حول كلِّ شيء، أراد الحصول على كلِّ شيء: المغامرة والراحة، الرسوّ والإبحار في عرض البحر»[51].

في رواية ر. ف. جورجي R. F. Georgy «الغفران: قصَّة حبٍّ فلسطينية إسرائيلية» Absolution: A Palestinian Israeli Love Story يظهر سعيد باسمه الحقيقي بوصفه البوصلة الأخلاقية الكامنة خلف «آڤي»، رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي تعلَّم من سعيد عندما كان يدرس في جامعة كولمبيا أن يعترف بآلام الفلسطينيين. وفي سلسلة من القصائد بعنوان «وداعا أيتها التوجيهات»

(*) Greta Garbo: هي ممثلة أفلام شهيرة في هوليوود في بداية القرن العشرين اشتهرت بالأعمال الدرامية وتمثيل الشخصيات الكئيبة والسوداوية، اعتزلت التمثيل في وقت مبكر ورفضت الظهور للإعلام بعد مسيرة قصيرة ناجحة من الأعمال. [المحرر].

كتبها طالبٌ سابق من طلبته في أوائل السبعينيات اسمه ديفْد ليمان يخطب شخص خيالي اسمه إدْوَرْد بصفته مدرِّسا فيقول: «لا معنى لاستعراض/ عضلات نواياك الطيِّبة/ أنا لم أعِد بالإجابة/ عن أشدِّ أسئلتك إمتاعا»[52]. كذلك ظهر سعيد، باسمه أو من غيره، بصفته شخصية في عدد آخر من الكتب والأفلام، بما في ذلك فلم «الآخَر» L'Autre (1999) - وهو فِلم فرنسي - مصري مشترك أخرجه يوسف شاهين، وفيه يظهر سعيد بشخصه الحقيقي.

على الرغم من أن «خارج المكان» ساعد في الوصول إلى قرّاء لم يكن قد وصلهم من قبل، فإنه ظلّ دائما يواجه جدارا عندما يتَّصل الأمر بفرنسا. وعلى رغم محاضراته في الكوليج دي فرانس والتلقّي الحسن لترجمة كتاب «الاستشراق» في العام 1980 واتجاهه طوال حياته لكلِّ ما هو فرنسي، فإنه ظلَّ مصدر قدْر من الفزع في المؤسسة الأدبية هناك. وقاومته بوّابات الثقافة الكبرى كالتلفزيون وكبريات دور النشر (غاليمار على سبيل المثال). وعدَّه مثقَّفو پرناسس Parnassus(*) الفرنسي، الذين ارتدَّ كثيرون منهم عن اليسار والتحقوا باليمين، منافسا لهم. وكان حضوره في الحياة الثقافية العامَّة في نظرهم شبيها بحضور «الفلاسفة الجدد» برنار هنري ليڤي Bernard-Henri Lévy، وألان فنكلْكْراوْت Alain Finkielkraut، وأندريه غلوكْسْمان André Glucksmann، ولكنه كان ينتمي إلى اليسار، يتكلَّم بلغتهم، ويمكنه أن يعزف على آلة البيانو، وأن يحاضر عن بيتهوڤن وڤاغنر، ووجد مقعدا على مائدة المؤسسة السياسية. وساعده كتاب «خارج المكان» على اختراق الجدار غير المرئي. ومع حلول العام 2003 كان قد نال درجة تقديرية من جامعة السوربون، وبعد وفاته بقليل أقيم على شرفه تكريم خاصّ في المكتبة الوطنية.

وعلى رغم أنه كان يعشق قراءة الروايات فقد وجد أن من المنطقي أن يستنتج أن كتابته لها لا هي بالضرورية ولا الـمُغرية. وفي العقد الأخير من حياته اقتربت آراؤه حول الموضوع من آراء صديقه إسرائيل شاحاك Israel Shahak الذي جاءته منه رسالته الساحرة عن «بعد السماء الأخيرة» After the Last Sky وفيها بعض التحفُّظات غير المتوقَّعة. «لن أخفي عنك أن بعض النواحي من الكتاب أثارت اختلافي

(*) هو في الأساطير اليونانية جبل في أواسط اليونان وموطن ملهمات الشعر والموسيقى. [المترجم].

معك، أنا لا أقصد السياسة أبدا، أقصد أن الكتاب مفرط في الشعرية (والغموض) من وجهة نظري؛ متأثِّر أكثر من اللازم بالشعر الفلسطيني، وهو شعر أعترف بأنني لا أطيقه – على عكس النثر الفلسطيني»[53]. تساءل: ما الذي جعل طرد الفلسطينيين بهذه السهولة في العام 1948؟ «قد يكون أحد الأسباب كثرة الشعر، ولاسيّما ذلك الشعر الذي يخلو من نقد الذات».

من الواضح من «حدود الخيال الفنّي»، وهي محاضرة شديدة الأهمية ليست معروفة بما يكفي ألقاها في كلِّيَّة مكالستر في العام 1995، أن رأيه شبيه برأي شاحاك. كانت هذه المحاضرة قد كتبت في وقت ليس بالطويل بعد أن تخلّى عن روايته عن موضوع الخيانة، وبعد أن كان ماضيا في كتابة «خارج المكان»[54]. وقد استغلّ فرصة إلقاء المحاضرة ليفسِّر ما يستطيع المرء فعله وما لا يستطيع في فنِّ القصة، وأخذ كتاب غوردِمَر «الجميل» بعنوان «الكتابة والوجود» Writing and Being (1995) بقدر من الحذر والاحترام، وهو كتاب انبثق من كلمتها بمناسبة الفوز بجائزة نوبل. فقد قال إن رأيها القائل إن الرواية أبقى من الحياة رأي مغرق في الرومانسية. وانتقد الأقوال المعتادة في حفلات منح الجوائز حيث تُتَجاهل حقائق السوق الأدبية في عالم الواقع.

ثمَّ مضى بعد ذلك للقول إن ما نراه في العالم الثالث هو إستطيقا جديدة لا تكاد تترك أثرا في مراكز الثقافة الغربية؛ لأن مادّتها لاتزال مادِّة أوّلية، وعظية، ذات توجُّه سياسي مكشوف. وفي الواقع كان سعيد قد دافع في وقت سابق عن أطروحة حنان عشراوي (وهي أطروحة شارك في الإشراف عليها) عندما اعترض المشرفون لأنها دافعت عن أدب العالم الثالث (والسردية الفلسطينية على وجه الخصوص) من حيث إنه «وسيلة للثورة والتغيير» يظهر الخيال الأدبي فيه بصفته مواجهة للأحداث التاريخية وتسجيلا لها[55]. وبينما مضت وسائل الإعلام في نيويورك في الثرثرة عن العولمة، قال سعيد إن موقع الكاتب المنتمي إلى العالم الثالث لم يؤخذ في الحسبان. أضف إلى ذلك أن الفنَّ نفسه، على الأقل ذلك الذي لا يخلو من أصالة، يتعرَّض للتهديد من لعنة التخصُّص التكنوقراطي. وخلص إلى أن المخرجين ليسوا هم من يجلبون اهتمامنا لهذه الأمور أو يطلعوننا على المخرج منها. من يفعل ذلك هم المثقَّفون بصفتهم مشخّصين للوضع، ومحللين سياسيين،

وعاملين مساعدين، ومفسِّرين. وقد سخر كُكْبيرن ووييِّشيڤسكي وكانا زوجين في ذلك الوقت، من موهبته هذه التي تمكِّنه من جمع المنفتح وغير المحدَّد مع المؤكَّد، وأعطياه زرّين معدنيين للقميص مصنوعين على شكل حرفين من أحرف آلة الطباعة بمناسبة عيد ميلاده الستّين، طُبِعت على أحدهما صورةُ الفاصلة المنقوطة، وعلى الثاني صورةُ علامة التعجُّب[56].

***

في منتصف ليل الإثنين المصادف 10 مايو 1999 كتب سعيد ملاحظة لصديق ليخبره بأن إقبال أحمد، رفيقه في السلاح، توفِّي قبل ساعات فقط في إسلام آباد بسبب مضاعفات من عملية جراحية لاستئصال سرطان القولون. كانت الملاحظة قد كتبت على عجل بعد أن عاد من شقّة أحمد الواقعة في أَپَر وِسْت سايْد حيث ذهب لتعزية زوجته جولي. في تلك الغرف المألوفة كان أسهل عليه أن يستعيد في خياله المرّات العديدة التي جلس فيها إقبال حافي القدمين، واضعا ساقا على ساق، على أرض الغرفة، وبيده كأس، فيما هو يقيِّم أزمة سياسية أو يلقي الشعر بأربع لغات في الصباح الباكر. كانت كآبة سعيد ممزوجة بالندم بسبب خلافهما أخيرا حول جائزة علمية هندية أراد من أحمد أن يساعد في حصول كانتي راي عليها – وهي مهمة مستحيلة ظنَّ سعيد أن صديقه قادر بمعجزةٍ ما أن يحققها، فغضب عندما لم يفعل. وكان فقدانه في هذا الظرف، بينما كان هو نفسه على تلك الدرجة من الضعف، أمرا يصعب احتماله. ثم إن أحمد توفِّي وفاة كان بالإمكان تلافيها كما تبيَّن فيما بعد. فالمستشفى الباكستاني الذي كان يرقد فيه لم يكن مجهّزا تجهيزا كافيا للتعامل مع أحد الآثار الجانبية الروتينية التي تنتج عن العلاج الكيميائي، ألا وهي الأزمة القلبية التي قضت عليه[57].

في أوائل الألفية الجديدة أسرّ سعيد لراي، طبيب الأورام الذي كان يعالجه، بأنه كان يريد أن يكتب رواية عن أحمد، ليضع في كلمات ما منعه نشاطه وتواضعه من أن يضعه في كلمات هو نفسه. لم يخلِّف أحمد كتابات لها وزن كبير[58] باستثناء عدد قليل من المقالات السياسية التي جُمِعَت فيما بعد في مجلَّد من كتابات مختارة كتب چومسكي تمهيدا لها. لكنه خلَّف بدلا من ذلك سلسلة من اللقاءات المحببة، والملاحظات الألمعية، والحكمة التنظيمية التي انتقلت بالمشافهة في أغلبها مع أن من

حسن الحظّ أن بعضها سُجِّل في مجموعة من المقابلات التي جمعها ديڤد بارساميان الأرمني الأمريكي الذي كان يعمل مذيعا في «الراديو البديل»[59]. كان سعيد قد وجد في إهمال أحمد لتسجيل أنشطته، وعدم اكتراثه بالشهرة شيئا فيه من السحر ما للمبادئ السياسية التي التزم بها، وأراد أن يصوِّر البرق الفكري والروحي الذي لم يحفل الرجل بتسجيله بنفسه. فقد كان أحمد هو المسؤول عن دفع سعيد في أوائل سيرته المهنية للتركيز على إثارة القضايا الأخلاقية وليس على الأفعال العسكرية لتحقيق أهدافه. فمنذ العام 1970 خاطب أحمد منظَّمة الطلبة العرب طارحا ما كان آنذاك نمطا من التفكير الذي لا يحظى بالقبول الشعبي، وهو أن العلاقات العامَّة كانت أهمَّ من العمليات الفدائية، وقد أثَّرت تعليقاته في تفكير سعيد تأثيرا عميقا[60].

عندما حدثت الانتفاضة الثانية، أو انتفاضة الأقصى، في العام 2000 كانت تلك النصيحة قد اكتسبت قيمة خاصَّة. كانت وسائل الإعلام في رأي سعيد هي التي توجِّه الصراع. وقد اشتدّ يقين سعيد بأن اسم اللعبة هو «حربُ الصور والأفكار»؛ معركةٌ لجعل القصة الفلسطينية تَبْلُغُ من الدقَّة والإقناع ما بَلَغَتْه الخسبرة hasbara (وهي كلمة تعني حرفيّا المعلوماتِ الموجّهةَ للآخرين، أما باللغة الدارجة فهي تعني الدعاية)[61]. الطريق التي تفضي إلى التقدُّم في الصراعات التحريرية تكمن في «القوى السياسية المرنة، القادرة على الحركة، المعتمدة على المبادرة، والإبداع، والمفاجأة أكثر من اعتمادها على التمسُّك بالمواقف الثابتة»[62].

حاول كتاب نهاية عملية السلام (2000)، وهو يتكوَّن من مجموعة مقالات كتبت بين العامين 1995 و1999، أن يبيِّن كيف حصل ذلك. ويمثِّل الكتاب أشدَّ تفكيره السياسي إبداعا في فترة ما بعد أوسلو. واستُشهِد بكلٍّ من إسحاق نيوتن، وثيودور هرتسل، ونِلْسن مانديلا، وإلِزَبث تيلَر في هذه المقالات ذات الألوان المتعدِّدة في الكتاب، وهي مقالات أعطت حلَّ الدولة الواحدة منزلة أعلى ومعنى فلسفيّا أعمق. تناول الكتاب موضوعات متنوِّعة مثل الناقد الثقافي الألماني ولتر بِنْجَمِن، والمؤرِّخ الفرنسي جول ميشليه، والشاعر وعضو البرلمان من جزر المارتنيك إيميه سيزير، وغامر بترك خطابات سياسات الدولة جانبا والعودة إلى ما كان قد فعله في كتاب بعد السماء الأخيرة، وهو أن ينخرط في حياة الفلسطينيين العاديين. وما حقَّقه من هذه الناحية ظهر بشكل خاص في ثلاثة من أشدِّ

الكتابات الصحافية تأثيرا والتصاقا بحياته الشخصية، وهي «عن زيارتي لوديع» On Visiting Wadie، و«مشاهد من فلسطين» Scenes from Palestine، و«يوميّات الضفَّة الغربيَّة» West Bank Diary[63].

تميَّزت المقالة المخصَّصة لابنه عن سواها بشكل خاصّ. فقد تعلَّم وديع اللغة العربية بجهوده الخاصة من دون حثٍّ من أبيه مع أنه درس في مدارس نيويورك وكان قد «تأمرك» تماما، وبعد أن أكمل دراسته الجامعية الأولى ذهب للدراسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وبعد انتهاء تجربته في تلك الجامعة أعلن أنه ينوي قضاء سنة في فلسطين. لم يصدِّقْه أبوه. وعندما تبيَّن أن وديع كان جادّا، حاول سعيد أن يسبر غور ذلك القرار لأنه كان هو نفسه غير مستعدٍّ لعمل ذلك على رغم أنه تعرَّض لضغط لم يفصح عنه للقيام بخطوة رمزية كهذه. وكان صديقه القديم وشريكه في العمل الوطني أبو لغد مثلا قد ترك وظيفته في جامعة نورْثْوِسْتِرْن ليقضي آخر عقد من حياته للتعليم في بير زيت. وعلى وجه العموم فإنَّ فَشَلَ أوسلو، وتدهور صحّته جعلاه يبحث عن صلة أكثر حميمية مع فلسطين مما أمكن الحصول عليه في أثناء الزيارات المخطَّط لها للشرق الأوسط لعمل فِلْم أو لإلقاء محاضرة، وكانت أحدث زيارة من هذه الزيارات تلك التي قام بها للضفة الغربية في شهري فبراير ومارس 1997 لعمل الفِلم المسمّى «بحثا عن فلسطين» In Search of Palestine لمصلحة الـ BBC.

قلبت مبادرة وديع تفكيره. وكانت عشراوي، تلميذته السابقة التي كانت تعمل مع السلطة الفلسطينية في رام الله، تعلم علم اليقين أنه يحبُّ أن يُرَحَّب به بصفته واحدا من مواطنيهم الفلسطينيين يعيش في «المناطق». وقد آلمه جدّا أنه لم يكن يتمتَّع بهذه الصفة[64]. أما وديع فلم يجعله يرى الكيفية فقط، بل فتح له الباب، وأدى دور المخطِّط والدليل، وساق به السيّارة من بلدة إلى أخرى، ورتّب التحرُّكات، وعرَّفه بالإجراءات اليومية التي تُتَّخذ في «المناطق»، ومقدِّما إيّاه للشباب الذين ما كان سعيد ليستطيع الاتِّصال بهم[65]. وبما أن ثقافة المكان ثقافة أبويَّة فإن وجوده هناك مع ابنه دلَّ على انتماءٍ أشدَّ إلى المكان.

قد تختلف وجهات النظر، ولذلك فإن أوسلو إما إنها جعلت الكفاح الوطني الفلسطيني غير ممكن بعدها وإما جعلته يتحقق بشكلٍ شاذّ. وسواء أكانت النتيجة

هذه أم تلك فإن ذلك الكفاح لم يعد ضمن برنامج عمله. لقد أعطته تلك الحركة الحرية لينتقد حكومة الولايات المتَّحدة بشكل لاذع أكثر من ذي قبل، وللإلحاح على فكرة الكينونة الفلسطينية بصفتها خليقة ذات طبيعة كونية لها صفة الاحتواء التي تشمل الحاجة إلى الحركة إلى ما وراء الانتماء إلى مكانٍ معيَّن. ولسوء الحظ، لم يعد سعيد قادرا على الاعتماد على العقلية المنطقية التي تميل إلى الفكر اليساري، كما كان شأنه عند كتابة الاستشراق.

أما مقالاته التي كتبها ما بين العام 1995 إلى وفاته في العام 2003، وهي المقالات التي جمعها قبيل وفاته بقليل تحت عنوان من أوسلو إلى العراق From Oslo to Iraq (2004) فقد تناولت بروح التحدّي الهجوم الواسع على الحرّيات المدنية بعد 11 سبتمبر، وهو تاريخ الحرب الدائمة التي تشنها القوّات العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، والدكتاتورية المرعبة في الداخل. وقد اشتكى في تلك المقالات «من مستويات البلادة التي وصل إليها قطاع الفكر «المصفِّق» للقادة، ووجد أن الخبراء (وأسوأهم كان ذلك الخنزير [فؤاد] عجمي)» مدعاة للخزي[66]. وقد صبّ جامَّ غضبه على قانون الشعور الوطني الذي أُقِرَّ في نوفمبر من العام 2001، وهو قانون مثَّل ما دعاه «بأسرلة(*) سياسة الولايات المتَّحدة»[67]. فقد بدا أن الولايات المتَّحدة أخذت تحكُمُها أكثر فأكثر الطوائفُ المسيحيةُ الأصوليَّةُ، التي «هي في رأيي خطر على العالم»[68].

لم يكن معنى ذلك أن تركيزه انتقل بالكلِّيَّة إلى القضايا المحلِّيَّة. فعلى رغم عدد كبير من الأتباع المؤمنين بأقواله فإنه واجه درجة معيَّنة من التشكُّك في الشرق الأوسط نفسه. وفد كان تأثيره في إسرائيل وفي المناطق المحتلَّة كبيرا. وفي العالم الأكاديمي في إسرائيل، لدى الجيل الأصغر بخاصة، أصبح كتاب الاستشراق كتابا قراءته واجبة تقريبا. كما أن أعماله أحدثت صدى جيِّدا مع التمرُّد داخل إسرائيل نفسها ضدَّ المؤسَّسة الأشكنازية، وكذلك مع الاحتجاجات ضدَّ أوراقها البيضاء المختلفة التي تصوِّر إسرائيل على أنها مجتمع متعدِّد الثقافات ويتسامح مع الآخر.

(*) مصدر مشتق من لفظة «إسرائيل» بمعنى تصيير الشيء إسرائيليا، وهي في الأصل Israelization. [المحرر].

فعلى النقيض من تلك الصورة، سعت حركة بين اليهود المزراحيين إلى تحقيق تلك التعدُّدية الثقافية، وفي سعيها إلى عمل ذلك استشهدت بسعيد الذي رحَّب دائما بالتنوُّع في المنطقة بأن ظلَّ يكتب باستمرار عن العرب والفلسطينيين واليهود الشرقيين ويصفهم بأنهم ذوو مشاعر ومصائر متشابهة. وعلى رغم العقبات فإن أعماله متداولة في المنطقة. فقد ظهرت ترجمة عبرية لكتابه القضية الفلسطينية منذ العام 1981. وقبل سنة من ذلك التاريخ أرسل إليه صديقه وزميله شاحاك من إسرائيل رسالة قال له فيها: «اسمك معروف هنا إلى حدٍّ كبير»[69]. وبالنظر إلى أسلوب الترجمة المفرط في التفنُّن لكلٍّ من كتاب الاستشراق وكتاب الثقافة والإمبريالية ولما يتَّصفان به من طولٍ وسعة معرفة فإن تأثيرهما في العالم العربي كان أقلّ من تأثير المقالات السياسية، ولاسيّما تلك التي يضمُّها كتاب سياسة الحرمان، وهي مقالات كان تأثيرها كبيرا. ومع أن سعيد في فترة الثمانينيات كان معروفا معرفة واسعة في المنطقة فإن ذلك لم يكن بوصفه ناقدا ثقافيّا وأدبيّا على رغم حقيقة أن وزارة الثقافة السورية نشرت ترجمة مسروقة إلى اللغة العربية لكتاب العالم والنص والناقد ظلّت غير متاحة للقرّاء خارج سورية. وقد دعت نجاح العطّار، أوَّل امرأة تتولّى شؤون وزارة الثقافة، سعيد إلى زيارة بلدها أربع مرات، ولكنه رفض العرض بقوّة بسبب الكبت الداخلي في سورية وبسبب تخلّي سورية عن الفلسطينيين في أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان[70]. غير أنها أدركت، كما أدرك غيرها، أن عظمة سعيد - وربما كان هذا أعظم إنجازاته في العالم العربي - نابعة من تحقيق الاقتناع لدى الجميع بالدور الحيوي للمثقَّف بصفته الضمير الاجتماعي في المجتمع، ومشخِّص أمراضه، وواضع أجِنْداته.

وفي فلسطين، استاء المثقَّفون من حرصه على ذكر آلام اليهود في المحرقة، ورأوا أن من السذاجة المفرطة أن يقول «إن الولايات المتَّحدة يجب أن تكون المركز الأوَّل لعملنا»، بمعنى التأثير في آراء عامَّة الأمريكيين الذين يشكّلون مصدر الحياة الذي تعتمد عليه إسرائيل[71]. وقد بدت مطالبته المتكرِّرة لـ «ابتكار» طرق جديدة لدفع القضية الفلسطينية إلى الأمام، واقتباسه لبيت الشعر الذي يقول فيه سيزير «إن هناك مكانا للجميع عند ملتقى الانتصار» على سبيل المثال، على رغم نُبله، بدت للكثيرين أبعد من اللازم عن ساحة المعركة، ولا تلمس الأزمة الغزّيَّة على سبيل

المثال حيث تُدَمَّر بيوت الناس باستمرار وتُحَوَّل إلى ركام. ولم ينظر حتى أولئك الذين تبنوا أوسلو إليها في أي يومٍ من الأيام إلا باعتبارها خطوة نحو فلسطين مستقلة ذات سيادة. وتساءل بعضهم: ألم يكن خيانة قوله «إن المنفى يبدو لي حالة متحررة أكثر»، أو عندما استنتج أن فلسطين «لا يمكن استعادتها... نحن نبتعد عنها. إنها ليست عملية خلقٍ لمكان جميل مملوء بالبساتين وما إلى ذلك. أنا لا أؤمن بعودة نهائية»[72]. لقد كان في نظر كثير من النشطاء ليس منقطع الصلة بإطلاقه هذه الأقوال فقط، بل كان يسمح لأمريكيّته بالظهور[73].

لكن على رغم أنه بدا على هذه الصورة للمحاربين الذين نفد صبرهم فإنه لم يكن في يوم من الأيّام متطفِّلا يعيش حياة آمنة في شقَّة من شقق بناية سامقة العلو في مانهاتن. فقد استعين به حتى بعد أوسلو، إذ طلبت منه عشراوي أن يكون عضوا في الهيئة الفلسطينية لحقوق الإنسان، وعمل لمصلحة منظمات أخرى تابعة للسلطة الجديدة[74]. كذلك فإنه مضى قدما لجمع الأموال، وعمل الأفلام، والقيام بالمطالبات. وقد تمثَّل انخراطه الشخصي المستمر في لقاء مع إبراهيم عمّار، وهو طالب فلسطيني شجاع وصل إلى لندن في الواحدة والعشرين من عمره، ومعه سروالا جينز، وكَنزتان، وحقيبة صغيرة. وبعد أن حضر محاضرة سعيد في مبنى البرلمان انتظر في صفٍّ من الحاضرين للتكلُّم معه. وعندما وصله الدور ذكر له بشكل عابر أنه سيكون ممتنّا إذا ما كانت لديه أفكار يمكنه بواسطتها الحصول على دعم مادّي ليكمل دراسته. فقال له سعيد إنه سيفعل ما بوسعه. فغادر عمّار مسرورا، ولكنه كان واثقا بأن «هذه الأسطورة المتداولة بيننا نحن الفلسطينيين» (وفق تعبيره) سيَنسى وعده بمجرَّد أن يغادر القاعة. لكن ما إن مضى أقل من شهر حتى وصل إليه صكٌّ بالبريد بمبلغ 1500 پاوند[75].

لم تنبثق هذه الاتِّجاهات الجديدة في كتابات سعيد وأحاديثه من التعب أو الانهزامية بل من واقع جماعي لا يسرّ. فانعدام السيادة أجبر الفلسطينيين على أن يعيدوا تصوُّر المشاعر القومية ويجعلوها مأزقا عامّا وليس شكلا من أشكال الانتماء القائم على أساس الدم والتراب. أما المثال القومي في إسرائيل فقد استُعير من أوروبا في القرن التاسع عشر كما كان يوري آيزنتْسڤايغ Uri Eisenzweig، وهو باحث فرنسي تلقّى تدريبه في إسرائيل، يقول على نحوٍ مقنع بينما هو يدعم موقف سعيد

بخصوص «البنى المكانية المتخيَّلة» للمنطقة الصهيونية[76]. هذه المعتقدات تحتلّ مركز الصدارة في مؤتمر «المناظر الطبيعية في فلسطين: الشعر الملتبس» ـ وهو مؤتمر أسهم في تنظيمه مع أبو لغد وخالد ناشف وغيرهما فيما بعد في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية، بهدف فضح أكاذيب علم الآثار الإسرائيلي[77]. وكان من رأيه أن الصهيونية، بصريح العبارة، قد أوجدت منطقة أوروبية في فلسطين، وأن من المهم للفلسطينيين ألا يكرِّروا تلك الفعِلة.

هذا التعارض بين ظاهر الأمور في أمريكا والشرق الأوسط كان يكمن خلف أحداث أواخر يونيو وأوائل يوليو من العام 2000 عندما عاد بعد زيارة عائلية إلى لبنان لتقديم محاضرتين عامَّتين ليجابه حملة مجنونة تشنُّها وسائل الإعلام ضدَّه. وكان بعض المسؤولين والصحافيين يطلقون عليه صفة الإرهابي. كان سعيد قد ذهب، بعد إلقاء محاضرتيه وسط برنامج حافل، للقيام بجولة في جنوب لبنان بعد أن أخْلَتْ إسرائيل موقعا أمنيّا تحت ضغط المقاومة اللبنانية بعد احتلالٍ دام اثنتين وعشرين سنة.

وبعد زيارة لسجن الخيام سيِّئ السمعة تبادل سعيد الأحاديث مع الصحافيين الذين تبع بعضهم مرافقيه من أفراد العائلة وصديقه المقرَّب فواز طرابلسي الذي نظَّم الرحلة. ثم مضوا في رحلتهم إلى أن وصلوا إلى باب فاطمة على الحدِّ الفاصل بين لبنان وإسرائيل، حيث وجدوا كومة من الحجارة على الجانب اللبناني من السياج وثلاثة من مسؤولي حزب الله الذين كانوا ينظرون إلى ما يجري من حولهم. وكما يحصل مع كلِّ زوّار المنطقة، دعا الرجال الجماعة إلى قذف حجر رمزي باتجاه السياج، وكان هناك على مبعدة من السور على الجانب الآخر منه برج حراسة يبدو لأعضاء الرحلة خاليا. خاطب شخص من بين أعضاء الرحلة يتكلم بالعربية مشجِّعا سعيد لقذف حجر، ووافق طرابلسي على فعل الشيء نفسه. لكن حجر سعيد لم يكد يصل السياج حتى سقط على الأرض بلا حركة[78]. كان من بين من تبعوهم إلى باب فاطمة مصوِّر من جريدة «السَّفير» وفريق من تلفزيون «المنار». وفي المساء من ذلك اليوم جاء مصوِّر جريدة «السَّفير» بالصورة التي التقطها إلى الفندق ليراها. وبعد ذلك سألت زوجة أخ الروائي إلياس خوري صديق سعيد عما إذا كان بوسعها أن تنشر الصورة عبر وكالة الأنباء الفرنسية، حيث صادف أنها تعمل. فلم يجد سعيد ما يمنع، ووافق بلا تردُّد.

في تلك الليلة بثّ حزب الله لقطة للحادثة من خلال محطَّة تلفزيون محلِّيَّة[79]. وبما أن جميع من حضروها لم يروا فيها أكثر من حركة مسرحية لا ضرر منها، فإن الضجَّة التي أعقبتها لاحت لهم بالغة الغرابة. فقد صُوِّر سعيد، الذي دعا دائما إلى التعايش السلمي بين الفلسطينيين واليهود، وكأنه معادٍ للسامية، متطرِّفٌ، عنيف. ونشرت صحيفة «نيويورك ديلي نيوز»، وهي صحيفة تعتمد على الإثارة، صورة عن قذف الحجر في صفحتها الثانية تحت عنوان مثير يقول: «أستاذ من جامعة كولمبيا يعترف بقذف الحجر»[80]. وفي الهجوم العنيف الذي شنَّته وسائل الإعلام بلغت پولا زان من شبكة CNN من الوقاحة في المقابلة التي أجرتها معه، حدّا قرَّر معه سعيد ألّا يضيع الوقت مع شبكات الإعلام الكبرى. وفي أثناء هذه الضجَّة عمل مؤيِّدو إسرائيل من أعضاء هيئة التدريس والطلبة والمانحين من دون توقُّف طوال أشهر لطرده من الجامعة، أو على الأقل لإجبار الجامعة على إحراجه بإصدار استنكار علني. وكان بعض الأساتذة من كليات الطب والأعمال والهندسة متشدّدين على نحو خاص، فأغرقوا مكتب الرئيس بما لا يقل عن خمسين رسالة إلكترونية ومكالمة تلفونية، وتمكَّنوا من كسب جانب عضوٍ من أعضاء مجلس الأمناء[81].

غير أن عددا من زملائه هبّوا لنصرته مثلما فعلت قطاعات كبيرة من عامَّة الناس. وبينما كانت القضية في ذروتها أصدر جونَثَن كول، رئيس جامعة كولمبيا، بعد تأخير دام شهرين، بيانا رسميّا بناء على طلبٍ من القيادات الطلّابيَّة. ففي رسالة من خمس صفحات استشهد فيها بكلام لجون سْتِوَرْت مِلْ وبكلام يرد في الكتاب الخاص بأعضاء هيئة التدريس في جامعة كولمبيا، أشار كول إلى أن سعيد لم يخالف أيّا من القوانين، ولم تصدر بحقِّه أي إدانة، وأن آراء سعيد السياسية هي التي خلقت مما حصل قضية. وهكذا فإن بيانه هذا، باستشهاده بالحرية الأكاديمية، أنهى الحملة على رغم أنها ظلّت تَعْرُجُ لعدة أسابيع أخرى، ولم تمت تماما. ولم يأتِ النقد من الجانب المؤيِّد لإسرائيل فقط، فقد اتّهمه بعض حلفائه بأنه تَفَّهَ الحادثة بالمقابلات التي أجراها بتأكيده أنه قذف «حصاة» غير موجَّهة إلى أحد في «تعبير رمزي عن الفرح»[82] وتساءلوا، في وجه العنف الذي تمارسه الدولة الإسرائيلية عن السبب في عدم ردّ الصاع بالصاع والتفاخر بما فعل[83]. كان الحادث في حقيقة الأمر تافها،

ولكنه خلَّف في ذهن بعضهم علامة سؤال عن معنى كلِّ ما فعله في حياته، فوضعه كلُّ ذلك في حالة من الكآبة الطويلة[84].

***

وبما أنه نفض يده من فنّ الرواية، بصفته مؤلِّفا لها في الأقل، فإن ذلك عكس تناقضات أخرى. فكما لاحظ بارِنْبُويْم ساخرا، أخذ سعيد يصرف أوقاتا طويلة في الموسيقى الكلاسيكية في الوقت الذي أخذ الجمهور الغربي يفقد اهتمامه بها. أما سعيد فلم يتخلَّ عن سعيه إلى جعل الموسيقى الكلاسيكية محبَّبة أكثر للجمهور، مع أن جهوده سرعان ما امتزجت بخطَّة لإعطاء فلسطين مكانا في عالم الموسيقى الكلاسيكية. وقد حدث بالمصادفة في العام 1988 أنه كان يشاهد هو ومريم جانبا من برنامج «صباح الخير» على محطّة CBS عرض فيه جزءٌ عن سليم عبّود أشقر، وهو صبيّ فلسطيني مسيحي في الثانية عشرة من العمر كان قد فاز بمسابقة كبيرة في العزف على آلة البيانو في إسرائيل. وسرعان ما لاحظ سعيد مواهب الصبي، واعتقد أنه يستحق تعليما من الدرجة الأولى في الموسيقى وهو مصمم على إعطائه إياه[85]. لذلك فإنه سرعان ما اتَّصل بجورج عابد الذي كان آنذاك رئيس رابطة العمل الخيري الفلسطينية، وطلب منه أن يبحث عن عازف البيانو الصغير. وفي وقتٍ لاحق من تلك السنة جرى ترتيب لقاء على مدى عدة أيام متتابعة في باريس، والتقى الاثنان ساعات عديدة. وبعد الانتهاء من اختبار الصبي، وهو اختبار تضمَّن أحاديث مطوَّلة عن الحياة بشكل عام، أكَّد سعيد مهارات الصبي، وأقنع مؤسسة القطّان بدعم تعليمه.

وبعد بضع سنوات أسس المعهد الموسيقي الفلسطيني في العام 1993. وقد استُشير سعيد من جانب المؤسسين وأدّى دورا بنّاء في جعل المؤسَّسة حقيقة واقعة بعد عدَّة سنوات عندما أسهم بمبلغ عشرة آلاف دولار هي قيمة الجائزة التي منحته إيّاها مجلَّة النيويوركر على كتابه خارج المكان. وكانت الفكرة وراء ذلك أن الفلسطينيين الشباب إذا كان بإمكانهم تعلُّم التركيز من خلال الموسيقى فقد يكون بإمكانهم أن يركِّزوا على دراساتهم الأخرى أيضا – فقد كانت مصادر القلق التي يسببها لهم الاحتلال تسبب لهم أكثر من مجرد تشتيت الذهن. غير أن المعهد يحتاج إلى مدرّسين موسيقيين لم يكونوا موجودين في فلسطين في ذلك الوقت،

وكان استقطابهم من أوروبا يتطلّب الحصول على تأشيرات دخول إسرائيلية كان الحصول عليها مستحيلا. لذلك طلب سعيد مساعدة بارِنْبُويْم، وسرعان ما رتّب قائد الأوركسترا طريقة لموسيقيين ألمان للقدوم للتعليم. وفي غمرة الحماس للتجربة، وبناء على طلب مدير المعهد سهيل خوري فإن بارِنْبُويْم وعد ببناء أوركسترا فلسطينية. وتوسَّعت مشاركته على جميع الجبهات. وفي مارس من العام 1998 كان بارِنْبُويْم يعزف في القدس، وكان سعيد يعمل على الانتهاء من فِلم لمصلحة الـ BBC عن الضفَّة الغربيَّة. ولما كانت المسافة قريبة بين القدس وبيرزيت فقد رتَّب سعيد الأمر لكي يعزف بارِنْبُويْم في بيرزيت حيث عزف مقطوعة للبيانو لأربع أيدٍ(*) من تأليف شوبرت هو وعبّود أشقر نفسه.

وقد صادف في تلك السنة نفسها أن بارِنْبُويْم دعاه وزير الثقافة الألماني إلى المساعدة في تنظيم الاحتفالات المزمع إقامتها في ڤايمار، التي كانت قد سُمِّيت العاصمة الثقافية الأوروبية للعام 1999[86]. ورغبة منه في تحاشي الموضوعات المملَّة المتَّصلة بتلك المدينة الشهيرة – غوتة وشِلَر من ناحية، ومركز الاعتقال القريب في بوخنڤالد من الناحية الأخرى – فإنه استدعى تجربته الحديثة لاقتراح ورشة عمل تضمُّ موسيقيين إسرائيليين وعربا لا يزيد عددهم على خمسة عشر مشاركا أو ما يقرب من ذلك. وقدَّم بارِنْبُويْم هذه الفرصة السعيدة لسعيد، وأشار إليه أن «بإمكاننا أن نفعل شيئا يتجاوز الموسيقى»، فما كان من سعيد إلا أن قال: «قطعا!»[87]، بعد ذلك دهش الاثنان عندما وجدا أن عدد من تقدَّموا بطلب الالتحاق من الموسيقيين العرب تجاوز المائتين. وفي أغسطس، اختار بارِنْبُويْم هو وسعيد وعازف آلة الچِلو يو-يو ما مجموعة من «ثمانية وسبعين عازفا عربيّا وإسرائيليّا تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين» لحضور ورشة عمل موسيقية في ڤايمار[88]. وعندما انتهت الورشة كانت أوركسترا الديوان الغربي الشرقي قد وُلِدَت. ولم تمضِ سوى بضعِ سنوات حتى أقيمت ورشات عمل سنوية في إسبانيا حتى العام 2005، وعزفت الفرقة في رام الله نفسها في حفلة تذكارية تكريما لذكرى سعيد وتضامنا مع فلسطين.

(*) أي أن عزفها يتطلب عازفين يؤديانها تزامنيا. [المحرر].

لم يفترض أحد أن رمز التعاون الإسرائيلي العربي هذا سيأتي بالسلام. فباستثناء تجسيد التفاهم في وقتٍ كان سعيد يدعو فيه إلى حلٍّ يقوم على فكرة الدولة الواحدة في إسرائيل/فلسطين، كان كلُّ ما يمكن أن يفعله ذلك التعاون هو تقديم تعليم بالموسيقى بصفتها «تمرينا روحانيّا». كان سعيد وبارِنْبُويْم قد كافحا منذ زمن طويلٍ ضدَّ «علم» الموسيقى بما فيه من تمارين وطرائق تشمل الترتيبات الصوتية والتمارين الجسدية وأساليب القراءة المخصَّصة لإنتاج العجائب في الأداء، أن يعرف المؤدّون الكثير غير ذلك[89]. وكان بارِنْبُويْم قد لاحظ أن سعيد لم يحفل بمعالجة المشكلات معالجة علمية، بل فنِّيَّة، وهذا ما تحوَّل إلى سبب آخر للاستثمار في موسيقيين كانوا أفرادا حقّقوا ذواتهم تحقيقا كاملا. واستخدما المبادئ التعليمية نفسها التي طُبِّقت فيما بعد في أكاديمية بارِنْبُويْم-سعيد في برلين، وهي المبادئ التي لاتزال سارية حتى الوقت الحاضر: التدريب الشامل الذي يدمج دراسة الأداء بدراسة التاريخ والسياسة والإستطيقا. التعليم بالموسيقى، وليس تعليم الموسيقى - تلك كانت هي الفكرة.

حصلت الأوركسترا على الإعجاب في جميع أنحاء العالم، ولكنها أدت إلى مشاحنات داخل عائلة سعيد. ومع أن فكرة الديوان الغربي الشرقي استهدفت دائما أن تقوم بعملها بالتعالي على الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، فإن حركة المقاطعة والتعرية والعقوبات التي يقودها عمر البرغوثي أخذت تقاطع الأوركسترا بسبب الاعتقاد بأن التعاون يؤذي القضية الفلسطينية بتطبيع العلاقات مع دولة مارقة تشجب بحقّ بسبب انتهاكاتها للقانون الدولي. وكانت غريس، الناشطة المنتمية إلى الحركات الشعبية من بين أفراد العائلة، غير راضية على وجه الخصوص. وكانت وجهة نظرها، على غرار وجهة نظر سعيد، متأثِّرة بالوقت الطويل الذي قضته في الولايات المتَّحدة. وكانت غريس قد تخرَّجت في كلية المعلِّمين التي تقع على مقربة من حرَم جامعة كولمبيا، وكانت قد نجت من الحرب الأهلية في بيروت في العام 1983، وعاشت في أوَّل الأمر في بيت أخيها وزوجته مريم في شقّتهما في نيويورك، ثم انتقلت إلى واشنطن عندما وجدت أن المدينة لا تُطاق[90]. وقد ظلت تعمل أكثر الوقت في التسعينيات وبعد وفاة سعيد من أجل تعرية إسرائيل. وقالت ساخرة: «نحن الفلسطينيين... قرّرنا أن

نستعمل مسيحيَّتنا بأن نضع قدما في باب الكنائس حول هذه القضية»، ولكن من دون أن نستثني أصدقاءنا المسلمين. ثم انتمت بعد ذلك إلى حركة المقاطعة وبقيت على اقتناع بأن سعيد على رغم كرهه لـ «تصلُّب» حركة المقاطعة في بعض الأحيان فإنه كان سيقف إلى جانبها نقديّا. وبالفعل، فإنه قبل وفاته كان قد أيّد استهداف أهداف محدَّدة في عملية التعرية ومقاطعة المستوطنات، وغضب أشدَّ الغضب من زميله المؤرِّخ التقدُّمي إرك فونر Eric Foner عندما رفض أن يدعم حجب التمويل عن المستوطنات.

كان وجود الأوركسترا في نظر أغلبية أفراد عائلة سعيد مصدرا للإزعاج، لاسيِّما بالنظر إلى أن الأوضاع في فلسطين ساءت في القرن الجديد. ويبدو أن حملة المقاطعة المسمّاة BDS قد كسبتهم إلى جانبها، على رغم أن مريم كان من رأيها أن الحملة كانت ظالمة. وقد تمسَّكت مريم بموقفها، وبقيت هي المسؤولة عن تنظيم أنشطة الفرقة ودعمها إلى جانب بارِنْبُويْم بعد وفاة سعيد. فقد شعرت أن الإرث الذي خلَّفه زوجها في تنظيم ما عدَّه واحدا من أهمِّ منجزاته لا بدَّ من المحافظة عليه، وأن من الخطأ أن يفصل المعهد الوطني للموسيقى علاقاته ببارِنْبُويْم في العام 2005. فمن ناحية، أدّى إبقاء العلاقة قائمة إلى نتيجة تنظيمية مهمَّة، وهو «مركز بارِنْبُويْم-سعيد للموسيقى» في رام الله، وهو مركز ظلَّ دائما أكثر من مدرسة أو فرقة موسيقية للشباب، ظلَّ تجربة ثقافية شاملة للفلسطينيين من الضفة الغربية، ومن الداخل الإسرائيلي، ومن بلاد الشتات. كذلك فإن البرنامج الأصلي الذي بدأ مع بارِنْبُويْم والمركز الوطني للموسيقى في منتصف عقد التسعينيات كان لايزال معهدا ناجحا بتمويلٍ من الحكومة الإقليمية في الأندلس، ومن الحكومة الإسبانية، ومكتب وزارة الخارجية الألمانية، فضلا على التبرُّعات الشخصية.

وعلى الرغم من أن صداقة سعيد مع بارِنْبُويْم دعمت مصداقيَّته الموسيقية وأثْرت حياته الشخصية والفنِّيَّة، فإن العلاقة بينهما كانت علاقة متكاملة من الناحية الفكرية، وإن لم تكن دائما متوافقة. وعندما نشرا حواراتهما عن الموسيقى أمام الجمهور في نيويورك فإنهما أشارا إلى وحدة الأذهان المتباينة بأن سمّياها توازيات ومفارقات: نظرات في الموسيقى والمجتمع Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society (2002). ففي إحدى

المناسبات التي تحدَّثا فيها عما إذا كان الأدب والموسيقى يتشابهان في بعض الخصائص الجوهرية، تقدَّم سعيد برأي يقول إن كتابة الرموز الموسيقية تشكِّل نصّا يشبه نصَّ الرواية، بمعنى أن كلا النوعين يحتاجان إلى تفسير. لكن بارِنْبُويْم لم يتَّفق مع هذا الرأي، وقال إنه مهما كان ما تصفه الكلمات فإنه يجعل الموسيقى غير ضرورية[91]. صحيح أن الممثِّل يمكنه أن يلقي كلمة «لا» البسيطة بآلاف الأشكال، بلهجة تأكيدية، أو عدوانية، أو متفهِّمة. لكن كلمة «لا» لها معنى لا يوجد في النصّ الموسيقي – وهو نص يتشكَّل في الأساس من «بقع سوداء على ورق أبيض»، «كيف يمكنك قراءة ذلك؟»[92].

اختلفا حول موضوع «الصمت». كان من رأي سعيد أن الصمت يضع حدّا للموسيقى بصفته شيئا ضائعا وفقدانا، بينما هو في الأدب (الصمت بمعنى ما لم يُقَل) يبقى في الكلمة ويشكِّل جانبا من معناها[93]. وقد يقرأ المؤلِّفون أعمالهم بصوت مسموع أحيانا، ولكنهم يؤلِّفون بصمت، ويستهلك جمهورهم أعمالهم بصمت. أما بارِنْبُويْم بصفته قائد الفرقة الموسيقية فليس بوسعه أن يعدَّ الصمتَ غيابا. الصوت يحتاج إلى الصمت الذي يسبقه... تمسك بالنغمة الأولى بصفتك مستمعا، ولكن هنالك في كلِّ عبارة موسيقية فترات صمت من أجل أن تتنفَّس، من أجل أن تستجمع مزيدا من الحدَّة... الموسيقى معبِّرة لأنها يتخللها الصمت الذي يعترضها... والصمت الذي يأتي بعدها أعلى من النغمة الأصلية»[94].

أما القضايا الكبرى فقد أثَّر كلٌّ منهما في تفكير الآخر بشأنها. فقد نظر بارِنْبُويْم نظرة احترام إلى موهبة سعيد في تتبع الأنماط الموسيقية التي تتحقَّق في العالم السياسي وحاكاها أحيانا. وبعد حفلة عشاء في لندن في أواخر حياة سعيد، وبينما كان جميع الضيوف مصغين بانتباه شديد – طارق علي، جاكلين روز، منظر الدراسات الثقافية ومؤرِّخها سْتِوَرْت وكاثرين هول، ومريم، وسعيد، المنزوي والممسك عن الكلام، متنازلا عنه لصديقه - تكلَّم بارِنْبُويْم بإسهاب مدة تقرب من عشر دقائق، مطوِّرا الفكرة القائلة إن اتفاقات أوسلو كانت أشبه بالسرعة الفاشلة في حفل موسيقي، وفيه عجزت السرعة عن اللحاق بالنصّ إلى أن سقطت في الهاوية[95].

12

السباق ضدّ الزمن

الخالي من الخبث لا ينعم بالحياة الهانئة

ثيودور أدورنو[1]

كتب سعيد في يوم من الأيام عن طفولته فقال: «ساعتي تحمي حياتي كالحارس». أما وقد أصبح رجلا فقد صار لزاما عليه أن يتحمَّل النتائج: «التاسعة مساء كانت ماتزال تعني أن الوقت تأخَّر». وبعدما أخذ كأس الوسكي يحل محلّ كأس البيرة مع الفستق السوداني الذي يتناوله مع مريم في أثناء مشاهدة نشرة الأخبار، وبما أن الوقت يكون قد تأخَّر على الاتِّصال بأحد، فقد كان ذلك يعني أن العمل اليومي قد انتهى. سيكون بحاجة إلى قدر من النوم

كان سعيد يتعرَّض للهجوم منذ صدور كتاب «القضية الفلسطينية» قبل عقدين من الزمان على الأقلّ، ولكن بدا أن أعداءه السياسيين زادت رغبتهم في الانتقام قبيل وفاته وبعدها

للتحضير لـ«معركة» اليوم التالي[2]. لربما جاء الدرس متأخِّرا، ولكنه كان قد تعلَّم أن إضاعة الوقت شكل من أشكال قضائه وأن أوقات التسلية كانت ردّا على الالتزام بالأنظمة التي تفرضها النفس على ذاتها[3]. وباعتراف مريم، «ما أكثر ما أضاع من الوقت»، ولامه كْرِسْتُفر هِچِنْز مازحا بأنه كثيرا ما ذكر أسماء البرامج التلفزيونية إذ لا بدَّ أنه شاهدها بينما لم يكن الآخرون منتبهين(4). غير أن المهمة المكتملة لم تكن بأهمية الانشغال الدائم.

في «المقابلة الأخيرة» The Last Interview (2003)، وهو فلم توثيقي عُمِل قُبَيْلَ وفاته، أصغى الصحافي الصديق چارلز غْلاس بينما كان سعيد يذكر سلسلة من وقائع حياته في السنوات القليلة السابقة. لم يعد بإمكانه أن يقرأ. ولم يعد بإمكانه حتى الاستماع إلى الموسيقى تحت ضباب العلاج الكيميائي. وقد فوجئ وديع عندما رأى أباه وهو يغطُّ في النوم على كرسي من كراسي غرفة الجلوس في الساعة السابعة مساء وقد سقط كتاب من يده، ووجدت نجلا أن عليها أن تذكِّره بأسماء بعض الحاجات البيتية البسيطة[5]. ورجاه غْلاس بلهجة حزينة أن يشعر بالسعادة بما أمكنه إنجازه. لكن سعيد خفّف من أهمية «الدراما» وتمسَّك بالقصَّة التي رواها كلّما نصحه أحدهم بأن يهوِّن عن نفسه، وذلك بالقول إن فكرة الراحة تجعله يشعر بالمرض وإن النوم قد أصبح بالفعل نوعا من الموت. كان ينوي كتابة جزءٍ ثانٍ من «خارج المكان» لمتابعة القصة حتى الوقت الحاضر، ويقول إن لديه مشاريع أخرى[6].

لم يعالج سعيد كل الأزمات بهذه الدرجة من العقلانية. ففي العام 1983 جلس سعيد ومريم إلى جانب السرير حيث يرقد وديع الذي كان يعاني التهاب العظم والنِّقْي Osteomyelitis. وبعد قضاء ساعات إلى جانب وديع نهض فجأة من كرسيِّه ليذكِّر مريم بأن لديهما بطاقتين لحضور حفل موسيقي وأن عليهما الإسراع في الذهاب. فنظرت إليه مريم كأنها لم تفهم قوله، وفكَّرت: «كيف يمكنك أن تفكِّر في شيء كهذا؟»، لكنها قالت من دون مواربة: «لا أريد الذهاب». لكن ذلك لم يمنعه من المحاولة، فقال: «سيكون ذلك مفيدا لك». لكنها أصرَّت على موقفها. أما هو فلم يكتفِ بالذهاب، بل عاد إلى البيت في وقت متأخِّر عن موعد انتهاء الحفل، واتَّخذ موقف الهجوم بمجرّد دخوله من الباب: «لماذا لم تنامي بعد؟» فلمعت في ذهنها

حقيقة أنه لم يكن بوسعه احتمال النظر إلى ابنه المريض، وأن كلَّ ما كان بوسعه أن يفعله لتفادي الانهيار هو العودة إلى الروتين[7]. فكثيرا ما لجأ إلى هذا الأسلوب للتعامل مع مرضه هو.

أمضى السنوات الأربع الأخيرة من حياته في تجميع ثلاثة كتب قصيرة، وكان الوحيد الذي صدر منها قبل وفاته هو «فرويد وغير الأوروبي» Freud and the Non-European (2003)، وهو كتاب يكاد لا يحتوي، على رغم عنوانه، على شيء يتّصل بالاضطرابات النفسية أو أسرار اللاوعي، بل يحتوي على كلٍّ ما يتَّصل ببلد طفولته، مصر، التي شغلت ذهن فرويد في الجانب الأكبر من حياته. يعود الكتاب في الأصل إلى محاضرة في مُتحف فرويد في لندن، وكان بمنزلة الانتقام من المكان الذي كانت المحاضرة ستلقى فيه أصلا، وهو مُتحف سِغمند فرويد في ڤيينا الذي سحب الدعوة بسبب الفضيحة التي سبَّبتها حادثة قذف الحجر.

كُتِبَ كتاب «فرويد وغير الأوروبي»، على رغم ما فيه من إيحاءات، بما يشبه المقام الموسيقي الواحد، شأنه في ذلك شأن الكتابين اللذين ظهرا بعد وفاته، وهما «المذهب الإنساني والنقد الديموقراطي» posthumous Humanism and Democratic Criticism (2004)، و«عن الأسلوب المتأخِّر» On Late Style (2006). فبما أن الوقت المتاح لم يكن طويلا فإنه رضي بأن يكون الكتاب أشبه بالعرض المبسَّط، من دون عناية شديدة بالأسلوب، ومتَّخذا موقفه من كلٍّ ما رآه أهم من غيره بأي طريقة ممكنة. وللتعويض عن قدر من الرتابة في التعبير لجأ إلى الأساسيات الأخلاقية التي عبَّر عنها بأسلوب التحدّي. وكانت اللهجة التي اتَّخذها في السنوات الأخيرة قد اتَّضحت في نقاشٍ جرى في نيويورك في العام 2001 حول دور أمريكا في العالم بين كْرِسْتُفر هِچِنْز (وآخرين) من ناحية، والروائية المصرية أهداف سويف من الناحية الثانية. وبعد كثير من المجادلات الممتلئة بالحقد والضغينة، وثب سعيد واقفا من بين المستمعين في أثناء السؤال والجواب ليسأل: «لماذا يحجم الكلُّ عن الكلام عن الحقيقة والعدالة في هذه الأيام؟»[8].

كان الإرهاق قد جعل التقدُّم في كتابة الكتب الثلاثة بطيئا، وأجبره على تأجيل كتب أخرى (منها كتاب عن إقبال أحمد وآخر عن بيتهوڤن وباخ) إلى يوم ما في المستقبل. ومن بين أدوية اللوكيميا التي أزعجته كان الدواء المسمّى

«كامپاث» أسوأها، وهو دواء لعين على نحو خاص، تشمل آثاره الجانبية الحكَّة، والصداع المستمرّ، واللهاث. وقد كَتَبَ بخطٍّ أسود غليظ على الجهة الداخلية من الورقة التي يغلق بها المغلّف الذي يحتوي على مسوَّدة المحاضرة الخاصة بالمذهب الإنساني مدخلا ليوميةٍ من أيام العام 2000 يقول فيه: «أُلْقِيَتْ هذه المحاضرة على مدى ثلاث ليالٍ متتالية في أثناء تلقّي العلاج الكيميائي. ولست أدري كيف تمكَّنتُ من ذلك، ولكنني تمكَّنتُ، وكان شَعري يتساقط»[9]. في تلك المرحلة من حياته كان قد فقد الاهتمام بما هو جديد، بل أخذ يفضّل التأكيد بالصوت العالي من مواقع جديدة. وكان لإعادة التأكيد على أسس الإيمان القديمة (القوّة السياسية الملحَّة لمبدأ الإنسانية، والتهديد الذي تشكِّله المناهج العلمية[*] غير النقدية للفكر) صدى مختلفٌ في الوقت الحاضر كأن توجهها في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين وشعارها المنادي «بالحرب على الإرهاب» أخذ يواجه مصيره المحتوم على رغم أنه لم يزل يحتفظ بقوّته.

***

شعر سعيد بأن نقّاده سينقضّون عليه عندما يغيب عن هذه الدنيا لأنه لن يكون موجودا ليردعهم بردٍّ غاضب. فقد اجتمعت إهانات عدم الاحترام مع الضعف الجسدي. وفي أغسطس من العام 2003 كان في طريق العودة من جنوب البرتغال حيث كان هو ومريم وجين ستاين يستمتعون بالعطلة. وفي الليلة الأخيرة من عطلتهم هناك كان الجوّ بديعا بشكل استثنائي، وكان النسيم القادم من المحيط يشعره بالراحة بينما هو يقرأ كتابا من تأليف طلال أسد استعدادا لمحاضرة عن الدين كان مقرّرا أن يلقيها في العام 2005 في أسكتلندا. كان المأمول أن تكون المحاضرة حدثا مشهودا - كان هنري جيمز قد ألقى أول محاضرة من نوعها هناك – وكان سعيد مصمِّما على أن يتحضَّر في وقت مبكِّر. لكنه كان قد أخذ يشعر بالتعاسة والحمّى. فللمرَّة الأولى في أسفارهم بعد الحادي عشر من سبتمبر طلبت شركة الطيران منهم أن يتّصلوا مقدَّما لتأكيد السفر وتزويد الشركة بأرقام جوازات السفر. قال لمريم: «لا أحبُّ هذه الأسئلة»، وذلك لأنه شعر بما

(*) الكلمة الأصلية هنا هي scientism، وتعني أن مناهج البحث في العلوم الطبيعية صالحة للتطبيق في جميع الحقول البحثية. [المترجم].

ينتظره من مشكلات. وفي تلك الليلة أصيب بالهذيان بسبب الحمّى، وكان لا بدّ من وضعه في كرسي متحرّك عند التوجُّه إلى مطار فارو.

وبينما كان جالسا في قاعة الانتظار في المطار شاعرا بالوحشة وفي حضنه حقيبة عسكرية ممتلئة بالكتب والأدوية رأى أن الجميع باستثنائه يتوجّهون للصعود إلى الطائرة. فقد رفض المسؤولون في شركة طيران البرتغال أن يسمحوا له بالصعود لأن اسمه تسبب في استثارة تحذير في جهاز ما، والظاهر أن المسؤولين طلبوا موافقة السفارة الأمريكية في البرتغال، وهذه طلبت موافقة واشنطن، وكان الوقت هناك منتصف الليل. فتح رجال الأمن حقيبته فانتثرت الكتب والأدوية من حوله. فقال، وقد أهين، وهو الرجل المريض على كرسيِّه المتحرّك، بصوت يدلُّ على الضعف والغضب: «أنا ولدتُ مواطنا أمريكيا ـ وعشتُ في الولايات المتَّحدة من خمسة وأربعين سنة إلى خمسين». وعندما تخلوا في النهاية عن تصلّبهم كان ما أرادوه قد تحقَّق. وقد أخذ كُكْبيرْن يسخر منه بلطف بسبب مبالغته عندما يشكو من آخر «انتقاد قذر» ضدَّه في مجلَّة «ذا نيو ريببلك» The New Republic، مضيفا «أنا أعلم أنك لا تكترث بمشاعر رجل أسود مثلي»[10]. غير أن التهمة بدت حرفية على نحو غريب. وسواء أأخَّرته شركة الطيران على باب الطيارة بسبب إجراء عادي نتيجة للتصنيفات الإثنية المعتادة أو استهدفته بسبب أنشطته السياسية بناء على أوامر من دائرة الهجرة في الولايات المتَّحدة، فإن النتيجة تبقى كما هي. كان يعدُّ غريبا في صباه في القاهرة لأنه أمريكي، أما بلده الأمريكي فلم يعدّه أصيلا فيه.

أما السنة السابقة فكانت مختلفة تمام الاختلاف. ففي أكتوبر من العام 2002 سافر بالطيّارة إلى إسبانيا المجاورة لكي يتسلم هو وبارِنْبُويْم جائزة الكونكورد التي يمنحها أمير أستورياس، وهي الجائزة التي حصلا عليها تقديرا لتأسيس فرقة الديوان الغربي الشرقي. وهذه الجائزة هي بمنزلة شكل مصغَّر من جائزة نوبل للسلام، ولكنها أتت بمبلغ محترم مقداره خمسون ألف يورو لكلّ منهما مع منحوتة من ميرو(*). لكن ذلك التكريم جاء مع شيء من الإحراج. ففي السنوات الأخيرة لم ينعم كثيرا بكون الأورام الضخمة التي تصيب العقد اللمفاوية في

(*) خوان ميرو (1893 - 1983) فنان إسباني متعدّد المواهب ولد في برشلونة، ودرس في مدرسة الفنون الجميلة فيها. [المترجم].

الرقبة عند الإصابة بهذا النوع من السرطان قد تجاوزته على رغم أنه بعد العام 1995 أخذت تتشكّل عنده في الخدّين والفكّ الأسفل عُجَر تحتاج إلى تدخُّل طبّي[11]. لكن أكثر ما أصابته هذه الأورام هو منطقة البطن، ولا سيما في المنطقة التي يصعب التدخُّل الجراحي فيها بين القلب والعمود الفقري والكبد. وهذا يعني أن بإمكانه المضي في إلقاء المحاضرات من غير أن يشتّت انتباه الحضور بما لديه من تشوُّه. ومع أنه كان بالإمكان أن يلاحظ المرء بروز المعدة، فقد كان بالإمكان إخفاؤها إلى حدٍّ ما بالملابس الفضفاضة.

لم يكن يرغب في أن تجعله عيوب جسمه مثارا للشفقة («لا أرغب في لعب دور الضحية» – هذا ما أصرَّ عليه في مقابلة مع مجلّة «نيويورك» بُعَيْد ظهور «خارج المكان» بوقت قصير). ولذلك فقد أسعده امتناع راي عن الطلب منه التقليل من خططه واختصار نمط حياته[12]. وكان راي قد وجد طرقا للتعامل مع المرض من دون اللجوء إلى العلاج الكيميائي حتى وقتٍ متأخِّر من العلاج، وتمكّن من تأخير الدواء التجريبي ريتوكسين لعدة سنوات. وقد عمل سعيد ما بوسعه للاستفادة من حياة المختبرات والمستشفيات بأخذ أعماله إلى الأطبّاء أنفسهم، بالتحدُّث عن «الوقت المناسب والوقت المتأخّر: الصحة والأسلوب» في كلِّيَّة الأطبّاء والجرّاحين في جامعة كولمبيا في العام 2000 بحضور راي[13]. وفي غمرة الزيارات الروتينية لتلقّي العلاج الكيميائي صادق العديد من العاملين، ولم يكتفِ بالتعرّف عليهم، وكان يتحدَّث معهم بأسلوب فيه حرارة الصداقة الحقّة، ويتذكَّر أسماءهم وأسماء معارفهم، وحتى تفاصيل ما فعلوه على مدى سنوات[14].

ولكن لم يكن بالإمكان الهروب من كل المواقف المحرجة. ففي أبريل من العام 2003، وبعد أن تسلَّم شهادة فخرية من جامعة السوربون، جعل الورم اللمفاوي الذي يسببه العلاج الكيميائي بطنه يكبر أكثر من حجمه المعتاد بحيث صار الوشاح التكريمي أصغر من اللازم. فجلس من دون حراك بينما أخذ الموكلون بوضعه يدورون حوله لربط وشاحين معا لإكمال الزي المطلوب. والأسوأ من ذلك أن قصة قذف الحجر عندما وصلت إلى الصحف قبل بضع سنوات كتب أحد الطلبة رسالة عديمة الذوق في جريدة يومية تصدر في جامعة كولمبيا يسخر فيها من سُمنته، من دون أن يدرك أن الانتفاخ في الوسط جاء نتيجة للورم[15]. أما جريدة «واشنطن پوست» فقد

راكمت كلاما بالغ اللؤم في التهجُّم على شخصه: «ذلك الرجل الأشيب، صاحب الرداء الفضفاض، والقلنسوة، والنظارات الشمسية الأنيقة يبدو أنه تقدَّم في السن، وأنه أكثر أناقة... من أن يليق به قذف الحجارة باتِّجاه الجنود الإسرائيليين»[16].

وقد وجد أعداؤه السياسيون طرقا لصدِّه. فالكلّية المعروفة باسم كلية الملك King's College في جامعة كَيمْبرِج، حيث كان حليفه السابق توني تانر يعمل زميلا، رفضت إعطاءه شهادة تقديرية بينما أعطيت هذه الشهادة من دون رويَّة لآخرين أدنى منه مقاما بكثير. وكان سعيد قد قضى جانبا كبيرا من شهري أكتوبر ونوفمبر من العام 2002 في جامعة كَيمْبرِج ليلقي أربع محاضرات مركزية امتلأ المسرح الذي يتّسع لسبعمائة مستمع بكامله بينما اضطرَّ كثيرون إلى العودة لعدم وجود مقاعد فارغة. لكن تأثير عدوَّة القديم إرنست غِلْنر، الذي كان قد هاجم كتاب «الثقافة والإمبريالية» في «الملحق الأدبي لجريدة التايمز» في العام 1993 بحجَّة أن الثقافة غير مهمَّة، وأن الإمبراطوريّات الغربية صنعت من الخير أكثر مما صنعت من الأذى، لاحق سعيد إلى كَيمْبرِج. وفي اجتماع صاخب للزملاء في كلِّيَّة الملك تمكَّنت حفنة من مساندي إسرائيل من الوقوف ضدَّ منحه الشهادة، وخضعت الأغلبية للحفاظ على الهدوء[17]. غير أن إِيَنْ دونَلْدْسن مع عدد آخر من الباحثين وقفوا ضدّ هذا القرار وأجبروا المجلس على إعادة النظر. لكن القرار جاء متأخِّرا أكثر من اللازم. فقد أعلن دونَلْدْسن أن الشهادة التقديرية ستمنح لسعيد في اليوم الذي غرق فيه في غيبوبته الأخيرة[18].

كان سعيد يتعرَّض للهجوم منذ صدور كتاب «القضية الفلسطينية» قبل عقدين من الزمان على الأقلّ، ولكن بدا أن أعداءه السياسيين زادت رغبتهم في الانتقام قبيل وفاته وبعدها. ولئن لم يصلوا إلى ما وصل إليه مغتالو السمعة المتطرِّفون الذين استأجرتهم مجلَّة «كومِنْتَري» (لربما كانت مقالة إدْوَرْد ألكزاندر بعنوان «أستاذ الإرهاب» التي نشرت في العام 1989 أشهر هذه الأمثلة) فإن بعضا من طلبته السابقين ظهروا للتخلّي عنه، أو ليكتبوا كتبا تحذِّر من مخاطر جاذبيته المشكوك فيها[19]. وبسبب ما كان يتحلّى به سعيد من شعور قوي بالوفاء فإن أشدَّ خيانة تلقّاها جاءت من حليفه والمتعاون معه السابق كْرِسْتُفَر هِچِنْز الذي انقلب أخيرا إلى اليمين السياسي بعد أن اكتُشف نقله للمعلومات إلى أعوان كِنْ سْتار في أثناء

التحقيق في التهمة الموجَّهة إلى الرئيس كْلِنْتن. لقد أصبح هِچِنْز بعد أن أخذ يشنُّ الحملات ضدّ الإجهاض وضد ما دعاه بـ«الفاشية الإسلامية» شخصا يوثق بمساندته لسياسة الولايات المتَّحدة الخارجية، ويستضاف في الندوات التلفزيونية، وصار عضوا في مجموعة مختارة من المقربين في واشنطن.

كانت أيام الخروج مع سعيد و«الرفاق» في نيويورك قد انتهت (كان هِچِنْز في الواقع قد تخلّى عن بِن سوننبيرغ بعد أن توقّف هذا الأخير عن تحرير Grand Street ولم يعد مفيدا). وعندما أدرك أن سعيد لن يطول به العمر فإنه لم يتوقَّف عن نشر مقالته المعنونة «حيث كان يجب على الاثنين أن يلتقيا» في مجلّة «ذا أتلانْتِك مَنْثْلي» The Atlantic Monthly وظهرت قبل النهاية ببضعة أشهر. وقد استغلّ هِچِنْز مناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لظهور كتاب «الاستشراق» ليتظاهر بالنزول من عليائه، وليتظاهر بأنه يصحّح «أخطاء» سعيد في الكتاب، ولتكرار كل الأكاذيب القديمة بشأنه، وللادِّعاء بأنه يتحدَّث الألمانية بطلاقة، وأنه خبير بأعمال غوتة، بينما كان كل ذلك كذبا. وقد تجاهل كل الفكرة التي يقوم عليها كتاب «الاستشراق» في حملته ضدّ قطع الثقافات المجاورة، واتَّهم سعيد بأنه رجل قادر من الناحية المثالية على مدِّ جسر بين الثقافتين الشرقية والغربية، ولكنه بدلا من ذلك دقّ إسفينا بينهما.

وقد لجأ حتى بعض من بدا أنهم يمدحونه في الظاهر – كالصحافي الأسترالي المقيم في لندن كلايف جيمز على سبيل المثال – إلى مجاملات مبطَّنة الهدف منها التقليل من مكانته بزرع عدد من الألغام اللفظية على امتداد الطريق. فبدلا من الاعتراف بتحرك سعيد الذكي بين الحضارات المتحاربة، أسقط جيمز ظلّا على صلاته التي يحسد عليها. كتب جيمز مثلا: «ثمة أناس لامعون في الشرق عدّوا سعيد مجرَّد ناشط دولي يحقق النجاح بالكتابة عنهم من دون عذر كاف»، كأن سعيد لم يكن مفكِّرا شرقيّا أو عربيّا أو أمريكيا. وكما حصل مع آخرين، نظر جيمز إلى ازدواجية تجربة المهاجر ولم يرَ فيها سوى التناقض الذاتي.

ناسب مصطلح «التأخُّر» الكثير من الهجمات الأكاديمية المضادَّة مناسبة مدهشة على رغم أنه لم يقصد منه أن يكون كذلك. فتوقيت ردود الفعل (كتاب روبرت إرْوِن «بسبب شهوة المعرفة» على سبيل المثال) دلَّ على الجُبْن، إذ انتظر إرْوِن ثلاثين عاما

لكي ينشر ملاحظاته إلى أن لم يعد بوسع سعيد أن يردَّ عليها. والجروح اللفظية التي أحدثها سعيد في كلٍّ من بيرنَرْد لويس، وروبرت غرِفِن، ومايكل وُلْتْسَر من بين آخرين ربما جعلته يفكِّر مرَّتين قبل مواجهة هدفه، ولكنها لم يكن من السهل نسيانها. وقد انتقد سعيد هذا الأسلوب في مراجعة عن ڤ. س. نايپول في مجلّة «نيو سْتَيْتْسْمَن» في العام 1981 أشار فيها إلى عادة ذلك الروائي إلى تحقير شعوب العالم الثالث بشكل غير مباشر باقتباسات من مجلَّة «أتلانْتِك مَنْثْلي»: «هل يخشى ردود فعلهم المباشرة... مثل سقراط وهو يعيش نتائج نقده؟ لا، أبدا»[20]. وكانت لديه استراتيجية أخرى تتضمن محو اسمه تماما. وعندما نشرت جريدة «نيويورك تايمز» في ذكرى سونِنْبيرغ قائمة بكل المشاهير الذين أسهموا بالكتابة في مجلّة «گراند سْتريت» فإنها استبعدت اسم سعيد على رغم أنه كان واحدا من أكثر من كتبوا فيها[21]. وينطبق هذا على أسماء المشاهير الذين تسلَّموا جائزة بودِن في جامعة هارڤرد، وهي قائمة حذفت اسم سعيد بشكل يلفت النظر.

غير أن سعيد تعرَّض لنوع مختلف من الأذى على يد بعض من كانت العلاقة معهم حميمة، ومن أرادوا لسبب أو لآخر وضع حدٍّ لتلك العلاقة. فقد نشرت دومنيك إدّه بعد عقد ونصف العقد من وفاة سعيد كتابا بعنوان Edward Said: Le roman de sa pensée (إدْوَرْد سعيد: رواية فكره، 2017)، وهو في الجانب الأكبر منه سردٌ لعلاقة شخصية تجعل من نفسها فيها مُلْهِمَتَه المنسيَّة[22]. وقد فوجئ عدد من أصدقاء سعيد بسبب ما في القصّة من افتعال مسرحي – مثل تلاعبها بالحرف الأوَّل من اسمه الأوسط W كأنه double you أي مزدوج الهوية على سبيل المثال، أو مقارنتها نفسه المنقسمة بالجزء الأيمن والجزء الأيسر من النسخة المكتوبة من قطعة للبيانو[23]. كذلك جعلت إشاراتٌ مخفيةٌ بعناية سعيد يبدو كأنه شخصية منفِّرة بينما كان الآخرون يجدونه شخصية محبَّبة، كأنها أرادت أن تؤذي الرجل الذي ادّعت الإعجاب به.

يصف هذا الكتاب نفسه وصفا مزدوجا، ولكن جانب الرواية منه كان أكبر من جانب الدراسة، وهو يبني أفكاره بشأن شخصية كونراد التي أُشبعت دراسة، وبشأن المؤثرات التي أثَّرت في تفكيره، ألبير كامو وجورج أورول اللذين كان سعيد يمقتهما[24]. وبما أن المؤلِّفة أخطأت فعدَّت كتاب «البدايات» أوَّل أعماله ووجدت

كتاب مذكِّراته «باردا» فإنها عادت إلى الفكرة القائلة إن حياته هي الرواية. ولكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك. ولما كانت تجهل ما كتبه من شعر وقصّة فإنها ادّعت أنه لم يجرؤ في حياته أن يكتب رواية أو أن يضع نفسه تحت رحمة الخيال. فلو فعل ذلك لكان دخل المنطقة العاطفية الخطرة التي لا تعطي القياد لإحساس الناقد القوي بما يجب أن يكون. وقد كشفت هذه التهمة مدى جهلها به. فقد تجاهلت دفاعه القوي طوال حياته عن الحقوق المهملة للنقّاد عندما تُقارَن بالأقوال التبجيلية المعتادة عن الفنانين في الثقافة العامَّة.

***

في السنوات الأخيرة من حياته تخلّى سعيد عن حذره من إغضاب زملائه في المهنة ومن الظهور بمظهر من لا يسير مع الرَّكب. وحيث إنه لم يعد لديه ما يخسره، وحيث إن الوقت أخذ يضيق، فقد قدَّر أن من المستحسن أن يضع مبادئه على المحكّ بأوضح شكل ممكن. ففي مكالمة تلفونية مع صديق طفولته چارلي بْلايْد كان يشعر بالضغط العاطفي تحت تأثير أدوية السرطان. كان يوشك أن ينفجر بالبكاء، ثم تملَّكه الغضب لأنه كان يعطي وزنا كبيرا للمكانة وللحصول على الدعوات التي يريدها[(25)]. اعتصر يديه، واعترف لصديق آخر بأنه يشعر بالتعاسة لشراء الملابس الثمينة بينما العالم مملوء بالبشر الذين يعانون[(26)].

في سلسلتين مهمَّتين من المحاضرات، وعددٍ كبير من المقالات، وكتاب قصير عنوانه «المذهب الإنساني والنقد الديموقراطي» Humanism and Democratic Criticism تماثلت أعماله التي أنتجها في أوائل القرن الجديد بشأن حيوية المذهب الإنساني مع الأعمال التي أنتجها في أوائل عقد الثمانينيات من القرن الماضي بحيث يسهل نسبة أعمال إحدى الفترتين غير المؤرِخة إلى الفترة الأخرى. ويبدو أن التقدُّم في السنّ لم يزده إلا تصلُّبا في الدفاع عن مواقفه حتى لو كان تأثير العلاج الكيميائي قد خفَّف من حدَّة نثره وجعل أسلوبه ذا الأبعاد الثلاثة أوضح وأشدّ إمعانا في التقرير. أما أسلوب المهادنة الذي نجده في كتاب «الثقافة والإمبريالية» فقد خلَّفه وراءه وأخذ يتابع مشروعات تواجه النقد السائد. فالمذهب الإنساني من وجهة نظر كثير من زملائه ظل يستدعي لفترة طويلة صورا لمالكي العبيد وهم يلقون المحاضرات على الملوَّنين عن فوائد العقل. ولئن كان ذلك المصطلح قد فقد شعبيَّته

في الأيام الأولى لسيرته العلمية فإنه في أوائل قرننا الراهن أصبح في نظر كلٍّ من كانوا حوله شعارا يستدعي كل جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية. كان المسؤولون عن إدارة الجامعات مايزالون يستعملون المصطلح، ولكن ذلك قلّل من مصداقيته أكثر من ذي قبل.

سلَّم سعيد بأن مصطلح المذهب الإنساني استُعمل أحيانا «لإلباس الممارسات الراهنة لبوس اللياقة والشرف» وأن «الإفاضة في الكلام» عن humanitas (الطبيعة الإنسانية) – كما يفعل الكتاب الذي يدَّعي التقوى بعنوان «كتاب الفضائل» Book of Virtues (1993) لوزير التربية السابق وِلْيَم بَنِتْ William Bennett – أعطى الغطاء الأخلاقي لارتكاب الفظائع (المثال الذي أعطاه سعيد هو القصف الجوِّي الشامل لكمبوديا). وأضاف: نعرف كلنا المفارقات الكامنة في إذاعة الجنود الإسرائيليين لأغاني سايمن وگارفنكل وهم يراقبون المذابح التي تُرتكب في مخيّمي صبرا وشاتيلا في بيروت في العام 1982. ولكنه ردّ على ذلك بقوله إن هذه الأمثلة لم تكن سوى نصف القصّة. فقد كان المذهب الإنساني ليس في أوروبا وحدها بل أيضا في الصين والعالم العربي مرتبطا باستمرار بالتدريب على الفنون الحرَّة. وقد شكَّل ما لا يقلُّ عن ثورة في التعليم تقوم على دراسة الكتب، لاسيّما حكمة الماضي، وعلى الحرص الشديد على جعل المعرفة متاحة للجميع. ففي الطاوية والكنفوشية والصوفية والبرهمية في الهند، من بين معتقدات أخرى، يجد المرء نفس المواقف اللاأدرية agnosticism، والتشكُّك تجاه ما هو خارق للطبيعة، والتأكيد على الاختيار الإنساني الموجود في أرقى تفرُّعات المذهب الإنساني الغربي.

كانت هنالك أسباب لا حصر لها لإنكار أن المذهب الإنساني يمثِّل بأيٍّ معنى جوهري روح العنصريين الأوروبيين من أمثال ديڤد هيوم وسَسِل رودْز. ذلك أن الاستغناء عن المذهب الإنساني كان معناه التخلُّص أيضا من علمانية كلٍّ من طاليس وأناكساغوراس، والدراسة الفيلولوجية للقانون الروماني عند ڤارو، والمحافظة على العلوم الشرقية في العصر الذهبي الإسلامي (ابن رشد وابن سينا)، والاكتشاف العظيم الثاني لمصر في الأفلاطونية الجديدة، وإنشاء الجامعات الأوروبية على يد المشتغلين بالفلسفة المدرسية، ومدارس المغرب والمشرق، وانتصار القراءة في عصر النهضة الإيطالية لكل من پوجو براتچوليني وإرازمس.

كان من رأي سعيد، في عالم السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، بما فيه من أسواقٍ متخصِّصة، وحروبٍ يقصد منها القضاء على أمم بكاملها، وأسلحة بيولوجية منفلتة، أنه لم يعد هنالك من حاجز سوى شعور المذهب الإنساني القوي بضرورة الحفاظ على الماضي. ولم يتَّضح الدور الاجتماعي للمثقَّف إلا بالطريقة التي دخل بها المذهب الإنساني في المجال السياسي. وقد وجد سعيد في مراجعةٍ لكتابٍ عن الصحافي وولتر لِپْمَن، صاحب التأثير الواسع، والمستشار لدى الرئيس الأمريكي، كلَّ ما يجب ألا يتَّصف به المثقَّف: أن يكون مستعدّا للإرضاء، جبانا، معتدّا بذاته مع الضعفاء، مصرّا على عدم التميُّز[27]. أما الصيغة الأخرى من لِپْمَن من بين المثقَّفين فهو چومسكي الذي وصفه سعيد في إحدى المناسبات في جامعة كولمبيا، حيث قدَّم صديقه تمهيدا لمحاضرة بينما كان يعيد حكاية خيالية كان يحبُّ أن يرويها. كان چومسكي جالسا بجانب منضدة في قاعة اجتماعات مقابل كلٍّ من زبغنيو بْرِجِنْسكي Zbigniew Brzezinski، وروبرت مَكنَمارا Robert McNamara، وألكزاندر هَيغ Alexander Haig، وتوم بروكو Tom Brokaw. ومع أن الطرف الثاني كان أكثر عددا «فإنه جعلهم يتلوّون من الخجل»، إذ فتَّت حجج دعاة الحرب هؤلاء «إلى أن أرسل كلّ هؤلاء إلى لاهاي ليحاكموا»[28]. وما فعله چومسكي هو أنه، برفع زاوية السجّادة التي ظلَّ اللبراليون الأمريكيون يتبخترون فوقها على مدى ثلاثة عقود، أعطى مثالا على النمط الذي يستخدمه مبدأ الإنسانية في الحرب الفكرية[29]. أمّا لِپْمَن في المقابل فلم يغامر بشيء في حياته.

وبينما كان سعيد يحتضن دور المثقَّف الاجتماعي فإنه عاد، بما نعهده فيه من ميل إلى المباغتة، إلى الدراسة الأساسية التي وضعها جوليان بندا بعنوان Les Trahisons des clercs (خيانة المثقّفين). كانت تلك الحركة محيِّرة لأن بندا قصد بكلمة «الخيانة» تلويث رسالة المثقَّف بانخراطه في السياسة[30]. فنحن نجد هنا رجلا عدَّ الديمقراطية شيئا منحطّا واعتقد أن المثقّفين يشكِّلون طبقة مقدَّسة يحسن بأعضائها أن يعيشوا في عزلة، لا بل أن يعيشوا حياة زاهدة (ومثالاه هنا هما سقراط ويسوع). أما سعيد من ناحيته فقد امتدح بندا لمثله المسيحية العلمانية. فالعلوم الإنسانية كان لها بُعدٌ روحاني في الواقع إن قصد المرء بكلمة «الروح» قوّة العقل والتصميم الأخلاقي. فبعد 11 سبتمبر 2001 كان ذلك المثال جذابا عندما

بدا أن كثيرا من صانعي الرأي العام يريدون التخلُّص ليس من هذا الرأي المخالف أو ذاك فقط، بل من «الفكر نفسه» بتعبير سعيد[31].

وجد سعيد بينما كان الموت يقترب أن من المستحيل ألا يجري كشف حساب مع حقله الدراسي الخاصّ به، لمواجهة الدور الذي أدّاه ذلك الحقل في رسالة المثقَّف إن كان أدّى دورا كذلك. ولهذا السبب عاد إلى الموضوعات التي تناولتها مقالاته في السبعينيات وأوائل الثمانينيات عن الأدب المقارن والترجمة[32]. ولاحظ أن إغراق الأدب المقارن في التخصُّص وبُعدَه عن الشائع والمألوف لم يكن بوسعهما إخفاء الحقيقة القائلة إن الأدب المقارن أسهم بالكثير في مسائل الحرب، وحقوق الإنسان، والسياسة الخارجية[33]. وقد وجد أمثلة ملموسة في حركات التمرُّد التي قام بها الشباب في عقد الستّينيات على «التأثير المتبادل لتراث الأمم»، وهو تأثير أصبح ممكنا بالترجمات الأولى لأعمالٍ ذات قدرة تشكيلية من الفكر الراديكالي ظهرت باللغة الإنگليزية للمرَّة الأولى بين العامين 1963 و1972 (أعمالٍ لكلٍّ من فانُنو، وغرامشي، وكابْرال وغيرهم)[34]. وقد وجد سعيد، فوق كلِّ شيء، في استعداد الحقل للسباحة بعكس اتِّجاه التيّار ضمانة ضدَّ ادِّعاءات الدقَّة التكنولوجية العلمية. فالمقارنات الي تتصف بالشمولية جعلت التخصُّص مستحيلا. وخلافا للكثير من العلوم الطبيعية ظلَّ حقله يعيد ابتكار نفسه ويضع انحيازه للغرب موضع التساؤل، ويدفع مادة دراسته (وهذا لا يقلّ أهمية عن سواه) إلى أبعد من الأدب باتِّجاه الفلسفة، والموسيقى، والتاريخ، والعلوم السياسية، وعلم الاجتماع[35].

ومهما تكن القوّة التي حصل عليها علماء الاجتماع من المعطيات التي جمعوها فإنهم لم يكونوا مهيّئين لفهم المجتمع بوصفه كيانا تتواشج مكوِّناته المادِّيَّة، وعملياته الثقافية، وتصوراته الخيالية. وفي الملاحظات الأوَّليَّة التي وضعها سعيد لمادة تدريسية عن مدرسة فرانْكفُرت، سجَّل ما عدَّه موضوعاتِ أدورنو الكبرى. وقد برز منها موضوع «العلم، الحقيقة: تهديد بالقضاء على الفلسفة كلِّها». فقد أوحى ذلك الموضوع بأن العاملين في مجال الإنسانيّات يفهمون أكثر مما يفهم العاملون في العلوم أن «الحقائق» مؤطَّرة بنظرية اجتماعية شاملة تسهم اللغة والقيم والأفكار بنصيب فيها وتكتسب معناها ضمنها.

إن من أعمق ما جرى من تغييرات اجتماعية في القرن الحادي والعشرين – ألا وهو غزو الكتابة بالاتّصالات الرقمية – هو أيضا تغييرٌ لدى الإنسانيين العاملين في مجال الأدب والأدب المقارن الكثيرُ مما يقال عنه[36]. فالانتقال من الورق والحبر إلى شاشة مضاءة من خلفها كان معناه التخلّي عن ماديَّة النصّ، وعناء الجهد الممل المبذول لإنتاجه، والجهد الخيالي المطلوب من القرّاء للإمساك بالكتاب باليد من دون الاستعانة بالإحالات التي يتضمّنها النص إلى نصوص أخرى(*). لم تكن الرغبة في التمسُّك بالعالم الفكري الذي سمحت تكنولوجيا الكتابة القديمة به بينما كان للتخلّي عن ذلك نتائج كارثية على الملكات النقدية – تلك الرغبة لم تكن تقع في باب الحنين إلى الماضي. وقد ظلَّ سعيد يدافع عن الفكرة نفسها في مقالة إثر أخرى: التفكير التقدُّمي معناه الحفاظ على التراث، لا القضاء عليه.

***

لم تخضع دراسته التي نشرت بعد وفاته بعنوان «في الأسلوب المتأخِّر» للمراجعة أو لالتزام الحيطة في التعبير. ولذلك فإنها ربَّما كشفت عن تفكيره في أواخر حياته أكثر مما أراد. فقد مثَّلت أكثر من أي كتاب آخر من كتبه توازنا متساويا بين أحاسيسه الموسيقية والأدبية. وكان الكتاب قد أخذ منطلقاته من مقالةٍ شهيرةٍ كتبها أدورنو عن أعمال بيتهوفن الموسيقية المتأخِّرة (وتضمُّ هذه الأعمال القدّاس المعروف بعنوان Missa Solemnis، وأوبرا «فيديليو»، والسوناتات المتأخِّرة)، وأخذ على عاتقه مهمة عكس مصطلحاته بشيء من الغلظة على رغم ما عرف عنه من إعجاب بأدورنو. كانت الفكرة التي حاول أدورنو شرحها هي أن المؤلِّفين في الأسلوب المتأخِّر يشعرون بالحرية في استعمال التقاليد بدلا من الاستمرار في محاولة إثبات أصالتهم. أما سعيد فقد ركَّز، بالنظر إلى المرارة البطولية التي عاناها بعض الروائيين والموسيقيين الاستثنائيين، على الرغبة البروميثية في الإخلال بالتقاليد.

غير أن الكتاب زاخر بالتلميحات عن الموت الجسماني وكيفية تحويله العقول العظيمة إلى شهود لا حول لهم ولا قوَّة. كان مايزال، من دون أن يصل حدَّ القول

(*) يشير الكاتب إلى ما يدعى بالـ hypertext، ومثاله أن قارئ النص في الويكيبيديا مثلا سيجد كثيرا من العبارات المطبوعة باللون الأزرق التي يمكن للقارئ أن يعود إليها إن شاء لتوسيع معرفته بالموضوعات ذات الصلة. [المترجم].

إن روحه المتمرِّدة تهاوت عند باب الموت، مضطرّا إلى التفكير في الهوة الفاصلة بين الممكن والحتمي: «لقد مللت من السياسة»[37]. لقد بقي فيه قدر من عدم اليقين بشأن ما إذا كان قد فقد الدافع لتغيير العالم أو أنه مازال لديه من الشجاعة ما يكفي لأن يكون ضدّ نفسه، كما كتب عن جينيه. وعلى غرار الفنانين الذين يواجههم في كتاب «في الأسلوب المتأخِّر»، كان زاهدا بما يرافق التقدُّم في السن من لطف وتقدير رسمي. لكن التقاليد التي تمسَّك بها لم تكن تتعلَّق بالهدوء الرجعي بل بمادَّة للتنويع، كما في الموسيقى، من دون الالتزام بشكل مفروض مسبقا. كان يحبُّ التذكير بأن مصطلح inventio في الموسيقى لا يعني invention كما تفهم الكلمة عادة – أي ابتكار شيء من لا شيء - بل تعني التطوير الذي لا ينتهي إلى موتيف جرى اختياره.

وبما أن الأسلوب المتأخِّر بوصفه موضوعا متكرّرا يعود لسنوات التشخيص الذي أُجري لحالته (يبدأ ذكر هذا الأسلوب في ندوات دراسية قدَّمها في أوائل التسعينيات، ويكتسب شكلا كاملا في ثلاث محاضرات ألقيت في العام 1993)، فقد يبدو أنه صِيغ ليتوافق مع صليبه الشخصي[38]. وسيكون من المغري أن نخمِّن أنه كان بذلك يتقمَّص، في غمرة إبرازه لحركة درامية، شخصية مثل شخصية أوديب في كولونس الذي كان يعدُّه سكّانها شخصا مدنّسا (لأن أوديب كان قد قتل أباه وتزوَّج أمّه) دخل كولونس وهو أعمى بعد أن تعرَّض للأذى، كما عدّوه صادقا على نحو جارح، لاسيّما في صدقه مع نفسه.

نتبيَّن في النهاية عدم وجود تناظر حقيقي بين فكرة التأخُّر وموته القادم. ما حصل هو أن تحرُّكه نحو فكرة التأخُّر كان حتميّا من بعض النواحي بالنظر إلى تطوُّر المشكلات الفلسفية المتَّصلة بالبدايات والأواسط والنهايات، وهي المشكلات التي نظر فيها في كلِّ مرحلة من مراحل الحياة. ففي وقت سابق من سيرته المهنية كان قد دافع عن الفكرة المحافظة، فكرة الاستمرارية (فكرة ڤيكو القائلة إن الماضي يمكن أن يُعاد بطريقة أصيلة) مكتشفا فيها بديلا أساسيّا لما تصفه الحداثة بالانقطاعات المفترضة عن كلِّ شيء مضى. وعلى النحو نفسه قصد أن يجرِّد التأخُّر من الإحساس بالرضا، ولكن ليس في أواخر الحياة فقط. وقد كان قد نظر في مسألة التأخُّر في كتاب «البدايات» حيث ركَّز على الكاتب الذي «يأخذ في النظر إلى نفسه وهو يقترب من

نهاية سيرته المهنية، خاضعا لإغراء فكرة المضيّ قدما» حتى بعد أن تكون كتاباته «قد وصلت إلى خاتمتها»[39].

لم يكن سعيد في سن السابعة والستّين قد وصل إلى مرحلة الشيخوخة فيما هو يكتب الكتب والمحاضرات في سنته الأخيرة. ولذلك فإن شخصية أوديب في تصوّره في كتاب «في الأسلوب المتأخِّر» أو شخصية رِچَرد شتراوس (الذي توفِّي في سنّ الخامسة والثمانين) لم تكونا قريبتين من شخصيّته. ولئن افتقر تفكيره المتأخِّر إلى بعض ما في أقدم مقالاته من الجمال والدقَّة فإنه كان مايزال قادرا على هدهدة جمهوره فيما هو يحطِّم دفاعاته. فكما قال في إحدى مقالاته التي نشرها في «الأهرام»، «إن الشيء الجوهري في الأعمال العبقرية هو أنها تُخفي أو تحذف كلَّ آثار العناء الذي بُذل في صنعها»[40]. ولقد كان السهل الممتنع وسيلة كبرى من وسائل البلاغة منذ أمد بعيد. لكن هل كان الأسلوب كافيا؟ كان قلقا حول ما إذا كان مايزال لديه شيء يقوله، ملمِّحا لييتْس الذي استقبل الشيخوخة بالنظر إلى سيرة «اختزلت إلى دكّان ليس فيه سوى خِرَقٍ وعظام»[41]. ولم يكن قد نسي أنه رأى سارتر في العام 1979، واهنا لا يترك أي انطباع بالأهمية، يقوده تلاميذه من أنفه. وعلَّق على ذلك بحزن قائلا: «العظماء في شيخوختهم يغلب أن يخضعوا إما لألاعيب الشباب أو أن يقعوا في قبضة مُعْتَقَدٍ لا يقبل التعديل»[42]. ولئن كان يخضع لإغراء المديح كما كان دأبه، فإنه لن يذهب ضحية لتزمُّت المعتقد.

لم يكن ما أخذه سعيد من مقالة أدورنو القصيرة بعنوان «الأسلوب المتأخِّر عند بيتهوڤن» (1937) هو الفكرة بقدر ما هو العبارة: «الأسلوب المتأخِّر». لا بل كان سعيد حريصا على الإشارة إلى أنه يخالف مقولة أدورنو. والكتاب الذي وجد طريقه إلى النشر في نهاية المطاف بعنوان «في الأسلوب المتأخِّر» (2006) – وهو كتاب جمعه مايكل وود Michael Wood بمهارة من مسوّدات سعيد الجزئية للكتاب مع إضافات من محاضرات وكتابات لم تكتب لتضمَّ إليه – يجب أن ينظر إليه بوصفه نتاج عقدين من التفكير حول أدورنو وليس باعتباره تعليقا على مقالته عن بيتهوڤن نفسه. ولم يكن قد أخذ يدرس أدورنو دراسة جدِّيَّة إلا في أواخر السبعينيات، ولم يكن كتب أو تكلَّم كثيرا عن المفكِّر الألماني الكبير حتى العام 1984[43]. وفي خريف العام 1983 قدَّم ندوة دراسية خصص معظمها

لأدورنو إلى جانب أعمال وولتر بِنْجَمِن، وهربرت ماركوزه، ولوكاتش الذي سمّاه «معلِّمَهم وسَلَفَهم» كلَّهم[44].

وبما أن أدورنو كان واحدا من اثنين أو ثلاثة من أبعد فلاسفة القرن العشرين تأثيرا، فإنه شكّل تركيبة حيوية من الإستطيقا، والتحليل النفسي، وفلسفة المعرفة، وعلم الاجتماع التجريبي. وكان قد ارتبط منذ سن الرابعة والعشرين بمدرسة فرانكفُرْت، وكان قد طوَّر مع بعض المثقَّفين الماركسيين مركَّبا منهجيّا فريدا. وبعد العام 1932 ونشوء النازية انتقل المعهد إلى جامعة كولمبيا ومن ثمَّ إلى كاليفورنيا لمتابعة البحث قبل العودة إلى ألمانيا بعد الحرب. وفي سيل من الدراسات ذات الأهمية العالية والتي كُتِبَت بأسلوب فلسفي لا يلين، ولكنه أسلوب واضح، غاضب، يائس في بعض الأحيان، فضحوا الرأسمالية على أنها تشكِّل تهديدا للحرِّيَّة، والذوق، والأخلاق، والفكر. وبيَّنوا أن الصانعين المغفَّلين للسياسة الأمريكية تبنوا المذهب العلمي على نحو كارثي حتى بينما كانت الثقافة الجماهيرية تتابع سياسة النازيين في أثناء الحرب العالمية الثانية في السيطرة على العقول عن طريق تسلية المواطنين إلى درجة الموت الفكري والعاطفي.

كان أدورنو هو الناقد غير العادي في حقل يسوده المشتغلون بالإستطيقا والموسيقى، الذين أجروا موازنات بين مؤلَّفات باخ ذات الطبيعة الرياضية ومكننة العقل البرجوازي[45]. وقد تحدَّث سعيد من وجهة نظر أدورنية عندما دعا المتروبولِتَن أوبرا «قلعة المصلحة التي لم تحسم بين الإستطيقا والتجارة»[46]. ولربما كان سعيد بالغ القسوة على شتراوس في كتاب «في الأسلوب المتأخِّر»، لكن أدورنو كان أقسى، فقد أتَّهم أعماله الأخيرة بأنها مثل «سوق العالم» الملاصق للفندق الكبير: «كلُّ شيء معروض للفرجة والبيع، كلّ شيء في مكانه»[47]. لكن سعيد وجد أن أدورنو يبالغ في نقده لشتراوس وأرتورو توسكانيني الذي نفض أدورنو يده منه بقوله «إنه نتيجة خلل في الرأسمالية المتأخِّرة، وليست قدرته» سوى محاكاة متعسِّفة لخط الإنتاج. أما سعيد فقد خالفه ومدح توسكانيني لأنه خلَّص الحفلات الموسيقية من مختاراتها التقليدية وميوعتها العاطفية[48]. ولكنه تابع أدورنو عن كثب عندما صبَّ جامَّ غضبه على الجوانب الأقبح من عروض عازفي البيانو المشهورين (كثيرا ما عبَّر عن ذلك الغضب على مافيا

عازفي البيانو في نيويورك، ومنهم ڤلاديمير أشكنازي)، والسلطات التي تكيِّف سوق الموسيقى الكلاسيكية على هواها. وكان أدورنو قد وضع دراسة تأليف الموسيقى، وإنتاجها، وإعادة إنتاجها، واستهلاكها على قدم المساواة للمرَّة الأولى، وهذا ما رحَّب به سعيد أيما ترحيب ودرسه عن كثب.

غير أن سعيد لم يجعل من أدورنو صنما يُعبَد ولا عبد أيّا من أبطاله المفكِّرين. فقد أزعجه تشاؤم أدورنو: «يحقن الماركسية بعقار يصيبها بالكساح»(49). وصف أدورنو بالبلاغة عند الغوص في حلم مزعج لمجتمع من المجتمعات حيث تحوَّلت العلاقات الإنسانية كلها إلى تعاملات مالية، ولكن أوصافه لعبقرية السوق الشرّيرة لا تترك مجالا للكفاح الشعبي أو لمصادر الأمل. ثم أضاف: قول «لا» لكلِّ شيء يجعل التأخُّر خلوا مما يثير الاهتمام: لا بدّ من وجود عنصر بنّاء. ولقد أزاح سعيد قدرا كبيرا من أفضل كتابات أدورنو لذلك السبب، أما أدورنو الذي راق له فكان المنظِّر الموسيقي ومؤلِّف تلك المجموعة المعذَّبة من المقاطع من السيرة الذاتية التي كتبها بعد الحرب بعنوان Minima Moralia (كتاب الأخلاق الصغير).

كان من المتوقَّع إذن أن يكون المدح السابق الذي أسبغه سعيد على أدورنو (في «تفصيلات موسيقية» على سبيل المثال) مدحا يخلو من طيب الخاطر. وكان من رأيه أن كتابات أدورنو التي سبقت وأعقبت الحرب العالمية الثانية كانت جيِّدة بالفعل – يقصد دراسته الشهيرة عن «صناعة الثقافة» بالاشتراك مع زميله في مدرسة فرانكفُرت ماكس هوركهايمر Max Horkheimer، إلى جانب «فلسفة الموسيقى الجديدة» The Philosophy of New Music و«كتاب الأخلاق الصغير». ويكاد يكون في حكم المؤكَّد أنه لم يقرأ الكتابين اللذين يرى كثيرون أنهما ذروة تفكير أدورنو: «النظرية الإستطيقية» (1970) Aesthetic Theory و«الجدلية السلبية» (1966) Negative Dialectics، أو أنه لم يقرأهما بتمعُّن. والنتيجة هي أنه اختزل المساحة التي شغلتها اهتمامات أدورنو، وقال إنه كان فيلسوفا «انصبَّ اهتمامه على الموسيقى بالدرجة الأولى»، إذا تجاهلنا دراسته لكيركغور، والتلفزيون، وهايدغر، والأدب الألماني وعدد كبير من الموضوعات الأخرى(50). لقد كان أدورنو شديد الانتقاد لموسيقى الجاز، وصناعة الموسيقى

الشعبية، وشكَّل لعنة على الموسيقيين الفوكلوريين من أمثال ستراڤنسكي Stravinsky، وبارتُك Bartok، وسْمِتَنا Smetana، ووضع مؤلَّفات موسيقية هو نفسه بالأسلوب الجديد في ڤيينا الذي مثَّلته مدرسة أرنولد شونبيرغ ذات النغمات الاثنتي عشرة. وقد حرص سعيد على استيعاب الرسالة الأساسية كما رآها لنظرية أدورنو الموسيقية: «شكل البضاعة يسود الحياة الموسيقية كلَّها» – أي إن الرأسمالية بتحويلها كلّ شيء إلى بضاعة يجد المرء نفسه مستعدّا لدفع ثمنها لم تَسْتَثْنِ الموسيقى، وحطَّمت بذلك استقلالها وتعاليها[51]. وفي الوقت نفسه ابتعد سعيد عن كلِّ شيءٍ تُشتمُّ منه رائحة التراث الهيغلي - لكن ذلك التراث كان لمعظم قرّائه هو أدورنو بقضِّه وقضيضه وقد مرَّ من بوّابة النقد.

كان سعيد إذن يعيد النظر في تأمُّلات أدورنو عن الأسلوب المتأخِّر، بل يعرِّضها للمساءلة. كيف يمكن للمرء أن يفسِّر تحولات كبار الموسيقيين في الأسلوب في أواخر حياتهم المهنية؟ لا يمكن أن يجري هذا من وجهة نظر أدورنو بالعودة الرخيصة لعلم النفس واختزال القطعة الموسيقية لتكون تعبيرا عن الشخص على رغم أن إغراء هذا الإجراء أمر يسهل فهمه. فالنغمة الهائمة التي تكاد تنتمي إلى العالم المثالي لسوناتات بيتهوڤن الأخيرة – وهي أعمال تختلف اختلافا كلّيّا عن الألعاب النارية التي نجدها في السمفونية البطولية (الثالثة) على سبيل المثال – يمكن رؤيتها حينئذٍ كأنها إشارة إلى هدوء التقدُّم في السن واستسلامه[52]. ولكن ذلك يحرم الفن من حقه في أن يكون أكثر من مجرَّد ملحق بسيرة المؤلِّف.

من وجهة النظر النفسية سيكون من الطبيعي للموسيقيِّ الناضج إن كان من العباقرة أن يضاعف تمرُّده السابق، وأن يلغي كلّ التقاليد القديمة بحثا عن لغة جديدة. أما بيتهوڤن فقد فعل العكس، وملأ مؤلَّفاته المتأخِّرة «بصيغٍ وعبارات تقليدية» لا ضرورة لها، وتجميلات إضافية لا هدف لها[53]. وبعد أن ظل يبتكر طوال حياته فإنه انتهى بكبح رغبته والخضوع لقوانين الشكل المستقرَّة. وبذا انتهى العمل الفني باستعادة مكانته بصفته تمرُّدا على الواقع وليس بصفته خادما لذلك الواقع. إن الأسلوب المتأخِّر لا يتعلَّق بالعمر على الإطلاق في نظر أدورنو إلا من حيث إن الفنان يحتاج إلى وقتٍ طويل ليفهم استقلال الشكل الإستطيقي عن الواقع وعدم اكتراثه به.

لقد كان تأكيد سعيد على ما هو أرضي وما هو من عالمنا هذا أبعد ما يكون عن وجهة نظر أدورنو، تماما مثلما كان فهمه للأسلوب المتأخِّر مفهوما لا ينفصل عن النفس البشرية. ففي مراجعته لكتاب مَيْنَرد سولومُن Maynard Solomon «المرحلة الأخيرة من حياة بيتهوڤن» Late Beethoven (2003) رحَّب سعيد أشدَّ الترحيب بعادات كاتب السيرة التي انتقدها أدورنو بشدَّة. فقد وُجِّه كل ُ شيء لاستقصاء «المحاولات الخاصّة» في الأعمال المتأخِّرة «وعدم استقرارها»، فضلا عن متابعة تحول بيتهوڤن المقلق من حالة الانفتاح إلى حالة الانغلاق على الذات. إذ لم تكن الأعمال المتأخِّرة التي كتبها «الأستاذ»، كما قد نتوقَّع (وكما يعتقد أدورنو) درسا جرى إتقانه أخيرا، بل كان تنازلا وهروبا من الواجبات الضرورية التي يقنعنا التقدُّم في السن بعدم التنطُّع لها. إن أعمال بيتهوڤن المتأخرة معقَّدة، ملتوية، غريبة الأطوار بسبب خيبة الظنّ العميقة والانطواء: بسبب رفضه – كما يقول سعيد مقتبسا كلام الشاعر اليوناني السكندري كاڤافي – لـ «الالتحام المباشر مع زمانه»[54].

كان كاڤافي قد أخذ ينافس هوپكنز في المرحلة المتأخِّرة من حياة سعيد ليكون الشاعر الذي يعتمد عليه للتعبير عن عواطفه الخبيئة. فقد أخذ يقرأ أشعاره على مدى ساعات بصوت عالٍ لمريم بعد وجبة العشاء، وإن لم يكن كاڤافي، فهو ويردزويرث. ذلك أن شعر كاڤافي الذي يخلو من الكنايات، والذي يكاد يكون نثرا بلا قوافٍ (وفق تعبيره) أسره بقدرته على رسم العالم الهليني، عالم المدينة في الأغلب (ولاسيما الإسكندرية) في خلفية كلاسيكية تتجاهل العالم العربي من حولها. ومما له مغزاه أن سعيد دعا هذا الفن «إستطيقا عدم الإنتاج» – السيطرة على إغراءات الرثاء من أجل رؤية الواقع كما هو. ومن الواضح أن سعيد وجد في كاڤافي مشاعر كان هو يهرب منها في حياته الفعلية – ذلك «الهدوء الصامت» في مواجهة عالمٍ خيّب الأمل لم يكن التصالح معه أو علاجه ممكنا، عالمٍ كان البقاء فيه هو الانتصار الوحيد. وعندما جاء الوقت لإحياء ذكرى سعيد، قالت أخته جين إن عليهم أن يقرأوا قصيدة من قصائد هوپكنز. ولكن مريم التي كانت تعرف ما لم يكن أحد غيرها يعرفه – ولعه في أواخر حياته بالشاعر السكندري – أصرَّت على أن يقع الاختيار على كاڤافي. وفي النهاية قرأت نجلا قصيدته «في انتظار البرابرة»، وهي صورة جارحة للمواطنين وهم يهربون من الساحة العامَّة

بعد أن ملّوا من الخطابة، متنازلين عن حقٍّ مواجهة الحكّام بسبب التهديد المتمثِّل في عدوٍّ خارجي لا يأتي أبدا.

كان الشعور المهيمن على موقف سعيد من أدورنو شعور الراغب في تغييره. وقد اتَّفق الاثنان حول هذه المسألة. ولكن سعيد عاد المرَّة تلو المرَّة إلى تلك الفكرة، الغائبة عند أدورنو، وهي أن الأعمال المتأخِّرة لم تكن مجرَّد أعمالٍ قلقة، مريرة، أو قصد منها ألا تكون ممتعة (أوحى أدورنو أن هذه الصفات أشبه بجلدات السيِّد الممسك بالسيطرة الكاملة مبقيا الجمهور في حالة توتُّر مستمر)، بل هي «متقطِّعة، مجزَّأة، غير نهائية» تملأها «نهايات صعبة، كثيرا ما تكون محيِّرة وغير مُرضية» – وهذا هو التعريف الذي أعطاه سعيد للأسلوب المتأخِّر في كتابه عن فرويد في العام 2003[55]. وباختصار، ينتقل التركيز من ذلك الذي يُقصَد منه أن يكون منفِّرا إلى ذلك الذي لم يُبَتّ فيه.

من الواضح أن سعيد كان يصارع سيرته الشخصية (وحالته النفسية) مع أن ذلك ليس على النحو الذي قد نتوقّعه. فهو يعطينا في المقابلة التي أجريت معه في العام 2003 بعنوان «السفر مع كونراد» Traveling with Conrad على سبيل المثال صورة أقرب إلى السلبية من ذلك الروائي. ومع أنه يتماهى مع الشعور بعدم الثقة عند كونراد، فقد لاحظ أن الأسلوب المتأخِّر عند ذلك المؤلِّف كان مع الأسف «ممتلئا بالذكريات... والاقتباسات المأخوذة عن كتابات سابقة». ومع أن كونراد نال مكانة عالية في أواخر حياته، فقد ظلَّ يتلبَّسه الخوف من أن رواياته غدت عاديَّة، وأنه قد انحدر إلى نوع من الأسلوب المتكرِّر[56]. وقد فهم سعيد أن ذلك أقرب إلى التحذير، وربما كان ذلك نتيجة لما كان قد بحثه في السابق على نحو صريح في مقالته المهملة بعنوان «عمل أكثر من اللازم» Too Much Work (1999) – وهو عنوان فيه تورية تلمِّح إلى خطر إضافة كتابات أكثر من اللازم لعدد أكثر من اللازم من الأعمال المنجزة. إذ إن العباقرة الكبار الذين يلهمون سواهم بكتابة سيرهم يعرفون «بمواهبهم التي تفوق الخيال والتي تمكِّنهم من الخلق»، وبتمتُّعهم بصفات سماوية أكثر منها إنسانية. ومع ذلك، فإذا ما فحصت حيواتهم بتفاصيلها اليومية - «مشكلات الحياة الزوجية، الأسنان الخربة وأطبّاء الأسنان الملاعين، المشكلات المالية.. إلخ» – «فإن الصورة

التي نحصل عليها صورة عادية تخيّب الظن». كان موتسارت، من بين أمور أخرى، كثير التملّق للحكّام، وكان آينشتاين عازفا غير متميّز للكمان ومعلّما مملّا، وكان غوته إداريّا مملّا في دوقية ڤايمار الصغيرة. فإلى جانب المواهب «ذات الثراء الذي لا ينضب» لاحق الابتذال عبقرياتهم أينما ذهبوا.

الكتاب كلُّه أريد منه أن يضع اليأس والتعب وكراهية البشر تحت المجهر. لقد أراد أن يرى عمالقة الفكر الذين انصاعوا في أواخر حياتهم للإغراءات التي كان يشعر بها هو نفسه، والتي كان مصمِّما على أن يخترق طريقه فيها[57]. كان شيء من ذلك التصميم المتجهِّم، فضلا عن المكان المركزي لأدورنو في دراسته، باديا للعيان في مقابلة نشرتها جريدة هآرتس أجراها معه الصحافي الإسرائيلي أري شاڤت في العام 2000، حيث قال: «أنا آخر مثقف يهودي. أنت لا تعرف أيَّ مثقَّف آخر. كلُّ مثقَّفيك اليهود هم الآن سادة يعيشون في الضواحي.. أنا آخرهم. أنا التابع الصادق الوحيد لأدورنو»[58]. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يستعمل فيها تلك الصورة. ففي ندوة عقدتها مجموعة من اليهود التقدُّميّين في أحد المؤتمرات نظّمتها مجلة تيكون Tikkun في شهر أكتوبر من العام 1988، دعا أحد المشاركين في الندوة اسمه مايكل والتسر، الحاضرين، بحجَّة الحفاظ على الهدوء، إلى أن ينسوا التاريخ للمضي في موضوع الندوة. لكن امرأة اسمها هِلْدا سلڤرمان تكلّمت من موقعها في القاعة وقالت إنها مرتبكة: «السبب الكلّي لكوننا يهودا هو التاريخ. والعبارة القائلة «لن يتكرَّر ذلك أبدا» هي كلمة السرّ بيننا ـ وها أنت تقول للفلسطينيين أن ينسوا التاريخ؟» في تلك اللحظة استجاب سعيد لسؤالها وأخذ المايكروفون بيده وقال: «اسمحي لي أن أكون آخر مثقَّف يهودي»[59].

وفي رسالة أرسلها الصحافي الراديكالي إ. ف. ستون I. F. Stone لسعيد في العام 1978 وضع ستون إصبعه على واحدٍ على الأقلّ من الأسباب التي استثارته. وفيها أوضح ستون ما كان سعيد يعرفه تمامٍ المعرفة، ألا وهو أن عبء معاداة السامية قد انتقل من اليهود إلى العرب في العالم الغربي الحديث. وفي معرض مدحه لمقالة حديثة لسعيد نشرتها مجلة «نْيو سْتَيْتْسْمَن» New Statesman عبَّر ستون عن إعجابه بقدرة سعيد على «تأكيد المواهب والقيمة العظيمة لشعبك المضطهد والمنبوذ»، ثم استنتج الآتي: «لقد أصبح شعبُك الشعبَ «اليهوديَّ» المرهف الإحساس، وشعبي هو «الغوييم» (الأغيار)»[60].

أما وديع فقد فسَّر حركة أبيه تفسيرا مختلفا إلى حدٍّ ما. فمما له مغزاه أن المقابلة مع شاڤِت أُجريت قبيل الانتفاضة الثانية و«الحرب على الإرهاب» التي تلت 11 سبتمبر، وهي فترة كانت كل التخمينات فيها قد فشلت، وصار من المؤكَّد أن إسرائيل سترسخ احتلالها من دون الخوف من ردود الفعل. وفي حركة دفاعية من جانب شاڤِت شعر بأنه قد خسر الموقف في المقابلة، ولذلك فإنه لجأ إلى أساليب التلميح والمراوغة، فغضب سعيد، ونظر إلى محدِّثه نظرة قدَّر فيها أبعاد شخصيَّته، وفكَّر: «تأمَّل نفسك. أنت تدَّعي أنك تمثِّل شعبا وحضارة، ولكنك لا تفهم الوضع أبدا. أنت لا تفهم معنى أن تكون مثقَّفا يهوديّا، يهوديّا ملتزما بانتمائك إلى هذا العالم والعدالة الشاملة. قد تكون لديك الأسلحة والمصادر الضرورية، ولكنك خاسرٌ من الناحية الفكرية والأخلاقية، ولم يبقَ سوى السؤال عن الوقت الذي سيدرك الآخرون فيه حقيقة الوضع»[61].

لذلك يبدو أن جانبا كبيرا من الكتاب أخذ بداياته من الفصل المخصَّص لجان جينيه حيث يصف قدرة جينيه على الحب، والعاطفة الجياشة، والتمرُّد بأنها الصلابة في مواجهة اليأس. ففي الفصل المخصَّص لموتسارت مثلا، يأسف سعيد لأن الموسيقار اتَّخذ موقفا يثبِّط العزيمة من الطبيعة البشرية، وهو الموقف الذي يكشف عنه عنوان الأوپرا Cosi fan tutte - «كلُّهن يفعلن ذلك»، أي يخدعن عشاقهن ويَخُنَّ أصدقاءهن[62]. وهذا يعني أن مرح موتسارت كان يخفي عتمة مقيمة، وأن نظامه المغلق المكوَّن من الألحان والمحاكاة الساخرة التي تكسو حبكة تكشف عن خواء شخصيّاتها وشوقها الذي لا يُبَلّ. كان نظام موتسارت نظاما ثابتا تسوده السخرية المريرة انتقده سعيد بشكل غير مباشر بوصفه نظاما يصعب قبوله أخلاقيّا وسياسيّا مثلما كان الأمر مع رچرد شتراوس (كما يتبين من الفصل الخاصّ به في كتاب «في الأسلوب المتأخِّر») الذي سعى في أعماله المتأخِّرة في أواسط القرن العشرين إلى العودة للقرن الثامن عشر بتأليف «مركَّبات حلوة» رجعية عرض فيها هارمونيات نغمية، وتباهى بمواهبه التي تمكِّنه من الانسحاب من عالم القضايا الإنسانية.

لربَّما كان أوضح امتحانات الثقة التي تحمَّلها سعيد في أثناء اشتغاله على الكتاب هو ذلك الذي صادفه في الفصل المسمّى «النظام القديم الذي يرفض الزوال» Lingering Old Order عن الفلم الذي أعدّه لوكينو ڤسكونتي

Luchino Visconti استنادا إلى رواية جوسيبي تومازي دي لامپدوزا Giuseppe Tomasi di Lampedusa بعنوان «الفهد» The Leopard. وكان لامپدوزا على غرار الشخصية الرئيسة في روايته، أرستقراطيّا صقلّيا، وجزءا أساسيّا من ذلك التراث المادّي الإيطالي الذي وجده سعيد لدى كلٍّ من غرامشي، وڤيكو، وغوبتي. وكان لامپدوزا بالإضافة إلى ذلك قد عبَّر تعبيرا جميلا عن ذلك المزيج الذي جمع تفسُّخ العالم القديم، والكِبْر العنيد لدى شعبٍ مستعمَر، ومأساة كونه مضى زمنه، وهو ما ذكَّره بالعذاب العربي في أمريكا القرن الحادي والعشرين. فالصقلّيّون خلطوا بين القِدَم والعَظَمة: «احتملنا على مدى خمسة وعشرين قرنا عبء حضارة رائعة متعددة الأصول أتت كلُّها من الخارج، لم يكن أيٌّ منها من صنعنا... على مدى ألفين وخمسمائة سنة بقينا مستعمرة... لقد تعبنا ونال النَّصَب منّا»[63].

في أحد المشاهد، يستقبل دون فابريتسيو المالك المتكبِّر الضَّجِر لأراضٍ ريفية أصابها البلى مبعوثا من حكومة تورين يبحث عن زعماء العائلات العريقة للدخول في البرلمان بهدف إضفاء الشرعية على النظام الجديد. يرفض الأمير عرض المقعد في مجلس الشيوخ بكلمات لا بدَّ أنها ذكَّرت سعيد بالوقت الذي قضاه في خدمة المجلس الوطني الفلسطيني: «أنا أنتمي إلى جيل سيّئ الحظ يقف فوق عالمين، ولا يشعر بالراحة في أيٍّ منهما... ماذا تفعل الحكومة بمشرِّعٍ لا تجربة لديه ولا يملك موهبة خداع النفس، تلك الخصلة الضرورية لأولئك الذين يرغبون في قيادة الآخرين؟ لا، لا أستطيع أن أرفع أصبعا في السياسة. سيقضمونها إن رفعتها... الصقلّيّون لا يريدون أن تتحسَّن أوضاعهم. يظنّون أنهم وصلوا إلى مرحلة الكمال. كبرياؤهم أعظم من تعاستهم»[64]. كانت ومضات من هذه النظرة هي ما يحسُّ به فعلا بعد أن صار على درايةٍ من عذاب أوسلو بالحقيقة المريحة القائلة إن السياسة القذرة يستحسن تركها للعقول الصغيرة. وما كان بوسعه أن ينكر، على رغم أنه أراد أن ينكر، دقَّة الصورة التي رسمها دون فابريتسيو للعبث، وقد أسرَّ لأولئك الذين كانوا سيقرأون ما كتب قائلا: «ثمة شيءٌ خاصٌّ جدّا بانتظاركم»[65]. ولكن لامپدوزا، كما في حالة كڤافي، كان قد ذاق تشاؤما لم يشعر به سعيد، وهو شعور كمن خطره في كونه مغريا في لحظات الضعف.

عبَّر سعيد في مراسلات حميمة مع كنزابورو أوي قبل وفاته عن شكوك لم يعبِّر عنها في السابق لأحد: «ما لم يدركه معظم قرّاء ڤيكو هو نظرته المتشائمة... فبغضِّ النظر عن كل الجهود التي قد نبذلها فإننا أسرى ليس لعقولنا فقط، بل لمواقفنا، لزماننا... الروائي المفضَّل عندي، جوزف كونراد، عبَّر عن ذلك تعبيرا بليغا: نعيش، مثلما نحلم، وحدنا»[66]. أما أوي فقد أزاح استسلام سعيد للسوداوية جانبا، وذكَّره كما فعلت گوردمر قبله بأنهما نظرا إليه للمقاومة والصمود، وذكَّره بأنه كان في الماضي قد قارنه بسيمون ڤَي Simone Weil عندما فكّرت في موضوع الموت في لندن في العام 1945، وعلى غرار ڤَي لم يخضع لإغرائه[67]. وقد كانت مختارات من مقالات سعيد السياسية قد تُرجمت في اليابان وظهرت بعنوان «الدعاية والحرب» Propaganda and War – وهو عنوان أصرح من العنوان الأمريكي المقابل، ويعطي لمحة عن كيفية النظر إليه في الخارج. وفي غمرة مراسلاتهما المضطربة تحدَّث الاثنان عن خطط لمقاومة ما دعاه أوي بالإمبرياليتين الثقافيَّتين المتّحدتين لكل من أمريكا واليابان. وفي غمرة بحث كلٍّ منهما عن العزاء لدى الآخر، طمأن سعيد صديقه أوي بملاحظة تقول إنه بغض النظر عن ضعف أسلحة اللغة والصور الأدبية في مواجهة العدوان العسكري، فإنهما على الأقلّ «من الأمور الأساسية في كفاح المواطنة الديمقراطية كلِّه»[68].

هذه النغمة التشجيعية بدا أنها بمنزلة التقريع لأدورنو الذي أخذ سعيد يرى فيه عقلية تنتمي إلى أواخر القرن التاسع عشر لكنها نُفِيَت بالمصادفة إلى القرن العشرين. ومع أن سعيد شابه أدورنو في كثير من رومانسيته التي فقدت أوهامها فإنه أحسَّ بـأن الوقت حان لكبح تعلُّقه بمفكِّر اتَّخذ انتقامه الحقيقي الوحيد من روح العصر شكل الإهانات الموجّهة ضدّه. كان يعرف أنه لن يكسب، ليس فقط لأن القوى السياسية العالمية تحزَّبت ضدّه ولكن أيضا بسبب الجماهير التي وجدت أن البراهين لم تكن كافية للإقناع. واستنتج أنه سيهزم بسبب القوة الفائقة التي تملكها الأكاذيب التي تتكرَّر من دون توقُّف. لكنه كان مسكونا أيضا بالحقائق الحداثية التي تطلُّ عليه من فوق الكتف، حقائق الجدب والأحلام المحطَّمة. كان النص قد كُتب، وأغلب الظن أن النهاية ستكون سيئة.

لم يكن في وسعه قبول أولئك الذين أخذوا دروسهم مباشرة من رواية «جود المجهول» Jude the Obscure لهاردي Hardy أو رواية «نوسترومو» Nostromo

لكونراد. ففي رسالة كتبها لشخص تمنّى له السلامة رفض أن يغيِّر موقفه: «أخشى أنني لا أوافق على أن الموقف ميؤوس منه. حيث يتعلَّق الأمر بالقسوة والظلم يكون اليأس خضوعا، وهو شيء أرى أنه غير أخلاقي»[69]. وقبل وفاته بوقت قصير عبَّر جون بيرغر John Berger عن أسفه لأن هذا «الإنسان العالمي الثوري» الذي وقف حياته لقضية الدولة الفلسطينية فشل في تحريك المؤشّر كثيرا[70]. وعلى رغم كل جاذبيته الشخصية وكثرة أسلحته الفكرية والأخلاقية فقد بدا أن الهدف السياسي المركزي لحياته ظلّ بعيدا كما كان منذ البداية.

أما صديقه القديم أندريه شارون فقد رأى العكس تماما، وتأمَّل في مقدار التغيُّر الذي حدث للعالم على يديه. فبدلا من أن يندمج في الحياة الأمريكية غيَّر أمريكا لتندمج فيه، أو جانبا مهمّا من مثقَّفيها على الأقل، موجدا بذلك رأيا مخالفا له مُثُلُه العليا للطبقات المهنية، وحيث يسود شعور عام بمناهضة الإمبريالية، وحيث لا تكون السلطة ذات التعددية الثقافية بالندرة التي كانت سائدة في السابق، وحيث تكون قوّة الثقافة والكفاح السياسي صيغة مقبولة من الحقائق. وقد داعبه أصدقاؤه بقوله: «لا أعلم ما الذي تحارب من أجله... فقد كسبت المعركة»[71]. لربما كان سيجد طريقة لكسبها ثانية في عصر تْرَمْپ. ومع ذلك فإن كلمات بلاكمر Blackmur التي لا شك في أنه تذكَّرها كانت تثير قلقه: «العصر القادم قد لا يكون مثقَّفا بأيِّ معنى نفهمه»[72].

***

عند العودة إلى ما حدث، نجد أن الجدل الذي دار حول وثائق السفر التي كانت معه في مطار فارو (في البرتغال) في أغسطس من العام 2003 كان لا ينبئ بالخير. ففي آخر سبتمبر كان سعيد قد توفّي. وقد جعل قرب الحادثتين أصدقاءه يذهبون للبحث عن أجوبة. وانتشرت بينهم أسطورة – صدَّقها سونِنْبيرغ - تقول إن سعيد كان مهملا أكثر من اللازم عندما غامر بالسباحة مساء في المحيط الأطلسي على رغم ضعف المناعة عنده[73]. ولو لم يكن على تلك الدرجة من التهوُّر فلربما عاش سنوات أخرى. أما الحقيقة فكانت تختلف. فمع أن الأورام الناتجة عن اللوكيميا مرض قابل للمعالجة فإنه لسوء حظِّه وقع ضمن مجموعة تعاني مضاعفات تُعرف باسم أعراض رختر. في هذه الحالات تتضاعف اللوكيميا وتنتشر على شكل أورام

لمفاوية سريعة النمو. وقد شكَ راي أن تلك كانت حالته قبل السفر، ولكنه أراد ألا يزيد همومه بإطلاعه على الخبر القائل إنه لم يبق له من العمر سوى أسابيع قليلة. وقد أكَّد تشريح الجثَّة صحَّة تشخيص راي.

في الأسابيع التي تلت عودة سعيد من البرتغال أخذ يتَّصل بالأصدقاء وطلبته السابقين ليحثَّهم على الردّ على إساءات هِچِنز في المقالة التي نشرها في مجلَّة «أتْلانْتِك منْثْلي» عن كتاب «الاستشراق». وكان الفصل الدراسي الجديد قد بدأ من فوره، وكان عليه أن يُعِدَّ نفسه لمحاضرة مهمِّة في الخارج، وهذا يعني أنه كان لديه الكثير مما يتطلَّب العمل. وبما أنه عاد وهو يعاني الحمّى يوم الأحد المصادف 21 سبتمبر، فإنه قال لمريم إنه يشعر بالتحسُّن، وإنه سيقضي اليوم في كتابة مقدِّمة كتاب «من أوسلو إلى العراق». غير أن نجلا شعرت يوم الاثنين بأن شيئا خطيرا قد حدث. وبالنظر إليه في أرجاء الشقة أحسّت أنه لم يعد بكامل وعيه. كذلك لاحظ وديع وزوجته جَنِفَر اللذين كانا يسكنان على مقربة من شقة سعيد الشيء نفسه، فاتّصلا بمريم في مقرّ عملها ثم اتّصلا بكانتي بسرعة فيما كانت مريم تدخل البيت. طلب الدكتور منهم ألا يستسلموا للخوف، وألا يستعجلوا، فعمل وديع ومريم على مساعدته لارتداء ملابسه على مهل لأنه لم يعد قادرا على الوقوف أو المشي، وساعداه على الجلوس على الأريكة قبل اصطحابه إلى الأسفل لتأخذه السيّارة إلى المركز الصحّي اليهودي في لونغ آيلَنْد في السابعة والنصف مساء. وفي الطريق إلى هناك ضغطت مريم على يده يساورها القلق، ففعل هو الشيء نفسه، وكان مايزال يحتفظ بوعيه، لتهدئة أعصابها.

كان بوسعهم أن يروا في غرفة الطوارئ أن وضعه خطير. كان وجه راي مكفهرًا. أخذوه مباشرة إلى غرفة العناية المركَّزة، وسمح بزيارته في المساء ـ ولكنه كان في غيبوبة يومي الثلاثاء والأربعاء. وفي عصر يوم الأربعاء اجتمع راي بأفراد العائلة ليقول لهم إنه لم يعد هنالك من أمل. كان قد أُصيب بعدوى فيروسية وبكتيرية ملأت رئتيه، وسيكون قد توفي مع حلول الصباح. وطلب منهم عدم البقاء حتى آخر لحظة. فالآلات الموجودة في غرفة العناية المركَّزة ترسل إشارة حادّة عندما يتوقَّف قلب المريض عن العمل، وبما أن ذلك قد يسبب صدمة لأهل المريض فإنهم لا يسمح لهم بالدخول إلى الغرفة. وكانت غريس، أخت سعيد، قد حضرت من

واشنطن، والتحقت بالآخرين حول السرير للوداع. ومع حلول الساعة السابعة مساء لم تعد نجلا تحتمل الموقف – مراقبة التنفس الصعب مع التحديق بالمؤشّر لترى إن كانت دقّات القلب صارت أقوى. قبَّلته هي ومريم قبلة الوداع وغادرتا معا. أما غريس ووديع وجنفر فقد بقوا لساعة أخرى إلى أن أقنعهم كانتي بالمغادرة. وفي صباح يوم الخميس المصادف 25 سبتمبر تلقّت مريم في الساعة 5:40 صباحا مكالمة أُخبِرتْ فيها أنه توفي منذ دقائق.

اختار سعيد ألّا يدفن في فلسطين. فالرمزية السياسية لحياته جعلت تدنيس قبره احتمالا مؤسفا. واختار بدلا من ذلك - بالاعتماد على صلات عائلة مريم - أن يُدفن في مقبرة صغيرة تعود إلى طائفة الكويكرز تقع على سفح تلة معشوشبة شديدة الانحدار تحفّها الأشجار في برمّانا، في لبنان. وهناك تستند الرخامة السوداء البسيطة، وقد كتب عليه اسمه باللغة الإنگليزية ثم بالعربية تحته. والبقعة التي يحتلها قبره تنزوي بعيدا مثل المقبرة نفسها عن العالم، كأنها هُرّبت تهريبا بطريقة لا تتناسب أبدا مع حياة كحياته، باستثناء أن علائم الحداثة آخذة بتشويه الروعة العامة للوادي. هناك أخذت البنايات العالية تتنافس مع أشجار الأرز لتشكل حدود المثلث الأخضر الذي تقع فيه المقبرة، التي تبدو أكبر بكثير من عدد الكويكرز الذين دفنوا فيها. ومع أنها تتجه جنوبا باتِّجاه فلسطين وتنظر نحو الأسفل باتّجاه سلسلة من الجبال التي تعلو فوق بيروت فإن مكان الراحة الأبدية لا يبدو أنه المكان الصحيح.



ملحق الصور


Withe



(1) القاهرة في العام 1954 (من شوارع مصر)



(2) الصورة المرفقة مع طلب الالتحاق
بمدرسة ماونت هيرمن
(من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



(3) سعيد شابّا في القاهرة
(من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



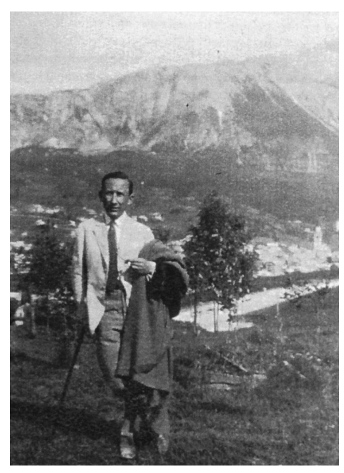
(4) ضهور الشوير تطلّ من الشمال الشرقي باتِّجاه جبل صنّين (صورة التقطها مؤلِّف الكتاب)



(5) مصغيا لوالده (من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



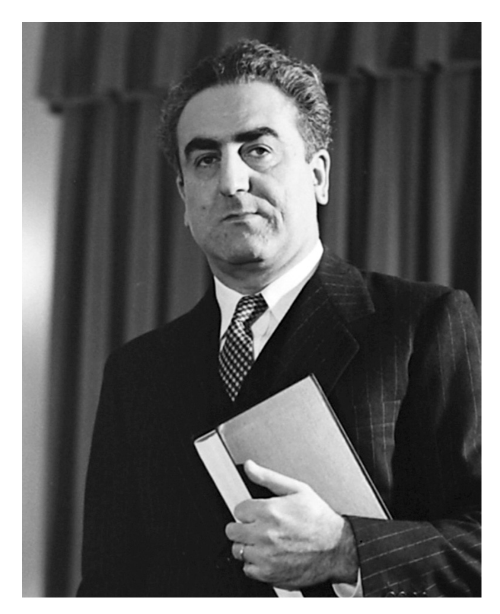
(6) العمَّة ميليا (من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



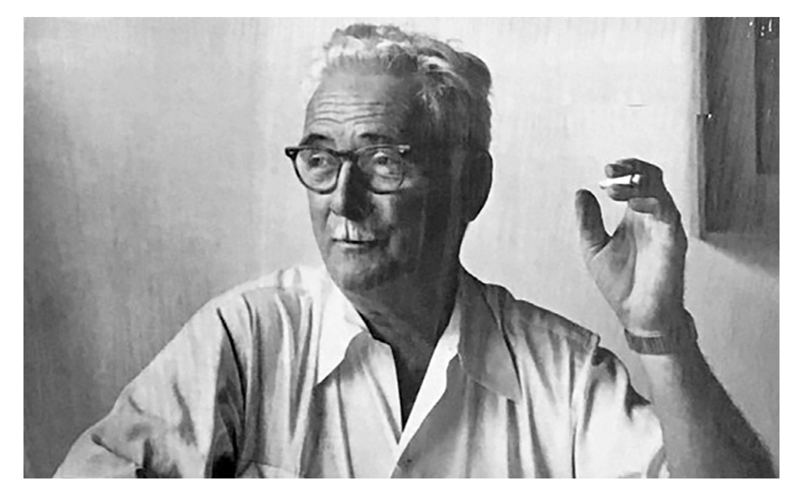
(7) تيغرمان في كِتْسْبوهِل [في النمسا] (بإذن من أَلَن إِڤَنْز مؤسس آرْبِتَر للتقاليد الثقافية)



(8) آرثر غولد، خرّيجو سنة 1957 (من جريدة ناساو هِرَلْد، الكتاب السنوي لجامعة پرنستن)



(9) شارل مالك (بإذن من مجموعة غتي للصور ومجموعة كوربِس التاريخية)



(10) ر. پ. بلاكمور (صورة التقطها چارلز شولتز)



(11) هاري ليڤن (بإذن من مجموعة غتي للصور؛ مجموعة صور مجلة لايْف)



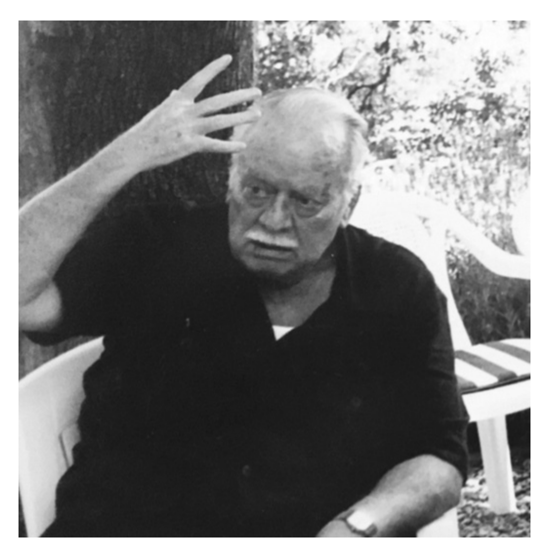
(12) محرِّرو مجلَّة پارتِزَن (المتحزِّب). الواقفون (من اليسار): جورج مورِس، فِلِپ راڤ، دوايْتْ مَكْدونَلْد. الجالسان (من اليسار): فْرِد دَپي ووِلْيَم فِلِپْس (الصورة من مجموعة موري غَاربر. بإذن من آل غاربر)



(13) صادق العظم (بإذن من مؤسسة جائزة إرازمس)



(14) عند مدخل البيت في ضهور الشوير. إلى الخلف من اليسار: غريس، جويس، روزي، سمير مقدسي.
إلى الأمام من اليسار: إدوَرْد، هلدا، وديع، سري مقدسي، أسامة مقدسي، جين مقدسي
(من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



(15) شفيق الحوت (من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



(16) رحلة للتعرُّف على الحقيقة في لبنان (من اليسار): فردرك جيمسن، إقبال أحمد، ياسر عرفات، ديڤد دَلِنْجَر، دون لوس، رمزي كلارك (بإذن من الأرشيف الرقمي الأمريكي لجنوب آسيا)



(17) مع جون بيرغر في فندق Haute Savoie بفرنسا (الصورة التقطتها جين مور)



(18) مع إبراهيم أبو لغد (الصورة التقطتها جين مور)



(19) مع بن سوننبيرغ (الصورة التقطها ألكزاندر كُكْبيرن)



(20) سعيد يعزف على البيانو (نوفمبر، 1983) (الصورة التقطتها جين مور)



(21) جين ستاين (الصورة التقطتها بريجيت لاكوم)



(22) في كنسي، فرنسا (الصورة التقطتها جين مور)



(23) مع وديع (الصورة التقطتها بريجيت لاكوم)



(24) مع نُوَم چومسكي في كولومبيا، 1999 (من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



(25) مع ديانا تقي الدين قبيل الحفل الموسيقي في جامعة كولومبيا، 1993 (الصورة التقطها جو پنيرو. بإذن من أرشيفات الجامعة، مكتبة الكتب والمخطوطات النادرة، مكتبات جامعة كولومبيا)



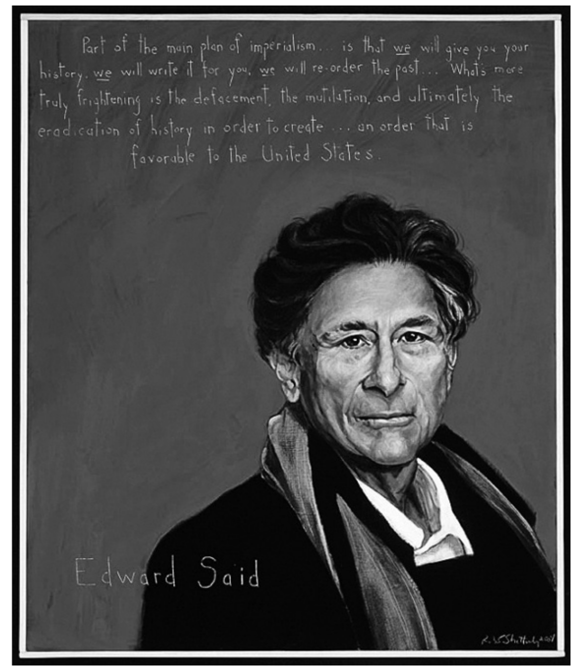
(26) مع نجلا (التقط الصورة إيتو برادة)



(27) في مظاهرة لدعم فلسطين في العام 2000 في ساحة الوحدة بنيويورك
(من مجموعة الصور العائدة لآل سعيد)



(28) مع مريم (الصورة التقطتها كارل صبّاغ)



(29) واحدة من اللوحات والرسومات والتخطيطات الكاريكاتيرية لروبرت شِتَرْلِي، بإذن من AWTT (جمعية الأمريكيين الذين يقولون الحقيقة)



(30) جالسا إلى منضدته: صورة من صور الفلم المسمّى «الذوات والآخرون»: صورة لإدوَرْد سعيد، بإذن من أفلام Wamip (التحالف العالمي للشعوب الأصلية المتنقّلة)، باريس


الهوامش


Withe

تمهيد

(1) سويف Soueif.

(2) Hamid Dabashi, "The Moment of Myth", CounterPunch, October 2, 2003.

(3) RE, xi.

(4) Blythe.

(5) حديث مع سعيد وإلياس خوري في نيويورك، تقريبا في شهر مايو من العام 2001. سونتاغ إلى سعيد بتاريخ 5 مايو 2001، وغوردِمَر إلى سونتاغ في 9 أبريل 2001. EWSP, 28: 15: 11

(6) Khalidi, T.

(7) FBI, 54, Aug.20, 1979.

(8) FBI, 11, July 12, 1982, FBI, 4, Aug. 28, 1991.

(9) قرأ سعيد هذه الأسطر بصوتٍ عالٍ في ذكرى أحمد في كلية هامپشر بتاريخ 18 سبتمبر 1999:

https//www.youtube.com/watch?v=zfqor65wguk

وانظر أيضا

Stuart Schaar, Eqbal Ahmad: Critical Outsider in a Turbulent Age (New York: Columbia UP, 2015), 72.

(10) Alexander Cockburn, "Edward Said: A Mighty and Passionate Heart," CounterPunch, Sept. 25, 2003.

(11) محمد شاهين (محرّر): إدْوَرْد سعيد: رواية للأجيال (بيروت: المؤسسة العربية للثقافة والنشر، 2004).

(12) نفسه.

(13) Rosenthal; Mitchell.

الفصل الأول

(1) Jean Said Makdisi, Teta, Mother, and Me: An Arab Woman's Memoir (London: Saqi, 2005), 329.

سيشار إلى هذا المصدر من هنا فصاعدا بكلمة Teta فقط.

(2) Ibid.

(3) Emanuel Hamon, dir., Selves and Others: A Portrait of Edward Said (2004).

(4) Nadia Gindy, "On the Margins of a Memoir: A Personal Reading of Said's Out of Place", Alif: A Journal of Comparative Poetics, 20 (2000), 285.

(5) Said, G.

(6) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 286.

(7) Annalise Devries, "Utopia in the Suburbs: Cosmopolitan Society, Class Privilege, and the Making of Ma'adi Garden City in Twentieth-Century Cairo", Journal of Social History, 49, no. 2 (2015): 351 - 73.

(8) Hoda Guindi, "Of the Place", Alif: A Journal of Comparative Poetics, 25 (2005):10.

(9) Said, G.: Teta, 49.

(10) Said, G.

(11) Said Makdisi.

(12) Selves and Others.

(13) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 287.

(14) Teta, 3738-.

(15) OP, 93.

(16) Said, G.

(17) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 290.

(18) OP, 135.

(19) Sharon.

(20) Kardouche.

(21) Laura Robson, Colonialism and Christianity in Mandate Palestine (Austen: University of Texas Press, 2011), 127.

(22) RE, 270.

(23) Sharon.

(24) Habachy.

(25) Guindi, "Out of Place", 10.

(26) Teta, 318.

(27) RE, 273.

(28) Aida Fahoum to EWS, 1999, EWSP, 48:16:II,1.

(29) EWS, "Palestine, Then and Now: An Exile's Journey Through Israel and the Occupied Territories", Harper Magazine, Dec. 1992, 48.

(30) Charles Malik, "The Near East: The Search for Truth", Foreign Affairs 30 (1952), 233.

(31) Max Rodenbeck, Cairo: The City Victorious (New York: Alfred A. Knopf, 1999).

(32) Nabil Matar, the United States Through Arab Eyes (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2018).

(33) EWS, "Leaving Palestine", New York Review of Books, Sept. 23, 1999.

(34) OP, 205.

(35) Ibid., 165 - 67.

(36) Guindi, "Of the Place",10.

(37) OP, 96 - 97.

(38) Teta, 77.

(39) Ibid, 295.

(40) Ibid.

(41) Allan Evans in Ignace Tiegerman: The Lost Legend of Cairo, arbiterrecords org/catalog/Ignace-tiegerman-the-lost-legend-of cairo/.

(42) Henri Barda in Allen Evans, Ignaz Friedman: Romantic Master Pianist (Bloomington: Indiana University Press, 2009), 221.

(43) Ibid., 229.

(44) Samir Raafat, "Ignace Tiegerman: Could He Have Dethroned Horowitz?", Egyptian Mail, Sept. 20, 1997. www.egy.com/judaica/9720-09-.php.

(45) Ignace Tiegerman: The Lost Legend of Cairo.

(46) RE, 274.

(47) EWS, "Cairo Recalled: Growing Up in the Cultural Cross Currents of 1940s Egypt", House & Garden, April 1987, 32.

(48) Allan Evans to EWS, Oct. 22, 1987:
كان الحصول على جرعة من ملاحظات تيغرمان وعلى فهم لفهم أفكاره الإستطيقية شيئا أشبه بالكشف عن عالم من الأسرار.

(49) Barda, in Evans, Ignaz Friedman, 223.

(50) OP, 198.

(51) Said, G.

(52) Hilda Said to EWS, Nov. 21, 1966, EWSP, 28:16:II.2.

(53) Said Makdisi.

(54) Justus Reid Weiner, "My Beautiful Old House and Other Fabrications by Edward Said", Commentarym Sept. 1, 1999.
يمكن قراءة ردّ سعيد في مقالته «تشويه السمعة بالأسلوب الصهيوني» في جريدة الأهرام، 26 أغسطس – 1 سبتمبر 1999، وفي مقالة منير ك. ناصر: «يهاجمونني لكي أنكر حقّ الفلسطينيين في العودة»، في14 :Bir Zeit Newsletter, (Fall 1999).

(55) Keith Schilling to EWS, Jan. 18, 2000, EWSP, 30:18:I.1.

(56) EWS, "Palestine, Then and Now", 51.

(57) أرسل إلى المؤلف في 20 فبراير 2016.

(58) Said Makdisi.

(59) OP, 144.

(60) The Right Reverend Sir Paul Reeves to EWS, May 29, 1991. EWSP, 15:12:I.1.

(61) Malik, the Near East: The Search for Truth", 231.

(62) EWS, "A Palestinian Voice", Columbia Forum 12, no. 4 (Winter 1969).29.

(63) Habachy

(64) Undated handwritten notes, EWSP, 77:32:II.4.

(65) Mohammad Shaheen, "Remembering Edward Said: A Glimpse of His Life and Thought", sent to author on January 4, 2016.

(66) Shaheen.

(67) O'Connell.

(68) EWS to Jacoby.

(69) Shaheen.

(70) Said, M.

(71) OP, 230.

(72) Said Makdisi, J.

(73) OP, 12.

(74) EWS to Wadie Said, 1967, EWSP, 28:16:II.2.

(75) OP, 54, 57.

(76) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 288.

(77) Said, G.

(78) Said Makdisi.

(79) Teta, 14.

(80) Ibid. 16, 18.

(81) EWS, "My Guru", London Review of Books, Dec. 13, 2001, 19.

(82) Cortas, Said, G.

(83) Wadad Makdisi Cortas, A World I Loved: The Story of an Arab Woman (New York: Nation Books, 2009).

(84) Ibid.

(85) Habachy.

(86) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 285.

(87) Jean Said Makdisi to the author, Sept. 12, 2017.

(88) EWSP, 77:32:II.4.

(89) OP, 114.

(90) Ibid., 124.

(91) Ibid., 123.

(92) Eric Rouleau, "Cairo: A Memoir", Cairo Review of Global Affairs (Fall 2010).

(93) QP, xiv.

(94) OP., 122.

(95) "Orientalism and After: An Interview with Edward Said", Radical Philosophy 63 (Spring 1993), EWSP, 80:31:II.5

(96) هذا مثال واحد من أمثلة عديدة:

M. Cherif Bassiouni, "The AAUG: Reflections on a Lost Opportunity", Arab Studies Quarterly 29, no. 3 - 4 (Summer/Fall 2007: 29: "Until 1967, Edward Said was basically an Anglophile professor of comparative literature … [with] no commitment to Arab Nationalism".

(97) EWSP, 77:32:II.4.

(98) EWS, "Leaving Palestine".

(99) Gindy, "On the Margins of a Memoir", 286.

(100) RE, 274.

(101) Ahdaf Soueif, Mezzaterra: Fragments from the Common Ground (New York: anchor, 2010), 253.

الفصل الثاني

(1) FNE, 54.

(2) CV for Harvard Application, 1957, HT.

(3) PPC, 412.

(4) Ibid., 47.

(5) Ibid., 69.

(6) Harry Levin, the Power of Blackness: Hawthorne, Poe, Melville (1958; New York: Alfred A. Knopf, 1970), 4.

(7) EWS, Commencement Speech, Northfield Mount Hermon School, June 2002; sent to the author on Dec. 11, 2015.

(8) OP, 84.

(9) PP, 4; RE, xii.

(10) OP, 233.

(11) Ibid., 134, 141.

(12) Ibid., 263 - 64.

(13) EWS, interview by Jean Stein, Aug. 19, 1993, sent to the author by Stein on Feb. 23, 2017.

(14) Howell-Griffith to Gordon F. Pyper, Feb.17, 1951, MH.O1, 20.

(15) Price to Director of Admissions, Jan. 8, 1951, MH, O1, 22.

(16) Badeau to Dr. Howard Rubendall, Nov. 8, 1950, MH, O1, 26.

(17) EWS to Director of Admissions, Mount Hermon School, Feb. 4, 1951, MH, O1, 2.

(18) Ibid., 3.

(19) Brieger.

(20) Davis.

(21) Poem sent to author by Peter Weis, Mount Hermon archivist, on Dec. 12, 2015.

(22) OP, 43 - 44.

(23) Ibid., 248.

(24) Brieger.

(25) Weis to author, Dec. 11, 2015.

(26) OP, 17.

(27) Ibid., 19.

(28) Hilda Said to Rubendall, Sept. 21, 1951, MH, O2, 20.

(29) Hilda Said to Rubendall, Feb. 18, 1952. MH, O2, 26 - 29.

(30) Jean Said Makdisi, Teta, Mother, and Me: An Arab Woman's Memoir (London: Saqi, 2005), 84.

(31) Letters sent to the author by Marina Warner on Jan. 16, 2015.

(32) EWS, Defamation, Zionist Style, Al-Ahram, Aug. 26-Sept. 1, 1999.

(33) Hilda Said to Rubendall, Oct. 13, 1952, MH, O2, 36 - 38.

(34) Hilda Said to Rubendall, Jan. 9, 1953, MH, O2,43.

(35) Ethel R. Maddern to Princeton, June 22, 1953, PT, 21.

(36) Fischer to EWS, June 22, 2000, EWSP, 48:20.II.1.

(37) OP, 278.

(38) Teta, 85.

(39) Hilda Said to Rubendall, Jan. 9, 1953, 43.

(40) Exiles: Edward Said, directed by Christopher Sykes (BBC2, 1986).

(41) OP, 330.

(42) Ibid, 279.

(43) HT, 64.

(44) Ibid.

(45) EWS to Rubendall, March 13, 1958, MH.03, 26.

(46) Yerushalmi

(47) OP, 233.

(48) Ibid.

(49) Said, N.

(50) Said Makdisi.

(51) OP, 222.

(52) ألقى ابنه وديع الكلمة نيابة عنه بسبب المرض.

(53) OP, 145.

(54) PPC, 206; OP, 205206-.

(55) Jean Stein interview of EWS, op. cit.

(56) EWS, interview by Stein.

(57) Ibid.

(58) Ibid.

(59) Bergson, A.

(60) Said, N.

(61) Rubendall to Professor Ludwig, Nov. 26, 1957, MH.03, 14.

الفصل الثالث

(1) Hopkins to Robert Bridges, May 21, 1878, quoted in WTC, 41.

(2) EWS, Commencement Speech, Northfield Mount Hermon School, June 2002.

(3) Elaine Hagopian, Ibrahim and Said, Arab Studies Quarterly 26, no. 4 (Fall 2004): 6;
حبشي: كان إرك سيغال لايزال يكتب لسعيد في أكتوبر 1976 ليرسل إليه عمله «التراخي نحو أمريكا» Slouching Towards America في «ذا نيو ريبابليك» The New Republic، حيث امدح فيها ليفين Levin - ضمن أمور أخرى - على إظهاره خرافة العصر الذهبي الأمريكي (EWSP, 29:27:I.1).

(4) J. Merrill Knapp, Rhodes Scholarship Recommendations, Nov. 19, 1956, PT, 29.

كرر التعبير عن هذا الشعور من قبل جي. إي. بنتلي G. E. Bentley في تزكيته لسعيد لهارفرد، 24 فبراير 1957، مما يضيف أن هذه الموهبة والعِشَرِيّة أتيتا «على رغم خلفيته الغريبة نوعا ما (HT, 34)».

(5) Abigail Klionsky Oral History Project-Dr. Gerald Sandler (57), Seeley G. Mudd Manuscript Library, Princeton.

(6) McLeod.

(7) PT, 13.

(8) HT, 36.

(9) Carnicelli.

(10) Bergson, A; Bergson, D.

(11) PT, 25; Carnicelli; Solum.

(12) Fried.

(13) Farer.

(14) Solum.

(15) Said, G.

(16) Solum.

(17) Habachy.

(18) McLeod.

(19) Solum

(20) OP, 291.

(21) Habachy; McLeod.

(22) Solum.

(23) EWS, Statement of Purpose, HT.

(24) Warner.

(25) Marie-Hélène Gold to EWS, Jan. 18, 1989, EWSP, 78:5:II.4.

(26) Marie-Hélène Gold to EWS, Sept. 19, 1999, EWSP, 48:11:II.1.

(27) Ibid.

(28) ESR, 421.

(29) WTC, v; OP, 285, 277.

(30) Carnicelli; Fried; EWS Memorial Tribute to Arthur Gold, Feb.26, 1989, EWSP, 78:5:II.4.

(31) Fried.

(32) Edward W. Said ('57), Nasser and His Canal, Daily Princetonian, Oct. 11, 1956, 2.

(33) Wadad Makdisi Cortas, A World I Loved: The Story of an Arab Woman (New York: Norton Books, 2009), 136 - 37.

(34) ومما يلفت النظر أن ابنه وديع سيكتب الأطروحة التي ستؤهله للحصول على درجة الشرق في پرنستن عن مشاركة ناصر في باندنغ وعن دعم مصر للتضامن الأفريقي الآسيوي.

(35) Farer.

(36) OP, 250, 274.

(37) EWS to Dire, May 1, 1959, EWSP, 30:3:I.1.

(38) EWS, My Guru, London Review of Books, Dec. 13, 2001, 19 - 20.
كان إبراهيم هو الذي عرَّف العرب في أمريكا على الكفاح العالمي للتحرّر الوطني وسياسة ما بعد الاستعمار (المصدر نفسه، ص20).

(39) PT, 13.

(40) EWS to Rubendall, Oct. 29, 1957, MH.03, 9.

(41) Orientalism and After: An Interview with Edward Said, Radical Philosophy 63 (Spring 1993): 1, EWSP, 80:31:II.5.

(42) EWS to Princeton University, Oct. 14, 1957, PT, 3.

(43) HT, 32 (Jan. 2, 1958).

(44) OP, 287.

(45) EWS to Harvard, 1957, HT.

(46) OP, 264.

(47) EWS to Albert Sonnenfeld, Oct. 27, 1978, EWSP, 5:9:I.1

(48) HT, 59.

(49) Ibid., 53.

(50) WTC, v.

(51) R. P. Blackmur, A Primer of Ignorance, ed. Joseph Frank (1940; New York: Harcourt, Brace, & World, 1967), 71.

(52) EWSP, 77:32:II.4. He uses the phrase in Sense and Sensibility, Partisan Review 34, no. 4 (Fall 1967): 632.

(53) RE. 247.

(54) Ibid., 253; Fried. See EWS, Sense and Sensibility;
«كان أسلوب بلاكمر الفريد في قاعة التدريس كما وصفه آرثر غولد يعتمد على وصف الطريقة التي يتعرَّف بها المرء على الأدب من كثب» (629).

(55) RE, 249.

(56) R. P. Blackmur, Language as Gesture: Essays in Poetry (New York: Harcourt, Brace, 1952, 403.

(57) ESR, 424; B, 256 - 57.

(58) Blackmur, Language as Gesture, 3, 12.

(59) EWSP, 97:20:III.1.

(60) Blackmur, Primer of Ignorance, 100.

(61) Ibid., 13 - 14.

(62) R. P. Blackmur, the Lion and the Honeycomb: Essays in Solicitude and Critique (1955; New York: Harcourt, Brace, 1955), 293.

(63) ALS, 173 - 74.

(64) OP, 265.

(65) لكن أي هايدغر؟ في تصدير مالك لكتاب أو. فريدريك نولد O. Frederick Nolde «حُرّ ومساوٍ: حقوق الإنسان من منظور مسكوني»

Free and Equal: Human Rights in Ecumenical Perspective (Geneva: World Council of Churches, 1968), 7

تبنى – باسم الإنسانية – اللغةَ التي رفض هايدغر من خلالها الإنسانيةَ.

(66) Said, M.

(67) Ibid.

(68) Charles Malik, the Near East: The Search for Truth, Foreign Affairs 30 (1952): 236.

(69) Ibid., 238

(70) Ibid., 243.

(71) Ibid., 256 - 60.

(72) Charles Habib Malik, the Problem of Coexistence (Evanston. Ill: Northwestern University Press, 1955), 8.

(73) Charles Habib Malik, a Christian Critique of the University (Downers Grove, Ill.: Intervarsity Press, 1982), 23.

(74) انظر مراسلة سعيد ووليام سبانوس Willian Spanos المحترمة ولكن المختبِرة؛ والتي يشتم فيها هايدغر بوصمه بأنه رجعي ومتصوّف:

(Aug. 4, 1972), EWSP, 5:2:I.1; (Jan., 5, 1979, EWSP, 5:10:I.2; May 22, 1980), EWSP, 5:19.I.1

وانظر مراجعته النقدية المبكرة لمؤلَّف إيهاب حسن Ihab Hassan:

Dismemberment of Orpheus, Eclecticism and Orthodoxy in Criticism, Diacritics 2, no.1 (Spring 1972): 2 - 8.

وهو على كل حال قد اقتبس من هايدرغر على نحو أكثر تسامحا في مؤلَّفه غير المنشور:

The Second and a Half World, EWSP, 77:32:II.4.

(75) PPC, 158; EWS to Richard Kuhn. Jan. 25, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(76) OP, 292.

(77) Orientalism and After: An Interview with Edward Said.

(78) Rosenthal.

(79) EWS to Alfred Dunhill Limited, Nov 26, 1991, EWSP, 16:2:I.1.

(80) Blackmur, In the Country of the Blue, in Primer of Ignorance, 180. See also EWS note on Blackmur, EWSP, 97:14:III.

(81) EWSP, 97:2:III.1.

(82) EWSP, 81:1:III.1.

(83) Ibid.

(84) Ibid.

(85) Ibid.

(86) يتذكر ديفيد ستيرن David Stern، تلميذ سعيد في جامعة كولمبيا الذي ذهب إلى جامعة هارفرد لتلقي الدراسات العليا، لفن بأنه «من النوع الهارفردي الفظيع، سيئ، براهمي جدا [نسبة مستعارة من طبقة البراهمة لدى الهندوس الذين يعرفون بالاستعلاء]، يتبجّح كثيرا «(Stern, D).

(87) OP, 289.

(88) Harry Levin, Refractions: Essays in Comparative Literature (Oxford, U.K,: Oxford University Press, 1966), 323, 339.

(89) OP, 288.

(90) Fried.

(91) EWS to Dash, Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1:
«أصبحت عاطفيا بحقّ... بدأت أعيد النظر في عمله، في تأثيره في طلبته، في تأثيره فيَّ، ووجدت أنه مع ذلك معلّمٌ أكثر مما أدركه أغلب الناس».

(92) Harry Levin, the Gates of Horn: A Study of Five French Realists (Oxford, U.K.: Oxford University Press, 1963), 4.

(93) EWS to Levin, June 12, 1965, HL.

(94) Harry Levin, Grounds for Comparison (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1972), 19.

(95) Ibid., 6; and Levin, Gates of Horn, ix.

(96) EWS, Phenomenology, Structural Thought, and Literature, American Council of Learned Societies application, Oct. 14, 1965, ST, 17 - 19.

(97) Levin, Refractions, 65.

(98) Levin, Gates of Horn, 16.

(99) Levin, Refractions, 240 - 41.

(100) Levin, Two Romanisten in America: Spitzer and Auerbach, in Grounds for Comparison, 111.

(101) Levin, Grounds for Comparison, 41, 46, 123.

(102) Ibid., 127.

الفصل الرابع

(1) Undated, but ca. 195762-, EWSP, 77:32:II.4.

(2) EWSP, 77:32:II.4.

(3) A colleague from Harvard [signature unclear] to EWS, Dec. 16, 1967, EWSP, 28:22:I.1.

(4) Delaney; Said Makdisi.

(5) Bergson, A.

(6) EWSP, 81:1:III.1 and 77:32:II.4.

(7) Said Makdisi.

(8) Ibid.

(9) EWS to Wadie Said, June 2, 1965; EWSP, 28:16:II.2.

(10) Hilda Said to EWS, Nov. 21, 1965, EWSP, 28:16:II.2.

(11) كتب هنري كارَوَي هاتفيلد Henry Caraway Hatfield، وهو عضو في لجنة ممتحني مايرة في أطروحة الدكتوراه رسالة لها من برلين في 18 مارس 1968 استشهد فيها برسالة من لڤن يصف عملها فيها بأنه «بالغ الذكاء أحيانا» بينما يعبر عن شكواه قائلا إن الكاتب الذي يستخدم كلمات مثل chthonic أو appolonische عليه أن يستعملهما استعمالا صحيحا وإلا فإنه سيثير شكّ القارئ... أحيانا يبدو كأن رواية «الجبل السحري»

The Magic Mountain كتبها وجوديٌّ بالتعاون مع سوزان سونتاغ Susan Sontag HL.

(12) Farer; also Said, G; Bergson, A; Blythe.

(13) EWSP, 97:3:III.1.

(14) EPP, 69.

(15) EWSP77:32:II.4.21.

(16) Christopher Hitchens, Hitch-22: A Memoir (New York: Twelve, 2010), 385.

(17) EWS, "An Ark for the Listener," EWSP, 77:2:II.3.

(18) Mariam Said to author, Sept. 25, 2018.

(19) Mary McCarthy, "On F. W. Dupee (1904 - 1979)," New York Review of Books, Oct. 27, 1983.

(20) Leon Trotsky, The Russian Revolution, ed. F. W. Dupee, Trans Max Eastman (New York: Anchor, 1959), vii-viii.

(21) James Wolcott, "Enemies for Ever," London Review of Books, May 18, 2017, 14.

(22) Ibid., 16. McCarthy, "On F. W. Dupee (1904 - 1979),»

(23) Rosenthal.

(24) EWSP, 110:11:III.3.

غير أن سعيد دافع عن تْرِلنْغ علنا ضدّ وصف ألْفْرِد كازن Alfred Kazin له في مجلة «مراجعة نيويورك للكتب» New York Review of Books بأنه «متعالٍ» يسعى إلى الدعاية لنفسه. فقد كتب سعيد مع ثمانية عشر شخصا آخرين رسالة احتجاج ظهرت في جريدة «التايمز» Times في 25 يونيو 1978.

(25) EWS to Engel, Nov. 29, 1972. EWSP, 5:3:I.1.

(26) Bergson, A.

(27) Rosenthal; Wood.

(28) Davis.

(29) Rosenthal.

(30) EWSP, 110:11:III.3.

(31) EWS to Engel, Nov. 29, 1972.

(32) Guttenplan.

(33) RE, xxii.

إنه في مقالته عن رواية:

«Sense and Sensibility", Partisan Review 34, no.4 (Fall 1967)

يحاكي أسلوب النقاد الجدد بأن يبدي إعجابه بكل من پوليه وبلاكمر لتفاديهما «لعبة البحث العلمي» وتفضيلهما عدم انتظام الأشياء.

(34) EWS, "At Miss Whitehead's," review of The Sixties: The Last Journal, 19601972-, by Edmund Wilson, London Review of Books, July 7, 1994, 2.

(35) Seidel.

(36) EWS to Starobinski, Nov. 22, 1967, EWSP, 30:3:I.1.

(37) Barthes to EWS, Aug. 25, 1972 [incorrectly dated 1975]. EWSP, 5:1:I.1

(trans. author and Emilie Pons).

(38) Allen Bergson to author, Sept. 24, 2015.

(39) Said, M.

(40) RE, 235.

(41) Khalidi, T.

(42) EWS, “A Configuration of Themes,” Nation, May 30, 1966, 659 - 60.

(43) Levin to EWS, May 31, 1966. HL.

(44) HL.

(45) RE, 555

(46) EWS, “Conrad and Nietzsche,” in Joseph Conrad: A Commemoration, ed. Norman Sherry (London: Macmillan, 1976), 65.

(47) Said, N.

(48) Conor Cruise O’Brien, Edward Said, and John Lukacs, “The Intellectual in the Post-Colonial World: Response and Discussion,” Salmagundi, no. 70 / 71 (Spring-Summer 1986): 70 - 71.

أشاد سعيد في مراجعة نشرت في ملحق التايمز الأدبي ببنيتا پاري لأنها كانت أوَّل ناقدة تناولت أهم جانب من كتابات كونراد – ميوله الإمبريالية الكامنة.

(49) «Traveling with Conrad,” interview with EWS and Peter Mallion, Feb. 28, 2003, EWSP, 80:41:II.5.

(50) O’Brien, Said, and Lukacs, “Intellectual in the Post-Colonial World,” 74, 72, 73. See EWS to Robert Boyers of Salmagundi, Oct. 29, 1985 (EWSP, 8:17:I.1).

هنا حيث يصف ذلك الحوار الشيّق.

(51) Mitchell.

(52) «أنا تَمَثُّلُ كننغم غريم بإزاء كونراد؛ نقيضُه»

(Traveling with Conrad).

(53) JC, 80 - 81.

(54) RE, xxii; EWS, “Conrad and Nietzsche,” 72.

(55) EWSP, 97:3:III.1.

(56) EWS, “Conrad and Nietzsche,” 71.

(57) RE, 267; EWS, “Sense and Sensibility,” 629.

(58) EWSP, 97:31:III.1.

(59) Bergson, A.

(60) JC, 57.

(61) Raymond Williams and Edward W. Said, “Media, Margins, and Modernity,” in Raymond Williams, the Politics of Modernism against the New Conformists (London: Verso, 1989), 187.

(62) ESR, 423.

(63) Ibid., 39.

(64) JC, vii; cf. RE, 563.

(65) JC, 60, 58, 38, 17.

(66) EWS to Geoffrey Hartman, Dec. 4, 1967, EWSP, 30:3:I.1.

(67) مقتبس في:

Richard Macksey and Eugenio Donato,"The Space between – 1971," in the Structuralist Controversy: The Languages of Criticism and the Sciences of Man (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1972), x.

(68) EWS to Richard Kuhns, Jan. 25, 1973, EWSP, 5:4: I.1.

«اقرأ الكثير من كتابات دولوز لكن فكّرْ؛ فعلى الرغم من أنه ذكي، فإنه يحتاج إلى محرر جيد»

EWS to Richard Macksey, Feb. 7, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

واعتقد سعيد أن دولوز محافظ سياسيا لكن نظرية المعرفة خاصّته «ثورية»

EWSP, 97:1:III.1; B, 377.

(69) فكرة ٌيُعثر عليها أيضا في An Unpublished Text؛ ومقتبسة في:

Claude Lefort's editor's preface to Maurice Merleau-Ponty, The Prose of the World, trans. John O'Neill (1969; Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1973), xiii.

(70) JC, 38, 119.

(71) Ibid. 49.

(72) EWS, "Labyrinth of Incarnations", RE, 11; EWSP, 97:27:III.1.

(73) EWS to Chomsky, March 13, 1972, EWSP, 28:12:I.1.

(74) Lucien Goldmann, The Hidden God: A Study of Tragic Vision in the "Prnsées" of Pascal and the Tragedies of Racine, trans. Philip Tody (1955; London: Verso, 2016), 235.

(75) OP, 256.

(76) See, for example, PPC, 6 RE, 16.

(77) EWS, "Sense and Sensibility", 628,

حيث كتب أن فكرة إي. دي. هيرستش E. D. Hirsch بأن الفهم هو بالفعل فهم الضرورة؛ مأخوذةٌ من دون اعتراف من كتابات هايدغر عن هولديرلين Holderlin.

Gerald Graff et al. to EWS, Feb. 20, 1969, EWSP, 5:1:I.1.

(78) JC, 195 - 96.

(79) B, 323.

(80) LS, 78.

(81) EWS, review of Joseph Conrad: A Psychoanalytic Biography, by Bernard C. Meyer, Journal of English and Germanic Philology, 67, no. 1(Jan. 1968):176 - 78; JC, 102.

(82) EWS, "Phenomenology, Structural Thought, and Literature," American Council of Learned Societies application, Nov. 15, 1965, ST, 17 - 19.

(83) EWSP, 97:1:III.1.

(84) PPC, 225.

(85) Joseph Farag, Palestinian Literature in Exile: Gender, Aesthetics, and

Resistance in the Short Story (London: I. B. Tauris, 2016, 118 (of his typescript).

(86) EWS, "Diary: My Encounter with Sartre," London Review of Books, June 1, 2000, 42 - 43.

(87) Ali.

(88) EWS, "The Arab Portrayed," in the Arab-Israeli Confrontation of June 1967: An Arab Perspective, ed. Ibrahim Abu-Lughod (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1970), 6.

(89) EWS, "Diary.»

(90) Maurice Merleau-Ponty, the Phenomenology of Perception, trans. Donald Landes (1945; London: Routledge, 2012), 466.

(91) EWS, "The Totalitarianism of Mind," review of The Savage Mind, by Claude Levi-Strauss, Kenyon Review 29, no. 2 (March 1967): 256.

(92) Ibid., 258.

(93) Ibid., 249.

(94) Ashrawi; Bergson, A.; Khalidi, T.

انظر، على سبيل المثال، مدوناته المتنوعة والمفرّقة حول البنيوية، بالإضافة إلى صفحاته التسع والأربعين التي تضمنت رأيه العام في الحركة في:

EWSP, 97:27:III.1.

(95) Chomsky.

(96) EWS to de Man, Jan 7, 1968, EWSP, 30:3:I.1.

(97) PD, xv.

(98) Ibid., xvi.

(99) EWS, "A Palestinian Voice," Columbia Forum 12, no. 4 (Winter 1969): 27.

(100) Lehman to EWS, Feb. 28, 1973, EWSP, 28:9:I.1.

(101) Stern, D.

(102) EWSP, 76:18:II.3.

(103) EWS to Robert Alter, Nov. 2, 1967, EWSP, 28:9:I.1.

(104) EWSP, 76:18:II.3.

(105) Ibid. EWS to Quentin Anderson, Nov. 28, 1967, EWSP, 28:9:I.1.

(106) EWS to Ronit and Jerome Lowenthal, Dec. 15, 1967, EWSP, 28:22:I.1.

(107) including many of the original notes for Beginnings. See EWSP, 97:2:III.1.

(108) EWS to Ronit and Jerome Lowenthal, Dec. 15, 1967.

(109) Chomsky.

(110) EWS, "Himself Observed," review of George Steiner: A Reader, Nation, March 2, 1985.

(111) Jerome Lowenthal to EWS, Jan. 7, 1968, EWSP, 28:22:I.1.

(112) EWS to Levin, June 28, 1965. HL.

(113) EWS to Robert Alter, April 2, 1968, EWSP, 28:22:I.1.

(114) Barbara Epstein, "The Rise and Decline and Possible Revival of Socialist Humanism," in For Humanism, ed. David Alderson and Robert Spencer (London: Pluto, 2017).

لاحظت الكاتبة أيضا أن غولدمان كان نشطا في منظمة Hashomer Hatzair، وهي منظمة صهيونية اشتراكية تنتقد الرأسمالية بسبب ميلها إلى عزل البشر بعضهم عن بعض.

(115) Harry Levin, Grounds for Comparison (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1972), 37.

(116) EWS to Robert Alter, Nov. 2, 1967, EWSP, 28:9:I.1.

(117) Bell to EWS, Nov. 1, 1966, EWSP, 110:18:III.3.

(118) EWS, "Swift as Intellectual," in WTC, 72.

«جاء الحقل ليمثل أجواء النادي» ص (73).

(119) EWS to Trilling, Jan. 1973, EWSP. 5:4:I.1.

(120) EWS to Maud Wilcox, Dec. 11, 1980, EWSP, 5:22:I.1.

(121) EWS. "Swift's Tory Anarchy," Eighteenth Century Studies 3, np. 1 (Fall 1969): 48.

(122) R. P. Blackmur, A Primer of Ignorance, ed. Joseph Frank (1940; New York: Harcourt, Brace & World, 1967.

(123) EWS, "Notes on the Characterization of a Literary Text," MLN 86, no. 6 (Dec. 1970): 768.

(124) EWS, "Swift as Intellectual," 74.

(125) Ibid. 54.

(126) EWS to George Mayhew, Feb. 3, 1968, EWSP, 30:3:I.1.

(127) EWS, "Swift's Tory Anarchy,"," in WTC, 57.

(128) EWS, "Swift in History," EWSP, 119:16:III.3.

(129) EWS to Angus Fletcher, Nov. 28, 1968, EWSP, 28:9:I.1.

(130) EWSP, 76:18:II.3.

(131) EWS to Israel Shahak, Dec. 14, 1977, EWSP, 30:13:I.1.

(132) EWS to "Robert," April 2, 1968, EWSP, 28:22:I.1.

(133) Blythe.

الفصل الخامس

(1) EWSP, 77:32:II.4.

وهي غير مؤرخة، لكن يمكن التقدير بأن التاريخ بين العامين 1957 و1962. في أوائل الستينيات، قدّم هذه القصيدة وقصائد أخرى إلى مجلة The Swanee Review، ومجلة Evergreen Review، وإلى مجلات أدبية أخرى.

(2) Lorette to EWS, Oct. 20, 1972, EWSP, 5:2:I.1.

(3) Guttenplan.

(4) Rosenthal.

(5) Mintz.

(6) Levin to Hatfield, April 30, 1968: HL.

(7) Leibowitz to EWS, May 5, 1968, EWSP, 28:22:I.1.

(8) Stern, M.

(9) PPC, 209.

(10) Michael Stern, "Professors show little enthusiasm for Election Strike", Columbia Daily Spectator, Nov. 4, 1968.

(11) Friedman.

(12) Eqbal Ahmad to BBC Television, Dec. 7, 1992, EWSP, 29:14:I.1.

(13) Yelin.

(14) Michael Stern, Radicals Interrupt Nearly 40 Classes in NROTC Drive", Columbia Daily Spectator, Feb. 27, 1969.

(15) Friedman.

(16) Stern, M.

(17) Trilling to EWS, March 3, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(18) EWS to Trilling, Jan 25, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(19) Michael Widlanski, "350 Hear Debate on Mideast War at Campus Forum", Columbia Daily Spectator, Oct. 25, 1973.

(20) Ahmad Besharah, "Re-Focusing on the Middle East", Columbia Daily Spectator, April 16, 1970.

(21) Mintz.

(22) Delaney.

وهناك توضيح لموقفه من العنف يمكن العثور عليه في:

«Chomsky and the Question of Palestine: (1975), in PD, 333» و«Identity, Negation, and Violence: (1988), in PD, 346,»

وقد كُتِب في أثناء الانتفاضة الأولى.

(23) EWS, "Traveling with Conrad", interview with Peter Mallios, Feb. 28, 2003m EWSP, 80:41:II.5.

(24) Bergson, A.; Farer; Delaney.

(25) Najla Said, Looking for Palestine (New York: Riverhead Books, 2013), 10.

(26) EWS, "Palestine, Then and Now: An Exile's Journey through Israel and the Occupied Territories", Harper's Magazine, Dec. 1992, 47.

(27) EWS to "Dash", Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1; EWS the Tom Farer, April 6, 173, EWSP, 5:6:I.1.

(28) EWS the Farer, April 6, 1973.

(29) EWS to Dickstein, Jan. 27, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(30) EWS to Monroe Engel, Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1.

(31) PD, 5.

(32) Mariam Said, introduction to A World I Loved: The Story of an Arab Woman, by Wadad Makdisi Cortas (New York: Nation Books, 2009), xxx.

(33) PD, 271.3

(34) Said Makdisi.

(35) كانت بيروت «عاصمة المنفيين» في العالم العربي. لكن ذلك الدور توقَّف بعد الغزو الإسرائيلي في العام 1982. هذا ما يقوله سعيد في فِلم «المنفيّون: إدْوَرْد سعيد» من إخراج كْرِسْتُفَر سايْكس (Christopher Sykes (BBC2, 1986).

(36) EWS to Chomsky, Nov. 7, 1973, EWSP, 5:3:I.1.

(37) EWS to Sami Al-Banna, Feb.7, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

(38) EWS, "Michel Foucault as an Intellectual Imagination", boundary 2 1, no. 1 (Fall 1972): 1 - 36.

(39) EWS, "My Guru", London Review of Books, Dec. 13, 2001, 20.

(40) PPC, 208; EWS, "Palestine, Then and Now", 54.

(41) Shafiq Al-Hout, My Life in the PLO (London: Pluto Press, 2011, 107.

(42) EWS to Sami Al-Banna, Feb. 7, 1973.

(43) B, 34.

(44) EWS, "Molestation and Authority in narrative Fiction," in Aspects of Narrative: Selected Papers from the English Institute, ed. J. Hillis Miller (New York: Columbia University Press, 1971), 47 - 68.

(45) Miller; see also the correspondence between Said and Ian Watt for evidence of his rise to prominence in Conrad circles (IW).

(46) EWS to Carol Malmi, March 6, 1978, EWSP, 30:6:I.1.

(47) EWS to Michael Rosenthal, March 10, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

(48) EWS to "Erwin", March 20, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

(49) EWS to Engel, Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1.

(50) EWS to "Dash," Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1.

(51) Said, N.

(52) EWS to Monroe Engel, June 28, 1973, EWSP, 5:6:I.1.

(53) Davis.

(54) EWS to Ferial Ghazoul, Jan. 6, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(55) Said, M.

(56) Abdallah Laroui, the Crisis of the Arab Intellectual (1974; Berkeley: University of California Press, 1976), 3.

(57) Ibid., 5.

(58) Ibid., 6.

(59) EWS to Farer, April 6, 1873.

(60) EWS, "Living in Arabic", Al-Ahram, 12 - 18 Feb. 2004.

(61) EWS to Richard Macksey, Jan. 2, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

(62) Ibid.

(63) EWS, "Living in Arabic.»

(64) EWS to Rosenthal, March 10, 1973.

(65) EWS to Richard Macksey, Feb 7, 1973, EWSP, 5:5:I.1.

(66) EWS to Farer, April 6, 1973.

(67) جين بودين (1576) Jean Bodin وجين بابتيست تشاردين Jean Baptistery Chardin (1680) استفادا من تأريخ [ابن] خلدون وأكسبها شعبية في فرنسا. ذكر فيكو عمل بودين في مجلة «ذا نيو ساينس» The New Science.

(68) RE, 564; EPP, 244; EWSP, 71:8:II.2.

(69) WTC, 36.

(70) Ibn Khaldun, Muqaddimah: An Introduction to History, Trans Franz Rosenthal (1377; Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1967), 756.

(71) The Qur'an, trans. Tarif Khalidi (New York: Penguin Classics, 2009), sura 55:

{الرحمن (١) علم القرآن (2) خلق الإنسان (٣) علَّمه البيان (٤)} [سورة الرحمن]

(72) EWSP, 77:19:II.4.

(73) Al-Hout.

(74) EWS, "Speaking and Language," New York Times Book Review, Feb. 20, 1972, 21.

(75) EWSP, 97:23:III.1 and 104:8:III.

(76) EWS, "Linguistics and the archeology of Mind", International Philosophical Quarterly 11, no. 1 (March 1971): 10434-.

لقد كان على رأس عمله على هذه المقالة منذ العام 1968 على الأقل، وهو يكتب للناشرين لإبقاء نسخ من كتاب «نظرية النحو» Theory of Syntax لجومسكي وكتاب «خطاب روما: الردود والتدخلات» Discours de Rome: Réponses aux Interventions (1953) للاكان قيد التحضير.

(77) Chomsky to the author, Feb. 13, 2016.

(78) لفهم الاهتمام الذي درس به سعيد مجالات تقنية من لسانيات جومسكي، انظر تدويناته على:

Cartesian Linguistics, EWSP, 97:3:III.1.

(79) EWS to Chomsky, March 13 and April 15, 1972, EWSP, 28:12:I.1.

(80) EWS to Chomsky, April 15, 1972.

(81) EWS to Chomsky, March 13, 1972.

(82) EWS to Chomsky, March 4, 1972, EWSP. 28:12:I.1.

(83) Ibid.

انتقد سعيد جومسكي على استخدامه مصادر إسرائيلية بدلا من المصادر العربية في معظم الأحيان.

(84) EWS, "Al-tamanu' WA al-tajanub WA al-ta'aruf", Mawaqif (March 1972).

كتب سعيد هذه القطعة أصلا بالإنكليزية تحت العنوان:

Witholding, Avoidance, and Recognition. EWSP, 72:14:II.2.

(85) EWS to Sami Al-Banna, July 31, 1972. EWSP, 30:4:I.1.

(86) Najm to EWS, Dec. 13, 1971, EWSP, 72:14:II.2.

(87) EWS, "Notes on the Arab Intellectuals at Home and abroad," undated

lecture to the association of Arab-American University Graduates (AAUG) ca. 1977, EWSP, 77:2:II.3.

(88) Adonis to EWS, Oct. 25, 1971, EWSP, 72:14:II.2.

(89) Sadik Al-Azm, Self-Criticism after the Defeat, Trans, George Stergios (1968; Beirut: Saqi, 2011), 165.

(90) EWS, “Witholding, Avoidance, and Recognition”, 2.

(91) EWS to Sami Al-Banna, July 31, 1972.

(92) EWS, “Withholding, Avoidance, and Recognition,” 23 - 24.

(93) Ibid, 2.

(94) Ibid., 7 - 9.

(95) EWS, “Arabs and Jews,” Journal of Palestine Studies 3, no. 2 (Winter 1974).

(96) EWS to Amr Armenazi, May 30, 1973, EWSP, 5:6:I.1.

(97) EWS to George Kardouche, July 5, 1973, EWSP, 5:6:I.1.

(98) EWS to Armenazi, May 30, 1973.

(99) Ibrahim Abu-Lughud, Resistance, Exile, and Return: Conversations with Hisham Ahmed-Fararjeh (Birzeit: Ibrahim Abu-Lughud Institute of International Studies at Birzeit University, 2003), 72.

بيان نويهض الحوت ذاتُها ناشطة بارزة، وقد كتبت سردا تاريخيا لما قبل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في أطروحة عنوانها «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 – 1948»، نُشر بالعربية في العام 1981.

(100) Al-Hout, My Life in the PLO, 121.

(101) Mariam Said to the author, Oct. 31, 2017.

(102) Chomsky.

(103) Hovsepian.

(104) Al-Hout, My Life in the PLO, 58.

(105) Al-Hout.

(106) Said, G.

(107) Alexander Cockburn, “The Failure of the PLO Leadership”, Nation, March 12, 1988, 330.

(108) PD. 101.

(109) EWS, “Solidly Behind Arafat”, New York: Times, Nov. 15, 1983.

(110) EWS, “Meeting with the Old Man”, Interview, Dec. 12, 1988, 112 - 15, 194.

(111) IES, 42.

(112) EWS, “Rhetorical Questions”, New Statesman, May 8, 1978.

(113) RE, 231.

(114) EWSP, 111:32:II.2.; cf. WTC, 40.

(115) ESR, 423. For a case in point, see “Interpreting the Algiers PNC” (EWSP, 70:2:II.2.), published as “Palestine Agenda”, Nation, Dec. 12, 1988.

(116) EWS to Middle East, April 22, 1979, EWSP, 30:4:I.1.

(117) EWS to Halliday, June 8, 1979, EWSP, 5:11:I.1.

(118) PD. 226.

(119) Najla Said, Looking for Palestine, 32.

(120) Al-Azm.

(121) EWS to Robert Alter, Aug. 13, 1979, EWSP. 30:4:I.1.

الفصل السادس

(1) Keats to Benjamin Robert Haydon, May 10 - 11, 1817, in Letters of John Keats to His Family and Friends, ed. Sidney Colvin (London: Macmillan, 1925), 14 - 17.

(2) FBI, Feb. 28, 1983.

(3) على سبيل المثال:

EWS, "Intellectuals and the Crisis", EPP, 119.

(4) EWS, "Identity, Negation, and Violence", in PD, 341 - 59.

(5) Wypijewski.

(6) انظر على سبيل المثال:

EWS to "Emile", Feb. 7, 1975 (EWSP 30:8:I.1.).

عن تأسيس مؤسسة عربية أو معهد للدراسات العربية مع سليمان العليان، أو رسالته إلى جيمس كارتر James Carter المبجّل المؤرخة بـ 16 سبتمبر 1992 حول طلب المساعدة بشأن حصول فلسطين على اعتراف الجهات المعنية بحقوق الإنسان (EWSP, 17:6:I.1).

(7) Christopher Hitchens, Hitch-22: A Memoir (New York: Twelve, 2010), 386.

(8) EWS to Salim Tamari, Feb. 21, 1972, EWSP, 5:1:I.1.

بيرزيت، الواقعة في ضواحي رام الله، أصبحت جامعة في العام 1975.

(9) Foxworthy to EWS, March 18, 1976, EWSP, 29:24:I.1.

(10) Elaine Hagopian,"Ibrahim and Edward", Arab Studies Quarterly 26, no. 4 (Fall 2004) 3 - 22;

وكتب إدورد سعيد رسالة إلى السفير الكويتي مؤرخة بـ 19 نوفمبر 1973 لغرض تأسيس كرسي عربي في جامعة كولومبيا.

(11) Fouad Moughrabi, "Remembering the AAUG", Arab Studies Quarterly 29, no.34- (Summer-Fall 2007): 97 - 103.

(12) EWS to Abourezq, Feb. 12, 1980, EWSP, 5:16:I.1.

(13) EWS, interview by W. J. T. Mitchell, in Edward Said and the Work of the Critic: Speaking Truth to Power, ed. Paul A. Bovė (Durham, N.C.: Duke University Press, 2000), 45.

(14) «Prepared Statement of Edward W. Said", with Abu-Lughud, "Questions and Discussion", U.S. Congress, House, Special Subcommittee on Investigations of the Committee on International Relations, The

Palestinian Issue in Middle East Peace Efforts, Hearings, 94th Cong., 1st sess., Sept.30, 1975 (Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 1976), 28 - 31, 31 - 36. 36 - 62.

(15) EWS, "Contemporary American Society and the Palestine Question", July 19, 1979, EWSP, 83:III.1.

(16) EWS to Patricia M. Derian (مساعِدة وزير الخارجية لحقوق الإنسان والشؤون الإنسانية)، Sept. 12, 1980, EWSP, 5:20:I.1.

(17) Elaine Hagopian, "Revisiting Injustice: On Utopian Activism", Arab Studies Quarterly 29, np. 34- (Summer/Fall 2007): 57 - 73.

(18) Al-Banna.

(19) Hagopian, "Ibrahim and Edward.»

(20) Hovsepian.

(21) Farer.

(22) FBI; David Price, "How the FBI Spied on Edward Said", CounterPunch, Jan. 13, 2006.

(23) FBI.

(24) Price, "How the FBI Spied on Edward Said.»

(25) PPC, 171; PD. 30.

(26) Shafiq Al-Hout, My Life in the PLO (London: Pluto Press, 2011), 9, 78.

(27) Al-Banna.

(28) Jim Schachter, "Said Says He Would Not Take Offer to Be the Palestine Rep", Columbia Daily Spectator, Nov. 16, 1977.

(29) David Margules and Megan Gallagher, "Press Service Calls Said Sadat's Pick", Columbia Daily Spectator, Nov 16, 1977.

(30) PD, xxii.

(31) EWS to "Erwin", March 20, 1973. EWSP. 5:5:I.1.; PPC, 271.

(32) B, 373.

(33) EWS to Monroe Engel, Nov. 29, 1972, EWSP, 5:3:I.1.

(34) EWS, "Between Worlds", in RE, 565

(35) RE, 519.

(36) Barbara Harlow, conversation with author, ca. 1998.

(37) RE, 322.

(38) Ibid., 48 - 49.

(39) Ibid., 56 - 57.

(40) EWS to David Grossvogel (Diacritics editor), July 10, 1973. EWSP, 5:6:I.1.

(41) Klein to EWS, n.d., EWSP, 109:1:II.1.

(42) Engel to EWS, n.d., EWSP, 28:22:I.1.

(43) Weiseltier.

(44) Tanner to EWS, July 7, 1976, EWSP, 29:25:I.1.

(45) EWS, "Interview", Diacritics 6, no. 3 (Fall 1976): 30 - 47.

(46) EWSP, 40:23:II.1.

(47) See Mohmad Shaheen, ed., Edward Said: Riwayah lilajyal [Edward Said: A story for the future] (Beirut: Arab Institute for Research and Publication, 2004).

(48) See EWS to Ellen Graham, June 2, 1976, EWSP, 29:25:I.1.

ظهرت منظوراته المتطورة لما بعد البنيوية ببساطة في هذا التقرير الإيجابي عموما للقراء في كتاب جفري هارتمان Geoffrey Hartman «النقد في البرّية» Criticism in Wilderness، حيث تذمّر من أن هارتمان يعرض في بعض الأحيان «جانبا من دريدا وجدته هو الأقل إقناعا؛ هو رواسب التغريض والتباهي الهوسرليين».

(49) HDC, 11 - 12, 51.

(50) EWSP, 97:1:III.1.

(51) EWS, "The Return to Philology" (talk delivered at the American University of Cairo, Dec, 1994), EWSP, 75:1:II.3.

(52) ESR, 436.

(53) B, 378.

(54) Ibid., 316.

(55) EWS, "Witholding, Avoidance, and Recognition", 22, EWSP, 72:14:II.2.

(56) EWSP, 77:32:II.4.

هذه الملحوظة جزءٌ صغير مدفون ضمن مسوّداته لإنتاجه القصصي والشعري، وهي غير مؤرخة، ويمكن تقدير تاريخها بأوليات الستّينيات.

(57) EWS, "Witholding, Avoidance, and Recognition", 23

(58) Max Harold Fisch, introduction to The Autobiography of Giambattista Vico, Trans Max Harold Fisch and Thoas Goddard Bergin (Ithaca, New York: Cornell University Press, 1944), xxi.

(59) أحد المنظمين كان جيورجيو تاغلياكوزو Giorgio Tagliacozzo، وكان ضمن المحيط الاجتماعي لسعيد في نيويورك، وقد عمل محاضرا في تاريخ الأفكار في الجامعة الجديدة The New School بنيويورك بين العامين 1946 و1961. وانضم إلى Donald Phillip Verene ليؤسس معهد فيكو Vico Institute في العام 1974. وكلتاهما حافظت على انسجامها مع سعيد.

(EWSP, 29:21:I.1., 29:22:I.1. 29:24:I.1).

(60) John Simon to EWS, July 30, 1980, EWSP, 5:16:I.1.

(61) EWS, "Michel Foucault (19271984-)", Raritan 4, no. 2 (1984):188.

(62) EWS, "An Ethics of Language: The Archaeology of Knowledge and the Discourse of Language by Michel Foucault", Diacritics 4, no. 2 (Summer 1974): 31.

(63) Ibid., 28.

(64) Yelin.

(65) EWS. "Ethics of Language", 28.

(66) EWS, "Michel Foucault as an Intellectual Imagination", boundary 2 1,

no 1 (Fall 1972), 2.

(67) EWS to Cixous, Jan. 15, 1973, EWSP, 5:4:I.1.

(68) Foucault to EWS, n.d. (ca. Dec 1972), EWSP, 5:3:I.1 (Trans Emilie Pons and the author).

(69) EWS to Foucault (-in French), Jan. 15, 1973, EWSP, 5:4:I.1. (My translation).

(70) في العام 1979 فهم سعيد أن فوكو داعم لإسرائيل.

EWS, "Diary: My Encounter with Sartre", London Review of Books, June 1, 2000.

(71) EWS, "Foucault as an Intellectual Imagination", 5.

(72) Ibid, 25.

(73) Ibid., 2.

(74) EWS. "Michel Foucault (1927 - 1984)", 192.

(75) Ibid., 194. In "An Ethics of Language", Said identifies Foucault's suppressed sources as Michael Polanyi, Thomas Kuhn, and Georges Canguilhem.

(76) B, 334, 337.

(77) EWS to Louise Adler, Sept. 16, 1981, EWSP. 5:5:I.1.

(78) EWS, recommendation for James Merod, Oct. 25, 1981. EWSP, 5:6:I.1.

(79) Gabriel Kolko, Main Currents in Modern American History (New York: Harper & Row, 1976), vii-viii.

(80) EWSP, 31:3:I.2. EWS to Raskin, March 25, 1983, EWSP, 6:21:I.1.

(81) Jonah Raskin, the Mythology of Imperialism: A Revolutionary Critique of British Literature and Society in the Modern Age (New York: Monthly Review Press, 1972), 3 - 4, 11 - 12.

(82) Columbia Daily Spectator, Nov. 22, 1977.

(83) Levin to EWS, July 29 [incorrectly marked June 29], 1976, HL.

(84) EWS to Levin, Aug. 2, 1976, HL.

الفصل السابع

(1) من كتاب للأغاني تستعمله القوّات الجوية الأمريكية أرسله كيث بيوكانن Keith Buchanan وزوجته آن Anne إلى سعيد في 12 سبتمبر 1987، EWSP, 10:9:I.1.

(2) طريف الخالدي.

(3) O, 5.

(4) WTC, 282, 250

(5) O, 22.

(6) Ibid., 20.

(7) Daniel Martin Varisco, Reading Orientalism: Said and the Unsaid (Seattle: University of Washington Press, 2007; Ibn Warraq, Defending the West: A Critique of Edward Said's "Orientalism" (Amherst, N.Y.:

Prometheus Books, 2007); Robert Irwin, For Lust of Knowing: The Orientalists and Their Enemies (London: Penguin, 2006).

(8) من سعيد إلى الآنسة توبي غوردن، في 22 مارس 1978، EWSP, 111:2:II.1.

(9) من سعيد إلى لڤن، 26 يناير و7 فبراير 1978، HL.

(10) مريم سعيد. كان من رأي چومسكي أن الترتيب معقول: «تحدَّثنا عن هذه الأمور كلها».

(11) من چومسكي إلى سعيد في 7 أغسطس 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(12) للاطلاع على بعض مسوَّدات كتاب الاستشراق انظر:

EWSP, 47:19:II/1 and 47:20:II.1

(13) ليس ڤييتنام وحدها. فقد ظهر الكتاب قبل سنة واحدة فقط من الثورات الاشتراكية في كلٍّ من نيكاراغوا، وإل سلفادور، وغرانادا، والفلبين.

(14) من سعيد إلى شاحاك، في 7 يناير 1978، EWSP, 116:33:II.4.

(15) من سعيد إلى فريال هوپكنز، 19 أبريل 1976، EWSP, 29:24:I.1.؛ شرح عن مشروع البحث المقدَّم لمركز الدراسات المتقدّمة في العلوم السلوكية (1975-1976)، PPC, 168.

(16) من سعيد إلى روجر أُوِن في 19 يوليو 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(17) البنّا.

(18) من توم فيرر إلى سعيد في 14 يونيو 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(19) كول Cole.

(20) ألپرز.

(21) كول.

(22) ألپرز.

(23) من چومسكي إلى سعيد الفيلولوجيا 28 يوليو 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(24) O, 307.

(25) Seymour M. Hersh, "The Grey Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib", New Yorker, May 24, 2004.

(26) M. Cherif Bassiouni, "The AAUG: Reflections on a Lost Opportunity", Arab Studies Quarterly 29, no. 34- (Summer/Fall 2007): 29 - 30.

(27) EWS, "Diary: My Encounter with Sartre," London Review of Books, June 1, 2000, 42.

(28) Nasser Aruri, ed., Middle East Crucible: Studies in the Arab-Israeli War of October 1973 (AAUG Monograph Series, 1975) 14 / 6 / 1976,

من عبدالملك إلى إدْوَرد سعيد EWSP, 29:25:I.1.

(29) أجاب عبدالملك إجابة معقولة بقوله إن كتابات سعيد ذات العلاقة لم تكن ذات وجود ملموس قبل 1970-1971. انظر رسالة عبد الملك إلى سعيد في 9 يوليو 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(30) من سعيد إلى عبدالملك في 14 يوليو 1976، EWSP, 29:25:I.1.

(31) هذه تُهمة وجهها من بين آخرين جيمز كْلِفُرد:

James Clifford,"On Orientalism," in the Predicament of Culture: Twentieth-Century Ethnography, Literature, and Art (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1988.

وانظر سعيد:

Columbia Forum 12, no. 4 (Winter 1969), 2431- “A Palestinian Voice».

(32) PD, 15؛ ورسالة من سعيد إلى السيد لُك (Locke) من مجلّة The New York Times Book Review بتاريخ 22 نوفمبر 1972، EWSP, 5:4:I.1.

(33) Burns.

(34) EWSP, 71:8:II.2؛ سعيد: تمهيد لكتاب:

Jewish History, Jewish Religion: The Weight of Three Thousand Years, by Israel Shahak (1994, London: Pluto Press, 1997); EWSP: 70:16:II/2.

(35) PD, 391.

(36) Nancy Elizabeth Gallagher, “Interview with Albert Hourani”, in Approaches to the History of the Middle East: Interviews with Leading Middle East Historians (Berkshire, UK: Ithaca Press, 1996); PD, 391.

كان هيكل رئيس صحيفة «الأهرام» اليومية.

Abdullah Laroui, Language crise des intellectuels arabes: Traditionalisme ou historicisme? (Paris: Maspero, 1974), 2, 5.

(37) Basim Musallam, “Power and Knowledge”, MERIP Reports 79 (June 1979), 20.

(38) مما يلفت النظر أن جِسَپ Jessup كان جدّ إدورد پالمر تومپسن [المؤرخ الاشتراكي البريطاني وداعية السلام].

(39) Gallagher, “Interview with Albert Hourani”, 39.

(40) EWS, “Unfinished Intellectual Work”, EWSP, 71:1:II.1.

(41) من سعيد إلى زريق في 18 فبراير 1974، EWSP, 30:5:I.1.

(42) EWS, The Special Relationship Between Thoughts and the Intellectual, trans. from the Arabic by Joseph Farag, Al-Majallah, Jan, 30k 1880, 24 - 25.

(43) من سعيد إلى توم فيرر، 13 فبراير 1976، EWSP. 30:23:I/1.

(44) Emanual Hamon, dir.., Selves and Others: A Portrait of Edward Said (2004).

(45) O, 6.

(46) ESR, 436; O, 14.

(47) Roger Scruton, Thinkers of the New Left (London: Longman, 1985).

تظهر صورة سعيد على غلاف الطبعة الأمريكية إلى جانب صور لاكان، وسارتر، وفوكو، وآخرين.

(48) سعيد، نعي رَيْمُنْد وِلْيَمْز (مسوَّدة)، EWSP, 67:1:II.2.

(49) Yelin.

(50) حديث مع المؤلِّف، خريف 1982، في نيويورك.

(51) EWS, “Raymond Williams,” Nation, March 5, 1988. PD, 93; Raymond Williams and Edward W. Said, “Media, Margins, and Modernity,” in Raymond Williams, the Politics of Modernism: Against the New Conformists (London: Verso, 1989), 178.

(52) Raymond Williams, the Country and the City (Oxford U.K.: Oxford University Press, 1973, 289.

(53) Ibid., 302.

(54) Ibid., 279.

(55) Ibid., 270 - 81.

(56) B, 353 - 54.

(57) طلب سعيد ممن حضروا سلسلة محاضراته المسمّاة محاضرات غاوس (Gauss lectures) أن يقرأوا مقالة فوكو بعنوان «أسئلة عن الجغرافيا» التي ظهرت في Herodote (1976)؛ WTC, 220.

(58) من سعيد إلى فريال غزول، 28 فبراير 1978، EWSP. 30:7:I.1.. كانت المحاضرة التي ألقيت باللغة الفرنسية غير معنونة: EWSP, 116:33:II.4.

(59) EWS, “Arabs, Islam, and the Dogmas of the West”, New York Times Book Review, Oct. 31, 1976; see EWSP, 90:8:II.2.

(60) من سعيد إلى الدكتورة مَيري إلِن لُندستاين Mary Ellen Lundstein في 21 نوفمبر 1978، EWSP. 5:9:I.1؛ ورسالةَ من وسْت إلى سعيد بلا تاريخ (تقريبا العام 1978)، EWSP, 5:9:I.1.

(61) Said, G.

(62) Said Makdisi.

(63) Kairallah (Khairallah يقصد).

(64) Al-Azm.

(65) من سعيد إلى العظم، EWSP, 30:15:I.1.

(66) ظهرت ترجمتان أخريان باللغة العربية لكتاب «الاستشراق». وهنالك ترجمات جيّدة لكتب ومقالات أخرى لسعيد قام بها من بين آخرين فواز طرابلسي، ومحمد شاهين، وصبحي الحديدي. وتعدّ ترجمة طرابلسي لكتاب Out of Place [بعنوان «خارج المكان»] أوسع كتب سعيد قراءة في العالم العربي.

(67) العظم.

(68) أبو ديب.

(69) Varisco, Reading Orientalism, 23.

(70) Ibid. Warraq, Defending the West, 19; Irwin, For Lust of Knowing, 183.

(71) Irwin, For Lust of Knowing, 197.

(72) Ibid., 296.

(73) مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب (بيروت: دار الفارابي، 1985).

(74) Mintz.

(75) Jacques Berque, “Au dela de l’orientalisme”, Qantara: Le Magazine de l’Institut de Monde Arabe 13 (Oct/Dec. 1994).

(76) Warner.

(77) من سعيد إلى كلية وستمنستر، 24 مايو 1982، EWSP, 6:11:II.1.

(78) من شاحاك إلى سعيد، في 5 سبتمبر 1993، EWSP 29:11:I.1.

(79) PD, 307.

(80) نشرت المناقشات في:

Journal of Palestine Studies, 16, no. 2 (Winter 1987): 85 - 104.

(81) Kairallah (يقصد Khairallah وقد وردت التهجئة الصحيحة في ص204 من المتن).

(82) Wieseltier.

(83) في 4 فبراير 1982 كتب سعيد للدكتور كوننغزفلد P. S. van Koningsveld في جامعة ليدن يعبِّر فيها عن سروره لرؤية فكرته بخصوص جاسوسية سنوك هرخرونيه وقد ثبتت.

(84) O, 95.

(85) EWS, "Interview," Diacritics 6, no.5 (Autumn 1976) knowledge 45.

(86) EWS, "The Problem of Textuality: Two Exemplary Positions", Critical Inquiry 4, no. 4 (Summer 1978): 673.

(87) WTC, 183.

(88) Quoted by Wood, Mitchell.

(89) EWS, "An Exchange on Deconstruction," boundary 28, no. 1 (Fall 1979): 71.

(90) Burns.

(91) O, 52.

(92) Ibid., 11.

(93) Ibid., 104.

(94) Wood.

(95) O, 8.

(96) Morris Kramer, "Said's Splash", in Ivory Tower on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America (Washington, D.C.P Washington Institute for Near East Policy, 2001), 27 - 28.

(97) Aijaz Ahmed, In Theory: Classes, Nations, Literatures (London: Verso, 1992), 197.

(98) David Riesman to EWS, March 19, 1975, EWSP. 19:21:I.1.

(99) «Edward Said: Bright Star of English Literature and P.L.O", New York Times, Feb. 22, 1980, A2.

(100) QP, 56 - 57.

(101) EWS, "Projecting Journalism," Journal of Palestine Studies (Autumn 1995): 5 - 14.

(102) «Alice" to EWS, Jan. 4, 1974, EWSP, 30:5:I.1.

(103) Mary Ann Lash to EWS, March 15, 1978.

(104) EWS to William Warner, Sept. 27, 197, EWSP, 5:9:I.1.

(105) QP, 218.

(106) من زريق إلى سعيد في 20 فبراير 1980، EWSP. 53:7:II.1؛ من سعيد إلى رونيت لنتن Ronit Lentin في 17 مارس 1981، EWSP. 5:25::I.1.

(107) وفقا لما تقوله كارُل Carrol، كان من بين هؤلاء كلٌّ من دايانا تْرِلنغ Diana Trilling، وجون رومانو John Romano، وكْونْتِن أندرسن Quentin Anderson.

(108) EWSP. 48:16:II.1.

(109) لكن انظر كلوڤس مقصود،

The Arab Image (Delhi, Ramlochan, 1963), 12.

(110) دَعَمَ سعيدٌ أيضا «أصوات متعدِّدة، عالم واحد» (Many Voices, One world, UNESCO, 1981)، وهو تقرير رسمي من أجل «نظام إعلامي عالمي جديد» ترأسه شون مكبرايد Sean MacBride الحاصل على جائزة نوبل للسلام. كما أن مكبرايد قد أشرف على تقرير آخر لليونسكو عنوانه «إسرائيل في لبنان» Israel in Lebanon (1983) استنتج بإجماع الأصوات أن إسرائيل ارتكبت جرائم حرب في لبنان. فقد وجدت اللجنة أن أفعال إسرائيل ترقى إلى جريمة الإبادة الإثنية ethnocide.

(111) من سعيد إلى شاحاك، 7 يناير 1978، وصف چومسكي نقد سعيد لوسائل الإعلام بأنه «قريب من نقدِي»؛ چومسكي.

(112) من سعيد إلى ألَن ج. تومَس Alan G. Thomas في 4 نوفمبر 192، EWSP. 17:2:I.1. وكان يحب بوجه خاص كتاب:

Debray, Teachers, Writers, and Celebrities: The Intellectual of Modern France (1981)

(113) EWSP, 75:21:II.5.

(114) PD, 65.

(115) “Palestinian Voice”, 24.

(116) EWS, “Notes on the Arab Intellectuals at Home and Abroad” (undated speech to the AAUG), EWSP, 77:2:II.3.

الفصل الثامن

(1) EWS to “Mr. Mann”, July 15, 1975, 5:9:I.1.

(2) EWS to “Mr. Mann”, July 15, 1975, 5:9:I.1.

(3) من عبدالملك إلى سعيد في 11 يونيو 1978، EWSP, 30:6:I.1.

(4) من سعيد إلى البنّا في 31 يوليو 1972، EWSP, 30:6:I.1.

(5) Salman Rushdie, Joseph Anton (New York: Random House, 2012), 233-34

(6) Najla Said, Looking for Palestine (New York: Riverhead Books, 2015), 36; EWS, “The Acre and the Goat”, New Statesman, May 11, 1979, 68588-.

(7) Said, Looking for Palestine, 85.

(8) EWS to Tony Tanner, Aug 4, 1979, EWSP, 30:5:I.1.

(9) EWS to Ellison Findley, Oct. 1, 1982, EWSP, 6:16:I.1.

(10) Unsigned letter to EWS, June 27, 1982, EWSP, 6:13:I.1.

(11) Anonymous to EWS, March 19, 1990, EWSP, 13:18:I.1.

(12) Deborah Poole to Joy Hayton, Sept. 23, 1985, EWSP. 8:14:I.1.

(13) Jim Naughton, “The Emerging Voices of the Palestinians”, Washington Post, June 7, 1988.

(14) Poole.

(15) Cole.

(16) EWS, “Leaving Palestine”, New York: Review of Books, Sept. 23, 1999.

(17) Said Makdisi.

(18) IES, 1935-; EWS to Middle East, April 2, 1979.

(19) EWS to To Whom It May Concern, Nov. 20, 1989, EWSP, 13:6:I.1.

(20) EWS to Musa Mazzawi, Aug, 9, 1983, EWSP, 7:2:I.1.

(21) Ibid.

(22) EWS to Kalid [Khalid], el Fahoum and Yasir Arafat, Feb. 16, 1983, EWSP, 75:25:II.5.

(23) RE, 118; WTC, 4, 25; Fred Halliday, The Making of the Second Cold War (London: Verso, 1983, a book that Said promoted. See also WTC, 25; C & I, 27, 284; PD, 54.

(24) Miller.

(25) C & I, 37.

(26) Conor Cruise O'Brien, Edward Said, and John Lukacs, "The Intellectual in the Post-colonial World: response and Discussion," Salmagundi, no, 7071/ (Spring/-Summer 1986): 69; Wood.

(27) President and Mrs. Reagan to EWS, Dec. 1987, EWSP, 10:15:I.1.

(28) EWS to Gary F. Waller, Dec. 17, 1981, EWSP, 6:7:I.1. The Shadow of the West, written and narrated by EWS, directed by Geoff Dunlop (VATV in association with Kufic Films 1982).

(29) Burns.

(30) EWS, Commencement Lecture, AUC, June 17, 1999, EWSP, 31:10:I.2.

(31) PS. 41; David Gerrard, "Said Leads Undergrad Seminar." Columbia Daily Spectator, Jan. 21, 2000.

(32) Taken from his quotation of Morris Lazerowitz's Studies in Metaphilosophy (1964), EWSP, 97:1:III.

(33) In Michael Waldman's "Question of Edward Said", Columbia Daily Spectator, March 4, 1982, Said reported that he was "working on a large study of the role of the intellectual in the 20th century".

(34) EWS to Massimo Bacigalupo, Oct 5, 1979, EWSP, 5:12:I.1: "two books of criticism coming out next year" – The World, the Text, and the Critic and the book on Gramsci and Lukács; EWS to Wilcox, Nov. 19, 1979, EWSP, 5:14:I.1.

(35) عرف سعيد قصة برنال من كتاب غاري ويرسكي:

Visible College: Scientists and Socialists in the 1930s (New York: Viking, 1978)

وهو كتاب قرّره سعيد في سمناراته في بداية الثمانينيات.

(36) EWS to Wilcox, Nov. 19, 1979.

(37) EWS to National Endowments for the Humanities, Oct. 12, 1979, EWSP, 5:13:I.1.

(38) Anderson tp EWS, April 24, 1978, EWSP, 30:6:I.1. In 1977,

قرأ سعيد المناظرة الماركسية الثقافية الخاصة بحقبة ما بين الحربين والتي يُعثر عليها في
Aesthetics and Politics, Paul Feyerabend's Against Method
نقد للعلم من عالِم سابق
Adorno's MinimaMoralia, and Lucio Colletti's Marxism and Hegel. EWS to New Left Books, Sept 27, 1977, EWSP, 5:21:I.1.

(39) من سعيد إلى وِلْككْس في 4 نوفمبر 1980، EWSP, 5:21:I.1.

(40) من سعيد إلى باچيغالوپو في 5 أكتوبر 1979.

(41) من سعيد إلى وِلْككْس في 11 ديسمبر 1980، EWSP, 5:22.I.1.

(42) من سعيد إلى أَلبرت سونَنْفلْد في 1978/8/23، EWSP, 5:9:I.1

(43) من دان أوهارا إلى سعيد في 12 أبريل 1983، EWSP, 83:11:III.1.

(44) ميشيل شودكيوڤتش إلى سعيد في 3 فبراير 1983، EWSP, 6:21:I.1.

(45) من سعيد إلى وِلْككْس في 11 ديسمبر 1980.

(46) EWS, "The Problem of Textuality: Two Exemplary Positions", Critical Inquiry 4, no.4 (Summer1978):675.

(47) من سعيد إلى كمال أبو ديب، 8 ديسمبر EWSP, 29:27:I.1،1977 .

(48) من سعيد إلى مونرو إنغل في 29 نوفمبر EWSP, 5:3:I.1،1972 .

(49) جاكلين أوناسس إلى سعيد في 16 أكتوبر EWSP, 13:3:I.1،1989 .

(50) من سعيد إلى جونَثَن أراك في 19 أبريل EWSP, 29:24:I.1،1976 .

(51) WTC, 191.

(52) Yelin, Dickstein, Ghazoul.

(53) من غولد إلى سعيد في 26 أغسطس EWSP, 5:7:I.1،1978 .

(54) PPC, 198.

(55) من سعيد إلى هيرْب ليبووِتْس في 4 ديسمبر EWSP, 28:22:I.1،1967 .

(56) PPC, 198; HDC,12, 22, 39, 136.

(57) RE, 144.

(58) HDC, 39.

(59) EWS, "Comparative Literature as Critical Investigation", 14, EWSP, 7o:16:II.2.

(60) Ibid.

(61) RE, 125 - 26.

(62) O, 141. See also "Renan's Philological Laboratory", in Art, Politics, and Will: Essays in Honor of Lionel Trilling, ed, Quentin Anderson, Stephen Donadio, and Steven Marcus (New York: Basic Books, 1977), 59 - 98.

(63) O, 140.

(64) HDC, 71.

(65) Nom Chomsky, Language and Responsibility (New York: Pantheon, 1979, 175.

(66) WTC, 249 - 51; EWS, "An Ethics of Language", Diacritics 4, no. 2 (Summer 1974): 32; Donald Phillip Verene, preface to On the Study Methods of Our Time, by Giambattista Vico (Ithaca, N.Y.: Cornell

University Press, 1990), 7.

(67) Rosenthsal

(68) EWS, Seminar Notes for "History of Critical Theories" (1971), EWSP, 83:1:III.1.

(69) Ibid.

(70) EWS, "Beginnings", Salmagundi 2, no. 4 (Fall 1968):45.

هنا كان تعامله مع هيغل إيجابيّا أكثر: «إذا أعدنا صياغة كلمات هيغل فإن من الممكن القول إن مشكلة البدايات هي بداية المشكلة»(41).

(71) علي.

(72) من سعيد إلى ألبرت سونْنْفلْد في 27 أكتوبر EWSP, 5:9:I.1،1978 .

(73) من سعيد أندرس ستيفانسُن في 23 فبراير 1976، EWSP, 29:23:I.1.

(74) EWSP, 66:6:II.2.

(75) EWS, "On Critical Consciousness: Gramsci and Lukács," EWSP, 78:10:II.4; RE, 565.

(76) WTC, 290.

(77) Ibid., 291.

(78) EWS, "Beginnings", 45.

تثبت مراسلاته مع محرِّري كتابه (EWSP, 40:23:II.1) وملاحظاته على كتاب (Beginnings EWSP, 65:2:II.1) أن الكتاب كان استجابة مباشرة لكتاب كرمود.

(79) EWS, "On Critical Consciousness", 4.

(80) Ibid, 11.

(81) ماسيمو باچيغالوپو إلى سعيد في 21 سبتمبر 1979، EWSP, 5:12:I.1.

(82) ملاحظة على هامش المقابلة التي أجرتها جين ستاين مع سعيد في 23 أغسطس 1993 في نيويورك.

(83) (مسوَّدة) نعي رَيْمُنْد وِلْيَمْز الذي كتبه سعيد،EWSP, 67:1:II.2 . انظر النعي في The Nation بتاريخ 5 مارس 1988.

(84) انظر أيضا غموض موقفه بشأن ما إذا كان جيل دولوز محافظا (EWSP, 97:1:III.1).

(85) Raymond Williams and Edward Said, "Media, Margins, and Modernity," in Raymond Williams, The Politics of Modernism: Against the New Conformists (London: EWSP Verso, 1989), 182; WTC, 5; PD, 316; WTC, 267.

(86) EWS, "Conspiracy of Praise", MERIP Reports 15 (Nov.-Dec. 1985).

(87) يتَّضح موقفه من الحقائق الملموسة أكثر ما يتَّضح في رسالة إلى برنامج الأمم المتَّحدة للتطوير بتاريخ 7 مارس 2003، المهم هو كيفية ارتباطها بفرضية من الفرضيات، وكيفية ارتباط الحقيقة بالمصلحة (EWSP, 28:6:I.1).

(88) من سعيد إلى «دورِس» في 8 يونيو EWSP, 30:6:I،1978 .

(89) من سعيد إلى جيمسن في 9 نوفمبر 1977، EWSP, 30:7:I.1.

(90) PPC, 56 - 57.

(91) Miller.

(92) من سعيد إلى لورنس لِپكِنغ في 5 فبراير EWSP, 5:2:I.1،1981 .

(93) PPC, 192:

«في العام 1988... أو حوِاليها كان هنالك كمٌّ هائلٌ من المادَة... من القراءات الجديدة لفانو والنقد الذي يحطٌ من شأنه في الوقت نفسه.

شعرتُ أن تلك القراءة كانت مضللة أو قراءة تخون فانو». كانت مقالة بَبا Bhabha التي تصف فانو بأنه شخص يعاني الغموض النفسي وليس من التغيُّر الثوري قد ظهرت في مجلة New Formations (ربيع العام 1987).

(94) من سعيد إلى وِلْيَم بيرنهارت في 14 أكتوبر 1972، EWSP, 5:2:I.1.

(95) من لِنْدْزي ووترز إلى سعيد في 2 أبريل 1981، EWSP, 5:26:I.1 .

(96) لا يشمل ذلك الكتب التي كتبها بالاشتراك مع آخرين والكراسة المعنونة بـ:

Yeats and Decolonization (Cork: Cork University Press and Field Day Pamphlets, 1988).

(97) RE, 152.

(98) كانت هنالك نماذج أخرى: المقالة التصويرية التي وضعتها سارة غريهام-براون Sarah Graham-Brown بعنوان «الفلسطينيون ومجتمعهم» The Palestinians and Their Society (1980)، وكتاب سوزان مايسلاس Susan Meiselas نيكاراغوا Nicaragua (1981)، وكتاب مالك عَلولة Malek Alloula بعنوان Le harem colonial (1986).

(99) Mohr.

(100) Ibid.

(101) ALS, 6.

(102) من دريدا إلى سعيد في 10 يناير 1987، EWSP, 8:17:I.1 (الترجمة لي).

(103) من كارول كولتر إلى سعيد في 24 يونيو 1988، EWSP, 11:12:I.1.

(104) من مونرو إنغل إلى سعيد في 5 يناير 1989، EWSP, 13:14:I.1 .

(105) نعي كتبه سعيد بمناسبة وفاة آرثر غولد، في 26 فبراير 1989 EWSP, 78:5:II.4.

(106) من مونرو إنغل إلى سعيد في 5 يناير 1989، EWSP, 13:14:I.1؛

Willism E. Cain, "Studying American Aristocrats: An Interview with Arthur R. Gold", ALH 2, no. 2 (Summer 1990): 358 - 73.

(107) "The Shultz Meeting with Edward Said and Ibrahim Abu-Lughud", Journal of Palestinne Studies 17, no. 4 (Summer 1988): 160.

(108) George Shultz, Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State (New York: Scribner's, 1993): 1029.

(109) PD, xxviii; Susan Schendel (Schultz's assistant) to the author, Dec. 12, 2015.

(110) EWS. "Palestine Agenda," Nation, Dec. 12, 1988, 637; PD, 147.

(111) من سعيد إلى مارل كروبر في 5 مارس 1974، من سعيد إلى جونَثَن كول في EWSP, 30:11:I.1.

7 / 5 / 1990، EWSP, 13:24:I.1

(112) Ben Letzler, "Sometimes Wrong, Never in Doubt", Colunbia Daily Spectator, Jan. 28, 2000.

(113) Stern, D.

(114) David.

(115) Stern, D.

(116) Yelin

(117) Wieseltier.

(118) Burns.

(119) EWS,"An Unresolved Paradox", MLA Newsletter (Summer 1999): 3.

(120) Said, N.

(121) Yerushalmi

(122) Poole.

(123) Said, N.

(124) من سعيد إلى إنغل في 22 نوفمبر 1973، EWSP, 5:3:I.1 .

(125) Ruth Halikman,"West Advocates", Columbia Daily Spectator, Oct. 18, 1993.

(126) من سعيد إلى «جِمي» في 16 ديسمبر 1972، EWSP, 5:4:I.1 .

(127) Miller.

(128) Burns.

(129) Davis.

الفصل التاسع

(1) Alain, a.k.a. Emile Auguste Chartier, "Propos sur language religion" (1924).

يصف سعيد في كتابه خارج المكان كيف أنه قرأ ألان في العام 1957 التي قضاها في القاهرة (ص258).

(2) PPC, 205.

(3) Ibid., 139.

(4) Poole; Said, N.

(5) Said, W.

(6) Levin on Spitzer, 129.

(7) Guttenplan.

(8) Wypijewski.

(9) Carrol; Said, W.

(10) Said, W.

(11) EWS, Mount Hermon Commencement Speech, June 2002.

(12) Said, N.

(13) Greene.

(14) Said, N.

(15) Said Makdisi, J.

(16) رسالة تِلفونية من سعيد إلى جين ستاين بتاريخ 19 نوفمبر 1994. أرسلتها جين ستاين إلى المؤلِّف في 24 فبراير 2017.

(17) Ben Sonnenberg, “My Montparnasse”, Raritan 10, no. 4 (Spring 1991).

(18) لم تنقطع علاقته بوسائل الإعلام تماما. فقد دعاه جيمز إ. غرينفيلد لحضور غداء لهيئة تحرير مجلّة «نيويورك تايمز» بتاريخ 14 مارس 1989 على أمل أن الأحاديث المتبادلة ستتمخّض عنها مقالة ما (EWSP, 12:8:I.1).

(19) باستثناء الرسائل إلى المحرِّر. لكن انظر رسالة باربرة إپستاين إلى سعيد في شهر مارس 1989، وفيها تدعوه إلى الكتابة عن الروائي الألباني إسماعيل قاداري I.1:12:8.

(20) من سعيد إلى سلڤرز في 9 يناير 1983، EWSP, 7:21:I.1.

(21) Wanger.

(22) Ibid.

(23) Salman Rushdie, Joseph Anton, 23233-.

(24) Warner.

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Wilmers.

(28) Ibid.

(29) Ibid

(30) Rosenthal.

(31) Wilmers.

(32) Ibid.

(33) Hovsepian.

(34) EWS, “Who's in Charge?”, Arena Magazine, April 4, 2003, 40; Glass.

(35) Wypijewski.

(36) Ibid.

(37) Ibid.

(38) Said, M.

(39) JoAnn, Wypijewski, “Mementos”, sent to the author on Feb. 19, 2016.

(40) Said, N.

(41) Margaronis.

(42) PPC, 76.

(43) Michael Riffaterre, “A Stylistic Approach to Literary Theory”, New Literary History 2, no. 1 (Autumn 1970): 39, 46.

(44) WTC, 1920-.

(45) 70:16II.2.

(46) WTC, 118.

(47)EWS to Independent, Aug. 29, 1990, EWSP, 71:6:II.2.

(48) ملاحظات أرسلها چومسكي إلى سعيد في 20 يوليو 1985، EWSP, 8:17:I.1.

(49) Jon Whitman to MLA, Sept. 11, 1998; 70:8:II.2.

(50) EWS to MLA, Oct. 8, 1998; 70:8:II.2.

(51) EWS to Ha'aretz, August 28, 2000; 71:1:II.2.

(52) WTC, 28.

(53) منهم على سبيل المثال مهدي عامل، وإعجاز أحمد، ومانفرد سنغ ومريم يونس، وجلبير أشقر، وآخرون. كانت محاولة أحمد أفضل هذه التحدّيات لما أبدته من فهم لمنطلقات سعيد الأدبية.

(54) Seamus Deane, "A Late Style of Humanism", Field Day Review 1 (2005), 198.

(55) In, for example, The New Republic; RE, 141.

ظهرت هذه التهمة في مراجعة لكتاب «الاستشراق» كتبها ليون ويسلتير، أحد طلبة سعيد السابقين، ومع أن التهمة أقرب إلى اللغو فإنها استثارته ليرد على المجلّة في 10 أبريل 1979: «هذا شيء أقرب إلى تصيُّد الشيوعيين على طريقة مكارثي وكون [Cohn] ليس أكثر» (EWSP, 5:15:I.1).

(56) سعيد إلى ردغريڤ في 9 أكتوبر 1992، EWSP, 17:5:I.1.

(57) EWS, "A Palestinian Voice", Columbia Forum 12, no. 4 (Winter 1969): 31.

وهنا كانت الفكرة أن الدعم السوڤييتي جاء متأخِّرا وأقلَّ من اللازم على رغم أهميته.

(58) EWS, "Palestinian Prospects Now: Edward W. Said Speaks with Mark Bruzonsky", Worldview 22:5 (May 1979), 8.

(59) "A Palestinian Voice", 27.

(60) جرى ترتيب جولة يتحدَّث فيها سعيد في كوبا على سبيل المثال في العام 2000، ولكن الجولة ألغيت بسبب تعارض المواعيد. انظر رسالة معهد الكتاب الكوبي إلى سعيد بتاريخ 23 مارس 2000، EWSP, 31:2:II.2؛ EWSP, 32:49:II.2، رسالة سعيد إلى ألكزاندر ج. بيرن بتاريخ 8 فبراير 2001، EWSP, 31:2:II.2.

(61) Christopher Hitchens, Hitch 22 (New York: Twelve, 2010): 386.

(62) Yelin, Rosenthal, Al-Banna.

(63) HDC, 21.

(64) Ibid.

(65) في رسالة التوصية الحارَّة التي كتبها دعما للاقتصادي الاشتراكي الأمريكي والمحرر المشارك لـ Monthly Review هاري مَغْدُف Magdoff الذي قارنه بسقراط (EWSP, 8:2:I.1).

(66) ESR, 435

(67) WTC, 238 - 41.

(68) WTC, 19–20.

(69) CI, 50.

(70) CI. 49, PPC, 335.

(71) EWS, "The Limits of the Artistic Imagination", EWSP, 75:21:II.3.

(72) Mitchell.

(73) Traboulsi; Wood.

(74) Al-Azm.

(75) Chomsky.

(76) في القسم المخصَّص للسؤال والجواب بعد خطبة التخرج في هافرفورد، طُرح عليه سؤال يقول: «ما الذي يجب إصلاحه في رأيك؟»، فأجاب: «الاقتصاد، الاقتصاد»، د. بيرغسن.

(77) Aijaz Ahmed, In Theory: Classes, Nations, Literatures (London: Verso, 1992).

مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ (بيروت: دار الفارابي، 1985).

(78) EWS, "Interview", Diacritics 6, no. 3 (Fall 1976): 36.

(79) QP, 56.

(80) RE, 143; "Interview," Diacritics (op. cit.), 39.

(81) 29:25I.1.

(82) WTC, 78.

(83) 77:24II.4.

(84) EWS, "Notes on the Arab Intellectuals at Home and Abroad" (undated speech to the AAUG); 77:2:II.3.

(85) EPP, 30.

(86) من سعيد إلى سامي البنّا في 7 فبراير 1973، EWSP 5:5:I.1.

(87) Sharon.

(88) B, 158.

(89) Macleod.

(90) Said, M; Said, W.

(91) 112:25III.2.

(92) EWS, "Swift's Tory Anarchy", Eighteenth-Century Studies (Fall 1969), 60.

(93) من سعيد إلى جاك غلنر في جامعة جونز هُبكنز بتاريخ 28 أكتوبر 1968، EWSP, 97:25:III.1.

(94) من سعيد إلى البنّا في 31 يوليو 1972، EWSP, 30:6:I.1.

(95) EWS, "Witholding, Avoidance, and Recognition" (op. cit.) 9.

(96) EWS to Sami Al-Banna (op. cit.).

(97) Hannah Arendt, The Portable Hannah Arendt, edited by Peter Baehr (New York: Penguin, 2000), 169.

(98) 78:5II.4.

(99) سعيد، مقتبسا كلاما من جوزف يروشَلمي في FNE, 31.

(100) FNE, 41; EPP, xiv; PD, 119.

(101) من سعيد إلى براون في 6 ديسمبر 1972، EWSP, 5:4:I.1.

(102) Rose.

(103) JC.

(104) EWS, "Linguistics and the Archaeology of Mind" International Philosophical Quarterly 11:1 (Mar. 1971).

(105) 110:11III.3.

(106) FNE, 52. See in this respect, EWS, "A Jew without Jewishness." Review of Philip Roth's The Counterlife. Guardian (England) (March 13, 1987).

(107) David.

(108) PPC, 61.

(109) Ibid, 217.

(110) من سعيد إلى شخصٍ لم يذكر اسمه، في 31 أكتوبر 1989، EWSP, 13:3:I.1.

(111) RE, xx.

(112) PPC, 147.

(113) ME, xv.

(114) Ibid., 43.

(115) Ibid., 44.

(116) EWS, “Music”, the Nation (Feb. 7, 1987), 160.

(117) Rose; FNE, 72–5.

(118) Said, M.

(119) OP, 11; Said, G.

(120) Ali; Wypijewski.

(121) Bilgrami.

الفصل العاشر

(1) EWS, “The Castle”, written in 1952, MH.

(2) مقابلة مع سعيد نشرتها جريدة «القبس» في 7 – 8 أكتوبر 1989، وأعيد نشرها في:
Israel & Palestine Political Report

(3) من سعيد إلى ليلى شهيد في 28 مارس 1991، EWSP, 15:3:I.1.

(4) EWSP, 11:5:I.1.; EWS the Nation, July 2, 1990, EWSP, 71:8:II.2.

(5) Jerome M. Segal, “Why Israel Needs Arafat”, New York Times, Feb. 7, 1988.

(6) EWS, “Response”, Critical Inquiry 15, no. 3 (Spring 1989): 634 - 46.

(7) EWS, “Freedom and Resistance”, EWSP, 78:5:II.4.

(8) Jean-Francois Lyotard “The Wall, the Gulf, the System”, in Postmodern Fables, trans. George Van Den Abbeele (Minneapolis: University of Minneapolis Press, 1997), 67 - 82.

(9) Said, G.

(10) Tariq Ali, Conversations with Edward Said (Oxford, U.K.: Seagull Books, 2006), 125, 123.

(11) مسوَّدة الرواية وملاحظات عليها أرسلها مايكل وود إلى المؤلِّف في 8 أغسطس 2016.

(12) «إملي» هو اسم والدة فريد حدّاد، وكذلك اسم والدة ابنة عمه آبي Abie في بلدة كوينز Queens، التي يعاملها بقسوة في خارج المكان.

(13) من حنان عشراوي إلى سعيد في 3 مارس 1980، EWSP, 5:19:I.1.

(14) EWS, “The Limits of the Artistic Imagination”, EWSP, 75:21:II.3.

(15) EWS et al., July 2, 1991, EWSP, 30:3:I.2.

(16) OP, 215.

(17) ESR, 11.

(18) Said, M.

(19) Rai.

(20) OP, 216.

(21) EWS, "Said's Lost Essay on Jerusalem: 'The Current Status of Jerusalem", Jerusalem Quarterly 45 (2011): 5772-.

(22) Bergson, D.; Parry

(23) RE, 291.

(24) Ibid.

(25) من سعيد إلى كارتر في 16 سبتمبر 1992، EWSP, 17:6:I.1.

(26) في 31 مارس 1998 قدَّم «حديثا مع إدْوَرْد سعيد عن الشرق الأوسط» انظر التقرير السنوي لمجلس العلاقات الخارجية من 1 يوليو 1997 إلى 30 يونيو 1998، ص6، 61. وفي سبتمبر 1989 طُلب منه رسميا في اجتماع ترأسه سايرس ڤانس ورچرد و. ميرفي أن يردّ على تقرير وكالة المخابرات المركزية عن سورية.

(27) من روكفلر إلى سعيد في 31 أبريل 1984، EWSP, 7:18:I.1.

(28) مقابلة مع سعيد نشرت في «القبس الدولي»، 4.

(29) من چومسكي إلى سعيد في 6 أبريل 1982، أوراق چومسكي في MIT.

(30) Elena Cabral, "CU Professors Awarded Fellowships at Academy", Columbia Daily Spectator, June 12, 1991.

(31) Becky Geller, "Ceremony Honors Professors", Columbia Daily Spectator, April 12, 1994.

(32) من سعيد إلى جورج رپ [Rupp] في 10 يونيو 1993، EWSP, 29:7:I.1.

(33) مكالمة هاتفية مع المؤلِّف في أغسطس، 2003.

(34) سعيد، ن.

(35) OP. 215.

(36) Said, W.

(37) EWS to George Rupp, June 10, 1993.

(38) Bergson, A.

(39) وود.

(40) حبشي.

(41) من سعيد إلى لڤن في 26 ديسمبر 1985، مكتبة جامعة هارڤرد.

(42) ناثانيل دو وسارا بكلي: «سعيد يرفض عرضا للتعليم في هارڤرد»، Columbia Daily Spectator,، 22 أبريل 1993.

(43) EWSP, 29:12:I.1.

(44) المحاضرات التي ألقاها في الكوليج دي فرانس، وهي محاضرات تختلف من بعض النواحي عما نجده في كتاب في الأسلوب المتأخِّر، ألقيت تحت العنوان العام «من أجل تفسير جديد للأشكال الثقافية».

(45) من سعيد إلى بورديو في 1 أغسطس 1996، EWSP, 31:3:I.2 (الترجمة من صنعي).

(46) روز.

(47) في رسالة لجان ستاروبنسكي بتاريخ 22 نوفمبر 1967 عبَّر سعيد عن إعجاب خاص بكتاب لوكاتش التاريخ والوعي الطبقي، حيث يتوسَّع المؤلِّف في الكلام عن مفهوم التشيُّؤ. انظر EWSP, 30:3:I.1.

(48) من سعيد إلى ستاروبنسكي في 22 نوفمبر 1967.

(49) من سعيد إلى إنغل في 7 فبراير 1989، EWSP, 12:2:I.1.

(50) EWSP, 71:12:II.2.

(51) C&I, 13.

(52) Harry Levin, The Gates of Horn: A Study of Five French Realists (New York: Oxford University Press, 1963), viii.

(53) C&I, 5.

(54) من سعيد إلى مونرو إنغل في 7 فبراير 1989.

(55) Susan Fraiman, "Jane Austen and Edward Said: Gender, Culture, and Imperialism", Critical Inquiry 21, no. 4 (Summer 1995); Ralph Locke, "Aida and Nine Readings of Empire", Nineteenth-Century Music Review 3 (2006).

(56) Al-Azm.

(57) Chomsky.

(58) Robert Hughes, "Envoy to Two Cultures", Time, June 21, 1993, 60.

(59) C&I, 8.

(60) Ibid., 292.

(61) Cole.

(62) C&I, xii-xiii.

(63) Ibid., 9; see, for example, Conor Cruise O'Brien, Edward Said, and John Lukacs, "The Intellectual in the Post-colonial World: Response and Discussion," Salmagundi, no. 7071/ (Spring-Summer 1986): 69.

(64) EWS to Harvard University Press, Jan. 11, 1996, EWSP, 29:6:I.1.

(65) C&I, 28, 30.

(66) Ibid., 332.

(67) Ibid., 24, 65.

(68) Ibid., 55, 278.

(69) Ibid., 41.

(70) Ibid., 194.

(71) Ibid.

(72) Locke, "Aida and Nine Readings of Empire," 59.

(73) المؤرخ المقصود هو نيل پَينْتر. انظر رسالة هـ ل. غَيتْس إلى سعيد في 5 يناير 1992، EWSP, 16:7:I.1.

(74) EWS, "The Politics of Knowledge", in RE, 572 - 74.

(75) EWS, "Identity, Authority, and Freedom: The Potentate and Traveler", in RE, 387.

(76) Camille Paglia, "Junk Bonds and Corporate Raiders: Academe in the Hour of the Wolf", Arion: A Journal of Humanities and the Classics I, no. 2 (Spring 1991): 176 - 77.

(77) EWS, to Paglia, Aug. 15, 1991, EWSP. 15:21:I.1.

(78) حديث مع المؤلِّف في نيويورك، في أكتوبر، 1997.

(79) بلغرامي.

(80) من سعيد إلى لاينل ترلنغ في 25 يناير 1973، EWSP, 5:5:I.1.

(81) نفسه، B. 376.

(82) RE, 63.

(83) For example, Deutsche Literatur Im Zeitalter des Imperislismus [1947; German literature of the imperialist period], The Young Hegel (1938), and The Destruction of Reason (1935, 1942, 1954).

(84) EWS, "Opponents, Audiences, Constituencies, and Cmmunity", in the Anti-aesthetic: Essays on Postmodern Culture, ed. Hal Foster (Port Townsend, Wash.: Bsy Press, 1982), 141.

(85) C& I, 186.

(86) Georg Lukács, "The Ideology of Modernism", in the Lukács Reader, ed. Arpad Kadarkay (Oxford, U.K.: Blackwell, 1995), 187 - 88, C& I, 188.

(87) C& I, 189.

(88) من سعيد إلى هايْسمِث في 17 يونيو 1988، EWSP, 11:6:I.1.

(89) PPC, 70.

(90) «Reflections on Twenty Years of Palestinian History", EWSP, 70:16:II.2.

(91) WTC, 114.

(92) EWS, "The Totalitarianism of Mind", review of The Savage Mind, by Claude Lévi-Strauss, Kenyon Review 29, no. 2 (March 1967): 262.

(93) Stern, M.

(94) EWS, from the poem "Retrospect", EWSP, 77:32:II.4.

(95) EWS, "Hans von Bülow in Cairo, EWSP, 77:32:II.4.

(96) RE, 562.

(97) EWS, "the Music Itself: Glenn Gould's Contrapuntal Vision", in Glenn Gould by Himself and His Friends, ed. John McGreevy (Toronto: Doubleday, 1983), 54.

(98) ML, 5.

(99) Ibid., 255.

(100) Nicholas Cook, review of ME, Music and Letters 75, no. 4 (Nov. 1992) 617019.

(101) ME, xix: "Classical Music participates in the differentiation of social space, its elaboration if you will.»

(102) Ibid., 84.

(103) Ibid., 119.

(104) Frruccio Busoni, Sketch of a New Esthetic of Music (New York: G. Schirmer, 1911), 2.

(105) Ews, graduate student notes, EWSP, 77:32:II.4.

(106) Seminar notes, "Music, Cultural Analysis, and Critical Theory", 1987,

EWSP, 77:32:II.4

(107) EWS, “The Future of Criticism” (1984), in RE, 165072. The author attended these seminars.

(108) Cook, review of ME, Music and Letters 73:4 (Nov. 1992), 617 - 19.

(109) EWSP, 77:18:II.4.

(110) Painter.

(111) Ibid., 162 - 4; ME, xvii.

(112) See ML, 3 - 95, especially “Music and Feminism”. He assigned, for example, Alan Durant’s Condition of Music (1984) and Richard Leppert and Susan McClary’s Music and Society (1987) in a seminar in 1991.

(113) Sybotnik to EWS, June 1, 1987, EWSP, 1o:4:I.1.

(114) Kofi Agawu, “Wrong Notes”, Transition 55 (1992): 162 - 66,

(115) Frisch to EWS, April 30, 1993, EWSP, 29:7:I.1.

(116) Abu Deeb, Archive of the Salzburger Festspiele.

(117) C&I, 11617-.

(118) ML, 200, 161, 152.

(119) Barenboim.

(120) Ibid.

(121) For example, EWS to London Review of Books, Sept 9, 1997, EWSP, 29:8:I.1.

(122) ML, 89.

(123) ME, 66, 122, 137.

(124) ML, 89.

(125) Menuhin to EWS, July 25, 1990, EWSP, 13:29:I.1.

(126) Grimshaw.

(127) James to EWS, Aug. 13, 1987, EWSP, 1:8:I.1.

(128) ML, 206.

(129) Allen Evans, Ignaz Friedman: Romantic Master Pianist (Bloomington, Indians University Press, 2009) 242.

الفصل الحادي عشر

(1) EPP, 56.

(2) Eli Sanders, “Chomsky, Said Criticize ‘So-Called Peace Process,’” Columbia Daily Spectator, April 12, 1999.

(3) Said, W.

(4) Al-Banna.

(5) Uwaid Bilban, “The Other Edward Said”, Masharef 23 (Winter 2003).

(6) EWS to Roselle Tekiner, March 8, 1989, EWSP, 12:7:I.1. Dr. Nasser Aruri, A Jewish Thinker in the Tradition of Humanistic Universalism”, Washington Papers on Middle East Affairs (Jan/Feb. 1997), 24, 84.

(7) Ella Shohat “The ‘Postcolonial’ in Translation: Reading Said in Hebrew”, in Edward Said: A Legacy of Emancipation and Representation, ed. Adel Iskandar and Hakem Rustom (Berkeley: University of California Press, 2010), 343.

(8) CR, 5.

(9) Ashrawi.

(10) PeD, 121.

(11) Ibid. 7.

(12) Alexander Cockburn, “Said’s Legacy”, Mother Jones, Sept. 10, 2003.

(13) Ashrawi.

(14) PeD, 119 - 25.

(15) CR, 5, 13, 17.

(16) EPP, xvi.

(17) Musallam.

(18) EWSP, 31:1:I.1.

(19) Istrabadi.

(20) EWS to Al-Rashid, Sept.25, 1990, EWSP, 14:1:I.1.

(21) Ashrawi.

(22) Said, N.

(23) «ينصبُّ اهتمامي بالثقافة الشعبية على ما هو موجود في العالم العربي»، (PPC, 156).

(24) EWS, preface to After the Last Sky (New York: Columbia University Press, 1999).vi.

(25) من سعيد إلى أطلس في 1 فبراير 1988. وافق أطلس على نشر القطعة مادامت سيرة شخصية وليست سياسية: أطلس إلى سعيد في 24 فبراير 1988، WESP, 10:23:I.1. وكذلك WESP, 30:23:I.1.

(26) Mitchell.

(27) Said, G.

(28) Said, M.

(29) EWS, “On Critical Consciousness: Gramsci and Lukács”, EWSP, 78:10:II.4.

(30) ESR, 420.

(31) OP, 33.

(32) Don Guttenplan to EWS, Dec. 16, 194 EWSP, 29:10:I.1; Exiles: Edward Said, directed by Christopher Sykes (BBC2, 1986).

(33) OP, viii; Wanger.

(34) سعيد مقدسي. كان [إدورد] يدّعي أن ذاكرته ذاكرة فوتوغرافية ويقول لأخواته إنهن يفتقرن إليها.

(35) New York Times, May 5, 2000, EWSP, 31:3:II.2.

(36) Said, N.

(37) Gordimer to EWS, Sept. 13 2000, EWSP, 28:13:I.1.

(38) Roth to EWS, Feb 4, 1985, EWSP, 8:2:I.1; EWS to Theroux, Sept.12, 1990, EWSP, 14:4:I.1.

(39) Robert Hughes, "Envoy to Two Cultures", Time, June 21, 1993, 60.

(40) Ali.

(41) OP, 239.

(42) EWS, "An Ark for the Listener", EWSP, 77:2:II.3.

(43) Highsmith to EWS, May 27, 1988, EWSP, 11:6:I.1.

(44) Oe to Grand Street about EWS Sept. 9, 2003, EWSP, 28:13:I.1.

(45) Oe to EWS, Jan. 28, 2002, EWSP, 28:13:I.1.

(46) Gordimer to EWS, Oct. 7, 2001, EWSP, 28:13:I.1.

(48) Rai.

(49) Gordimer to EWS, Jan. 8, 2002, EWSP, 28:13:I.1.

(49) Ahdaf Soueif, The Map of Love (London: Bloomsbury, 1999), 51; Dominique Eddé, Kite, trans. Ros Schwartz (London: Seagull, 2012, published originally as Cerf-volant (Paris: L'Arpenteur, 2003).

(50) Soueif, the Map of Love, 49.

(51) Eddé, Kite, 114 - 15.

(52) David Lehman. "Goodbye Instructions", in Some Nerve (New York: Columbia Review Press, 1973).

(53) Shahak to EWS, Oct. 6, 1986, EWSP, 28:15:I.1.

(54) EWS, "The Limits of the Artistic Imagination", EWSP, 75:21:II.3.

(55) Ashrawi to EWS, March 3, 1980, EWSP, 5:19:I.1.

(56) JoAnn Wypyjewski, "Mementos", sent to author, Feb 19, 2016.

(57) Said, M.

(58) Eqbal Ahmad, the Selected Writings of Eqbal Ahmad, ed. Carollee Bengelsdorf et al. (New York: Columbia University Press, 2006).

(59) Eqbal Ahmad, Confronting Empire, forewords by Edward W. Said and Pervez Hoodbhoy (Cambridge, Mass.: South End Press, 2000).

(60) Ahmad to Tim May and Frank Hanly, BBC Television, Dec. 7, 1992, EWSP, 29:14:I.1.

(61) OI, 98, 102.

(62) EPP, 278.

(63) Ibid., 11, 74 - 107, 249 - 255, 303 - 311.

(64) Ashrawi.

(65) Said, W.

(66) Tom Farer to EWS, March 12, 1991, EWSP, 15:3:I.1.

(67) OI, 155.

(68) Ibid, 228 - 29.

(69) Shahak to EWS, June 25, 1980, EWSP, 5:16:I.1.

(70) Hadidi.

(71) EWS to Zahi Khoury, July 20, 1989, EWSP, 12:14:I.1.

(72) Ibid.; EWS, “Palestine, Then and Now: An Exile's Journey Through Israel and the Occupied Territories”. Harper Magazine, Dec. 1992, 51.

(73) Discussion with Carol Hakim, Jens Hanssen, and Joe Farag, April 10, 2017, Minneapolis.

(74) Ashrawi.

(75) Ammar.

(76) Eisenzweig to EWS, Nov. 10, 1979, EWSP, 5:14:I.1.

(77) EWS, “Palestine, Memory, Invention, and Place”, quoted in Elaine Hagopian, “Palestinian Landscape”, a review of The Landscape of Palestine: Equivocal Poetry, ed Ibrahim Abu-Lughud, Roger Heacock, and Khaled Nashef, Trans Arab Research Institute.

(78) Said, M; Said, W. Traboulsi.

(79) Traboulsi to author, March 31, 2018.

(80) «Columbia Professor Admits to Stoning”, New York Daily News, July 8, 2000. 2.

(81) Cole.

(82) Karen W. Arensen, “Columbia Debates a Professor's Gesture”, New York Times, Oct. 19, 2000, B3.

(83) Hovsepian.

(84) Said, M.

(85) Ibid.

(86) Barenboim.

(87) Ibid.

(88) ML, 261.

(89) Barenboim.

(90) Said, G.

(91) PP, x.

(92) Barenboim.

(93) PP, 29.

(94) Barenboim.

(95) Rose.

الفصل الثاني عشر

(1) Theodor Adorno, Minima Moralia: Reflections from Damaged Life (1951; London: Verso, 1999), 25.

(2) OP, 105.

(3) Wood.

(4) Said, M.

(5) Said, W.; Said N.

(6) Rai.

(7) Said, M.

(8) Soueif.

(9) EWSP, 78:13:II.4.

(10) Alexander Cockburn, “Edward Said: A Mighty and Passionate Heart”, CounterPunch, Sept. 25, 2003.

(11) Rai.

(12) Emily Eakin, “Look Homeward, Edward”, New York, Sept. 27, 1999.

(13) EWS, “Timeliness and Lateness: Health and Style”, talk delivered at the Faculty of Medicine, College of Physicians and Surgeons of Columbia University, Dec. 12, 2000), EWSP, 75:12:II.3.

(14) Rai.

(15) Ben Letzler, “Edward Said: Fat”, Columbia Daily Spectator, Sept. 25, 2000.

(16) Quoted in Awi Federgruen and Robert Pollack, “Rock-Throwing by Said Should Not Be Excused,” Columbia Daily Spectator, Sept. 5, 2000.

(17) Shaheen.

(18) Mariam Said to author, Feb 24, 2019.

(19) H. Aram Veeser, Edward Said: The Charisma of Criticism (New York: Routledge, 2010).

(20) RE, 116.

(21) Alexander Cockburn, “Remembering Ben Sonnenberg”, Counerr Punch, Sept. 16, 2010.

(22) Dominique Eddé, Edward Said: Le roman de sa pensée (Paris: Language Fabrique, 2017.

(23) Khalidi, R.

(24) Camus’s “jejune formula: and so on (C&I, 176, 179); Orwell’s “Cold War polemic… comfortably protected from history’s ‘unique fuss’” and so on (ibid., 21, 27).

(25) Blythe.

(26) Abu Deeb.

(27) EWS, review of Walter Lippmann and the American Century, by Ronald Steel, London Review of Books, 5 - 18 March, 1981.

(28) EWS, “Introduction to Noam Chomsky”, EWSP, 75:11:II.3.

(29) EWS, “Chomsky and the Question of Palestine”, in PD.

(30) Aijaz Ahmad, In Theory: Classes, Nations, Literatures (London: Verso, 1992).

(31) HDC. 71.

(32) These included “Intellectuals and Comparative Literature”. EWSP, 111:20:II.3; and “Comparative Literature as Critical Investigation” and

"Translation and the New Humanism", EWSP, 70:16:II.2.

(33) Especially in essays for the Arab press: "Millenial Reflections: Heroism and Humanism", Al-Hayat, Jan. 12, 2000, and "Humanism: Backlash and Backtrack", Al-Ahram Weekly, Sept. 27- Oct. 3, 2001.

(34) Dan Laidman, "Prof. Said Speaks of Humanism", Columbia Daily Spectator, Feb.17, 2000.

(35) PPC, 70; Harry Levin, Grounds for Comparison, (Cambridge, Mass,: Harvard University Press, 1972), 92.

(36) EWS, "Humanism and Heroism", Al-Ahram, 6 - 12 Jan., 2000.

(37) PPC, 191.

(38) At the Italian Academy for Advanced Studies (Columbia University), at the he University of London, and at Wolfson College, Oxford.

(39) B, 260.

(40) "Too Much Work" (1999), EWSP, 71:12:II.2, published in Al-Ahram, Feb. 7, 2001.

(41) Ibid, 261.

(42) EWS, "Diary: My Encounter with Sartre", London Review of Books, June 1, 2000.

(43) David Shspiro to EWS, April 5, 1984, EWSP, 7:11:I.1.; Andreas Huyssen to EWS, Jan.9, 1984, EWSP, 7:7:I.1.; the essay in question was "Remembrance of Things Played" (1985). See ML, 17 - 19.

(44) EWSP, 97:9:III.1.

(45) ML, 272 - 73.

(46) Ibid., 153.

(47) Ibid., 33.

(48) Ibid., 51.

(49) LS, 14.

(50) Ibid., 21.

(51) Class notes for the seminar "Culture and Criticism", EWSP, 97:4:III.1.

(52) Theodor W. Adorno, "Late Style in Beethoven", trans. Susan H. Gillespie, Raritan 13, no.1 (Summer 1993): 102 - 107.

(53) Ibid.

(54) ML, 300 - 301.

(55) FNE, 28 - 29.

(56) EWSP, 80:41:II.5.

(57) "EWS, "Adorno as Lateness Itself", in Apocalypse Theory and the Ends of the World, ed. Malcolm Bull (Oxford, U.K,: Blackwell, 1995), 264-81.

(58) PPC, 458.

(59) Hovsepian

(60) Stone to EWS, 1978, EWSP, 28:15:I.1.

(61) Said, W.

(62) EWS, “Cosi fan tutte at the limits”, Grand Street 16, no. 2 (Fall 1997): 93 - 106

(63) Giuseppe di Lampedusa, The Leopard, Trans Archibald Colquhoun (1958; New York: Pantheon, 1960), 205,

(64) Luchno Visconti, The Leopard (film), 1963; cf. the novel, 209.

(65) مكالمة تلفونية مع المؤلِّف في يونيو 2003.

(66) EWS to Oe, March 6, 2002, EWSP, 28:13:I.1.

(67) EWS interview with Oe, Grand Street, 1995, EWSP, 80:19:II.5.

(68) EWS to Oe, n.d. (ca. Jan. 2002), EWSP, 28:13:I.1.

(69) EWS to Rachel Feldhay Brenner, Dec. 11, 1991, EWSP, 15:28:I/1.

(70) Berger.

(71) Sharon.

(72) R.P. Blackmur, A Primer of Ignorance, ed. Joseph Frank (1940; New York: Harcourt, Brace & World, 1967), 7.

(73) Wypijewski, “Mementos”, sent to the author on Feb. 19, 2016.

مفتاح للمصادر


Withe

أعمال يكثر سعيد من الاستشهاد بها		
ALS	*After the Last Sky*	بعد السماء الأخيرة
B	*Beginnings*	البدايات
BV	*Blaming the Victims*	لوم الضحايا
CES	*Conversations with Edward Said*	حوارات مع إدْوَرْد سعيد
C & I	*Culture and Imperialism*	الثقافة والإمبريالية
CI	*Covering Islam*	تغطية الإسلام
CR	*Culture and Resistance*	الثقافة والمقاومة
EGP	*Edward Saïd: Entre Guerre et Paix*	إدورد سعيد: بين الحرب والسلام
EPP	*The End of the Peace Process*	نهاية عملية السلام
ESR	*The Edward Said Reader*	من كتابات إدْوَرْد سعيد
ER	*Egalité ou rien*	المساواة أو لا شيء
FNE	*Freud and the Non-European*	فرويد وغير الأوروبي
HDC	*Humanism and Democratic Criticism*	الإنسانية والنقد الديمقراطي
IES	*Interviews with Edward Said*	مقابلات مع إدْوَرْد سعيد
JC	*Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography*	جوزف كونراد ورواية السيرة الذاتية
LS	*On Late Style*	في الأسلوب المتأخِّر
ME	*Musical Elaborations*	تفصيلات موسيقية
ML	*Music at the Limit*	الموسيقى في حدّها الأقصى
O	*Orientalism*	الاستشراق
OI	*From Oslo to Iraq and the Road Map*	من أوسلو إلى العراق وخريطة الطريق

OP	*Out of PLace*	خارج المكان
PD	*The Politics of Dispossession*	سياسة الحرمان
PeD	*Peace and Its Discontents*	السلام ومشكلاته
PP	*Parallels and Paradoxes*	المتشابهات والمفارقات
PPC	*Power, Politics, and Culture*	القوَّة، والسياسة، والثقافة
PS	*The Pen and the Sword*	القلم والسيف
QP	*The Question of Palestine*	المسألة الفلسطينية
RE	*Reflections on Exile*	تأملات حول المنفى
WTC	*The World, the Text, and the Critic*	العالم، والنص، والناقد

الأرشيفات

CZ	Constantine Zurayk Papers, American University of Beirut. أوراق قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية في بيروت.
EA	The Eqbal Ahmad Papers, 1956-1999. Archives, Hampshire College, Amherst, MA 01002. أوراق إقبال أحمد، 1956-1999. الأرشيف، جامعة همشفير، أمهيرست، أم أي 01002.
EWSP	Edward W. Said Papers (1940s-2006), MS 1524, Rare Book and Manuscript Library, Columbia University Library. أوراق إدْوَرْد و. سعيد (منذ الأربعينيات حتى العام 2006). المخطوطة 1524. مكتبة الكتب النادرة والمخطوطات، في مكتبة جامعة كولمبيا. كل الإحالات إلى هذا الأرشيف في الهوامش ستستخدم الترتيب الآتي: الصندوق: الملف: السلسلة: السلسلة الفرعية. هذا مثال: الرقم يشير إلى الصندوق 48، الملف 1، السلسلة 2، السلسلة الفرعية 48:1:II:1.1
FBI	Edward William Said, FBI Vault. إدْوَرْد وليم سعيد، سرداب مكتب التحقيقات الفيدرالي.
HL	Harry Levin Papers, Levin-Said Correspondence, MS Am. 2461 (859), Houghton Library, Harvard University. أوراق هاري لَفِنْ، مراسلات لَفِنْ - سعيد ، المخطوطات الأمريكية، 2461 (859)، مكتبة هوتن، جامعة هارڤرد.

HU	Edward W. Said, Harvard University Graduate Student Transcript. إدْوَرْد و. سعيد، سجل علامات طالب الدراسات العليا في جامعة هارڤرد.
IW	Ian P. Watt Papers (SC0401), Department of Special Collections and University Archives, Stanford University Libraries, Stanford, California. أوراق إِيَن پ. وات (المجموعات الخاصَّة 0401)، قسم المجموعات الخاصة وأرشيفات الجامعة، مكتبات جامعة ستانفُرد، ستانفُرد، كاليفورنيا.
MH	Northfield Mount Hermon School Transcripts, Said, 18790MH.01, 02, 03. كشوف علامات مدرسة نورثفيلد ماونت هيرمن، سعيد، 18790 MH.01, 02, 03.
NC	Noam Chomsky Papers, Chomsky-Said Correspondence, MC 600, Box 85, MIT Library. أوراق نعوم جومسكي، مراسلات جومسكي - سعيد، أم سي 600، صندوق رقم 85، مكتبة أم آي تي.
PT	Undergraduate Academic Files, box 169, Said, Edward (1957), AC198, Princeton University Library. الملفّات الأكاديمية لطلبة المرحلة الجامعية الأولى، الصندوق رقم 169، مكتبة جامعة پرنستن، سعيد، إدْوَرْد (1957).KAC198
ST	Edward Said Papers of the Center for Advanced Study in the Behavioral Sciences Records (SC1055), Department of Special Collections and University Archives, Stanford University Libraries, Stanford, Calif. أوراق إدْوَرْد سعيد في سجلات مركز الدراسات المتقدِّمة في العلوم السلوكية (العلوم السلوكية 1055)، قسم المجموعات الخاصة وأرشيفات الجامعة، مكتبات جامعة ستانْفُرد، ستانْفُرد كاليفورنيا.

المقابَلات(*)

الأسماء العربية

أبو ديب، كمال، 2016/1/18، أوكسفُرد، المملكة المتّحدة.

أبو لُغُد، ليلى، 2018/4/15، نيويورك.

أتاسي، محمد علي، 2016/11/28، بيروت.

إدة، دومنيك، 2016/7/8، بيروت.

إدريس، سماح، 2017/4/28، بيروت.

إسترابادي، زينب، 2016/1/6، بلومنغتن، إنديانا.

البنا، سامي، 2016/3/30، 2016/6/4، 2016/8/4، بَتِسْدا، مريلاند.

جندي، ناديا، 2017/5/4، القاهرة.

حبشي، نزيه، 2016/1/23، نيويورك.

حديدي، صبحي، 2015/12/9، باريس.

حكيم، كارول، 2017/4/10، منياپُلِس.

الحوت، بيان، 2017/2/26، بيروت.

خالدي، رشيد، 2018/4/13، نيويورك.

خالدي، طريف، 2015/12/15، بيروت.

خالدي، محمد علي، 2018/9/11، تورونتو.

خير الله، أسعد، 2016/11/25، بيروت.

سعيد مقدسي، جين سعيد مقدسي، 2016/11/25، بيروت.

سعيد، غريس، 2016/11/25، بيروت.

سعيد، مريم، 2015/9/29، 2016/8/14، 2017/7/11، نيويورك.

سعيد، نجلا، 2016/5/30، 2016/8/1، نيويورك.

سعيد، وديع، 2016/2/16، 2019/3/10، كولمبيا، ساوث كارولاينا.

سويف، أهداف، 2017/4/2، لندن.

شاهين، محمد، 2016/2/15، 2016/11/25، بيروت وعمّان.

صبّاغ، كارل، 2016/2/23، لندن.

طرابلسي، فوّاز، 2016/1/24، بيروت.

عشراوي، حنان، 2018/6/7، رام الله.

العظم، صادق، 2015/12/19، برلين.

علي، طارق 2016/6/2، لندن.

عمّار، إبراهيم، 2017/5/5، وودبري، نيو جيرزي.

غزول، فريال، 2016/4/6، القاهرة.

فاهي، ساندرا، 1/4/ 2016، نيويورك.

قرطاس، نديم، 2016/11/26، بيروت.

(*) وضع المؤلِّف جميع الأسماء في قائمة ألفبائية واحدة، لكن الترتيب الألفبائي يضطرب قليلا عند كتابة الأسماء باللغة العربية، لذلك رأيت أن من الأفضل وضع قائمتين، واحدة للأسماء العربية وواحدة للأسماء الأجنبية، واعتماد الاسم الأخير في الحالتين. . [المترجم].

كردوش، جورج، 2016/5/10، مصر، البحر الأحمر.
مالك، نبيل («بل»)، 2018/8/17، پورتسمُث، رود آيلَنْد.
مسلَّم، باسم،2015/12/17، كيمبرِج، المملكة المتَّحدة.

الأسماء الأجنبية

ألپرز، سڤتلانا، 2017/12/5، نيويورك (بالمراسلة).
أوكونل، دان، 2018/8/13، نيويورك.
بارسميان، ديڤد، 2018/5/7، بولدر، كولورادو.
بارنبويم، دانيل، 2017/1/22، نيويورك.
بريغر، غوتفريد، 2015/12/1، ديترويْت.
بلايذ، چارلز، 2015/11/30، كيمبرج، ماسَچوستْس.
بلغرامي، أكيل، 25/3/ 2017، نيويورك.
بندر، جون، 2017/4/1، منياپُلِس.
بيرغر، جون، 2/12/ 2015، أنتوني، فرنسا.
بيرغسن، د، ديردره، 2015/9/23، نيويورك.
بيرغسن، أ، ألن، 2015/9/23، نيويورك.
بيرنز، رِك، 2016/6/6، نيويورك.
پاري، بنيتا، 2018/11/23، مِند لاندِغاي، ويلْز.
پول، ديبرا، 2016/4/4، بولتِمور.
پيتربيرْغ، غيبريل، 2015/12/3، لوس أنجلس.
پينتر، كارن، 2015/12/16، منياپُلِس.
چومسكي، نُوَم، 2016/2/12، كيمبرج، ماسَچوستْس.
دكستاين، مورِس، 2016/4/9، نيويورك.
دِلَيني، شيلا، 2017/6/23، ڤانكوڤر.
ديڤد، ديردره، 2015/12/11، نيويورك.
ديڤس، لِنَرْد، 2018/11/10، نيويورك.
راي، كانتي، 2015/12/21، نيويورك.
رِچَتي، جون، 2017/4/1، منياپُلِس.
روز، جاكلين، 2016/2/10، لندن.
روزنثال، مايكل، 2015/12/22، نيويورك.
ستاين، جين، 2017/3/24، نيويورك.
ستيرن، ديڤد، 2016/4/14 كيمبرج، ماسَچوستْس.
ستيرن، مايكل، 2015/12/22، سان فرانسسكو.
سفتن، إلِزَبث، 2017/1/20، نيويورك.
سولَم، جَون، 2015/12/11، وسْتپورت، كِنَتِكت.
شارون، أندربه، 2016/2/19، نيويورك.
غالَغَر، دوروثي، 2016/7/19، نيويورك.
غُتنپلان، دون، 16/1/5، 2016/1/6، لندن.
غْرَمْشو، آنا، 2018/2/7، أتلانتا.
غرين، غَيل، 2017/8/8، بيركلي، كاليفورنيا.

غْلاس، چارلز، 2016/2/24، نيويورك.
فْريد، مايكل، 2018/12/2، بولتِمور.
فْريدمان، روبرت، 2015/12/18، نيويورك.
فيرر، توم، 2017/7/15، دِنْڤر.
كارُل، كلير، 2015/12/4، نيويورك.
كارنيچلي، توم، 2016/8/3، مَين.
كول، جونَثَن، 2016/1/11، نيويورك.
لُكْ، رالف (مراسلات).
لِنْتن، رونِت، 2016/1/18، دبلن.
لِيمَان، دِيڤد (مراسلات).
مارغَرونِس، ماريا، 2016/3/12، لندن.
مِچِل، و. ج. ت.، 2015/12/14، شيكاغو.
مَكلاود، ألكزاندر، 2015/12/3، ناشڤيل.
ملَر، هِلِس، 2016/1/7، كنَتكت.
مَنْتْس، أَلَن، 2016/1/5، نيويورك.
مور، جين، 2017/4/28، جنيڤ.
هُڤْسِپيان، نوبار، 2016/2/10، كاليفورنيا.
وانغر، شلي، 2016/4/27، نيويورك.
ويبيشڤسكي، جوآن، 2016/2/26، نيويورك.
ولمرز، ميري كَي، 2016/2/22، لندن.
وود، مايكل، 2016/5/27، پرنستن، نيو جيرزي.
وورنر، مارينا، 2015/12/26، لندن.
ويسلتير، ليون، 2015/12/9، واشنطن، مقاطعة كولمبيا.
يروشَلْمي، ديڤد، 2016/7/26، القدس.
يَلِن، لويز، 2015/12/7، نيويورك.


ببليوغرافيا


Withe

كتب سعيد

After the Last Sky: Palestinian Lives. Photographs by Jean Mohr. New York: Columbia University Press, 1986.

The Arabs Today: Alternatives for Tomorrow. Cleveland: Follet, 1972.

Beginnings: Intention and Method. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1975.

Conversations with Edward Said (interview with Tariq Ali). Oxford, U.K.: Seagull Books, 2006.

Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World. New York: Pantheon, 1981.

Culture and Imperialism. New York: Alfred A. Knopf, 1993.

Culture and Resistance: Interviews by David Barsamian. Cambridge, Mass.: South End Press, 2003.

The Edward Said Reader. Edited by Moustafa Bayoumi and Andrew Rubin. New York: Vintage, 2000.

The End of the Peace Process: Oslo and After. New York: Pantheon, 2000.

Entre guerre et paix. Translated by Béatrice Vierne. Preface by Tzvetan Todorov. Paris: Arléa, 1997.

Freud and the Non- European. New York: Verso, 2003. From Oslo to Iraq and the Road Map. New York: Pantheon Books, 2004.

From Oslo to Iraq and the Road Map (NY: Pantheon Books, 2004).

Humanism and Democratic Criticism. New York: Columbia University Press, 2004.

Interviews with Edward Said. Edited by Amritjit Singh and Bruce G. Johnson. Jackson: University Press of Mississippi, 2004.

Israël, Palestine: L'égalité ou rien. Translated by Dominique Eddé and Eric Hazan. Paris: La Fabrique, 1999.

Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1966.

Musical Elaborations. New York: Columbia University Press, 1991.

Music at the Limits. New York: Columbia University Press, 2008.

On Late Style: Music and Literature Against the Grain. New York: Pantheon, 2006.

Orientalism. New York: Vintage, 1978.

Out of Place: A Memoir. New York: Vintage, 1999.

Peace and Its Discontents: Essays on Palestine in the Middle East Peace Process. New York: Vintage, 1993.

The Pen and the Sword: Conversations with David Barsamian. Chicago: Haymarket Books, 1994.

The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-Determination, 1969–1994. New York: Pantheon, 1994.

Power, Politics, and Culture: Interviews with Edward Said. Edited by Gauri Viswanathan. New York: Vintage, 2001.

The Question of Palestine. New York: Times Books, 1979.
Reflections on Exile and Other Essays. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2000.
Representations of the Intellectual. New York: Pantheon, 1994.
The World, the Text, and the Critic. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983.
Yeats and Decolonization. Cork: Cork University Press and Field Day Pamphlets, 1988.

كتب مع آخرين

Acts of Aggression: Policing Rogue States. With Noam Chomsky and Ramsey Clark. New York: Seven Stories, 1999.
Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question. With Christopher Hitchens. New York: Verso, 1988.
The Entire World as a Foreign Land. With Mona Hatoum and Sheena Wagstaff. London: Tate Gallery, 2000.
Intellectuals. With George Steiner, William Pfaff, and John Lukacs. Edited by Robert Boyer. Saratoga Springs, N.Y.: Skidmore College, 1986.
Nationalism, Colonialism, and Literature. With Terry Eagleton and Fredric Jameson. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1990.
Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society. With Daniel Barenboim. Edited by Ara Guzelimian. New York: Vintage, 2002.
A Profile of the Palestinian People. With Ibrahim Abu-Lughod, Janet L. Abu-Lughod, Muhammed Hallaj, and Elia Zureik. Chicago: Palestine Human Rights Campaign, 1983.
Reaction and Counterrevolution in the Contemporary Arab World. With Walter Carroll and Samih Farsoun. N.p.: AAUG, 1978.

كتب محرَّرة

The Arabs Today: Alternatives for Tomorrow. With Fuad Suleiman. Columbus, Ohio: Forum Associates, 1973.
Henry James: Complete Stories, 1884–1891. New York: Library of America, 1999.
Kim. By Rudyard Kipling. London: Penguin, 1987.
Literature and Society: Selected Papers from the English Institute, 1978. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1980.

مقدِّمات، كلمات افتتاحية، كلمات تمهيدية، كلمات ختامية

“Afterword: The Consequences of 1948”. In The War for Palestine: Rewriting the History of 1948. Edited by Eugene Rogan and Avi Shlaim. London: Cambridge University Press, 2001.
Foreword to Beyond the Storm: A Gulf Crisis Reader. Edited by Phyllis Bennis and Michel Moushabeck. Brooklyn: Olive Branch Press, 1991.
Foreword to the Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians, by Noam

Chomsky. Chicago: Haymarket, 1983.
Foreword to I Saw Ramallah, by Mourid Barghouti. Cairo: American University of Cairo Press, 2000.
Foreword to Jewish History, Jewish Religion: The Weight of Three Thousand Years, by Israel Shahak. London: Pluto Press, 1997.
Foreword to Language and Colonial Power: The Appropriation of Swahili in the Former Belgian Congo, 1880–1938, by Johannes Fabian. Berkeley: University of California Press, 1986.
Foreword to The Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India and the East, 1680–1880, by Raymond Schwab. Translated by Gene Patterson-Black and Victor Reinking. New York: Columbia University Press, 1984.
Foreword to Peace under Fire: Israel, Palestine, and the International Solidarity Movement. Edited by Ghassan Andoni, Huwaida Arraf, Nicholas Blincoe, Hussein Khalili, Marissa McLaughlin, Radhika Sainath, and Josie Sandercock. New York: Verso, 2004.
Foreword to the Performing Self: Compositions and Decompositions in the Languages of Contemporary Life, by Richard Poirier. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1992.
Foreword to Selected Subaltern Studies. Edited by Ranajit Guha and Gayatri Chakravorty Spivak. Oxford: Oxford University Press, 1988.
Foreword to Thoughts on a War. Edited by Phyllis Bennis et al. Edinburgh: Canongate, 1992.
Foreword to Unholy Wars: Afghanistan, America, and International Terrorism, by John Cooley. London: Pluto Press, 1999.
Introduction to the Cairo Trilogy: Palace Walk, Palace of Desire, Sugar Street, by Naguib Mahfouz. London: Everyman's Library, 2001.
Introduction to the Language of Modern Music, by Donald Mitchell. London: Faber & Faber, 1993.
Introduction to Mimesis: Representations of Reality in Western Literature, by Erich Auerbach Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2003.
Introduction to Moby-Dick, by Herman Melville. New York: Vintage, 1991.
Introduction to "Saint François d'Assise: An Excerpt from an Opera in 3 Acts and 8 Tableaux" , by Olivier Messiaen. Grand Street 36 (1990).
Introduction to Three Novels, by Joseph Conrad. New York: Washington Square Press, 1970.
"Introduction: Homage to Joe Sacco". In Palestine, by Joe Sacco, Seattle: Fantagraphics Books, 1997.
"Introduction: The Right of Return at Last". In Palestinian Refugees: The Right of Return. Edited by Naseer Aruri. London: Pluto Press, 2001.
Preface to Beirut Reclaimed, by Samir Khalaf. Beirut: Al-Nahar Press, 1993.

Preface to CIA et Jihad, 1950–2001: Contre l'URSS une désastreuse alliance, by John K. Cooley. Paris: Autrement, 2002.

أعمال غير منشورة

أعمال إبداعية

"An Ark for the Listener" (short story, 1957–65).
"Betrayal" (novel draft, 1987–92).
Elegy (novel draft, 1957–62).
Poetry: "The Castle", "A Celebration in Three Movements", "Desert Flowers", "The early morning gently forges...", "Hans von Bülow in Cairo", "Little Transformation", "Old People of the Village", "Requiem," "Retrospect", "Song of an Eastern Humanist", "Vision's Haze", "Windy corners of empty corridors…", "Wistful Music".

مقالات ومحاضرات

"Adonis and Arab Culture" (address to the UN, October 3, 1980).
"The Arab Nation: What Future?".
"The Arabs and the West and the Legacies of the Past".
"Comparative Literature as Critical Investigation".
"Freedom and Resistance".
"Great Issues of Our Time: India and Palestine".
"History, Literature, and Geography" (1994).
"Intellectuals and Comparative Literature".
"Introduction" to B. Rajan (on Milton and the East India Company).
"Jonathan Swift" (Columbia lecture, May 4, 1967).
"Language as Method and Imagination".
"Lecture on Critical Theory".
"Literary Criticism and Politics?".
"Literary Criticism and the Problematic of Language".
"Living with Conrad".
"The Media and Cultural Identity: National Authority or Exilic Wandering?".
"Modernity and Critical Consciousness".
"Note on the Arab Intellectuals at Home and Abroad".
"On Critical Consciousness: Gramsci and Lukacs".
"Response to Richard Kuhns's 'Affect and Reality in Philosophy and Literature'".
"The Second and a Half World".
"T. E. Lawrence Lecture".
"Translation and the New Humanism".
"Unresolved Geographies, Embattled Landscapes".
"Witholding, Avoidance, and Recognition" (published only in Arabic).

أفلام من صنع سعيد

In Search of Palestine, a segment of “Films for the Humanities and Sciences.” Directed by Charles Bruce. BBC, 1998.

In the Shadow of the West, a segment of The Arabs: A Living History, a ten-part series. Directed by Geoff Dunlop. Landmark Films, 1986.

The Palestinians. With Ibrahim Abu-Lughod. Two-part documentary. Directed by David Edgar. BBC Channel 4, 1988.

Pontecorvo: The Dictatorship of Truth. BBC TV, 1992.

أفلام عن سعيد

Exiles: Edward Said. Directed by Christopher Sykes. BBC2, 1986.

The Other (El Akhar, L’autre). French/Egyptian feature film. Directed by Youssef Chahine. 1999.

Out of Place: Memories of Edward Said. Directed by Makoto Sato. 2006.

Selves and Others: A Portrait of Edward Said. Directed by Emmanuel Hamon. Wamip Films, 2004.

قائمة قصيرة من محاضرات ألقاها سعيد ومقابلات مصوَّرة أجريت معه

“Altered States”, Relative Values. Directed by Jake Auerbach. BBC, 1991.

“The Arab World: Who They Are, Who They Are Not.” With Bill Moyers. April 1, 1991. www.youtube.com/watch?v=eI6mjFL80xE.

“Edward Said: The Last Interview.” Directed by Michael Dibb. Icarus Films, 2004. www.youtube.com/watch?v=CxW0uJBWVIY.

“Edward Said on Orientalism.” Directed by Sut Jhally. Media Education Foundation, 1998. www.youtube.com/watch?v=fVC8EYd_Z_g.

“End of Millennium Conversation: Sebastiao Salgado, Eduardo Galeano, Edward Said, South African National Assembly Speaker Frene Ginwala, Noam Chomsky, Manning Marable, Film Maker John Pilger.” Democracy Now!, Dec. 29, 2000. www.democracynow.org/200029/12//end_of_millennium_conversation_sebastiao_salgad.

“Global Empire: A Conversation with Edward Said.” Tariq Ali, 1994. www.youtube.com/watch?v=YvR3qeroQ2M.

“In Conversation—Daniel Barenboim and Edward Said.” BBC, 2005.

“The MESA Debate: The Scholars, the Media, and the Middle East.” With Christopher Hitchens, Bernard Lewis, and Leon Wieseltier. Nov. 22, 1986. www.youtube.com/watch?v=hnVHuA6xlOo.

“Professionals and Amateurs”. Edward Said: Representations of the Intellectual, The Reith Lectures 4. BBC Radio 4, July 14, 1993. www.bbc.co.uk/programmes/p00gxqz0.

Raymond Williams and the Legacy of His Work. British Film Institute, 1989.

“The Reith Lecturer Interview: Edward Said.” BBC Radio 4, 1993 www.youtube.com/watch?v=7R-mOAtzEc4&t=449s.

مقدِّمات تعريفية بمفهوم الاستشراق بالڤيديو

Clip from Aladdin: www.youtube.com/watch?v=fgbuTSxky3A.

“Edward Said: An Introduction to Orientalism.” MACAT: Macat Analysis. www.youtube.com/watch?v=1aNwMpV6bVs.

“Orientalism” (Eilwen Jones). www.youtube.com/watch?v=UI-cbPX8hoI.

“Orientalism Explained” with clips from Disney’s Aladdin, Indiana Jones, Pirates of the Caribbean, and so on (Dania Khan and Sarah Kaddour). www.youtube.com/watch?v=dH4s7ezptv4.

المؤلف في سطور

تِمُثي بْرِنَن

■ يعمل مدرِّسا للعلوم الإنسانية في جامعة منيسوتا بالولايات المتحدة.

■ حاصل على زمالات من برنامج فُلْبْرايْت، والمجلس الأمريكي للجمعيّات العلمية، والمؤسسة الألمانية للبحث، والوقفية الوطنية للعلوم الإنسانية.

■ نشر له عدد من الكتب منها:

1 - At Home in the World: Cosmopolitanism Now

2 - Borrowed Light: Vico, Hegel, and the Colonies

3 - Salman Rushdie and the Third World: Myths of the Nation

ونُشرت كتاباته في مجلّتي The Times Literary Supplement، The Nation وغيرهما.

المترجم في سطور

محمد عصفور

■ حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا بالولايات المتّحدة في العام 1973.

■ عمل في عدد من الجامعات العربية.

■ شغل منصب رئاسة قسم اللغة الإنجليزية وعمادة كلية الآداب في أكثر من جامعة عربية.

■ عضو مجمع اللغة العربية الأردني.

■ له اهتمامات بحثية في الأدبين الإنجليزي والعربي.

■ له أبحاث باللغة الإنجليزية عن شلي، وسَدِني، وتوماس مور، وشيكسبير، والدكتور جونسُن، وجبرا إبراهيم جبرا. وله أبحاث بالعربية عن جبرا، ومحمود درويش، وأبي القاسم الشابي... إلخ.

■ من جهوده في الترجمة: ترجمة رواية جبرا «صيادون في شارع ضيق»، و«تشريح النقد» لنورثرب فراي، و«الرواية والأمة» لپاترك پارندر، و«جينالوجيا الدين» لطلال أسد، وثلاثة كتب لإدوَرْد سعيد.

■ صدرت له الأعمال التالية عن سلسلة «عالم المعرفة»:

1 - «البدائية»، من تحرير أشلي مونتاگيو، العدد 53.

2 - «مفاهيم نقدية»، لرنيه وِلِك، العدد 110.

3 - «البنيوية وما بعدها»، من تحرير جون سْتَرُك، العدد 206.

4 - «فجر العلم الحديث» (جزءان) لتوبي هفّ، العددان 219 و220.

■ نال جائزة مؤسسة الكويت للتقدُّم العلمي للترجمة (1982)، وجائزة جامعة فيلادلفيا للتميُّز في الترجمة (2004)، وأخيرا جائزة الدولة الأردنية التقديرية للتميُّز في الترجمة (2012).

■ من أهم كتبه: «نرجس والمرايا» عن جبرا إبراهيم جبرا، و«دراسات في الترجمة ونقدها»، وكتاب «درويش والسياب»، و«دراسات أخرى»، وقد صدرت جميعها عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير من العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

سعر النسخة	
الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية
الاشتراكات	
دولة الكويت	
للأفراد	15 د. ك
للمؤسسات	25 د. ك
دول الخليج	
للأفراد	17 د. ك
للمؤسسات	30 د. ك
الدول العربية	
للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	
للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1193/1153/ 1152

يمكنكم الاشتراك والحصول على نسختكم الورقية من إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب من خلال الدخول إلى موقعنا الإلكتروني:

https://www.nccal.gov.kw/#CouncilPublications

البيان	عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسة داخل الكويت	25		12		12		20		20	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		10	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24		24	
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12		12	
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		100
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		50
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		50
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		25

قسيمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
المدينة:	الرمز البريدي:
البلد:	
رقم الهاتف:	
البريد الإلكتروني:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا / شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / 20م

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

Withe

اتحاد الموزعين العرب

ARAB DISTRIBUTORS UNION

بيانات وكلاء التوزيع

أولاً: التوزيع المحلي – دولة الكويت

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	البريد الإلكتروني
1	الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	00965 24826820 /1/2	2482682300965 /	im_grp50@yahoo.com

ثانياً: التوزيع الخارجي

م	الدولة	وكيل التوزيع	رقم الهاتف	رقم الفاكس	البريد الإلكتروني
2	السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	00966114871414	121277400966 /12121766 –	bander.shareef@saudidistribution.com babiker.khalil@saudidistribution.com
3	البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	3661616800973 /17617733 –	1761774400973 /	cir@alayam.com rudainaa.ahmed@alayam.com
4	الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	00971 43916501 /2/3	4391801900971 /43918354 –	eppdc@emirates.net.ae info@eppdco.com essam.ali@eppdco.com
5	سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	2449139900968 /24492936 – 24496748 –	2449320000968 /	alattadist@yahoo.com
6	قطر	شركة دار الثقافة	4462218200974 /44621942 –	4462180000974 /	thaqafadist@qatar.net.qa
7	مصر	مؤسسة أخبار اليوم	00202 25782700/1/2/3/4/5 00202 25806400	2578254000202 /	ahmed_isaac2008@hotmail.com
8	لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	00961 1666314 /15	165325900961 / 165326000961 /	topspeed1@hotmail.com
9	تونس	الشركة التونسية	7132249900216 /	7132300400216 /	sotupress@sotup.com.nt
10	المغرب	الشركة الشريفية للتوزيع	00212522589912		المغرب - الدار البيضاء - سيدي معروف - ش ابوبكر القادري
11	الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	79720409500962 /6535885 –	6533773300962 /	alshafiei.ankousha@aramex.com basem.abuhameds@aramex.com
12	فلسطين	شركة رام الله للتوزيع والنشر	2298080000970 /	2296413300970 /	wael.kassess@rdp.ps
13	اليمن	القائد للنشر والتوزيع	124088300967 /	124088300967 /	alkaidpd@yahoo.com
14	السودان	شركة دار المصري للتوزيع	00249123078223		العنوان: السودان - الخرطوم - شارع البلدية - جنوب برج التضامن


Withe

إشعار

للاطـلاع علـى قائمـة كتـب السلسـلة انظـر عدد ديسـمبر (كانـون الأول) مـن كل سـنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.


Withe

عددنا المقبل

في النظرية السياسية النسوية

تأليف: أ. د. رعد عبدالجليل

د. حسام الدين علي مجيد

يمثّل هذا الكتاب مرجعا يعطي صورة بانورامية للنسوية في جانبها السياسي؛ وذلك بما يحتويه من تأصيلٍ نظريٍّ للنسوية، وعرضٍ تاريخيٍّ للموجات التي تبلورت خلالها، وسردٍ لأنواعها التي تختلف في المنطلقات والنتائج، وتقييمٍ لتطبيقاتها بعد أن تمكنت من ترسيخ أقدامها على أرض الواقع.


المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب



هذا الكتاب...

يصف الدكتور رشيد الخالدي، الأستاذ في جامعة كولمبيا، هذا الكتاب بأنه «يقدِّم صورة إدوَرد سعيد بكل أبعادها، ويكشف الزوايا العديدة لحياته وأعماله التي يجهلها أقرب المقرَّبين له». ويقول إن تِمُثي بْرِنَن يعطينا فيه صورة رثائية مرهفة لشخصية من أبعد شخصيات القرن الماضي تأثيرا.

كان إدوَرد سعيد شخصية محبوبة يختلف الناس بشأنها، وكان رائدا لدراسات ما بعد الاستعمار، وناقدا أدبيّا واسع الثقافة لاتزال كتبه، ولاسيما كتاب «الاستشراق»، تترك أثرا بليغا في الطلبة والمفكِّرين في هذه الأيّام. كان تِمُثي بْرِنَن تلميذا من تلاميذ سعيد، وبقي صديقا له حتى وفاته في العام 2003، وهو يعطينا في هذا الكتاب أوَّل سيرة كاملة للمشرف على أطروحته، ذلك المشرف الذي يتبيّن لنا من هذا الكتاب أنه كان مدافعا - برقّةٍ وبلاغةٍ - عن التأثير الذي يتركه الأدب في السياسة والحياة المدنية.

يتتبَّع الكتاب المسار الفكري الذي اتَّخذه سعيد، ويستنتج أنه كان من المحطِّمين اللامعين للأصنام التقليدية: كان صاحب إستراتيجية مخادعة، مفكّرا من مفكّري نيويورك، وكان يتردد على بيروت، ويعمل على ترتيب الحفلات الموسيقية في ڤايمار، ويبرع في سرد الحكايات على شاشة التلفزيون القومية، ويفاوض من أجل فلسطين في وزارة الخارجية الأمريكية، ويمثّل في أفلامٍ يؤدّي فيها دوره في حياته. وقد استقصى بْرِنَن التأثيرات العربية في فكر سعيد إلى جانب تَتَلمُذه على يد بعضٍ من رجال الدولة اللبنانيين. وكان حداثيّا نسيج وحده، وواحدا من أدباء نيويورك، وباحثا غيَّرتْ كتاباته وجه الحياة الجامعية إلى الأبد. وقد تمكَّن سعيد، بما يتميَّز به من فكر ثاقب وسحر شخصي، من صياغة هذه المعارف بحيث غدت تراثا مغايرا من المذهب الإنساني على خلفية التفوُّق العلمي والتكنولوجي والحرب الدينية. وقد أعطى للعلوم الإنسانية، بوضوح ليس له مثيل، مكانة جديدة في عصر ريغن، وهي مكانة لاتزال تحتفظ بها إلى يومنا هذا.

استفاد بْرِنَن من شهاداتٍ حصل عليها من عائلة سعيد، ومن أصدقائه، وتلاميذه، وخصومه على حدٍّ سواء، كما استعان بسجلّات مكتب التحقيقات الفدرالي وبكتابات سعيد غير المنشورة، ومسوّدات رواياته، ورسائله الشخصية. وبذا، فإن هذا الكتاب يرسم من المجال الفكري الواسع لسعيد، ومن التأثير الذي خلَّفه، صورة ذات حميمية لا سابقة لها لصاحبِ واحدٍ من أعظم العقول في القرن العشرين.



إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS

إدوَرد سعيد

تأليف: تِمثي برِنَن
ترجمة: محمد عصفور

ISBN 978 - 99906 - 0 - 701 - 7

492
مارس
2022